



مجلة النقد الأدبي

# فصول

دراسات الترجمة: البدايات والمسارات وأسئلة المستقبل  
مشاركات وإشكاليات في فعل الترجمة وحقل دراسات الترجمة

الترجمة، جماعات التلقي، اليوتوبيا

إعادة تأطير الصراع في الترجمة

تسوية الصراع: رفاة الطلحطاوي

وترجمة "الأخر" في مصر القرن التاسع عشر

نص وقرآن ثان: "صحراء" لوكليزيو

بين ساطلة الضياء والشعرية والبناء السردى

شعر الحياة اليومية

المشتون لعماد قنديل، تلك السيرة الروائية المقصودة

شخصية العدد: مجدي وهبة



العدد ٧٤ / خريف ٢٠٠٨

# فصول

مجلة النقد الأدبي  
علمية محكمة



ملف العدد  
الترجمة والثقافة

الهيئة المصرية العامة للكتاب





# فصول

رئيس التحرير  
هدى وصفي

نائب رئيس التحرير  
محمد الكردي

مدير التحرير  
ماجد مصطفى

المشرف الفني  
أنس الديب

السكرتارية  
أمال صلاح

جمع وتنضيد  
أمل علي

رئيس مجلس الإدارة  
ناصر الأنصاري

هيئة المشاورين  
سيزاقاسم  
صلاح فضل  
فريدال غزول  
كمال أبو ديب  
محمد برادة

قواعد النشر  
ألا يكون البحث قد سبق لنشره.  
يفضل أن يكون البحث مجموعاً  
بالحاسوب IBM أو مرقماً به  
القرص للدمج.  
على الباحث أن يرفق ببحثه  
نسخة مقصورة عن سيرته  
العلمية ومطعناً وأخيراً  
تعتبر المجلة عن عدم نشر  
الأبحاث التي يزيد عدد  
صفحاتها عن 15 صفحة من  
قطع المجلة أي ما يوازي 6000  
كلمة.  
لا ترد البحوث المرسلة إلى المجلة  
إلى أصحابها، سواء نشرت أو لم  
تنشر.  
يخضع ترتيب النشر لاعتبارات  
فنية.  
تقطع المجلة مكافأة لمكاتب  
البحوث المنشورة ويحصل الباحث  
على نسخة من المجلة.

- ٧ كلمة أولى .....  
٨ انتكاسية .....  
١١ ملخصات وتعليقات .....

## المجلد الثاني

- ٢٢ نقد ثقافي أم قراءة نقدية .....  
٢٣

## ● دراسات

- دراسات الترجمة: البدايات والمعارف وأسئلة المستقبل .....  
٣٦  
معارف وإشكاليات في فعل الترجمة وحقل دراسات الترجمة .....  
٤٩  
الترجمة، جماعات ثقافية، أوروبا .....  
٦٤  
إعادة تأطير الصراع في الترجمة .....  
٩٤  
تسمية الصراع، رعاة العلم الطهاري وترجمة "الأخر" في مصر القرن التاسع عشر .....  
١١٣  
سياسات الترجمة .....  
١٢٤

## ● ألقاب

- الترجمة والسلطة .....  
١٥٧  
ترجمة ما بعد المدخل الأسباني-الأمريكي: لمكاشفات حول تفسير الثقافة .....  
١٦٩  
الترجمة والثقافة: كتاب معاداة العرب في الأدب الإيراني المعاصر نموذجًا .....  
١٨٣

## ● كتب

- تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوربي .....  
٢٠٦

## المجلد الثالث

- شعرية السرد في ديوان "أجنحة الروح" .....  
٢٠٨

شعر الحياة اليومية ..... دلال بخش ٢٢٥

#### نص وقرائن

سلطة القضاء: قراءة في "صحراء" لوكينزو ..... محمد العبد ٢٥٢

الشعرية والتبني السري في رواية "صحراء" لجان-ماري ج. لوكينزو - لورينس كاريندو لويث/ ت: هالة عبد السلام ٢٦٥

#### الأساق

الفتن للفؤاد فتيل: تلك السيرة الروائية المتفرقة ..... حسن فتح الباب ٢٨٠

الرحلة إلى الشرق في مقابل الرحلة إلى الغرب: قراءة في "الطرف الآخر من البيت"، وثوب الغزالة، ..... يوسف الشاروني ٢٨٧

فانيليا... رواية تحاور النوع الروائي: الراوي عالم لكن ذاته منشطرة ..... سيد شيف الله ٣٠٥

الافتدي... رواية محمد ناجي ..... محمود عبد الوهاب ٣١٣

الحلم والوجه المأزق: قراءة في قصص (سكن الليل) ..... محمد لطف ٣١٨

#### مكتبات

دوريات بريطانية وأمريكية ..... ماهر شفيق فريد ٣٢٤

دوريات فرنسية ..... دينا الحسيني ٣٢٣

دوريات عربية ..... ماجد مصطفى ٣٤٨

ثلاث رسائل جامعية ..... ماهر شفيق فريد ٣٥٥

المؤتمر الدولي للنقد الأدبي العربي ..... إخلاص صفا الله ٣٦٢

فصول . نت ..... ماجد مصطفى ٣٦٨

#### شخصية العبد

مجدي وهبة رائد المعاجم الأدبية المتخصصة: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب نموذجًا ..... محمد طلبة نसार ٣٧٢

مجدي وهبة: بيليجراليا ..... ماهر شفيق فريد ٣٩٣





يحتفل هذا العدد الجديد من مجلة فصول ببقاء من المقالات والدراسات المتخصصة حول الترجمة، والترجمة نشاط إنساني يمارسه الأشخاص والمجتمعات لتتلاقح العلوم والمعارف والتخصصات، ولتنمو الحضارة وتتقدم الشعوب.

وكما تمكن الأسطورة القديمة عن برج بابل الذي كان سبباً في ظهور المترجم، ذلك الشخص ذو الدور الإنساني النبيل في إثابة الضوايق الفكرية والعرقية بين البشر، وصاحب الدور البارز في التفاهم والتفارب بين الثقافات.

ولا شك أن المجتمعات المنتجة للعلم والعرفية هي أكثر المجتمعات تقديراً لدور المترجم ووظيفته. وكلما ازداد المجتمع تقدماً وقدرة على الإنتاج المعرفي ازداد إقباله على الترجمة واهتمامه بالمترجم. ففي عصر تأمون كان عمل المترجم يوزن بالذهب، وفي عصر محمد علي كوفى رفاعة الطهطاوي عندما أنجز ترجمة كتاب الجغرافيا العمومية للطهطرون، بمنحه رتبة أميرالاي. وكان المشروع الفكري لرفاعة الطهطاوي هو "نقل وترجمة العلوم والمعارف العصرية" وكان من أدوات تحقيق هذا المشروع الحضاري إنشاء مدرسة الألسن وهي من أقدم المؤسسات العلمية التي أسهمت في تأسيس معالم المجتمع المدني الحديث في منطقتنا العربية.

ونحن في الهيئة المصرية العامة للكتاب نحرس على مواصلة هذا المشروع الحضاري الكبير والمساهمة فيه وتطويره، في الاتجاهين، الترجمة من العربية إليها. فإلى جانب إنجاز مشروع "تصدير الفكر العربي" من خلال ترجمة الأعمال الإبداعية والفكرية من العربية إلى اللغات الأخرى، فإننا نستمر ونواصل إنجاز مشاريع موازية في ترجمة الإبداع العالمي إلى لغتنا العربية.

ولأن مجلة فصول مجلة علمية متخصصة فقد اهتمت بمعالجة قضايا الترجمة من منظور علم الترجمة ودراسات الترجمة، ولذلك ضم هذا العدد دراسات في الترجمة أظن أنها ستحوز الإقبال من كل المهتمين بالترجمة علماً ودراسة. خصوصاً أن الاهتمام بعلم الترجمة ودراسته نشط في الأونة الأخيرة في جامعات العالم المتقدم وفي المراكز البحثية المتخصصة، لأن الترجمة ليست فناً فقط وإنما هي في طريقتها لأن تصبح علماً له مناهجه وأدواته وإجراءاته كما أن له مدارس متعددة التي نقرأ على صفحات هذا العدد طرفاً من إسهاماتها الثرية في هذا المجال.

والتحية للناقذة الأستاذة الدكتور هدى وصفي رئيس التحرير وفريق العمل في هذه المجلة التي نرجو لها التقدم والنجاح دائماً في تناول الجديد في قضايا الفكر والعرفية من وجهة نظر نقدية.

**ناصر الأنصاري**

**كلمة  
أولى**

يضم هذا العدد من مجلة فصول كما وأفرًا من الدراسات والمعالجات النقدية والترجمات التي تدور كلها حول الترجمة والدراسات الترجمة التي أصبحت تشغل حيزًا مهمًا بين مجالات الدراسة الحديثة في العلوم الإنسانية والبيئية، نظراً للدور الأساسي الذي تقوم به الترجمة في التواصل المعرفي والتفاهم بين الثقافات والأعراق والأجناس في الشرق والغرب.

وفي هذا العدد نقوم بتجربة جديدة في ملف العدد الذي خصصناه لموضوع "الترجمة والثقافة"، فقد استضفنا الباحث سامح فكري ليكون محرراً ضيفاً لهذا الملف، فقام باختيار عدد من المقالات في علم الترجمة لمجموعة من أعلام الدراسات الترجمة في الغرب، وقد كلفنا السادة المترجمين بترجمة المقالات وراجعها المحرر الضيف. وقد شكلت هذه المقالات التي تعالج قضايا الترجمة الراهنة القسم الأول من الملف وهو الدراسات، وجعلنا للملف قسماً ثانياً رأينا أن يضم مجموعة أخرى من المقالات في موضوعات تهم الباحث العربي في هذا الحقل المعرفي الجديد نسبياً. وهذه التجربة - تجربة المحرر الضيف - جديدة في مجلة فصول، ننفذها لأول مرة في هذا العدد.

وقد رأينا في مجلة فصول أننا لكي نلتزم بالاسم الذي أطلق عليها منذ بداية صدورها ولكي نصل إلى أربعة أعداد في السنة، فيجب أن نُحدث بعض التعديلات في أبواب المجلة، ذلك أننا حتى الآن نجدنا لا نتعدى الثلاثة أعداد في السنة نظراً لدسامة المادة المقدمة وأحياناً لتأخير بعض الدراسات المرتبطة بملف العدد، خباصة أننا الزمنا أنفسنا منذ البداية بمجموعة من الأبواب التي لاقت استحساناً من المثقفين ولكنها في الواقع تتسبب في تأخير ظهور المجلة لأنها تعتمد على مساهمات بعض الباحثين الذين قد تصادفهم ظروف تؤخر إرسالهم للمداخلات الخاصة بهم. إذاً فإننا نود أن نلتزم بما يلي:

١ - ألا يزيد عدد صفحات المجلة وهي مجلة من القطع الكبير عن ٢٥٠ صفحة لا ٤٠٠ صفحة.

٢ - ألا يزيد عدد كلمات البحث عن ٦٠٠٠ كلمة أي ما يوازي ١٥ صفحة من صفحات المجلة.

فإذا استطلعنا الالتزام بهذا الجدول مع إدخال بعض التعديلات أيضاً على بعض أبواب المجلة فإننا نستطيع أن نعدّ القارئ بأنه سيجد المجلة في الأسواق في مواعيد ثابتة وسيستطيع أن يقتني ٤ أعداد في السنة، فزجر من مبدعينا ونقادنا أن يساعدونا لكي نستطيع الالتزام بهذا المنهاج الجديد.

وفي هذا العدد أيضاً فرضت علينا جائزة نوبل بعض التغيير في باب نص وقرأتان خاصة أن لوكليزيو الذي حصل على هذه الجائزة هذا العام، من الكتاب الذين استجابوا للقيم الإنسانية العالمية، وناصر في كتاباته المجتمعات التي كانت ضحية قهر الاستعمار أيا كان شكل هذا القهر سواء كان للمجتمعات القديمة أو الحديثة. وفي هذا الباب أيضاً مغامرة جديدة للمجلة وهي أننا قدمنا نصاً فرنسياً مترجماً إلى العربية وهو رواية "صحراء"، بقرأتين: واحدة عربية وأخرى إسبانية، وفي هذا نموذج جيد لما يسمى حوار الثقافات.

كما أن شخصية هذا العدد مجدي وهبة أستاذ الأدب الإنجليزي الذي قام بدور رائد في ترجمة المصطلح الأدبي والنقدي والبلاغي بين العربية والإنجليزية والفرنسية. وهو يعد - بحق - رائد التأليف المعجمي في مجال المصطلحات الأدبية، ولا شك أنه وضع الأسس لهذا النوع من التأليف الصعب والبالغ الأهمية في مجال الدراسات المتخصصة.

نأمل أن يحوز هذا العدد إعجابكم ونشكر كل الجهود التي بذلت من أجل أن يظهر بهذه الصورة التي نراها متميزة.

١- الكتابة النسائية

٢- الرواية البوليسية

---



## الملخصات و التعريفات

### التعريفات

أمّنة يوسف محمد عبده / أحمد صديق الواحي  
/ ثيو هيرمانز / جاياتيري سبيفاك / حسام  
نايل / دلال بنت محمد بن طه بخش / سامح  
فكري حنا / علاء الدين محمود عبد الرحمن /  
لورانس فينوتي / ثورديس كاربيدو لويث / محمد  
العبد / محمد بهنسي / محمد عبد المطلب /  
منى بيكر / ميريّام سلامة كار / نجوى إبراهيم  
عبد الرحمن محمد / هالة عبد السلام أحمد  
عواد .

### الملخصات

نقد ثقافي أم قراءة ثقافية / دراسات الترجمة،  
البدايات والمسارات وأسئلة المستقبل / مشارقات  
واشكاليات في فعل الترجمة وحقل دراسات  
الترجمة / الترجمة، جماعات التلقي، اليوتوبيا  
/ إعادة تأطير الصراع في الترجمة / تسوية  
الصراع، رفاعة رافع الطهطاوي وترجمة "الأخر"  
في مصر القرن التاسع عشر / سياسات الترجمة  
/ شعرية السرد في ديوان "أبجدية الروح" / شعر  
الحياة اليومية / سلطة القضاء، قراءة في  
"صحراء" لوكليزيو / الشعرية والبناء السردى  
في رواية "صحراء" لجان-ماري ج. لوكليزيو .



## • النص الاستهلاكي:

### نقد ثقافي أم قراءة ثقافية

محمد عبد المطلب

تتناول هذه الدراسة مفهوم القراءة الثقافية بوصفها انفتاحاً للنص على أنساقه الثقافية التي أنتجته، لتصل من ذلك إلى الفارق بينها وبين القراءة الجمالية التي تحصر نفسها في البنية الداخلية فحسب، وخلال هذا الفارق، يمكن تبين ازدواجية القراءة الثقافية، من حيث كانت قراءة السطوح والأصاق، ومن حيث ازدواجية القراءة من النص إلى أنساق الثقافة، ثم من الأنساق إلى النص. وقد وجهت الدراسة عناية خاصة إلى أهم ظاهرة في القراءة الثقافية، ونعني بها: ظاهرة (التراكم) التي تحتاج من القارئ إلى ذاكرة حية، تعي علاقة اللاحق بالسابق، وهو ما يتنافى مع مقولات (القطيعة والانقطاع) التي نادى بها بعض الحداثيين، ذلك أن إعمال ظاهرة التراكم، يحول الأنساق إلى قوالب جامدة، ويحول القراءة إلى قراءة آلية، لا تعي ما يكتنزه النص من توتر، ولا ما يضمه من طبقات ثقافية، وقد وثقت الدراسة هذه الظاهرة بالوقوف عند (نسق الأطلال) في الخطاب الشعري التراثي، وكيف تحول من نسق حياتي، إلى نسق اجتماعي، ثم استقراره عند الأدبية، مع احتفاظه بعنصر الغد في كل تحولاته.

وبالضرورة، فإن القراءة الثقافية سوف تفارق القراءة الجمالية، إذ إن الأولى تفتح على الخارج والداخل على صعيد واحد، بينما الثانية ستكون منغلقة على الداخل وحده، فلا تحتمل التغير إلا في حدود ضيقة محكومة بتغير الذائقة. وقد اتجهت الدراسة إلى النظر في القراءة الثقافية وعلاقتها بالنص، بوصفها علاقة شبيهة بعلاقة (الدال بالدلول) بعيداً عن الاعتيادية التي قال بها سوسير، وهذه العلاقة تتخافى مع مقولة (الأغراض الشعرية) في ذاتها، لأن صلاحيتها رهينة بالنسق الذي ولدتها، ورهينة بتحوالاته التراكمية.

## • المؤلف:

### دراسات الترجمة: البدايات والمسارات وأسئلة المستقبل

سامح فكري

إن التراكم المعرفي الذي أنجزته دراسات الترجمة يتضح منذ ألقى جيمس هومز ورقته في مؤتمر كوبنهاجن ١٩٧٢، ومنذ عقدي الخمسينيات والستينيات نبعت تحولات من وعي عام لدى المشتغلين بالبحث في الترجمة ومعظمهم جاء من علوم اللغة، من أمثال رومان ياكوبسون ويوجين نايما وبيرت نيومارك، فقد انشغلوا بتحديد وحدة دراسة الترجمة، ثم شهرت محاولات أخرى رأت أن الثقافة هي المجال الحيوي الذي يتم فيه إنتاج الترجمة وتلقيها. وعلى الرغم من أن الإنجاز الأكبر الذي حققته دراسات الترجمة - منذ إيفان زوهار صاحب نظرية النسق المتعدد، وتلميذه جدمون توري الذي أنجز مفهوم "معايير الترجمة"، ثم ثيو هيرمانز و"مدرسة التحوير"، ولورانس فينوتي صاحب كتاب "خلفاء المترجم" - هو ربط الترجمة بالثقافة والنظر إليها بوصفها مرآة للثقافة التي تنتج فيها، فإن العديد من

التوجهات البحثية اهتمت برصد ظواهر الترجمة التي تتخبط في المجال السياسي والاجتماعي العام بغرض الاشتباك مع أفكار ومسلّمات يعينها بغية مساهمتها وطرح بدائل عنها. وظهرت أصوات منذ أواخر التسعينيات واستمرت حتى الآن، أمثال الناقدة التكتيكية جاياتري سبيفاك، والباحثين مني بيكر وميريام سلامة كار، رفضت فكرة أن تكون الترجمة مجرد انعكاس لممارسات ثقافية، بل يمكنها أن تكون جزءاً من الحل أيضاً.

### مفارقات وإشكاليات في فعل الترجمة وحقل دراسات الترجمة

ثيو هيرمانز / ت: محمد بهنسي

إن المترجمين لا يتحدثون بالأصالة عن أنفسهم ولكن بالنهاية عن شخص آخر؛ فنناغم الأصوات وكذلك العلاقة التراثية بينها يتم التعبير عنهما من خلال الضرورة الأخلاقية وغالباً القانونية التي تفرض على المترجم التزام اللطنة في النقل وعدم التدخل، وقد صاغ براين هاريس هذه الضرورة في تعبيره معيار "النطاق الأمين لبلسان المتحدث الأصلي" أو "الترجمان الحقيقي"، ويمقتضى ذلك المعيار فإن على المترجم إعادة تقرير الأصل بدقة وبساطة دون إضافة أو حذف أو تشويه... إننا تعلم، بطبيعة الحال، أننا حينما نشاقش الترجمة باستخدام لغة كهذه فإننا إنما نسلم بفكرة خيالية، فالترجمة لا يمكن أن تكون قريباً للنص الأب الذي نشأت منه، فهي تستخدم كلمات مغايرة، مأخوذة من مصدر مختلف وتستهدف بيئة مختلفة. زد على ذلك، فإن تدخل المترجم لا يمكن تحييده أو محوه بدون أن يخلّف ذلك أثراً ما، ومن ثم علينا أن نقبل بوجود هذه الآثار. في هذه الدراسة يود هيرمانز أن يوضح هذه النقطة عن طريق التذكير أولاً بحضور "الصوت الفارق" للمترجم في الترجمات، ثم تبيان تداعيات التوجه الذي يقوم على دراسة معايير الترجمة.

### الترجمة، جماعات التلقي، اليوتوبيا

لورانس فينوتي / ت: نجوى إبراهيم عبد الرحمن

لما كانت النظرة إلى النص المترجم تروى فيه نصاً مدموغاً بطابع محلي يكاد يعبر بصعوبة عن التواصل بين ثقافتين، فإن فعل الترجمة في هذه الحالة يدفع المنظرين إلى تفكير أخلاقي يسعى إلى اتخاذ تدابير تهدف إلى استعادة السمات الأجنبية للنص المترجم أو الحفاظ عليها. غير أن التفكير الأخلاقي الذي يعارض الآثار الناتجة عن المعالجة التقريبية للنص المترجم يستمسي تشكيله ووضعه موضع التنفيذ إلا على أساس من شروط محلية، ولهجات، ومستويات لغوية، وخطاب، وأساليب محلية في القيام الأول، الأمر الذي يعني أن أوجه التباينات اللغوية والثقافية الكامنة في النص الأجنبي تقتصر الإشارة إليها على نحو غير مباشر عن طريق إزاحتها وإحلال سمات لغوية وثقافية تنتمي إلى لغة المترجم وثقافته اللتين تحيلان إلي قيم ومؤسسات في ثقافته الوطنية. وعلى ذلك فإن الموقف الأخلاقي يتماشى مع أجندة سياسية ما يفتناها المترجم، إذ تصبح المعالجة التقريبية محور عملية إعادة الكتابة التي ينطوي عليها فعل الترجمة، كما تصبح محوراً لاستراتيجيات الخطاب التي تستهدف تغيير ترتيب قيم الثقافة المحلية، وهو ما ينخفض عن عمليات تستهدف إزالة الشعور بالألفة، وإعادة النظر في التراث، ونقد الأيديولوجيات، وتغيير المؤسسات. ولعل المترجم يري في مفهوم "المحلية" ذاته ما يستحق المداولة نظراً لما يبعثه من عدم تجانس ومفجئة وهو ما

يؤدي إلى تعقيد القوالب الفكرية النمطية القائمة، والأصول التراثية المعتمدة، والمقاييس التي تستخدم في عملية الترجمة.

### إعادة تأطير الصراع في الترجمة

منى بيكر/ ت: أحمد صديق الواحي

يتأسس هذا المقال على كل من نظرية السردية ومفهوم التأطير، الذي نشأ وتطور في أدبيات الحركات الاجتماعية، وذلك بفرض استكشاف الطرق المختلفة التي يستخدمها المترجمون في تعاملهم مع الجوانب الخلافية في السرديات التي يعبر عنها النص الأصلي (المكتوب أو المنطوق)، من تأكيد لتلك السرديات أو تقويضها أو تعديلها. يبدأ المقال بعرض للمنطلقات الأساسية التي يقوم عليها التصور السردى ومزاياه مقارنة بنظريات الترجمة الموجودة حالياً، ويمضى المقال بعد ذلك في تعريف لمفهوم التأطير كما يستخدم في خطاب الناشطين السياسيين، ثم يستعرض بعض المواضع - أو بعض النقاط في متن النص أو حواشيه - التي يمكن أن يتحقق فيها التأطير (أو إعادة التأطير)، مع التوضيح بأمثلة مختلفة لاستراتيجيات التأطير المستخدمة في الترجمة التحريرية أو ترجمة الأعمال الرئية على الشاشة. والأمثلة المستخدمة مستقاة من ترجمات بين اللغتين العربية والإنجليزية في سياق صراع الشرق الأوسط وما يسمى بـ"الحرب على الإرهاب"، وإن كانت القضايا النظرية التي يعرض لها المقال لا تختص بلغة معينة أو سياق معين.

### تسوية الصراع: رفاة رافع الطهطاوي وترجمة "الأخر" في مصر القرن التاسع عشر

ميريام سلامة كار/ ت: حسام نائل

تحلل هذه الورقة دور المترجم في تمثيل الآخر وبناء الهوية القومية، من خلال تناول عمل من أعمال رفاة رافع الطهطاوي، وهو مترجم مصرى وكاتب مقالات ومُعلِّم، عاش في القرن التاسع عشر الميلادي. فكتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، ينطوي على أمثلة وأقتران بخصوص عمليات الترجمة والتمثيل، وهي عمليات ذات طبيعة بنائية، تسعى إلى إسفاء الألفة والشرعية على "الأخر"، من خلال إنشاء علاقات توازن متطابقة ومجموعة من القيم والخبرات المشتركة. لقد قام الطهطاوي بعقد نوع من الصالحة بين خطاب الحدائد والتراث المعارضين، على نحو يمكن معه القول بأن قضايا التمثيل التي يثيرها في عمله على صلة دقيقة باهتمامات معاصرة في حقل الجغرافيا السياسية. والكلمات المفتاحية: "الثقافة البينية"، "الأخرية"، "النهضة العربية"، "بناء القومية".

### سياسات الترجمة

جايانثيري شيفالك/ ت: علاء الدين محمود

تتناول الناقدة التفكيكية في هذا الفصل أفكاراً خاصة بالترجمة في سياق فكري يعونه، ففكرة عنوان هذا الفصل تأتي - كما تقول الكاتبة - من شعور عالمة الاجتماع البريطانية ميشيل باريت بأن سياسات الترجمة تعيش حياة هائلة خاصة بها لو نظرنا إلى اللغة باعتبارها عملية لبناء المعنى. فربما تكون اللغة، من وجهة نظري، واحدة من عناصر كثيرة تجعلنا نضفي المعنى على الأشياء وعلى أنفسنا. أذكر، طبعاً، الإيمان، وحناءات الوقت الموقف

عن الكلام، لكنني أذكر أيمًا الصدفة، وحقول قوة الوجود المفردة التي تتفخ في الواقع المختلفة، وتتحول عن الخط المستقيم أو السحیح الذي ينظر إلى اللغة بوصفها فكرًا. أما إعطاء المعنى على أنلسنا فهو ما ينتج الهوية. فإذا أحسنا أن إنتاج الهوية بوصفها معنى ذاتيًا، وليس مجرد معنى، يظهر بصيغة جمعية مثل نقطة ماء تحت المجر، فإننا لن نكون راضين دائمًا، خارج المجال الأخلاقي السياسي في حد ذاته، عن "توليد" الأفكار وحدنا. وكما ذكرت الكاتبة في الفصل السادس من كتابها فإن إحدى طرق مقاومة دعوة التعددية الثقافية الرأسمالية إلى الهوية الذاتية والمنافسة تتمثل في إطلاق اسم "امرأة" على الآخر الذي يتعذر تخيله. وينطبق النوع نفسه من الدوافع بصورة أكثر قابلية للبحث والتقصي. وبما أن أحد طرق التغلب على قيود "هوية" الفرد الذي ينتج نثرًا وصفيًا تتمثل في العمل على عنوان شخص آخر على أساس أن الفرد يعمل على لغة تنتمي إلى آخرين كثيرين. وهذا، بعد كل شيء، إغراء من إغراءات الترجمة. إنه محاكاة بسيطة لمسئولية لأثر الآخر في الأنا.

### • النقد التطبيقي:

#### شعرية السرد في ديوان "أبجدية الروح"

آمنة يوسف

اتسع مجال الشعرية، بوصفها نظرية ذات صلة وشيجة بالمنهج البنيوي اليوم، ليشمل جميع الأجناس الأدبية. بما فيها فن الشعر دون أن يقتصر الأمر على فنون النثر المختلفة، كالرواية والقصة القصيرة. ذلك أن القصيدة نفسها أصبحت منفتحة على تقنيات سردية متنوعة، علاوة على أنها أصبحت منفتحة على تقنيات شتى مستمدة من الفنون الإبداعية المختلفة، كالسينما والتشكيل والموسيقى وما إلى ذلك، مثلما أصبحت الفنون الإبداعية والسردية المختلفة منفتحة على تقنيات القصيدة وأبرزها الإيقاع والتكثيف المجازي والتمناص. ولذلك نجد النقاد اليوم يتحدثون عن الرواية الشعرية أو عن "القصة-القصيدة" فيما يطلقون عليه بالنص المفتوح أو الكتابة غير النوعية. وفي قصائد "أبجدية الروح" للشاعر عبد العزيز القالح - موضوع الدراسة - تتجلى شعرية السرد باعتبارها ظاهرة فنية ميزت قصائد الديوان، وحفزت الباحثة إلى تتبع هذه الظاهرة الفنية في عدد من النماذج الشعرية التي تناولتها الدراسة.

#### شعر الحياة اليومية

دلال بخش

لما كانت الثقافة والأدب بحاجة مستمرة إلى ثورات تقنية تعيد موضوعة الأشياء والتصوص والكونيات الثقافية الأخرى، ولما كان شعر الحياة اليومية زمن المالك ساكنًا في جلته بطون الخطوط. ومحكومًا على القلة الناحية منه بالشعبية والحمق والجنون والإسفاف، برزت الحاجة إلى إعادة النظر في شعر الحياة اليومية في محاولة للتذوق والتنظير.

تتناول هذه الدراسة شيئًا من نصوص شعر الحياة اليومية الملوكية تحليلًا ومقارنة من أجل سير أفوار العمق والرمز والواقعية فيها، فتشاهد جوانبها المختلفة خلف ستار من التفسير والسخرية اللاذعة. وتتكشف الجقائق المسكوت عنها من مجامع وطبقة حادة وسخرة وأوبئة ... لقد سكن هذا النمط من الشعر الهامش في منظومة الشعر العربي قرونًا طويلة

لأسباب متباينة بينما تربع مماثلوه على عرش الشعر الغربي الحديث، ولعل يانيس ريتسوس والمعروف بشاعر الحياة اليومية وفرانسيس بونج والمعروف بشاعر الأشياء، هما خير مثالين على هذه الحفاوة.

وتقترح الدراسة بعد تحليل نماذج مختارة من شعر ابن نانيال والجزائر وغيرهما، إعادة النظر في نتائج هذه الحقبة برومتها وليس شعر الحياة اليومية فحسب بل وحتى شعر التجربة الشخصية وبعض الأنماط النثرية الأخرى، حرصا على تقصي الواقع الفعلي للثقافة العربية وتحقيق فهم أعمق لمكوناتها المختلفة والتي منحتها درجة عالية من الثراء والتنوع والحيوية.

• نص وقرءان:

سلطة الفضاء: قراءة في "صحراء" لو كليزيو

محمد العبد

تحليل الفضاء الروائي في رواية "صحراء" للأديب الفرنسي جان-جوستاف لو كليزيو الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٨ في إطار علاقاته بالعناصر التكوينية الأخرى لهذه الرواية من ناحية، وفي ضوء لسانيات الرواية واللسانيات التداولية من ناحية أخرى هو محور العمل في هذه القراءة. تشترك "صحراء" مع روايات أخرى لهذا الروائي الفرنسي العالمي في تخويل الفضاء سلطة خاصة على جميع العناصر الأخرى في العمل بما في ذلك الكيفيات التي تجري بها الأحداث وتستخدم بها اللغة وتتفاعل بها الشخصيات وما يكون لذلك كله من أثر في إنتاج وجهة النظر. وهذه القراءة الأولية دعوة للمشتغلين بالأدب المقارن لإتجاز دراسات موسعة عن طبيعة الفضاء ووظائفه بين الرواية العربية والرواية الغربية من منظور شعرية الفضاء الروائي واللسانيات التداولية في آن معا.

الشعرية والبناء السرد في رواية "صحراء" لجان-ماري ج. لو كليزيو

لورديس كاريكو لوبيش ت: هالة عبد السلام

عندما نُشرت رواية "صحراء" عام ١٩٨٠، وشغلت حداثاً فاصلاً في النتاج السردى الغزير لجان-ماري ج. لو كليزيو وقسمته إلى ما قبله وما بعده، فظهرت هذه الرواية. وتشمل فترة وما قبله بدءاً من روايته الأولى البازعة "المحضر الرسمى" ١٩٦٣، أما فترة وما بعده فهي تعني سكونا سردياً أكثر، حيث تم إثراء الخطوط العريضة للمغامرة بصورة متوازنة مع عنصرين آخرين: الأول ما يمكن أن يطلق عليه صورة الذات، والعنصر الآخر صورة الكتابة. وبالنسبة الدقيق بين تلك الميادين الثلاثة، فإن "صحراء" حققت اتزاناً دقيقاً ما بين كتابة الشرود وشرود الكتابة، وصيغت في نص بصوت مزدوج، فهو سردى كما هو شعري. والتأمل حول طرق مثل هذا المقتضى المزدوج ووظائفه، يشكل الهدف الأساسى لهذه الدراسة والذي يشير إليه عنوانها. ولا شك أن البناء الأساسى لـ "صحراء" بناء سردى حيث تُروى حكاية - ولكنهما هنا حكايتان- وفقاً لتتابع مكاني وكذلك سببي. ولكن "صحراء"، في الوقت ذاته، تقدم خيمنة من الشعرية التي ألفت، من خلال استراتيجية استطرادية بعينها، على النص شخصنة انتقالية أكبر، وكثافة تصويرية خاصة وإيقاعية. كل ذلك أسهم في تشكيل عالم سردي خاص منطلقاً من طريقة فريدة للحلم والإفصاح عن العالم بصورة أكثر حرية وأكثر جمالا.

آمنة يوسف محمد عبيد (يمثلية):

شاعرة وقاصة وأكاديمية. لها: "تقنيات السرد في النظرية والتطبيق" ١٩٩٧، "شعرية القصة القصيرة في اليمن" ٢٠٠٣، "جوقة الوقت" (قصص) ١٩٩٧م، وثلاثة دواوين: "قصائد الخوف" ١٩٩٧، "انكسارات" ٢٠٠٢، "علميني الحب يا رؤى" ٢٠٠٤.

أحمد صديق الواحي (مصري):

أستاذ مساعد اللغويات بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآلسن، جامعة عين شمس. حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٧ وعمل بجامعة عين شمس وجامعة الملك سعود. نشر عددا من الأبحاث في النحو الوظيفي وتطبيقاته، وفي دراسات الترجمة واللغويات الثقافية، إضافة إلى عدد من الترجمات.

ثيو هيرمانز (هولندي):

أستاذ الأدب الهولندي والأدب المقارن ودراسات الترجمة ومدير مركز الدراسات الثقافية بجامعة لندن. حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة أريك بالملكة المتحدة. حرر وألف العديد من الكتب والمقالات في دراسات الترجمة والثقافة، فضلا عن ترجماته الأدبية. من أهم الكتب التي أصدرها - تأليفًا وتحريراً -: "بنية الشعر الحديث" (١٩٨٢)، "تحويل الأدب: دراسات في الترجمة الأدبية" (١٩٨٥)، "تعديات عبر ثقافية: نماذج البحث في دراسات الترجمة" (ترجم إلى العربية تحت عنوان جوهر الترجمة ونشرت النسخة العربية في المشروع القومي للترجمة)، "الترجمة في أنساق" (٢٠٠٤)، "اجتماع الألسنة" (٢٠٠٧). يشغل العديد من المناصب الشرفية، أهمها رئاسته للمجلس التنفيذي للجمعية الدولية لدراسات الترجمة والثقافة.

جايانثيري سبيفاك (هندية):

أستاذ ومدير معهد الأدب المقارن والمجتمع بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة. حصلت على درجة الدكتوراه في حياة وشعر الشاعر الإنجليزي و. ب. ييتس تحت إشراف الناقد التفكيكي بول دي مان. ترجمت كتاب دريدا علم الكتابة إلى الإنجليزية وقدمت له في نص تحليلي أكسبها شهرة واسعة ليس فقط كمترجمة وإنما كمساهمة بارزة في النقد التفكيكي. وتعد مقدمتها للترجمة الإنجليزية لكتاب دريدا نموذجاً لوعي المترجم بذاته وموقفه من النص الذي يترجم واللغة/الثقافة التي يترجم إليها. ألقت وحررت العديد من المقالات والكتب التي شكلت علامات فيما يسمى الآن "دراسات التابع". من أبرز المنشورات التي صدرت لها: في عوالم أخرى: مقالات في السياسات اللغوية (١٩٨٧)، و الناقد ما بعد الكولونيالي (١٩٩٠)، نقد العقل ما بعد الكولونيالي (١٩٩٩)، وموت حقل معرفي (٢٠٠٣).

حسام نابل (مصري):

ماجستير الآداب في النقد والبلاغة المعاصرة عام ٢٠٠٤م (آداب القاهرة). باحث مصري يزوج بين منظوري دريدا ودي مان في التفكيك. من إنتاجه العلمي: صور دريدا (تحرير وترجمة- القاهرة، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٢م). المجلد الثامن من موسوعة كمبريدج في

تاريخ النقد الأدبي (مشاركة في الترجمة- القاهرة، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٦). أرشيف النص: درس في البصيرة الضالة (تأليف- سوريا، دار الحوار ٢٠٠٦). البنيوية والتفكيك: مداخل نقدية (تحرير وترجمة- الأردن، دار أزمدة ٢٠٠٧). مدخل إلى التفكيك (تحرير وترجمة- القاهرة، سلسلة آفاق عالمية ٢٠٠٨). استراتيجيات التفكيك (ترجمة وتأليف- تحت الطبع). تفكيكات وتأويلات في النص الأدبي المعاصر (تأليف بالاشتراك- تحت الطبع).

#### دلال بخت محمد بن طه بلخس (سعودية):

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك عبدالعزيز. حاصلة على ماجستير في الأدب العربي القديم (جاهلي) ١٩٩٩، ودكتوراه في الأدب العربي القديم (إسلامي وأدبي) ٢٠٠٣، من جامعة لندن، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية.

#### سامح فكري حنا (مصري):

باحث ومُحاضر في دراسات الترجمة والثقافة في جامعة سالفورد بالملكة المتحدة، وعضو مؤسس للجمعية الدولية لدراسات الترجمة والثقافة. حصل علي الدكتوراه من جامعة مانشستر عام ٢٠٠٦ وكانت أطروحته حول ترجمات مآسي شكسبير الكبار في مصر من وجهة نظر سوسولوجية تستند إلى إنجاز عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو حول سوسولوجيا الإنتاج الثقافي. عمل باحثاً في دراسات الترجمة في جامعة لندن لمدة عام في إطار برنامج بحوث الإنسانية الذي تدعمه مؤسسة ميلون الدولية. فضلاً عن ترجماته لعدد من الدراسات المسرحية إلى العربية ألف وحرر عدد من الدراسات حول سوسولوجيا الترجمة والتاريخ الاجتماعي للترجمة في مصر منها مدخل التراث العربي في الترجمة (مع مني بيكي) في الطبعة الثانية من موسوعة راولدنج في دراسات الترجمة (٢٠٠٨)، أوراق غير دورية في دراسات الترجمة (٢٠٠٦)، هاملت نهاية سعيدة: نشأة حقل الترجمة للمسرح في مصر (٢٠٠٥)، عطيل في العربية: الترجمة وابتداء/هدم الهوية (٢٠٠٥)، شكسبير والمسرح غير التجاري: ترجمة خليل مطران لمسرحية عطيل (٢٠٠٧). يعمل الآن علي تحرير كتاب عن ترجمة العالم العربي/الترجمة في العالم العربي، وهو حالياً أحد محرري المجلة الإلكترونية المحكمة الصادرة بالإنجليزية أصوات جديدة في دراسات الترجمة.

#### علاء الدين محمود عبد الرحمن (مصري):

مدرس مساعد اللغة الإنجليزية بالأكاديمية الحديثة بالمعادي. حصل على الماجستير في اللغة الإنجليزية بكلية الألسن، جامعة عين شمس ٢٠٠٤ وعنوان الرسالة (دراسة نقدية ثقافية لديوان الشاعر كاويتي كُين "فُعْدَة أشعاري"). ترجم كتاب "بلزوني في مصر" (المشروع القومي للترجمة) ٢٠٠٥، وشارك في ترجمة موسوعة جينيس للأرقام القياسية (المجموعة الثقافية المصرية) ٢٠٠٠. وشارك في عدد من المؤتمرات القومية والدولية في مجالات اللغويات والترجمة والأدب والنقد. يعمل محرراً صحفياً في مجلة "كوميونتي تايمز" الصادرة باللغة الإنجليزية في القاهرة.



### لورانس فينوتي (أمريكي):

أستاذ الأدب الإنجليزي ودراسات الترجمة والترجمة الأدبية وتاريخ الترجمة في جامعة تيمبل بالولايات المتحدة الأمريكية. حصل على الدكتوراة من جامعة كولومبيا عام ١٩٨٠ وانخرط بعدها في الترجمة إلى الإنجليزية ممارسة وبحراً، حيث ترجم عن الفرنسية والإيطالية أصلاً للعديد من الكتاب منهم ديلو بوتراتي، جاك دريدا، أنطونيا بوتزي، والدو روسي. حرر وألف العديد من الكتب والمقالات في دراسات الترجمة أهمها كتابه الأشهر خفاء المترجم: تاريخاً للترجمة (١٩٩٥)، وإعادة التفكير في الترجمة: والخطاب والذاتية والأيدولوجيا (١٩٩٢)، وفضائح الترجمة: نحو أخلاقيات للإختلاف (١٩٩٨).

### لورنس كاريندو لويث (إسبانية):

أستاذة الأدب بكلية فقه اللغة، قسم اللغة الفرنسية، بجامعة "كومبلوتنسي" Complutense بمدريد، إسبانيا. نشرت ثلاث عشرة مقالة، وشاركت في تأليف ثمانية كتب. وهذا العمل هو ضمن مشاركتها في الملتقى: الدراسات الفرنسية والفرنكوفونية. وقد نشر دراستها عن رواية "صحراء" في مطبوعات جامعة "لا ريوخا" La Rioja، في المجلد الأول عام ٢٠٠٤، في الصفحات ٤٨٥-٤٩٨.

### محمد العبد (مصري):

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الألسن، جامعة عين شمس. له عدد من المؤلفات التي تهتم بالظاهرة اللغوية إبداعاً وبنية، منها: "إبداع الدلالة"، و"اللغة والإبداع الأدبي"، و"المراقبة القرآنية"، و"اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة"، و"المباراة والإشارة"، و"الكفاءة اللغوية والكفاءة الاتصالية"، و"الحدث اللغوي: مفهومه وأنواعه"، و"النص والخطاب والاتصال". كما نشر العديد من الدراسات والمقالات بالمجلات الثقافية، والمختصة.

### محمد بهنسي (مصري):

مدرس الشعر والنقد بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن، جامعة عين شمس. ماجستير الألسن في الأدب الإنجليزي عن "دراسة بنيوية للبنية الأسطورية في أعمال إيزابا باوند المبكرة"، ودكتوراه الألسن عن "دراسة تأويلية مقارنة للخيال والرؤية في الأعمال الرئيسية لوليم بليك وييتس".

### محمد عبد المطلب (مصري):

أستاذ النقد والبلاغة بكلية الآداب جامعة عين شمس. له العديد من الدراسات، من أهمها: "انجاعات النقد والبلاغة في القرنين السابع والثامن الهجريين"، "جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم"، "قصايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني". "تقابلات الحداثة في شعر السبعينيات"، "قراءات أسلوبية في الشعر الحديث"، "البلاغة العربية قراءة أخرى"، "بلاغة السرد النسوي"، "النص المُشكّل".

منى بيكر (بريطانية من أصل مصري):

أستاذ دراسات الترجمة بمركز دراسات الترجمة والتشاقف في جامعة ماشستر. عضو مؤسس ونائب رئيس المجلس التنفيذي للجمعية الدولية لدراسات الترجمة والتشاقف. ألغت وحررت العديد من المقالات والكتب من أهمها تحريرها لموسوعة راوتلج في دراسات الترجمة التي صدرت الطبعة الثانية منها عام ٢٠٠٨، هذا بالإضافة إلى كتابها الهام الترجمة والصراع: رؤية سردية (٢٠٠٦) وكتابها بعبارة أخرى (١٩٩٢). بالإضافة إلى رئاستها لتحرير مجلة المترجم، تقوم الآن بتحرير كتاب مفاهيم نقدية: دراسات الترجمة، وقراءات نقدية في دراسات الترجمة اللذان سيصدران عن دار راوتلج عام ٢٠٠٩.

ميويام سلامة كار (بريطانية من أصل مصري):

أستاذ دراسات الترجمة بجامعة سالفورد في المملكة المتحدة. حصلت علي الدكتوراة في الترجمة من جامعة السوربون عام ١٩٨٢. اهتمت منذ حصولها علي الدكتوراة بإجراء العديد من الأبحاث حول تاريخ الترجمة في التراث العربي. ألغت وحررت العديد من المقالات والكتب، من أهمها الترجمة في العصر العباسي (١٩٩١)، وترجمة الأدب الفرنسي والسينما الفرنسية (٢٠٠٠)، وترجمة الصراع (٢٠٠٧). آخر ما نشرته دراسة مقارنة عن الترجمتين الإنجليزية والفرنسية لكتاب مريد اليرغوثي وأبت رام الله.

نجوى إبراهيم عبد الرحمن محمد (مصرية):

مدرس اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس. إن استقراء النص المسرحي الغربي، يكشف عن مبدأ جوهري تتمحور حوله جملة من الصيغ المسرحية، وإن تعددت أشكالها وتباينت توجهاتها، إلا أنها في كل أنوارها تعبر عن إشكالية واحدة علي مر العصور. تلك هي

هالة عبد السلام أحمد عواد (مصرية):

أستاذ مساعد الأدب الإسباني والترجمة، بكلية الألسن، جامعة عين شمس. لها العديد من الترجمات الأدبية والنقدية بالعربية والإسبانية. من بين من ترجمت لهم: بارغس يوسا، بويرو بايخو، خوليو كورتاثر، خوسيه ماري مرينو، خايميير طوميو، دومينجو باديا، كارمن رويث، علي منصور. لها نحو عشر دراسات بالعربية والإسبانية نشرت بمصر والخارج.



# نقد ثقافي أ قراءة ثقافية



محمد عبد المطلب

(١)

لقد آثرت مصطلح (القراءة الثقافية) على مصطلح (النقد الثقافي)، ذلك أن النقد في صلبه بالأدب يعتمد الكشف عن طبيعته الأدبية، متوسلاً بالشرح والتحليل بهدف الوصول إلى إصدار الحكم بالجودة وسواها.

وطبيعة هذا النقد أن يكون لاحقاً للإبداع، دون أن ينفي ذلك وجود نوع من النقد يمكن أن نسميه (النقد الموجه) أو (النقد المنتج) ونعني به ذلك النقد المبشر بإبداع جديد ذي مواصفات مفارقة للإبداع السائد، وشرط هذا النقد أن يكون على وعي كامل بما سبقه أو عاصره من إبداع ونقد، حتى لا تكون حركته في خواء تنظيري لن يكون له إنتاج مواز بحال من الأحوال.

أما فعل القراءة، فهو فعل ذو مستويين مترابطين، المستوى الأول، يمكن أن نطلق عليه (القراءة الجمالية) التي تتابع ظواهر التعبير إفراناً وتركيباً ومدى التزامها بمرجعيتها المعجمية، أو انتهاكها لهذه المرجعية، ومن ثم يتمكن القارئ من الوصول إلى المنتج الدلالي العام، وهذه القراءة في حاجة إلى (الكفاءة اللغوية).

أما المستوى الآخر، فالقصد به تلك القراءة التي تتجاوز أفق الجمالية التي ناوشتها في مواجهة النص، ثم تتسلط على المنتج الدلالي لترده إلى مرجع الثقافي الذي ولد أنساقه الدلالية، وإذا كان المستوى الأول في حاجة إلى الكفاءة اللغوية، فإن المستوى الثاني في حاجة

إلى (الكفاءة الثقافية)، وكما قلنا: إن بين المستويين ترابطاً حميماً، ذلك أن العلاقة بينهما علاقة جدلية، إذ لا لغة بلا ثقافة، ولا ثقافة بلا لغة.

لهذا كله آثرنا مصطلح (القراءة) على (النقد) حتى لا نلحق في شرك إصدار الأحكام التي تتسلط على الثقافة أكثر من تسلطها على النص، وهنا يتحول (النقد الثقافي) إلى (نقد ثقافي).

## (٢)

إن القراءة الثقافية، هي تلك التي تتجه إلى النص، تتأمله بهدف رده إلى الأنساق الثقافية التي تدخلت في إنتاج خطوط الدلالة، سواء تلك الخطوط الطولية التي تتحرك بالعين إلى الأمام، أو تلك التي تلمس الطريق أمامه، ومن هذه وتلك يتحقق ما نسميه (الوعي التكاملي)، وهذه الخطوط الطولية تتعاقب مع الخطوط الرأسية التي تحفر في الدلالة للوصول إلى منابحها العميقة أو الضمرة، أي الوصول إلى الطبقات الثقافية المترسبة في هذه الأعماق.

ويجب التنبيه إلى أن القراءة التي نقصدها قراءة مزدوجة الحركة، فهي تتحرك على السطوح التي تنبئ للقراءة العادية، ثم تتجاوزها إلى الحركة العميقة التي تكشف الأفق، وتنهك الحجب، سواء أكانت أفقاً شائعة أم كثيفة، لكن عنايتها بالأفق الشائعة قد تكون هي الأهم، لأن شفافيتها خادعة، توهم بغير ما تشير إليه، وتلون شفافيتها بألوان براق، تضلل القارئ، وتحول بينه وبين خبيثتها الساكنة وراء القناع.

وهنا نحذر من الخطأ المنهجي الذي وقعت فيه بعض القراءات الثقافية، ذلك أن القراءة الصحيحة — من وجهة نظرنا — هي التي تبدأ من النص لتربطه بأنساق ثقافته، أما الخطأ المنهجي، فهو الذي يعكس هذا المسار، إذ يبدأ من أنساق الثقافة لكي يصل منها إلى أنساق النص، وهو ما يعني أن القارئ يقدم على القراءة مشحوناً بما يخزنه في ذهنه، ويتعامل مع النص بسلطة هذا الخزون، لا بما في النص ذاته، وقد يقوده ذلك إلى تحميل النص بما ليس فيه، وإرغامه على تقبل تأويلات وتفسيرات لا صلة له بها، وفي اتجاه معاكس، قد يحمل أنساق الثقافة بسلبيات النص وسلبيات منتجه.

وليس معنى هذا أن يقدم القارئ على قراءة النص مغرغ الذهن تمامًا، بل إن صحة القراءة الثقافية، أن يمتلك القارئ ذاكرة ثقافية حية ونشطة، وأن يمتلك وعياً ثقافياً عميقاً، وهذا لا يعني أن يقبل على النص مستحضرًا أنساقاً يعينها يبحث عن صداها في النص، ليحملة بأوزارها طوعاً أو كرهاً.

إن إقدام القارئ على القراءة بذاكرة مفرغة من المرجعيات الثقافية تمامًا،

يعني أن قراءته سوف تحصر نفسها في النسق الجمالي وحده، وهو نسق — غالباً ما — يلامس الواقع الحاضر ملاسمة ناعمة جيلاً، وخشنة جيلاً آخر، كما أن هذه القراءة مستقل لصيقة صاحبها، وقد تتحول إلى إسقاط له، بل إنها قد تتحول إلى مرآة مسطحة تعكس

الظاهر المباشر، دون أن تترك أن هذا الظاهر ستار لمضمورات الوعي الساكنة، أو الفاعلة في المساحة الزمانية والمكانية التي نبثت فيها، ومن ثم يغيب من القراءة نافذة من أهم التوافد، هي نافذة الإطلال على الماضي وصلته بالحاضر، سواء أكانت هذه على التوافق أم على التخالف.

إن اتجاه القراءة للجمالي وحده، يعني ميلها إلى العموم المشترك، لأن الجمالي — بطبعه — نسق مشترك، لأنه وهين الوعي اللغوي، واللغة ملكية عامة للمتعاملين بها، ولا كذلك القراءة الثقافية، لأن لكل نص مرجعيته الثقافية التي يعيها قارئ، ولا يعيها آخر، أما المرجعية الجمالية فلنكاد تكون واحدة، أو مقاربة على أقل الأقوال.

وليس معنى هذا أن تهمل القراءة الثقافية الأنساق الجمالية، وإنما يمكن أن ننظر فيها بوصفها إشارات مظهرية لخلفيات ثقافية مبشرة، كما يجب الحذر من أن تكون هذه الإشارات خادعة، حيث يكون النسق الجمالي هو المستهدف الأول، بل ربما يكون هذا النسق الجمالي هو النسق الثقافي ذاته، أي أن الإشارة تكون مرجعيتها إلى ذاتها، ذلك أن ركيزة الجمالي اللغوي أولاً، واللغة — بالضرورة — نسق ثقافي يكاد يستوعب كل الأنساق، وهي التي تمتلك قدرة التمييز بينها، ووضع الحدود المعرفية الفارقة لها، ومن ثم لم يكن غريباً أن يربط اللغويون بين ظهور اللغة وما أسموه (الواضحة) التي تعني الاتفاق الثقافي على ربط الدال بالمدلول، وإذا كانت هذه الواضحة تبدأ اعتبارية عشوائية، فإنها تتحول — بالاستعمال — إلى علاقة (عرفية) أي أن المجتمع اعترف بها أداة للتواصل، وهو ما أشار إليه ابن جني عند تعريفه للغة بقوله:

”إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم“<sup>(٣)</sup>

من الواضح أن هذه الدراسة اعتمدت بعض الثنائيات الأساسية، إذ لاحظنا ازدواج القراءة الثقافية بين السطوح والأعمق، وتلازم هذه الثنائية مع ثنائية الثقافة والنص، حيث تبدأ القراءة من النص لترتد منه إلى الثقافة، وقليل ما تبدأ القراءة من الثقافة لتتصعد إلى النص، وهي مع القلة تمثل خلاصاً منهجياً، وكل ذلك يعود إلى ثنائية (الأخذ والعطاء) فالنص يستحضر أنساقاً ثقافية غائبة، وقد يقوم هو بإنشاء هذه الأنساق، إذ تبدأ على نحو ضبابي، ومع الإلحاح عليها تتحول إلى عمود من أعمدة الثقافة، فالنص يأخذ ويعطي في الوقت نفسه.

### (٣)

وفي رأينا أن الركيزة الأساسية في القراءة الثقافية، هي ركيزة (التراكم) لأنه هو الذي يكسبها نوعاً من الشمول الراسي والأفقي، فالتراكم هو الذي يستحضر (العلاقات) الرسوبية لكل نسق ثقافي على حدة، ثم يربط بين الأنساق — في مجملها — على وجه العموم، على أن يلاحظ أن هذه الأنساق تأتي مغلفة بالجمالي حيناً، وبالنفسي حيناً، والاجتماعي حيناً، والعلمي حيناً، والعقدي حيناً، واللغوي في كل الأحيان.

وهذا التراكم الصريح أو المغلف، يتنافى مع مقولة (القطيعة والانقطاع) هذه التي تفصل اللاحق عن السابق، ذلك أن الوعي الثقافي الصحيح يرى اللاحق أبناً شرعياً للسابق، بينما مقولة الانقطاع، تجعل اللاحق أبناً لقطيعة، ليس له أباء، ومن ثم أن يكون له أبناء.

ومن خصوصية (التراكم) أن تصحبه ذاكرة نشطة، تعي مخزونها، وتعني تراكمه، الذي ينتقل النسق الثقافي من ألفة الذي شهد مولده، ثم احتفظه ليسل به إلى الواقع الجديد بكل محتوياته التي يمكن أن تكون استناداً للسابق، ويمكن أن تكون تنويماً عليه بالحذف والإضافة، بل يمكن أن يكون الامتداد على التناظر والصدية.

إن إعمال التراكم يحصر القراءة في زمن واحد، وغالباً ما يكون هو الزمن الأخير، ومن ثم تقع الأنساق التراثية والتقدمة عموماً تحت طائلة الرفض، ولعل هذا ما نتابعه في بعض القراءات الثقافية التي أجهدت نفسها في حصر أوزار هذا الزمن الأخير وتحصيل الماضي مسؤوليتها، متناسية أن القراءة المنصفة قد تلاحظ كيف أن الأنساق التراثية قد تكون مضادة لهذه الأنساق الطارئة بكل محتوياتها الرفضية، إن إغفال التراكم هو الذي يؤدي إلى مثل هذه القراءة العمياء.

من ناحية أخرى نقول: إن إعمال التراكم في أنساق الثقافة، يكاد يحيلها إلى قوالب جامدة، وهو ما يجعل قراءتها قراءة آلية، على معنى أن هذا النسق الأدبي يوازي هذا النسق الثقافي، وكأننا نستعيد علاقة (الدال بالمدلول) فإذا حضر الدال استدعى المدلول ضرورة، وهي علاقة لم يخرعها التراث اللغوي دالماً برغم ارتباطها بالواقعة، إذ ظهر من يقول (بإستثناف الوضع) تبهماً للتطور الحضاري، وعلى الرغم من ذلك فإن القراءة الآلية تصر على هذا الربط للتصنف بين النسق الثقافي والنسق الأدبي، بل إنها تصعد إلى الربط بين النسق الأدبي ووقائع المجتمع وشخصه على نحو تصفي.

وفي حديثنا عن (التراكم) يجب أن ننتبه إلى أن القراءة الثقافية لا تكتفي برد النص إلى أنساقه الثقافية، بل عليها أن تلاحظ تحول النسق الثقافي - في مراحله المتأخرة - إلى نسق أدبي، أي أن النسق أصبح نسقاً مركباً يجمع بين الثقافي والأدبي، ويمكن توليف هذه الحقيقة بإعادة قراءة بعض الأنساق الراسخة في الثقافة العربية، وفي مقدمتها (الوقوف على الظلل) الذي يعد نموذجاً مثالياً لظاهرة التراكم الثقافي، إذ إن الوقوف الظللي - في الأصل - كان مكوناً طبيعياً أنتجته بيئة الصحراء بكل ظواهرها المحفوظة، وهذه الظواهر هي التي استحشرت النموذج التكويني للظل، "فالظل ما شخس من آثار الديار"<sup>(١)</sup>، ومع التراكم، تحول هذا النسق الحياتي إلى نسق اجتماعي يعكس هذا العالم الصحراوي القاحل، كما يستدعي تواجه من رحيل القبائل من مكان إلى آخر طلباً للماء والكأ، وهم في رحيلهم يتركون وراءهم آثار ديارهم دالة عليهم، وحافظة لذكرياتهم فيها.

وقد صعد هذا النسق من طبيعته الحياتية إلى طبيعته الاجتماعية ليصبح نسقاً أدبياً اكتسب نوعاً من القداسة في التصيدة الجاهلية، وكان الخروج عليه - جرئاً لهذه القداسة -

ومن ثم جاء الصعود الأخير لهذا النسق ليتحول إلى (سلطة ثقافية) لا يجوز الخروج عليها، يقول ابن قتيبة: "وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، وببكي عند مشهد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر، والرسم العالي".<sup>(٣)</sup>

ومع التطور الحضاري، انسحب النسق الطبيعي بعد غياب عالم الصحراء غيائياً جزئياً، وظهور التمدن، ثم انسحب النسق الاجتماعي بعد أن عرف العرب الاستقرار في القرى والمدن، ومن ثم أخذت الظواهر الظلية في الغياب من عالم العيان، وإن ظلت ساكنة عالم الوعي، ودخل النسق الأدبي الأخير، وبرغم انسحاب الأبعاد الحيادية والاجتماعية، ظل للظل — بوصفه نسقاً أدبياً — علاقة حميمة بتركاناته الصابغة، وهي علاقة نفسية بالدرجة الأولى، إذ يجمع هذه التحولات التسمية (إحساس اللقد).

وقد أشرنا إلى أن التطور الحضاري كان أثره مباشراً على (نسق الظل) وهو ما دفع بعض الشعراء إلى التمرد عليه، وفي مقدمتهم أبو نواس، وإن كان تمرداً ترموياً شكلياً فحسب، إذ ظل للوقوف الظلي حضور من نوع ما، وهو ما عبر عنه أبو نواس بقوله:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لأهنة الكرم

معنى هذا أن هذا النسق الثقافي دخل مرحلة (الصدام الثقافي)، وهي غالباً ما تحضر في مراحل التحول التي تحتل مثل هذا الصدام بين واقع آخذ في الغياب، وواقع آخذ في الحضور، لكنه برغم غيابه احتفظ بمكانته في الذاكرة الواعية وغير الواعية، لكن المؤكد أن التمرد الفردي عند أبي نواس، قد استحال إلى تمرد جماعي مع القصيدة العباسية، حيث غابت المقدمة الظلية أولاً، ثم غابت المقدمة — عموماً — ثانياً.

ومن ثم لاحظنا أن السلطة النقدية قد عدلت موقفها الذي جسده ابن قتيبة، إذ وجدنا ابن رشيق يقول صراحة: "وكانوا قديماً أصحاب خيام، ينتقلون من موضع إلى آخر، فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار، فتلك ديارهم، وليست كإهنية الحاضرة، فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً، لأن الحاضرة لا تنسبها الرياح، ولا يحومها المطر، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيش أحد من أهل الجيل".<sup>(٤)</sup>

لهذا كله، ولسواء، أصبح الظل واقعة ثقافية تناوبت عليها التقسيمات والتأويلات التي يسافر بعضها إلى البدايات الأولى، ويقف بعضها متأملًا المرحلة الثانية، ويصل البعض إلى التحول الأخير دون أن يغيب عن الجميع القاسم المشترك الذي صاحب الظل، ونعني (إحساس اللقد).

#### (٤)

إن التراكم لم يكن ركيزة أساسية في القراءة الثقافية فحسب، بل إنه مثل الفارق الجوهرى بينها وبين القراءة الجمالية، ذلك أن القراءة الأولى منفتحة ومتعددة المداخل



والخارج، بينما القراءة الثانية تكاد تكون أحادية المدخل، لا تحتل التفسير إلا في حدود ضيقة محكومة بذاتة القارئ، أي أن الفارق الأساسي بين القارئ، أن القراءة الثقافية هي قراءة الأسئلة التي لا تعرف التوقف، بينما القراءة الجمالية، هي قراءة الأجوبة، على وجه العموم.

إن قراءة بيت المجنون عن ليلي:

أراني إذا صليت يعمت نحوها بوجهي، وإن كان الصلي وراثي

قراءة جمالية، سوف تحيلنا إلى بناء البيت لغوياً، ومحتويات هذا البناء من العدول، ومن انتهازك المواجهة، وعن علاقة (الضمير) ببناء البيت، من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائبة، أما القراءة الثقافية، فإنها سوف تحيلنا على نسق ثقافي موغل في القدم، كانت فيه الأنثى إلهة معبودة، وليس من اليسير الوصول إلى هذا النمق إلا بتجاوز القناع الصياغي من ناحية، وفتح الذاكرة على مخزونها الثقافي من ناحية أخرى، على أن يلاحظ أن هذا المخزون له طابع تراكمي أيضاً، إذ إن هذه الترجمة المقدسة، قد تلتها مراحل أخرى هبطت بالأنثى هبوطاً شتاً عبر عنه القرآن بقوله:

“وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم” (النحل: ٥٨).

واللافت أن التراكم الثقافي، وإزاء نوع من التراكم النقدي، ففي الكلاسيكية سيطر الانسباط العقلي خلال الاحتكام للمحاكاة التي تتوجه إلى العالم من وجهة نظر المبدع، ومن ثم كان النقد يقيس النص بمقاييس العقل والمنطق، وفي الرومانسية، انحصرت الرؤية الإبداعية في ذات المبدع، ونظر النقد في النص بوصفه مرآة لصاحبه، وفي الواقعية، اتجهت الرؤية إلى المناطق السالبة في العالم، لتكشف قبحها، ويقتدر نجاح النص في هذا الكشف، يأتي الحكم النقدي بالقبول أو الرفض.

معنى هذا أن التراكم النقدي فتح النص على العالم الخارجي والداخلي على صعيد واحد، ثم جاءت البنيوية لتغلق النص على ذاته، وتعرّله عن عالمه الخارجي والداخلي، أي عن مبدعه ومتلقيه، وهو ما اعتمدته الأسلوبية في غالب توجهاتها، لتأتي نظرية التلقي لتفتح النص على نافذة واحدة، هي نافذة المتلقي الذي أصبح صاحب الحق الشرعي في إعادة إنتاج النص من وجهة نظره الخاصة.

أما القراءة الثقافية، فإنها فتحت كل نوافذ النص على الموروث الثقافي، القديم والحديث، وليس معنى ذلك أنها أهملت ما سبقها من تراكم نقدي، بل إنها كانت تصد بصرها إليه لتفهد منه، أو لتتجنبه، ونحن لا نعطي أهمية كبيرة لبعض الآراء التي نظرت لهذا الموروث نظرة ملؤها التعالي، حتى إنها وصفته بأنه (فقد شرط الصلاحية)، ومن هذا الموروث الذي فقد الصلاحية — من وجهة نظرها — (عمود الشعر)، ومقولة: (الشعر ديوان العرب)، إذ رأى المتعاملون أنه ديوان آيل للسقوط، بل هو ساقط بالنمط، ومن هذا الموروث

(المخزون البلاغي) الذي قالوا عنه إنه (موروث قد احترق) ومكانه الصحيح (متحف التاريخ).

إن احترام هذا التراكم في القراءة الثقافية، يعيد لنا الثقة في كثير من مقولات التراث الأدبية والتقدية، وفي مقدمتها مقولة: (الأغراض الشعرية) التي نفر منها النقد والتقnad المحدثون، إذ يصبح التعامل النقدي معها بوصفها أنساقاً ثقافية تراكمية، فالديح — مثلاً — يستدعي الصورة المثالية الموروثة للكرم والشجاع، إلى آخر هذه الأوصاف، والهجاء، يستدعي المقابل المرفوض لمجموع هذه الأوصاف، والغزل سوف يستدعي النموذج الشالي للأثنى جسدياً في الغزل الحسي، ونفسياً في الغزل العفيف.

إن الربط بين الثقافة والإبداع، يمكن أن يقودنا إلى الربط بينهما وبين الأنساق البلاغية، وبخاصة أن الأنساق الأخيرة قد تحولت إلى سلطة تتسلط على المبدعين، ويحكم إليها النقد في الحكم بالقبول أو الرفض، وذلك على الرغم من أن الأشكال البلاغية عندما ظهرت في الإبداع كانت محاطة بخواص فطرية، والإحاح عليها، أكسبها احتراماً، وكل من يجترحها، أو يمتنك فطريتها، يطرد من جنة الإبداع، وهذه الفطرية أصالتها طاقة ثقافية، ومن ثم كان الخروج عليها، خروجاً على الثقافة، فعندما قال أبو تمام مادحاً ابن الهيثم:

رفيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفك، ما ماريت في أنه برد

تصدى له التقاد بالرفض، لأن صورته جرحمت الموروث الثقافي في تشبيه العقل بالثوب، وهذا ما قرره أبو هلال العسكري في قوله: "وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرقعة، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة... كقول الفرزدق:

إننا لتورن بالجهال حلومنا ويؤيد جاهلنا على الجهال"<sup>١١</sup>

ويكاد ابن طهاطبا العلوي يعطي الثقافة سلطة قبول الصورة أو رفضها في قوله: "فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا لتلقاه بالقبول، أو كهاية تستقر بها، فأبحث عنه، ونقر عن معناه، فإنك لا تعبد أن تجد تحته خبيثة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها"<sup>١٢</sup>

إن مثل هذه الآراء، تكاد تلحق النصية الأدبية بالنصية البلاغية بالنظر في مرجعيتها الثقافية، وهي مرجعية قد تحضر في النص مقنعة بأقنعة أدبية تارة، وبلاغية تارة أخرى، بل يمكن أن ندرك قيام النص على بنية بلاغية كلية، فقد يستعير النص قناعاً بلاغياً ليقدم فيه منتج الدلالي، ومن ثم يكون النص استعارة كبرى، وقد يكون كناية كبرى كذلك، وقد يدخل دائرة (التورية والتعريض) بعيداً عن التحديدات الجزئية التي حدثت بها هذه الأشكال.

ولا شك أن القارئ الثقافي في حاجة إلى التلقي الثقافي، والوعي المشترك بينهما هو الذي يصعد بالنص من الأدبية إلى الثقافية، وهو الذي يربط الإشباع المعرفي بالمتعة الجمالية، ومن ثم فإن الدائقة يكون لها بعض تدخل محدود.

ويجب أن نلاحظ قلة المتلقي الثقافي إذا قارناه بالمتلقي الجمالي، وبمرغم قلته، نادراً ما نواجه مثلياً فردياً، إذ الغالب حضور المتلقي الجماعي الذي قد يشكل (كتلة جماعية) لها نوع من التماسك الذي قد يصل درجة الانغلاق على مخزونه الثقافي، ومن هنا يمكن أن يحدث نوع من الصدام حول الموضوع التي تتنافى مع مخزون هذه الكتلة أو تلك، وقد يأخذ الصدام شكل التنابز القولي، الذي يصعد إلى التنابز الفعلي، بل قد يصعد إلى السلطة القضائية ثم التنفيذية، وقد ينتهي الصدام بإخراج النص وصاحبه من حظيرة الإيمان تارة، ومن حظيرة التحضر والموعلة تارة أخرى.

وفي تصوري أن القراءة الثقافية يمكن أن يكون لها دور في تعديل مستويات التلقي التي استقر عليها نقد الحداثة وما بعد الحداثة، فهناك القارئ المثالي أو النموذجي، وهناك القارئ العادي، والقارئ الضمني، وبمعنى آخر نقول: إن هناك القارئ الناقد، والقارئ المثق، والقارئ المتوقع، لكن القراءة الثقافية يمكن أن تضم مستويات التلقي في مستوى واحد، ذلك أن المتلقيين أبناء ثقافة مشتركة، ومن ثم يصبح الفارق بينهم فارقاً في ردود الفعل، لا فارقاً في مستوى التلقي ذاته، فالمتقبل للنص بمرجعياته الثقافية، يعطي هذا النص، ويغلو في إعلائه، والرافض يهبط به، ويهالغ في هذا الهبوط.

إن متابعة القراءات الثقافية ومستقبلها في هذا الزمن، سوف يكتشف نوعية القارئ الحاضر، وهي نوعية محاصرة بين متقابلين لا ثالث لهما: (الرفض والقبول)، أي غياب منطقة الوسط التي لا تحتكم إلى هذا التقابل، وإنما تحتكم إلى (حرية الكلمة وصدقها)، ونعني بالصدق هنا، صحة ربط النص بألسانه الثقافية، أي أن (الصواب والخطأ) يمكن أن يكونا بديلاً (للرفض والقبول) انطلاقاً من جملة الإمام الشافعي: (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب).

ويمكن توثيق ما قلناه عن التلقي الجماعي (المتكامل) باستقبال شعرية المثني في قوله:

عمرك الله هل رأيت بدوراً      طلعت في براقع وعقود  
- راميات بأسهم زيشها الهدى      ب تشق القلوب قبل الجلود  
يترفشن من فمي زخافات      هن فيه أحلى من التوحيد

فهذا الاجتزاء من شعر المثني اعتمد نسقين ثقافيين: نسق الغزل الباجح عن الأنثى المثال، ونسق (التوحيد) في المعتقد الديني، وهنا نلاحظ انشطار التلقي إلى كتلتين متضادتين  
هذه تعاني أم قراءة ثقافية

بين (الرفض والقبول)، وقد أسست الكتلة الرفضية رفضها على أن الشاعر: "أخلّ بحلال الإسلام، واستهان بأمر العقيدة، وأنه بهذا باء بغضب من الله، وتعرض للطرد من رحمته"<sup>٥٦</sup>.

وفي المقابل تأتي الكتلة المتقبلة لتقرر أن: "الدين بمعزل عن الشعر"<sup>٥٧</sup>.

لكن الملاحظ أن كتلة الرفض كانت متماسكة (رأياً واحداً) بينما اختلف الأمر في كتلة التقبل حتى يمكن القول إنه (التقبل الحذر) الذي حاول أن يخلص المتنبي من مأزقه اللغائي، فابن جني يقدم رواية (إصلاحية) للبيت، هي:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه من حلاوة التوحيد

وكانه يحتذي حذو التحاة الأوائل، إذ كان بعضهم يحرف الشاهد — أحياناً — إلى الوجه الذي يوافق مذهبه التحوي.

ومن أمثلة هذه الكتلة الحثرة (العكبري) الذي أراد أن يلوي عنق النص ليستقيم مع نسقه اللغائي الذي يحرص عليه، فقال: "ليس المراد تفضيل حلاوة الرشفات على حلاوة التوحيد، وإنما المراد: تقريب حلاوتها من حلاوته".

نخلص من هذا إلى أن القراءة الثقافية تعتمد نوعين من العلاقة الجدلية بين النص والمتلقي، فكلما تقدم القارئ في القراءة، تداعبت على ذاكرته الأنساق الثقافية التي تستدعيها سطوح النص. حيناً، وأصافه في غالب الأحيان.

والجدلية هنا ليس معناها الأخذ والمطاء، وإنما معناها مواجهة بين مخزون الذاكرة الثقافي ومعادله الحال في النص، وهذا المعادل يتدخل تدخلًا حاسمًا في بناء النص، وفي توجيه مساراته الدلالية، وإتاحة الطريق أمامها للظهور المقتنع وراء الجمالي حيناً، والظهور المكشوف حيناً آخر، وهنا يتجلى دور المتلقي الذي سوف يتجه تلقائيًا إلى تغليب الجماعي (الثقافي) على الفردي (الجمالي)، وهو تغليب مغلف أيضًا بأهنية لغوية ذات مواصفات بلاغية وجمالية.

ولا يكاد يتغلب الفردي على الجماعي إلا في مراحل التحول الثقافي التي يقودها بعض أفراد، أو فرد واحد له قدرة إحداث هذا التحول.

## (٦)

تابعنا في المحاور السابقة منجزات القراءة الثقافية، وتابعنا خصيصتها المركزية في التراكم، هذا التراكم الذي أتاح لها أن تلد من مجموع القراءات النقدية السابقة عليها، بل يمكن القول إن مجمل هذه القراءات تنتمي بنسب متين للقراءة الثقافية، بل إن التراكم أتاح للقراءة الثقافية أن تفيد من المراحل النقدية السابقة من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الواقعية إلى الحديثة وما بعدها.

وهنا يأتي التساؤل الذي يفرض نفسه: هل القراءة الثقافية هي القراءة المثلى للنص الأدبي؟ نسرع بالقول: إن كل قراءة لها إيجابياتها وسلبياتها، ومن المهم أن يتحرى القارئ الإيجابيات لتعلمها، والسلبيات لتفادها قدر الإمكان.

على هذا التأسيس نقول إن القراءة الثقافية لها بعض محاذير يجب التنبه لها، وفي مقدمة هذه المحاذير، ما سبق أن سقطت فيه البنيوية عندما أغلقت النص على ذاته، وجعلته أبداً لقيطاً بلا آباء، وربما جعلته عقياً بلا أبناء، ذلك أنها تغافلت عن عالم التواتر الذي يسكن لغة النص، وهو تواتر يبت فيه الحياة يوماً، ويدفعه إلى الانفتاح على ما سبق، وقد يفتح على ما لاحق، وهو ما يكاد يقارب القراءة الثقافية التي تغلق النص على أنساق الثقافة، وتحاصر طرقي الإبداع في حدود مخزونهما من هذه الثقافة، وهو ما يمكن أن يبعد بين القراءة الثقافية والتجربة الحاضرة، وتجعل النص أبداً شرعياً لأصيه فحسب، بمقلدة هذا الحاضر، بل ربما تغفل المستقبل، فإذا كانت البنيوية قد جعلت النص لقيطاً بشرطاً، فإن القراءة الثقافية، تجعله لقيطاً زمنياً.

ومن هذه المحاذير، أن القراءة الثقافية، قد تغلق النص أمام المتلقي غير المؤهل لاستيعاب هذه الثقافة، أو لم يكن على وهي بالأنساق التي يضمهرها النص، أي أن النص يمكن أن يدخل منطقة (الاستغلاق) التي عبر عنها أحد الأعراب يوماً عندما سأله الأخفش: ما تسمع يا أبا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا<sup>(4)</sup>.

وبوغل هذا المحذور في خطورته، عندما ينتقل النص من ثقافة إلى ثقافة أخرى، إذ ربما تكون الثقافة المستقبلة لا دراية لها بثقافة النص، بل ربما تكون رافضة لها، ومن ثم يكون الرفض هو النتيجة المحتملة للنص وأنساقه، ولا كذلك القراءة الجمالية، لأن الذوق الجمالي يسم كثيراً من العناصر المشتركة التي تضمها اللغات والحضارات المختلفة.

والحق أن هناك محذوراً يأتي من قبل القارئ الثقافي في نوع من الحلل المنهجي الذي يجعل حركة القراءة بدءاً من أنساق الثقافة، ثم قراءة النص لفحص محتوياته من هذه الأنساق، سواء كان المحتوى صريحاً أو مضمرًا، وهو ما قد يؤدي إلى ليّ عنق النص للتمهيلة بأنساق معينة، هي عند القارئ مقدمة على سواها، أي أن العقيدة الثقافية تكون صاحبة السيادة، وقد تتنمى هذه العقيدة الثقافية ركائز دينية أو أيديولوجية، ويكون هم القارئ البحث عن مردودها في النص إعلاء لها، أو تهويلًا من سواها.

واللافت أن هناك محذوراً تغفل عنه كثير من القراءات الثقافية، وهو أنها تستحضر النسق الثقافي في بكونه، صارفة نظرها عن التحولات التي لحقت من الممارسة الحياتية والحضارية، ومن ثم تتناسى حق النص في استحضار النسق في حالته الأولى، أو في تحوله الأخير، وهنا يقع ظلم فادح على النص لحرماته من التعامل الحر مع النسق في مراجعته المختلفة، ووصمه بالخطأ إذا توقف عند البكورة القطرية حيناً، أو توقف عند التحول الأخير حيناً آخر.

ولنأخذ (نسق الغراب) نموذجاً، وهو من الأنساق القديمة المشحونة بقيم حشائية وفلسفية وشعبية، فالنص قد يستدعي هذا النسق في إطار (الغراب العلم) في قصة (قاييل وهابيل)، وقد يستدعي نص آخر خلال إشارته إلى (البين والفراق)، ويستدعي آخر في سياق (الشؤم) أو (اللون) أو (التكبير والخيلاء)، وهي تراكمات كان لها صداها في الخطاب الشعري قديماً وحديثاً، فهذا عترة يستحضر الغراب في نسقه المنذر بالفراق والعداوة في قوله:

وعاداني شراب البين حتى كأنني قد قتلته له قتيلاً

وحسان بن ثابت يستحضره في منظومة زهوه وكبرياته:

أجمعت أنك أنت الأم من مشى في فحش موسسة وزهو غراب

وابن هرمة يستحضره في نسقه اللوني:

وليل كسريال الغراب انرخته إليك كما اجثت اليمامة أجدل

ولنأخذ نسقاً آخر معنوياً هو نسق (الظلم) الذي كان ركيزة جاهلية مقبولة، بل كانت مبعث فخر وإعلاء لشأن الظالم، وإشارة إلى منعته وقوته، ثم جاء التحول الحضاري بعد الإسلام لينقل هذا النسق من القبول إلى الرفض، ومن ثم جاء تعديل مفهوم المقولة التراثية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، حيث أصبحت نصرة الظالم في منعه من الظلم.

وفخر الجاهلي بأنه ظالم، يمكن أن نتابعه في قول عمرو بن كلثوم:

نسمى ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبداً ظالمين

ويقول زهير مادحاً:

جري متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً، وإلا يبد بالظلم يظلم

ونقارن ذلك بقول الإمام الشافعي:

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذنباً واج عتواً في قبيح اكتسابه

فكله إلى صرف اللبالي فاتها سبدي له ما لم يكن في حبابه

وقول ابن المعتز:

يا باغي الشر لنا اردد عن الظلم يدا

إن القراءة الثقافية التي تهمل هذا التراكم، وتتغاضى عن هذا التحول، سوف تقدم لنا قراءة شائبة تعبر عن عقيدة القارئ، لا عقيدة النص ذاته.

## (٧)

من الواضح أن هذه المحاذير قد ظهرت مع الممارسة التطبيقية التي مارسها بعض النقاد الثقافيون، لكن يبدو أن هناك محاذير أخرى يمكن إدراكها بالنظر إلى الأدبية عموماً،

سواء على المستوى المياضي، أو على مستوى النواتج الدلالية الجزئية، ذلك أن تسلط القراءة الثقافية على البناء المياضي له محاذيره التي يمكن أن تعوق هذا التسلط، أو — على الأقل — تشتت جهوده، وتزداد المحاذير خطورة مع ارتباطها بالنتج البلاغي الذي شطر اللغوية إلى أسلوبين، الأسلوب الأول: (الأسلوب الخبري) والآخر هو: (الأسلوب الإنشائي) والحدود المعرفية لكل أسلوب تعود به إلى مرجعية زمنية قد تتوافق مع القراءة الثقافية، وقد تتنافر معها.

يقول المحفوظ البلاغي: إن الأسلوب الخبري زمنه الماضي الذي لا يمكن استعادته إلا عن طريق التذكر أو الحكى، وعلى الرغم من أن زمنهما هو (الزمن الحاضر) فإن الخبر يظل محافظاً على بعده الزمني في اللفظ، وربما كان هذا أساس ما ذكره الزجاجي عن أزمنة الفعل، إذ جعله على شريين: "ماضٍ ومستقبل، فالاستقبال ما لم يقع بعد، ولا أتى عليه زمان، ولا خرج من العدم إلى الوجود، والفعل الماضي ما تقضى، وأتى عليه زمانان لا أقل من ذلك: زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه، فأما فعل الحال: فهو التكون في حال خطاب المكلم.... ففعل الحال — في الحقيقة — مستقبل<sup>١٠</sup>."

من هذا الملحظ الزمني الذي أشار إليه الزجاجي وصلته بالأسلوب الخبري، يمكن القول: إن القراءة الثقافية تمتلك القدرة على ملاحظة هذا الأسلوب برغم ازواجهيته الزمنية، لكن الإشكال الطارئ هو ما نلاحظه عندما نتجه القراءة للأسلوب الإنشائي، لأن مرجعيته الزمنية تخلص — غالباً — للآتي، وهو زمن وصفه الزجاجي بأنه المستقبل الذي لم يقع بعد، ولا أتى عليه زمان، ولا خرج من العدم إلى الوجود، وإذا كان ذلك كذلك، تأتي الأسلوب الإنشائي على القراءة الثقافية، وإذا حاولت هذه القراءة أن تلاحقه، فإنها تتحول من مهمتها الثقافية إلى مهمة دخيلة عليها، لأنها عندئذ سوف تكون عرافة تصارس التنبؤ فحسب.

إن المحذور الذي حال بين القراءة الثقافية والأسلوب الإنشائي، أن الأسلوب الخبري قابل للتصديق والتكذيب — كما يقول أهل الكلام — ومن ثم فإن مساحة رده إلى الأنساق الثقافية مساحة واسعة ومحتملة، بينما الأسلوب الإنشائي لا يدخل نطاق التكذيب والتصديق، وإنما يدخل ثنائية أخرى هي: (التحقق وعدم التحقق) فالقراءة إذا تسلمت عليه، ظلت في حال انتظار أن يتحول الآتي إلى ماضٍ، وربما يطول هذا الانتظار.

وإذا كان هذا المحذور قد ارتبط بالأبنية الصاغية في مكوناتها الجزئية، فإن له قدرة ملاحة الأبنية الأدبية، وبخاصة (أبنية السرد) إذ الصاغية في هذه الأبنية لها غواية طارئة في اكتساب طابع لغائي يكاد يمتص حرمته الدرامية، ومنها يمكن أن نلاحظ أن السرد الروائي قد استحالت سرداً شعرياً، وهنا تأتي الإشكالية، إذ إن المنطقة المحفوظة للسرد الروائي، هي منطقة (العالم الخارجي بكل تحولاته وتصادماته) بينما السرد الشعري له منطقة التي تتوافق معه، وهي منطقة (الداخل النفسي والعقلي) أي أنه مشتبك بلحظة

الحاضر، سواء قلنا إنه الحاضر القريب أو الحاضر البعيد، فهو حاضر في كل الأحوال، وسبق أن أشرنا إلى أن هذه اللحظة قد أفلتت من القراءة الثقافية على وجه العموم، ويتبع ذلك أن يغفل الراوي الذي يحصر مهمته في ملاحقة الشخوص الحاضرة وتحولاتها الآنية التي قد تكون منفصلة عن ماضيها، لأنها رهينة الحاضر وحده، ومن ثم استعصت على القراءة الثقافية، ويزداد هذا المحذور كثافة مع دخول النصية السردية آفاق البوح والإفشاء، وهي آفاق آنية بالضرورة، ينطبق عليها ما ينطبق على السرد الروائي عندما يتحول إلى سرد شعري.

من كل هذا ندرك أن العلاقة بين النسق الأدبي والنسق الثقافي ليست دائما على التوافق، بل تصل العلاقة بينهما إلى درجة التناقض، ومن ثم يكون الربط بين النسقين ربطا تعمليا، لأنه ألقى المسافة الزمنية بين النسقين لكي يحقق لهما قدرا من التواصل، بالرغم من أن العلاقة بينهما هي علاقة الانقطاع لا التواصل، وربما لهذا رأينا أن بعض القراءات الثقافية كانت نوعا من القفز الزماني تارة، والكثافي تارة، والدلالي تارة ثالثة، فهي قراءة تسبح في فضاء وهمي من صنعها، تمارس فيه سلطة غير شرعية.

ولعل هذا يطرح علينا تساؤلا عن سبب إهمال القراءة الثقافية (للأدب العامي) وعلى نحو مباشر (شعر العامية) على الرغم من اكتنازه بالأنساق الثقافية، إذ إن القراءة الثقافية إذا قاربت هذا الخطاب الأدبي، فإن عليها أن تستبقي هذه المقاربة بكشف النسق الثقافي الذي أنتج هذا الخطاب في مغاييرته للغة الصحيحة أولا، ثم مزاحمته لها في منطقة كانت من ممتلكاته الخاصة، منطقة الشعر ثانيا، وليس من اليسير الوقوف على نسق بعينه له حدوده العرفية للقول بأنه منتج هذا الإبداع، وإنما اللجوء هو الإمساك بمجموعة التحولات التي أصابت الدوال الإفرادية أولا، ثم أصابت منتجها الدلالي ثانيا، وهو ما سمح للشعرية الصحيحة أن تنجب مولودها الشرعي: (شعر العامية)، بمعنى آخر نقول: إن الواقع الثقافي أنتج واقعا لغويا يناسبه، وكلاهما أنتج خطابا أدبيا يناسبهما، وهو الأمر الذي يجب ملاحظته بالقراءة الثقافية الواعية بماضيها وحاضرها والعلاقة الجدلية التي تربط بينهما.

#### الهوامش :

- (١) الخصائص- ابن جني- تحقيق محمد علي النجار- عالم الكتب- بيروت ١٩٨٣: ٣٧/١.
- (٢) لسان العرب- ابن منظور- طبعة دار المعارف ١٩٧٦: مادة/ظل.
- (٣) الشعر والشعراء- ابن قتيبة- عالم الكتب- بيروت ١٩٨١: ٧.
- (٤) العمدة- ابن رشيقي- أمين هتديا بمصر ١٩٢٥: ١٠١/١.
- (٥) كتاب الصناعين- أبو هلال العسكري- تحقيق د/مفيد قمحة- دار الكتب العلمية ١٩٨١: ١٣٥.
- (٦) عيار الشعر- ابن طاطايا- تحقيق عباس عبد الستار- دار الكتب العلمية: ١٧٠.
- (٧) النظر: أبو الطيب اللثبي- ماله وما عليه- الثمالي- ت: محيي الدين عبد الحميد- صبيح: ٨٨.
- (٨) الوساطة- القاضي الجرجاني- ت: محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي- عيسى الحلبي ١٩٦٦: ٦٤.
- (٩) الإمتاع والمؤانسة- أبو حيان التوحيدي- قراءة أحمد أمين وأحمد الزين- الحياة بيروت: ٢/ ١٣٩.
- (١٠) الإيضاح- الزجاجي- تحقيق مبارك المازن- دار العروبة سنة ١٩٥٩: ٨٧.



## دراسات

دراسات الترجمة، البدايات والمسارات وأسئلة المستقبل  
سامح فكري

مشاركات وإشكاليات في فعل الترجمة

وحقل دراسات الترجمة

ثيو هيرمانز / ت: محمد بهنسي

الترجمة، جماعات التلقي، اليوتوبيا

لورانس فينوتي / ت: نجوى إبراهيم عبد الرحمن

إعادة تأطير الصراع في الترجمة

موني بيكر / ت: أحمد صديق الواحي

تسوية الصراع، رقاعة واقع الصهمطوى

وترجمة "الأخر" في مصر القرن التاسع عشر

ميريام سلامة كار / ت: حسام نايل

سياسات الترجمة

جايا تييري سبيفاك / ت: علاء الدين محمود

## أفاق

الترجمة والسلطة

أنطوني لوفيفر / ت: رامي الجمل

ترجمة ما بعد الحداثة الإسبانية أمريكية،

انعكاسات حول تفسير الثقافة

لويس ييجينوت / ت: نادية جمال الدين محمد

الترجمة والثقافة،

كتاب معاداة العرب في الأدب الإيراني المعاصر نموذجاً

بسام علي زيانمة

## كتب

تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي

والغرب الأوربي

تأليف: عونى عبد الرؤوف / عرض: ماجد مصطفى

# الترجمة والتشاقف



# حراس الترجمة البدليات والمسارلات والأسئلة المستقبل

ف



## سامح فكري

طالما انشغل العقل العربي بسؤال الترجمة الذي ظل وما زال قريباً بسؤال النهضة وذلك منذ بدأ الوعي العربي يدرك أهمية الإنصات إلى صوتٍ آخر، والاستماع إلى كلمةٍ مغايرة تحمل فكرةً جديدة أو خيرة إنسانية مختلفة. وتباينت درجات هذا الانشغال تبعاً لتغير الظروف التاريخي وما يأتي به هذا التغير من أسئلةٍ أخرى كان لها من الأهمية أحياناً بحيث دفعت سؤال الترجمة إلى ذيل قائمة الأولويات. في كل الأحوال ظل سؤال الترجمة منحصرأ في كم وكيف وآليات إنتاجها للترجمة. لم تخرج القضايا التي طالما طرحناها في كتاباتنا وملتناها التي خصصناها للترجمة عن سؤال الإنتاج: ماذا وكيف وكم نترجم؟ ما مدى جودة ما نترجم؟ من يترجم وبأي أدواتٍ أو ناهيل؟ وغيرها من الأسئلة التي تشي بوعي حاد بفجوة زمنية هائلة بيننا والآخر، وهي فجوة مازلنا منذ القرن التاسع عشر نلهث في اختصارها، فيما باتت هذه الفجوة تزداد اتساعاً على نحو يجعل من الترجمة مجرد طرف في معادلة أكثر تعقيداً، وسؤال ضمن أسئلة كثيرة ومتشابكة يتوجب علينا التعامل معها جميعها بنفس القدر من الاهتمام.

على الرغم من مشروعية سؤال الإنتاج بل وجدواه التي يصعب إنكارها، فإن أسئلة أخرى لا تقل أهمية باتت ملحّة وفرشتها التغيرات المتسارعة التي اعترت العلاقات بين المجتمعات والشعوب والجماعات العرقية، فضلاً عن التعقيد الذي أصبح يسم كافة علاقات الثقافات والتواصل اللغوي بتجلياتها المختلفة، والتي لم تعد مقصورة على الترجمة الأدبية وحدها بل تباينت هذه التجليات وتعددت بحيث شملت الكثير من الظواهر الترجيمية/الثقافية، التي تجاوز مداها الحدود الفاصلة بين كل من ثقافة النخب وثقافة الجماهير، التواصل الشفاهي والتواصل المكتوب، ترجمة الكلمة وترجمة الإنسان أو الجماعة العرقية<sup>(1)</sup>.

هذا التعدد في تجليات الثقافة والترجمة صاحبه تغير في درجة الأهمية التي تحظى بها أشكال ووسائط الثقافة، فلم يعد مستغرباً الآن أن يكون الدور الذي يلعبه فيلم جماهيري مترجم في ابتداء صورة ما عن جماعة أو شعب أكثر تأثيراً وأوسع مدى من الدور الذي يشغل به نص أدبي مترجم لكاتب (ة) مرموق (ة). كذلك لم تعد عمليات الترجمة التي تتم داخل مراكز استقبال طائلي اللجوء والرافقين في الحصول على جنسية دول العالم الأول نشاطاً هامشياً مهملاً، إذ تعكس هذه العمليات في تفاصيلها وإجراءاتها موقفاً ما من جانب صانع القرار في الدولة المضيفة إزاء الثقافات الأخرى، بل وفهماً معيناً للثقافة المضيفة ذاتها من حيث تكوينها وتجانسها.

هذا التعدد في أشكال ووسائط الثقافة من خلال الترجمة يتلزم أيضاً مع تعدد بواعث الترجمة وأهدافها. لما كانت الترجمة إجمالاً فعلاً سياسياً بالمعنى العام كما تؤكد مني بيكر في مقالها للنشور في هذا الملف، لم يعد بالإمكان النظر إليها بوصفها فعلاً تواصلياً محايداً يلعب فيه المترجم دور الوسيط غير النحاز. إن كانت الترجمة من الناحية النظرية يروجي لها أن تكون فعل تواصل يسي إلى إحرار التفاهم بين ثقافتين، فالواقع اليومي ينفي ذلك، حيث تتحول الترجمة فيه إلى أداة يستثمر فيها أفراد ومؤسسات وجماعات ضغط متعددة بغرض تحقيق أهداف سياسية معينة، أو تغليب وجهة نظر أو طرح فكري ما على آخر.

هذا التعدد في أشكال الترجمة وبواعثها وتعدد الأفراد والمؤسسات والجماعات التي تسهم في إنتاجها وإشاعتها واستهلاكها يجعل الاكتفاء بسؤال الإنتاج أمراً غير مقبول. من هنا جاءت فكرة هذا الملف الذي لا ينفي أهمية سؤال الإنتاج، ولكن ي طرح في الوقت ذاته سؤالاً مهماً آخر، ألا وهو سؤال الفهم. إن رغبتنا في حيازة العقل الغربي واستجلاب ما أنتجه منذ فجر النهضة العربية أعاقتنا عن تأمل الترجمة بوصفها ظاهرة اجتماعية وثقافية، وربما دفعنا حرصنا على جودة ما نتججه من ترجمات إلى اختزال الترجمة في مجرد فعل النقل من لغةٍ إلى أخرى. إن سؤال الفهم يستلزم منا طرح النظرة النفعية الاستخدامية للترجمة جانباً ومحاولة استكناه الترجمة وطبيعتها ودورها في تشكيل التراثات الأدبية وصياغة بني فكريّة جديدة وبناء تصورات معينة عن جماعاتٍ مختلفة، بل ودورها في تسويد مفاهيم سياسية وتهميش أخرى.

يأتي هذا الملف إذن محاولة جادة من مجلة فصول في التأكيد على حاجتنا إلى فهم الترجمة التي طأنا مارسناها واشتبكنا مع مشكلاتها الإنتاجية المتعددة دون أن نتوقف كثيراً عند فهم ما فعلته ومازالت تفعله الترجمة بنا ودورها في صياغة تصوراتنا عن أنفسنا في علاقتنا بالآخر ووظائفها — الظاهر منها والمستتر — التي تقوم من خلالها ببناء وهم جماعات ومؤسسات، وفي إحياء وإماتة أفكار وأزمنة وأدبيات معينة، وفي الدفع بكتابر إلى صدارة التراث الأدبي المقصد وإسكات أصوات آخرين وتهميشهم. هذه المحاولة لتأمل الترجمة من زوايا نظر مختلفة لا تزعم لنفسها الإحاطة أو التمثيل الكامل لكافة التوجهات

والتصورات التي تسود البحث في الترجمة في الوقت الحاضر، إذا ما أخذنا في الاعتبار التغيرات السريعة والمتلاحقة فيما يعرف الآن بدراسات الترجمة، وإنما هدفنا أن نضعنا في مواجهة مع العقل الغربي وما أنتجه من تصورات وبنى فكرية في محاولته الإجابة على سؤال الفهم. ومن هنا ننبع أهمية هذا الملف، فهو يضعنا بشكل مباشر<sup>(١)</sup> أمام بعض النصوص الهامة التي تعبر عن وضع دراسات الترجمة الآن والتوجهات الفكرية السائدة فيها.

### أسئلة البدايات:

إن الاهتمام بسؤال الفهم اتخذ شكلاً منهجياً في الغرب منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين<sup>(٢)</sup>، حين سعى باحثون — انتمى معظمهم إلى حقول معرفية بعيدة نسبياً عن الترجمة من قبيل اللغويات الثقافية والأدب المقارن والدراسات الثقافية — إلى تطوير أطر نظرية وفرضيات وأساليب منهجية بهدف إرساء أسس حقل معرفي جديد موضوعه الترجمة في تجلياتها المختلفة ووصفها نشاطاً إنسانياً معقداً لا تشكل اللغة إلا أحد أبعاده. لم تكن أسئلة البدايات التي طرحها هؤلاء الباحثون — على بساطتها البادية — إلا تعبيراً عن رفض واضح لاختزال الترجمة في مجرد كونها ظاهرة لغوية مجالها الوحيد هو النص الأدبي، ومن ثم لا ينبغي دراستها إلا باعتبارها فرعاً من اهتمامات حقول معرفية أخرى مثل اللغويات أو الأدب المقارن. بالقدر ذاته كانت هذه الأسئلة تعبيراً واضحاً عن الرغبة في توسيع أفق النظر في الترجمة والإحاطة بكافة تجلياتها وبواعثها ومؤثراتها. من هنا لم يكن سؤال التسمية للحقل المعرفي الجديد الذي يضع الترجمة في أفق نظري ومنهجي أرحب إلا انعكاساً لتلك الرغبة في كسر احتكار كل من اللغويات والأدب المقارن لدراسة الترجمة، كما كانت محاولات التسمية سعيًا لتأسيس استقلالية البحث في الترجمة من جهة وإبراز تعددية وتباين زوايا النظر في الترجمة من جهة أخرى.

على الرغم من المحاولات العديدة لتسمية هذا الحقل المعرفي — وهي محاولات تشي جميعها بفهم معين لطبيعة الترجمة وكيفية دراستها — فإن التسمية التي جاء بها جيمس هومز (١٩٢٤-١٩٨٦)، الشاعر والناقد الأدبي والباحث في تاريخ الأدب، في ورقة ألقاها في مؤتمر عقد في كوينهاجن عام ١٩٧٢ هي التي حظيت بالقبول من جماعة الباحثين والمشتغلين في هذا الحقل المعرفي. لم يكن من قبيل المصادفة أن يلقي هومز هذه الورقة في الملتقى الدولي للغويات التطبيقية ليعلم من داخل هذا المؤتمر ومن خلال ورقته التأسيسية المعنونة "اسم دراسات الترجمة وطبيعتها" استقلال الترجمة عن علم اللغويات، على اعتبار ما طرحه من أسئلة بحثية وما تتوالت به من طرائق منهجية تميزها عن اللغويات. لم يخلُ ذبوع تسمية "دراسات الترجمة" بين المهتمين بدراسة الترجمة من دلالة. إن عدم القبول الذي حظيت به تسمية من قبيل "علم الترجمة" على سبيل المثال — خصوصاً في اللغة الإنكليزية — يشي بوعي الباحثين في هذا المجال بما تتطوي عليه لفظة "علم" في صيغة المفرد من دلالات قد لا تعبر بالضرورة عن الأفق الواسع للبحث الترجمي، إذ تيشي لفظة علم بالحدود

الإبستمولوجية والمنهجية الصارمة التي تفصل حقلاً بحثياً عن غيره من الحقول وتعوق مد الجسور بين الحقول المختلفة. لم تكن تسمية "دراسات الترجمة" وما حظيت به من قبول إذن إلا تعبيراً عن رغبة تتطوي على بعض المفارقة: فهي من ناحية تسعى إلى تأسيس شرعية لحقل معرفي جديد بعيداً عن حقول احتكرت البحث في الترجمة وفق أجندة بحثية معينة، ومن ناحية أخرى سعت هذه التسمية إلى جعل هذا النشاط البحثي غير متقطع الصلة بغيره من الأنشطة البحثية في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

لم تكن ورقة جيمس هومز إلا برنامجاً وضع فيه تصوّره ورؤاه عن هذا الحقل المعرفي والمسارات المحتملة التي يمكن أن يتخذها. كانت هذه الورقة كما وصفها هومز نفسه في نسخة معدلة من الورقة ذاتها نشرها عام ١٩٨٧ "بطوبىيا بحثية"<sup>١٠</sup> disciplinary utopia حاول فيها صياغة رؤيته لطبيعة البحث في الترجمة، كما حاول أن يحدد الأولويات التي يجب على الباحثين مراعاتها في المستقبل، ساعياً إلى الاشتباك مع بعض المضلات التي رآها ستقف عائقاً أمام مسار دراسات الترجمة وتحول دون تحقيق الأولويات التي حددها. لعل أهم هذه المضلات كما تصوّرها هومز هو الافتقار إلى إجماع عام على بناء هذا البحث ومداه المعرفي والمفاهيمي. ومن ثم تركز جل اهتمامه في هذه الورقة على وضع تصور عن التوجهات الأساسية داخل حقل دراسات الترجمة، وتحديد طبيعة البحث ومدى القضايا التي يسطع بها الباحثون داخل كل من هذه التوجهات. يقوم هذا التصور على إرساء التقسيمات والتصنيفات المفاهيمية taxonomies التي تؤسّس للحقول المعرفية الناشئة. من بين هذه التقسيمات الرئيسية ما يمايز من خلالها هومز بين دراسات الترجمة التطبيقية، ودراسات الترجمة النظرية، ودراسات الترجمة الوصفية، وغيرها من التصنيفات المفاهيمية الفرعية التي رأى هومز وجوب إرسائها لتسهيل مهمة الباحثين في هذا الحقل في المستقبل، ولتكون لهم بمثابة البرنامج البحثي الذي يتحركون وفقه.

إن كانت دراسات الترجمة قد خطت خطواتها الأولى للأمام بوصفها حقلاً معرفياً جديداً على يد جيمس هومز فإنها لم تلتزم تماماً بالسار الذي رسمه لها في مقاله التأسيسي. إن التراكم المعرفي الذي أُنجزته دراسات الترجمة منذ ألقى هومز ورقته في كوبنهاغن حتى الآن لم يكن ليتصوره، فحسبما يذكر ثيو هيرمانز "أصبحت دراسات الترجمة الآن أكثر تنوعاً وأكثر انفتاحاً مما قُدم لها هومز"<sup>١١</sup>، وأصبحت التقسيمات التي وضعها في برنامجها لدراسات الترجمة موضع تساؤل من جانب الكثير من الباحثين، وكان ذلك نتيجة طبيعة لإعادة صياغة تعريف الترجمة ذاتها في الثلاثين عاماً الأخيرة، وإعادة التفكير في طبيعة الظواهر الترجمةية وكيفية إخضاعها للبحث.

### الترجمة فعل ثقافي واجتماعي: تعدد المسارات

قد يكون من الضعوبة بمكان رصد المسارات المتعددة والمتشابكة التي اتخذتها دراسات الترجمة في الثلاثين عاماً الأخيرة منذ أعطاها جيمس هومز اسماً عام ١٩٧٢، ومن ثم سأكتفي

في هذا الحيز بإلقاء الضوء على بعض التوجهات التي ظهرت خلال هذه الفترة الزمنية مع التركيز على التوجهات السائدة الآن، خصوصاً التي تمثلها مجموعة المقالات المنشورة في هذا الملف.

إن أهم التحولات التي حدثت في دراسات الترجمة على مدار عمرها القصير نبعث من وعي عام لدى المشتغلين بالبحث في الترجمة بأنها جزء من نشاط اجتماعي وثقافي، ومن ثم وجب النظر إليها في سياقاتها الاجتماعية والثقافية المتقاطعة. طوال عقدي الخمسينيات والستينيات انشغل معظم الباحثين في الترجمة - وجلهم جاء من علوم اللغة من أمثال رومان ياكوبسون ويوجين نايما وبيتر نيومارك - بتحديد وحدة دراسة الترجمة، فتارة يركزون على المفردة، وتارة على الجملة وفي أواخر السبعينيات ظهرت مجموعة أخرى من الباحثين رأت أن الترجمة لا يمكن فهمها وتحليلها إلا على مستوى النص إجمالاً. إن هذه الاجتهادات جميعاً على تباين توجهاتها حصرت الترجمة في فعل اللغة. على النقيض من هذه المحاولات برزت محاولات أخرى منذ أوائل السبعينيات رأت أن الثقافة هي المجال الحيوي الذي يتم فيه إنتاج الترجمة وتلقيها، وهو ما يعني أن أية دراسة جادة لطائفة الترجمة لا يمكن أن تتجاهل هذا المجال الحيوي. من بين هذه المحاولات النظرية التي تعبر عن هذا الاتجاه ما أسماه إيتامار إيفن زوهار (١٩٩٣)، الأستاذ في جامعة تل أبيب، بنظرية النسق المتعدد polysystem theory الذي يقصد به النسق الأدبي داخل أية ثقافة، وهو نسق متعدد بمعنى أنه يتضمن داخله مجموعة أنماط أخرى تشمل الأجناس الأدبية التي تتراطب داخل النسق المتعدد حسب أهميتها في لحظة زمنية ما. ويرى إيفن زوهار أن الترجمة (وهو هنا يركز على الترجمة الأدبية) لا يمكن فهمها ودراستها إلا باستكناه علاقتها مع الأجناس الأدبية داخل النسق الأدبي المتعدد. وتقاس أهمية الترجمة داخل أي نسق أدبي - حسبما يرى إيفن زوهار - وقدرتها على التجديد فيه على الموقع الذي تشغله داخل النسق المتعدد من غيرها من الأجناس الأدبية، فإذا شغلت الترجمة مكان المركز أصبحت أكثر قدرة على التغيير في النسق الأدبي المتعدد بل وتحدي المواضع الأدبية المستقرة فيه، أما إذا شغلت الترجمة هامش النسق المتعدد باتت عاجزة عن التغيير، بل وامتلكت للمواضع الأدبية السائدة.

كان لمساهمات إيفن زوهار - على الرغم مما انطوت عليه من ثغرات نظرية ومنهجية - دور مهم في توجيه مسار دراسات الترجمة في الثلاثين عاماً الأخيرة، وذلك من خلال تأثيره في عدد من الباحثين الذين طوروا طروحاته محاولين ملء الفجوات التي تضمنتها إسهاماته. من بين هؤلاء جدعون توري الذي كتب رسالته للدكتوراه تحت إشراف إيفن زوهار واقرن اسمه بعد ذلك بتوجه مهم في دراسات الترجمة وهو دراسات الترجمة الوصفية. أكد توري على ما تلقاه عن أستاذه من أهمية دراسة بفاعلة للترجمة داخل النسق المتعدد الذي تنتمي إليه، وإن كان أضاف إلى منجز زوهار الكثير من الضوابط المنهجية. أهم ما أنجزه توري في دراسات الترجمة - فضلاً عن تأكيد على أهمية الاعتماد على إصدار أحكام

قيمة على الترجمة من خلال محاولة فهمها داخل إطار الثقافة التي أنتجت داخلها - هو مفهوم "معايير الترجمة" الذي وفر له أداة منهجية مكنته من رصد وتحليل السلوك العياري normative behaviour لجماعة المترجمين داخل ثقافة ما وفي لحظة زمنية معينة. لاقى مفهوم معايير الترجمة منذ أن طرحه توربي بشكل مفصل في كتابه العلون دراسات الترجمة اللوسفية وما بعدها المنشور عام ١٩٩٥ قبولاً كبيراً لدى الكثير من الباحثين لما وجدوه في المفهوم من قدرة على تفسير قرارات وخيارات المترجمين في إطار الأداء المتوقع والقبول منهم في اللغة والثقافة التي يترجمون فيها.

على الرغم مما أضافه مفهوم معايير الترجمة إلى الجهاز المفاهيمي الخاص بدراسات الترجمة، فإنه طرح بعض العضلات التي التقطها جيلٌ تال من الباحثين ليعملوا عليها ويدفعوا بدراسات الترجمة في اتجاه جديد. أهم المشاكل المنهجية التي ينطوي عليها مفهوم معايير الترجمة هو تأكيد على فكرة السلوك العياري لجماعة المترجمين على حسابفاعلية المترجم الفرد، وهي المشكلة التي تناولها باحثون لاحقون ركزوا جل اهتمامهم على فردية الاختيارات التي يقوم بها المترجمون، بل وتحدتهم لما يعتبر في ثقافتهم معايير ترجمة متلقاً عليها. المشكلة الثانية التي يطرحها مفهوم للمعايير هو الصعوبة الإجرائية المقترة بتحديد ما يعد "معيّاراً للترجمة"، فلكي يصل الباحث إلى أن سلوكاً ترجعياً ما يشكل سلوكاً معيارياً لا بد من الاستناد إلى كم هائل من دراسات الحالة التي يستطيع الباحث أن يؤسس عليها حكمه بأن اختيار لفظ ما دون أخرى أو أسلوباً ما دون غيره هو المعيار السائد لدى جماعة المترجمين في ثقافة معينة وفي زمن محدد. أيضاً ينطوي مفهوم المعايير على إشكال يمكن التعبير عنه في مجموعة من التساؤلات: هل لهذه المعايير وجودٌ موضوعي مستقلٌ عن ذات الباحث الذي يقوم باستعادتها من خلال فحص لترجمات عديدة؟ بمعنى آخر كيف نضمن أن ما يسميه الباحث معياراً للترجمة ليس سوى ما يتصور هو أنه معيار؟

من بين الباحثين الذين أولوا مفهوم "معايير الترجمة" اهتمامهم واشتبكوا مع ما يطرحه من معضلات منهجية وإجرائية ليو هيرمانز الأستاذ بجامعة لندن الذي ارتبط اسمه بمجموعة الباحثين الذين برزوا في منتصف الثمانينيات والتفوا حول أعمال جدهون توربي وصلوا على تطويرها وتطبيقها على دراسات حالة في تراثات ثقافية ولغات مختلفة. عرفت هذه المجموعة من الباحثين باسم "مدرسة التحوير" نسبة إلى كتاب حرره هيرمانز عام ١٩٨٥ بعنوان تحوير الأدب: دراسات في الترجمة الأدبية The Manipulation of Literature وضم دراسات لتوربي وعدد آخر من الباحثين من هولندا وبلجيكا والمملكة المتحدة، خصوصاً من جامعة وارويك التي أنجز فيها هيرمانز رسالته للدكتوراه وزامل فيها باحثة أخرى انتمت هي الأخرى إلى مدرسة التحوير وهي سوزان باسنت. حدد هيرمانز في مقدمته لهذا الكتاب ما يمكن اعتباره مائيفستو مدرسة التحوير، الذي أكد فيه على أهمية مفهوم "معايير الترجمة"، وإن أكد فيه أيضاً على ضرورة دعم هذا المفهوم النظري بدراسات حالة تدعمه أو تدحضه، يقول هيرمانز في مقدمة كتابه:

ما يشترك فيه هؤلاء جميعاً [أي مجموعة الباحثين المشاركين في الكتاب] باختصار هو نظرتهم إلى الأدب بوصفه نسقاً معقداً ودينامياً، وقناعتهم بالضرورة وجود علاقة تفاعل متواصلة بين التماذج النظرية ودراسات الحالة العملية، وتبنيهم لمنهج في دراسة الترجمة الأدبية يكون وصفاً، ومتوجهاً نحو الثقافة التي يترجم إليها، ووظيفيةً ونسقيةً. كما يشترك هؤلاء أيضاً في اهتمامهم بالمعايير والمحددات التي تحكم إنتاج الترجمات وتلقيها، واهتمامهم بعلاقة الترجمة بأشكال أخرى من إنتاج النصوص، وكذلك اهتمامهم بدور ومكانة الترجمات داخل أدب ما، ودورها في العلاقة التفاعلية بين الآداب وبعضها البعض<sup>(٣)</sup>.

ما يلتفت إليه هنا هو اهتمام هيرمانز بالحضور الفاعل للترجمة في اللغة/الثقافة الهدف من خلال التركيز على دراسات الحالة التي تبرز الصوت الخاص للمترجم الذي يلزم فعل الترجمة، بغض النظر عن معايير الترجمة السائدة، لا سيما معيار "الأمانة للنص والمؤلف الإسلاميين". يواصل هيرمانز في مقاله المنشور ضمن هذا الملف (والذي نشر عام ٢٠٠٢ ضمن مجموعة مقالات سمعها كتاب بعنوان *دراسات الترجمة*: رؤى حول مبحث معرني ناسخ) ما كان أولاه اهتمامه في أبحاث أخرى حول حضور المترجم في عملية الترجمة. يشترك هيرمانز في هذا المقال مع التصورات السائدة عن الترجمة في المجال العام والتي ترى فيها فعلاً محايداً يلتزم فيه المترجم الصمت لكي يُسمع فقط صوت المؤلف، منتجاً في النهاية نصاً يشق عن النص الأصلي ويؤكد على حضوره على حساب غياب المترجم. ينفي هيرمانز هذا التصور داخلاً إياه من خلال مجموعة من حالات الترجمة التي تبرز تعدد الأصوات داخل نص الترجمة، وهذا التعدد لا يرجع فقط إلى حضور المترجم، إنما يرجع أيضاً إلى علاقات التناص التي يدخل فيها نص الترجمة مع نصوص أخرى في الثقافة الهدف وتستدعي مؤلفين آخرين من الثقافة المترجم إليها. كل ذلك يجعل من نص الترجمة على حد تعبير هيرمانز "نصاً هجيناً"، وهو ما يجعل مقولتي الأمانة والخيانة غير صالحتين لفهم نص الترجمة. لا يكتفي هيرمانز في مقاله بعرض المفارقات التي تنطوي عليها الترجمة بوصفها عملية ومنتجاً نهائياً، لكنه يعرض أيضاً للإشكاليات المتعلقة بدراسات الترجمة ذاتها وذلك في فصل نقدي ذاتي لطبيعة البحث في دراسات الترجمة والعمليات المعرفية اللازمة له وشروط امتلاك المعرفة في هذا الحقل المعرني. أهم ما يخلص إليه هيرمانز هو قوله بضرورة النظر ملياً في العلاقة بين الباحث في هذا المجال وموضوع بحثه، وهي علاقة لا تحكمها موضوعية مزعومة — كما رأى الكثيرون ممن تبنا منهج الدراسات الوصفية للترجمة — وإنما هي علاقة يمد الباحث طرفاً أصيلاً فيها، وتورط ذاته الباحث في عمليات للتوصيف والتحليل والتفسير لتطوّر الترجمة المختلفة أمر لا ينبغي أن يلام عليه، وإنما عليه أن يكون واعياً به. الباحث في دراسات الترجمة — حسبما يرى هيرمانز — هو ذاته يقوم بفعل ترجمة يحاول من خلاله أن يعطي دلالة ومعنى للظاهرة التي يدرسها من خلال تعيينها بنماذج مفاهيمية معينة



وصفها بلغة ومواضع أكاديمية محددة، وهو ما يعني أن القاهرة تفتقد وجودها الموضوعي أثناء البحث وتصبح رهناً لتصورات الباحث وأدواته وتتلون برؤاه وأجندته البحثية.

لم يكن ثيو هيرمانز وحده الذي التفت إلى مسألة حضور المترجم في الترجمة، فقد شهد عقد التصعينيات من القرن الثالث ظهور العديد من الباحثين الذين أولوا هذه المسألة اهتمامهم، ولكن ربما أشهرهم على الإطلاق هو الباحث الأمريكي لورانس فينوتي بجامعة تيمبل الذي يعد كتابه *خلفاء المترجم: تاريخ للترجمة* (الذي نشرت طبعته الأولى عام ١٩٩٥) من أهم الكتابات التي ظهرت في حقل دراسات الترجمة بهدف مساءلة تصوراتنا التقليدية حول الترجمة، وعلى رأسها فكرة وجوب حياد المترجم أو غيابه في عملية الترجمة. يحدد فينوتي في كتابه ما يقصده بمفهوم خلفاء المترجم كالتالي:

"الخلفاء" هو المصطلح الذي استخدمته لوصف موقف المترجم ونشاطه في الثقافة الأنجلو-أمريكية المعاصرة. والمصطلح يشير إلى ظاهرتين يؤثر أحدهما في الآخر: الأولى تتعلق بالأثر الإيهامي الذي يحدثه المترجم في خطاب الترجمة من خلال معالجته الخاصة للغة الإنجليزية، أما الظاهرة الثانية فتتعلق بالطريقة التي تمارس بها قراءة الترجمات وتقييمها، وهي طريقة طاقلا سادت في المملكة المتحدة والولايات المتحدة. إن النص المترجم، سواء كان نشراً أو شعراً، قصة أو غيرها، يحكم عليه بالقبول من جانب الناشرين، وكتاب المراجعات النقدية والقراء عندما تكون قراءته سلسلة، لا وجود فيها لسمات لغوية أو أسلوبية غريبة، مما يجعل النص يبدو شفيفاً، موحياً بأنه يعكس شخصية الكاتب الأجنبي أو قصده أو المعنى الجوهرى للنص الأجنبي - موحياً، بكلمات أخرى، أن الترجمة ليست ترجمةً في واقع الحال، وإنما الأصل<sup>٣٠</sup>.

يقوم مشروع فينوتي في كتابه *خلفاء المترجم* على رصد هذا التصور عن وضعية المترجم سواء في إنجانجا للترجمة أو في قراءتنا لها، ويرى أن هذا الأثر الإيهامي الذي يخلقه المترجمون في خطابهم، ويقبله جمهور القراء في تلقيهم للترجمة قد حال دون فهم الدور الحقيقي الذي تلعبه الترجمة في صياغة التاريخ الأدبي للثقافة المترجم إليها. ويعود فينوتي في مقاله المترجم ضمن هذا الملف عن "الترجمة وجماعات التلقي واليوثوبيا" إلى الطرح ذاته مؤكداً على فاعلية المترجم وحضوره في الثقافة الهدف مهما كانت محاولاته في محو بصمته من الترجمة. أهم ما يلتفت إليه في مقال فينوتي هنا هو ما يخلص إليه من قدرة الترجمة على خلق جماعات تلقٍ جديدة في اللغة/الثقافة المترجم إليها. إن المترجمين بما يطعمون به نصوصهم من سمات لغوية وجمالية محلية يصبحون قادرين ليس فقط على مخاطبة جماعات تلقٍ قائمة، وإنما استشراف، بل وخلق جماعات تلقٍ جديدة.

إضافة إلى الأمثلة العديدة التي يذكرها فينوتي من ترجمات أدبية نقلت من الإيطالية إلى الإنجليزية تؤكد على هذه الفكرة، أسوق مثلاً واحداً من تاريخ الترجمة للمسرح في مصر.

يعرف المهتمون بتاريخ المسرح المصري أنه قام على أكتاف الترجمة التي كانت في مراحلها الأولى تستهدف عامة المصريين الذين لم يكن يعنيه من مسرحيات شكسبير أو مولير الترجمة سوى أمرين: النهاية السعيدة التي توقعوها ولم يكونوا ليقبلوا بدلاً عنها بفرض النظر عن كون المسرحية المترجمة مأساة أو ملهاة؛ والأمر الثاني هو عدد الوصلات الغنائية التي يؤديها الشيخ سلامة حجازي مثلاً الذي اشتهر بتثيل دور هاملت في العقد الأول من القرن العشرين في نسخة غنائية ميلودرامية من ترجمة طانيوس عبده. لم تكن مسألة الأمانة/الحيانة لشكسبير أو غيره من الكتاب المترجمين في حساب هذا الجمهور الذي عرف مترجمو هذه الفترة كيف يخاطبونه. ظل هذا الجمهور من عامة المصريين هو جماعة التلقي الوحيدة التي اعتمد عليها مترجمو المسرح منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر وحتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين حين بدأ الشاعر والمترجم المسرحي خليل مطران (١٨٧٣-١٩٤٩) في إنتاج ترجماته لمآسي شكسبير ليقدمها جورج أبيش (١٨٨٠-١٩٥٩) على مسرحه. في عام ١٩١١ انتهى مطران من أول هذه الترجمات وكانت ترجمته لعطيل واستمر بعدها يتعاون مع أبيش حتى قدم آخر ترجمة له وكانت ترجمته لتاجر البندقية عام ١٩٢٢. طوال هذه السنوات كان الجمهور الرئيسي للترجمات مطران من الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة ممن لديهم قدر لا بأس به من التعليم والثقافة. فضلاً عن هذا الجمهور فقد ظلت ترجمات مطران طوال تسع سنوات تشكل جماعة تلق جديدة لم تكن موجودة قبله، ألا وهي جماعة النقاد وكتاب المراجعات النقدية للمسرحية الجادة. حتى عشرينيات القرن العشرين لم يكن هناك كتابة نقدية عن المسرح وترجمته يعتد بها إلى أن شرع الكاتب والناقد المسرحي محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) في كتابة سلسلة من المقالات الأسبوعية نشرت في مجلة السفور عام ١٩٢٠ أسماها "محاكمة مؤلفي الروايات التمثيلية". اتخذت هذه المقالات شكلاً قصصياً تخيل فيها تيمور وجود محاكمة، للمتهمون الرئيسيون فيها هم المشتغلون بالمسرح في ذلك الوقت من مؤلفين ومترجمين وممثلين، ولم يقله أن يضم إلى هؤلاء مترجمي المسرح أيضاً فجاءت عريضة الاتهام مشتملة على اسمي فرج أنطون وخليل مطران. كانت التهمتان اللتان وجهتا إلى هذين المترجمين والحكمان المختلفان اللذان نالاهما في نهاية سلسلة المقالات تعبيراً عن نشأة جماعة تلق جديدة للمسرح وترجمته تتبنى معايير تقييم جديدة كان لخليل مطران دور كبير في إرسائها من خلال ترجماته. كانت تهمة فرج أنطون هي إدخال بدعة الاقتباس التي عمد من خلالها إلى "الروايات القودفيلية القديمة وترجمتها ترجمة غريبة عجيبة مشوهة، نسخها عامي والنصف فصيح وخلطها ببعض نكاتٍ سوربة"<sup>١٤</sup>. وكان الحكم الذي ناله أنطون عن هذه التهمة أن يحرم من الاشتغال بفرن الاقتباس مدة عشر سنوات، وهي الفترة التي تكفي الجمهور المصري لتسيان هذا النوع العقيم من الترجمة<sup>١٥</sup>. على النقيض من ذلك كانت تهمة خليل مطران أنه لم يترجم من مسرحيات شكسبير حتى ذلك الحين سوى ثلاث مسرحيات رغم قوة ومثانة ترجماته حسناً تجاه في الاتهام. التوجه إليه الذي برئ منه مطران مع تشجيعه على مواصلة الترجمة. إن القراءة المتأنفة لهذه المقالات ترينا الدور

الكبير الذي لعبته ترجمات مطران في تكوين الجيل الأول من نقاد المسرح. من أوضاع التأثيرات التي تركها مطران في وعي هذا الجيل الذي شكل جماعة تلقّ جديدة هو توفير المؤلف الأصلي وإعطاء نصه أولوية على توقعات الجمهور، ومن ثم لم يكن من قبيل المصادفة في هذه المحاكمة المخيلة أن تتألف لجنة القضاة من موليير وكورني وجيته ويرأسها شكسبير، فالملفون هنا هم الذين يحاسبون المترجمين على ما يأتونه من قصور. ولم يترسخ مبدأ الولا، للمؤلف الأصلي إلا مع ظهور ترجمات مطران.

### الترجمة فعل سياسي: أسئلة الحاضر وتحديات المستقبل

إن التطورات الحادثة في دراسات الترجمة منذ عقد التسعينيات حتى الآن لم تنفصل عن التغيرات الاجتماعية والسياسية التي طرأت على المشهد الثقافي والاجتماعي خلال تلك الفترة. على الرغم من أن الإنجاز الأكبر الذي حققته دراسات الترجمة منذ إيفن زوهار هو ربط الترجمة بالثقافة والنظر إليها بوصفها مرآة للثقافة التي تنتج فيها، فقد ظهرت أصوات منذ أواخر التسعينيات واستمرت حتى الآن رفضت فكرة أن تكون الترجمة مجرد انعكاس لممارسات ثقافية. إن كانت الترجمة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة التي تنشأ فيها - حسبما رأت هذه الأصوات - فهي لا يمكن أن تكتفي بأن تكون انعكاساً لمشكلات تلك الثقافة، بل يمكنها أن تكون جزءاً من الحل أيضاً. من هنا ظهرت العديد من التوجهات البحثية التي اهتمت برصد ظواهر الترجمة التي تنخرط في المجال السياسي والاجتماعي العام بغرض الاشتباك مع أفكار ومسلّمات بعينها بغية مساءلتها وطرح بديل عنها. إن ما أسماه فينوتي بالترجمة المقايمة والتي كان يقصد بها الترجمة التي تخرج عن اللواضعات الجمالية واللغوية المقبولة في ثقافتها يكتسب لدى توجهات أخرى ظهرت في حقبة التسعينيات معنى سياسياً صريحاً. أشير هنا على وجه الخصوص إلى الإسهامات التي طرحها باحثون في إطار ما سمي لاحقاً بالتوجهات الجنوسية وما بعد الكولونيالية في دراسات الترجمة. الترجمة في سياق هذين التيارين لا يمكن أن تكون محايدة، ولا يمكن أن يكون المترجم فيها غائباً أو أن يكون ظهوره في الترجمة لمجرد تسجيل حضور لنوي/بلافي، بل إن دور المترجم هنا لا يختلف كثيراً عن دور الناشط السياسي الذي لا يعا بما هو مستقرٌ من ممارسات سياسية واجتماعية، بل يبادر إلى مواجهتها وتغييرها إن أمكن.

لم يكن من المستغرب في ضوء هذا الفهم السياسي لدور الترجمة أن يهتم الكثير من الباحثين والباحثات بعلاقة الترجمة بالجنوسة والدور الذي تلعبه الترجمة في مواجهة العلاقة التراتبية بين الرجل والمرأة. من هنا ظهر العديد من المشروعات البحثية - ومعظمها صدر عن مراكز بحثية في كندا - التي ركزت من ناحية على إعادة قراءة تاريخ الترجمة من وجهة نظر نسوية تسعى إلى إلقاء الضوء على دور المترجمات في صياغة التاريخ الأدبي والدور الذي لعبته في استخدام الترجمة كوسيلة لإسماص أصواتهن فيما يتعلق بوجودهن في المجتمع وفيما يتعلق بتسوياتهن عن ذواتهن وعن أدوارهن في مقابل الدور الذي يلعبه الرجل. من بين

المقالات المنشورة في هذا الملف ترجمة لإحدى مقالات الناقدة التفكيكية جابياتري سبيفاك التي تؤكد فيه على الدور الذي يمكن أن تلعبه الترجمة ليس فقط في تفكيك اللغة وإنما في تفكيك كافة أشكال التراتب الاجتماعي من رجل/ امرأة، وعالم أول/ عالم ثالث، ومستعمر/ مستعمر.

لعل اللافت للانتباه في الكثير من مشروعات الترجمة التي تلتهى هذه الرؤية للترجمة بوصفها نشاطاً سياسياً هو وعيها بالدور الذي تلعبه، بل وصراحتها في الإقصاص عن هذا الدور للقارئ دون حاجة إلى تبرير موقفها أو خوف من الاتهام بخيانة المؤلف. والمثال الأوضح هنا هو ما ذكرته سوزان دي لوتبيتيير وود في مقدمة ترجمتها لرواية ليز جوفان بعنوان خطابات من آخر تقول دي لوتبيتيير وود في مقدمة الترجمة:

إن ترجمتي ليست سوى نشاط سياسي يستهدف جعل اللغة تتكلم نهاية عن المرأة، ومن ثم فإن توقعي على هذه الترجمة يعني أنني استخدمت كل استراتيجيات بهدف جعل الهوية الأنثوية ظاهرة في اللغة<sup>(١)</sup>.

إن الاهتمام بالفعل السياسي الذي تنطوي عليه الترجمة شكل جزءاً أساسياً من اهتمامات العديد من الباحثين والباحثات في الوقت الحاضر. من بين هؤلاء باحثتان من أصل مصري هما منى بيكر ومiriam سلامة كار اللتان تشتغلان بالتدريس في جامعتي مانشستر والفلورن بالملكة المتحدة. تركّز اهتمام بيكر ومن بعدها Miriam كار على دور الترجمة في المواقف السياسية والاجتماعية التي تدخل الترجمة فيها طرفاً في صراع ما. في هذا الإطار أصدرت منى بيكر عام ٢٠٠٦ كتابها المهم بعنوان الترجمة والصراع، كما نظمت Miriam كار مؤتمري عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ عن الموضوع نفسه ونشرت الأوراق المقدمة في المؤتمرين في كتاب بعنوان: ترجمة الصراع صدر عام ٢٠٠٧. تنطلق الباحثتان في تصوريهما عن علاقة الترجمة بأشكال الصراعات المختلفة، من رفض تام لتصوير ساذج عن الترجمة نظالاً ساد كتاباتنا ومؤتمراتنا عن الترجمة، وهو تصور يرى في الترجمة وسيلة لد الجسور بين الشعوب والثقافات، وبسيطاً محابداً موضوعياً يمكن أن يسهم في تحقيق التفاهم والتعايش بين تلك الثقافات. الجديد في إسهام منى بيكر على وجه الخصوص هو استلهاها أداة بحثية من علم الاجتماع وهي مفهوم السردية أو المروية الذي تستخدمه في رصد وتحليل الآليات التي يتبعها المترجمون في تشكيل وصياغة الترجمة بحيث تخدم وجهة نظر أو سردية ما ذات طابع سياسي أو اجتماعي واليواسع التي تحركهم من أجل تبني سردية ما وتدفعهم بالضرورة لاتخاذ موقف معين من النص الذي يترجمونه.

إن استعارة منى بيكر لمفهوم السردية من علم الاجتماع ليس سوى مثال لعدد من الأبحاث في الوقت الحاضر تحاول أن تحقق هدفين أراهما ما زالتا صالحين لمستقبل دراسات الترجمة وهما تحطيم الأفكار المغلوطة عن الترجمة وتبيان ما بها من تبسيط وإخترال لطاهرة معقدة تعيد الثقافة والمجتمع والسياسة، والهدف الثاني هو محاولة استلهاها نماذج وأدوات بحثية من حلول معرفية أخرى تسمح للباحثين بأن يروا ما حجزت النماذج البحثية القديمة

عن رؤيته. أسيف إلى هذين الهدفين هدفاً ثالثاً أراه - وبراء معي العديد من الباحثين - من بين أولويات أجندة البحث في المستقبل القريب لدراسات الترجمة، وأقصد هنا الحاجة إلى مساهمة باحثين من تراثات ثقافية خارج الدائرة الثقافية الغربية، وهي حاجة ليس فقط إلى كسر احتكار الغرب لهذا الحقل المعرفي، بل هي حاجة أيضاً إلى صياغة تصورات مغايرة عن الترجمة تستند إلى دراسات حالة تختلف في طبيعتها وبواعثها وآلياتها وشروط إنتاجها عن حالات الترجمة داخل التراث الغربي.

إن هذا الملف ليس سوى خطوة أولى في طريق شاق مرصاه الإجابة عن سؤال الفهم. وتكون دراسات الملف كلها قائمة على ترجمة لأبحاث أنتجت خارج العربية لا يبدل إلا على حاجتنا إلى الانخراط بجديفة في هذا الحقل المعرفي، وتمثل أسئلته ومفاهيمه ونماذج النظرية، ساعين إلى الاشتباك النقدي معها، منطلقين من معرفة وثيقة بقرات الترجمة لدينا، والأسئلة المائزة التي يطرحها علينا هذا التراث. إن هذا الملف لم يكن ليخرج إلى الوجود لولا الدعم الدائم الذي وجده من الأستاذة الدكتورة هدى وصفي وفهمها لأهمية ودلالة القضايا المطروحة هنا. كذلك لا يفوتني أن أشكر الزملاء المترجمين الذين أسهموا في نقل المقالات، وعانوا في سبيل ذلك مشقة البحث عن مفاهيم لم يستقر معظمها بعد في العربية.

الهوامش :

(١) أشير هنا على وجه الخصوص إلى عمليات الترجمة التي تتم داخل مراكز استقبال اللاجئين في دول العالم الأول وما يسمى بالترجمة المجتمعية *community interpreting* والتي يصبح فيها نص الترجمة هو الفرد ذاته بما يحمله من أفكار وموروثات وما يحمله معه من مشكلات يأتي بها إلى العالم الأول طالباً قبوله وإدماجه في بيئة ثقافية جديدة؛ وآليات القول في الثقافة المضيفة هنا تتطوّر غالباً على محاولة ترجمة هذا الفرد ذاته بحيث يصبح مفردة تأخذ مكانها داخل نص ثقافي جديد. تعد عمليات الهجرة صوماً في هذا السياق، بوصفها انتقالاً في المكان من نص ثقافي إلى آخر، شكلاً من أشكال الترجمة.

(٢) لا بد من الإشارة هنا إلى محاولات سابقة ومهمة لتقديم دراسات الترجمة لقراء العربية، وأخص من هذه المحاولات كتاب الدكتور محمد عثاني بعنوان *نظرية الترجمة الحديثة: مدخل إلى بحث دراسات الترجمة* (٢٠٠٣)، وما أورده الباحثان ميجان الرويلي وسعد الهازمي عن دراسات الترجمة في كتابهما *دليل الناقد الأدبي* (٢٠٠٠). كذلك أشير إلى ما يقوم به المركز القومي للترجمة الآن من ترجمة بعض الكتابات الوثيقة الصلة بدراسات الترجمة. ولا يفوتني أيضاً أن أشير إلى محاولة أخرى سابقة وهي المحاولة الجادة والأصيلة للاشتباك مع الفكر الغربي حول الترجمة، التي قام بها الباحث الغربي الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه *لغة الفلسفة: للفلسفة والترجمة* (١٩٩٥).

(٣) هذا لا ينفي وجود كتابات عن الترجمة سبقت هذا التاريخ في كل الثقافات واللغات. والمقصود هنا أن التفكير المنهجي حول الترجمة باعتبارها موضوعاً للبحث الجاد داخل الإنسانية لم يبدأ إلا في هذا التاريخ.

- (4) Holmes, James. 1987. "The name and nature of translation studies". *Indian Journal of Applied Linguistics* 13 (2): 9-24, p. 11.
- (5) Hermans, Theo (ed.). 2002. *Crosscultural Transgression: Research Models in Translation Studies*. Manchester: St Jerome Publishing, p. 1.
- (6) Hermans, Theo (ed.). 1985. *The Manipulation of Literature: Studies in Literary Translation*. London: Croom Helm, pp: 10-11.
- (7) Venuti, Lawrence. 1995. *The Translator's Invisibility: A History of Translation*. London and New York: Routledge, p. 1.

(٨) النظر سلسلة توثيق التراث المسرحي، الجزء التاسع، ١٩١٩ - ١٩٢٠، المصادرة عن المركز القومي

للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٩) نفس المرجع، ص ٣٠٢.

(١٠) النص مأخوذ من كتاب شيري سيمون، ص ١٥:

Simon, Sherry. 1996. *Gender in Translation: Cultural Identity and the Politics of Transmission*. London and New York: Routledge.

# مفارقات وإسكاليات في

فعل الترجمة وحقل دراساتها الترجمة



**تأليف : ثيوهيرمانز / ت: محمد بهنسي**

الكثير منا يفقد من الترجمة بشكل أو بآخر يومياً، كما أننا نتحدث عن الترجمة على نحو غير رسمي، ربما بصفة غير يومية، ولكن بشكل منظم. وتعد اللغة التي نتحدث بها عن الترجمة مألوفة لدى كافة المعنيين بالترجمة. فكلنا نتأثر وبشدة، سواء وعينا ذلك أو لم نعه، بالكيفية التي تحل بها ثقافتنا إلى الترجمة، وترسم حدود معناها، وتبني مفهومها، وذلك عبر أشكال عديدة من اللغة المجازية. ونحن نسلم بهذه اللغة المجازية ونقر بها حينما يتم توصيف الترجمة باستخدام مجازات من قبيل جسر البناء أو المعايير أو باعتبار الترجمة نقلاً أو بقاءً أو تحويلاً. يضاف إلى هذه القائمة مجازات أخرى شبيهة من شأنها أن تضيق الكثير إلى سلسلة الدلالات السابقة. وكل هذه المجازات تركز للوظيفة التمكنية التي تحدثها الترجمة. تتحقق هذه الوظيفة بواسطة ترجمة ناجزة يقصد منها تزويد المستخدم بصورة موثوقة للنص الأصلي وذلك لأنها تشبه بدقة ذلك النص الذي استولدها parent text والذي يصعب الوصول إليه. وفي هذا السياق يعبر عن الترجمة من خلال مجموعة من المجازات التي تجعل منها صورة طبق الأصل أو مستنسخاً أو لوحة شخصية أو المكاساً أو إعادة إنتاج أو محاكاة أو صورة مرآوية أو لوحة زجاجية شفافاً.

ونظراً لأن طرائق الحديث عن الترجمة تبدو مألوفة أو حتى مبتذلة لنا، فإننا لانكاد نعي المجاز الطويء في عبارة مثل "الرئيس يلتصق كان يتحدث من خلال مترجمه القوري" (فما الذي تعنيه عبارة "من خلال مترجمه القوري") وكذلك الاختزال المذهل الذي تنطوي عليه عبارة تقريرية مثل "لقد قرأت دستيوفسكي" التي تعني عند تفكيكها أن ما قرئ كان ترجمة فعلية لدستيوفسكي ولكن، نظراً لأنها كانت ترجمة صحيحة، فإنها كانت بكل المعاني قراءة جيدة مثل الأصل تماماً، وذلك بنفس الطريقة التي يتطابق فيها صوت مترجم

يلتصين عملياً وأدائياً مع صوت يلتصين نفسه. ثمة جانب مثير للدهشة في مثل هذه العبارات العارضة وهو ميلها إلى أن تسقط المترجم من الحسمان؛ فيلتصين يتحدث عبر مترجم غير مرئي بالفعل وإنتي، مثلي في ذلك مثل كل القراء، لا أستطيع أن أتذكر اسمي مترجمي مستوفسكي في الإنجليزية أو الهولندية. ونحن نستخدم هذه التعبيرات بشكل تلقائي لأننا نفرس الترجمة باعتبارها شكلاً من أشكال الحديث المفوض المحكوم بمبدأ افتراضي هو التكافؤ equivalence. إن المترجمين لا يتحدثون بالأصالة عن أنفسهم ولكن بالنيابة عن شخص آخر، فنناغم الأصوات وكذلك العلاقة التراتبية بينها يتم التعبير عنهما من خلال الضرورة الأخلاقية وغالباً القانونية التي تفرض على المترجم التزام اللطنة في النقل وعدم التدخل، وقد صاغ براين هاريس هذه الضرورة في تعبيره معيار "التوافق الأمين بلسان المتحدث الأصلي" أو "الترجمان الحقيقي" (هاريس ١٩٩٠-١١٨)، ويمقتضى ذلك المعيار فإن على المترجم إعادة تقرير الأصل بدقة وبساطة دون إضافة أو حذف أو تشويه. فكلمات المترجم تبدو وكأنها بين علامتي تنصيص، فعلى الرغم من أن المترجم هو الذي يتحدث بالكلمات المترجمة فإنه ليس هو الذي يتحدث؛ فكلمات المتحدث الأصلية يتم نقلها بدون تدخل أو بأقل قدر منه، وذلك من خلال وسيط حميف وثقيف ومحروم من أن يكون له صوت خاص به. فله صوتان يتم اختزالهما في صوت واحد. إنهما لا ينصهران أحدهما في الآخر وإنما يختفي أحدهما لصالح الآخر. هذه الشكافية وتلك الحصافة وما ينشأ عنهما من تليب لصوت المترجم هي التي تضمن تحقيق التكافؤ.

إننا نعلم، بطبيعة الحال، أننا حينما نناقش الترجمة باستخدام لغة كهذه فإننا إنما نسلم بفكرة خيالية؛ فالترجمة لا يمكن أن تكون قريباً للنص الأب الذي نشأت منه، فهي تستخدم كلمات مغايرة، مأخوذة من مصدر مختلف وتستهدف هيئة مختلفة. فالترجمة لا يمكن أن تكون مكافئة للنص الأول، إذ لا يتحقق هذا التكافؤ إلا بإعلاتنا عنه من خلال فعل كلام أدائي<sup>(١)</sup> performative speech act. زد على ذلك، فإن تدخل المترجم لا يمكن تحييده أو محوه بدون أن يخل ذلك أثراً ما، ومن ثم علينا أن نقبل بوجود هذه الآثار. فيما يلي أود أن أوضح هذه النقطة عن طريق التشكيك أولاً بحضور "الصوت الفارق" للمترجم في الترجمات (والمصطلح صاغته باربرا فوكارت، ١٩٩١: ٣٩٤)، ثم تبيان تداعيات التوجه الذي يقوم على دراسة معايير الترجمة.

إن الاعتبارات الخاصة بالصوت الفارق للمترجم وبلالات مفهوم "معايير الترجمة" من شأنها أن تزودنا بأساس نظري يسمح لنا بأن نطرح تصوراً مفاده أن الترجمات غير متسقة ومنحازة أكثر من كونها تمثيلات شائعة للنصوص المترجم عنها. وسوف أستخدم هذا الأساس النظري في نقاشي للمفارقات والإشكاليات التي تحكم تمثيلاتنا للترجمة. وأستخدم مصطلح الإشكاليات. وتنحصر أطروحتي الأساسية في أن هذه التمثيلات في حد ذاتها ليست سوى ترجمات غير متسقة ومنحازة.



على التقيض من التصور الشائع الذي يرى ضرورة التزام المترجم بحصافة افتراضية وعدم تدخله أثناء الترجمة، وهو ما يعني ضرورة تخفي المترجم كذات متكلمة أرى أن المتحيز للترجمة هي نصوص متعددة بالضرورة ولا مركز لها، كما أنها هجينة وقائمة على التعدد الصوتي. إن الحضور الخطابي للمترجم بوصفه صوتاً متميزاً وذا موقع في الحديث - ومن ثم بوصفه صوتاً فارقاً كما تقول فوكارت - مائل دائماً في نص الترجمة ذاته.

وتعمل الكثير من الترجمات على إخفاء ذلك الصوت ومن ثم يستحيل اكتشافه بوصفه صوتاً فارقاً في النص المترجم. والانطباع الناتج عن هذا التجانس بين نص الترجمة والنص المصدر هو ما يجعلنا نقول إننا قد قرأنا دسيفوسكي كما يجعلنا ننسى اسم المترجم. إلا أن تناقضاً قد يبرز بين نص الترجمة والنص المصدر على نحو يبطل الإيهام الذي يقدمنا إلى المطابقة بينهما. وهنا يتكشف لنا تناقض أساسي في موقفنا إزاء الترجمة، إذ نقبل بأن النصوص المترجمة يعاد توجيهها نحو نوع مخالف من القراء في بيئة لغوية وثقافية مغايرة، وفي الوقت ذاته نتوقع ممن يقوم بالترجمة أن يخفت صوته إلى الحد الذي يتلاشى فيه كلياً. ويظهر ذلك التناقض في أبسط أشكاله وأكثرها فجاجة في الأفلام المدبلجة dubbed

حينما لا تتزامن synchronize كلمات الترجمة المسموعة مع حركة شفتي الممثل على الشاشة. وقد يدرك المتفرجون هذا التعارض وأن هذه الأفلام مدبلجة ومن ثم فالصوت الذي يسمعون لا ينطق بالفعل بالكلمات نفسها التي تخرج من الشفاه التي تتحرك على الشاشة. أيضاً فإن الأفلام المترجمة والكتب المترجمة المطبوعة في نسخ ثنائية اللغة يتجاوز فيها النص المصدر مع نص الترجمة تعد كاشفة في هذا السياق. كذلك إن افتراضنا أن متحدثاً في مؤتمر تترجم كلماته ترجمة فورية يقول مثلاً: "إن من يتحدث الآن هو أنا وليس المترجم"، فإن ذلك يخلق موقفاً مجرباً ولكنه كاشف. فعند ترجمة ذلك، تتناقض الجملة مع نفسها لأن الكلمات المترجمة يدلي بها المترجم وليس المتحدث الأصلي. وينشأ التناقض من أنه في مثل هذه الحالة ليس من المفترض في الأنا الخطابية أن تحيل إلى منتج الجملة ومع ذلك فإنها تفعل ذلك لأن ذلك طبيعة ضمير التكلم المفرد. إن الالتباس في الإحالة يلقي الضوء على فجوة ما.

دعني أصرب المزيد من الأمثلة المستقلة من نصوص، وهي أمثلة ذات صلة بما يسميه رومان ياكوبسون بالوظيفة الميتalingوية للغة، أو ما يقصده دريدا بـ "إعادة إشارة" اللغة إلى نفسها، ومن ثم لفت الإنتباه إلى نفسها على نحو يتسم بالفارقة. على سبيل المثال عندما يسطر المترجمون في عتبات<sup>(٢)</sup> نص الترجمة تعليقات على أدائهم الترجمي فإن ذلك من شأنه أن يقطع شبكة الإيهام التي تبدو متماسكة والتي تغلف خطاب المترجم. مثل هذه التدخلات من جانب المترجم قد تمتدعياً التورية اللفظية wordplay. تستثمر التورية اللفظية في الذخيرة المتاحة للغة ما، ومن ثم تشكل التوقيع الخاص باللغة والمميز لها (ديفيز ١٩٩٧) كما تبرز النظام الخاص بهذه اللغة الذي تتجذر فيه. وعند ترجمة التورية اللفظية قد يكون المترجمون قاندين على التعامل معها في اللغة المترجم إليها دون أن يكون قارئ الترجمة في

وضع يسمح له باكتشاف وجود دلالات مغايرة تماماً للأصل. وفي بعض الحالات يعترف المترجمون بال فشل ويقومون بالتدخل في النص الأصلي عن طريق الحواشي في أسفل الصفحة أو التعليق بين الأقواس، وهم بذلك يقطعون التدفق الخطابي للنص عن طريق الدفع إلى المقدمة بصوت ليس من المفترض فيها كقراء أن تكون على وعي به.

وهذه الظاهرة ليست مقصورة على النصوص ذات الطابع الساخر، فمن الصعب للغاية قراءة فلاسفة مثل هيدجر أو دريدا في ترجمات بدون أن يذهلنا الكم الهائل من المفردات بالفرنسية والألمانية غير القابلة للترجمة التي لا غنى عنها والمكتوبة بخط مائل أو الموجودة بين هلالين. وهذه المفردات تنبهنا إلى أن كل ما ليس موضوعاً بين قوسين ترجمة. وبعبارة أخرى، فإنها تنبهنا إلى وجود تقليد واسع الانتشار يحكم توجه القراء إزاء الترجمات، وهذا التقليد يفترض أن القراء يتناسون أن صفحة العنوان تحمل اسمين، اسم المؤلف واسم المترجم، والقراء إذ يطبقون مبدأ تعليق الشك الإرادي<sup>(3)</sup> *willing suspension of disbelief*، يقرأون النص كما لو كان لمؤلف واحد. وحين يتدخل المترجم في الخطاب فإن الإحالة الذاتية إلى ذلك التدخل تخطر القراء إلى التخلي عن مبدأ تعليق الشك وتذكروهم باعتبارها هذا البدأ.

ويحدث شيء مماثل حينما يكون النص المترجم محتوياً على كلمات أو عبارات بلغة النص المترجم. ففي خطابات فان جوخ على سبيل المثال نجد عبارات إنجليزية داخل النص الهولندي. وفي الترجمة الصادرة عن دار نشر بنجوين لخطابات فان جوخ تركت هذه العبارات بدون ترجمة، أو فنقل إنفا قد ترجمت إلى نفسها إن شئت. ومع ذلك لكي ننقل إلى القارئ فائض القيمة للنص الهولندي الأصلي الذي تظهر به هذه العبارات بالإنجليزية، فإن المترجم الإنجليزي قام بإضافة بعض الهوامش لإخبار القارئ بأن هذه المفردات وردت بالإنجليزية في الأصل مما يعني أن باقي الأصل مصوغ بغير الإنجليزية، ومن ثم فإن جوخ ليس هو كاتب المفردات الإنجليزية الأخرى المشار إليها في الهوامش. قد لا تكون مثل هذه الأمثلة مقنعة تماماً. دعني أضرب مثلاً أفضل. إن مقالة جاك دريدا بعنوان "سياق حدث توقيع" (١٩٧٧) كما ترجمها صامويل فهير وجيفري ميهلمان حافلة بالكلمات الفرنسية الموضوعة بين قوسين مما يدل على حدود القابلية للترجمة كما يدركها المترجمان اللذان يحدان تدخلهما باستخدام تعبير (trans) أي ترجمة كما في المشكلة التي تبعت في ترجمة مصطلح "différance" الذي ترجمه بين قوسين باستخدام كلمتي (اختلاف وإرجاء) (دريدا ١٩٧٧: ١٧٩). وفي مواضع أخرى يشتم خطاب ترجمة نص دريدا بدرجة من عدم الثبات اللغوي الذي قد يراء المترجمان أمراً غير موفق وإن كان حتمياً. مثال ذلك التعبير الفرنسي "vouloir-dire" الذي يحتفظ به المترجمان في النص ويقابلانه بترجمات إنجليزية متباينة. هذا التناقض اللافت بين ثبات العبارة الفرنسية في النص المصدر والترجمات المتعددة في الإنجليزية والمحكومة باختلاف السياق يلفت انتباهنا إلى الحضور الواضح للمترجم.

في مقاله "مؤسسة الأبجدية المحدودة" وهو رد لعمل مفصل للنقد الذي وجهه جون سيرل لمقالة دريدا "السياق، الحدث، التوقيع" بقر دريدا في كثير من الكلمات أنه "إنما يكتب رده بالفرنسية" (١٩٧٧، ١٧٣)، ولكن نظراً لأننا نقرأ ذلك بالإنجليزية فإن التناقض الكامن في هذا القول يبين حضور صوتين يستكان خطاب الترجمة. وقبل ذلك بصفتين يستخدم دريدا اللفظة الأوائلية الفرنسية "Sart" التي تعني "شركة ذات مسؤولية محدودة" وهي لفظة تنطوي على تورية تشير ضمناً إلى اسم خضمه سيرل "Searle". إن علم دريدا بأن مقاله هذا سوف يترجم إلى الإنجليزية يجعله يخاطب المترجم قائلًا: "أطلب من المترجم أن يترك هذا التعبير الاصطلاحي بالفرنسية وإن أمكن أن يقوم بإيضاحه في أحد الهوامش" (١٩٧٧: ١٧٠). وقد نقل المترجم هذا الطلب إلى الإنجليزية، كما تمت تليته بالفعل وترك الاختصار مكتوباً بخط مائل، وهو ما يعد دليلاً واضحاً على تعاون المترجم. إن أداء المترجم هنا يبرز أصوات المتحدثين في صياغة درامية.

وثمة فقرة أخرى تنطوي على قدر أكبر من التناقض وهي الفقرة التي يستخدم فيها دريدا مصطلح "fake-out" ثم يواصل الكلام لعدة جمل ويتوقف فجأة ليمترجم ما كتب قائلًا: "لا أستطيع أن أنصو كيف سيترجم سام فيبر تعبير "fake-out" (١٩٧٧: ٢٦٣) وهذه عبارة غريبة لأن ما نقرؤه في الترجمة الإنجليزية هو المصطلح ذاته الذي ترجمه واستخدمه سام فيبر قبل بضع جمل دون أية تعقيدات. ولكي يوضح دريدا لماذا كان يعتقد أن مترجمه سيواجه صعوبة، نجده يعود إلى المصطلح الفرنسي "contrepied" (الذي يظهر في النص الإنجليزي بالفرنسية دون ترجمة) كما يعرفه قاموس ليجري الفرنسي وهو تعريف نقرؤه وقد ترجم إلى الإنجليزية، ويورد استشهاداً من لافونتتين، في حين أن مصطلح "fake-out" في أول ظهور له في النص الإنجليزي كان قد نقل معنى مصطلح contrepied بشكل مباشر. وإذا توقع دريدا ما تبين أنه لا يشكل أية مشكلة للمترجم فإنه لم يورط المترجم فحسب ولكنه سمح لنا بتسجيل حضور فيبر (المترجم الخطابي في ذلك الوقت الغريب الذي دفع فيه دريدا المترجم بعد أن نجح في ترجمة "contrepied" بهـ "fake-out" إلى العودة إلى المصطلح الفرنسي المقابل الذي اضطر إلى تركه بدون ترجمة، كما مضطروا دريدا أيضاً - نحن القراء - في موقف ينطوي على مفارقة، إلى أن نقرأ بالإنجليزية تعريفاً لكلمة فرنسية كما جاء في معجم فرنسي.

وإذا كان ذلك مثلاً لحالة مركبة تشير فيه الترجمة إلى نفسها في نص يحيل إلى الترجمة ويتوقع حضورها، فثمة مثال آخر مختلف تماماً ودالاً على جوهر الترجمة، وهو الخاص برواية هولندية بعنوان "ماكس هينغلار" لولتاتولي التي نشرت لأول مرة في عام ١٨٦٠، وهذا المثال مباشر ولافت في الوقت ذاته. في النص الأصلي نجد الحوار التالي بين زوج وزوجته:

Weet je nog hoe je naam vertaald heit?

E. H. V. W: eigen haard veel waard;

ويرد ذلك الاستشهاد في أحدث ترجمتين بالإنجليزية كما يلي:

Do you remember how you once translated my initials?

E.H.V.W: eigen haard veel Waard.

(ترجمة زيبينهار، ١٩٢٧)

أي:

هل تتذكر كيف قمت ذات مرة بترجمة الأحرف الأولى من اسمي؟

إي. إتش. في. ديليو: ايجين هارد فيل وارد.

و:

Do you remember how you once translated my initials: E. H.V.W.?

Yes. Eigen haard veel waard.

(ترجمة إدواردز، ١٩٦٧).

أي:

هل تتذكر كيف قمت ذات مرة بترجمة الأحرف الأولى من اسمي. إي إتش. في.

ديليو؟

نعم. إيجين هارد فيل وارد.

كل من المترجمين يوقنان بالنص هامشاً يشرحان فيه أن الأحرف الأولى التي تشير إلى اسم زوجة البطل الروائي ماكس هافيلار تقابل أيضاً الأحرف الأولى للزوجة الحقيقية للمؤلف الحقيقي للرواية إدوارد دويس ديكر الذي يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو مولتاني. ونظراً لأن الرواية بأكملها تعتمد على اللعب على الاختلاف بين الخيال والحقيقة التاريخية وتلاشي هذا الاختلاف لاحقاً فإن اسم زوجة هافيلار في الرواية لا يمكن تغييره إذا أردنا، لأن ذلك سيشكل تهديداً للصلة الجوهرية بين عالمي الحقيقة والخيال. ولأن الاسم لا يمكن تغييره فإن المثل الهولندي الذي تعبر عنه عبارة:

Eigen haard veel waard.

الذي يعني "ليس ثمة مكان يشبه الوطن (أو البيت)" يظل متابياً على الترجمة. وبصرف النظر عن التدخل الواضح للمترجمين من خلال الهوامش فإن النص ذاته يستوقف القارئ. إن النص الأصلي إذ يتأبى على الترجمة ويفتح صدفاً لافتاً في نص الترجمة الإنجليزية، فإنه يذكر القارئ بأن الكلمات الهولندية في هذه الفقرة إنما يمكن رواها خطاب آخر بلغة مختلفة. ولا يستطيع هذان الخطبان الكلام بشكل متزامن أو باستخدام الصوت نفسه، فقارئ الترجمة ليس بمقدوره إلا أن يفهم صوتاً واحداً، وهو ما يتطلب بالضرورة أن يتدخل المترجم، ومن ثم يصبح صوته مسموعاً.

وأخيراً لنطرح مثلاً آخر قائماً على التناص، فمئذ عدة أعوام وحينما أنتج ديفيد لوك ترجمة جديدة لرواية توماس مان القصيرة الصوت لي تمهينها قام بإضافة مقدمة من عدة

صفحات تضم قائمة بما يراه أخطأ في ترجمة باكراً للرواية ذاتها قامت بها هيلين لو بورتر. وترتب على ذلك أن لوك لم يضع ترجمته في مواجهة الأصل الألماني فحسب بل وضعها بالقدر ذاته في مواجهة مع الترجمة الإنجليزية التي قامت بها لوبورتر. وهذا ما يجعل ترجمة لوك على درجة عالية من الوعي بالذات، كما يمنحها طبيعة سجالية. فالقارئ الذي يتذكر المقدمة أثناء القراءة سوف يحس بالتوجه المزيج الذي يتضمن في أن كلمات لوك تشمل الأصل الألماني في الوقت الذي تبعد فيه عن إنجليزية لوبورتر. وهذا البعد التناصي الذي يقوم على اشتباك المترجم اشتباكاً حواريًا نقدياً مع مترجم آخر يكشف عن حضور صوت المترجم الذي لا يمكن احتزاله في صوت المؤلف الأصلي.

مثل هذه الحالات شائعة تمامًا، فهي تتجلى في كل إعادة ترجمة، فالترجمة الهولندية الجديدة لدون كيشوت التي قام بها فان دي بول تهدف إلى أن تحل محل الترجمة التي قام بها في عام ١٩٦٣ كل من فان دام وورميوس بانتج والتي يعتبرها الكثيرون رتيبة ومتقادمة (فان دي بول ١٩٩٤). هذا ما يمنح اختيار فان دي بول لمرداته طابعاً يتسم بالقدرة على المواجهة العديدة مع الترجمة السابقة. كما أن ذلك يعد مؤشراً على وجود أجندة متعددة الأبعاد وليست ذات بعدين تكمن خلف الأداء الترجمي، وهو ما يعد ظاهرة تناسية هي، وإن كانت تقع متوالية في الأفعال، فإنها تعزز الحس بفريدة الترجمات كما أنها تعزز الكثافة التوعبية والحضور التوعبي الخاص بها. فكل الترجمات إزاحة لكل الترجمات الموجودة سلفاً. وفي كل هذه الحالات يمكن أن نتساءل عن يتحدث بالفصاحة فإننا افترضنا حضوراً حديثاً هجيناً ومتعددًا وبوليفونيًا في الترجمة، ترتب على ذلك أن نوع التمثيل الخاص بأصل تلك الترجمة بعد انحرافاً وأصبحت الاستعارات التقليدية لدينا الخاصة بالترجمة باعتبارها ضرباً من ضروب الشفافية تبسيطية للغاية. إن الصوت، فوق كل شيء، يشي بوجود موقع للذات، وتُجسّد اللوات الموقعة رؤى وآراء وقيمًا.

هنا يمكننا أن ننتقل إلى مفهوم معايير الترجمة، ففكرة الترجمة باعتبارها شكلاً من أشكال اتخاذ القرار سادت دراسات الترجمة منذ أن كتب ييري ليفي عنها في الستينيات من القرن الماضي. وقد تم إدخال مفهوم معايير الترجمة إلى دراسات الترجمة في محاولة لتفسير ما يتخذه المترجمون من قرارات وعدم اتخاذهم لقرارات أخرى ممكنة. والفكرة وراء ذلك هو أن المعايير لا تمثل فحسب ضوابط للسلوك الفردي ولكنها توفر لنا كذلك قوالب جاهزة للعمل. فالمعايير تولد توقعات متبادلة وتوجهها معيماً أو نسقاً من الاستعدادات والتوقعات للـ "habitus" بتعبير بيير بورديو، والذي يعني "جملة من الاستعدادات الذهنية الدائمة والقابلة للتحويل والتي تنتظم في بناء محدد، ولديها القدرة على صياغة الأفكار والأفعال في بناء محدد". معنى ذلك أن المعايير تجعل بالإمكان التنبؤ بالأفعال والخيارات داخل مجتمع ما أو شرائح معينة منه، وهو ما يعني أيضاً تنظيم حقل الترجمة ورسم حدوده. ومن شأن مفهوم معايير الترجمة أن يجعلنا واعين بالطبيعة البوليفونية للترجمة إذ يجعلنا ننتبه إلى أن

خطاب الترجمة يحيل إلى نص مصدر معين كما يحيل إلى المعايير السائدة والأنماط الترجمةية سواء تحدى هذه المعايير أو اتصاح لها.

فصلًا عن ذلك فإن المعايير تحكمها القيم التي تعمل على الحفاظ على هذه المعايير ومحتوى المعيار هو تصورنا عما نعتبره جماعة ما صحيحًا أو ملاءمًا أو مناسبًا، ومن ثم فالمعايير محملة بالأيديولوجيا، فإذا كانت الترجمة بوصفها نشاطًا تواصلًا وبالتالي اجتماعيًا خاضعة للمعايير لترتب على ذلك أن عملية الترجمة بأكملها تخضع لعملية ترشيح أو فلترة من خلال القيم التي تحملها هذه المعايير. وتبدأ عملية الترشيح تلك من اختيار النص الذي يتعين ترجمته وإدراكه حتى وضع الترجمة ذاتها وضبط إيقاعها ونبرتها وكذلك الاستجابات التي تلقاها. وثمة مثال جيد لتوضيح هذه النقطة وهي الترجمات التي قامت بها الجمعية الهولندية ذات التوجه الكلاسيكي الجديد السماة "نيلسي فولينتيوس أروم" في سبعينيات القرن السابع عشر، فقد كانت آراؤهم المتشددة الخاصة باللباقة الأدبية والاجتماعية والأخلاقية تعني أنهم كانوا على استعداد تام لإعادة صياغة المسرحيات الأجنبية التي كانوا يقومون بترجمتها في قالب مناسب ومقبول من وجهة نظرهم. ولم يكتفوا بشن هجوم شرس على المسرحيات الأصلية ولكنهم هاجموا كذلك الترجمات التي لم تلتزم بالمبادئ الكلاسيكية الجديدة وكذلك فقد استبدلوا بالمسرحيات المنتقدة صيغًا من صنعهم كلما كان ذلك ممكنًا. وقد نجحوا في ذلك نجاحًا مذهلًا، واحتكروا المسرح في أمستردام لمدة عقود وخلقوا وراء ظهورهم تركة من المسرحيات الكلاسيكية الجديدة التي تكفي قرئًا كاملًا من الزمن.

وحيثما قام جون بين بترجمة عمل بوكاشيو إلى الإنجليزية في عام ١٨٨٦ تحت عنوان "الديكاميرون مترجمة بأكملها لأول مرة إلى الإنجليزية شعرًا ونثرًا"، فإن ترجمته قد تكون مكتملة بالفعل ولكنها ليست مفهومة تمامًا بالضرورة. فقد قام بترجمة فقرة اعتبرها إباحية في نظر الإنجليز مستخدمًا لغة تقارب فرنسية العصور الوسطى وفي الطبعة الثانية (١٨٩٣) قام بترك فقرة بذينة كما هي بالإيطالية. وقد فعل ج. م. ريج نفس الشيء في ترجمة عام ١٩٠٣ بعنوان "الديكاميرون، ترجمة أمينة" التي أعيد طباعتها في عامي ١٩٢١ و ١٩٣٠ واحتوت فقرة بذينة بالإيطالية لم يترجمها. القضية هنا، وبوضوح، لا علاقة لها بالافتقار إلى الكفاءة في الترجمة ولكنها تتعلق بمعيار أخلاقي سائد. وحيثما قام أي. ستوارت بيتس بمراجعة هذه الأمثلة وأمثلة أخرى في ترجمته الحديثة للديكاميرون فإنه قد استحسّن وبشدة الحلول التي لجأ إليها بين وريج (بيتس ١٩٦٣: ١١٦-١٧).

قد تكون هذه أمثلة استثنائية ولكنها تبين أن مفهوم معايير الترجمة يمكن النظر إليه باعتباره طرحًا أقوى لذات الفكرة القائلة بأن الترجمة، أي ترجمة، تنطوي على تأويل، ويعد هذا المفهوم طرحًا أقوى لأن التأويل في هذا الإطار ليس معطى طبيعيًا ولكنه خبرة اجتماعية مكتسبة تشتمل على أبعاد تقييمية ومعرفية. ومن ثم تتلقفها عدة عوامل قياسية محددة. والنقطة الرئيسية هنا هي أن مفهوم المعايير يستدعي حضور القيم في عملية الترجمة،

فالترجمة، إذن، ليست خالية من القيمة وليست محايدة ومن ثم لا يمكن تلبية الترجمة بعيداً عن فعل الترجمة.

وهنا يمكن اعتماداً بالبعدين الثقافي والتاريخي للترجمة. فالترجمة تهتمنا كظاهرة ثقافية نظراً لافتقادها إلى الحيد أو البراءة، وبسبب كثافتها وتلكها النوعي والقيمة المضافة إليها. فلو كانت الترجمة مجرد فعل آلي لكانت قيمتها لا تتعدى قيمة ماكينته التصوير، فهي أكثر إثارة للاهتمام من ماكينته التصوير لأنها تمدنا بمؤشر متميز على حالة الثقافة في إحالتها إلى ذاتها أو في تعريفها لذاتها، إن شئت. إن فعل الترجمة ينطوي على اختيار واستيراد لخصائص ثقافية من الخارج وتحويلها إلى منتج لغوي يمكن للمجتمع المستقبل له أن يفهمه بلغته وأن يقبله إلى حد ما على الأقل بوصفه ملكية خاصة به. ونظراً لأن كل ترجمة تطرح تأويلها الخاص والمميز والمحدد لأخرية النص المستورد فيمكننا أن نتعلم الكثير عن هذه التأويلات للثقافة الأخر وما يصاحبها من تأويل للثقافة لذاتها. فالنماذج والتأويلات التي تستخدمها ثقافة ما لبيان صورتها عن الأجنبي تزودنا بمعرفة متميزة عن تعريف هذه الثقافة لذاتها.

ما الذي يحدث إذن حينما نقرر أن نولي الترجمة اهتماماً متواصلاً، وحينما نريد فحص الترجمة، ممارسة وخطاباً، عبر مدى ثقافي رحب من الناحيتين التاريخية والجغرافية، أي حينما نشكك مع العلم المسمى بدراسات الترجمة ؟ حينما نقرر ذلك تبرز المشاكل. ويبدو لي أن ما تطرحه دراسات الترجمة من تصورات عن الترجمة تكتنفه المفارقات الإبستمولوجية التي لم تحل بعد بما تستحقه من اهتمام.

لكي نعي هذه القضية دعنا نلقت إلى مقال كوينتين سكينر "التقاليد وفهم الأفعال الكلامية" (١٩٧٠). إن سكينر يعالج قضية لا تخص الترجمة وحدها ولكنها تخص كيفية تقييمها لما يسمى في نظرية أفعال الكلام بالقوة الالهامية للجمل التي يصنعها الآخرون لآخرين حينئذ وهناك، أي تلك الجمل المصنوعة في سياق مختلف ولا يقصد بها أن تخاطبنا هنا والآن. والمشكلة كما يقول سكينر تخص المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا الذين يصيخون السمع إلى مثل هذه العبارات. فكتابات إرازموس كانت استجابة لعصره، وليست لنا، فما الذي نحتاجه اليوم لكي نفهم الكلمات التي كتبها إرازموس لعاصريه من القراء؟ تشمل القضية كما عرضها سكينر في أن شخصاً (أ) في زمان ومكان (ب) يحاول فهم مقولة تلفظ بها المتحدث آخر (ج) كان يتكلم في زمن مختلف ومكان مختلف (د). من الواضح أن (أ) عليه أن يعرف ما يكفي عن المفاهيم واللغة والتقاليد المتاحة لـ (ب) في (د) لتمكنه من فهم مقولة (ج) وقوله تلفظ (أ). ويواصل سكينر قائلاً:

"يبدو كذلك من اللازم لـ (أ) أن يكون قادراً على أداء فعل من أفعال الترجمة للمفاهيم والتقاليد التي يوظفها (ج) في (د) إلى لغة مألوفة في (ب) لـ (أ) ذاته، ناهيك عن الآخرين الذين قد يرغب (أ) في (ب) أن يوصل لهم ما فهمه (د) (١٩٧٠ : ١٣٦).

ويتعرض لهذه الأزمة علماء الإثنوغرافيا والمؤرخون والرحالة. فكيف يتسنى للرحالة الذي عاين الأمور بطريقة مختلفة جذرياً عما اعتاد عليه السكان الأصليون، أن يتقبل انطباعات ويجعلها مفهومة؟ يقدم فرانسوا هارتوج في كتابه عن الرحالة والمؤرخ هيرودوتس المسمى "مرآة هيرودوتس. تمثيل الآخر في كتابة التاريخ" (١٩٨٨) تحليلاً لمنهج هيرودوتس الذي يقوم حول مسألة كيفية تقديم العالم المسرود بطريقة مقنعة للعالم السرود فيه (هارتوج، ١٩٨٨: ٢١٢) الإجابة على ذلك السؤال هي الترجمة وقلب الأوضاع عن طريق اختزال الخلاف إلى عكس التشابه. فهيرودوتس، كما بين هارتوج، يعمل بهذه الكيفية. فهو يقوم بترجمة الأصل إلى اللغة اليونانية حرفياً ومجازياً ويقوم بتدجين كل ما هو غريب وأجنبي وجعله مفهوماً عن طريق طرحه باعتباره عكس أو مقلوب ما يعتبره اليونانيون مألوفاً وطبيعياً، فقد قام بقلب العلاقات الجنسية لدى قبائل الآسازون التي تبدو طبيعية بالنسبة لليونانيين والقبائل البدوية التي تحمل خيامها معها في حلقها وترحالها، فهي المقابل لأهل أثينا الذين يتمتعون بالاستقرار؛ فطريقة حياة القبائل البدوية يمثل للأثينيين مرحلة مؤقتة إجبارية في أثناء الحرب مع الفرس حينما أجبروا على ترك مدينتهم ولانوا بالحيوانات الخشبية المؤقتة في سفنهم للفرار من مواجهة جيش الفرس. إن التفاصيل الخاصة بذلك المثال لا تعني هنا ولكنها، مع ذلك، ضرورية لوضع هيرودوتس إلى جانب ميثا مؤرخ حديث مثل هايدن وايت؛ فوايت معني بأفضل نموذج لنسوي من شأنه مساعدة المؤرخين في "العسل الترجمي" وهو يقرر أن "ذلك هام للغاية للمؤرخي الحياة العقلية المعنيين، قبل أي شيء آخر، بإشكالية المعنى والترجمة بين عدة أنسقة دالة" (وايت ١٩٨٧: ١٨٩).

أما فيما يخص الإثنوغرافيا وهو علم لم يتمتع بوضعية مستقلة حتى القرن العشرين فقد يكون كافياً أن نتذكر أنه قبل نصف قرن مضى قام أحد الباحثين الميدانيين البارزين بوصف تلك المهمة الأساسية بوصفها "ترجمة للثقافات". وسوف أزود القارئ بالزبد عن تلك القضية بعد لحظة من الآن.

ماذا إذا كان المرء يعمل في حقل الدراسات الترجمية حين تكون الوثائق أو التلغظات التي تتعين دراستها هي ترجمات لمقولات حول الترجمة؟ لا يمكن تحاشي النتيجة. إن علينا أن نقوم بترجمة هذه الترجمات. والشكلة التي أوضحها سكينر في عموها تصبح أكثر حدة بالنسبة لدارسي الترجمة إذا ردنا الحديث عن الترجمة كظاهرة متعددة للتاريخ والثقافة وحينما نحاول فهم الترجمة وتوصيلها والتواصل بشأنها من الناحية اللغوية والمفهومية. ما الذي يفعله أعضاء ثقافة أخرى حينما يشبكون مع ما يبدو لنا ظواهر مشابهة للترجمة؟ ما الذي يعنونه بالمصطلحات التي يستخدمونها لتوصيف نشاط أو منتج يعتمد على ترجمات للترجمة الخاصة بهذا؟ إذا ثبتت صحة ذلك فإنه ينطوي على عواقب هامة لحقل الدراسات الترجمية. إحدى هذه العواقب أننا حينما نقوم بدراسة الترجمة كما ترد في ثقافات أخرى فليس لنا خيار سوى ترجمة الممارسات والمفاهيم الخاصة بالترجمة في هذه الثقافات إلى لغتنا. ونحن بذلك نقوم بالعمليات التي نقوم بتوصيلها. ويمثل ذلك بعض الشكلات بالنسبة



للدراسات الوصفية والتاريخية لأن هذين التوجهين لم يحاولا فصل مستوى الموضوع، أو الترجمات، عن الـميتاـمستوى، أو توصيفات الترجمة. والفارق بين هذين المستويين أقل وضوحاً الآن مما نرغب فيه. فبدلاً من القسمة الواضحة بين مستوى الموضوع والميتاـمستوى ثمة خلط وتشوش بينهما كما أوضح باكير (١٩٩٥).

فنحن نتنازل عن الـميتاـمستوى لأنه يعد ممارسة لما يحاول توصيفه في الوقت ذاته المستوى-الموضوع. ثمة تواطؤ دائم هناك وهذه القضية ذات تسمينيات معرفية مزعجة للغاية. زد على ذلك، أنه إذا كانت توصيفاتنا للترجمة ما هي إلا ترجمات لترجمة ما، فإن منطوق ما قلته في الصفحات السابقة يعني أن ترجمائنا ليست موضوعية وتنطوي على قدر كبير من الانحياز بكل معاني هذه الكلمة. فنحن نقوم بالترجمة وفقاً لمفهوم ما عن الترجمة إلى مفهوم آخر عن الترجمة بطريقة تعتمد على أصوات فارقة يتم فلترتها عبر قيمنا المحلية. وليس ثمة مهرب من هذه المأزق. غير أنه من الممكن لنا أن نتعلم منها ويمكن كذلك أن نتعلم من الحالات اللوائية ومن الحقول المعرفية المرتبطة بالترجمة وهذا هو حال الدراسات الترجمة وكذلك من العلوم الأكثر وعياً بالتسمينيات النظرية والمنهجية لهذه الحقيقة. ويمكننا في ذلك السياق الاستفادة من حقول مثل الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية (قرن أسد ١٩٨٦، وبكمان ميديك ١٩٩٧، وستروج ١٩٩٧). فإذا عدنا بالذاكرة إلى الوراء إلى عام ١٩٧٣ وجدنا أن عالم الأنثروبولوجيا إدmond ليتش قد صرح بأنه بالنسبة للأنثروبولوجيا فإن "الإشكالية الأساسية هي الترجمة".

إن "علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية معنيون بإقامة منهجية لترجمة اللغة الثقافية" (في أسد ١٩٨٦: ١٤٢). مع ذلك، فقد وجد علماء الأنثروبولوجيا منذ ذلك الحين أن اللغة الثقافية تعد مهمة صعبة للغاية. دعنا نخرب مثيل لتوضيح هذه الصعوبة.

في القرنين السادس عشر والسابع عشر حينما كان اليسوعيون يحاولون تفسير الصينيين كانوا بحاجة إلى مفاهيم مثل "الله" و"السماء" و"الخطيئة" في اللغة الصينية وفي عام ١٦٠٤ قام ماثيو ريتشي بكتابة رسالته عن "المعنى الحقيقي لرب السماوات" بالصينية غير أنه وجد أن المصطلحات المتاحة له كانت هي المفردات التي تعد أسماء للاستخدامات الكونفوشيوسية واليونانية وترتب على ذلك أن المفاهيم المسيحية التي كان يحاول نقلها كانت متفلكة داخل خطاب متعارض كلياً مع الرسالة المسيحية (جينيوت ١٩٨٥: ٨٤-٩٠-١٤٦-٧). ولسمنا بحاجة إلى القول بأن اليسوعيين كانوا مندهشين بشدة من قلة نجاحهم في الصين وفي العشرينيات من القرن الماضي حينما حاول ناقد أدبي وعالم دلالة مهم هو أي. أي. ريتشاردز فهم الفيلسوف الصيني القديم مينج تسو فإنه قد واجه إشكالية مماثلة ولكن بطريقة مختلفة. ففي محاولة لسير غور معاني المفردات الصينية قام بتطوير ما أسماه "أسلوب التعريف المتعدد"، فقام برصد التفصيلات الخاصة بالحقول الدلالي والسياقات والاستخدامات المختلفة للمفردات الصينية بدون أن يلتزم بالترجمة الواحدة للمفردة (ريتشاردز ١٩٣٢).

وما فعله ريتشاردز مع الفلسفة الصينية قام به الإثنوغرافي الأوكسلفوردي إدوارد إيفانز بريتشارد عند دراسته لمعتقدات قبائل النوير في جنوب السودان في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وقد أكد إيفانز بريتشارد على التماثل الجذري بين مفردات النوير والمصطلحات الغربية المسيحية. ويسلط كتابه "نبأنة النوير" الضوء على الإشكالية الكبرى التي يواجهها الإثنوغرافي الغربي في فهم أشياء غريبة عنه تمامًا، ناهيك عن ترجمتها إلى لغة كالإنجليزية تتلون مفرداتها بالمفاهيم والتاريخ والقيم الخاصة بالغرب المسيحي. وقد وصف إيفانز بريتشارد في عام ١٩٥١ العمل المحوري للإثنوغرافي باعتباره "ترجمة للثقافات" (نيدهام ١٩٧٨ : ٨).

وقد شكل تفسير إيفانز بريتشارد لمعتقدات النوير بدوره موضوعًا لكتاب روني نيدهام. ففي كتابه "الإيمان واللغة والتجربة" (١٩٧٢) يطرح نيدهام تأملاته المستفيضة حول الإشكاليات المحيرة لما أسماه إيفانز بريتشارد "ترجمة الثقافة". ويذهب نيدهام إلى أنه إذا أردنا أن نقارن التأويلات الخاصة بمفاهيم النوير فإننا بحاجة إلى مقابلة لإنجاز هذه المقارنة. ويمكن بناء مثل هذه المقابلة على أساس الملازمة بين المفاهيم الثقافية التي يمكن المقارنة بينها فحسب على أساس ميتالغوي مناسب ويضعنا ذلك في دائرة مفردة وهي إشكالية حقيقية (نيدهام ١٩٧٢ : ٢٢٢) فنحن لا يمكننا أن نهرب من الملاحظة المنطوقية والتأويلات المشحونة بالقيمة والترجمة القائمة على التنازلات.

ما الذي يمكننا أن نتعلمه من كل ذلك. اعتقد أنه حتى بين الإثنوغرافيين المحترفين فإن إشكالية فهم المفاهيم المنتمة لعوالم ثقافية بعيدة وتأويلها وترجمتها تظل بدون حل. ولكن ذلك لم يمنعه من التعبير عن القضايا المتضمنة والسعي للتغلب عليها وترتب على ذلك أن علم الإثنوغرافيا أصبح أكثر انعكاسية على المستوى الذاتي وأكثر انتقادًا لذاته وأكثر وعيًا بتاريخه وموقعه المؤسسي ومفروضه وعيوبه. ويعد شفافية التمثيلات التي تحدث عبر اللغة والترجمة.

ولكن كيف يتسنى لنا، في الممارسة الفعلية، إحداث مثل ذلك النوع من الاتعكاسية الذاتية والنقدية في الحديث عن الكتابة وعن الترجمة، إن ذلك مسألة صعبة لا أدعي القدرة على حلها. ولكن ما يبدو ضروريًا للغاية هو الحاجة لخلق مساحة نقدية وذاتية داخل الخطاب الذي يدور حول الترجمة. ولذلك دعنا، كختم، وبإيجاز، الخاطرة بالتراجع ثلاثة اقتراحات لخلق مثل هذه المسافة. إن المشترك بين هذه الأشياء هو التهويل من شأن عملية فهم المنتج الأجنبي ومحاولة توضيح الموقع الذي ينطلق منه المتحدث والمحلل حتى لو - وهو اقتراحى الثالث - كان من المتعذر وجود موقع ثابت ونهائي يمكن العمل بالانطلاق منه. أولاً: هناك علم التأويل الحديث (الهيرمينوطيقا). كما نلخص له ومارسه، على سبيل المثال، هانز جورج جادامار. إن الناقد التأويلي ينشد "الفهم" في المعرفة الكلية بأن البحث يمكن حتمًا في مكان ما وأنه يخدم جدول أعمال خاصًا وأنه يتوقف على عدد من الفرضيات والفرضيات المسبقة والتحيزات وفي تأمل طرائق التفاعل من أجل الفهم الخاص به، فإن علم

التأويل يذكر نفسه باستمرار بوضعيته الخاصة. فهو بمعنى، بوضوح، إلى أن يصالح بين الوسي التاريخي الثاني واحترام اختلاف الآخر ويحاول صهر الاثنين معاً في شكل التبادل والحوار.

ثانياً هناك السردية وهي الخط المتبع في الكثير من إثنوغرافيا ما بعد الحداثة. وقد طرح ميك بال في مقاله "سفير التكلم، سفير الخطاب نفسا الضمير، السرد بوصفه إستمولوجيا" (١٩٩٣) الكثير من التأملات النظرية حول الأشكال ما بعد الحداثية التي يختلط فيها السرد بالتحليل. والمقال يؤيد التعادل بين التكوين والترجمة والوصف والسرد، والأكثر من ذلك أهمية أنه يحتوي على جدل يدور حول الصيغة السردية وما تدعو إليه من وضع تفاصيل للذات الموضوعة وفي مقدمتها "الأنا" و"الأنت" وهو بذلك يقلت من وهم الموضوعية. وبالانتقال للسردية يستطيع المتحدث أن يبين ليس فقط كيفية تشكل المعنى أو أدائه السابق ولكن كيفية تأثير المادة، أي من زاوية نظر السارد إلى المادة قيد الفحص.

أخيراً، هناك مفهوم نيكلاس لومان عن الملاحظة من الطراز الثاني أو ملاحظة الملاحظة. فإذا فكرنا فيمن يدرس الترجمة من زاوية انشغاله بملاحظة الترجمة وتوصيفها وتتبع ممارستها داخل مجال محدد تاريخياً أو من أية ناحية أخرى لاستطعنا أن نرى مثل هذا النشاط باعتباره ملاحظة ملاحظة من الطراز الأول: فالباحث يلاحظ موضوعاً ويقوم بعمل تمييزات من أجل تحليله وهكذا دواليك. أما الملاحظ من الطراز الثاني فيكون مهتماً بكيفية ملاحظة الباحث لموضوعه عبر التمييزات وعمليات الترجمة. ويمكن تصور هذا النشاط باعتباره ممارسة تفكيكية، وهناك بالفعل تشابهات بارزة بين الملاحظة من الطراز الثاني والتفكيكية فكلاهما يهتم بالكشف عن تلك التمييزات والمعايير التي يتعامل عنها الملاحظ من الطراز الأول (لومان ١٩٩٣). وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الممارسة لكيفية تشكل المعنى لن تقود إلى إجابات نهائية لسببين واضحين: أن الملاحظ من الطراز الثاني يحتاج كذلك إلى ترجمة العمليات الترجمة التي يؤديها الملاحظ من الطراز الأول ومثل أي ملاحظ فإن الملاحظ من الطراز الثاني سيكون لديه عيوبه الخاصة التي يمكن ملاحظتها ومثل أي تحليل وكل تحليل تفكيكي فتحليله قابل للتفكيك بدوره.

إن كل هذه المحاولات - وثمة محاولات أخرى - لولعة الترجمة في علاقتها بالتحليل يأخذنا خطوة أبعد من الترجمة والمجال التقليدي للدراسات الترجمة. إن الإشكالية التي تنتفع ما إن ندرك أن دراسة الترجمة تعد ترجمة لترجمات وأنها تقوم بذلك بطرق تؤدي إلى تقديم تنازلات تجبرنا على إعادة التفكير ليس فحسب فيما نعرفه بل في كيفية معرفتنا لما نعرفه. فإذا كان على علم الدراسات الترجمة أن يشتكي نقدياً مع عملياته الخاصة وشروط اكتسابه لمعارفه، فعلياً أن ننظر فيما وراء التحلوم الخاصة به.

#### الهوامش :

(١) الإشارة هنا إلى نظرية أفعال الكلام speech act theory التي وضعها فيلسوف اللغة جون أوستن في جامعة أكسفورد في الثلاثينيات، ثم طورها في سلسلة من المحاضرات التي ألقاها في جامعة هارفارد في منتصف الخمسينيات، ونشرها عام ١٩٦٢ في كتابه كيف نعمل أشياء بالكلمات. وفي إطار هذه النظرية

التي طورها لاحقاً فيلسوف آخر هو جون سيرل يقدم بالفعال الكلام الأثائية مجموعة المنطوقات اللغوية<sup>1</sup> التي من شأنها أن تؤدي فعلاً ما في الواقع حال التلق بها من قبل أشخاص معينين وفي المكان والزمان المناسبين. مثال ذلك فعل إتمام الزواج الذي يقوم به رجل الدين المسيحي في الثقافة الأنجلوأمريكية في نهاية مراسم الزواج الدينية عندما يقول: I pronounce you man and wife. والفعل الإنجليزي pronounce في هذا المثال هو فعل كلام من شأنه عند نطقه في هذه اللحظة نقل الرجل والمرأة موضوع فعل الكلام من حالة اجتماعية إلى أخرى. وباستدعائه نظرية أفعال الكلام في هذا السياق يؤكد هيرمانز على أنه لا يوجد شيء في الترجمة ذاتها يجعلها في حالة تكافؤ لغوي كامل مع النص الأصلي، إنما حالة "التكافؤ" تلك هي ما نخضعه على الترجمة من خارجها من خلال أفعال الكلام المختلفة التي يقوم بها المترجمون أو غيرهم ممن يملكون سلطة تقييم الترجمات وإصدار الأحكام عليها (المحرر).

(٢) عتبات النص paratexts مفهوم وضعه الناقد الفرنسي جيرار جينيت في كتابه التأسيسي الذي يحمل عنوان Seuil والنشر عام ١٩٨٧، وفيه يستقصي بالبحث كافة الأدوات اللغوية وغير اللغوية التي يستخدمها المؤلفون والناشرون لتأطير النصوص وإعطائها بعداً تأويلياً معيناً. دخل هذا المفهوم دراسات الترجمة واستخدمه الباحثون للإشارة إلى هذه الأدوات التي يستخدمها المترجمون وناشروهم للتدخل بالتعليق أو الشرح أو حتى رفض الأطروحات التي يأتي بها المؤلف. للاطلاع على عتبات النص وعلاقتها بالسرديات التي يتبناها المترجمون أو يرفضونها، انظر مقال مني بيكر في هذا الملف (المحرر).

(٣) فكرة تعليق الشك الإرادي من وضع الشاعر والمسرحي الإنجليزي صامويل تيلور كوليريدج (١٧٧٢-١٨٣٤) والتي تعني دخول متلقي العمل الفني في علاقة تواطؤ مع صانعه، بحيث يعتقد أن الخيال الذي يقدمه العمل الفني إنما هو واقع حقيقي، وهذا التواطؤ من جانب المتلقي هو ما يفسد لذة التلقي. هذا المصطلح الذي استخدم بعد ذلك للإشارة إلى حالة الإيهام التي تسم علاقة المتفرج بالعمل المسرحي يستخدمه ثيو هيرمانز هنا للإشارة إلى التوهم الإرادي الذي يجعل قارئ الترجمة يعتقد أن ما يقرأه هو صوت المؤلف وأن الاتصال بينه وبين ذلك المؤلف مباشر دون وسيط (المحرر).

#### مراجع:

Asad Talal 1986, "The concept of cultural translation in British social anthropology", in Writing Culture. The Poetics and Politics of Ethnography. Ed. By James Clifford and George Marcus, Berkeley: University of California Press, 141- 64.

Bachmann-Medick, Doris (ed) 1997, Übersetzung als Representation fremder Kulturen, Berlin: Erich Schmidt.

Bakker, Matthijs 1995, "Metasprong en wetenschap: een kweestie van discipline", in Vertalen historisch bezien. Ed. By Dirk Delabastita and Theo Hermans, The Hague: Stichting Bibliographia Neerlandica, 141- 62.

Bal, Mieke 1993, "FIRST person. second person. same person: narrative as epistemology", New Literary History, 24, 193- 320.

Bates, E. Stuart 1936, Modern Translation, Oxford and London: Oxford University Press.

Davis Kathleen 1997, "signature in translation", In Traducção. Essays on Punning and Translation. Ed. By Dirk Delabastita, Manchester and Namur: St Jerome, 23- 43.

Derrida, Jacques 1977a, "Signature event context", trans. Samuel Weber and Jeffrey Mehlman, Glyph, 1, 172- 97.

- Derrida, Jacques 1977b, "Limited Inc abc....", trans Samuel Weber, *Glyph*, 2, 162- 254.
- Evans- Pritchard, Edward 1956, *Nuer Religion*, New York and Oxford: Oxford University Press.
- Folker, Barbara 1991, *Le Conflit des énonciations. Traduction et discours rapporté*, Candiac (Quebec): Editions de Balzac.
- Gemeel, Jacques 1985, *China and The Christian Impact. A Conflict of Cultures*, trans, Janet Lloyd, Cambridge: Cambridge University Press.
- Gogh, Vincent Van 1996, *The Letters of Vincent Van Gogh*, trans. Arnold Pomerans, London: Penguin.
- Harris, Brian 1990, "Norms in interpretation", *Target*, 2, 115- 19.
- Harig, François 1988 [ 1980], *The Mirror of Herodotus. The Representation of the Other in the Writing of History*, trans. Janet Lloyd, Berkeley and London: University of California Press.
- Hermans Theo 1996, "The translator's voice in translated narrative", *Target*, 8, 23-48.
- Hermans Theo 1999, "Translation and normativity" ,in *Translation and Norms*. Ed. By Christina Schaffner, Clevedon: Multilingual Matters, 50-71.
- Luhmann, Niklas 1993, "Deconstruction as second- order observing". *New Literary History*, 24, 763- 82.
- Multatuli 1927, Max Havelaar, trans. W.Sieberthaar, New York: Knopf.
- Multatuli 1967, Max Havelaar, trans. Roy Edwards, London and Leiden.
- Multatuli (ed). 1992 [1860], Max Havelaar. Ed. By A. kets- Vree, Assen and Maastricht: Van Gorcum.
- Needham, Rodney 1972, *Belief, Language and Experience*, Oxford: Oxford University Press.
- Needham, Rodney 1978, *Essential Perplexities*, Oxford and New York: Clarendon Press.
- Pol, Barber van de 1994, "De ervaring van een vertaler", *Raster*, 66, 142- 56.
- Richards, I.A. 1932 *Mencius on the Mind. Experiments in Multiple Definition*, London: Paul, Trench and Trubner.
- Scheider, W.G. 1992, "Hermeneutik Sozialer Systeme. Konvergenzen zwischen Systemtheorie und philosophischer Hermeneutik" *Zeitschrift für Soziologie*, 21, 420- 39.
- Skinner, Quentin 1970, "Conventions and the understanding of speech acts", *The philosophical Quarterly*, 118- 38.
- Sturges, Kate 1997, "Translation strategies in ethnography", *The Translator*, 3: 21- 38.
- White, Hayden 1987, *The Content of the Form*, Baltimore: Johns Hopkins press.

# الترجمة، جماعيات السلفي، البيوتوبيا

ف



لورانس فينوتي / ت: نجوى إبراهيم عبد الرحمن

"اللغة مستودع أخطاء الماضي، وخزانة حقائق المستقبل"

جان جاك لوسركل Jean Jacques Lecercle

## النشكّل في النظرية

على الرغم من أنه لا يكاد ينكر أحد أن وظيفة النص المترجم الأساسية وهدفه يتمثلان في تحقيق التواصل، فإننا لا نتصور في الوقت الحاضر على الإطلاق أن تكون الترجمة مجرد نشاط بسيط يستهدف ذلك التواصل، ففي نظرية الترجمة المعاصرة التي تستلهم التراث الفلسفي الأوروبي، خصوصاً الظاهراتية الوجودية وما بعد البنيوية، وظيفة اللغة هي تشكيل الفكر، ومن ثم فالترجمة وفقاً لهذا المنظور من شأنها أن تسمّح مدلولاً محلياً على النص الأجنبي (انظر على سبيل المثال هيديجر Heidegger، ١٩٧٥؛ ولويس في هذا الكتاب<sup>(١)</sup>، وبينامين Benjamin ١٩٨٩). ولا تحلق الترجمة التواصل دون عقبات، إذ إن المترجم يقوم بفعل تفاوض بشأن التباينات اللغوية والثقافية في النص الأجنبي محلياً بإيهاها إلى مجموعة أخرى من التباينات المستمدة من بيئته المحلية في القام الأول والمستوحاة من اللغة والثقافة اللتين ينقل النص إليهما، وذلك يتيح للتباينات الأجنبية أن تحل في لغة المترجم وثقافته. لا يُنقل النص الأجنبي إذن من خلال عملية التوصيل، وإنما يخضع لفعل نقش أو كتابة مصدره المفاهيم والاهتمامات المحلية. وتبدأ عملية النسخ تلك بإختيار النص ذاته للترجمة، وهو اختيار انتقائي، مدفوع ببواعث كثيرة، وتتواصل عملية النسخ من خلال صياغة الإستراتيجيات الخطابية discursive المتبعة في ترجمة النص، تلك الصياغة التي تنطوي

علي تغضيل خطاب محلي علي غيره من الخطابات المحلية الأخرى. وعلى ذلك نجد أن المعالجة التريبية domesticating للنص هي عملية كئيّة وإن لم تكن نهائية. ويمكن أن نقول إنّ المعالجة التريبية للنص المترجم يظهر أثرها في كل كلمة من كلمات الترجمة، وذلك قبل أن يتلقاه القراء. وقبل أن يتم تحميله بـمعاني محلية أخرى ووضعها في خدمة اهتمامات محلية مغايرة.

ولما كانت النظرة إلى النص المترجم ترى فيه نصاً مذبوحاً بطابع محلي يكاد يعبر بصعوبة عن التواصل بين ثقافتين، فإن فعل الترجمة في هذه الحالة يدفع المنظرين إلى تفكير أخلاقي يسمي إلى اتخاذ تدابير تهدف إلى استعادة السمات الأجنبية للنص المترجم (انظر على سبيل المثال: برمان Berman في هذا الكتاب، وفيثوني ١٩٩٥، ١٩٩٨) أو الحفاظ عليها. غير أن التفكير الأخلاقي الذي يعارض الآثار الناتجة عن المعالجة التريبية للنص المترجم يستعصي تشكيله ووضع موضع التنفيذ إلا على أساس من شروط محلية، ولهجات، ومستويات لغوية، وخطاب، وأساليب مختلطة في المقام الأول، الأمر الذي يعني أن أوجه التباينات اللغوية والثقافية الكامنة في النص الأجنبي تقتصر الإشارة إليها على نحو غير مباشر عن طريق إزاحتها وإحلال سمات لغوية وثقافية تنتمي إلى لغة المترجم وثقافته اللتين تحيلان إلى قيم ومؤسسات في ثقافته الوطنية. وعلى ذلك فإن الموقف الأخلاقي يتساس مع أجندة سياسية ما يتبناها المترجم، إذ تصبح المعالجة التريبية محور عملية إعادة الكتابة التي ينطوي عليها فعل الترجمة، كما تصبح محوراً لإستراتيجيات الخطاب التي تستهدف تغيير تراتب قيم الثقافة المحلية، وهو ما يتمخض عن عمليات تستهدف إزالة الشعور بالألفة، وإعادة النظر في التراث، وتعد الإيديولوجيات، وتغيير المؤسسات. ولعل المترجم يرى في مفهوم "المحلية" the domestic ذاته ما يستحق المسالة نظراً لما يبطئه من عدم تجانس وشمجة hybridity وهو ما يؤدي إلى تعقيد التوالب الفكرية النمطية القائمة، والأصول التراثية المعتمدة canons، والمقاييس التي تستخدم في عملية الترجمة.

فإذا ما وجد المترجم دافعه في أخلاقيات التباين فإنه يسمي إلى مجتمع تكون الثقافة الأجنبية مقوّماً من مقوماته، فهو يفهم الثقافة الأجنبية ويشارك فيها في الوقت نفسه، كما أنّه يدخل طرفاً في مشروعات قائمة على هذا الفهم، بل ويذهب إلى الحد الذي يسمح لتلك الثقافة أن تغير قيمه ومؤسساته المحلية وأن تطورها. إن الدافع ذاته الذي يمكن وراء السعي إلى مجتمع يقع خارج الحدود الوطنية يوحي بأن المترجم يرغب في إضافة بعد إلى موقف محلي يعينه أو استكمال، مستهدفاً تعويض نقص ما في اللغة والأدب اللذان ينتمي إليهما والثقافة التي يترجم إليها. ويرى موريس بلانشو Maurice Blanchot أن مفهوم المجتمع في حد ذاته يفرض نفسه عندما يدعو النقص في مجتمع ما إلى مساءلة الفاعلية الفردية (بلانشو ١٩٨٨، صفحة ٥٦). ولن يعجز المترجم الذي تحركه الدوافع الأخلاقية والسياسية عن رؤية ما يكتنف عملية الترجمة من علاقة عدم تساوي، ذلك أن الترجمة حافزها الاهتمام بما هو أجنبي، غير أنّها تتوجه إلى المتلقي المحلي. ويعلم المترجم أن ما يترجمه لا يقتصر على

نقل النصوص الأجنبية إذ إن عملية الترجمة لا تتجسّد سوى شرب من الفهم الخاص للبيئة المحلية للمترجم، مهما حرص المترجم على إزالة الألفة في نص الترجمة لإبراز ما هو أجنبي، أو سعي إلى دعم الثقافة المحلية أو التمرد عليها.

وبما أن التواصل عبر الثقافي الذي لا يتأثر بالفاهيم والإهتمامات المحلية أمرٌ غير موجود، فالسؤال الآن هو: ما هي طبيعة المجتمعات التي يمكن للترجمة أن تعززها، وأية مجتمعات تلك التي تقوم على الكتابة المحلية للنصوص الأجنبية على النحو الذي يضع حداً للترجمة بوصفها مجرد فعل تواصلٍ ويعيد توجيهها؟

### التواصل/التوصيل في الترجمة

في سبعينات القرن الماضي حاول جديون توري Gideon Toury صاحب النظريات الشكلانية أن يقدم تعريفاً للترجمة بوصفها فعلاً تواصلياً، وإن كان قد أقر في تعريفه بالمقام المحلي المؤثرة والمعايير السائدة في الثقافة الهدف التي تفرض قيودها على عملية التواصل. كتب يُعرّف الترجمة على أساس أنها

تواصل من خلال رسائل مترجمة في إطار نظام ثقافي-لغوي محدد، بما يترتب على ذلك من نتائج تستدعي تفكيك الرسالة الأصلية وتحديد العناصر الثابتة ثم نقلها عبر الحدود الثقافية-اللغوية وإعادة تشكيل الرسالة في اللغة المترجم إليها.

(توري ١٩٨٠: ١٧، تؤكد توري)

فإذا ما تبرزنا عبارة توري "تحديد العناصر الثابتة"، فإنّه في حالة تعريف الترجمة بوصفها فعلاً يحقق التواصل، ألا يعني "تحديد العناصر الثابتة" أن الترجمة تسطّح بمهمة تفوق مجرد عملية التواصل أو تختلف عنها. فالرسالة الأصلية تتعرض دوماً لإعادة التفسير والتكوين وبخاصة في تلك الأشكال الثقافية التي تصنع مجالاً للتفسير مثل النصوص الأدبية، والمقالات الفلسفية، وترجمة الأفلام السينمائية، ونصوص الإعلانات، والبحوث التي تُلقى في المؤتمرات، والشهادة الشفوية في ساحات القضاء. فكيف للرسالة الأصلية أن تصبح عنصراً ثابتاً بينما هي تخضع لعملية "تحديد" في اللغة والثقافة اللتين نُقلت إليهما. إن الرسالة يُعاد إنشائها على الدوام على خلفية مجموعة مختلفة من القيم وتظل في حالة تتسم بعدم الثبات وفقاً لتباين اللغات والثقافات التي تنقل إليها. وفي نهاية المطاف نجد أن توري يتجنب مسألة التواصل كلية وينقل اهتمامه بعيداً عن استكشاف التماثل بين الترجمة والنص الأجنبي ويركز بدلاً من ذلك على مدى قبول الترجمة في الثقافة التي تستقبلها. وهو بذلك يستبعد التفكير في النص الأجنبي لصالح القيام بالبحوث لتناول بالوصف المعايير الثقافية المحلية.

ولكن دعونا هنا نمسك بالخيط البحثي الذي تخلى عنه توري: «إعني سبيل المثال» ما هي السمات الشكلية والموضوعية في الرواية الأجنبية التي يُمكن أن توصف بالتهاب: أثناء



عملية الترجمة؟ وبما أن قواعد الدقة تختلف باختلاف الثقافات واللحظة التاريخية فإن تعريف ماهية الثوابت تختلف بدورها. ولنطرح سؤالاً يشمل بممارسات الترجمة في زماننا. إذ يسعى مترجمو الروايات في أيامنا هذه إلى الحفاظ على العناصر الأساسية للشكل السردى دون تغيير. فلا يقدم المترجم على إعادة تحرير الحكمة كي يبدل الأحداث أو يدخل عليها ترتيباً مغايراً. كما لا يقدم المترجم على حذف ما تقوم به الشخصيات من أفعال ولا يخضعها للتغيير. وبوجه عام فإن التواريخ، والإشارات التاريخية والجغرافية، وأسماء الشخصيات (وإن اتسمت بالتعقيد والغرابة) لا تتغير ولا تستبدل إلا في حالات نادرة (الأسماء الروسية على سبيل المثال<sup>(١)</sup>). إن قواعد الدقة المعاصرة اللبقة في الترجمة تستند إلى مبدأ التساوي في العلاقة مع النص الأجنبي. فلا تقتصر ترجمة الرواية على العناصر الأساسية للشكل السردى وحده وإنما يمتحن أن تنجز ذلك في عدد صفحات العمل الأصلي نفسه تقريباً.

غير أنه في عام ١٧٦٠ أعلن الأب بريغوست Abbé Prevost أن الدقة شملت ترجمته الفرنسية لرواية بايلا Pamela لسمويل ريتشاردسون Samuel Richardson علي الرغم من أنه اختصر سبعة مجلدات حررها المؤلف بقلقه الإنجليزية إلى أربعة مجلدات باللغة الفرنسية. ويؤكد بريغوست أنه لم يغير ما قصد إليه مؤلف الرواية كما لم يغير كثيراً في الأسلوب الذي صاغ فيه المؤلف الأصلي مقصده (انظر لوفيفر Lefevre، ١٩٩٢: ٣٩). وإننا نرى في مثل تلك الأقوال إخلالاً لقواعد الدقة بغيرها تقوم على أساس من قصد المؤلف وأسلوبه بل إننا نرى في تلك الأقوال ما يتخطى نشاط الترجمة ذاته. فقد شغف بريغوست ترجمته اختصاراً للنص الأصلي واعداده له.

وفيما يتعلق بممارسات الترجمة العالية فإنه يمتحن أن تتفلل ترجمة أية رواية العناصر الرئيسية للشكل السردى الذي يُغلف على النص الأجنبي بنيته. غير أنه ليس صحيحاً أن تلك العناصر تخلو من التباين. فأي استخدام لغوي يحلق على الأرجح تبايناً من خلال استخدام تقنية خاصة لانتخاب مجموعة متباينة من التراكيب الفرعية أو الثانوية مثل اللهجات المحلية أو تلك التي تجرى على ألسنة مجموعات بعينها، واللهجات العامة التي تخص أهل المدن، والعبارات التي ابتذلت لكثرة استخدامها والشعارات، والابتكارات الأسلوبية، والتعابير القديمة، والكلمات المستحدثة. ويسمى جان جاك لوسركل هذه التعبيرات المتباينة "الأثر اللبقي" إذ أنها تتخطى فعل التواصل الذي يقدم صوتاً واحداً وتلفت النظر إلى الظروف الخاصة بفعل التواصل، وهي ظروف تعد لغوية وثقافية في المقام الأول، غير أنها في نهاية الأمر تضم عوامل اجتماعية وسياسية (لوسركل ١٩٩٠). وبالنسبة فإن "الأثر اللبقي" في النصوص الأدبية يشتمل على تعقيد أكبر وعادة ما يكون هذه النتيجة لطبقات مترسبة من العناصر الشكلية وأشكال الخطاب العام في الماضي فضلاً عن الحاضر (جيمسون ١٩٨١: ١٤٠-١٤١).

ولذلك، فإن أي فعل للتواصل يتم من خلال الترجمة من شأنه أن يطلق "أثراً لبقياً" محلياً، وعلى الأخص في حالة الأدب. إذ يُعاد تحرير النص الأجنبي في لهجة وخطاب

وأسلوب ومستوى محلي، الأمر الذي ينتج عنه سمات في النص المترجم تحمل دلالات لا يمكن تفسيرها خارج إطار اللغة المترجم إليها أو بعيداً عن ثقافتها. وقد يشرع المترجم في إنتاج هذه السمات لكي يوصل النص الأجنبي، مستهدفاً ابتكار بدائل محلية تحل محل التراكيب والموضوعات الأجنبية، غير أن النتيجة ستتخطى دائماً عملية التواصل، علي اعتبار أن الترجمة تطلق طاقات و احتمالات للمعنى وثيقة الصلة باللغة والثقافة اللتين يترجم النص إليهما.

وإذا ما تناولنا بالفحص إحدى الترجمات الإنجليزية الحديثة لرواية (1994) Sostiene Pereira للكاتب الإيطالي أنطونيو تابوكي والتي صدرت بالإنجليزية عام ١٩٩٥ تحت عنوان Declares Pereira، وهي من ترجمة باتريك كريج، لوجدنا أن لغة الترجمة الإنجليزية تعتمد في معظمها على اللهجة العامية، غير أن كريج عمد إلى استخدام شرب من العامية يجنح في بعض الأحيان إلى العامية التي تشيع في أوساط المجرمين والخارجين عن القانون. فهو يترجم "taceva"، ومعناها "ملتزم الصمت"، إلى "مكتم الفم"، ويترجم "quattro uomini dall'aria sinistra" ومعناها "أربعة رجال يمشون جواً من عدم الارتياح" إلى "أربعة رجال تحوم حولهم الشبهات"، ويترجم "stare con gli occhi aperti" وتشير في الأصل إلى معنى الانتباه بعبارة لا يتداولها إلا عتاة الإجرام، ويترجم "un personaggio del regime" وتعني "أحد رجال النظام" إلى كلمة الإنجليزية bigwig المسرفة في عاميتها، ويترجم "sensza pigama" أي "نون بيجاما" إلى تعبير يشير إلى التجرد من الملابس in his birthday suit، ويترجم "va a dormire" ومعناها يأوي إلى الفراش إلى تعبير عامي يستخدم في سياق نوم الأطفال (تابوكي ١٩٩٤: ١٣، ١٩، ٤٣، ٧٣، ١٠٨، ١٩٦، كريج ١٩٩٥: ١٥، ١٩، ٢٥، ٤٥، ٦٧، ١٢٧). كما أن كريج قد خلط بعض الكلمات والعبارات الإنجليزية المميزة في أسلوبه، فترجم كلمة "orrendo" وتعني "رهيب" بالتعبير الإنجليزي العامي "bloody awful"، كما ترجم "una critica molto negativa" وتعني "نقدًا سلبياً للغاية" بالتعبير الإنجليزي العامي "slanting"، وكذلك ترجم "pesioncina" وتشير إلي لُرُل صغير بتعبير عامي إنجليزي هو "a little doss-house"، ويترجم "sono nei guai" ومعناها أن يقع المرء في ورطة إلى العامية الإنجليزية "I m in a " pickle"، و"parlano" أي يتحدثون إلى "natter"، و"à vedere" أي ينظر إلى "to take a dekko" وكلاهما تعبيران شائعان في الإنجليزية العامية (تابوكي ١٩٩٤: ٨٠، ٨١، ٨٤، ١٠٤، ١٧٦، كريج ١٩٩٥: ١٥١، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٥).

وقد قدمت ما قدسته من تعبيرات بديلة كي أوضح مدى ما ذهب إليه كريج من ابتكار في ترجمته، ولا ينبغي أن يُنظر إلى مقترحاتي بوصفها أكثر دقة إذا ما قورنت بترجمة كريج. ففي كلا الحالتين نجد أن ما ذهب إليه كريج وما اقترحته من تعبيرات تقدم جميعها تكافؤاً لفظياً مع النص الإيطالي بما يتفق والمعنى المعجمي. وعلى ذلك فإن اختيارات كريج

نتقل من المعاني ما يمكن وصفه بالثابت المشترك invariant ما دامت هذه الاختيارات تُحتَزل إلى معنى أساسي مشترك بين اللغتين الإيطالية والإنجليزية.

غير أن ترجمة كريج تدخل تنوعاً على هذا المعنى. ويمكن أن نطلق على هذا التنوع مصطلح "الإزاحة اللغوية" shift، إذ إن هذا المصطلح قد أدخل عليه التطوير في مجال دراسات الترجمة منذ ستينيات القرن الماضي (انظر على سبيل المثال، كاتفورد Catford ١٩٦٥، بلوم كولكا Blum-Kulka في هذا الكتاب؛ ثوري ١٩٩٥). فلماذا ما وضعنا ترجمة كريج إلى جانب الرواية الإيطالية لتبين لنا تلك الإزاحة اللغوية، بل لتبيننا إزاحات أخرى في مجال استخدام مستويات اللغة register، وذلك من العامية الإيطالية المتداولة إلى لهجات عامية بريطانية وأمريكية متعددة. وقد أقر كريج في إجابته على تساؤلي بأن بعض العبارات اتسمت بدرجة أكبر من العامية في الإنجليزية مقارنةً بالإيطالية، موضحاً أنه لم يلجأ إلى الإزاحات التي أجراها لاختلاف في بنية اللغتين بل لأنه استجاب لدوافع أدبية وثقافية. بل أنه أقر باقتصاره على عبارات كانت سائدة عام ١٩٣٨، في الفترة الزمنية التي تقع فيها أحداث الرواية كما حرص على وضع العبارات على لسان شخصيات بعينها كي يحقق تبايناً لغوياً طفيفاً بين الشخصيات (مراسلات خاصة: ٨ ديسمبر ١٩٩٨).

غير أن مفهوم الإزاحة لا يحف بدقة المؤثرات القصصية التي أنتجتها اختيارات كريج، ذلك أن دلالات ترجمة كريج تتجاوز مقاصده الأدبية والثقافية من خلال إطلاق "أثر متبقي" له نكهة إنجليزية مميزة، ذلك أن اللهجات العامية والاستخدامات اللغوية المرتبطة بشرائع اجتماعية، في تباينها، تحيل إلي أساليب وأنواع وتقاليد أدبية إنجليزية معينة. وتعد رواية تابوكي من روايات الإثارة السياسية، وتدور أحداثها في زمن الديكتاتور البرتغالي أنطونيو دي أوليفيرا سالازار António de Oliveira Salazar، وتحكي قصة بيريرا Pereira محرر صفحة الثقافة في إحدى صحف لشبونة والذي تقدمت به السن وترصد الرواية تحوله الراديكالي في غضون بضعة أسابيع لتصل الأحداث إلى ذروتها عندما ينشر مقالاً يهاجم فيه النظام الفاشي. إن الخليط اللغوي الذي يقدمه كريج والذي يجمع بين القصص والعامي، وبين اللهجتين البريطانية والأمريكية، يطبع نشره بطابع لغة المحادثة على نحو يفتق وأسلوب عرض تابوكي لحبيته القائمة على الإثارة: إذ تأخذ سردية بيريرا قالباً شغوياً في صورة شهادة رسمية موجهة إلى شخصية أحد المسؤولين لم يحددها المؤلف (وهذا يفسر غرابة العنوان)، غير أن اللغة الإنجليزية المسرفة في عاميتها التي استخدمها المترجم تغير أيضاً من سمات شخصية بيريرا ليبدو أنه أقل ثباتاً وربما أصغر من شخصية الصحفي الذي تقدمت به السنون في النص الإيطالي.

وفي الوقت ذاته، تشير اللهجة العامية إلى علامات في تاريخ الرواية الإنجليزية فهي تستدعي إلى الذهن روايات الإثارة التي تعالج موضوعات سياسية مماثلة، وبخاصة روايات جراهام جرين ومنها على سبيل المثال العميل السري The Confidential Agent (١٩٣٩). وتلعب أحداث رواية جرين مثلاً مثل رواية تابوكي إبان الحرب الأهلية الأسبانية وتروي في

لثناياها محاولة تقديم الدعم للجانب الجمهوري في الصراع ضد فرانكو. وبسبب تلك الإشارة الأدبية إلى جريرين فإن ترجمة كريج في واقع الأمر تدعو القارئ إلى التمييز بين معارضة تابوكي اليسارية للنظام الفاشي، والليبرالية الأكثر تحفظاً التي يبتناها جريرين (ديمرت Diemert ١٩٩٦: ١٨٠-١٨١). فقد كان جريرين يرى في كتب الإشارة التي كتبها أعمالاً للتسلية والإمتاع تتعرض لقضايا اجتماعية وسياسية، وضعت "كسبب تعبير عن الأمر الواقع لا كسبب تغيره" (آلان Alain ١٩٨٣: ٨١). إن المشابهات اللغوية بين ترجمة كريج ورواية جريرين استدعت وأبرزت الاختلافات الأيديولوجية بينهما علي نحو يمايز بين معالجة كل من تابوكي وجريرين للحدث التاريخي نفسه.

ولذلك فإنه على الرغم من أن ترجمة كريج يمكن القول بأنها قامت بتوصيل التهمة التي تقوم عليها رواية تابوكي وقالبها الفني، فإن التهمة والقالب كليهما لا يسلطان من التنبؤات التي أدخلت على الترجمة والتي أوجدها "الأثر التنبؤي" وثيق الصلة باللغة الإنجليزية. وهذا الأثر التنبؤي لا يقوم فقط بنقل مجموعة من الاختلافات اللغوية والثقافية علي النص الأجنبي، وإنما يتسبب أيضاً في فقدان الاختلاف اللغوي الذي يشكل ويميز هذا النص. ويرى آلان ماكينتير Alasdair MacIntyre أن هذا الفقد يحدث لأن اللغة المستخدمة في أي مجتمع له تراث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعبير عن المعتقدات المشتركة التي تضرب بجذورها في ذلك التراث مما يضفي يعداً تاريخياً على اللغة لا تنقل عملية الترجمة في نقله في كثير من الأحيان (ماكينتير MacIntyre ١٩٨٨: ٣٨٤). ويرى ماكينتير أن مشكلة استحالة الترجمة تصبح أكثر حدة في سياق اللغات التي شاعت على الساحة الدولية في أواخر مرحلة الحداثة في القرن العشرين، والإنجليزية مثال على ذلك إذ أنها لغة لا تفرص إلا في أضيق الحدود إمكانية وجود نظم عقائدية منافسة ولذلك فإن اللغة الإنجليزية تفرص الحياد على أي بعد تاريخي للنصوص الأجنبية (الرجع نفسه). وعلى ذلك فإن الترجمة الإنجليزية<sup>(٣)</sup>:

تنتج نوعاً من النصوص لا يمكن قراءته على أساس أنه النص الأصلي فهو يقع خارج سياقها بل إنه في واقع الأمر يبدو منبهت الصلة بأي سياق. غير أن الترجمة تحيل النص الأصلي إلى نص لا ينتمي بحال إلى المؤلف، وهو نص لا يمكن لجمهور القراء الأول الذي استهدفه المؤلف أن يتعرف علي النص الأصلي من خلاله. (الرجع نفسه: ٣٨٥، تؤكد ماكينتير)

إن ترجمة كريج نقلت علي رواية تابوكي تاريخاً ثقافياً وثيق الصلة باللغة الإنجليزية وأزاحت في الوقت ذاته البعد التاريخي للنص الإيطالي. وتحمل رواية تابوكي مكانها في تراث سردي يشمل روايات المقاومة إبان الحرب العالمية الثانية وبمعدنها، وروايات تروي أوجه الحياة تحت الحكم الفاشي، ومنها على سبيل المثال رواية أنبروتو مورافيا الممثل Il conformista ١٩٥١، ورواية جورجيو باساني Giorgio Bassani حديقة فينتسمي-كوتنتينيس Il giardino dei Finzi-Contini ١٩٦٠. إن حقيقة وجود تراث فاشي في

التاريخ الإيطالي أتاح للقراء رواية تابوكي أن يفهموا ما قصده المؤلف بنظام سالازار على خلفية إيطالية، ليس فقط بوصفه إشارة إلى ديكتاتورية موسوليني بل بوصفه إحالة رمزية لأحداث جارية، فقد كتبت الرواية في عام ١٩٩٣ ونشرت في العام التالي حينما تولى تحالف يمثل يمين الوسط السلطة في إيطاليا بعد انتصار حركة Forza Italia التي يتزعمها سيلفيو برلوسكوني Silvio Berlusconi. ونقلًا عن تابوكي نفسه في حديثه عن الرواية، فإنَّ هؤلاء الذين لم ترقهم الأوضاع السياسية في إيطاليا نظروا إلى الرواية بوصفها رمزًا للمقاومة من الداخل (كوترونيو Cotroneo ١٩٩٥: ١٠٤). ونظرًا لأن الرواية تحمل للإيطاليين ذلك الغزى الخاص فإن ثلاثمائة ألف نسخة قد بيعت خلال عام واحد.

وعلى الرغم من أن النقاد البريطانيين والأمريكيين استقبلوا رواية تابوكي استقبالا حسنا فإنَّ الرواية لم تخرج ضمن قائمة أكثر الكتب مبيعًا. فلم تتخط مبيعات النسخة الأمريكية التي نشرت دار نشر New Directions خمسة آلاف نسخة خلال عامين. لقد حافظ كريج على التكافؤ اللغوي، غير أن الأثر المتبقي من اللغة والثقافة الإنجليزية في ترجمته لم يمنح الفرصة للحفاظ على التاريخ الثقافي والسياسي الذي أدى إلى النجاح الباهر للرواية بين قرائها من الإيطاليين، فضلًا عن قراء أوروبيين آخرين مثل الأسبان الذين يشابه تاريخهم مع الشعب الإيطالي.

### التواصل عبر التضمين والإضافة

هل يمكن أن تنقل ترجمة ما إلى قارئها فهمًا للنص أجنبي يساوي ما يفهمه منه القارئ الأجنبي نفسه؟ أرى أنَّ ذلك ممكنًا غير أن الرسالة التي تقدمها الترجمة دائمًا ما تكون غير مكتملة ومنحازة في نهاية المطاف إلى الشاهد المحلي. ولا تنجح الترجمة في نقل ما يفهمه القارئ الأجنبي إلا عندما يقوم الأثر المحلي الذي تطلعه الترجمة بإضافة أو نقش السياق الأجنبي الذي خرج للنص الأصلي بداية من ثنائيه.

إن التواصل في هذه الحالة يتم بشكل غير مباشر، فهو يستند إلى التكافؤ اللغوي ولكنه ينتج دلالات تتخطى حدود هذا التكافؤ، كما أنه ينقل "المعلومات" أو "فحوي" النص الأجنبي على حد تعبير فالتر بنيامين Walter Benjamin (بنيامين في هذا الكتاب)، وإن كان يتجاوز ذلك أيضًا. يقول بنيامين "أن الترجمات التي تتجاوز مجرد نقل فحوي النص الأجنبي تخرج إلى حيز الوجود عندما تبلغ هذه الترجمات خلال مسارها اللحظة الزمنية التي تدفع فيها شهرتها". وتعني "الشهرة" بالنسبة لي الاستقبال العام للنص الأدبي لا من زاوية لغته والثقافة التي يعبر عنها فحسب وإنما في لغات تلك الثقافات التي تترجم إليها، وليس على أساس الأحكام التي أصدرها النقاد في موطن نشر العمل أو خارج حدوده فحسب وإنما أيضًا على أساس من تفسيرات مؤرخي الأدب والنقاد والصور التي يؤثر بها العمل الذي اكتسب شهرة عالمية على أشكال وممارسات ثقافية أخرى، على مستوى النخبة والعامه معًا. إذًا يمكن لترجمة رواية أن تقوم بتوصيل النص الأجنبي، ولكن ليس على مستوى المعاني

المعقدة ومستوى العناصر الأساسية للشكل السردي فحسب وإنما تقوم هذه الترجمة بتوصيل تفسير ما للنص الأجنبي يسهم في الحياة الأبدية التي يكتسبها هذا النص في الأجيال المتتالية". ويجوز أن يكون ذلك التفسير محل مشاركة القراء من الأجانب الذين كتب النص خصيصاً لهم، وفي هذه الحالة فإن الترجمة ستسرخ فهمًا مشتركًا للثقافة الأجنبية يستعيد ولو جزئيًا السياق التاريخي للنص الأجنبي على الرغم من أنه يستهدف القراء المحليين.

وإذا ما نظرنا في رواية كامي Camus الغريب L'Étranger (١٩٤٢) فإننا نرى صدق ما أقر به كامي نفسه حين قال أن السمات المميزة للحبكة والأسلوب وبناء الشخصيات والتي تميز النص الفرنسي مأخوذة عن فن القصة الأمريكية في أوائل القرن العشرين، وبخاصة عن روايات إرنست همنجواي Ernest Hemingway وبشكل عام عن الكتابة النثرية التي تتركز حول شخصية البطل الخشن والتي عُرف بها كتاب من أمثال جيمس م. كاين James M. Cain حيث تظهر الشخصية مجردة من الشاعر وغير متأثرة بالعنف من حولها. وتقدم السمات الأسلوبية في ترجمة ماثيو وارد Matthew Ward التي صدرت عام ١٩٨٨ بعنوان The Stranger علاقة التناص تلك لقراء الإنجليز على نحو يفوق في أثره ترجمة ستيفارت جيلبرت التي صدرت في عام 1946. ويوضح الفرق في الصفحة الافتتاحية:

Aujourd'hui, maman est morte. Ou peut-être hier, je ne sais pas.  
J'ai reçu un télégramme de l'asile: "Mère décédée. Enterrement demain. Sentiments distingués." Cela ne veut rien dire. C'était peut-être hier.

L'asile de vieillards est à Marengo, à quatre-vingts kilomètres d'Alger. Je prendrai l'autobus à deux heures et j'arriverai dans l'après-midi. Ainsi, je pourrai veiller et je rentrerai demain soir. J'ai demandé deux jours de congé à mon patron et il ne pouvait pas me les refuser avec une excuse pareille. Mais il n'avait pas l'air content. Je lui ai même dit: "Ce n'est pas de ma faute." Il n'a pas répondu. J'ai pensé alors que je n'aurais pas dû lui dire cela. En somme, je n'avais pas à m'excuser. C'était plutôt à lui de présenter ses condoléances. Mais il le fera sans doute après-demain, quand il me verra en deuil. Pour le moment, c'est un peu comme si maman n'était pas morte. Après l'enterrement, au contraire, ce sera une affaire classée et tout aura revêtu une allure plus officielle.

(كامي ١٩٤٢: ١)

Mother died today. Or, maybe, yesterday; I can't be sure. The

telegram from the Home says: YOUR MOTHER PASSED AWAY.  
FUNERAL

TOMORROW. DEEP SYMPATHY. Which leaves the matter  
doubtful; it

could have been yesterday.

The Home for Aged Persons is at Marengo, some fifty miles from Algiers. With the two o'clock bus I should get there well before nightfall. Then I can spend the night there, keeping the usual vigil beside the body, and be back here tomorrow evening. I have fixed up with my employer for two days' leave; obviously, under the circumstances, he couldn't refuse. Still, I had an idea he looked annoyed, and I said, without thinking: "Sorry, sir, but it's not my fault, you know." Afterwards it struck me I needn't have said that. I had no reason to excuse myself; it was up to him to express his sympathy and so forth. Probably he will do so the day after tomorrow, when he sees me in black. For the present, it's almost as if Mother weren't really dead. The funeral will bring it home to me, put an official seal on it, so to speak.

(جیلبرت ١٩٤٦ : ١-٢)

Maman died today. Or yesterday maybe, I don't know. I got a telegram from the home: "Mother deceased. Funeral tomorrow. Faithfully yours." That doesn't mean anything. Maybe it was yesterday.

The old people's home is at Marengo, about eighty kilometers from Algiers. I'll take the two o'clock bus and get there in the afternoon. That way I can be there for the vigil and come back tomorrow night. I asked my boss for two days off and there was no way he was going to refuse me with an excuse like that. But he wasn't too happy about it. I even said, "It's not my fault." He didn't say anything. Then I thought I shouldn't have said that. After all, I didn't have anything to apologize for. He's the one who should have offered his condolences. But he probably will day after tomorrow, when he sees I'm in mourning. For now, it's almost

as if Maman weren't dead. After the funeral, though, the case will be closed, and everything will have a more official feel to it.

(وارد ١٩٨٨ : ٣)

يجد القارئ في النصين المترجمين لغة إنجليزية تميل إلى العامية إلى حد كبير، غير أننا إذا ما وضعنا الترجمتين جنباً إلى جنب فإن الاختلافات بينهما تبدو واضحة في تعددها. لجأ جيلبرت إلى الأسلوب الحر في ترجمته، فقد أضاف كلمات لتوضيح المعنى فترجم *je pourrai veiller* التي تعني "سأظل مستيقظاً" إلى *"I can spend the night there, keeping the usual vigil beside the body."* أي "سأضي ليلتي هناك، ملتزماً بما جرى العرف عليه من سهر بجوار الجثمان". كما أنه يراجع النص الفرنسي ويخفف من حدته عندما يترجم *"Cela ne veut rien dire"* (التي تعني "ولا يعني ذلك شيئاً") إلى *"which leaves the matter doubtful"* (والتي تعني "وذلك يجعل الأمر ملتبساً"). ونجد أيضاً أن ترجمة جيلبرت تضلي سمة الرسمية وعلامات الاحترام على النثر الذي استخدمه في ترجمته، فيترجم *maman* أي "ماما" إلى "أمي"، كما يترجم الكلمة الفرنسية الدارجة التي تشير إلى رب العمل *"patron"* بالكلمة الرسمية المستخدمة في الإنجليزية *"employer"*، ويترجم *"Ce n'est pas de ma faute"* أي "أن الأمر ليس بيدي" إلى *"Sorry, sir, but it's not my fault, you know."* وتعني "آسف يا سيدي، ولكن ذلك ليس خطأي كما تعرف". أما وارد فقد التزم منهجاً في الترجمة الحرفية يتجه اتجاهاً معاكساً لترجمة جيلبرت، فقد أورد في ترجمته خصوصيات الألفاظ والتراكيب الفرنسية فلم يقتصر على اختيار كلمتي *"Maman"* و *"boss"* وإنما التزم أيضاً ببناء جمل كامي الذي يتسم بالوجازة والدقة، ومن ثم جاءت ترجمته للجملتين المشار إليهما آنفاً إلى *"That doesn't mean anything"* و *"It's not my fault."* وقد نتج عن ذلك خلع سمة الألفة والمباشرة على ترجمته، فبينما يلجأ جيلبرت إلى استخدام صياغة رسمية في ترجمته لعبارات مثل *"deux jours de congé"* (إجازة لمدة يومين) فيترجمها *"two days' leave"*، و *"Tasile de viellards"* (ملجأ المسنين) فيترجمها *"Home for Aged Persons"*، كما يترجم *"je n'aurais pas à m'excuser"* (لا أجد مبرراً للنفس)، *"I didn't have anything to apologize for"*، نرى أن وارد يستخدم تعبيرات أقرب إلى العامية : *"two days off"*، *"old people's home"*، *"I didn't have anything to apologize for."* ويصف وارد نفسه الفرق بين الترجمتين بأنه قائم على اختلاف اللهجة إذ يستخدم جيلبرت اللهجة البريطانية بينما يضي هو على ترجمته سمات اللهجة الأمريكية (وارد ١٩٨٨ : ٧ - ٧١). ووارد هنا على وعي أيضاً بأن ترجمته تؤكد على إبراز تباين ثقافي ما، فترجمته تطلق أثراً أدبياً يحيل قراء الإنجليزية إلى التراث الأمريكي، أي إلى هيمنجواي، وندوس، باسوس، وفوكنر وكاين (الرجع نفسه).



وعلى الرغم من أن ترجمة جيلبرت تنحو منحى الترجمة الحرة في عدة مواضع ، إلا أنها حققت أيضاً التكافؤ اللفظي الذي ينقل في واقع الأمر خصوصيات الحكمة ورسم الشخصيات في رواية كامبي. ولذلك فإن ترجمته هي الأخرى قد تمكن قراء الإنجليزية من التعرف على أصول النص الفرنسي في الأدب الأمريكي وإن لم يتعرفوا على السياق الفرنسي الأكبر. وقد قدم إدموند ويلسون الناقد الأمريكي المرموق عرضاً نقدياً لترجمة جيلبرت في مجلة النيويورك New Yorker عبر فيه على نحو لافت عن رد فعله لهذه الترجمة . كان ويلسون يعرف أن كامبي "واحد ممن يدعمون في كتاباتهم الأدبية ما كان يُعرف بالفلسفة الوجودية" غير أنه أقر بجهله عندما قال "لقد قرأت القليل مما كتب سارتر ولم أقرأ سوى تلك الرواية من أعمال كامبي كما أنني أجهل تماماً الخلفية الفلسفية لأعمالهما" (ويلسون ١٩٦٤ : ٩٩). ونظراً لعرفته المحدودة فقد اتجه ويلسون على نحو مباشر إلى ما يأنه ولذلك أكد على الإشارات المحلية في ترجمة جيلبرت. يقول ويلسون في هذا المقام "إن المرء يشعر بكل تأكيد أن السيد كامبي كان يقرأ روايات أمريكية من قبيل ساعي البريد دائماً يدق الجرس مرتين". وقد أدت تلك الإشارة بويلسون إلى عقد مقارنة ظالمة فقد أصدر حكمه على رواية كامبي على أساس أنها محاولة فاشلة لتقليد رواية كايين، لا بوصفها رواية فرنسية تستخدم قالباً أمريكياً كي تستكشف موضوعات فلسفية أوروبية. إن الواقعية التي سادت التراث السردي الأمريكي طويلاً أدت إلى تغييب السياق الأجنبي. ولذلك فقد أنتقد ويلسون شخصية كامبي الرئيسية في الرواية على أساس أنها غير قابلة للتصديق كما رأى أن مسلكه يعوزه التفسير والعقلانية (المصدر نفسه).

وقد حالف الحظ وارد لأن قراءه كانوا أكثر وعياً فكان بمقدوره أن يركن إلى أربعة عقود من النقد الأدبي وتاريخ الأدب سمحت جميعها بدراسة رواية كامبي الغريب وتشريحها واحتلالها موقعاً في تراث الأدب العالمي في الولايات المتحدة وخارجها. ولا شك أن ترجمة جيلبرت قدمت العون كي تحقق الرواية مكانتها بين قراء الإنجليزية، ولكن ترجمة وارد كانت الترجمة الأولى التي أنتجت تجربة معادلة لتجربة كامبي من الناحية الأسلوبية، وتنطوي على هجين متعدد العناصر من القوالب اللغوية والثقافية مستمد من فرنسا والولايات المتحدة. وعلى هذا النحو قدمت ترجمة وارد فهماً للنص الفرنسي كما فهمه القراء الفرنسيون. وقد دعا هذا الفهم وارد إلى اتخاذ قراره بالحفاظ على الكلمة الفرنسية العامة في الجملة الافتتاحية، على سبيل المثال:

يسجل كامبي في مذكراته ملاحظة مؤداها أن "الشعور الغريب الذي يمكنه الابن لأمه يشكل مجمل إدراكه وحسه"، كما أن سارتر يستطرد في مقاله "شرح رواية الغريب" عندما يشير إلى استخدام مرسو Mersault لكلمة Maman التي يشير بها الأطفال إلى أمهاتهم. ولذلك فإلنني أعتقد أن استخدام كلمة Mother التي ترد على السنة الكبار وتقيم مسافة أبعد بين الابن وأمه تدخل تغييراً على طبيعة الشعور الغريب الذي يمكنه مرسو لها. (وارد ١٩٨٨ : ٧٤)

إن ترجمة وارد أطلقت أثرًا متبقياً remainder يحمل آثاراً من إشارات أمريكية وفرنسية، وقد نتج عن ذلك تعرض قراء الإنجليزية بحق لعملية نزع ألفة النص defamiliarization. فلم يقتصر الأمر على أن قالب السرد الأمريكي اكتسب كثافة فلسفية لم تكن متوافرة في روايات المؤلفين الأمريكيين الذين استخدموا القالب نفسه، بل أن ترجمة جيلبرت فقدت سلطتها بوصفها تفسيراً للنص الفرنسي. ويتضح ذلك في الملاحظة القصيرة التي تتسم مع ذلك بسداد الرأي والتي وردت في مجلة النيو يوركر :

إن أثر هذه الترجمة التي تقترب من النص الأصلي وتقدم رؤية له تتسم بقدر أكبر من البساطة تجعل من مرسو شخصية أكثر غرابة وانطوائية وانعزلاً، إذا ما قورن بشخصيته كما تظهر في الترجمة البريطانية حيث يبدو كمن يغضي للقراء بمكنون قلبه في شرح مستفيض. ولذلك فإن مرسو في ترجمة وارد يظهر لا بوصفه مؤمناً بعمد اللذة المادية التي تخلو من الأوهام بل أنه يصبح موضع دراسة نفسية تجعله قريباً من أمه المتوفاة وعلي وعي شديد "اللامبالاة الرفيعة التي يبديها العالم" وذلك من خلال حدث غير مبرر أتاه وهو يعاني من شداوة من أثر انعكاس ضوء الشمس الساطع على عينيه وكذلك من خلال ما جرّه ذلك الحدث عليه من نتائج اجتماعية خللت من الرحمة. ويعد ما ورد في ترجمة وارد على هذا النحو تعديلاً لما جاء به جيلبرت في عبارته: "اللامبالاة الرحمة للكون" (نيو يوركر ١٩٨٨ : ١١٩)

يتضمن ذلك "التعديل" إذا ما أخذنا في الاعتبار رأي مراجع مجلة النيو يوركر درجة أعلى من المعقولة، فقد أسفى وارد على شخصية مرسو في رواية كامي واقعية نفسية افتتحتها ويلسون في ترجمة جيلبرت، وذلك على الرغم من صدور ترجمة وارد لقراء أمريكيين جاما في مرحلة لاحقة. وقد تقبل قراء ترجمة وارد عمله على نحو أكبر بفضل معرفتهم الكثير عن أدب فرنسا وفلسفاتها، وأيضاً بفضل أسلوب وارد الذي حمل أصداه قوالب ثقافية أمريكية وفرنسية وأصبح بالتالي أكثر نجاحاً في توصيل النص الفرنسي.

### جماعات غير متجانسة

تشكل الإضافة ذات الطابع المحلي لعملية الترجمة فعلاً تواصلياً فريداً وإن اتسم بعدم المباشرة، إذ تعمل هذه الإضافة على خلق جماعة محلية تبدي اهتماماً بالنص للترجم، وهي جماعة القراء الذين يعد النص مفهوماً لديهم والذين يستخدمونه لأغراض شتى. وينبع هذا الاهتمام المشترك على نحو تلقائي عند نشر الترجمة فيجذب القراء من جماعات ثقافية عدة تراها قائمة في إطار اللغة للترجم إليها. كما أن هذا الطابع المحلي للترجمة قد يتم إنجازه داخل إطار مؤسسة توظف الترجمة لخدمة أغراض مختلفة: أكاديمية، أو دينية، أو ثقافية أو سياسية، أو تجارية أو لها علاقة بالشؤون الداخلية لبلد ما: إن الجماعة التي تنشأ حول إحدى الترجمات أبعد ما تكون عن التناغم من حيث اللغة أو الهوية أو للتركز الاجتماعي.

ولعل ما تنسم به من تباين في الخواص يمكن فهمه على أساس ما تطلق عليه ماري لويز برات Marie Louise Pratt "لغويات الاتصال" linguistics of contact حيث يُنظر إلى الجماعات القائمة على اللغة بوصفها قائمة للمركز وذلك عبر "خطوط التمايز الاجتماعي" (برات ١٩٨٧ : ٦٠). ولذلك فإن الترجمة تشكل "مجال اتصال" لغوي بين الثقافتين المترجم منها والمترجم إليها ولكنها تشكل أيضاً "مجال اتصال" في داخل الثقافة المترجم إليها.

إن ما يجمع شمل الجماعة من مصالح واهتمامات عبر الترجمة لا يستند ببساطة إلى النص الأجنبي إنما يتركز أيضاً في القيم والمعتقدات والصور التي يضيفها المترجم على ترجمته. وتتحدد هذه المصالح والاهتمامات على نحو أدق من خلال الأساليب التي توظف بها الترجمة. ففي حالة النصوص الأجنبية التي أصبحت جزءاً من التراث المعتمد canonical في إطار إحدى المؤسسات، تصبح الترجمة هنا ساحة لجماعات التفسير التي قد تدعم التراث القائم وتفسيراته وكذلك المعايير والإيديولوجيات السائدة أو تضع كل ذلك موضع النقد والمراجعة (قارن ما ورد في فيش Fish ١٩٨٠، وأوجه نقد برات ١٩٨٦ : ٤٦-٥٢). وفي حالة النصوص الأجنبية التي حققت رواجاً جماهيرياً تصبح الترجمة مركزاً لتلاقي جماعات غير متوقعة، إذ تقوم الترجمة في هذه الحالة بخلق جماعات من القراء كانوا أشتاتاً متفرقين لما بينهم من اختلافات ثقافية، غير أن الإعجاب المشترك بالعمل المترجم قد جمع ما بينها. ويمكن أن تستجيب الترجمة لمصالح واهتمامات جماعات محلية متنوعة على نحو تتفاوت معه درجات الترحيب بالعمل وأشكاله. ونظراً لأن فعل الترجمة يتعامل مع ما هو أجنبي فيما يتعلق بالاختلافات اللغوية والثقافية فإن ذلك الفعل يستطيع بالقدرة نفسه أن يرسخ أو يتجاوز تلك الحدود القائمة بين القراء المحليين ومواقعهم داخل أنساق التراتب الاجتماعي. فإذا كان الطابع المحلي الذي تنقشه الترجمة على النص الأجنبي ينطوي أيضاً على جانب من السياقات الاجتماعي أو التاريخي الذي خرج منه النص الأجنبي ففي الإمكان أن تنشئ الترجمة أيضاً جماعة تضم ذات اهتمامات أجنبية وتبني فهمًا مشتركاً مع ثقافة أخرى وتراثاً آخر.

لننظر مثلاً في العلاقات الاجتماعية التي تتشكل حول ترجمة شعرية ما. كان للترجم الأمريكي آلان ماندلباوم Allen Mandelbaum قد نشر في عام ١٩٥٨ ترجمته الإنجليزية الكاملة لأعمال الشاعر الإيطالي جوسيبي أونجارتي Giuseppe Ungaretti. وقد استقبل للتحصيص الأكاديميون في الأدب الإيطالي بالجامعات الأمريكية عمله هذا بالترحاب، ومن هؤلاء من كان إيطالي المولد. وقد حرر الناقد الأدبي لدورية الأدب المقارن Comparative Literature ويدعى جيوفاني تشيكيي Giovanna Cecchetti عرضه للعمل باللغة الإيطالية وخلص إلى أن ترجمة ماندلباوم "نقطة مفيدة في مجال الدراسات الإيطالية بالولايات المتحدة" يوصى بها لكل من يود أن يتعرف بنفسه على عمل واحد من أفضل الشعراء في عصرنا" (تشيكيي ١٩٥٩ : ٢٦٨). إن الإشارة إلى شعير الجمع في "عصرنا" يوحي بالتقدير الذي يمكنه تشيكيي لشعر أونجارتي ويحمل تأكيداً على ما لشعره من قيمة كونية.

ولكن بما أنه كان يقدم عرضاً تقديماً باللغة الإيطالية لأول ترجمة صدرت لتلك المجموعة الشعرية فإن شمسير الجمع لا يشير إلى مجال كوني بالفعل، إذ إن تلك الإشارة لا تشمل القراء البريطانيين والأمريكيين الذين لا يعرفون الإيطالية. لقد تحليل تشيكيتي مجتمع بعضه قائم على أرض الواقع ومنتم لمهنة الأدب، وبعضه الآخر محتمل.

كما أن مشروع ترجمة أونجارتي قام بتطبيق معيار للدقة يتسق والتفسير الذي ساد جماعة الأكاديميين الإيطاليين. فقد حافظ ماندليابوم - المترجم - على تكافؤ لفظي دقيق بل وحاكي تراكيبي أونجارتي وسطوره. كما قرأ في إنجاز أونجارتي - مثله في ذلك مثل الدارسين الإيطاليين - جهداً يهدف إلى "موازاة جثمان اللغة الأدبية الإيطالية الثري" وذلك من خلال لغة شعرية بسيطة تنتم بالدقة و"تخلو من كل زخرف" (مانديابوم ١٩٥٨: ١٤١). وقد صارت قراءة ماندليابوم الأساس الذي أقام عليه النقاد رأيهم في نجاح ترجمته. يقول كارلو جوليوني Carlo Golino إن القارئ قد ينساق وراء ملاحظة حَرْفِيَّة الترجمة في مواطن عديدة غير أنه عند تدبره الأمر سيجد أن من المستحيل أن يحافظ المترجم على الإشارات الثرية في كلمات أونجارتي إذا حاد عن منهج الحَرْفِيَّة إلى غيره.

بذلك أصبحت ترجمة ماندليابوم ساحةً تعبر من خلاله جماعة الأكاديميين عن اهتمامها بشعر أونجارتي، وأفراد هذه الجماعة من الأمريكيين الذين يشتركون في فهم النص الإيطالي ومنهم إيطاليون بحكم المولد، وفي مثل هذا السياق احتلت الترجمة في نهاية المطاف مكانها في التراث الرسمي. وقد أعيدت طباعتها في عام ١٩٧٥ بعد ما يقرب من عقدين من الطبعة الأولى عندما أصدرت مطبعة جامعة كورنيل طبعة مزودة ومتقنة منها.

فصلاً عن ذلك يمكن أن نلاحظ القول الذي يحظي به النص المترجم من جانب جماعة أخرى في حالة ترجمة ماندليابوم، ألا وهي الجماعة المحلية التي لا تتوافق اهتماماتها واهتمامات الأكاديميين الإيطاليين والتفسير السائد لشعر أونجارتي. فبينما التزم ماندليابوم حرفياً بالصياغة اللغوية الواضحة الموجودة في شعر أونجارتي، فإنه أضاف أيضاً لغةً شعريةً ونفساً شعرياً يحملان طابع العصر الفيكتوري، إذ ترجم "morire" (أي "يموت") إلى "perish" (أي يبغي). وترجم "buttato" أي "قذف" إلى "cast" (أي يشرح)، كما ترجم "ti basta un'illusione" أي "الوهم يكفيك" إلى "you need but an illusion" (ومقابلها في العربية "لست بحاجة إلا إلي الوهم)، كما ترجم "sonno" أي "النوم" إلى "slumber" (ومقابلها اللفظي في العربية "السبات")، و "riposato" أي "تألق قسطاً من الراحة" إلى "reposed" (و مقابلها في العربية "اضطجع" أو "هجع")، و "potrò guardarla" أي "يمكنني مشاهدتها" إلى "I can gaze upon her" (و مقابلها "يمكنني التفرس فيها")<sup>(١١)</sup> (مانديابوم ١٩٥٨: ٧، ١٣، ٢٥، ٣٧، ١٢٥). كذلك استخدم ماندليابوم التقديم والتأخير في بعض المواضع، فأضاف بعض الصيغ التي تعتمد التقديم والتأخير، بينما احتفظ ببعض الآخر حرفياً كما نجاة في النص الإيطالي. وقد نتج عن ذلك أسلوباً شعرياً إنجليزياً عتيقاً:

Lonfano

Lontano lontano  
come un cieco  
m'hanno portato per mano.

Distantly  
Distantly distantly  
like a blind man  
by the hand they led me.

Una Colomba  
D'altri diluvi una colomba ascolto.

A Dove  
Of other floods I hear a dove.

(ماندلباوم ١٩٥٨ : ٣٥ ، ٥٣)

وفي بعض الأحيان نجد أن هذا الأسلوب الشعري يخرج على لغة السياق السلسة كما يتضح  
في السطور الستة الأخيرة من "Glugno" (يونيو):

Ho perso il sonno

Oscillo  
al canto d'una strada  
come una lucciola

Mi morirò  
questa notte?

I have lost slumber  
Sway  
at a street-corner  
like a firefly

Will this night die  
from me?

(ماندلباوم ١٩٥٨ : ٣٩)

وفي أحيان أخرى تتصاعد نغمة الأداء الشعري ليعزف المترجم لحناً رومانسياً ساحراً يحاول من خلاله أن يأتي بتفسير لسطر شعري معتر في نص أوتجارتري. وإذا ما قارنا بين ترجمة ماندليانوم للأبيات التي صيغت في الأصل على هيئة سداسيات فيرجيل *Virgilian sestina* وعنوانها: "Recitativo di Palinuro" وقصيدة تينيسون *Tennyson* "بوليميس" "Ulysses"، فإننا نجد أن كلا النصين قد نظما في البحر الخماسي الإليزابيثي *Elizabethan pentameter* على نمط نظم شكسبير *Shakespeare* و *Marlowe*، وبلغا ذروة التعبير الملحمي:

Per l'uragano all'apice di furia  
Vicino non intesi farsi il sonno;  
Olio fu dilagante a smanie d'onde,  
Aperto campo a libertà di pace,  
Di effusione infinita il finto emblema  
Dalla nuca prostrandomi mortale.

I could not, for the hurricane at fury's  
Summit, sense the coming-on of slumber;  
An oil that overspread the raving breakers,  
Field open to the freedom that is peace,  
Of infinite outpouring the feigned emblem  
Thrusting at the nape downdashed me mortal.

(ماندليانوم 1908: 110)

I cannot rest from travel: I will drink  
Life to the lees: all times I have enjoyed  
Greatly, have suffered greatly, both with those  
That loved me, and alone; on shore, and when  
Through scudding drifts the rainy Hyades  
Vex the dim sea: I am become a name [...]

(Tennyson 1972: 562)

إن ما جعل شعر أوتجارتري يبدو مجدياً في إيطاليا هو لفته ذات الملامح المحددة والدقة الحدائية التي تعزف عن الأساليب البلاغية والزخرفية التي طوَّرها كتاب عصر الاحتياط من أمثال جابريل دانونتميو *Gabriele D'Annunzio*. إلا أن ترجمة ماندليانوم قد بعثت تلك الأساليب من جديد وأضافتها لشعر أوتجارتري، فأعادته بذلك ما أشار إليه المترجم نفسه

باسم "جثة اللغة الأدبية الإيطالية" وإن تحولت في الترجمة إلى لغة شعرية تنبع من الاستخدامات القديمة للإنجليزية.

إن ترجمة ماندليام ببلها هذا الأثر المحلي لم تكتف فقط بوضع شعر أونجارتي في سياق التراث الشعري المكتوب باللغة الإنجليزية وإنما شمت ماندليام أيضاً إلى التفارقات السائدة في ترجمة الشعر المعاصر. وحقيقة الأمر أنه أثناء عقد الخمسينات من القرن الماضي استقر رأي المترجمين الأمريكيين البارزين حينئذ على استخدام خليط من الإنجليزية الفصحى المعاصرة والتعبيرات الشعرية القديمة في ترجمة الشعر. وقد أعلن ريتشموند لاتيمور Richard Lattimore في ترجمته للإنشادة التي أصدرها عام ١٩٥١ وأصبحت أكثر الترجمات انتشاراً بين القراء في الولايات المتحدة أنه تجنب استخدام أية "صيغ شعرية مكتوبة بلهجة إنجليزية" لأنه "في عام ١٩٥١ لم يكن لدينا شعر مكتوب بلهجة"، كما أن لغة سبنسر Spenser والكتاب المقدس "بدت غير مناسبة لترجمة ما اتسم به أسلوب هومر من بساطة وسلاسة" (لاتيمور ١٩٥١: ٥٥). غير أن نص لاتيمور تنتشر به التعبيرات الشعرية المستمدة من الشعر الفينيكوري من قبيل "So he spoke, "as when rivers in winter spate," "he strides into battle," "his beloved son," "that accursed night" (الرجع نفسه: ١٢٥، ١٣١، ٢٧٩، ١٣٨). أما ترجمة جون تشيارد John Ciardi لجحيم دانتي في عام ١٩٥٤ والتي ظلت متاحة للقراء في طبعة شعبية لما يزيد على أربعة عقود فقد سعت إلى استخدام لغة "تقترب من الإنجليزية الاصطناعية" وذلك بهدف استدعاء لغة تنأى عن البلاغة وتناظر اللغة الموجودة في النص الإيطالي والتي يصفها تشيارد بأنها "بسيطة ومباشرة واصطناعية". ويقول تشيارد أيضاً أن دانتي يسعى في لغته إلى اجتناب "الفخامة الأسلوبية التي لا تخدم إلا نفسها" (تشيارد ١٩٥٤: ix-x). ولكن المفارقة الكاملة في فهم لغة دانتي الإيطالية تنطبق أيضاً علي نص تشيارد الذي يحوى على الرغم من استخدامه لغة بسيطة دارجة كلمات وتعبيرات شعرية: "dream", "it", "anew", "thy", "sorely pressed", "perils", "beset", "fleers", "piteous", "non ti", "bite back your spleen", "seemed to scorn all pause" (وهي ترجمة "non ti crucciare" أي لا تبتئس)، "his woolly jowls" (الرجع نفسه، ٢٨، ٣٠، ٣٦، ٣٨، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

لقد مدت ترجمة ماندليام الجسور بين قراء أونجارتي من بني جلدته وقرائه المحتملين من الأمريكيين، ذلك أن ترجمة شاعر إيطالي باستخدام خطاب ساد حركة ترجمة الشعر في الولايات المتحدة كان من شأنه إدراج أعمال هذا الشاعر في التراث الأدبي الرسمي، الأمر الذي جعل من ذلك الخطاب وسيلة شعرية تربطه في أذهان القارئ الأمريكي بشعراء التراث من أمثال هومر ودانتي (ناهيك عن أصداء من تينيسون Tennyson، وشكسبير، ومارلو). غير أن ما أضيف من طابع محلي ابتعد عن المغزى الذي قصد إليه أونجارتي في إطار التراث الشعري الإيطالي، كما ابتعد عن الرؤية التي أشار إليها ماندليام من تطهير اللغة

من كافة زخرفها (ماندليوم ١٩٨٥: ٧٤). إن الترجمة الإنجليزية تخاطب جمهوراً مختلفاً من قراء الشعر هو الجمهور الأمريكي بخاصة. وهو جمهور على وعي بالتراث الشعري البريطاني والأمريكي فضلاً عن ترجمات حديثة لاقت رواجاً كبيراً. إن الخطاب الذي صيغت به ترجمة ماندليوم احتوى من العناصر المحلية المألوفة ما جعلها لا تبدو ظاهراً لند أوجورمان Ned O'Gorman الناقد في دورية الشعر Poetry والشاعر الأمريكي الذي نشر أول مجموعة من أشعاره في العام نفسه. ويرى أوجورمان أن شعر أونجارت "رائع بحق"، ويمضي في الاقتباس من الترجمة والتعليق عليها كما لو كانت النص الإيطالي نفسه (أوجورمان ١٩٥٩: ٣٣٠). إن ما اتسمت به الترجمة من أسلوب شعري قد نال إعجاب أوجورمان، فقد امتدح الشاعر الإيطالي لكتائته عن عالم تحوّل إلى شعر، وعدّ قصيدة "the Recitative" أفضل ما كتب (المرجع نفسه: ٣٣١). وقد ظهر انعكاس هذا الرأي في كتاب أوجورمان الأول الذي احتوى على مقال بعنوان "فن للشعر" يقول فيه إن الشعر يبدأ عندما تبدأ البلاغة (أوجورمان ١٩٥٩: ٢٦).

ولا توجد مساحة مشتركة يمكننا أن نلحظ على أرضيتها بين قراء ماندليوم. فعلى الرغم من أن الإنجليزية هي لغة الترجمة فقد تعددت وجوه فهمها لكل منهم على أسس لغوية وثقافية متباينة، فلم تتعرف الجماعة الأكاديمية الإيطالية على الاتجاه الشعري الفيلكتوري، ويعود غياب هذا الاتجاه عن إدراكهم إلى كون الإنجليزية ليست لغتهم الأصلية وكذلك إلى أنهم يوسلفهم أكاديميين متخصصين في لغة أخرى وجهوا عنايتهم في اللقائ الأول إلى العلاقة بين الترجمة الإنجليزية والنص الإيطالي: أي إلى التكافؤ اللفظي. غير أن تشيكيوتي لاحظ ما أبدعه ماندليوم من أسلوب شعري عندما ترجم "smemora" (وتعني: يفقد الذاكرة، أو ينسى) إلى اللفظة الإنجليزية القديمة "disremembers" (المرجع نفسه: ٥١، راجع معجم أوكسفورد في اللغة الإنجليزية). ومع ذلك فقد رأى في هذا الاختيار ما يناسب النكهة غير المألوفة والموجبة التي تخص اللغة الإيطالية، وأن في هذا الاختيار ما يشير إلى الحساسية الشعرية للشاعر (تشيكيوتي ١٩٥٩: ٢٦٧).

ولعل ما يثير الاهتمام أن قارئاً بريطانياً كان الوحيد الذي تعرف على غرابة الحساسية الشعرية الواردة في الترجمة مقارنة بغن أونجارت الشعر الحداثي ونشر رأيه هذا في صحيفة التايمز Times اللندنية. وقد اتفق مع تشيكيوتي في رأيه القائل بأن أونجارت واحد من أبرز الشعراء المعاصرين، غير أنه يرى أن ماندليوم يلتفت إلى الحساسية على نحو بعيد في ترجمته لعمل الشاعر (التايمز ١٩٥٨: ١٣ C). ولا شك أن الناقد البريطاني يقصد أسلوب ماندليوم المسرف في التعبير الشعري إذ إنه امتدح الترجمة الفرنسية الحرفية التي نشرها جان لوسكير Jean Lescure في عام ١٩٥٣. إذ ترجمت عبارة "D'altri déluges" (لوسكير ١٩٥٣: ١٥٩). فالقديرة على تمييز الأثر الذي أضافته اللغة الإنجليزية



في ترجمة ماندليام ما كان متاحاً لغير قارئ لغته الأصلية الإنجليزية وعلي دراية بالنص الإيطالي ومكانته في التراث الشعري الإيطالي.

إن قراء تلك الترجمة ممن احتفلوا بها قليلون يمكن تعريفهم على أسس مهنية أو مؤسسية وتقدير مكانتهم على أساس من معارفهم الثقافية فيما يتصل باللغة والأدب الأجنبيين أو التراث الأدبي في اللغة المترجم إليها. وقد أصبحت الترجمة نقطة التقاء جماعات مختلفة أجنبية ومحلية، أكاديمية وأدبية. بل إن الترجمة أنشأت جماعتها الخاصة بها بما أوتيت من قدرة على تقديم الدعم للجماعات المثابرة لغوياً وثقافياً وعلى إلهام القراء وإمتاعهم بما يتلق ويوصلهم، وهذه الجماعة متخيلة بالعني الذي قصد إليه بينيديكت أندرسون Benedict Anderson في مقولته إن "من يكونون الجماعة لن يعرفوا الكثير من أعضائها ولن يقابلهم بل ولن تصل إليهم أخبارهم، غير أن صورة التجمع بين أفرادها ترسم واضحة في ذهن كل منهم" (أندرسون ١٩٩١: ٦). وفي حالة الترجمة، فإن تلك الصورة تتعلق بتمثيل النص الأجنبي كما ابتناه المترجم، وهو فعل توصيل يحمل نقشاً محلياً. أن لترجم - إذن - يعني أن تخلق للنص الأجنبي جماعات جديدة من القراء علي وعي بأن اعتمادهم بالترجمة يشاركهم فيه قراء آخرون على المستويين المحلي والأجنبي، حتي وإن لم تتماس هذه الإهتمامات أحدها مع الآخر.

إن الجماعات التخيلة التي شغلت أندرسون كانت قومية الطابع، أي أنها تستند إلي الشعور بالانتماء إلى أمة بعينها. ولا شك أن الترجمات شكلت مثل هذه الجماعات من خلال استيراد الأفكار الأجنبية التي أدت إلى صعود حركات سياسية واسعة النطاق على أرض الوطن. في مطلع القرن العشرين اختار المترجم الصيني يان فو Yan Fu أصلاً من نظرية التطور من تأليف ت. هـ هكسلي T.H. Huxley وهيربرت سبنسر Herbert Spencer مستوحداً بناء ثقافة صينية قومية. وقد ترجم فو مفاهيم العدوان الغربية التي جسدها الداروينية الاجتماعية كي يشكل هوية صينية تنسج بالعدوانية على نحو يتيح لها مقاومة المشروعات الاستعمارية الغربية وبخاصة البريطانية منها (شوارتز Schwartz ١٩٦٤، بوسي Pusey ١٩٨٣). ويتذكر هو شيه Hu Shih أحد الشهود على العصر فيما بعد الأثر الذي خلفه كتاب التطور والأخلاق لهكسلي على ترجمة فو. يقول هو شيه أنه بعد مرور الصين بسلسلة من الانقلابات العسكرية المتكررة وبخاصة بعد الإذلال الذي تعرضت له في السنوات التي شهدت نشاط جماعة البوكسر<sup>١٣</sup> Boxer years فإن شعار "البقاء للأصلح" والذي يعني حرفياً أن الأعلى قدرة ينتصر والأدنى يهزم، ويواصل الأصلح مسيرته، أصبح دعوة عامة (كما ورد في شوارتز ١٩٦٤: ٢٥٩، رقم ١٤).

إن الجماعات التخيلة التي تنشئها الترجمة وترعاها تنتج آثاراً تجارية فشلاً عن الآثار الثقافية والسياسية. ولناخذ على سبيل المثال الجمهور الذي يلتفت حول أكثر الكتب للترجمة مبيعاً. ونظراً لحجم القراء الكبير فإن تلك الجماعة تجمع دوائر محلية متنوعة يمكن تعريفها على أساس ما يثير اعتماد كل منها في النص الأجنبي، غير أن الوعي يتوافر لديهم

جميعاً بالتمائم لحركة جمعية، أو لسوق قومي ينلقى ما يثير الإعجاب من روائع الأدب الأجنبي. إن هذه الدوائر ستقرأ الترجمة على أوجه مختلفة في نهاية المطاف، وفي بعض الأحيان لن يكون هناك مجال للمقارنة بين القراءات المتباينة. غير أن فجوة التواصل قد تصل إلى أقصى اتساعها فيما بين النصين المحلي والأجنبي. وتضفي الإضافات المحلية التي تحتويها الترجمة مزيداً من الجاذبية لأعداد كبيرة من القراء في الثقافة الأخرى. غير أنه في حالة اتساع المدى المحلي لتلك الجاذبية فإن الإضافات لا تقوى على احتواء السياق الأجنبي في معظمه. ولذا فإن العمل المترجم الذي يلقى نجاحاً جماهيرياً يعرض النص الأجنبي لخطر اختزاله لما يجمع بين الدوائر المحلية من لهجة وخطاب ثقافي وإيديولوجية.

نرى ذلك في الاستقبال الحافل التي حظيت به الترجمة الإنجليزية التي قامت بها إيرين ناش Irene Nash لرواية صباح الخير أيها الحزن *Bonjour Tristesse* التي كتبها فرانسوا ساجان Françoise Sagan ولأدقت نجاحاً كبيراً بين القراء. وكان النص الفرنسي قد احتل مكانة بارزة بوصفه عملاً فنياً متميزاً وحصل على جائزة النقاد *Prix des Critiques* ووزع مائتي ألف نسخة. كما أثار العمل تعليقات إيجابية في كل من إنجلترا والولايات المتحدة فيما يتعلق بأسلوبه وظل على قوائم أكثر الكتب مبيعاً لعدة شهور. غير أن النقاد أبدوا استعداداً للتخلي عن الاعتبارات الجمالية لينظروا إلى العمل من النواحي الوظيفية فصبروا عن دهشتهم لسعر سن البطة (تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً) واستيائهم من افتقاد الموضوع للإطار الأخلاقي: فتاة السبعة عشر ربيعاً تخطط لتمنع أبها الأرملة من الزواج مرة أخرى كي يستمر في الانغماس في سلسلة من العلاقات العاطفية. وكان تعليق محرر جريدة شيكاغو تريبيون نموذجياً في هذا الشأن، إذ علق قائلاً: "لقد أعجبتني المهارة التي اتسم بها العمل، وتفرني منه شهواته" (هاس Hass ١٩٥٥: ٦).

وقد تنوعت الاستجابات العامة تبعاً للتقيم التي تتبناها دائرة القراء التي يحاط بها الناقد. فقد أصدرت الدورية الأسبوعية الكاثوليكية كومونويل *Commonweal* حكمها على الرواية على نحو صارم فوصفتها بأنها رواية صيبانية ومملة لما احتوته من تركيز صريح على الانحلال الأخلاقي (ناجيد Nagid ١٩٥٥: ١٦٤) بينما اكتفت نيو يوركر *New Yorker* التي تحوي مواداً تتسم بالحس المرهف والعمق بالإشارة إلى "صورة الأب المنجرفة نحو اللذات"، في إشارة غير مباشرة إلى أنه يستحق منا الشفقة وقد بلغ الأربعين من عمره. إن ما أثار موجة من الغضب الأخلاقي إزاء الرواية، خصوصاً فيما يتعلق بشخصية الأب اللاهث وراء الملاحظات وشخصية ابنته، هو ما شهدته أمريكا في أعقاب الحرب العالمية الثانية من بحثٍ لأهمية الأسرة ذات الطابع الأبوي *patriarchal* التي يحمل فيها الأب شعار "رجل البيت" الدال على الرجولة والشهامة (ماي May ١٩٨٨: ٩٨). وقد انتقد ناقد نيو ستيتسمان آند نيشن *New Statesman and Nation* في محاولته فهم الرواية من منطلق فرنسي فوصف الفتاة بأنها بنت زمن موسيقى البيبوب *bebop*<sup>٩</sup> والتوادي القليلة والمقاهي

الوجودية، و التي شبهها ووالدها بشخصية اللامتلمي التي قدمها كامى (رايموند Raymond ١٩٥٥: ٧٢٧-٧٢٨).

إن ترجمة آس الإنجليزية شكلت بالطبع عاملاً حاسماً منح الرواية القدرة على دعم ردود فعل متباينة تبين ألوان الطيف في الثقافات الأنجلو أمريكية. وقد استوعب عدد كبير من قراء الإنجليزية رواية ساجان على الفور فقد صاغت آس في لهجة إنجليزية معاصرة تميل إلى استخدام اللغة القصيدة وإن احتوت على تعبيرات بالغة الحيوية باللهجة العامية جاءت نظيرة لتعابير النص الفرنسي. فقد ترجمت آس "le dernier des salauds" بالتعبير الإنجليزي "the most awful cad"، وترجمت "loupé" إلى "flunked"، و "ce fut la fin" إلى "things came to a head". وقد استهدفت في ترجمتها قدرًا كبيرًا من السلاسة من خلال الترجمة الحرة فحذفت من النص الفرنسي وأضافت إليه كي تقدم تراكيب إنجليزية تتسم بدقة أكبر:

Au café, Elsa se leva et, arrivée à la porte, se retourna vers nous d'un air langoureux, très inspiré, à ce qu'il me sembla, du cinéma américain et mettant dans son intonation dix ans de galanterie française: "Vous venez, Raymond?"

(After coffee, Elsa stood up and, on reaching the door, turned back towards us with a languorous air, very inspired—so it seemed to me—by American cinema, and investing her tone with ten years of French flirtation: "Are you coming, Raymond?")

(ساجان ١٩٥٤: ٢٨، ترجمة فينوتي)

After coffee, Elsa walked over to the door, turned around, and struck a languorous, movie-star pose. In her voice was ten years of French coquetry:

"Are you coming, Raymond?"

(آس ١٩٥٥: ٣٠)

نقلت آس أربعين كلمة من النص الفرنسي على في تسع وعشرين في الترجمة الإنجليزية. واستخدمت التعبير الشائع movie-star pose لترجم التعبير الفرنسي du cinéma américain الأمر الذي يشير إلى اتجاه الترجمة إلى تقديم نص سهل قراءته. وقد نتج عن سهولة القراءة على نحو كبير أن أتاحت الترجمة لقراء الإنجليزية أن يروا في الترجمة عملاً يحل محل النص الأجنبي وذلك لما أضفته ترجمتها الحرة على الرواية من مطابقة للواقع وما أوجدته نتيجة لذلك من إيهام بالشفافية (فينوتي ١٩٩٥: ١٢). وقد وجد ناقد دورية آتلانتك Atlantic أن "احساساً ملموساً بالواقع يتخلل الرواية"، وكتب تعليقاً

يصور فيه أسلوب آتش وكأنه أسلوب ساجان فيصفه بالبساطة والوضوح والاختصار على نحو يتدفق معه النثر بسرعة (رولو ١٩٥٥ : ٨٤ ، ٨٥). وربما لم يكن تصرف آتش في ترجمتها واضحاً غير أنه أطلق في نهاية الأمر أثراً محلياً على صورة مؤثرات نصية تباينت وفقاً للفترات المحددة التي وردت بها ولكنها كانت على نحو عام ذات جاذبية بل ومثيرة. كما انفراد ناقد نيو ستيتسمان آند نيشن New Statesman and Nation بملاحظة أبعادها بخصوص أسلوب الترجمة الحرة الذي اتبعته آتش فكتب أنها لم تخش أن تشذب النص كي يلائم القارئ الإنجليزي، وناقش مثلاً تمثل فيه الكمب الواضح في اللغة الإنجليزية في إضافة بعد أقرب إلى الرثية (رايموند Raymond ١٩٥٥ : ٧٢٨). أما في فترة أخرى تحولت آتش في ترجمتها من النغمة العاطفية أو الميلودرامية إلى نبرة توصل شعوراً بالرغبة الإبروتيكية الجارفة من خلال مبالغتها في تأكيد الحس الشبقي الموجود في النص الفرنسي:

il avait pour elle des regards, des gestes qui s'adressaient à la femme qu'on ne connaît pas et que l'on désire connaître—dans le plaisir.

(for her he had looks [and] gestures that are addressed to the woman whom one does not know yet desires to know—in pleasure.)

(ساجان ١٩٥٤ : ٣٧٨، ترجمة فينوتي)

I noticed that his every look and gesture betrayed a secret desire for her, a woman whom he had not possessed and whom he longed to enjoy.

(آتش ١٩٥٥ : ٢٩)

وقد حافظت ترجمة آتش على درجة من التكافؤ اللفظي تصلح لتوصيل عناصر السرد الرئيسية في النص الفرنسي. غير أن إضافة كلمات مثل "betrayed" و "secret" في ترجمة تلك الفقرة يبين أنها قدمت السرد إلى قراء الإنجليزية على أساس من قيم أخلاقية تختلف عما يوازنها بين الفرنسيين، وهي قيم أخلاقية تضع حدوداً للنشاط الجنسي فتقتصره على العلاقة الزوجية أو تخفيه تماماً. ويبدو ذلك نتيجة شربية على رواية لا يخفي فيها الأب نشاطه الجنسي عن ابنته المراهقة. لقد أضافت آتش مفهوماً واعتاماً محلياً إلى رواية ساجان، ووجهت ترجمتها إلى جماعة لا يجمع بينها إلا المعرفة القليلة بالسياق الأجنبي الذي خرجت منه الرواية في المقام الأول.

## البعد اليوتوبي في الترجمة

إن الجماعات التي تنشئها عملية الترجمة هي جماعات محتملة potential في بداية الأمر، ويشار إليها في النص من خلال سياسة الخطاب التي يبنيناها المترجم غير أنها في تلك المرحلة لا تتمتع بوجود اجتماعي، بل إن تلك الجماعات تعتمد لتحقيقها على مجموعة الدوائر الثقافية المحلية التي ستداول الترجمة فيما بينها. ومع ذلك فإن التفاعل مع هذه الدوائر يدخل النص الأجنبي في فعل من أفعال التواصل يخرج عن إطار التكافؤ وحمل وزناً أيديولوجياً في اتجاه الثقافة المترجم إليها. إن الترجمة فعل أيديولوجي على الدوام لأنها تطلق أثرًا محلياً أو إضافة لقيم ومعتقدات وصور ترتبط بالحقائق التاريخية ومواقف اجتماعية في الثقافة المستقلة. وتقدم الترجمة في سياق خدماتها للاهتمامات المحلية حلولاً أيديولوجية للتباينات اللغوية والثقافية للنص الأجنبي. إلا أن الترجمة تنسم ألبساً بالطابع اليوتوبي، فالترجم يقدم الإضافة المحلية عامداً إلى توصيل النص الأجنبي، براوده الأمل في إقامة جماعة من القراء يلتفون حول النص ولو كان نصاً مترجماً. ويظل الأمل قائماً في أن يؤدي الأثر المحلي إلى استهلاذ جماعة القراء المحليين وهي جماعة متخيلة يجمعها الاهتمام بالأجنبي، ولعلها بالنسبة للناس تشكل سوقاً لتسويق الترجمة. إذا ما دمج المترجم هذا الأثر المحلي في السياق الأجنبي فإنه قليل وحده بإقامة التقاطع المشترك بين القراء المحليين والأجانب. وتوفر الترجمة حلولاً أيديولوجية تُسَلِّط من خلالها تصوراتها عن جماعة يوتوبية لم تتحقق بعد.

يستمد ذلك التوجه الفكري إلى نظرية بلوخ Bloch في الوظيفية اليوتوبية للثقافة، مع تعديل يسمح بتطبيقها على الترجمة. يقدم لنا بلوخ يوتوبيا ماركسية. فقد كان يرى أن التماذج والممارسات الثقافية تنطلق "لأشياء" لا يقتصر على تجاوز أيديولوجيات الطبقات المسيطرة فحسب، أي الوضع القائم، وإنما يستشرف "إجماعاً" مستقبلياً و مجتمعاتاً غير ملقبة. ويحدث ذلك عادة من خلال عملية تحويل لـ "الإرث الثقافي" الخاص بطبقة معينة سواء أكانت تلك الطبقة مسيطرة أو خاضعة (بلوخ ١٩٨٨ : ١٦-٥٠).

إن الفائنس اليوتوبي عند بلوخ يمثل في رأيي الأثر المحلي المضاف إلى النص الأجنبي خلال عملية الترجمة. إذ إن الترجمة تنطلق فائضاً من المعاني التي تشير إلى تراثات ثقافية محلية، وذلك بطرق عدة، منها الخروج على التهجئة المحلية السائدة أو ما عدا ذلك من لغات مستقرة، أو من خلال استخدام الألفاظ القديمة أو التلمييزات العامة على سبيل المثال. وينطوي أي عمل مترجم على أمل في الحصول على الإجماع للتمثيل في التواصل مع النص الأجنبي والاعتراف به من خلال إضافة الطابع المحلي.

إلا أنه لا يمكن أن يكون ذلك النقش المحلي على الترجمة من الشمول والإحاطة في استقبال الدوائر المحلية له بحيث يوجد جماعة ذات اهتمام واحد لا تسمح بالانقسام أو التراتب بين أعضائها. إذ من المستبعد أن يحظى النص الأجنبي المترجم بالفهم أو الاهتمام (أو أن يشبع الفهم والاهتمام معاً) من جانب القراء الذين يستقبلونه كافة، إن عدم التعامل بين الثقافة الأجنبية والثقافة المحلية أمر مستبعد وإن أضيف الميكان الأجنبي في الترجمة.

ويرى بلوخ أن اليوتوبيا قائمة على الأيديولوجية وعلى صور تحمل اهتمامات المجموعات الاجتماعية وهي صور تنحاز إلى بعض تلك المجموعات دون الأخرى. وتصح الاهتمامات محلية على نحو غير قابل للتغيير عند القيام بفعل الترجمة بحيث تعلق اهتمامات بعض الدوائر المحلية فوق اهتمامات الدوائر الأخرى.

كما أشار بلوخ إلى أن الفرق الاجتماعية المختلفة في أية لحظة من التاريخ لا تسير في خط تطور أيديولوجي أو ثقافي واحد من حيث المعاصرة والزمان، كما أشار إلى أن بعضها يحمل آثاراً من الماضي في حاضرها (بلوخ ١٩٩١: ١٠٨). وتتسم التمازج والممارسات الثقافية بالتنوع وتتكون من عناصر مختلفة لها حماسية زمنية مختلفة وتنسب إلى جماعات مختلفة. ويمكن أن نلاحظ مسائل تتعلق باللغة واللهجات ولغة الخطاب والاستخدامات الاجتماعية للغة الموجودة في زمن معين في الأثر الذي يملكه أي فعل تواصل. إن الأثر كما يقول لوسركل "يحشد التاريخ في لحظة آنية واحدة" ويلقي الضوء من خلال اللغة على عملية استعادة التناقضات والصراعات التي تشكل ما هو اجتماعي، كما أن ذلك الأثر هو نفسه الذي يبقّي داخل اللغة على تناقضات وصراعات الماضي وتوقعات المستقبل (لوسركل ١٩٩٠: ١٨٢، ٢١٥). ولذلك فإن فعل النقش المحلي في أية ترجمة هو ما يُطلق عليه بلوخ "التنوير الاستباقي" (Vor-Schein) أو السبيل لتخيل معالحة مستقبلية للتباينات اللغوية والثقافية، سواء أكانت تباينات تقع ما بين الجماعات المحلية أو تباينات تفصل بين الثقافتين الأجنبية والمحلية.

يمثل الفائض اليوتوبي في ترجمة ماندلباوم لشعر أونجارتري في الحس الشعري الذي ينتمي إلى العصر الفيككتوري. فأثر اللغة الإنجليزية لم يتخط توصيل النصوص الإيطالية فحسب وإنما عارض التجربة الحداثيّة التي أصلتها تلك التجربة في سياق التراث الشعري الإيطالي. ومع ذلك ففي خلال الخمسينات استشرفت شاعرية ماندلباوم جماعة محتملة أبدت اهتماماً بشعر أونجارتري وذلك عبر تسوية التباينات بين جماعتي القراء من الأمريكيين والإيطاليين، وبين جماعتي القراء من الأكاديميين وقارئ الأدب. واليوم بعد أن أصبحت هذه الجماعة المحتملة حقيقة واقعة أصبحت نلتفت إلي ما تبطنه من أيديولوجيات فعلية ولم يعد يعنينا وجودها الإقتراسي في الماضي. فترجمة ماندلباوم كانت فعلاً تواصليةً يفتقر إلى التماثل التام في تأثيراته، فقد احتوت هذه الترجمة السياق الإيطالي واستبعدته في آن واحد، كذلك فإن الترجمة عززت استجابات متنافرة داخل دوائر القراءة الأمريكية. غير أن قوة الترجمة الأيديولوجية ألفت عليها سمة اليوتوبية في زمانها، فأصبحت تأمل في توصيل المغزى الأجنبي للنص الأجنبي من خلال إضافة محلية. وفي نهاية الأمر أنتج ذلك التصور اليوتوبي آثاراً فعلية. فقد عكس وجود القارئ الأمريكي كما بدا في ما ضمنه ماندلباوم من أثر شعري اتجاهاً سائداً في ترجمة الشعر الأمريكي الأمر الذي مكّن لترجمته من اكتساب سلطة ثقافية داخل المؤسسة الأكاديمية وخارجها. إن فعل الترجمة الذي يوفر الحماية للحلم اليوتوبي الذي يهدف إلى الفهم المشترك بين الثقافات الأجنبية والمحلية قد يشكل النصوص

الأدبية سواء على مستوى الترجمة أو العامة. غير أن ذلك الفعل عادةً ما يتخذ مظهرًا عمليًا بشكل أكبر ليخدم لغراضًا ثقافية أو لغوية. ومن ذلك على سبيل المثال الترجمة القويمة التي تستهدف تحقيق التواصل مع إحدى الجماعات البشرية، وهي ترجمة ثقافية تجري في كلا الاتجاهين لخدمة اللاجئين والمهاجرين الذين يجب أن يتعاملوا مع الوكالات والهيئات الاجتماعية في البلد المضيف. ويقوم مترجمو الجماعات الخاصة بعملهم في إطار مواقف قانونية وطنية وتعليمية عديدة تشمل طلبات اللجوء السياسي، والشول في ساحات القضاء، والقيد بالمستشفيات لتلقي العلاج، والسعي للحصول على المعونة الاجتماعية. وتتحو القواعد الأخلاقية التي وضعتها الجمعيات المهنية أو الوكالات والهيئات المتخصصة ذاتها إلى التأكيد على أن المترجمين يتسمون بشفافية لوح الزواج، الأمر الذي يسمح بتوصيل الأفكار مرة أخرى دون تعديل أو تحوير أو تصوير يخالف الأصل (شفيداً نيكولسون Schweda Nicholson 1944: 42، انظر أيضاً جنثيل وأوزوليس وقاسيلاكاكوس Gentile, Ozolins and Vasilakakos 1996) إلا أن تلك القواعد لا تأخذ في الاعتبار الترتيب السياسي والثقافي الهومي في موقف الترجمة، ويرد في كتيب بريطاني للترجمة اللغوية حقيقة أن العميل ينتمي إلى جماعة عرقية تمثل أقلية تتعامل بالأغلبية حاجاتها ورغباتها وترى فيها أمورًا تنظر إلى الشرعية (شاكمان Shackman 1984: 18، انظر أيضاً ساندز Sanders 1992). وبالطبع فإن تشبيه لوح الزواج يكبت الإضافة المحلية في فعل الترجمة، والأثر الذي يمنع ذلك الفعل من أن يتسم بشفافية التواصل وإن التزم المترجم بأسلوب حرفي في نقل الكلمات الأجنبية.

ويبدو أن كثير من مترجمي الجماعات الخاصة يدركون من خلال الممارسة عدم التكافؤ المتضمن في موقف الترجمة ويبدلون الجهد لتعويض ذلك النقص من خلال أساليب متنوعة (فادنسيو Wadensjö 1988: 36). وتبين دراسة روبرت بارسكي Robert Barsky لجلسات التحقيق التي أجريت مع اللاجئين في كندا أن المترجم لا يمكنه أن يضع اللاجئين على قدم المساواة مع الهيئة التي تصدر حكمها بشأنه إلا إذا أطلق أثرًا محليًا متميزًا. يجب إذن أن تحمل الشهادة التي قدمت بلغة أجنبية إضافة من قيم ومعتقدات وتصورات كندية، الأمر الذي ينتج سمات نصية لا تُشعر بفعاليتها سوى في سياق اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. إن المؤسسات القانونية تقدر الخطاب الشفاف أحادي البعد غير أن الخبرات التي يتمتعون على اللاجئين أن يصلوها مثل النفي والصعوبات المالية والسجن والتعذيب تحد من قدراتهم على التعبير وإن كان ذلك في لغاتهم إلى حد كبير. إن القيد الذي يفرض على دور المترجم على أساس من مطالبته بترجمة "دقيقة" لأقوال اللاجئين (التي قد تتضمن وقفات مترددة، وأخطاء نحوية، وعجز عن التعبير بأخذ أشكالاً متنوعة) يُعرض في نهاية المطاف فرصهم للحصول على حق اللجوء للخطر بغض النظر عن صحة دعوهم (بارسكي 1996: 52). وعلى نحو مشابه ينبغي على المترجم أن يوفق ما بين التباينات الثقافية التي تخص كندا وبلد اللاجئين وذلك بإضافة معلومات عن السياق الأجنبي في تفاصيله التاريخية، والجغرافية، أو السياسية، أو الاجتماعية وهي التفاصيل التي قد تفتح الشهادة خالية منها

والتي لا يدركها رجال القانون والقضاة الكنديون. ويقول بارسكي إن التأكيد على ترجمة  
تحددها الكلمات التي قبلت وحدها يفرغ البيانات الثقافية اللازمة لدعم دعوى اللاجئين  
(بارسكي ١٩٩٤: ٤٩).

ويقدم بارسكي مثالاً ذا مغزى عن صاحب دعوى باكستاني الجنسية كان يتحدث  
الفرنسية أثناء جلسة التحقيق رافحاً كما يبدو في تعزيز دعواه أمام سلطات كيبك. إلا أنه كان  
يتحدث بلغة فرنسية ركيكة، وكانت دعواه قد رفضت من قبل بسبب مشكلات في الترجمة.  
وقد حاول أن يعبر كما يلي:

Moi demander, moi demander Madame, s'il vous plaît, cette  
translation lui parle français. Vous demander, parle français.  
Parce qu'elle m'a compris, vous qu'est ce qu'elle a dit. Moi  
compris. Madame m'a dit, désolé Monsieur, seul anglais.

(Literally: Me ask, me ask Madame, please this translation speak to  
him French. You ask, speak French. Because she understood me,  
you that is what she said. Me understand. Madam said to me, sorry  
sir, only English.)

(بارسكي ١٩٩٦: ٥٣)

وكان صاحب الدعوى يدلي بشهادته بمعاونة مترجم باكستاني حوّل فرنسيته الركيكة إلى لغة  
إنجليزية واضحة ومقننة:

He has a complaint with the interpreter there. He speaks better  
French than English, but the interpreter was interpreting from  
Urdu to English. He is not too good in English, better in French,  
which he could understand. An interpreter was provided to interpret the  
hearing into English, which he did not agree to. So he was having a hard  
time expressing himself or understanding the CPO, lawyers, himself, and  
the interpreter. There is no satisfaction in the hearing. And that is one  
reason why I lost the case.

[إنه يشكو من المترجم. فهو يتحدث الفرنسية على نحو أفضل من الإنجليزية، إلا أن  
المترجم كان ينقل من الأردو إلى الإنجليزية. وصاحب الدعوى لا يجيد الإنجليزية، وهو  
يفهم الفرنسية على نحو أفضل. وقد كان المترجم الموجود يترجم إلى الإنجليزية ولم يوافق  
صاحب الدعوى على ذلك. ولذلك فقد عاني كثيراً في التعبير عما يريد قوله، ولم يفهم ممثل  
الإدعاء ولا المحامين ولا ما يقوله هو نفسه ولا ما يقوله المترجم. لم تكن جلسة التحقيقات  
مرضية، وكان ذلك سبباً في خسارتي القضية.]



توفر الترجمة للجماعات الخاصة حال نجاحها حلولاً إيديولوجية للثياني اللغوي والثقافي في أقوال اللاجئين أو المهاجرين. وتقدم الترجمة في نهاية المطاف النص الأجنبي على أساس محلي قائم على استقباله في البلد المضيف، إلا أن الإضافة المحلية تظل في حاجة أيضاً إلى أن تضم إليها جانباً مهماً من السياق الأجنبي يفي معنى لدعوى اللاجئين أو المهاجر. ومثل هذه الترجمة على الرغم من أنها تبدو منحازة إلى العميل لا تعد في واقع الأمر أحادية النظرة من المنظور الإيديولوجي، فهي تخدم المصالح الأجنبية والمحلية على حد سواء. إن أيديولوجية الحل ديمقراطية في الأساس طالما تمثل الهدف في التغلب على حالة عدم التكافؤ القائمة بين العميل ومثلي الوكالات الاجتماعية في إطار موقف الترجمة ذاته وخارج ذلك الإطار. ووفقاً للكاتب البريطاني فإن مترجم الجماعات الخاصة يسمح لكل الجانبين اللذين يصدران عن خلفيتين ومنظورين متباينين وجمعتان في علاقة يتفاوت فيها قهرهما من القوة والمعرفة أن يتوصلا لتحقيق حالة من الرضا المتبادل (شاكمان ١٩٨٤: ١٨). ومن الواضح أن أحد المتطلبات المهمة لتحقيق ذلك الرضا المتبادل يكمن في يزرع إجماع من خلال التواصل العقلاني يشترك فيه الطرفان ويمنح الدعوى صحتها. إلا أن النظرة إلى الاتصال بوصفه عقلانياً لا تتحقق إلا عندما يتدخل المترجم كي يمكن العميل من مشاركة كاملة ويمكن مندوبي الوكالات من التوصل إلى فهم قائم على حقائق الدعوى.

إن الترجمة لجماعات خاصة حين تتبنى مدخلاً يسمح للمترجم بالتدخل تقتضيه مسبقاً ما يطلق عليه يورجن هابرماس Jürgen Habermas "موقف لحدث مثالي" يتم بشروط عادة ما تكون "مضادة للوقائع" لأنها تكون "غير محتملة": وتشمل تلك الشروط: الانفتاح على الجمهور، والاحتواء، والحقوق المتساوية للمشاركين، والحصانة ضد الإكراه الداخلي أو الخارجي، فضلاً عن توجه المشاركين نحو التوصل إلى حالة من التفاهم (أي، التعبير الصادق عن المواقف) (هابرماس ١٩٨٨: ٣٧). فإذا ما افترض المترجم تلك الشروط مسبقاً فإنه يعمل كي يصل في نهاية المطاف إلى رعاية جماعة محلية قادرة على استقبال دوائر أجنبية، غير أن ذلك الأمر لا يتم، أو على الأقل لا يتم على نحو متقدم إلى أن يحصل العميل على اللجوء السياسي، أو حقه في محاكمة عادلة، أو في الرعاية الطبية، أو في المعونة الاجتماعية، حسبما كانت الحالة. وحتى إذا سلمنا بذلك، فإن الجماعة المحلية المستقلة تظل في المقام الأول صورة يوتوبية لا تلغي الترتيب الهرمي الذي يحدد مكان اللاجئين أو المهاجر في إطاره. ومع ذلك فإنها تعبر عن أمل في أن الاختلافات اللغوية والثقافية لن ينتج عنها استبعاد الدوائر الأجنبية من المشهد المحلي. إن فعل الترجمة قد يجد الدافع له في أهداف تتجاوز تلك الاختلافات.

#### الهوامش :

- (١) يقصد الكتاب الذي نشر فيه هذا المقال مع مقالات أخرى تلقي الضوء على التوجهات المختلفة في دراسات الترجمة، وعنوان الكتاب هو دليل القارئ إلى دراسات الترجمة (المحرر).
- (٢) الإشارة هنا إلى معايير الترجمة للغة في الثقافة الأنجلو-أمريكية (المحرر).

- (٣) يتركز اهتمام فينوتي الأساسي على الترجمة إلى الإنجليزية - وعلى الأخص الترجمة الأدبية في الولايات المتحدة - من اللغات الأخرى، وما تنطوي عليه الإنجليزية كما يستخدمها المترجمون في الترات الأنجلو-أمريكي من ميل إلى تحديد أخرىة النصوص الأجنبية وأخرية الثقافات واللغات والترجمات التي أنتجت داخلها، ولعل كتاب فينوتي التأسيسي بعنوان *خفاء الترجمة* يعد مثلاً دالاً على تاريخ الترجمة الأدبية إلى اللغة الإنجليزية وما ساد أرشيف الترجمات الإنجليزية من مواضع لغوية وجمالية تؤكد على مقروئية النص المترجم على حساب أخرىة النص المصدر واختلافه (المحرر).
- (٤) العبارات بين الأقواس محاولة لترجمة ومحاكاة معجم الشعر الإنجليزي في العصر الفيكتوري بما يتسم به من فخامة اللفظ ومثانة الأداء، والليل إلى استخدام اللهجور من اللغة (المحرر).
- (٥) جمعية سياسية سرية ذات أهداف قومية، نشطت في القرن التاسع عشر. في عام ١٨٩٩ قادته هذه الجمعية انتفاضة صينية ضد الهيمنة الغربية، ولكنها سحقته من قبل قوى أوربية مدعومة من اليابان والولايات المتحدة (المحرر).
- (٦) شكل من أشكال موسيقى الجاز ظهر في أربعينيات القرن العشرين واتسم بإيقاعاته وهارمونياته الممتدة، وارتبط هذا الشكل الموسيقي بأسماء موسيقيين منهم تشارلي باركر، ثيلونوس مونك، وديزي جيليسي (المحرر).

#### مراجع :

- Altain, M.-F. (1963) *The Other Man: Conversations with Graham Greene*, trans. G. Waldman, London: Bodley Head.
- Bansky, R.F. (1994) *Constructing a Productive Other: Discourse Theory and the Convention Refugee Hearing*, Amsterdam: Benjamins.
- (1996) "The Interpreter as Intercultural Agent in Convention Refugee Hearings," *Translator* 2:45-64.
- Benjamin, A. (1989) *Translation and the Nature of Philosophy*, London and New York: Routledge.
- Blanchot, M. (1988) *The Unavouable Community*, trans. P. Joris, Barrytown, New York: Station Hill Press.
- Bloch, E. (1988) *The Utopian Function of Art and Literature: Selected Essays*, ed. and trans. J. Zipes and F. Mecklenburg, Cambridge, Massachusetts: MIT Press.
- Camus, A. (1942) *L'Étranger*, Paris: Gallimard
- Catford, J.C. (1965) *A Linguistic Theory of Translation: An Essay in Applied Linguistics*, London: Oxford University Press.
- Cecchetti, G. (1959) Review of Mandelbaum (1958), *Comparative Literature* 11: 262-8.
- Clard, J. (trans.) (1854) *D. Alighieri, The Inferno*, New York: Mentor.
- Cotroneo, R. (1995) "Sostiene Tabucchi," *L'Espresso*, 2 June, pp. 104-8.
- Diemert, B. (1996) *Graham Greene's Thrillers and the 1930s*, Montréal and Buffalo, New York: McGill-Queen's University Press.
- Fish, S. (1980) *Is There a Text in This Class?: The Authority of Interpretive Communities*, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.
- Gilbert, S. (trans.) (1946) *A. Camus, The Stranger*, New York: Alfred Knopf.

- Heidegger, M. (1968) *Questions I*, Paris: Gallimard.
- Jamson, F. (1981) *The Political Unconscious: Narrative as a Socially Symbolic Act*, Ithaca, New York: Cornell University Press
- Lattimore, R. (ed. and trans.) (1951) *The Iliad of Homer*, Chicago: University of Chicago Press.
- Leclercq, J.-J. (ed. and trans.) (1992a) *Translation/History/Culture: A Sourcebook*, London and New York: Routledge.
- Lescure, J. (trans.) (1963) Giuseppe Ungaretti, *Les cinq livres*, Paris: Éditions de Minuit.
- MacIntyre, A. (1988) *Whose Justice? Which Rationality?*, Notre Dame, Indiana: University of Notre Dame Press.
- Mandelbaum, A. (ed. and trans.) (1956) G. Ungaretti, *Life of a Man*, Milan: Scheiwiller, London: Hamish Hamilton, and New York: New Directions.
- New Yorker (1988) "Briefly Noted," 2 May, p. 119.
- Praff, M.L. (1987) "Linguistic Utopias," in N. Fabb, D. Attridge, A. Durant, and C. McCabe (eds) *The Linguistics of Writing: Arguments between Language and Literature*, Manchester: Manchester University Press.
- Sanders, M. (1992) "Training for Community Interpreters," in C. Pickan (ed.) *ITI Conference 6 Proceedings*, London: Aslib.
- Shackman, J. (1984) *The Right to be Understood: A Handbook on Working with, Employing and Training Community Interpreters*, Cambridge, England: National Extension College.
- Schweda Nicholson, N. (1994) "Professional Ethics for Court and Community Interpreters," in D.L. Hammond (ed.) *Professional Issues for Translators and Interpreters*, Amsterdam: Benjamins.
- Tabucchi, A. (1994) *Scetlene Pereira: Una testimonianza*, Milan: Feltrinelli.
- Tennyson, A. (1972) *Selected Poetry*, ed. C. Ricks, London: Longman.
- The Times (London) (1958) "Perplexities and Poetry," 6 November, p. 13C.
- Toury, G. (1980) *In Search of a Theory of Translation*, Tel Aviv: Porter Institute for Poetics and Semiotics.
- (1995) *Descriptive Translation Studies and Beyond*, Amsterdam: Benjamins
- Venuti, L. (1995) *The Translator's Invisibility: A History of Translation*, London and New York: Routledge.
- (1998) *The Scandals of Translation: Towards an Ethics of Difference*, London and New York: Routledge.
- Wadensjö, C. (1998) "Community Interpreting," in M. Baker (ed.) *Encyclopedia of Translation Studies*, London and New York: Routledge, pp. 33-7.
- Ward, M. (trans.) (1988) A. Camus, *The Stranger*, New York: Alfred Knopf.
- Wilson, E. (1946) "Books," *New Yorker*, 13 April, pp. 99-100.

# إِعادة تأطير الصراع فسي الترجمة



منى بيكر / ت: احمد صديق الواحي

## مستخلص

يتأسس هذا المقال على كل من نظرية السردية ومفهوم التأطير، الذي نشأ وتطور في أدبيات الحركات الاجتماعية، وذلك بغرض استكشاف الطرق المختلفة التي يستخدمها المترجمون في تعاملهم مع الجوانب الخلاقية في السرديات التي يعبر عنها النص الأصلي (المكتوب أو المنطوق)، من تأكيد لتلك السرديات أو تقويضها أو تعديلها. يبدأ المقال بعرض للمنطلقات الأساسية التي يقوم عليها التصور السردى ومزاياه مقارنة بنظريات الترجمة الوجودية حالياً، وبعض النقال بعد ذلك في تعريف مفهوم التأطير كما يستخدم في خطاب الناشطين السياسيين، ثم يستعرض بعض المواضيع — أو بعض النقاط في متن النص أو حواشيه — التي يمكن أن يتحقق فيها التأطير (أو إعادة التأطير)، مع التوضيح بأمثلة مختلفة لاستراتيجيات التأطير المستخدمة في الترجمة التحريرية أو ترجمة الأعمال التراثية على الشاشة. والأمثلة المستخدمة مستقاة من ترجمات بين اللغتين العربية والإنجليزية في سياق صراع الشرق الأوسط وما يسمى بـ "الحرب على الإرهاب"، وإن كانت القضايا النظرية التي يعرض لها المقال لا تختص بلغة معينة أو سياق معين.

تعتمد هذه الدراسة على مفاهيم مستقاة من النظرية السردية وعلم الاجتماع ودراسة الحركات الاجتماعية، وذلك بغرض دراسة بعض الطرق التي يستخدمها المترجمون<sup>(1)</sup> لإعادة تأطير جوانب من الصراعات السياسية، والمشاركة بالتالي في بناء الواقع الاجتماعي والسياسي. وقد أوضحت نموذج التحليل المطبق هنا بشكل أكثر

تفصيلاً في كتاب سابق لي (بكر Baker ٢٠٠٦) وفي مواضيع أخرى<sup>٥٠</sup>. ويعتمد هذا النموذج اعتماداً أساسياً على فكرة السردية "كما تستخدم في بعض اتجاهات النظرية الاجتماعية والاحتمالية، وليس بالطريقة التي تستخدم بها في علم اللغويات أو علم السرديات. فالسردية - في هذا الإطار - تستخدم مرادفة لـ "القصة": فالسرديات هي القصص التي نحكيها لأنفسنا أو لغيرنا عن العالم الذي نعيش فيه (أو "العوالم" التي نعيش فيها)، وإيماننا بهذه القصص هو الذي يوجه أفعالنا في العالم الفعلي. والسردية - بهذا المعنى - ليست جنساً لغوياً، ولا هي شكل اختياري من أشكال التواصل. إن السردية، كما يقول وولتر فيشر Walter Fisher، "ليست صيغة إضافية من صيغ الخطاب يستخدمها صاحبها عن اختيار متعمد منه، وإنما هي شكل المعرفة كما ندركها لأول مرة" (فيشر ١٩٨٧: ١٩٣).

إن اختياري للسردية إطاراً نظرياً هو اختيار مدفوع بشعور عام بعدم الرضا عن الأفكار النظرية الموجودة حالياً، والتي نعتمد عليها عادة في محاولتنا تفسير سلوك المترجمين. وبصفة خاصة، تميل نسبة كبيرة من أدبيات الترجمة إلى الاعتماد على فكرة المعايير السائدة في الترجمة، حسبما هي مفصلة في نظرية الشُّبُم المتعددة polysystem theory وفي كتابات جدهون توري Gideon Toury. وتشجع نظرية المعايير السائدة هذه المحللين على التركيز على السلوك المتكرر والمجرد والمنهجي، وهي بهذا تركّز جل اعتمادها على أنماط التشكيل الاجتماعي المؤثرة التي تنتج هذا السلوك، وتميل إلى التغاضي عن المحاولات الفردية والاجتماعية التي تسمي إلى تقويض الأنماط السائدة والعقيدة السياسية والاجتماعية الغالبة. وبالمثل فإن نظرية المعايير ليس لديها ما تقوله عن الأشكال النمطية المتداخلة الناتجة عن التفاعل بين أنماط السلوك المتكررة والثابتة وبين المحاولات المستمرة للخروج على هذا السلوك، أي التفاعلات المتبادلة بين الهيمنة والمقاومة، وهو جانب من جوانب سلوك المترجم أحرص حريصاً خاصاً على تسليط الضوء عليه في دراساتي الخاصة. ويمكن القول أيضاً بأن نظرية المعايير السائدة لا تهدي إلا اهتماماً قليلاً بالظروف السياسية والاجتماعية التي تنتج أنماط الهيمنة تلك، إضافة إلى أنماط مقاومة هذه الهيمنة.

ومن أنواع التنظير السائدة الأخرى التي تتيح لنا النظرية السردية تجاوزها ثنائية لورنس فينوتي Lawrence Venuti القاطعة، وهي ثنائية الإستراتيجية القريبية والإستراتيجية البعيدة (فينوتي ١٩٩٣، ١٩٩٥)، والتي أعاد صياغتها في مواضيع أخرى باسم إستراتيجية الترجمة للأقلية minoritizing وإستراتيجية الترجمة للأغلبية majoritizing (فينوتي ١٩٩٨). ويعدّ عن اختزال هذه الثنائية للتنوع الثرى في المواقف التي يتخذها المترجمون إزاء نصوصهم ومؤلّفيهم ومجتمعاتهم، فإنها تتجاهل المواقف

للتحوّلة للمترجمين داخل النص الواحد - أي أنها تختزل الوسائل المعقدة التي يتفاوض من خلالها المترجم وهو يتعامل مع جوانب مختلفة من النص، ولا تبرز إلا اختصاراً يكاد يكون مباشراً بين إستراتيجية التغريب وتقييدها إستراتيجية التقريب. إن مجرد نظرة بسيطة على بعض النصوص التي أدرسها في أبحاثي الخاصة تدلنا على أن المترجمين يتأرجحون في ترجمتهم للنص الواحد بين اختيارات قد يراها فينوتوي تقريبية وأخرى قد يراها تغريبية. والله أن هذا التأرجح يخدم غرضاً في الواقع العملي، فلا هو تأرجح عشوائي ولا هو غير خاضع للعقل.

ولكي نحقق التوازن بين تركيز نظرية المعايير السائدة على السلوك المجرد والتكرار والتأثير التبسيطي لثنائيات فينوتوي، فإن ما نحتاجه هو إطار يعترف بالموقف التباين والمستغير، والقابل دائماً للتفاوض، للمترجمين بوصفهم أفراداً إزاء نصوصهم ومؤلفهم ومجتمعهم وأيديولوجياتهم السائدة. ومن هنا يأتي اهتمامي بالنظرية السردية وثاني محاولتي لتطبيقها على طائفة واسعة من الترجمات. ولا أدعي أن النظرية السردية يمكنها وحدها أن تعالج جميع مواطن الضعف في التنظير الراهن عن الترجمة، كما لا أنهب إلى أن هذا التنظير (بما فيه نظرية المعايير السائدة وثنائيات فينوتوي) ليس مجدداً في التعامل مع طائفة واسعة من القضايا المتعلقة بسلوك المترجمين. لكنني أرى أن مواطن القوة الأساسية والمتداخلة للنظرية السردية تتمثل فيما يلي:

أولاً، إن النظرية السردية لا تمنح أفضلية للمقولات ذات الطبيعة الجوهرية والاختزالية، مثل العنصر والجنس والعرق والدين، وإنما هي تتركز بالطبيعة التفاوضية لوقفتنا تجاه الواقع الاجتماعي والسياسي. فالسردية، كما يقول هول وآخرون، "تتيح لنا أداة لصياغة تصوراتنا عن الهوية، وهي أداة لا تنقسم بالعمومية أو الطبيعة الجوهرية، وإنما لها خصوصيتها الثقافية والزمانية" (هول وآخرون Hall et al. ٢٠٠٣: ٣٨). وبالتالي فإنها تتيح لنا أن نتجاوز التركيز على ما يفترض أنه اختلافات ثقافية متأصلة وعلى ذلك النوع من سياسات الهوية التي اعتمدت عليها نمية كبيرة من دراسات الترجمة حتى الآن، وبخاصة تلك التي تتناول الخصائص الثقافية وأنماط السلوك (على سبيل المثال كاتان ١٩٩٩، ٢٠٠٤)، أو تركز على الجنوسة gender (جودارد Goddard ١٩٩٠، سيمون Simon ١٩٩٦، فون فلوو von Flotow ١٩٩٧)، والهوية الجنسية sexuality (هارفي Harvey ١٩٩٨، ٢٠٠٣؛ كيناجان Keenaghan ١٩٩٨). وبدون أن أنفي أهمية هذا النوع من الدراسات، أود القول بأن الوقت قد حان لتجاوزه. فسياسات الهوية، والأطر النظرية التي تبرز الخلاف نصفة عامة هي آخر ما نحتاج إليه من نماذج في هذه اللحظة بالذات من التاريخ. هذه اللحظة التي تجاهد فيها نظريات وخيمية المواقف مثل نظرية "صدام الحضارات" لصمويل هنتنغتون Samuel Huntington من أجل تسليط الضوء على - أو بالأحرى اختلاق - مشهد كامل من الاختلافات، ساعية بذلك لا إلى تمكين empower الجماعات المقهورة في أدبيات

سياسات الهوية، وإنما إلى تبرير أكثر السياسات الخارجية إجرأً وخطورة. إن نظريات الاختلاف تلك بما تنطوي عليه من بواشع سياسية هي التي تسمح لهنتجتون وأمثاله أن يزعموا على سبيل المثال أنه يوجد ما يسمى بـ "الليل الطبيعي لدى المسلمين ليكونوا طرفاً في الصراع العنيف" (١٩٩٦: ٢٥٨) وأن "بقاء الغرب يعتمد على تأكيد الأمريكيين لهويتهم الغربية وقبول الغربيين لحضارتهم باعتبارها حضارة متفردة وليست عالمية وعلى اتحاديهم لتجديدها والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من المجتمعات غير الغربية" (١٩٩٦: ٢٠-٢١).

وإذا ما نحينا جانباً تلك النظريات وخيمة العواقب والتمهات الخارجية غير المسئولة، فمن المناسب أيضاً أن نشير إلى أن سياسات الهوية، مهما كانت جذبيتها وامتلاكها لطاقاتٍ قادرة على التحرير في سباقات سياسية معينة، قد عانت دائماً من أوجه قصور بالغة، وأخطرها هو أنها في صورتها التقليدية تُكثّل الأشخاص الذين يشتركون في خصائص خارجية معينة (مثل النساء، والسود، والمثليين جنسياً، والباكستانيين) في مجموعات، وتتغاضى عن التنوع بين الأفراد داخل كل مجموعة. كما أنها تبالغ في تحديد هويات الأفراد عن طريق إعطاء الأسبقية للمح واحد أو صفة واحدة على حساب غيرها من الملامح والصفات. إن ما تحتاج إليه بدلاً من ذلك هو القدرة على رصد موقع المترجمين الأفراد داخل إطار السرديات التي يشتركون فيها والتي تنبئنا عن سلوكهم في العالم الفعلي، بما فيه سلوكهم الخطابى discursive بوصفهم مترجمين. ولا يعنى هذا تجاهل الحقيقة الواضحة القائلة بأن تحديد موقعنا في مجتمع ثقافي أو عرقي أو ديني معين وفي نقطة زمنية معينة يمكن أن يؤثر في سلوكنا بأشكال معينة، لكن النظرية السردية تقر بأن هذا التأثير ليس حتمياً ولا متوقفاً. ففي لحظتنا الراهنة على سبيل المثال، يمكن أن يعنى كون المرء يهودياً أيّاً مما يلي: (أ) التأييد المطلق لإسرائيل والصهيونية، (ب) أي درجة من درجات التأييد المعزج بالنقد للسياسات الإسرائيلية الراهنة، (ج) تنصل المرء من الهوية اليهودية تماماً ورفض الانتماء بها، مع عدم إبداء الاهتمام بالصراع في الشرق الأوسط على الإطلاق، (د) أو تحمل مسؤولية الانتهاكات بقوة في الأنشطة التي تهدف إلى فضح المشروع الصهيوني وتوقيفه، كما يحدث حالياً بشكل متزايد بين قطاعات كبيرة في المجتمع اليهودي. بل إن وصف المرء نفسه بأنه يهودي لا ينبئنا كيف يمكن أن يتصرف هذا الشخص في الواقع الفعلي، ولا أن يفسر لنا سلوكه، إلا إذا كنا نعرف شيئاً عن نوع السرديات التي يؤيدها، أو إذا كنا نستطيع أن نستنبطها من طريقة تصرفه أو من الخطاب الذي يصدر منه.

ثانياً، ومما على ما ذكرناه أعلاه، تتيح لنا النظرية السردية أن نرى الفاعلين الاجتماعيين، ومن بينهم المترجمون، بوصفهم أفراداً من الحياة الحقيقية لا مجرد تجريدات نظرية. وكما ترى وايتبروك Whitebrook، فإن النظرية بصفة عامة "كثيراً ما تخلف في أن تجعل الفاعل السياسي شيئاً ملموساً" وأن "الشخصية تعالج باعتبارها

متغيراً من المتغيرات التي على المراقب أن يقيّمها حين يحاول أن يفهم سلوك أي إنسان أو يتنبأ به" (٢٠٠١: ١٥). ولا شك أن نقد وايتبروك ينطبق على التنظير في مجال الترجمة أيضاً، وكذلك الحال بالنسبة لاقتراحها انتهاز النظرية السردية باعتبارها طريقة للخروج من أسر هذا التجريد (المرجع السابق نفسه):

يتيح لنا التحول للسرديات أن نفهم الأشخاص الذين أفقدتهم النظرية

شخصياتهم وحولتهم إلى حاملي هوية نمطية أو هوية تعبر عن جماعة

يوصفهم أشخاصاً مستقلين - أو شخصيات - لهم خصائص فردية مستقلة،

تشمل السياقات الاجتماعية والهوية الجماعية، لكنها لا تقتصر عليهما.

ثالثاً، نتيح لنا النظرية السردية أن نفسر السلوك تفسيراً حركياً لا تفسيراً ثابتاً

- فهي نظرية تعترف بالتمتعّد الناتج عن كوننا جزءاً لا يتجزأ من سرديات متقاطعة،

بل ومتنافسة أحياناً. وهكذا فإن السردية "تضع الفاعل داخل علاقات وقصص تتغير

عبر الزمان والمكان و... تحول دون الثبات القاطع في الفعل" (سومرز وجيبسون

Somers and Gibson ١٩٩٤: ٦٥). ولا مجال في النظرية السردية لاختزال سلوك

الترجمين أو اختياراتهم إلى تقسيمات عامة مثل التعريب في مقابل التعريب، أو الثقافة

تقيضاً للمعايدة الثقافية، أو - بالطبع - الترجمة الأمنية تقيضاً للترجمة الحرة، حتى

ولو كان ذلك في إطار نص واحد. وبالمثل، فلأن الفاعل هو دائماً جزءاً لا يتجزأ من

علاقات وقصص، فلا مجال لأن نحاول اتخاذ موقف متميز نزع فيه "الموضوعية" أو

"الحيادية" تجاه السرديات التي نحن منخرطون في ترجمتها بل وتحليلها. إن النظرية

السردية تشجعنا على التفكير والتشكك في السرديات التي نرتبط بها والتي تشكل

سلوكنا، لكنها لا تقترض أننا يمكننا أن نكتب موضوعيتنا أو أن نقف خارج تلك

السرديات، حتى مع تفكرنا وتشككنا فيها.

رابعاً: وهي النقطة الأهم من وجهة نظري، تقر النظرية السردية بقوة البنى

الاجتماعية وتأثيرات "النظام السائد"، لكنها في الوقت نفسه لا تتجاهل المقاومة

الإيجابية على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي. فهي تعطي الدرجة نفسها من

الاهتمام بالقضايا الخاصة بالهيمنة والمقاومة، ولطبيعة التفاعلات المعتمدة على ممارسة

طقوس معينة (حسب التقليد الذي أرساه إيرفينج جوفمان (Erving Goffman) إضافة إلى

الوسائل التي يتم بها التشكك في هذه الطقوس وتقويضها. وأخيراً، ورغم أنه لا يكاد

يوجد أي عمل بحثي يستند إلى مفهوم السردية في النظرية الاجتماعية والاتصالية في

درس قضايا اللغة، ناهيك عن قضايا الترجمة، فإن النظرية السردية تدعونا بشكل واضح

لكي نطبقها على كل من اللغة والترجمة، وبطريقة تتيح لنا تفسير اختيارات الترجمة

بالإشارة إلى السياقات الاجتماعية والنمطية الأوسع، ولكن دون التغاضي عن النص



والحدث الفردي. وهذا جانب من جوانب النظرية السردية حاولت توضيحه بشيء من التفصيل في أعمالها الخاصة، وسوف أحاول بهانه بمثل موسع في نهاية هذا المقال.

## الأطر والتأطير

إن السرديات، كما أوضحنا من قبل، هي قصص تشترك فيها - أي نؤمن بها، أو على الأقل نعتقد بإمكانية صدقها - وتحدد هذه القصص بالتالي الشكل الذي نتصرف به إزاء الآخرين وإزاء الأحداث التي تكون جزءاً داخلها ضمنها. والسرديات - حسبها هي مستخدمة هنا - ليست وقائع تاريخية مرتبة زمنياً، وليست قوائم مختلطة من الأحداث: بل هي قصص تتشكل بفعل الزمن وبفعل مسهبات معينة، و ذلك على نحو يسمح لنا باتخاذ قرارات أخلاقية والتصرف في الواقع الفعلي.

وترى سومرز Somers (١٩٩٢، ١٩٩٤، ١٩٩٧) وسومرز وجيبيسون Somers and Gibson (١٩٩٤) أن السرديات تتشكل من خلال أربعة سمات متشابهة. السمة الأولى منها هي سمة "البعد الزمني" *temporality*، وتعني أن السرديات داخلية ضمن الزمان والمكان، وأنها تمتلئ جزءاً كبيراً من معناها من اللحظة الزمنية والموقع المكاني للسرد. أما السمة الثانية فهي سمة "البعد العلائقي" *relationality*، وتعني أنه من المستحيل على العقل الإنساني أن يجد معنى للأحداث المنفصلة أو لمجموعة من الأحداث التي لا تتشكل بوصفها سردية. فكل عنصر من عناصر السردية يعتمد في تفسيره على موقعه وسط شبكة العناصر التي تكون السردية ولا يمكن تفسيره بمعزل عنها. والسمة الأساسية الثالثة من سمات السردية هي "التوظيف الانتقائي" *selective appropriation*، فنظراً لاستحالة نسج قصة متعاسكة من خلال إدخال جميع التفاصيل التي يحبرها المرء فلا بد أن يتم ابتشاء السرديات وفقاً لمعايير للتقييم تتيح وتوجه التوظيف الانتقائي لمجموعة من الأحداث أو العناصر من بين عدد لا نهائي ومتداخل من الأحداث التي تكون خيرتنا. أما السمة الأخيرة والأهم من سمات السردية فهي "الصياغة السببية للحبكة" *causal emplotment*، وهي السمة التي "تعطي المغزى للأحداث المستقلة، وتطغى على ترتيبها الزمني أو تصنيفها النوعي" (سومرز Somers ١٩٩٧: ٨٢). وتسمح لنا الصياغة السببية للحبكة بتحويل مجموعة من التصورات إلى أحداث ذات تسلسل مفهوم يمكننا تكوين رأي بشأنه، ومن ثم يمكن تحميلها بمغزى أدبي وأخلاقي (بيكر Baker ٢٠٠٦: ١٦٥). إن مشاركتنا في نمط معين من الصياغة السببية للحبكة في سردية الشرق الأوسط على سبيل المثال هو الذي يقودنا إلى تفسير حادث آخر من حوادث التفجيرات الانتحارية في إسرائيل بوصفه إما تهديداً للأمن الإسرائيلي، أو دليلاً على ضرورة القيام بإجراءات مثل الجدار العازل أو الاعتبارات التي تستهدف أشخاصاً معينين، أو نتيجة حتمية لتلك الإجراءات نفسها، وبالتالي "دليلاً" على أن الحل يكمن في تبنى بدائل أخرى. وتتوقف هذه البدائل بدورها

على أنماط أخرى من الصياغة السببية للحبكة أكثر خصوصية تميز السرديات الخاصة بفرد معين عن تلك الخاصة بغيره، حتى من داخل المجموعة الواسعة الواحدة من النشاط السياسي على سبيل المثال. فليس كل النشاط في حركة التضامن الفلسطيني مثلاً موافقين بالضرورة على أن حل الصراع يكمن في مجرد إنهاء الاحتلال والعودة إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ إذ يصر بعضهم على أن الحل يكمن في إعادة تشكيل فلسطين/إسرائيل في هيئة دولة علمانية واحدة تضم جميع المواطنين، أو "حل الدولة الواحدة" كما صار يطلق عليه. وأي أسباب يحتج بها لأي حل أو سببه لا يكون لها معنى متماثل إلا داخل الإطار الخاص للحيك السببي الذي يميز سردية عن أخرى.

ولكن تعمل هذه السمات للشار إليها، ولكني يتم تشكيل أي مجموعة من الأحداث في هيئة سردية لها نمط خاص من أنماط الصياغة السببية للحبكة، لا بد من اصطلاح القارئ بالسرد بقدر كبير من العمل الخطائي. ويمكن أن يكون لفكرة "الإطار"، وخاصة مفهوم "التأطير" دور فعال في توضيح بعض الطرق التي يتم من خلالها أداء هذا العمل الخطائي. ولهذين المفهومين تعريفات عديدة في الأدبيات، ولكنهما يمكن بصفة عامة أن يفسرا تفسيراً سلبياً بوصفهما "أشكالاً للفهم" تنشأ من خلال التفاعل، وتفسيراً إيجابياً بوصفهما حركات خطابية متعمدة تهدف إلى توقع وتوجيه تفسير الآخرين لمجموعة من الأحداث ومواقفهم تجاهها. والتعريف الأول (والسليم بصفة عامة) لمفهوم الأطر هو التعريف الذي يميز أعمال إرفنج جوفمان Erving Goffman، الذي يرى أن "تأطير الفرد لأي نشاط هو ما يمنح المعنى لهذا النشاط بالنسبة لذلك الفرد" (١٩٧٤: ٣٤٥؛ التأكيد مضاف من الباحث). ويمكن أن نجد تعريفات مماثلة في أعمال علماء الاجتماع الآخرين الذين حدوا حدو جوفمان. إذ يعرف تانين ووالات Tannen and Wallat (١٩٩٣: ٦٠) على سبيل المثال الأطر بأنها "المعنى الذي يمنحه المرء للنشاط الذي يخرط فيه، أو الكيفية التي يعنى بها المتكلمون ما يقولون". وفي المقابل، تميل أدبيات الحركات الاجتماعية لتناول التأطير بوصفه عملية إيجابية لتكوين المعنى signification، فبالنسبة للنشطاء وللمهتمين بدراسة سلوكهم، تمثل عملية تأطير الأحداث جزءاً لا يتجزأ من ظاهرة النشاط السياسي. الأمر الجوهرى هنا أن عملية التأطير تتضمن إنشاء بنية "التوقع" التي توجه تفسير الآخرين للأحداث، وهذا التفسير عادةً ما يشكل تحدياً مباشراً للتفسيرات السائدة للأحداث نفسها في مجتمع معين. وبعد هذا العمل الخطائي من تأطير للأحداث والتضاميات الموجهة لمجموعة معينة من الحاشيين مهماً لا لأنه يقوض السرديات السائدة عن قضية معينة (مثل الخطر النووي أو فلسطين أو ما يسمى بالحرب على الإرهاب)، بل لأنه يمثل أيضاً إستراتيجية أساسية لتشكيل شبكات ومجموعات للنشطاء، ولتمكين الحركات الاجتماعية من النمو واجتذاب المؤيدين:

بينما يعتمد الفاعلون الاجتماعيون جميعهم على الأثر من أجل الاضطلاع بإلتحاق التعاني الخاصة والحفاظ عليها، فإن الباحثين المهتمين بتحليل الأثر يدركون أن العملية الإستراتيجية لبناء الأثر وإمارتها هي عملية حيوية بالنسبة لعمل منظمات الحركات الاجتماعية التي تهدف لأن تحل محل "نظام معتقدات سائد يدعم الفعل الجماعي من أجل التغيير" (جامسون وآخرون Gamson et al. ١٩٨٢ : ١٥). وبهذا المعنى توفر لنا عمليات التأطير آلية يمكن للأفراد من خلالها أن يرتبطوا أيديولوجياً بأهداف الحركة وأن يصبحوا مشاركون محتلمين في أفعال الحركة.

(كننجهام وبراوننج Cunningham and Browning ٢٠٠٤ : ٣٤٨)

ويرتبط مفهوم التأطير ارتباطاً وثيقاً بسؤال مهم، وهو كيف تتجسّد لنا النظرية السردية أن ننظر في السردية المباشرة التي يكشف عنها النص الذي نقوم بترجمته، وأن ننظر أيضاً في السرديات الأكبر التي يدخل ضمنها ذلك النص؟ وكيف يتيح لنا هذا - بدوره - أن نرى الاختيارات الترجمانية ليس بوصفها مجرد تحديدات لغوية محدودة، ولكن بوصفها اختيارات تسهم إسهاماً مباشراً في السرديات التي تشكل عالماً الاجتماعى. وهنا يمكن القول بأن أي اختيار من جانب المترجم بإمكانه أن يعمل على تفعيل سردية ما، أو قصة تصف لنا العالم أو جانباً من جوانب العالم. وبعض الاختيارات، خاصة تلك المتعلقة بكيفية تمثيلنا لحدث أو مكان أو جماعة، والمرتبطة بكيفية وضعنا للأفراد والمجتمعات في الحيز الاجتماعى والسياسى من خلال استخدام الضمائر وظروف المكان وغير ذلك، تتجسّد لنا تأطير السردية بالنسبة للآخرين، وذلك بالمعنى الحركى المعروف في الحركات الاجتماعية لمفهوم التأطير<sup>(١)</sup>.

ويدرك المترجمون الذين يعملون بين اللغتين الصينية والإنجليزية، على سبيل المثال، أن أحداث ١٩٩٧ في هونغ كونج يمكن أن يشار إليها إما بتعبير "سليم السيادة" ، وهو التعبير السائد في اللغة الإنجليزية the Handover of Sovereignty، أو (حرفياً) بتعبير "العودة إلى الوطن الأم"، وهو التعبير السائد في اللغة الصينية<sup>(٢)</sup>. ويدرك هؤلاء المترجمون بصفة عامة أن هذين الاختيارين لهما مجرد تنوعين على معنى واحد، وإنما لهما عواقب خطيرة في الواقع العقلى. وبالمثل فعند ترجمة نص عن أحداث ١٩٥٦ في الشرق الأوسط، يجب على المترجم أن يختار بين تعبيرين تقيضين، لا يمثل أي منهما تحدياً لغوياً خاصاً في تسميته للحدث<sup>(٣)</sup>. والاختيار الأول، وهو السائد في الخطاب الغربى والداخل ضمن سردية متداولة في الغرب، هو الإشارة إلى تلك الأحداث بـ "أزمة قناة السويس". ويعمل اختيار "أزمة قناة السويس" على الفور على تفعيل السردية التي تتبناها قوى الاستعمار: فهالنسبة لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد كان من المصلحة والحكمة سرد هذه الأحداث بوصفها أزمة سياسية. أما التسمية المتداولة في العالم العربى، وهي تسمية غير متداولة في الغرب، فهي "العدوان الثلاثى". ويعمل هذا

الاختيار - الطبيعي في اللغة العربية - علي تفعيل إطار سردي مختلف تماماً عن سابقه، وهو إطار يدخل ضمن وعي أولئك الذين يتعرضون لذلك الهجوم ومواقفهم. ولا يستخدم المترجمون بالضرورة تعبير "العدوان الثلاثي" بدلاً من "أزمة قناة السويس" عند نقلهم نصاً إنجليزياً إلى اللغة العربية، إذ أنهم قد ينقلون التعبير الإنجليزى نقلاً حرفياً إلى العربية، ربما لأنهم يؤمنون بسردية مقادها أن الترجمة ينبغي أن تكون ممارسة جيايدة واحترافية. ولكن حتى في هذه الحالة، فإن اختيارهم سيكون من بين آثاره التسمية الترويج لإحدى السرديتين وإضفاء الشرعية عليها. وتوجد اختيارات أخرى أمام المترجمين: فقد يترك المترجم التسمية الأصلية كما هي مع التعليق عليها أو حتى الاعتراض عليها في مقدمة النص أو في إحدى هوامشه. وفي حين يوظف اختيار "تسليم السيادة" أو "أزمة قناة السويس" السردية تأطيراً معنياً، فإن هذا الإطار بدوره يمكن مسابته، كما يمكن "إعادة تأطير" السردية بأكملها، في مواطن أو نقاط مختلفة داخل متن النص أو في حواشيه.

المكرة - إذن - هي ألا نتعامل مع أي اختيار ترجمي بوصله اختياراً عشوائياً ليست له أية آثار ضمنية في الواقع الفعلي، وكذلك فإن النظرية السردية لا تشجعنا عل التعامل مع اختيار معين (مثل "أزمة قناة السويس") بوصفه تحقيقاً لعرف عام مجرد مرتبط باختيارات أخرى مجردة مثل اختيار الالتزام بالتركيب النحوية للغة المترجم لأن هناك معياراً غالباً وهو التركيز على "الكفاية" وليس "القبول" في الثقافة المترجم إليها في لحظة معينة من الزمن. وتدعونا النظرية السردية إلى أن نتجنب هذه التجريدات العامة والى أن نتفكر في الاختيارات الفردية باعتبارها طرفاً في واقع سياسي ملموس ومساهمة في إظهاره.

### مواضع التأطير واستراتيجياته

إن عمليات التأطير (أو إعادة التأطير) يمكن أن تعتمد عملياً على أي مورد لغوي أو غير لغوي لإنشاء سياق تفسيري للقارئ أو المستمع. وقد يتضمن هذا استغلال وسائل شبه لغوية: paralinguistic مثل التنغيم والطباعة، وموارد مرئية مثل الألوان والصور والتنسيق، إضافة بالطبع إلى الحيل اللغوية، مثل تغيير زمن الفعل والتعبيرات الإشارية، والتقليل بين المستويات اللغوية واستعمال التعبيرات المطلقة. وكذلك يمكن لمستخدمي اللغة - ومن ضمنهم المترجمون - أن يستغلوا سمات السردية (البعد الزمني والبعد العلائقي والتوظيف الانتقائي والصياغة السببية للحبكة) وذلك لتأطير أو إعادة تأطير نص أو منطوق يستهدفون به جماعة من المخاطبين. ويمكن للمترجم الذي يترجم نصاً مكتوباً أن يفعل ذلك في متن الترجمة أو في حواشيه. ويمكن أن يكون هذا التمييز بين ما يفعله المترجمون داخل نصوصهم وخارجها على درجة كبيرة من الأهمية في سياقات

معينة بسبب سطوة مفهومي الدقة والأمانة في مجال الترجمة الاحترافية - وخاصة الترجمة ذات الحساسية السياسية.

وعلى سبيل المثال، فإن منظمات المحافظين الجدد مثل منظمة "ميمري" MEMRI<sup>10</sup> التي تخصصت في نشر ترجمات لنصوص عربية منتقاة بعناية لتوضيح سردية تصور المجتمعات العربية بوصفها مجتمعات متطرفة ومعادية للسامية وتهدد الديمقراطيات الغربية، تتوخى الدقة الشديدة في ترجمتها، لأن مصداقيتها سوف تنهار إذا استطاع خصومها أن يسموا أيديهم على أخطاء في هذه الترجمات وينشروا قائمة بها، سواء كانت هذه الأخطاء مقصودة أم لا. إن القدر الأعظم من التأطير الذي تقوم به منظمة ميمري ومنظمة غربية أخرى وثيقة الصلة بها هي "ووتشنج أميركا" Watching America<sup>11</sup>، يتم خارج النص أو الترجمة ذاتها. فاولاً، تمنح سمة "التوظيف الانتقالي" لكل من "ميمري" و "ووتشنج أميركا" تأطير العالم العربي بوصفه عالمًا متطرفًا وخطراً، وذلك بمساعدة عن طريق اختيار أسوأ الأمثلة الممكنة في الخطاب العربي وترجمتها، ثم توزيع هذه الترجمات على وسائل الإعلام وعلى الكونجرس دون مقابل. والمشير للاعتماد أن منظمة ميمري لديها الآن فئة خاصة من الكتاب تطلق عليهم "الكتاب الإصلاحيين"، ويمثل هؤلاء عدد قليل من الأصوات من العالم العربي وإيران تترجم أعمالهم وتنشر مقتطفات من أقوالهم على موقع المنظمة من حين لآخر. وينادي هؤلاء "الإصلاحيون" بحرية الفكر وحقوق المرأة وما إلى ذلك. ويهدف هذا الاختيار "التجميعي" الذي يتم من حين لآخر لنصوص عربية غير متطرفة إلى إشفاء مظهر التوازن على تغطية منظمة ميمري، ويهدف في الوقت نفسه إلى إبراز الصورة العامة للعالم العربي وإيران بوصفهما مرتعاً للتطرف الذي يكتفم الأصوات العاقلة المعدودة في المنطقة، تلك الأصوات التي أصبح لديها مساحة للتعبير عن نفسها يقدمها لها عن سعة صدر موقع أمريكي.

وثانياً، فلي حين تحافظ منظمة "ميمري" و "ووتشنج أميركا" على الإبقاء على الترجمة ذاتها قريبة جداً من الأصل، فإنهما قد تسمحان لأنفسهما بتغيير عنوان النص لتأطير السردية التي تصور المجتمعات العربية والإيرانية على أنها مجتمعات متطرفة أو تهدد الغرب أو مجرد مجتمعات "غريبة" في خطابها". فعلى سبيل المثال، قد نشرت أخيراً على موقع "ووتشنج أميركا" ترجمة لمقالة من جريدة "الحياة الجديدة" الفلسطينية تحت عنوان "Oh America...Oh, Empire of Contradiction" (بالعربية: "آه يا أمريكا... يا إمبراطورية التناقضات")<sup>12</sup> والحقيقة أن العنوان العربي الأصلي لهذه المقالة كان أقل إثارة وأقل "غريبة" فقد كان عنوان المقالة: "علامات على الطريق: أمريكا والديمقراطية"<sup>13</sup>

وثالثاً، فإن منظمة "ووتشنج أميركا" تدخل على النص الانجليزي صوراً، ومعها التعليقات المناسبة، لتؤطر السردية المترجمة بوصفها جزءاً من السردية الأكبر

والأوسع للحرب على الإرهاب. ومن أمثلة ذلك الشكلان ١ و ٢ اللذان يظهران في نص المقالة الترجمة عن جريدة "الحياة الجديدة".

رئيس السلطة الفلسطينية إسماعيل هنية  
يرفع يديه بالدعاء قبل إحدى خطبه،  
غالباً من أجل المال...  
وغالباً من إيران (يعني)



محارب من كتائب  
شهداء الأقصى بالفضة  
العربية، بمناسبة ذكرى  
أحد أحداث العنف  
الكثيرة التي جرت هناك  
(يسار)

الشكلان (١) و (٢): الصور والتعليقات في ترجمة منظمة "ووتشنج أميركا"  
الإنجليزية لمقالة "الحياة الجديدة".

ورابعاً، ولعل هذا هو الأهم، فإن كل ترجمة الإنجليزية لمقالة من جريدة عربية تأتي مصحوبة برابط لمقطع فيديو من اختيار منظمة ميمري مع تزويد الرابط بتعليق، وهو مابشكل وسيلة تآطير إضافية تشجع القارئ على تفسير حتى أكثر الخطابات العربية معقولة على أنها تخفي في طياتها نصاً تحتياً مطرفاً. وقد جاءت هذه المقالة من "الحياة الجديدة" مصحوبة برابط فيديو مع تعليقات مناسبة عليه، كما هو مبين في الشكل رقم (٣). وما يثير الاهتمام أن الترجمات من اللغات الأخرى لا تلقى المعاملة نفسها: فالترجمات من الصينية والألمانية والفرنسية والألمانية وكثير من اللغات الأخرى تظهر على الموقع دون أية روابط لمقاطع الفيديو التي تقدمها ميمري، والتي تصور المجتمعات التي تتألفها بنسبة الضحايا. واللغة الأخرى الوحيدة التي تلقى هذه المعاملة الخاصة (أو التي تخضع لهذه الإستراتيجية من استراتيجيات التآطير) هي — كما قد نتوقع — اللغة الفارسية.

فيديو من فلسطين: مدبح التفجيرات الانتحارية أثناء دعوة لجمع الأموال لصالح حماس.

(أيقونة فيديو) قناة اقرأ، فلسطين: مقتطفات من خطبة لجمع الأموال بلبثها رجل الدين اليمني عبد المجيد الزنداني، ٢٣ مارس الساعة ١٨:٠٨:٠٠، عن طريق ميمري. "بعد أن فشلت كل المحاولات، والسياسات، والبرامج، ووصل الناس أو كان أن يصل الناس إلى اليأس، فوجئت الدنيا بأكملها بقرار من حماس. ما هو؟ انتفاضة. انتفاضة؟ أين؟ في فلسطين. في فلسطين!"



شكل (٣): مقطع فيديو مع التعليق عليه يصاحب ترجمة مقالة الحياة الجديدة - يتصرّح من ميمري.

وإضافة إلى الصور والتعليقات والتلاعب بالعناوين، تعد عتبات النص paratexts موضعاً مهماً لممارسة فعل التأطير في ترجمات الكتب؛ وتشمل عتبات النص صورة الغلاف وكلمة الناشر، والمقدمة والتصدير والهوامش. وفي حين أن المترجم لا يكون مسئولاً عادة عن صورة الغلاف وكلمة الناشر<sup>(١)</sup>، فإنه غالباً ما يكتب المقدمة والتصدير والهوامش. وقد صدرت ترجمات باللغة العربية لكتاب "صدام الحضارات" لصمويل هنتنغتون خلال فترة قصيرة جداً. صدرت الأولى عام ١٩٩٨ في مصر (ترجمة طلعت الشايب) والثانية عام ١٩٩٩ في ليبيا (ترجمة مالك عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف). وقد صدرت الترجمتان بمقدمات موسعة. وكان للترجمة الليبية مقدمات، وأولها كتبها المترجمان معاً، وتتكون من أربع صفحات تعرض علي نحو موجز لمحتوى الكتاب، مبينة ما أشاره من جدل كبير؛ ويقول المترجمان في هذه المقدمة ما يلي (هنتنغتون ١٩٩٩: ١١):

هذا، ونظراً لما لاحظناه من فوضى وعدم تنسيق في النص، وخلل في المنهجية التي يتبعها المؤلف، وسعياً منا للمساهمة في تحديد الأهداف الكائنة خلف أطروحة صدام الحضارات، فكان لابد من فك آليات ومنطقات خطاب صدام الحضارات فقام الدكتور مالك عبيد أبو شهيو بإعداد دراسة حول المنطقات الفكرية والسياسية لخطاب صدام الحضارات والآليات التي يعتمد عليها في

طرح المفاهيم وفي إقناع الآخرين واكتساب المؤيدين، هذه الدراسة بعنوان: مساهمة أولية للوعي بالآخر: منطلقات وآليات صدام الحضارات.

وتمثل الدراسة نفسها والتي كتبها أحد المترجمين كما بينت الفقرة السابقة المقدمة الثانية للترجمة. وهي مقدمة كبيرة الحجم تصل إلى ٤٩ صفحة وهي تلقد هنتجتون ونشرته تقييداً مباشراً. أما الترجمة المصرية التي صدرت عام ١٩٩٨ فلها مقدمة من ١٩ صفحة، ليست بقلم المترجم وإنما بقلم مفكر عربي (هو صلاح قنصوه)، وهي أيضاً تلقد الطرح الذي يقوم عليه الكتاب وتلطن في صحة فرضياته الأساسية. وهذه المقدمات الثلاث جميعها (مقدمتان للترجمة الليبية ومقدمة للترجمة المصرية) تسبق تصدير هنتجتون نفسه لكتابه، وتستبق رد فعل القارئ للحجج التي يقدمها هنتجتون للنص الأصلي. أي أن هذه المقدمات تؤطر النص المترجم الذي يليها تأطيراً سلبياً للغاية، وتشجع القارئ على تفسير طرح هنتجتون من زاوية معينة حتى قبل البدء في قراءة كتابه.

ويمكن أيضاً أن تستغل الهوامش التي يكتبها المترجمون لأداء وظيفة تأطيرية معاكسة. فعلى سبيل المثال يقدم كتاب "رسائل إلى العالم: أقوال أسامة بن لادن" (لورنس وهوارث Lawrence and Howarth ٢٠٠٥) ترجمات تعج بالتعليقات لخطب أسامة بن لادن، ويستغل الكتاب الهوامش بشكل موسع لإعادة تأطير سردية بن لادن الشخصية (ومن خلالها سرديات الأصولية الإسلامية، وما يسمى بـ "صدام الحضارات"، و "الحرب على الإرهاب") بوصفها نتيجة مباشرة للسياسات الخارجية الغربية وليس نتيجة عقلية يصورها خطاب الحرب على الإرهاب عادة على أنها شر محض لا تفسير له. وقد لاحظ تشارلز جلاس في عرشه لهذا الكتاب في مجلة "لندن ريفيو أوف بوكس" London Review of Books أن بن لادن في هذا الكتاب "لا يبدو شخصاً مشوشاً كما يصور منتقوه على أن يصوره. فرسالته واضحة: دعوا العالم الإسلامي وشأنه، وسوف يدهكم وشأنكم.. اقتلوا المسلمين، وسوف يقتلونكم" (جلاس Glass ٢٠٠٦: ١٤). فكيف تحقق هذا الاتباع؟

إن الكتاب من تحرير بروس لورنس Bruce Lawrence، أما الخطب والأقوال المفردة فمن ترجمة جيمس هوارث James Howarth. وتعرض لنا المقدمة الرئيسية للمحرر (الصفحات ١١-٢٣ من المقدمة) وملاحظات المترجم (صفحتا ٩ و١٠ من المقدمة) أن المحرر هو المسئول صراحة عن المقدمات الصغيرة المكتوبة في بداية كل ترجمة مفردة لأقوال بن لادن، وأن المترجم هو المسئول عن الهوامش المصاحبة لكل ترجمة. وهذه المقدمات والهوامش معاً تصور لنا بن لادن على أنه شخص عاقل، ونكسي ولباح، ومعلم وواضح؛ ولتأخذ مثلاً المقدمة الصغيرة التي كتبها المحرر لرسمية من بن لادن وضعت على الانترنت بتاريخ ٦ أكتوبر ٢٠٠٢ وتظهر في المجموعة تحت عنوان "إلى الأمريكان"



(لورنس وهوارث Lawrence and Howarth ٢٠٠٥ : ١٦٠-١٧٢)، إذ تقول لنا هذه المقدمة ما يلي (الرجع نفسه : ١٦٠) :

تأتى هذه الصورة للولايات المتحدة بعد دعوة للشعب الأمريكي إلى التحول إلى الإسلام. ورغم أن هذا التحول لا بد وأنه ضرب من الخيال - كما توحى بذلك الرسالة نفسها - فإن هذه الدعوة لها وظيفة عملية داخل "الامة". فالغرض منها هو الرد على المسلمين من معارضي أحداث ١١ سبتمبر، والذين قالوا إن تنظيم القاعدة لم يقدم للأمريكان الفرصة للدخول في الإسلام قبل الهجوم عليهم، مخالفاً بذلك قول الله "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً". إن تفاصيل هذه الرسالة كلها تدور حول إثبات بن لادن للمسلمين أنه لم يترك باباً لإنهاء هذه الحرب بالطرق السلمية إلا وطرقه، وأنه قد أُنذر الأمريكان بالدمار الذي سوف يحيق بهم إذا رفضوا الاستماع لنصحه.

وهذه الفكرة نفسها يؤكدتها المترجم بهامش لتتصرح آخر لين لادن أثناء لقاء مع صحيفة استرالية ويظهر في مجموعة الرسائل نفسها ("النظام السعودي"، لورنس وهوارث Lawrence and Howarth ٢٠٠٥ : ٣١-٤٣)، وهي محاولة أخرى لتصوير بن لادن على أنه شخص راجح العقل ولديه قدر كبير من الفطنة السياسية (الرجع نفسه : ٣٢) :

(٣) خلال هذا الكتاب سأستخدم عبارة "invitation to Islam" لترجمة المصطلح العربي "الدعوة". وللدعوة أهمية خاصة في سياق رسائل بن لادن الأخيرة إلى أمريكا وحلفائها بعد أحداث ١١ سبتمبر، والتي يعرض منها عليهم فرصة للدخول في الإسلام قبل المزيد من الهجمات عليهم، وهكذا "يسيرى ذمته وفق تعاليم الإسلام، فقد حذرهم ودعاهم إلى الإسلام قبل الهجوم". (مايكل شوير Michael Scheuer: *الغزو الإمبراطوري: لماذا يخسر الغرب الحرب على الإرهاب؟* [بوتوماك ٢٠٠٥] ص ١٥٣).

وبالإضافة إلى تصوير بن لادن على أنه شخص راجح العقل (وليس مشوشاً أو مختلاً)، فإن هذه المقدمات والهوامش تعطينا الانطباع أيضاً بأنه "إنسان"، وأنه ذكي ولماح. ويركز المترجم بصفة خاصة على تفسير التلاعب الذكي بالألفاظ في خطاب أسامة بن لادن، بما يقوض تصويره المعتاد بوصفه "عدونا" - فنحن عادة لا نقر لأحداثنا بامتلاكهم البراعة اللفظية وروح الدعاية. وفيما يلي مثالان على ذلك: المثال الأول (لورنس وهوارث Lawrence and Howarth ٢٠٠٥ : ١٩٤) يأتي مما يصفه محرر للكتاب في مقدمته الموجزة بأنه "القول الأول والوحيد لين لادن الذي يتم تأطيره على أنه موعظة دينية". وهو جزء من شريط صوتي مدته ٥٣ دقيقة منشور على مواقع مختلفة على الانترنت وفي جريدة "الحياة".

### النص الأساسي:

يبتغون ما عند الله تعالى، تأبى نفوسهم أن تنام على الشميم، يريقون ماء الحياة ولا يريقون ماء المحيا.<sup>(١)</sup>

### الهامش:

<sup>(١)</sup> هذا تلاعب بالألفاظ في اللغة العربية، حيث يستخدم تعبيراً "ماء الحياة" و "ماء المحيا" صيغتين مختلفتين لجذر واحد.

ويأتي المثال الثاني في نهاية رسالة مسجلة على شريط صوتي لبن لادن أذاعتها الجزيرة بتاريخ ٤ يناير ٢٠٠٤ ("قاوموا روما الجديدة"، لورانس وهوارث ٢٠٠٥، Lawrence and Howarth: ٢٣٦).

### النص الأساسي:

لو كان [بوش] صادقاً في دعواه للسلام لما قال عن باقر بطون الحوامل في صابرا وشاتيل ومدير عملية الاستسلام<sup>(٢)</sup>: "رجل سلام" [أربيل شارون]، ولما كذب على الناس وقال إننا نكره الحرية ونقتل لمجرد القتل.

### الهامش:

<sup>(٢)</sup> يتلاعب بن لادن بالألفاظ هنا، حيث يستعمل تعبير "عملية الاستسلام" بدلاً من "عملية السلام". وكلمة "استسلام" مشتقة من جذر كلمة "سلام" نفسها.

إن مثل هذه الهوامش، إضافة إلى الآراء والأوصاف المبينة في المقدمة العامة للكتاب وكذا المقدمات الفرعية للترجمات المفردة، تعمل مجتمعة على تصوير أسامة بن لادن على أنه يتمتع بالرشد ورجاحة العقل، وإن كان المحرر يقول بوشوح إن هذا ليس معناه أنه يوافق على أساليب بن لادن في التعبير عن المواقف التي وقعت عليه. إن الفكرة التي يبرزها المحرر، والتي تدعمها اختيارات الترجمة بشكل غير مباشر، هي أنه يمكن أن تكون هناك سرديّة شديدة الاختلاف ولها نمط مختلف أيضاً من الصياغة السببية للحبكة، تستطيع أن تفسر لنا أمراض عالمنا الحاضر. فبدلاً من تفسير ما يسمى بالحرب على الإرهاب على أنها رد فعل ضروري للفظائع التي يرتكبها شد الغرب البريء، متطرفون مخبولون من العالم الإسلامي فإن هناك سرديّة جديدة لبن لادن تقول أن الغرب ليس بريئاً وأن ما يسمى بحربه على الإرهاب وما شابه ذلك من اللفظائح مسؤولة عن التعريف الرهيب و"العاقل" أيضاً الذي نشهده الآن. وتقاوم هذه السردية كل الجهود لتجريد العنف من كل تاريخيته عن طريق تصوير أشخاص مثل أسامة بن لادن على أنهم مجرد متطرفين مشوشين الذهن.

## التأطير داخل الترجمة: مثال موسع

فُرض فيلم تسجيلي عربي بعنوان "جنين جنين" من إخراج محمد بكرى عام ٢٠٠٢، عقب الهجوم الإسرائيلي على مخيم جنين في الضفة الغربية المحتلة. وقد أخذت مشاهد هذا الفيلم بمخيم جنين باللغة العربية، وإن كان واضحاً أنه موجه إلى جمهور دولي، فقد ترجم إلى الإنجليزية والعربية والفرنسية والأسبانية والإيطالية (محمد بكرى: حوار شخصي). ويبدو أن النسخة المترجمة بالإنجليزية موجهة أساساً إلى جمهور أمريكي، كما سنرى لاحقاً. وتظهر لنا الأمثلة التالية من هذا الفيلم التسجيلي محاولتين للتأطير (أو إعادة التأطير) في رد فعل إزاء سرديات أكبر يتم تداولها على مستوى يتجاوز النص المباشر، ولا يمكن تفسير هاتين المحاولتين بالجهود إلى نظرية المعايير السائدة أو إلى ثنائية التفریب والتقريب التي اقترحتها فينوتي. وقد ناقشت كلاً من المثاليين من زوايا مختلفة في موضع آخر (Baker ٢٠٠٦: ٩٩ - ١٠٠، ٦٤-٦٦).

## إطار فينتام

ينشط المثال الأول للتأطير (أو إعادة التأطير) إطاراً سردياً يبدو أنه قد اعتبر أكثر فعالية في سياق اللغة المترجم إليها. ففي مشهد من مشاهد الفيلم التسجيلي، نرى فلسطينياً مسلحاً يعرب عن صدمته إزاء ما حدث في جنين وإزاء لا مبالاة العالم وتخاذله عن التدخل لحماية الفلسطينيين. وينتهي الرجل المشهد بقوله:

"أنا عارف والله العظيم، والله العظيم، بيتنا ما صار بيت".

أما الترجمة الإنجليزية للمصاحبة على الشاشة فكانت كالتالي:

What can I say? Not even Vietnam was as bad as this.

(حرفياً: "ماذا أقول؟ حتى فينتام لم تكن بهذا السوء.")



شكل ٤: مشهد من "جنين جنين"

إن اختيار التعبير عن الدمار الذي حاق ببيوت الفلسطينيين بالإشارة إلى فينتام بدلاً من الإشارة الأصلية يمكن أن يفسر تقليدياً في دراسات الترجمة بأنه محاولة لـ إعادة تأطير الصراع في الترجمة

"تكيف النص الأصلي ثقافياً" acculturate، أي جعله أقرب فهماً إلى الجمهور المترجم إليه (وهو في حالتنا هذه جمهور أمريكي في الغالب). لكن هذا ليس بالتفسير المفيد أو المقنع. فلو كان هذا هو الدافع الرئيسي في حالتنا، لكان من الأوقع الإشارة إلى حدث أقرب وبالتالي أوضح في ذهن للشاهدين مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ويمكن القول بأن فينتام على أية حال ليس لها ما لأحداث سبتمبر من صدى في ذهن الجمهور الأمريكي من الشباب، وبالتالي فإن اللجوء إلى تذكير الجمهور بأحداث سبتمبر كان سيضمن التعاطف والمشاركة الوجدانية من قطاع أكبر من الشاهدين الأمريكيين بشكل يلوغ حرب فينتام. ولكي نفهم الدافع وراء هذا الاختيار الترجمي وما يتضمنه من معان، يلزم علينا أن نرجع إلى السرديات الأكبر المتداولة في ذلك الوقت، في فلسطين وعلى المستوى الدولي.

أولاً، كانت السردية المباشرة لما حدث في مخيم جنين وفي غيره من مناطق فلسطين المحتلة في أبريل ٢٠٠٢ محل ارتياح شديد ومازالت موضع مساءلة، وذلك ينطبق علي كافة عناصر هذه السردية، بما في ذلك سبب غزو قوات الدفاع (كندا) الإسرائيلية للمخيمات وحتى عدد المنازل التي هدمتها القوات وعدد الأشخاص الذين قتلهم، إلى غير ذلك. ومن بين مواقف الخلاف الخطابية في ذلك الوقت ما شاع في وسائل الإعلام الناطقة بالإنجليزية من وصف ما حدث في جنين بأنه "توغل". لقد أكد نشطاء حركة التضامن أن وصف "توغل" هو وصف مهذب جداً بالنسبة لهذا الاعتداء الكامل والمستمر الذي ترك الخيم أنقاضاً وخلف كثيراً من القتلى. إن الإشارة إلى فينتام في الترجمة المذكورة توثر الحدث بوصفه حرباً عدوانية لا مجرد غارة محدودة كما يوصي وصف "توغل". إن حرب فينتام بكل تأكيد لم تكن "توغلاً": فال معروف أنها كانت حرباً آتمة ودائمة، وهذا معروف بين قطاعات واسعة من الشعب الأمريكي كما هو معروف على مستوى العالم.

ثانياً، تقول إحدى السرديات التي ما تزال متداولة بشكل واسع بين الفلسطينيين وأيضاً وسط حركة التضامن الدولية المؤيدة لحقوق الفلسطينيين إن أمريكا مسئولة عن الظلم الإسرائيلي قدر مسئولية إسرائيل نفسها — إذ لم يكن بإمكان إسرائيل أن تفعل ما فعلته من ظلم للفلسطينيين دون أن تلقى جزاءً صنيحاً لولا التأييد الكبير الذي تلقاه من الولايات المتحدة. إن اختيار فينتام في هذا السياق ينشط هذه السردية الشائعة. إن اختيار تفعيل سردية فينتام — بعيداً عن كونه اختصاراً تعريضاً أو تقريباً — يستدعي استحضار قوي الهميئة ومقاومتها في الوقت نفسه. فهو يستدعي مقارنة قوي الهميئة عن طريق اختيار إشارة لها صدى لدى الجمهور الأمريكي السائد (وهي الإشارة إلى فينتام) وليس مجرد إشارة يمكن أن تعبر بالقدر نفسه عن أفعال العدوان الظالمة والدائمة وإن كانت بلا صدى لدى ذلك الجمهور السائد: مثل كشمير أو حتى دارفور. وهذا الخيار يستدعي أيضاً المقاومة عن طريق تأطير أمريكا بوصفها معتدية

والإشارة في الوقت نفسه إلى أن الجمهور الأمريكي شريك في هذه المظالم التي ترتكبها حكومته - وأن هذا الجمهور يستطيع أن يرفض تلك المظالم، كما رفضها في حالة حرب فيتنام<sup>(١)</sup>.

### الإطار العلماني

هناك محاولة أخرى مثيرة للاهتمام لإعادة تأطير المردية الفلسطينية الأكبر عن طريق إعادة صياغة جوانب من حديث العديد من الفلسطينيين الذين أجريت معهم اللقاءات في هذا الفيلم التسجيلي، وهي المحاولة المتعلقة بالتعامل مع كلمة "شهيد"، التي تتكرر كثيراً في هذا الفيلم. إن المقابل المعتاد لهذه الكلمة في اللغة الإنجليزية هو كلمة martyr، لكن هذه الكلمة إشكالية لسببين. أولاً، تستخدم كلمة "شهيد" بمفهوم عامة في اللغة العربية للإشارة إلى أي شخص يقتل بطريق العنف، خاصة في الحرب، سواء كان قد اختار أن يشارك في الحرب أم لا، وبغض النظر عن الدين الذي يعتنقه. ولذلك فإن كلمة "شهيد" ليس لها إيجابيات المعاني الخاصة بالقتال والتضحية التي اكتسبتها كلمة martyr في الإنجليزية فيما يختص بالعالم العربي والإسلامي<sup>(٢)</sup>. ثانياً، تشير كلمة martyr على الفور إيجابيات الارتباط بالأسولية الإسلامية في سياق من هذا النوع، وإذا ما استخدمت بشكل متكرر فإنها ستأتي في مصلحة من يريدون أن يصوروا الصراع في الشرق الأوسط على أنه حرب دينية، يوجب نازها مسلمون مشوشو الذهن يسمعون إلى حور الجنة. لذا فقد كانت الترجمة تأتي بكلمات أخرى مكافئة لكلمة martyr كلما وردت كلمة "شهيد" على لسان الفلسطينيين الذين يتحدثون في الفيلم التسجيلي، كما توضح ذلك الأمثلة التالية (انظر بهكر ٢٠٠٦: ٦٤-٦٦ لمزيد من الأمثلة):

#### مثال ١

"لسه بندور شهدا من تحت الأرض"

الترجمة الإنجليزية:

We are still pulling victims out of the rubble.

الترجمة العكسية:

ما زلنا نستخرج الضحايا من بين الأنقاض.

#### مثال ٢

"متخلفين عقلياً استشهدوا عندنا، معاقين استشهدوا عندنا، أطفال استشهدوا عندنا، نساء استشهدوا عندنا".

الترجمة الإنجليزية:

They killed some mentally disabled people, children and women in the camp.

الترجمة العكسية:

لقد قتلوا بعض المعاقين ذهنياً، وبعض الأطفال والنساء في المخيم.

إن اختيار ألفاظ مكافئة مثل "ضحايا" و"قتلوا" في الأمثلة السابقة (و "جثث" و "موتى" في أمثلة أخرى) بدلاً من كلمة المقابل التقليدي لكلمة "شهيد" يساعد على تأطير السردية الفلسطينية والعربية الأوسع في صورة أكثر علمانية.

على أن هناك استثناءين لهذا الاختيار في الفيلم التسجيلي بأكمله. الاستثناء الأول يأتي قرب نهاية مشهد يصور طفلة فلسطينية في حوالي السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تمير طفلة الفيلم عن التحدي والإصرار على البقاء. وتشبه هذه الطفلة مخيم جنين بـ "شجرة طويلة .. طويلة شامخة"، عبارة عن أوراق، كل ورقة منها "مكتوب فيها اسم شهيد .. اسم مقاوم". وتحتفظ الترجمة بهذه الصورة المجازية وبالترجمة التباسية لكلمة "شهيد" في هذه الحالة، ربما لأن الطفلة ذات الظهر البريء، وأن بدت متحدية، يصعب أن تكون مثلاً للمتطرف مشوش الذهن الذي يسعى لأن يموت كي يدخل الجنة:

The camp is like a tall, eminent tree. The tree has leaves, and each leaf of the tree bears the name of a martyr.

الترجمة العكسية:

المخيم مثل شجرة عالية باسقة. والشجرة لها أوراق، وكل ورقة من أوراق الشجرة تحمل اسم شهيد.<sup>(17)</sup>

أما الحالة الثانية التي استخدمت فيها الترجمة الإنجليزية كلمة martyr (شهيد) فتأتي في أسماء المشاركين في نهاية الفيلم، وهي بالتالي ليست "ترجمة" لحوار في الفيلم. يبدأ الفيلم بهذا الإهداء:

إهداء إلى

المنتج المنفذ لفيلم "جنين"

إياد سمودي

الذي قتل في اليامون

بعد نهاية تصوير الفيلم

على يد الجنود الإسرائيليين

في ٢٣/٦/٢٠٠٣

محمد بكري

وتتضمن أسماء المشاركين في نهاية الفيلم النص التالي:

### الملحق الشهيد إيهاد سعودي

نخلص مما سبق إلى أن النظرية السردية تتيح لنا أن نفهم الاستراتيجيات التي تبذل متصادمة، مثل اختيار كلمات مكافئة لترجمياً لكلمة "شاهد" في مواقع مختلفة من الفيلم التسجيلي "جنين جنين"، إضافة إلى كلمات أخرى (مثل اختيار "فيتنام" الذي أشرنا إليه) هي تفريرية وتقريبية في الوقت نفسه. وعلى نفق المفاهم الجاسدة التي تتفاعل عن الإعتبارات المتعلقة بالسلطة، مثل "المعايير"، تقرر النظرية السردية بأن الهيمنة والمقاومة لا يشكلان سلوكنا واختياراتنا الخطابية فحسب، بل أنهما دائماً في علاقة توتر. وغالباً ما يأخذ هذا التوتر شكلاً خطابياً discursive في نهاية الأمر، ويمكن أن ينتج عن التفاعل بين الهيمنة والمقاومة طائفة من الاختيارات يصعب تبسيطها. وبدلاً من تجاهل الاختيارات التي لا تناسب النمط للذكر، فإن الإقرار بهذا التفاعل بين الهيمنة والمقاومة يتيح لنا تفسير المشهد المعقد الذي يضم داخله الواقع الثنائي التي يتخذها المترجمون، كما يشمن لنا هذا الإقرار القدرة على رؤية المترجمين باعتبارهم طرفاً في الواقع السياسي المعوس.

#### الهوامش :

(٥٠) في الأصل translators and interpreters (حرفياً: "المترجمون التحريريون والمترجمون الفوريون")، إلا أن كلمة "ترجمة" (وكذا كلمة "مترجم") في اللغة العربية أوسع مدلولاً من كلمة translation الإنجليزية، إذ تشمل "الترجمة" أنواعاً مختلفة مثل "الترجمة التحريرية" و"الترجمة الفورية" (أو "الترجمة الشفهية" بأنواعها) و "ترجمة الأفلام والأعمال الرئية"، وذلك على عكس كلمة translation التي تستخدم بصفة عامة للإشارة إلى الترجمة التحريرية فقط، ولا تدل على الترجمة الفورية interpreting أو ترجمة الأفلام والأعمال الرئية subtitling. وعليه فقد استخدمت كلمة "ترجمة" للدلالة على هذه الأنواع جميعها ما لم تكن التفرقة بين نوعين أو أكثر ذات أهمية خاصة بالنسبة للمقال الذي ترد فيه (المترجم).

(١) النظر بـ Baker (٢٠٠٥، ٢٠٠٦ ب).

(٥٥) أفدت من القابلات العربية للمصطلحات الخاصة بالسردية والتي استخدمها حازم عزمي في ترجمته لمقال "ترجمة السرديات /سرديات الترجمة: هل حقا الترجمة جسر بين الشعوب والثقافات؟" (فصول ٦٦ (٣) ٢٠٠٥)، وهو يستوجب الشكر بوضوح صاحب السبق في هذا، وأحيل القارئ إلى المقال المشار إليه لتكوين صورة أشمل عن النظرية السردية وتطبيقها على الترجمة. كما أتوجه بالفكر لصاحبة المقال مني بيكر ولمحور الملحق صاحب فكري اللذين ساعدت ملاحظتهما في إخراج الترجمة بهذه الصورة (المترجم).

(٢) لا يقتصر مفهوم التأطير بهذا المعنى على الحركية رغم ذلك، وإن اعتمد ذلك بالطبع على كيفية تعريف المرء للحركية. وقد استلقت بعض الأمثلة التي سأناقشها لاحقاً من مصادر اعتبرها أنا شخصياً أكثر شراً من أن توصف بأنها "حركية". ومن بينها جماعات دعائية مثل "ميمري" MEMRI التي أخذت على عاتقها شيطنة المجتمعات العربية والإسلامية والعمل على تأليب الغرب على بقية العالم.

(٣) من بين الاختيارات الشابهة في السياق الصيني أيضاً الاختيار بين تعبير "مذبة تيانانمن" و"حادثة تيانانمن" أو "احتجاجات تيانانمن". مصدر هذه الأمثلة د. كين لين Dr. Kevin Lin، كبير المترجمين اللويزين بوزارة الخارجية في بريطانيا.

(٤) في عام ١٩٥٦ تعرضت مصر لهجوم من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وذلك بعد قرار مصر تأميم قناة السويس التي تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر وخليج السويس.

(٥) في الإنظار الذي اقترحه توري Toury (١٩٨٠، ١٩٩٥)، فإن المعيار المهني الذي يحكم أي ترجمة هو الاختيار بين الكفاية adequacy والقبول acceptability، فالترجمة إما أن تلتزم بمعايير النص الأصلي أو اللغة أو الثقافة الأصلية (وتكون في هذه الحالة ترجمة كافية)، أو أن تلتزم بالمعايير السائدة في اللغة والثقافة المترجم إليها (وتكون في هذه الحالة ترجمة مقبولة). ويقر الالتزام بالمعايير السائدة في الأصل كفاية المترجم لهما يختص بالنص الأصلي، أما الالتزام بالمعايير الناشئة في الثقافة المترجم إليها فيقرر قبول الترجمة داخل تلك الثقافة.

(٦) انظر موقعها على الإنترنت [www.memri.org](http://www.memri.org). وانظر أيضاً بيكر Baker (٢٠٠٦: ٧٣ - ٧٦، ١٠٨ - ١٠٩) لناقشة تفصيلية لمنظمة "ميمري" وأنشطتها في مجال الترجمة.

(٧) انظر موقعها على الإنترنت [www.watchingamerica.org](http://www.watchingamerica.org).

(٨) <http://www.watchingamerica.com/alhayat/aljadeeda000003.shtml>

(٩) <http://www.alhyat-j.com/details.phpopt=1&id=22102&cid=394>

(١٠) لبعض التحليلات المهمة لأغلفة الترجمات المنشورة وكلمات الناشرين، انظر واتس Watts (٢٠٠٠)، وهارفي Harvey (٢٠٠٣ ب)، وآسيماكولاس Asimakoulas (٢٠٠٥).

(١١) تسمي متي بيكر هنا إلى هدم ثنائية التقريب والتغريب domestication/foreignization التي أرساها لورنس فينوتي في كتابه الشهير *غناء الترجمة*. ففي هذه الثنائية يربط فينوتي بشكل آلي بين استراتيجية التغريب وسمي المترجم لمناوئة، بل مناعلة القيم اللغوية والجمالية والإجتماع-ثقافية السائدة في اللغة المترجم إليها. كذلك يربط فينوتي أيضاً بين استراتيجية التقريب وميل المترجم إلى مسايرة القيم السائدة في اللغة المترجم إليها. تدلنا الكثير من حالات الترجمة على ما في هذه الثنائية من تصف واختزال للتقليد الشديد الذي يسم خيارات المترجمين الذين يلجأ بعضهم - كما الحال في ترجمة فيلم جنين جنين - إلى التقريب ولكن ليس بهدف الإنشال لجهاز التفكير السائد في الثقافة المترجم إليها وإنما بهدف مساواته، ومقاومته (المحرر).

(١٢) لكلمة martyr بالطبع إحياءات مختلفة تماماً في سياقات أخرى، مثل استخدامها في خطاب الديانة المسيحية.

(١٣) يلاحظ أن الترجمة مع هذا خلفت من الصورة عن طريق حذف كلمة "مقاوم".

## المراجع:

Asimakoulas, Dimitris (2005) 'Brecht in Dark Times: Translations of His Works Under the Greek Junta (1967-1974)', Target 17(1): 93-110.



- Baker, Mona (2005) 'Narratives in and of Translation', *SKASE Journal of Translation and Interpretation* 1(1): 4-13. Online: [www.skase.sk](http://www.skase.sk).
- Baker, Mona (2006a) *Translation and Conflict: A Narrative Account*, London & New York: Routledge.
- Baker, Mona (2006b) 'Translation and Activism: Emerging Patterns of Narrative Community', *The Massachusetts Review* XLVII(3): 462-484.
- Cunningham, David and Barb Browning (2004) 'The Emergence of Worthy Targets: Official Frames and Deviance Narratives Within the FBI', *Sociological Forum* 19(3): 347-369.
- Fisher, Walter R. (1987/1989) *Human Communication as Narration: Toward a Philosophy of Reason, Value, and Action*, Columbia, South Carolina: University of South Carolina Press.
- Glass, Charles (2006) 'Cyber-Jihad', *London Review of Books* 28(5): 14-18.
- Goddard, Barbara (1990) 'Theorizing Feminist Discourse/Translation', in Susan Bassnett & André Lefevere (eds) *Translation, History and Culture*, London & New York: Pinter Publishers, 87-96.
- Goffman, Erving (1974/1986) *Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience*, Boston: Northeastern University Press.
- Hall, John R., Mary Jo Neitz and Marshall Balfanz (2003) *Sociology on Culture*, London & New York: Routledge.
- Harvey, Keith (1998) 'Translating Camp Talk. Gay Identities and Cultural Transfer', *The Translator* 4(2): 295-320.
- Harvey, Keith (2003a) *Intercultural Movements. American Gay in French Translation*, Manchester: St. Jerome.
- Harvey, Keith (2003b) 'Events' and 'Horizons': Reading Ideology in the 'Bindings' of Translations', in María Calzada Pérez (ed) *Apropos of Ideology – Translation Studies on Ideology – Ideologies in Translation Studies*, Manchester: St. Jerome Publishing, 43-69.
- Huntington, Samuel (1993) 'The Clash of Civilizations', *Foreign Affairs* 72(3): 22-49.
- Huntington, Samuel (1996) *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*, New York: Touchstone.
- Katan, David (1999, 2004) *Translating Cultures*, Manchester: St. Jerome Publishing (2nd edition).
- Keenaghan, Eric (1998) 'Jack Spicer's Pricks and Cocksuckers. Translating Gay Desire into Visibility', *The Translator* 4(2): 273-294.
- Lawrence, Bruce (ed) and James Howarth (trans.) (2005) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, London & New York: Verso.
- Simon, Sherry (1996) *Gender in Translation*, London & New York: Routledge.

- Somers, Margaret (1992) 'Narrativity, Narrative Identity, and Social Action: Rethinking English Working-Class Formation', *Social Science History* 16(4): 591-630.
- Somers, Margaret (1994) 'The Narrative Construction of Identity: A Relational and Network Approach', *Theory and Society* 23(5): 605-49.
- Somers, Margaret (1997) 'Deconstructing and Reconstructing Class Formation Theory: Narrativity, Relational Analysis, and Social Theory', in John R. Hall (ed) *Reworking Class*, Ithaca & London: Cornell University Press, 73-105.
- Somers, Margaret R. and Gloria D. Gibson (1994) 'Reclaiming the Epistemological "Other": Narrative and the Social Constitution of Identity', in Craig Calhoun (ed) *Social Theory and the Politics of Identity*, Oxford UK & Cambridge USA: Blackwell, 37-89.
- Tannen, Deborah and Cynthia Wallat (1993) 'Interactive Frames and Knowledge Schemas in Interaction: Examples from a Medical Examination/Interview', in Deborah Tannen (ed) *Framing in Discourse*, New York: Oxford University Press, 57-76.
- Toury, Gideon (1980) *In Search of a Theory of Translation*, Tel Aviv: Porter Institute.
- Toury, Gideon (1995) *Descriptive Translation Studies and Beyond*, Amsterdam: John Benjamins.
- Venuti, Lawrence (1993) 'Translation as Cultural Politics: Regimes of Domestication in English', *Textual Practice* 7: 208-23.
- Venuti, Lawrence (1995) *The Translator's Invisibility*, London & New York: Routledge.
- Venuti, Lawrence (1998) 'Introduction', *Translation and Minority*, Special issue of *The Translator* 4(2): 135-144.
- von Flotow, Luise (1997) *Translation and Gender. Translating in the 'Era of Feminism'*, Manchester: St. Jerome Publishing.
- Watts, Richard (2000) 'Translating Culture: Reading the Paratexts of Aimé Césaire's *Cahier d'un retour au pays natal*', *TTR* XIII(2): 29-46.
- Whitebrook, Maureen (2001) *Identity, Narrative and Politics*, London & New York: Routledge.
- منتجنتون، صموئيل (١٩٩٨) *صدام الحفارات وإعادة صنع النظام العالمي*. ترجمة طلعت الشايب، القاهرة: مطور.
- منتجنتون، صموئيل (١٩٩٩) *صدام الحفارات وإعادة بناء النظام العالمي*. ترجمة مالك عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف، بني غازي: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

# نسوية الصراع

رفاعة رافع الطهطاوي وترجمة الآخر

في مصر الفرق التاسع عشر



ميريام سلامة - كار / ت: حسام نايل

تحلل هذه الورقة دور المترجم في تمثيل الآخر وبناء الهوية النسوية من خلال تناول عمل من أعمال رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣)، وهو مترجم مصري وكاتب مقالات ومُعلِّم، عاش في القرن التاسع عشر الهلالي. فكتابه تخلص الإبريز في تلخيص باريز The Extraction of Gold in the Summarizing of Paris ينطوي على أمثلة وافرة بخموس عمليات الترجمة والتمثيل، وهي عمليات ذات طبيعة بنائية، تسعى إلى إضفاء الألفة والشرعية على "الآخر"، من خلال إنشاء علاقات توازن متطابقة ومجموعة من القيم والخبرات المشتركة. لقد قام الطهطاوي بمعد نوع من المصالحة بين خطاب الحداثة والتراث المتعارضين، على نحو يمكن معه القول بأن قضايا التمثيل التي يثيرها في عمله على صلة دقيقة باهتمامات معاصرة في حقل الجغرافيا السياسية the geo-political.

الكلمات المفتاحية: "الثقافة البيئية"، "الآخرية"، النهضة العربية، بناء القومية.

## مقدمة:

يعمل البحث الحديث في دراسات الترجمة إلى مساهمة موقع المترجم "بين" ثقافتين، وما يرتبط به هذا الموقع من استعارة المسافة "البيئية" التي يحتلها المترجمون، فيما يقال أحياناً. وعلى سبيل المثال، تفكك deconstructs ماريا تيموزكو Maria Tymoczko (٢٠٠٣) ما تنطوي عليه "عملية الترجمة" من علاقة لغوية ومجازية بالمسافة البيئية، فتصل إلى نتيجة مؤداها أن "أندولوجيا الترجمة ثمرة موقف المترجم في حقيقة الأمر، بل وإن هذا الموقف ليس مسافة بيئية" (٢٠٠٣، ٢٠١). أما منى بيكر Mona Baker (٢٠٠٥) فتفرض

وجود مسافة محايدة في "البينية"، مؤكدةً على حتمية التورط السياسي<sup>(١)</sup>. ومهما يكن من آراء، فإن "منطقة الترجمة" Translation Zone - لو استعرنا عنوان مجموعة مقالات إميلي أبتر Emily Apter (أبتر ٢٠٠٦) - أقرب، على الأرجح، إلى كونها موقع صراع أيديولوجي بين تفسيرات متنافسة منها إلى المسافة المحايدة، ولذا ف هي "... منطقة حربية، محكومة بقوانين العداة والشفافة، محكومة بتحويلات الدلالة والتفاوض بين الدلالات" (أبتر ٢٠٠٦، ٩). كما يمكن القول إن تاريخ الترجمة يقدم أمثلة عديدة على مدى التدخل الذي يتورط فيه المترجمون ودورهم في تعزيز البرامج السياسية والقومية، سواء بشكل صريح أو ضمنى. ولو فرشنا أن نقطة البداية هي وساطة المترجم من حيث قيامه بتعليل الآخر في برنامج بناء القومية، فسوف تنهض هذه الورقة بإعادة مراجعة وصف الطهطاوي رحلته إلى فرنسا في كتابه تخلص الإبريز في تلخيص باريز، وهو كتاب يمكن عدّه نموذجاً على ممارسة عمليتي الترجمة والتعليل، ممارسة تسعى إلى رسم معالم الهوية القومية. ولذا، سوف أسلط الضوء على الكيفيات التي يُضفي بها الطهطاوي الألفة والشرعية على "الآخر" عبر عمليات من "التماهي" تهدف إلى بناء هوية قومية تؤسس نفسها بعقيدة مشتركة لها تاريخ ونسق. كما ستناقش الورقة أيضاً فكرة أن حضور الطهطاوي حضوراً أيقونياً في دراسات النهضة العربية - من حيث كونه موقفاً بين خطابين الحداثة والتراث المعارضين - يتخذ مغزى جديداً حين يتم تفسيره على أساس الخلفية الراهنة التي تحكم "صدام الحضارات" التخليل، ومسارات المدح العميق بين النزعة الدنيوية والإحياء الديني بكل أشكاله.

### الترجمة والنهضة العربية:

لقد ولّقت أعمال عربية، لها اعتبارها، دور الترجمة في بناء مصر الحديثة، وهي أعمال تتناول النهضة أو عصر النهضة العربية في القرن التاسع عشر، وعلى الأخص ما يتعلق منها بعمليات نقل المعرفة واستحداث الأنواع الأدبية، بل وأيضاً عند مناقشة الدور المهم الذي تقوم به اللغة في صياغة النزعة القومية العربية والإقليمية (انظر على سبيل المثال، حوراني Hourani ١٩٨٣، سليمان Suleiman ٢٠٠٣). وتوفر الدراسات القائمة مصدراً مهماً من مصادر المعلومات وجهات النظر النقدية، غير أنها دراسات تتوضع في سياقات معرفية لا تتقاطع مع دراسات الترجمة بوجه عام. وفي الغالب، لا يوجد شك حول الدور التكويني الذي تقوم به الترجمة من حيث أثرها على الثقافة المنقول إليها وعلى الطرق التي يتم بها توظيف الثقافة المنقول عنها وتمثيلها. ويصدق ذلك، بصفة خاصة، على الإنتاج غير الأدبي؛ فبالخلاف بشأنه أقل. كما أن المادة التجريبية المتوفرة بخصوص ترجمة القرن التاسع عشر تتعرض لتجاهل شديد؛ فلا يتم التعويل عليها في الخطاب المعاصر عن دراسات الترجمة، وأقصد بهذه المادة النصوص الموازية التي كتبها المترجمون، والتعليقات التي قام بها "الملاحظون" و"المستفيدون" من هذه الترجمات، وهي تعليقات تمثل استكمالات مهمة لهذه الترجمات. وما من أحد ينكر أن دراسات الترجمة، بنزعتها السائدة حالياً، لا تُعَوَّل

على التراث العربي، وفي المقابل تحتل السادة العربية مركزاً الصدارة في سياقات أيديولوجية/إصراعية صريحة، يوصف بمقتضاها كل ما هو عربي في معظم الخطاب العربي بـ"الآخرية". ولعل عدم التعويل على التراث العربي راجع إلى تعذر الحصول على المصادر و"غياب" اللغة العربية، و هي لغة هذه المصادر، فيما بين الباحثين. أما فيما يتعلق بوصف كل ما هو عربي بـ"الآخرية" فقد نوقشت هذه القضية باستفاضة في الانتقادات الموجهة إلى خطاب الاستشراق، وتثيرها حالياً خطابات وسرديات استقطابية.

ثمة تأكيد واسع على الدور الممهد الذي قام به الطهبواوي في النهضة المصرية والعربية، بوصفه مترجم نصوص فرنسية علمية وتشريعية، ومصلحاً، بحكم أنه أول من مهد السبيل أمام الشخصية الوطنية في السياق المصري. وقد ظهرت مؤخرًا طبعات النص العربي لكتاب التخليص في بيروت ١٩٧٣م وفي القاهرة ١٩٧٥م، ولعله من اللافت أن تحظى الترجمات عن هذه الطبعات بعناية كبيرة من الباحثين، وقد أشار إلى ذلك المترجمون: أنور لوقا في ترجمته الفرنسية (و هي الترجمة التي خطط لها عام ١٩٥٠م وطبعت عام ١٩٨٨م) وكذلك دانييل نيومان Daniel Newman في ترجمته الإنجليزية الحديثة (نيومان ٢٠٠٤). أما الترجمة الألمانية ف هي عبارة عن جزء من أطروحة بحثية نوقشت عام ١٩٦٨م.

ولابد من ملاحظة أن الدور المنعقد للترجمة- في حقل دراسات الترجمة- يتشكل، في الغالب، استناداً إلى اعتبارات استعمارية وما بعد استعمارية، كما أن النظرة إلى "الآخر" محددة- في المقام الأول- بأنه مستعمرة يبنها المستعمرون، حيث تتولى (الفرصة) والثقافة) ذات المهيمنة مهمة ترويض الأجنبي. وتقدم حالة مصر في القرن التاسع عشر- بوصفها مكان التمدد الأوربي والصراع المقلع بين القوى الإمبريالية (فرنسا وبريطانيا)- انعكاساً مرئياً لـ"الآخر". لقد تم استغلال هيمنة القوة واللغة، كما لعبت استراتيجيات "التدجين" التي أشاعها المترجمون دورها في بناء القومية وإحياء اللغة، وهو دور يتصادى مع حركة الترجمة إلى العربية في القرنين التاسع والعاشر ويختلف عنها، ولعلها مقارنة يولبها مؤرخو الترجمة اهتماماً في بحثهم عن النماذج.

يمثل عام ١٧٩٨م، حين شرع نابليون في القيام بحملته على مصر، نقطة تحول تاريخي متميزة بالنسبة إلى مصر<sup>(١)</sup>. وبالطريقة نفسها، يبدل عام ١٨٢٦م- حين قام الطهبواوي برحلته إلى فرنسا وبدأ في كتابة تخليص الإبريز في تخليص باريز- على بداية النهضة ونشاط الترجمة المهم الذي يميز النهضة العربية.

شهدت مصر القرن التاسع عشر نزوة صعودها بوصفها دولة قومية حديثة، بعد استقلالها عن الامبراطورية العثمانية. إذ سعى الحاكم الجديد- محمد علي والي مصر الذي حكمها من ١٨٠٥م حتى ١٨٤٨م- إلى تحديث البلاد واقتناحها على أوروبا من خلال برنامج قوى في التصنيع والتعليم. وقد تضمن الجانب الثاني من هذا البرنامج إرسال "بعثات" من الشباب إلى أوروبا حتى يتعلموا اللغات ويكتسبوا معرفة العلوم "الأجنبية". وشارك الطهبواوي في إحدى البعثات المبكرة إلى فرنسا، وهو الشيخ الذي درس العلوم الدينية وحصل شهادة

جامعة الأزهر ذات الكثافة المرموقة. وبعد عودته إلى مصر، أنشأ أول معهد لإعداد المترجمين في مصر، وهو دار الألسن، وقد أنشئ على غرار مدرسة اللغات الشرقية Ecole des Langues Orientales في باريس، ثم أشرف بنفسه على ترجمة عدد من النصوص في مجالات العلم النظري والتطبيقي والتاريخ والجغرافيا والتكنولوجيا، كما التقى - بغرض الترجمة - نصوصاً أخرى، تقنية، تعالج الشؤون القانونية والعسكرية.

### الشخصية الشاعر على النهضة:

لقد عُدَّ الطهطاوي رمزاً على النهضة (حوراني ١٩٨٣م). ومع ذلك، يظل الطهطاوي صوتاً غير مسموع في تاريخ الترجمة. والسبب الأول في ذلك، كما ذكرت سابقاً، عدم الاعتناء بالترجمات العربية في الكثير من الأعمال التاريخية التي هي موضع اهتمام دراسات الترجمة. ويوجد سبب آخر يفسر، أيضاً، عدم الاهتمام الذي تلقاه الترجمة بوجه عام، من حيث هي نشاط فكري وأيدولوجي، وهو أن كتابات الطهطاوي - وقد منحه التخليص سمعة وتقديراً - غطت على نشاطه وإنجازاته الوفير في الترجمة.

يذهب لويس عوض (١٩٨٦م، ٣١) إلى أن الطهطاوي "أبو الديمقراطية المصرية، وأبو القومية المصرية وأبو النزعة الدينية أو الإنسانية المصرية"، في حين يشير ألبرت حوراني (١٩٨٣م، ٥٤) إليه بوصفه "أول مفكر سياسي كبير في مصر الحديثة". أما أنور لوقا، مترجم كتاب التخليص إلى الفرنسية، فيرى الطهطاوي رمزاً على النهضة العربية (لوقا ١٩٨٨م، ١١). وكما أوضحت سابقاً، فإن التركيز على ما قام به الطهطاوي من دور سياسي وثقافي يفسر قلة الاهتمام بنشاطه في الترجمة، مع أن تأثير الطهطاوي على الفكر السياسي والتعليمي تزايد بفضل نشاطه في الترجمة.

### تخليص الإبريز في تلخيص باريز:

في التوطئة إلى التخليص، يصوغ المؤلف الغرض من الرحلة في إطار أهداف البعثة الدراسية، ثم يحدد بإيجاز بنية الكتاب الإجمالية. وفي المقدمة، يصف الطهطاوي حدود العالم الجغرافية. وتضطره التقاليد الزمنية في ذلك الزمن أن تتطوى الكتابة على عدد من الإشارات الدينية والإشادة بفضل الوالي راعي البعثة. ويشتمل هذا الجزء، أيضاً، على أفكار عامة حول ضرورة طلب العلم والتنوير، وهي ثيمة سائدة تتكرر على طول الكتاب، ثم يقدم الطهطاوي تصنيفاً للعلوم. وتنقسم المقالات الست التي يتألف منها الكتاب إلى أقسام أصغر (فصول). المقالتان الأولى والثانية تدونان بالتفصيل أحداث وصول البعثة إلى الإسكندرية من القاهرة، ثم الإبحار والنزول من السفينة في فرسيفيا مع وصف ميناء المدينة وعرض تاريخه، ثم وصف الرحلة البرية من الميناء إلى مدينة باريس. وتتناول المقالة الثالثة وصف معالم باريس وسكانها، وطريقة إدارة الدولة الفرنسية، وهو وصف يكشف عن مهاراته المؤلف في الترجمة. وتعطينا المقالة الرابعة تفاصيل عن أعمال البعثة الدراسية وحياة المؤلف في باريس، كما

تنطوي على مقتطفات من مراسلاته مع عدد من الباحثين الفرنسيين، ومنهم المستشرق اللامع سلفستر دو ساسي. أما المقالة الخامسة فتهتم اعتماداً خاصاً بعرض التصويرات التي يمكن الإفادة منها في برنامج بناء القومية المصرية؛ إذ تقدم تقريراً عن ثورة ١٨٣٠م ضد الملك شارل العاشر ملك فرنسا. وتماشياً مع التقاليد العربية في الكتابة التاريخية، تعرض المقالة الأخيرة قائمة بأسماء العلوم والفنون، فتتقارن بين التقاليد الفرنسية والعربية في تصنيف المعرفة.

لقد رأى المعلقون- الذين عاشوا في فرنسا خلال القرن التاسع عشر- كتاب التخليص أكثر قليلاً من تصوير رحلة مسلية؛ فنظروا إليه بوصفه عينة على نوع غريب من الكتابة الأدبية، ولم يروا فيه قيمة من حيث هو رؤية لفرنسا من الخارج. كما عُدَّت الترجمة الكاملة لـ التخليص غير واقعية، فلم يلقَ الكتاب اعتماداً بسبب غرابته الشديدة، فضلاً عن أنه لم يكن متوفراً لجمهور القراء الفرنسيين. ويستشهد لوقا بكلمة شارل ديديه Charles Didier- وهو ناشر من القرن التاسع عشر- التي أُدرِجَ فيها الكتاب إجمالاً تحت صنف كتابات الرحلات السلية والغريبة، فصرّفت تعليقاته النظر عن الاهتمام به<sup>(٣١)</sup>. ومع أن مقتطفات من الكتاب تُرجمت إلى الفرنسية واستخدمها إرنست رينان (١٨٨٢م)، فقد ذهب لوقا (١٩٨٨م)، (٣٣) إلى أن تلخيص الكتاب تلخيصاً مبسّراً أسهم في تفليل رينان، مما لعب دوراً في تدعيم موقفه الصريح الشاذ للزعة الدينية الإكليريكية. ويرى جاي سورمان Guy Sorman (٢٠٠٤م، ١٢) أن تفسير عمل الطهطاوي تفسيراً مغلوفاً من قِبل الصحفيين الفرنسيين قد أدى، أيضاً، برينان إلى القول بأن "المسلمين يكرهون العلم".

يمكن وصف ترجمتي لوقا ونيومان الكتاب بأنهما من التراجم التي تنتسب إلى تقليد مدرسة الابتشراق. ويصدق هذا الوصف- بوجه خاص- على نص نيومان الذي أدبني له بالعرفان؛ فالترجمات الإنجليزية التي أستشهد بها في هذه الورقة من ترجمته، وقد زودها بهوامش شارحة تقدم معلومات قيمة، بمجمية وتاريخية وأدبية، مما يساعد على فك شُرى التناص المركب الثرى الذي ينطوي عليه كتاب التخليص. وإن كان في ذلك ما يبرز "أجنبية" النص العربي، التي تتعارض مع منهج كتاب الطهطاوي الذي يهدف إلى "إضفاء الألفة". فالكتاب يمكن قراءته بوصفه إضفاء ألفة على ما هو أجنبي، أو لو استخدمنا عبارة إدوارد سعيد في مناقشته الاستشراق: "إضفاء الألفة على الغريب" (سعيد ١٩٧٩م، ٦٠). ويرى الفيلسوف المصري حسن حنفي (١٩٩١م)- في سياق دعوته إلى تأسيس علم الاستغراب (Occidentalism) رداً على أبنية الاستشراق- أن الغرب ليس مجرد مصدر معرفة فحسب بل يُعدُّ موضوع مساءلة أيضاً.

واعتقد أن اهتمام الطهطاوي بالمعرفة التي اكتسبها من دراساته في فرنسا- بل وفضوله الفكري الذي حمله على رسم تصور عن "الأخر"- يمثل نواة علم الاستغراب البكر. ويتعارض ذلك مع تفسير الاستغراب تفسيراً اختزالياً يشجع في نمط بعينه من الخطاب، ويتجاوب مع الإحساس بحالة من العداء المنصوب تجاه تمثيل الغرب تمثيلاً خاصاً ترجع جذوره إلى أواخر القرن الثامن عشر حين كان رد فعل على التنوير، وهي حالة عداء يؤكد

عليها مؤلفو الاستغراب: الغرب في عيون أعدائه (بُروما Buruma ومارجاليت Margalit ٢٠٠٤م).

#### استراتيجيات التمثيل والترجمة في التخليص:

يفصل كتاب التخليص القول في قضايا التمثيل وانتقاء أمور يعينها وتبسيط الضوء عليها ثم الحياد تجاه أمور أخرى مما تمليه صورة فرنسا التي كان يريد الطهطاوي إشاعتها ونظراً لأن الكتاب يتضمن مقتطفات مترجمة ينتزهاها الطهطاوي من مجالات معرفية وفنية مختلفة- ما بين نصوص تشريعية أساسية وكتابات علمية، وشعر ومراسلات شخصية- فمن الممكن استخدام الكتاب في اللقاء الضوء على ممارسات الترجمة واستراتيجياتها.

يشرح الطهطاوي ويترجم باريس، بل وفرنسا كلها ضمناً، عبر تعميمات وقياسات تمثيلية، فيعقد أوجه شبه بين فرنسا ومصر، يقول على سبيل المثال "فإن إسكندرية عينه مرسيليا ونموذجها" (الطهطاوي ١٩٧٣، ٣٩- نيومان ٢٠٠٤، ١٣١)<sup>(١)</sup>، في محاولة منه لتقليل الاختلافات إلى الحد الأدنى. كما يكثر عنده عقد مقارنات بين الشخصية الفرنسية والشخصية العربية:

ومما يستغرب أن في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العرباء في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة، وشدة العشق الدالة ظاهراً على ضعف العقل، ومزاجهم كالعرب في الغزل بالأشعار العربية، فقد رأيت لهم كلاماً كثيراً يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطباً لمحبيته (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٦٢- نيومان ٢٠٠٤، ٢٥٦)<sup>(٢)</sup>.

أو يعيد القول مرة أخرى: "ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنسية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبيهاً بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس" (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢٥٦- نيومان ٢٠٠٤، ٣٦١)<sup>(٣)</sup>.

وكان مما اصطعقه الطهطاوي واستخدمه في التغطية على "أجنبية" النموذج الفرنسي، إشاراته إلى مصر القديمة، ذلك الماضي المجيد الذي كان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م- ١٨٠١م أن أعادت اكتشافه ودراسته، فعلى سبيل المثال يعلق الطهطاوي في خاتمة التخليص على الأسماء الرسومة على الآثار قائلاً: "والقصد منه أن تبقى آثاره لتذكر زجوع البريون في فرنسا" (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢٤٥- نيومان ٢٠٠٤، ٣٥٧)<sup>(٤)</sup>، مثيراً القارئ أن "كتابة تلك الرسوم من عادة الإفرنج. تأسيساً بالأسف من أمالي مصر وغيرهم. فانظر إلى بناء أهل مصر للبرابي وأهرام الجيزة" (السابق نفسه)<sup>(٥)</sup>. وتشطط الإشارة إلى التشابهات بغرضين من أغراض مشروع الطهطاوي في الترجمة والتمثيل: الأول- كما قلت من قبل- يجعل فرنسا أقل أجنبية، أما الثاني فمهد السبيل أمام إغواء الشرعية على الماضي القديم السابق على الإسلام بوصفه مقوماً من مقومات الهوية القومية الوليدة. وقد تناولت دراسات الترجمة بالتفصيل دور الماضي في بناء الحاضر من وجهات مختلفة (Zubow 2002)، ويتجاوب توظيف الطهطاوي للانتقائي للتراث الثقافي المصري والإسلامي المشترك



تجاوباً واضحاً مع مهمة "علماء الآثار الذين يعيدون اكتشاف الماضي المشترك لدى شعب ما فيعيدون تفسيره سياسياً من أجل يعك الجماعة من جديد" (سميث ١٩٩٤، ١٩).

وحين يضطر الطهطاوي إلى التعرض لبعض عادات الفرنسيين الالاقفة بغرباتها، نجده بالأسلوب نفسه يبذل قصارى جهده في شرحها، فمثلاً يكتب التعليق الآتي: "ويتعلق بالرقص في فراتسا كل الناس، وكأنه نوع من العياقة والشلينة لا من العشق، فذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياة، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهميج الشهوات" (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٢٢-١٢٣، ٢٠٠٤، ٢٣٦).<sup>١٥</sup>

وكان بمقدور الطهطاوي التعليق بالسلب على بعض عادات الفرنسيين لكنه في الأساس يجهد من أجل جعل "الأخر" مقبولاً. فكتابه تخلّص الإبريز يكتب بالشرعية حين يجعل من الفرض الديني الخاص بطلب المعرفة أساساً له، وكذلك حين يعقد أوجه شبه وتوازيات بين "الفرجة" والعرب. وقد تلبية معلم الطهطاوي، المستشرق الفرنسي دو ساسي، إلى ما يقوم به الطهطاوي من عملية بناء "الأخر" عبر الترجمة، حيث يعلق على حقيقة أن الطهطاوي حاضر على طول تحيزاته (يستشهد به نيومان ٢٠٠٤، ٢٨١). وتحدث عملية التوسط على أساس الضمر لدى المترجم من ثقافته، مما يسمح له بالمغابرة في الفشاء الجديد الذي تقدمه الثقافة والمعرفة الفرنسية، على أساس أنه مفروض ثقافياً، بكل ما يحمله هذا التوفيق من اتحييزات ملزمة وما يشتمل عليه من مفترسات الكاتلة اللاهوتية. وتكمن قدرته على التوسط في أعماق التلاقي بين ما يبدو أنه أيديولوجيات متصارعة يتقن بعضها على بعض.

وتفرض تسوية هذا الصراع على الطهطاوي أن يُطَمِّئ قراءه في الوطن، وأن يقوم باللقد من خلال المؤسسات الدينية والسياسية. وتصبح عملية موازنة العلم الأجنبي واستملاكه أمراً مشروعاً بإظهار أن السياق الجديد ليس سياقاً مغايراً، وباستدعاء الشرعية الدينية التي تحدث على طلب المعرفة، وبصفة خاصة حين تدور الشبهات حول بعض الأعمال الأجنبية. في سياق مشروع الطهطاوي، تلعب الإشارة إلى الماضي والوظيفة التي من المحصل أن يؤديها- سواء الماضي المتصل في الميراث المسلم أو ما تمتاز به مصر من علاقة بحضارة قديمة- دوراً في خلق الحاضر، وتلك قضية تجادل حولها منظرو النزعة القومية (انظر على سبيل المثال، سميث ١٩٩٤).

وحتى يحظى الآخر بالقبول، عليه أن يكون مألوفاً. ولذا، يركز الطهطاوي على أوجه الشبه ويعقد قياسات تمثيلية، وقد وضحت ذلك بالأمثلة. كما أن استخدامه أصراف الكتابة العربية وأشكالها- مثل تضمين الدائع والنثر الإيقاعي (السجع)- فضلاً عن إشارات إلى عصر الإسلام الذهبي، تضع نمه ضمن حدود السب نفسه: "زمن الخلفاء" (عصر الخلفاء)، اهتمامهم بالعلم وتشجيعهم على حركة الترجمة (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٧-١٩٧٣- نيومان ٢٠٠٤، ١٠٦). ولا تُعد هذه الإشارات مجرد أعراف بلاغية؛ فالارتباط بالتراث يمثل نواة معظم المرديات الإسلامية. في عام ١٩٧٠م، كتب أنور عبد الملك مجادلاً بأن الغاية من التبار

الحديث في الأصولية الإسلامية "استعادة مجد الماضي عن طريق تجديد التراث التاريخي بمسيرة المتطلبات الملحة والحتمية التي تفرضها الأزمنة الحديثة، بدلاً من تحويل أشكال الواقع الراهنة تحويلاً تقديمياً" (أنور عبد الملك ١٩٨٣، ٥). وبالقابل، ينطوى موقف الطهطاوي على إمكان هذا التحويل، وهو موقف يتكرر فيما يشبه رجوع المصدي في بعض اتجاهات النزعة الإسلامية المعاصرة؛ ذلك أن الارتباط بالإسلام الكلاسيكي قيمة مألوفة لدى بعض المصلحين المسلمين الذين يرون أن العلوم الضرورية لتحديث الأمة تبدأ من العلم الإسلامي الغربي في العصر الوسيط تكمن دلالة هذه الارتباطات التي يؤسسها الطهطاوي في عملية إضفاء الشرعية، ويلزم عن هذه الارتباطات علاقة بين القوة والعرفة، بل وتدعمها (فوكو ١٩٦٩).

### النزعة الدنيوية:

كان لزاماً على الطهطاوي، في تلاقه مع فرنسا ومؤسساتها، تسوية نتائج آخر من نتائج التصوير في أوروبا: النزعة الدنيوية. بأسلوب ماركس، فصل نابليون نفسه عن القصرية، مما جعل فرنسا تبدو في سياق نزعة دنيوية محايدة إلى حد ما ولا تنفصل عن الديمقراطية الليبرالية، وبذلك "استمال قلوب المصريين وعقولهم"، وهي استمالة لعبت- بشكل مفرط- "نوراً تحريشياً في التجهيل ينشوء الوعي السياسي في البلاد" (سلومان ٢٠٠٣، ١٦٩). وإلى حد ما، نجح الفرنسيون- في سياق حملتهم على مصر- في تعديل الاتجاه الذي مضت فيه ثنائية الإسلام/القصرية. فعبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٥)- المؤرخ المصري الذي كان معاصراً للحملة الفرنسية- يقول إن "الفرنسيين لا علاقة لهم بالصليبيين" (حسين ١٩٨٨، ٣٢٠)، ويرى أن الحملة الفرنسية أدت إلى "تشجيع مبادئ رئيسيين: النزعة القومية المصرية والحكم الديمقراطي" (مستشهد به في عوض ١٩٨٦، ١٠). ويبدو أن هذا الموقف المحايد كان محل اهتمامات معاصرة، وبخاصة حين تصبح النزعة الدنيوية سرديّة خلافاً في عدد من الدعوات الحديثة المنادية بالهوية القومية، وكذلك حين تُفهم فهمًا مغلوطاً- في كثير من الأحيان- بوصفها دعوة ضد الدين، وإرادة من الخارج. وقد اتضح ذلك من خلال المناقشات (المقيمة في الغالب) التي احتدمت عقب حظر الرموز الدينية الثلاثة للنظر في مدارس الدولة الفرنسية، وقد انشغلت هذه المناقشات بقيمة الحظر الرمزية أكثر من الانشغال بمؤدياته العملية المحدودة نوعاً ما، كما انشغلت بالاضطراب الاجتماعي في بعض "الصواحي" الفرنسية الأكثر حرماناً، مما أدى بالكثيرين إلى مناقشة النموذج الفرنسي في الاستيعاب العنصري ولغت الانتباه إلى أن "النزعة الدنيوية وإن كانت تعني انفصال الكنيسة عن الدولة، ف هي تعني أيضاً احترام الاختلاف" (سقاى ٢٠٠٦).

إن ما عُدّه الطهطاوي نقصاً في تدوين الفرنسيين الذين "لا يعتقدون اعتقادات دينهم ولا يعتمدون بعبادات النصرانية..." (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٥٥-١٥٠ نيومان ٢٠٠٤، ٢٤٩)<sup>(١)</sup>، هذا الفهم كان هو الأقرب إليه، وعلى ما يبدو فإن المؤلف يقوم بمحاولة مدروسة لـ"تحييد"

الإيمان المسيحي لدى الفرنسيين، إلى درجة أن سلفستر دو ساسي يرد على الطهطاوي قوله: "ثم إن مسيو دساسى لما أطلع على ذلك كتب ما نصه: قولك إن الفرنسية ليس لهم دين الهبة وأنهم ليسوا نصارى إلا بالاسم، فيه نظر" (السابق)<sup>(١٠١)</sup>. ويورد الطهطاوي في مقالته الثالثة ردّ دو ساسي عليه<sup>(١٠٢)</sup> ثم يعلق بقوله إن دو ساسي "من أرباب الديانة وعددهم نادر لا حكم له" (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٥٦-١٥٧-١٥٨). ومن الممكن أن يفيد ذلك في توضيح طبيعة عملية التمثيل الفاعلة هاهنا، و التي بمقتضاها يتم انتقاء ما يوضع في الصدارة من جهة وما يتم التشطيب عليه من جهة أخرى. في هذا السياق، يمكن احتساب فرنسا الغالبة في "الدنيوية" أقل تهديداً وأكثر قبولاً في إطار الثقافة المنشودة.

حتى الآن، دارت مناقشتي حول السمات التي ارتأى الطهطاوي إبرازها أو تحييدها. وقد استخدم استراتيجيات لغوية حتى يحقق عملية التمثيل هذه، و هي استراتيجيات تتراوح بين كتابة التعبيرات والكلمات الفرنسية بحروف عربية (= التعريب transliteration) وإعادة استخدام معجم العربية. يشير التعريب إلى موضوعات أو مفاهيم جديدة كان يصادفها الطهطاوي أثناء قراءته نصوصاً فرنسية، فكان يقدم لها في العادة بشوع من الوصف أو الشرح يقر بها، قدر الإمكان، من موضوعات مألوقة لدى قرائه المصريين. في عدد من الشواهد، تعنى عملية الوضع أو الاشتقاق المعجمي lexicalization أن التعبير المستعار خاضع لقواعد النحو العربي (صفة الجمع في العربية) أو يتم تهيبته وتكبيفه حتى يسهل نطقه. وعبر ممارسات لغوية محددة، تتواتر على طول الكتاب عملية إضفاء الألفة على الآخر بثيرة متركزة عرقياً؛ حيث يبتدع الطهطاوي عدداً من التعبيرات تتماشى مع معيار اللغة العربية الحديثة. وفي حالات أخرى، يستبدل بها صياغات أكثر "محلية".

غير أن الأكثر لفتاً للانتباه مراجعته تعبيرات عربية قائمة من الممكن أن تدل، عبر التغيرات الدلالية، على معنى أعم أو جديد. ولعل تعبير "حرية" ترجمة لـ "liberte" يُعزّد مثلاً على ذلك. ويعلق نيومان على استخدام الطهطاوي له بأنه "أول استخدام لكلمة "حرية" في الأدبيات العربية بالمعنى الأوربي للحرية الشخصية، فقد كانت الكلمة تعنى في السابق مجرد مقابل لـ "العبودية"<sup>(١٠٣)</sup> (نيومان ٢٠٠٤، ١٩٥ و ١٩٦، هامش ٧ - وانظر أيضاً ٢٠٠٤، ٢٠٦، ٣١٢). بل وإن "الحرية" قيمة مثالية أخرى يشترك فيها الفرنسيون مع العرب: "وأقوى مظنة القرب بأموور كالعرض والحرية والاقتدار" (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢٥٦-٢٥٧ نيومان ٢٠٠٤، ٣٦١)<sup>(١٠٤)</sup>. يكتب الطهطاوي المترجم حين "يشرح" مفهوم الحرية أن الحرية هي عين ما يطلق عليه عفدنا "العدل والإنصاف"<sup>(١٠٥)</sup> اللذين هما ركنا النظرية السياسية في الإسلام (الطهطاوي ١٩٧٣، ١٠٢-١٠٣ نيومان ٢٠٠٤، ٢٠٦). ويوصفه مترجماً يبذل الطهطاوي جهداً كبيراً، فهو يستخدم تعبير "الحرية" ليشير أيضاً إلى الحزب الليبرالي في فرنسا (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢٠١)، ويعلق نيومان (٢٠٠٤، ٣١٢، هامش ٣) على التباس التعبير عنده، حين يشير إلى "أصحاب راية الحرية" (يقصد المنتهين إلى الحزب الليبرالي)<sup>(١٠٦)</sup> (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢٠٨).

ولعله من المفيد أن نقابل هذا التوزيع المفهوم الذي يحدث أثناء عملية الترجمة بمناقشة مصطلح "الحرية" في مقالة حديثة، محملة أيديولوجيًا، عن ضرورة الديمقراطية في العالم العربي على الطريقة الأمريكية (Metraux 2004). تشع المؤلف في مقالها فرقًا لافتًا بين "الرؤية الإيجابية عن الحرية في الشرق" و"الإدراك السلبي لها في الغرب". وهي تصوغ حجتها من خلال مناقشة تمهيدية للتحرر الإيجابي بوصفه قرين مفهوم تحقق الذات والقدرة على تكوين اختيارات واضحة، في مقابل مناقشة التحرر السلبي الذي يكتفى بحماية الأفراد من تدخل الآخرين وتطفلهم. ثم تستطرد ميتروكس Metraux إلى مناقشة تصور الحرية عند العرب في علاقتها بعقيدة المسلم. ولعل هذه الآراء الجوهرانية عن "تصور الحرية تصورًا مغلوطًا" تقطع الطريق على ما تنطوي عليه الثقافات من تدخل مركب، وتشجع على دعاوى متعلّقة عن صدام الحضارات، وقد نجح هذا المقال في القيام بذلك. وبطبيعة الحال، يمكن القول إن مصطلح "الحرية" في الخطاب القومي العربي من الممكن تفسيره في الغالب على أنه إشارة إلى الحرية السلبية في النضال من أجل تقرير المصير وتحقيق الاستقلال عن السيطرة الأجنبية أو الاحتلال (والكيان الفلسطيني يمثل حالة في صميم الموضوع)، كما أن نفوذ الدين للتعاظم في عالم مكرس بأشكال فاشلة من القومية العربية يقيد الحرية بحدود ما لا يتعارض مع العقيدة. ومن ناحية ثانية، فإن مراجعة أصول الكلمات ومعانيها القديمة - وهي المراجعة التي تجدها ميتروكس Metraux مسقة في إخبار القارئ أن "الحرية" تشير إلى "القوضى" في العصور السابقة على الإسلام - لا تصمد في وجه ما يقدمه تطوير اللغة<sup>(١٤)</sup> ودراسات الأيديولوجيا من وجهات نظر. إن المعنى ليس ساكنًا، ولذلك فكلمة "حرية" - بعيدًا عن الاحتمالات السياسية والتاريخية التي يثّلون بها استخدامها في الخطاب حتمًا - تؤثر على مجال كامل من الحريات، ولا تقتصر فحسب على مطالب العدل والإنصاف الاجتماعي، وإن كان الإلحاح على هذه المطالب قوى في السياق الجيوسياسي الراهن. وعلى كل حال، يقدم الطهطاوي تعريفًا للحرية أكثر شمولًا في عمله اللاحق، وهو كتابه المرشد. ويوجد مدخل إلى وضع مفهوم عن "الحرية" أكثر اكتمالاً، مؤسس على قراءة دقيقة لاستخدامات المصطلح وتفسيراته في خطابات القومية العربية السابقة والحاضرة<sup>(١٥)</sup> وكذلك في الإسلام السياسي؛ من منظور اللغة والأيديولوجيا بوصفها عناصر تتحرك حركة دائبة غير مستقرة.

لقد واجه الطهطاوي ما يمكن القول بأنه بشكل مفاهيم أيديولوجية مقنّاحة في الخطاب المعاصر. ولعل مصطلح الأمة يعد مثالاً على المصطلحات ذات الحمولة التي تم توظيفها بطريقة أو بأخرى؛ فالأمة هي جماعة المسلمين أصحاب العقيدة. ثم صارت الأمة في خطاب القومية العربية الدنيوي تنظيمًا لـ"العربية" (العرب). إذ تشير "الأمة العربية" إلى جماعة موحدة من الناس تشترك في ثقافة واحدة وتاريخ واحد<sup>(١٦)</sup>. وبعد خمس سنوات، عاد الطهطاوي إلى الوطن، فقام بتشخيص داء الأمة (الجماعة)، وهو داء ناشئ عن غيباب الحرية، ثم اقترح ديمقراطية التعدد الحزبي علاجًا. وقد استخدم الطهطاوي هذا المفهوم عن الأمة ضمن حدود الهوية القومية الوليدة التي دعت إلى الاستقلال عن الباب العالي. ومن

ناحية أخرى حين أعيد مفهوم الأمة- الذي تم تحديثه للمرة الأولى من خلال النزعة القومية- إلى معناه الأول الدال على الجماعة الإسلامية بعد أن نلحقها الإسلام السياسي، صار هذا المفهوم هو نفسه ما يهدد الدولة القومية وحدودها الجغرافية.

إن قضية المواطنة، و هي القضية التي احتلت بؤرة الدراسات الحديثة (بن حبيب ٢٠٠٠)، وتكاد تعصف بها العولة بما تنطوي عليها من تضمينات سلبية عن الدولة القومية، كما تكاد تعصف بها أيضاً الدعاوى المتزايدة عن الولاء الديني أو العرقي- هذه للقضية آثارها الطهطاوي في كتابه حين بدأ في ترجمة الدستور الفرنسي وشرحه. وقد ترجم الطهطاوي مفهوم citizen إلى "مواطن"، وهو مفهوم يتعارض مع الفكرة المعتادة عن الذات، كما يتعارض مع ما يتمتع به الحاكم من قوة مطلقة. وعلى الترجيم- في هذا الموضع- أن يتقدم بحذر، لأن ثمة صراعاً في الأيديولوجيات يترتب على ما يفعله. كيف يمكن لفكرة المواطنة أن تناسب حاكم مصر الذي يتمتع بسلطة مطلقة، وهو ولي نعمة الطهطاوي؟ إن مؤلف التخليص ليس مراقباً مستقلاً يحتل مسافة بينية محايدة، بل إنه يتموضع بقوة في مركز لقل الثقافة و"الاقتصاد السياسي". غير أنه كان لزاماً عليه أن يعود إلى المفاهيم الحديثة التي ربما تفسر له أسباب سيادة أوروبا، مخاطراً بإغضاب محمد علي، ومضطراً إلى مجاهدة السلطة الرجعية التي يتمتع بها علماء الأزهر.

ولعل إيمان الطهطاوي بسلامة خلفيته الثقافية والدينية كان يدعم تمثله لفرنسا. ولأنه مترجم معتد جذوره في التراث العربي الكلاسيكي والثقافة الدينية التقليدية عبر نسبه العائلي ودراساته في الأزهر، ففى داخله يدور صراع مع الصورة التقليدية عن المترجم من حيث هو هجين يحتل مسافة "بينية". بل وينطبق ملمح التهجين- بهذا المعنى- على مجموعات لاحقة من المترجمين داخل سياق النهضة العربية (وأننا أفكر على وجه الخصوص في المترجمين اللبنانيين والسوريين الذين جاؤوا إلى مصر هرباً من الحاكم العثماني فأشاعوا إرثهم الغرائكفوني، بالإضافة إلى معرفتهم بالعربية المعيارية ولهجات محلية مختلفة). وعلاوة على ذلك، كانت إقامة الطهطاوي في فرنسا- بصفته عضواً في البعثة التي أرسلها حاكم مصر- مشروطة ببرنامجه الدراسي والمحيط العام الذي كان متأثراً به، والذي تشكل من أقرانه الطلاب وعلاقته بمجموعة من المستشرقين ومعرفة الشخصية بفرنسا التي كانت محدودة بحدود مدينة باريس إلى حد كبير. ولو استعرنا مصطلحات فوكو، فقد كانت "إرادة الحقيقة" و"إرادة المعرفة" لدى الطهطاوي مستندة إلى الدعم المؤسسي ومقيدة برعاية حاكم مصر والولاء له، بما أنه هو الذي عهد إليه القيام على الشؤون الدينية- بتسمية الصدمات الثقافية والأيديولوجية- حتى يكتمل نجاح ما تصبو إليه البعثة. وحين يقارن لوقا عبارة التهنة التي قالها مطران باريس الكبير بعد احتلال الفرنسيين للجزائر: "كأن اللثة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على اللثة الإسلامية"<sup>(١١)</sup>، و هي العبارة الواردة في التخليص- حين يقارنها لوقا بتغاضي الطهطاوي عن الحدث لكونه "أموراً سياسية"<sup>(١٢)</sup> (الطهطاوي ١٩٧٣، ٢١٩- تيومان ٢٠٠٤، ٣٢٧)، فإن لوقا- بذلك- يسلط الضوء على

عقلانية الطهطاوي (لوقا ١٩٨٨، ٢٧). بل ومن الممكن القول، أيضاً، إن مؤلف التخليص بوصفه ممثل حاكم مصر- ولو أخذنا في الحسبان المتلقين المصريين الذين يتوجه الطهطاوي إليهم- كان حريصاً على عدم إدانة عملية الاحتلال التي كان من الممكن أن تتورط فيها مصر ومحمد علي بقبول الموافقة على تقديم قوات برية (جكّين Julien ١٩٨٦، مستشهد به في نيومان ٢٠٠٤، ٧٤) لتدعيم الهجوم الفرنسي على الجزائر<sup>(٣١)</sup>.

يرى آلان روسييون Alain Roussillon (٢٠٠١، ١٤٥-١٤٦) إمكان وجود قراءات مختلفة لعمل الطهطاوي. ذلك أن تفسير التخليص يركز إما على جانب الأصالة، بالنظر إلى مجموع الإشارات إلى الأماكن الثقافية المصرية والعثمانية والعربية والسلمة، أو على الإلحاح على "التحديث" بوصفه قوة يمكن تسخيرها لصالح الأمة. فالأصالة الثقافية والمعاصرة تمثلان نقطة المركز في أكثر الشروحات قومية. وبفضل عمله مترجماً ومعلماً يدعو إلى التعبير الاجتماعي والفكري، أرى أن الطهطاوي- لو أعادنا صياغة إشارة بهير بورديو إلى المفكرين- يُعدُّ الوسيط الذي يقوم بدور المراقب والوكيل الاجتماعي، فكتابه لا يحمل معنى القطيعة بين التراث الإسلامي والثقافة الأوروبية. ولعله من الضروري قراءته- كما ذكرت سابقاً- في سياق حركة الإصلاح التي ينتمي الطهطاوي إليها، وفي سياق العلاقة التي سمحت هذه الحركة إلى تأسيسها بين الإسلام والتحديث. وتلك هي القضية الرئيسية لو سلّمنا بوجهة نظر المفكر المصري نصر أبو زيد؛ فالصراع الذي نشأه اليوم لا يدور بين الإسلاميين والديموقيين بل يدور- على الأصح- بين مَنْ يسمعون إلى تحديث الإسلام وَمَنْ يريدون "أسلمة" الطرف الراهن (أبو زيد ١٩٩٥). ومع ذلك، يظل هذا الرأي "وصفاً" في الأساس، وهذا الموقف الوصفي- فيما يرى نيومان (٢٠٠٤، ٩٠-٩١)- لا مجال معه للبحث في تطابق الطهطاوي مع بعض وجهات النظر الخلافية التي يقدمها مفكرو التنوير، وإن كان لويس عوض يرى أن "الطهطاوي يتوافق مع الليبراليين الفرنسيين في عصره كما هو واضح من كتاباته" (عوض ١٩٨٦، ٣٦). لقد بلغت النزعة القومية، وما ينشأ عنها إجمالاً من نزعة عروبية، الذروة في خمسينيات القرن العشرين، في حين أن جذورها ترجع إلى القرن التاسع عشر. وحديثاً، نشرت دراسات عديدة حول استجابات المسلمين للحدثة، إحداها وهو الذي يتصدر خطاب الليبرالية الإسلامية، يدور حول كيفية التلاقى مع الآخر؛ وفي ذلك تنقاس تيارات متصارعة.

أما وجهة النظر المتفائلة، إلى حد ما، في هذا الشروع فقد تمت صياغتها في سياق تاريخي بالضرورة. يرى حوراني أن "الطهطاوي قد عاش، وعمل، في فترة تاريخية محظوظة، كان فيها التوتر الديني بين الإسلام والمسيحية هادئاً ولم يحلَّ محله بعدُ التوتر السياسي الجديد بين الشرق والغرب" (حوراني ١٩٨٣، ٨١)، ويتحدث ويندل Wendell عن "راحة قصيرة في صراع الألف عام" (Wendell 1972, 78). ومع ذلك، ففي أوروبا التي كانت لا تزال نموذجاً ولم تصبح بعدُ خصماً، لعبت التسوية الأيديولوجية بين التنوير وردود الفعل في أواخر القرن الثامن عشر على رسالته العالية والمعلّنة دوراً في بناء النزعات

العقلانية التي كانت موجودة من قبل. وفي داخل الجماعة المسلمة نفسها، كان التنافس دائراً بين التقليديين والحداثيين، وهو الصراع الذي كان يتوجه إليه الطهطاوي - على حذر - بنزعة التوفيقية. وتتضح هذه النزعة التوفيقية، التي نتجت عن الترجمة، وضوحاً كبيراً في أحد أعماله اللاحقة، وهو كتاب *مفاهج الأبواب المصرية في مباهج الآداب المصرية*. فليسه يرسم الطهطاوي معالم مشروع عقلاني، من خلاله تكون "كل الفضائل التي يجب على المؤمن أن يتحلى بها مع إخوانه في العقيدة إلزامية أيضاً بين من يشتركون في وطن واحد، من خلال الحقوق المتبادلة والجمعية الوطنية التي توحدهم" (يستشهد به أنور عبد الملك ١٩٨٣، ٢٩). وتتردد أصداً نزعة الطهطاوي التوفيقية في الحركات الإسلامية الجديدة ذات النزوع السياسي البرجماني، ويُعَبَّرُ عنها في مصر حزب الوسط، الذي يدعى مشروعه الارتباط بالحقوق العالمية الشاملة.

#### الخلاصة:

لقد توصلت من خلال المناقشة إلى أن كتاب التخليص عمل مركب يسمى إلى عملية موازنة واستملاك، ويمكن احتسابه رمزاً على برنامج الترجمة القومية في مصر القرن التاسع عشر. ويقدم الكتاب لمؤرخ الترجمة معلومات توضيحية عن ممارسات الترجمة والخطاب، كما يكشف عن الكيفية التي تغدو معها الترجمة عملية كتابة عن ثقافات أخرى. إذ إن عملية التفسير (Geertz 1973)، والتوسط بين اللغات، أمر مركزي في بناء الشخصية القومية والهوية القومية. واستناداً إلى مناقشة هومي بابا حول "الالتزام الثقافي" (Babha 1994, 3)، افترضت في موضع آخر أن مشروع الطهطاوي كان، في حقيقة أمره، نموذجاً على الالتزام "الطوعي" وليس "الصراعي" (Salama-carr 2006, 401). وبالنسبة إلى التحليل الاستعماري، فقله من الممكن القول إن "فنون الترجمة وعوالمهم"، التي أعجب بها الطهطاوي أيما إعجاب، تستخدمها القوى الإمبريالية وليس المشروع القومي وحده. وقد كان الطهطاوي يكتب قبل الزمن الذي أمكن فيه فصل التحديث عن النزعة الاستعمارية والإمبريالية الأوروبية.

يُعدُّ وصف الطهطاوي رحلته إلى أرض الفرنجة عينة لاقئة على الترجمة والتمثيل. والقضايا التي يثيرها في كتابه تتصادم مع المناقشات المعاصرة حول التفاعل الثقافي ويمكن النزعة الدنيوية ومجالها في عالم تتزايد عولمته وتتزايد تشظيه في آن معاً. وبشكل غير مباشر، ينشغل الكتاب باهتمامات مثل النزعة العالمية والنزعة القومية، طالما أن ما يحدد الهوية المصرية تواصلها المتنامي مع الغرب، لكن يحددها في الوقت نفسه الإحالة إلى ميراثها الثقافي العربي والإسلامي. في عصر الاستقطاب، حين كانت وسائل الإعلام تركز، بشكل مبالغ فيه، على أشكال النزعة الإسلامية الأكثر تطرفاً فنقل صورة عن عوالم مغلقة على صراعات يصعب السيطرة عليها، في هذا العصر وجدت أيضاً رؤية متسامحة مع "الأخر" تساهم جوهرياً. وما خلفه الطهطاوي من إرث عملية التسمية يدعوه أنصار الخطاب الإسلامي

الحدائي: "أبناء رفاعه" (سورمان ٢٠٠٤) الذين يرون أن الصالحة بين الإسلام والحداثة ليست مجرد مطلب "ممكن ومرغوب فيه، بل هو مطلب يتجاوب أيضاً مع أخلص قراءات الدين وأصح قراءات التاريخ" (Charfi 2005, 13). وبشكل لافت، يستدعي اسم الطهطاوي أيضاً مَنْ يندبون القيود المتزايدة على الحرية باسم القيم الدينية. في عقد التسعينيات من القرن العشرين في مصر، قام كريم الراوي - ممثل سكرتير عام منظمة حقوق الإنسان المصرية حينذاك - بتحليل تزايد وطأة الرقابة على النتاج الأدبي والفني، ولاحظ أن "الحال كما لو كان رفاعه الطهطاوي وأجيال التلويز لم يوجدوا" (الراوي ١٩٩٤، ١١٦). ويلخص جيلبير ديلانو Gilbert Delanoue، بشكل تقريبي، ميراث النزعة التوفيقية التي خلفها الطهطاوي حين قدم لمواظبيه المرافقين له في البعثة "توليفة من الولاء الديني والأخلاقي تصلهم بالوطن الأم وتذكهم بماضي بلادهم المجدد، وقد سافروا إلى الخارج ليتعلموا كيف انفتح الفرنجة على كل أسرار المنجزات الحديثة" (Delanoue 1982, 487).

وبطريقة ذكية، يتبهن ميشل كرونين Micheal Cronin إلى أنه "باحثنا الترجمة صيغة معرفية مركزية في الفكر السياسي وممارسته، فمن الممكن تخطي النقادة الثقافية التي تنطوي عليها سياسات الهوية (الثقافات من حيث هي كليات موحدة متغلقة على نفسها بشكل محكم) وسيطرة عالية مثالية على المستوى الثقافي (لا يهمها الاختلافات)" (Cronin 2006, 71). إن مشروع التسوية لدى الطهطاوي - وهو الشروع الذي ينصب على التوتر الحتمي بين ما تنطوي عليه الترجمة من طابع عالمي عابر للقومية وانغلاق النزعة القومية - يتنجح في زعزعة ماثيره الهموم المعاصرة، إذ يتحدى دعوى صدام الحضارات ومقاومه، تلك الدعوى التي يتم تداولها بشكل جديد فصارت خطاباً سائداً يوسع من اللجوة بين الدنيويين والدينيين. ومثل هذا الخطاب يحرض الإسلام ضد الغرب، ويطمس "الأصوات الإسلامية الموثوق في اعتدالها" (بيكر ٢٠٠٦). إن الأبنية المتناغمة التي رسختها النزعة الدنيوية الجارمة ذات الطابع العسكري تتعارض مع التعدد الثقافي والتعدد الديني، وتدفع فحسب إلى خصومات مستقبلية. وقراءة كتاب الطهطاوي تنبهنا إلى أن الصدام ليس حتمياً..

الهوامش :

- (١) انظر أيضاً بيكر وبرونلي Brownlie بخصوص هذه المسألة.
- (٢) (عاشق المترجم): تقدم نيللي حنا في هذا العدد نظرية مختلفة، تناقش بها آراء مدرسة الاستشراق التي سادت حقل دراسات التاريخ العثماني، وهي الآراء التي رأت الحقبة العثمانية ظلاماً وتحلفاً وانحطاطاً، ونظرت إلى الحملة الفرنسية على مصر بوصفها النور الآتي من أوروبا بخصوص نظرية نيللي حنا المناقشة راجع: نيللي حنا، ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، ترجمة روف عباس (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤). وأيضاً: نيللي حنا، تجار القاهرة في العصر العثماني سيرة أبي ظافية شاهيندر الجمار، ترجمة وتقديم روف عباس (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧).

- (٣) ونس الكلام الفرنسي علي النحو الآتي:

"Une version complète de cet ouvrage serait impossible et fastidieuse, vu ses interminables longueurs; mais il serait piquant d'en traduire au moins quelques



fragments, ne fit-ce qu'à titre d'échantillon, et pour se rendre compte des impressions de voyage d'un Arabe égyptien transplanté tout d'un coup sur le boulevard des Italiens" (Charles Didler cited in Louca 1983, 32-32).

(٤) (عامش للترجم): فقلت - بدلاً من ترجمة الاقتباسات التي تأخذها المؤلفة من ترجمة نيومان - أن أقوم بنقل الواقع التي تكتبها المؤلفة مباشرة عن النص العربي الذي حلقه محمود فهمي حجازي ونشره عام ١٩٧٤ تحت عنوان: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابه "تخليص الإبريز"، دراسة وتعليق دكتور محمود فهمي حجازي (الناصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ص ١٦٩. وسوف أشير إليه تالياً بـ "نسخة حجازي" ذاكراً رقم الصفحة مباشرة. وعليه، فكل الهوامش التي بها هذه الإشارة من عمل المترجم.

(٥) نسخة حجازي، ٢٩٩.

(٦) نسخة حجازي، ٤٠٢.

(٧) نسخة حجازي، ٤٠٠.

(٨) نسخة حجازي، ٤٠١.

(٩) نسخة حجازي، ٢٥٩ و ٢٦٠.

(١٠) نسخة حجازي، ٢٩٤.

(١١) نسخة حجازي، ٢٩٣.

(١٢) نسخة حجازي، الفصل الثاني عشر من الثالثة الثالثة.

(١٣) نسخة حجازي، ٢٩٤.

(١٤) نسخة حجازي، ٤٠٢، ٤٠٣.

(١٥) نسخة حجازي، ٢٣٧.

(١٦) والتلقد نفسه يمكن توجيهه إلى إسرار ميتروكس على أنه "لا توجد كلمة عربية تعبر عن الديمقراطية. إذ عند الحديث عن الديمقراطية يستعير العرب الكلمة اليونانية" (٢٠٠٤). وبلا ريب، يندش الزم أن من كلمة "ديمقراطية" كلمة إنجليزية "بوضوح".

(١٧) على سبيل المثال، في خطاب ميشيل عفلق (١٩١٠-١٩٨٩)، وهو الفكر السياسي الذي كان له دور في تأسيس حزب البعث ووضع مبادئه الأساسية المتعلقة بـ "الوحدة والحرية والاشتراكية".

(١٨) ولعل أحد الأمثلة على ذلك اعتصام أنور عبد الملك الشديد بـ "المقاومة الفلسطينية التي تحفظ كرامة الأمة".

(١٩) نسخة حجازي، ٣٦٥.

(٢٠) نسخة حجازي، ٣٦٥. ونص تعليق الطهطاوي حرفياً هو: "مع أن الحرب بين فرنسا وألمانيا الجزائر إنما هو مجرد أمور سياسية ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشؤها الكثير والتعاطف".

(٢١) (عامش للترجم): كانت هناك مفاوضات بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت حول أن يدعم محمد علي الهجوم الفرنسي على فرنسا بقوات برية مصرية مقابل تنازلات سياسية تقدمها فرنسا لمصر، وانتهت المفاوضات بالفشل وعدم الاتفاق.

المراجع:

Abdel-Malak, A., ed. 1983. Contemporary Arab Political Thought. Translated from the French by Michael Parris. London: Zed

Abu Zayd, N.H. 1995. Al-ta'kir fi zaman al-takdir. Cairo: Sina li-Nashr

Alrawi, K. 1994. Goodbye to the Enlightenment. Index on Censorship ١٢: 112-16.

Apter, E. 2006. *The Translation Zone*. Princeton, N.J. Oxford: Princeton University Press.

Awad, L. 1986. *The Literature of Ideas in Egypt*. Vol. 1. Atlanta: Scholars Press.

Baker, M. 2005. Narratives in and of translation. *SKASE Journal Translation and Interpretation* 1(1): 4-13.

Baker, R. W. 2006. Where are the Islamic moderates? [accessed July 2006] Available from [www.alternet.org/story/15050](http://www.alternet.org/story/15050); INTERNET.

Benhabib, s. 2000. *Transformation of Citizenship, Dilemmas of the Nation-state in the Era of Globalization*. Amsterdam: Van Gorcum.

Bhabha, H. K. 1994. *The Location of Culture*. London New York: Routledge.

Buruma, Ian, and Avishai Margalit. 2004. *Occidentalism- The West in the Eyes of its Enemies*. New York: Penguin Press.

Charfi, M. 2005. *Islam and Liberty- The Historical misunderstanding*. Translated from the French by Patrick Camiller. London New York: Zed Books

Cronin, M. 2006. *Translation and Identity*. London New York: Routledge.

Delanoue, G. 1982. *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIX Siècle (1798-1882)*. Paris: Institut français d'archéologie orientale.

Foucault, M. 1969. *L'archéologie du savoir*. Paris: Gallimard.

Greetz, C. 1973. Thick description: Towards an interpretative theory of culture. In *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*. Pp. 3-30. London: Fontana.

Hanafi, H. 1991. *Madkhal 'ila 'ilm al-istighrab*. Madbuli: Cairo.

Hourani, A. 1983. *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*. Cambridge University Press: Cambridge.

Hussein, M. 1988. *Vivant Denon/Abdel Rahman El-Gabarti. Sur l'expédition de Bonaparte en Egypte*. Paris: Actes Sud.

Louca, A. 1988. *Tahtāwī: L'Or de Paris: Relation de voyage. 1826-1831*. Traduit de l'arabe. Sindbad: Paris.

Metraux, E. 2004. Can the Democratic peace permeate the Arab world? The dangers of political idealism. [accessed July 2006] Available from [www.davidmetraux.com/elizabet/docs/democratic\\_peace\\_arab\\_world.doc](http://www.davidmetraux.com/elizabet/docs/democratic_peace_arab_world.doc); INTERNET.

Newman, D. 2004. *An Imam in Paris: An Account of a Stay in France by an Egyptian Cleric (1826-1831)*. London: Saqi.

Renan, E. 1882. *Qu'est-ce qu'une nation*. Lecture delivered at the Sorbonne on 11 March 1882. [accessed July 2006] Available from [www.courworld.compuserve.com/homepage/elib\\_lieuxnation01.htm](http://www.courworld.compuserve.com/homepage/elib_lieuxnation01.htm); INTERNET.

Roussillon, A. 2001. Ce qu'ils nomment "liberté" ... Rifa'a al-Tahtawi ou l'invention (avortée) d'une modernité politique. *Arabica* 48: 143-65.

Said, e. 1979. *Orientalism*. New York: Vintage Books:

Salama-Carr, m. 2006. Review article of Takhliis al-Ibriz in Polezzi, Loredana (ed.) Translation, Travel, Migration. Special issue. The Translator 12(2): 397-401.

Smith, A. 1994. Gastronomy or geology? The role of nationalism in the reconstruction of nations. Nations and Nationalism 1(1): 3-23.

Sorman, G. 2004. The Children of Rifaa- In Search of a Moderate Islam. Translated from the French by Asha Puri, London: Penguin.

Suleiman, Y. 2003. The Arabic Language and National Identity. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Stasi, B. 2006. Projet de Loi sur la laïcité. [accessed July 2006] Available from <http://www.fi-info-france.com/actualites-monde/rapport-stasi-commission-laicite.htm>; INTERNET.

al-Tahtāwī, R. 1973. Takhliis al-Ibriz fi Takhliis Baariz. In al-A'māl al-Kāmilah li-Rifā'a Rā' al-Tahtāwī, edited by Muḥammad 'Imāra. Vol. II. Pp. 9-245. Beirut: al-mu'assasah al-'arabiyyah.

Tymoczko, M. 2003. Ideology and the position of the translator-in what sense is a translator "in between"? In A propos of Ideology – Translation Studies on Ideology-Ideologies in Translation Studies, edited by Mala Calzada Pérez. Pp. 181-201. Manchester: St Jerome Publishing.

Wendell, C. 1972. The Evolution of the Egyptian National Image-From its Origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid. Berkeley, Calif., Los Angeles London: University of California Press.

Zuelow, E. G. 2002. Anthony D. Smith nationalism and the reconstruction of nations. [accessed July 2006] Available from: [www.nationalismproject.org/what/smith1.htm](http://www.nationalismproject.org/what/smith1.htm); INTERNET.



## جاياتيري سبيفاك ت : علاء الدين محمود

تأتي فكرة هذا العنوان<sup>(١)</sup> من شعور عالمة الاجتماع البريطانية ميشيل باريمت بأن سياسات الترجمة تعيش حياة هائلة خاصة بها لو نظرنا إلى اللغة باعتبارها عملية لبناء المعنى<sup>(٢)</sup>.

ربما تكون اللغة، من وجهة نظري، واحدة من عناصر كثيرة تجعلنا نشقي المعنى على الأضواء وعلى أنفسنا. أذكر، طبعاً، الإيماءات، وحالات التوقف المؤقت [عن الكلام]، لكنني أذكر أيضاً الصدقة، وحقول قوة الوجود المفردة التي تتضح في المواقف المختلفة، وتتحوّل عن الخط المستقيم أو الصحيح الذي ينظر إلى اللغة بوصفها فكرياً. أما إضفاء المعنى على أنفسنا فهو ما ينتج الهوية. فإذا أحسنا أن إنتاج الهوية بوصفها معنى ذاتياً، وليس مجرد معنى، يظهر بصيغة جمعية مثل نقطة ماء تحت المجهر، فإننا لن نكون راضين دائماً، خارج المجال الأخلاقي السياسي في حد ذاته، عن "توليد" الأفكار وحدنا. (افتراض الهوية بوصفها أصلاً قد لا يكون باعاً على الرضا في المجال الأخلاقي السياسي في حد ذاته أيضاً، لكن النظر إلى هذا الآن سينقلنا إلى مجال بعيد للغاية). ذكرت في الفصل السادس [من الكتاب] أن إحدى طرق مقاومة دعوة التعددية الثقافية الرأسمالية إلى الهوية الذاتية والمخالفة تتمثل في إطلاق اسم "امرأة" على الآخر الذي يتمزق تخيله. وينطبق نفس النوع من الدوافع هنا بصورة أكثر قابلية للبحث والتقصي. وبما أن أحد طرق التغلب على قيود "هوية" الفرد الذي ينتج نتركاً وصلياً تتمثل في العمل على عنوان شخص آخر على أساس أن الفرد يعمل على لغة تنتمي إلى آخرين كثيرين. وهذا، بعد كل شيء، إغراء من إغراءات الترجمة. إنه محاكاة بسيطة لمسئولية لأثر الآخر في الأنا.

لذا، ورنّا على هاريت يمكنني بذلك الحس الحر من المسؤولية أن أوافق أن مقادير المعنى ليست ما يتم تلكه أثناء الترجمة. وانطلاقاً من أرضية ذلك الاطلاق أريد أن أنظر إلى الدور الذي تلعبه اللغة بالنسبة للـ"وكيل"، وهو الشخص الذي يقوم بالعمل أو الفعل، رغم أن التنية ليست حاضرة تماماً بالنسبة لنفسها. مهمة المترجمة التسمية إذن هي النظر إلى اللغة على أساس أنها إشارة إلى آلهات الوكالة محددة النوع. فالكتابة لتكتبها اللغة، بالطبع. إلا أن كتابة الكتابة تكتب الوكالة بطريقة قد تختلف عن طريقة

المرأة/المواطنة البريطانية داخل تاريخ الحركة النسوية البريطانية التي تركز على مهمة تحرير نفسها من ماضي بريطانيا الإمبريالي، وحاضرها العنصري في أغلب الأحيان، إلى جانب تاريخ الهيمنة الذكورية "المصنوع في بريطانيا".

### الترجمة بوصفها قراءة

كيف تتعامل المترجمة مع خصوصية اللغة التي تترجمها؟ ثمة طريقة ما تعطل بها الطبيعة البلاغية لكل لغة نظاميتها المنطقيّة. فإذا أكدنا على المنطقي على حساب هذه التداخلات البلاغية، فإننا نظل آمنين. "الأمان" هو المصطلح المناسب هنا لأننا نتحدث عن المخاطر، عن العنف الموجه نحو وسيط الترجمة.

شعرت بأنني أواجه تلك المخاطر عندما تصدبت مؤخرًا لترجمة بضع قصائد من الشعر البنغالي القرن الثامن عشر. استشهد هنا بفقرة من "تصدير المترجمة" الخاص بي: ينبغي عليّ أن أتعلم على ما تلقينه في الدراسة: أعلى الفرجات لأنق مجموعة من المترجمات، التي تتراص بجوار بعضها البعض من خلال تركيب متماثل. لابد أن أقوم رصانة النشر الشعري الفكتوري العفيف والبساطة للتكلفة للـ"الإنجليزية البسيطة"، اللتان فرضتا نفسيهما بوصفهما القانون التعارف عليه... الترجمة أكثر أفعال القراءة حميمة. أنا استسلم للنص وأنا أترجم. ولهذه الأغاني التي يغنيها أفراد الأسرة يوماً بعد يوم بشكل جماعي قبل أن تتكون الذاكرة الراكدة مكانة حميمة وخاصة بالنسبة لي. وتتخذ القراءة والاستسلام معان جديدة في مثل هذه الحالة. كما يُخرَج للمترجمة بمخالفة أثر الآخر - قبل الذاكرة - في أقرب مواضع الأنا<sup>(1)</sup>.

غير أن اللغة ليست كل شيء؛ فهي إشارة لا شئ عنها فحسب إلى الموضع الذي تتخذ فيه الأنا حدودها. تشير الطرق نفسها التي تعطل بها البلاغة أو التشكيل المنطقي إلى إمكانية العزفية العشوائية، بجوار اللغة، وحول اللغة. ولا يمكن لمثل هذا الإثراء الانتشار أن يكون تحت سيطرتنا. لكننا في الترجمة، حيث يقلز المعنى إلى الفراغ الرحب بين لغتين تاريخيتين معروفتين، نصبح قريبين منه قريباً خطراً. كما نشعر عن طريق اللعب بالبلاغة المعطلة التي تكسر السطح بطرق ليست مترابطة بالضرورة بأن كسارات اللغة-النسيج قد تفككت. وتنبأنا إلى "هسالات" أو تبهيلات<sup>(2)</sup>. ورغم أن كل فعل للقراءة أو الاتّصال جزء من هذا التمثل الخطر الذي يقع بسرعة يشكل ما، فإن الخطر الذي تقع فيه في الوكالة

يوصل التمثل إلى الحد الأدنى فيما عدا في الاتصال وفي القراءة وفي الحب. (ما هو موقع "الحب" بالنسبة للأخلاقي؟ جاهدت إنجليزي للإجابة على هذا السؤال كما رأينا). وتتمثل مهمة الترجمة في تسهيل هذا الحب بين الأصل وبين ظله، حبٌ يسمح بالتمثل، ويجذب وكالة الترجمة ومتطلبات جمهورها للتخيل أو الفعلي. تكبت سياسات الترجمة من نص امرأة غير أوروبية في أغلب الأحيان هذه الإمكانية لأن الترجمة لا يمكنها الانتخاط في بلاغية الأصل أو أنها لا تعيا بها بصورة تدل على عدم الكفاءة.

يعمل النسق البلاغي على احتواء الإمكانية البسيطة بأن شيئاً ما قد لا يكون ذا معنى مثل الخطر الممكن دائماً والكامن في وجود فضاء خارج اللغة. ويؤدي هذا (التحدي) إلى السطح في أكثر صوره إثارة للعرب في محاولة التواصل مع كائنات عاقلة محتملة أخرى في الفضاء. (ومن ثم تُختلف تُرجماً هذه الغيرية أو الأخرية المطلقة لتغدو أنا أخرى تشبهنا، لكن يمكننا التواصل معها بأقل قدر ممكن). غير أن أدامها الأكثر في صورته الخام يقع عبر لغتين أرضيتين، فخبرة الأخرية أو الغيرية التي تم احتواؤها في لغة غير معروفة والتي يجري الحديث بها في بيئة ثقافية مختلفة خيرة غريبة أو مرعبة uncanny.

دعنا نرى الآن أن البلاغة قد تسيطر المنطق في تلك اللغة الأخرى أثناء إنتاج وكيل ما، وتشير إلى العنف المؤسس للصمت المضمحل هذه البلاغة. يسمح المنطق لنا بأن ننقز من كلمة إلى أخرى من خلال ترابطات مشار إليها بوضوح. أما البلاغة فلا بد أن تعمل في الصمت بين الكلمات وحولها للرى ما الذي يعمل منه وما مقداره. العلاقة غير المستوية بين البلاغة والمنطق، وحالة المعرفة وتأثيرها، علاقة يتكون العالم من خلالها بالنسبة للوكيل، بحيث يمكن للوكيل أن يتصرف بطريقة أخلاقية، وسياسية، ويومية، بحيث يمكن للوكيل أن يكون على قيد الحياة، بطريقة إنسانية، في العالم. وما لم يستطلع المرء على الأقل أن يؤسس نموذجاً لهذا بالنسبة للغة الأخرى، فلن تكون هناك ترجمة حقيقية.

لسوء الحظ من السهل للغاية إنتاج ترجمات إذا ما توجهت هذه المهمة تماماً. بالنسبة لي لا أرى اختيلاً بين الطريقة السريعة والسهلة والمتسعة، والترجمة الجيدة التي تنجزها بصعوبة. ليس هناك سبب يستدعي أن يستغرق إنجاز ترجمة مسنولة وقتاً أطول، فقد يأخذ استعداد الترجمة وقتاً أطول، وحيها للنص قد يكون مسألة إحدى مهارات القراءة التي تستلزم الصبر. لكن إنتاج مادة النص في حد ذاته لا يلزم أن يكون بطيئاً.

يتم الآن إعداد نوع من بناء كولونيالي جديد للمشبه غير الأوروبي دون معنى بلاغية اللغة. فليست هناك حاجة لتحقيق الراحة يمكن أن تكون مقنعة هنا. تلك هي الحجة دائماً، على ما يبدو. وهنا انتقل من مفهوم ياريت الممكن عن مسألة اللغة في ما بعد البنيوية. أوضحت ما بعد البنيوية لبعض منا أداء الوكيل ضمن مفهوم ثلاثي للغة (على أساس أنه البلاغة، والمنطق، والصمت). لا بد أن نحاول أن ندخل ذلك الأداء أو نخرجه، كما يخرج الخرج مسرحية ما، وكما يفسر ممثل ما النص، ويتطلب ذلك نوعاً من الجهد مختلفاً عن اعتبار الترجمة مسألة مفردات؟ وتركيب وألوان محلية.

وحتى أكون ناقدة ليس إلا، تأجيل الفعل إلى إنتاج الترجمة المطلوبة ليس بالأمر العملي. لكنني عندما أسمع نريدا، بشكل مبرر للغاية، وهو يشير إلى الصعوبات بين اللغة الفرنسية والإنجليزية، حتى عندما يوافق على الحديث باللغة الإنجليزية – “لا بد أن أتحدث بلغة ليست لغتي الأصلية لأن ذلك سيكون أكثر عدلاً” – أرغب في المطالبة بهذا الحق لنفس الشكوى المحترمة الخاصة بنص امرأة باللغة العربية أو الفيتنامية<sup>1</sup>.

الأكثر عدلاً هو أن نفتح المجال لأكثر عدد من نصيرات المرأة. لذا لا بد أن يُقَّبل من هذه النصوص الحديث بالإنجليزية. الأكثر عدلاً أن نتحدث بلغة الأغلبية عندما يعطى عدد كبير من نصيرات المرأة من قبيل الحفاوة لمناصرة المرأة الأجنبية حق الحديث، بالإنجليزية. أما في حالة الأجنبية المنتمة إلى العالم الثالث، فهل قانون الأغلبية هو قانون اللهاقة، قاتون المساواة الديمقراطية، أم “قانون” الأقوى؟ يمكننا التركيز على هذه الحيرة. ليس هناك بالضرورة بريق بشأن الرؤية النسوية الغربية. (بدت لي دائماً “النظرة الطبيعية” لعرض جاك لكان للبيئة النفسية للرؤية من خلال السلوك السياسي الجماعي نظرة مهتزة إلى حد ما). ومن ناحية أخرى، ليس ثمة نيل جوهرى في قانون الأغلبية أيضاً. هذه مجرد أسهل الطرق لأن تكون “ديمقراطياً” مع الأقليات. ففي فعل الترجمة الجماعية إلى الإنجليزية يمكن أن تحدث خيانة للنموذج المثالي الديمقراطي نحو قانون الأقوى. ويحدث هذا عندما يُترجم كل أدب العالم الثالث إلى نوع من الترجمة معها، بحيث يصبح أدب امرأة في فلسطين شبيهاً، من خلال ما تحسه من الثقل، بشي، ما خلاص برجل من تاياوان. بلأية اللغة الصينية والعربية! السياسات الثقافية لمنطقة الباسيفيكي-آسيا الرأسالية عالية النعوى، وغرب آسيا التي لحقتها الدمار! اختلافات النوع مكتوب ويكتب في هذه الاختلافات!

أما بالنسبة للطالب، فإن الترجمة المُرفَّقة لا يمكنها منافسة التجارب الأسلوبية المبهرة لكاتبة مثل مونيك ويتنج Monique Wittig أو أليس ووكر Alice Walker.

لننظر إلى مثال آخر حين يؤدي التعامل مع التجارب الأسلوبية للمؤلفة إلى إنتاج نص مختلف. نص ماهاسوينا ديفي “ستاناداييني” Stanadayini متاح بنسختين<sup>2</sup>. عبّرت ديفي عن موافقتها على التعامل مع أسلوبها الخاص والمميز في النسخة الصادرة بعنوان “مانحة-الذي”. وتعطي الترجمة البديلة عنوان “المرضة-المبللة”، وبالتالي تُحمّد سخرية المؤلفة من خلال بناء كلمة مربّعة بما يكفي مثل كلمة “المرضة-المبللة” للتعبير عن ذلك المعنى، وبما يكفي بصورة مختلفة لكي تصدم [القارئ]. إن الأمر كما لو كانت الترجمة عليها أن تختار ترجمة عنوان ديلان توماس الشهير والبيت الافتتاحي كما يلي: “لا تذهب برقة إلى تلك الليلة اللطيفة”. ثمة معاملة الذي باعتباره عضواً من القوة الوكيلية باعتبارها سلعة والذي باعتباره شيئاً جزئياً كناية ترمز إلى آخر باعتباره شيئاً – الطريقة التي تلعب فيها القصة بهاركس وفرويد بمناسبة جسد المرأة – شاعت حتى قيل أن تدخل القصة. تستخدم ماهاسوينا أمثالاً صاندة حتى بالبنغالية في النص. وتغلغل ترجمة “المرضة المبللة” هذه الأمثال، حيث قررت ألا تترجم هذه الأمثلة الصعبة من الحكمة الدنيوية، مقابل دخول

محدد الطبقة نحو الحداثة، التي تمثلت في القصة أيضًا. في الواقع، إذا قرئنا الترجمات جنبًا إلى جنب، يمكننا أن نشعر بحالات الصمت البلاغية بالأصل من ترجمة إلى أخرى. أولاً، وقبل كل شيء، لا بد أن تستلم الترجمة للنص، ولابد أن تقابل النص بأن يبين حدود لغته، لأن هذا الجانب البلاغي سوف يشير إلى صمت تنسل اللغة المطلق الذي يحول النص دون وقوعه، بطريقته الخاصة. يظن البعض أن هذه ليست سوى طريقة إثيرية للكلام عن الأدب أو الفلسفة. لكن ليس هناك أي مقدار من الكلام الصعب يمكن أن يصل إلى حقيقة أن الترجمة هي أكثر أفعال القراءة حميمة. وما لم تحصل الترجمة على الحق في أن تصبح القارئة الحميمة، فلا يجوز لها الاستسلام للنص، ولا يجوز لها الاستجابة لنداء النص الخاص.

قد يقابل الافتراض بأن النساء يشتمن بشما من طبيعتهن أو سردي-شأنخي ووجود شيء ما في امرأة أو قصة امرأة غير محددة العالم تتحدث إلى امرأة أخرى دون قاعدة تعلم اللغة مهمة الترجمة في الاستسلام. من المفارقة أنه ليس ممكنًا بالنسبة لنا كوكلاء أخلاقيين تحليل الأخيرة أو الغيرة في أكبر حالاتها. لا بد أن نحول الآخر إلى شيء أشبه بالأنثى حتى تكون أخلاقية. الاستسلام في الترجمة أيروسي أكثر منه أخلاقي. وفي هذا الموقف التوجه الدال على حسن النوايا "إنها مثلي تمامًا" ليس مفيدًا للغاية. وطالما أن ميشيل باريت ليست جيهاري سيفاك، فإن صداقتها أكثر فاعلية كترجمة. وللحصول على هذا الحق في الصداقة أو استسلام الهوية، حق معرفة أن بلاغة النص تشير إلى حدود اللغة بالنسبة لك طالما أنك مع النص، لا بد أن تكون في علاقة مختلفة مع اللغة، وليس حتى بالنص المحدد.

تبادر إلى ذهني بعد التعرف إلى الترجمة المراد إنجازها فكرة أنه سيكون من المفيد عمليًا لو كانت علاقتنا باللغة المترجمة علاقة من يقفل في بعض الأحيان أن يتحدث بها عن الأشياء الحميمة. ليس هناك أكثر من اقتراح عملي، وليس متطلبًا نظريًا، مفيدًا لاسمها أن الكاتبة "النسوية" سواء بعلمها أو دون علمها - وبالطبع ليست كل الكاتبات "نسويات" حتى بهذا المعنى الواسع - سوف تفهم أداء (الوكالة) ثلاثي الأجزاء (في اللغة بطرق عُرِفَتْ بأنها "خاصة"، بما أنها قد تشكل في المناورات اللغوية الأكثر عمومية.

لننظر إلى مثال لاتعداد الحميمة مع الوسيط ففي "العالم الداخلي" لسودهير كاكاز، وفي أغنية عن كالي Kālī كتبها الراهب فيفيكاناندا Vivekananda الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر وتم الاستشهاد بها كجزء من الدليل على "الترجمة المزمعة" لدى الذكر [هكذا] الهندي<sup>(١)</sup>. (تس ديفي نفس النقطة بالإشارة إلى كريشنا وشيفا وربطها بالتعصب الذكوري بدلًا من الترجسية وبلا غفلة التحليل النفسي).

إن يكون ممكنًا من خلال وصف كاكاز أن تلجأ إلى "التلميذ" الذي يسرد الظروف الغريبة لتأليف فيفيكاناندا للأغنية كان امرأة أيرلندية أصبحت راهبة راماكريشنا، أي امرأة بيضاء بين الرهبان والنساء الهنود الذكور<sup>(٢)</sup>. ترجمت الأغنية بهذه المرأة في الرواية التي يقرأها كاكاز، والتي يتصف تدريجها على الحميمة مع اللغة الأصل بالشمول بما تنمناه. ثمة



توجد قوي بين القوميين الهنود والأيرلنديين في هذه الفترة، واعتلقت نفيديتا، كما كانت تُسمى، أيضاً ما فهمت أنه طريقة الحياة الفلسفية الهندية كما أوضحها فيفيكاناندا، وهي نفسها نتيجة مميزة ومقاومة من نتائج ثقافة الإمبريالية، كما أوضح الكثيرون. لابد أن يكون نص الترجمة التاريخي والفلسفي والجنسي هذا بالفعل، بالنسبة لمحايل نفسي مثل كاكاز، النسيج الذي ننسج به. ومن ناحية أخرى، لا تعمل النسخة الإنجليزية التي "أعطتها" "التلميذة" المجهولة إلا بمثابة عرض مصمت يقدم الدليل على حقيقة الترجمة القويمة. إنها ليست موقع تبادل اللغة.

هناك إشارة إلى رام براشاد (أو رام بروشاد، ١٧١٨-١٧٨٥) في بداية الفقرة التي اقتبسها كاكاز الذي يورد هامشاً هذا نصه: "مغنى وشاعر بالقرن الثامن عشر تتصف أغاني الحنين للأُم التي يغنيها بالشهرة الواسعة في البنغال". اعتقد أن هذا الهامش أيضاً إشارة إلى ما أطلق عليه اسم غياث الحميمة.

ففيكاناندا نموذج، من بين أشياء أخرى، للبذاء التفاعلي المميز لـ "هند" مجيدة في ظل استغراز الإمبريالية. رفض "الوطنية" لصالح "كالي" Kālī المذكور في فقرة كاكاز يحدث في هذا المسرح التاريخي، كاختيار العالم الأنثوي الثنائي بدلاً من العالم الذكوري الكولونيالي<sup>(١٠)</sup>. ومن "الصواب" بما لا شك فيه أن رام بروشاد سبّ بشكل نوعاً من الأنا المثالية بالنسبة لهذا الشخص. تقاعد سبّ ليتقاضى معاشاً من مهنة بائع مع صاحب أرض ريفي، حينما كان الإنجليز بالفعل في البنغال لكنهم لم يطالبوا بالأرض رسمياً. وحصل هو نفسه على قطعة أرض من أحد كبار أصحاب الأراضي الريفيين في العام الذي أعقب الحركة التي اقتصحت مشروع شركة الهند الشرقية للأراضي، وتوفي قبل أن تتسبب المستوطنات الدائمة في صدع معرفي (إبستيمي) عنيف بثمانية أعوام<sup>(١١)</sup>. بمعنى آخر، فيفيكاناندا ورام بروشاد عبارة عن لحظتان متصلتان من لحظات التفوق الكولونيالي التي تترجم الرسم الذي يصور كالي. ويسخر هذا الهامش عديم الأهمية من الدقة الدينامية لذلك النسيج الثقوي.

سيكون الدخول في جدل حول "هوية" كالي أو بالفعل أية ربات أخرى في "تعددية الآلهة" الهندوسية عديم الفائدة هنا. لكن وببساطة كي نسج الأشياء في سياقها، دعني أضف أن رام بروشاد هو الشخص الذي كتبت "تصدير الترجمة" عن شعره المذكور سلفاً، فهو بأي حال من الأحوال مجرد اكسوار عتيق على خشفة مسرح في رواية "التلميذة" عن "أزمة" فيفيكاناندا. وإليك بقعة سطور أخرى من "تصديري": "لعب رام بروشاد بلسانه الأُم، حيث ينقل قيمة أكثر الكلمات غزارة في المعاني بالسفسكيتية، لم أستطع أن أحظ الثبرة الجديدة تماماً إلا أنها محددة النوع للغاية من المحادثة الخفيفة المليئة بالشاعر" - ليس فقط، ولهم حتى بدرجة كبيرة "الحنين" - "بين الشاعر وبين كالي". ما لم تسمي نفيديتا الترجمة، فإن الفرق في الثبرة بين لعب رام بروشاد المبدع ورسالة فيفيكاناندا القومية الرفيعة كبير من الناحية التاريخية، رغم الانتقال من القومية إلى الأُم. تحولت سياسات

الترجمة إلى نطاق المحلية التفاعلية. وتم التعبير عن ذلك التغيير من خلال تحديد النوع في صوت الشاعر.

كيف تفهم النساء في تعدد الآلهة المعاصر هذه الأم الغريبة، وهي بكل تأكيد ليست الأم السهلة المحللة النفسية التي اقتبسها كاكاز من سوء قراءة ماكس فيبر، ولمست حتى أمًا مُعاقبة منظمة، لكنها أم-طفلة تعاقب بعنف شديد وفي نفس الوقت مراقبة أخلاقية وعطوفة؟<sup>41</sup> نساء عاديات، ولهن نساء قديسات. فلماذا نُسمِّى بأن استحضار الريات في المجال متعدد الآلهة الذكوري تاريخيًا أكثر نسوية من ادعاء نيتشه أو دريدا بأن المرأة نموذج؟ أظن أن القول بأن النساء القويات في تقليد الساكتا (عبادة الساكتا أو كالي) يتخذن "بالضرورة" من كالي قدوة ليس إلا اقتراحًا غريبًا ذكوريًا.

تخبرني شخصية جاشودا في نص ماهايهوتا عن العلاقة بين الريات والنساء القويات العاديات أكثر مما يخبرني المحلل النفسي. وهنا أيضًا يمكن ذكر مثال إحدى الترجمات الحميمة التي صارت "خاطئة" بشكل محترم. ترجمت زوجة أحد الفنانين البنغاليين الفرنسية بعضًا من أغاني رام بروشاد في العشرينيات لمصاحبة رسومات زوجها المعتمدة على الأفاني. وتشوهت ترجماتها بسبب الاستشراق الراسخ والحاضر لديها. قارن بين فقرتين، كلاهما تترجمان البنغالي "نفسه". حاولت على الأقل، حتى لو أخفقت، وضع يدي على السخرية اللاذعة من الأم وكالي في الأصل:

Mind, why footloose from Mother?

Mind mine, think power, for freedom's dower, bind bower with  
love-rope

In time, mind, you minded not your blasted lot.

And Mother, daughter-like, bound up house-fence to dupe her  
dense and devoted fellow.

Oh you'll see at death how much Mum loves you

A couple minutes' tears, and lashings of water, cowdung-pure.

إليك النص الفرنسي الذي ترجمته إلى نص إنجليزي مشابه في التبرة والمفردات:

Pourquoi as-tu, mom âme, délaissé les pieds de Ma?

O esprit, médite Shokti, tu obtiendras la délivrance.

Attache-les ces pieds saints avec la corde de la dévotion.

Au bon moment tu n'as rien vu, c'est bien là ton malheur.

Pour se jouer de son fidèle, Elle m'est apparue

Sous la forme de ma fille et m'a aidé à réparer ma cloture.  
C'est à la mort que tu comprendras l'amour de Mā  
Ici, on versera quelques larmes, puis on purifiera le lieu.

Why have you, my soul [mom āme is, admittedly, less heavy in French], left Mā's feet?

O mind, meditate upon Shokti, you will obtain deliverance.

Bind those holy feet with the rope of devotion.

In good time you saw nothing, that is indeed your sorrow.

To play with her faithful one, She appeared to me

In the form of my daughter and helped me to repair my enclosure.

It is a death that you will understand Mā's love.

Here, they will shed a few tears, then purify the place.

واليكم النص بالبنغالية :

হর হর মা হর-হর ।  
ও মন, যা নতি, গার শক্তি, যাঁর দিগন্ত জিত-হতা ॥  
যখন থাকবে, যা দেখবে হর, তখন সেবার কামারগাতা ।  
যা উক্ত জীবিত, তখন সত্যের স্বর্গের অতি ধারের বক্স ॥  
মায়ের মত জামাতা, বুঝা যাবে ধৃত্যমত,  
জামাতা দত্ত-দুঃখ কাটারগতি, শেখা দিবে গোরহুতা ।

أعني أن تبين هذه الأمثلة أن عمق الالتزام بالسياسات الثقافية الصحيحة والذي نشعر به في تفاصيل الحياة الشخصية ليس كافياً في بعض الأحيان، إذ لابد أن يظهر تاريخ اللغة، وتاريخ لحقة المؤلف، وتاريخ اللغة في الترجمة واللغة باعتبارها ترجمة في عملية التسيج أيضاً.

سوف نسمح المقولية في حد ذاتها للبلاغة بأن تتعدل، وأن تتواجد في مكانها، وتتموضع، وبالأثرى إلا بصورة لطيفة. وُضِعت البلاغية في مكانها بهذه الطريقة لأنها تُعْطَل. وعندما يقبل النساء داخل المجتمع الذي يسيطر عليه الذكور التعصب الذكوري باعتباره الحالة العادية ويستوعبونه، فإنهن يُعَيَّن عن سبيل فرد النسوية التي تشبه هذا بصورة رسمية. العلاقة بين المنطق والبلاغة، بين النحو والبلاغة، هي أيضاً علاقة بين المنطق الاجتماعي، والمقولية الاجتماعية، وتعطل التمثيل أو التشكيل في الممارسة الاجتماعية. هناك أول جزئين من نموذجنا ثلاثي الأجزاء. غير أن البلاغة تشير عندئذٍ إلى إمكانية المشاكلة، والمُزَيِّفة كَيْفَمَا اتفق في حد ذاتها، والانتشار، وتوقف اللغة عن العمل، وإمكانية

ألا تصبح الأشياء منقطة سيميوطيقيا دائماً. (تتمثل مشكلتي مع كريستيفا و"ما قبل السيميوطيقي" في أنها على ما يبدو تريد أن توسع امبراطورية ما له معنى من خلال الإمساك بما تستطيع اللغة الإشارة إليه فقط). فالثقافات التي قد لا تتمتع بهذا النموذج ثلاثي الأجزاء الخاص سيظل لديها مجال مهم في حركته مع اللغة والفرضية. وتبين لنا كتابات مثل إيلي أماديومي، دون النظر إلى هذا المجال باعتباره محدداً من الناحية البيولوجية، أنه لا يزال يتعين علينا التفكير من خلال المجالات التي تحددها تعريفات الخصائص الجنسية الثانوية والأولية بحيث يتعدى التواجدون في المجال الآخر الذاتي، ليسوا فاعلاً بدرجة كاملة<sup>(1)</sup>. كما ينبغي تعلم طريقة تعامل الجماعات الهيمنة مع أنطولوجية اللغة ثلاثية الأجزاء أيضاً - إذا ما تم الاعلان عن الطرق الثانوية للتحايل على البلاغة.

ولكي تقرري إذا كنت مستعدة بما يكفي للشروع في الترجمة، فربما يكون من المفيد إذن أن تكونتي متقدمة في الحديث، عن طريق الاختصار أو التفصيل، عن الأمور الحميمة باللغة الأصل. جاعدت الآن للوصول إلى نقطتي السابقة وهي أنني لا أستطيع أن أرى السبب وراء ضرورة أن تنظم رغبة الناشرين أو رغبة الفصل الدراسي أو بسبب الوقت بالنسبة لأساس ليس لديهم الوقت كي يتعلموا بناء باقي العالم بالنسبة للتسوية الغريبة. أظن أنها انتقدت بشدة كونها لا تتصرف مثل الأخوات منذ خمسة أعوام، "حسنٌ، تعرفين أن علينا أن نكون أكثر عطاءً الخ"، ثم سألت نفسي ثانية، "ما الذي أعطيه، أو أتخلى عنه؟ من اللاتي أصطوبن عندما أؤكد أنه لا يتحتم عليك العمل هذا العمل الجاد، فقط تعالي واحصلي عليه؟ ما الذي أحاول أن أدعو إليه؟" سيقول الناس، أنت يا من نجحت لا تتظاهري بأنك مهمشة. لكن من المؤكد عن طريق المطالبة بمعايير أعلى من الترجمة، أنا لا أعمش نفسي أو أعمش لغة الأصلي؟

عرفت من خلال ترجمتي لديني كيف تعمل هذه الهيئة ثلاثية الأجزاء بصورة مختلفة عن الإنجليزية بلغتي الأصلية. وهنا مقارنة تاريخية أخرى أصبحت ماثلة أمامي بشكل شخصي. قديماً، كان أهم شيء بالنسبة لطالبة اللغة الإنجليزية الكولونiale أو ما بعد الكولونiale "ألا يمكن تمييزها" قدر استطاع عن المتحدث الأصلية للغة الإنجليزية. وأظن أنه من الضروري للنساء في تجارة ترجمة العالم الثالث الآن أن يتقن أن العجلة دارت، وأن ما المرأة ما بعد الكولونiale ثلاثية اللغة بشكل حقيقي الآن أصبحت مميزة. لكنها لا تتمتع بميزة حقيقية كمتترجمة إن لم تكن ثنائية اللغة فعلياً، إذا كانت تتحدث فقط لغتها الأصلية. ففضاؤها الأصلي الخاص في النهاية ينظم بصورة طبقية أيضاً. ولا يزال ذلك التنظيم يحمل في الغالب آثار الوصول إلى الإمبريالية، ويرتبط هذا في الغالب عكسياً بالوصول إلى الداريجة كلفة عامة. لذا تأتي هنا المطالبة بالحميمية بالاعتراف بالمجال العام أيضاً. فإذا كنا نفكر في ترجمة ماريان مور Marianne Moore أو إيلي ديكنسون Emily Dickenson، فإن المعيار بالنسبة للمترجمة لا يمكن أن يكون "أي شخص يمكنه إجراء محادثة بلغة الأصلي (الإنجليزية في هذه الحالة)". وعند تطبيق هذا على إحدى لغات العالم الثالث، فإن الوضع

سيكون بصورة كاملة مركزاً من الناحية الإثنية. ولم تقديم هذه الترجمات إلى طالبائنا غير المعدات بحيث يمكنهن أن يتعلمن شيئاً عن كتابة النساء

لأبد أن تكون المترجمة من أية لغة من لغات العالم الثالث، من وجهة نظري، على صلة وإفية بما يجري في الإنتاج الأدبي بتلك اللغة حتى تكون قادرة على التمييز بين الغث والسمين في الكتابات التي تقوم بها النساء، والكتابة المقاومة أو الموالاة التي تقوم بها النساء. ينبغي أن تكون قادرة على مواجهة فكرة أن ما يبدو مقابلاً في فضاء اللغة الإنجليزية قد يكون رجعيّاً في فضاء اللغة الأصل. قالت فريدا ألختر إن عمل حركة النساء والنسوية الحقيقي يُقوّض في بنجلاديش بسبب الحديث عن "تحديد النوع" الذي تُؤفقه أجنحة النساء بالمنظمات غير الحكومية متعددة الجنسيات إلى جانب بعض النظريات النسويات الأكاديميات المحليات<sup>(1)</sup>. فمن بين أفكارها المستترة أن كلمة "تحديد النوع" *gendering* لا يمكن ترجمتها إلى البنغالية، بل إن "تحديد النوع" كلمة صعبة وجديدة في الإنجليزية أيضاً. أكثر مشاركة بعمق في النسوية العالمية، لكن قاعدتها هي العالم الثالث. لم أستطع أن أترجم كلمة "النوع" إلى السياق النسوي الأمريكي من أجلها. طيش الترجمة هذا عن إسابة هدفها، بين قارة متفوقة للسياق الاجتماعي كأختر، وبين مترجمة حريصة مثلي، نتحدث كصديقتين، أضاف إلى المعنى الخاص بي عن مهمة المترجمة.

الجيد والودي، معيار مرن، مثل كل المعايير. وهنا درس آخر من دروس ما بعد البنيوية المفيدة، وهو أن قرارات المعايير تُتخذ على أية حال. ما يخطر هنا هو محاولة تبريرها تبريراً كافياً، ولهذا السبب يتطلب الإعداد التأديبي في المدارس خوفاً الاختبارات لإثبات هذه المعايير. وتخوض دور النشر بصورة روتينية في حيرة مادية بشأن تلك المعايير، إذ لابد أن تكون المترجمة قادرة على محاربة تلك المادية المتروبوليتانية بنوع خاص من معرفة المتخصصة، وليس مجرد المعتقدات الفلسفية.

بمعنى آخر، لابد أن يكون لدى الشخص التي تقوم بالترجمة إحساس قوي بمنطقة اللغة الأصل المحددة بحيث يمكنها محاربة الافتراض العنصري بأن كل كتابات العالم الثالث جيدة. وغالباً ما تقترب مني نساء يردن أن يضعن ديلي مع الكتابات الهنديات فحسب. وهذا مزيج بالنسبة لي لأن "النساء الهنديات" ليست فئة نسوية. (في الفصل الثاني من الكتاب ذكرت أن "الوحدات العرفية" *epistemes* وهي وسائل بناء هياكل العرفية — لا يجب أن يكون لديها أسماء وطنية أيضاً). أحياناً يُقصد بكتابات النساء الهنديات كتابات النساء الأمريكيات أو البريطانيات، فيما عدا "الأصل" الوطني. هناك أجندة ثقافية-إثنية، مسح لخصوصية العالم الثالث إلى جانب إنكار المواطنة الثقافية في وصفها بمجرد كلمة "هندية".

كانت نقطتي الأولى هي أن مهمة المترجمة تتمثل في: أن تُسَلِّم نفسها للبلاغة اللغوية للنص الأصلي. ورغم أن هذه النقطة لها معانٍ ضمنية سياسية أكبر، فيمكننا القول إن العاقبة غير الثقافية والبنائية لتجاهل هذه المهمة هي فقدان "أديبة الكتابة ونصيتها وحسيتها".

(كلمات باريت). سرت في طريقي نحو نقطة ثانية، وهي أن الترجمة لابد أن تكون قادرة على تمييز منطقة الأصل. ولتعالج هذا الموضوع بالزيد من التفصيل.

اخترت ديفي لأنها مختلفة عن مشهدها. سمعت أحد دارسي شكسبير الإنجليز يلح إلى أن كل جزء من النقد الشكسبييري والتابع من شبه القارة [الهندية] نكد مقاوم من هذا المنطلق. ومن خلال مثل هذا الحكم، فإننا نكفينا أنفسنا حق أن نكون ناقدين. من المسمي بالطبع أن نضع المكان في ظل القهر، وأن نحاول أن نجدد المكان عن طريق القسود المحسوبة. لكن هذا لا يعني أن كل شيء ينبع من ذلك المكان بعد استقلال تم التفاوض عليه منذ قرابة خمسين عامًا صواب بالضرورة. يتمثل الافتراض الأنثروبولوجي القديم (وهذه أنثروبولوجيا رديئة) بأن كل شخص من ثقافة ما ليس إلا مثالاً كاملاً لتلك الثقافة في تلميح زميلتي. لا أزال مهتمة بالكاتبات اللاتسي يخضن ضد التهار، ضد التهار المائد. ولا أزال مقتنعة بأن النص الأدبي اللثير للاهتمام قد يكون بالسيط النص الأدبي الذي لا تتعلم منه ما قد يكون رؤية الأغلبية عن تمثيل الأغلبية الثقافي أو تمثيل دولة ما من الدول الأمم لذاتها. لابد أن تعد الترجمة، في حالة الكتابة النسائية في العالم الثالث، نفسها كي تكون أكثر استعداداً من الترجمة التي تتعامل مع اللغات الأوروبية الغربية، بسبب حقيقة وجود الكثير من التوجه الكولونيالي القديم كاملاً في نشاط الترجمة، وإن كان قد أزيح بعض الشيء. "يمكن" لما بعد البنيوية تجذير ميدان الاستعداد بحيث لا يصبح مجرد تعلم اللغة بشكل تراكمي كافياً، فهناك أيضاً العلاقة الخاصة بأداء اللغة بوصفها إنتاج الوكالة التي لابد من التعامل معها. غير أن أجندة ما بعد البنيوية تقريباً في مكان آخر، كما سوف تؤدي بنا مقاومة النظرية بين أنصار المرأة المتربوليتانيات إلى سرد آخر.

يتصل فهم مهمة الترجمة وممارسة المهنة ببعضهما لكنهما مختلفان. دعني أخلص كيف أعمل، فلي البداية أترجم بسرعة. إذا توقفت للتفكير فيما يحدث للإنجليزية، وإذا افترضت جمهوراً، وإذا اعتبرت الذات صاحبة القصد أكثر من مقفز، فلن أستطيع التقز، ولن أستطيع التسليم. علاقتي بديفي علاقة سلسة. فأنا قادرة على أن أقول لها: أنا أسلم لك في كتابتك، وليس لك كذات صاحبة قصد. في الصداقة نوع آخر من التسليم. والتسليم للنص بهذه الطريقة يعني، في معظم الأوقات، الحرفية. وعندما أنتج نسخة من العمل بهذه الطريقة، أراجع. أراجع ليس من خلال جمهور محتمل، لكن من خلال بروتوكولات الشيء أعمى، بنوع من الإنجليزية. وأظن أتم أن تعجز الطالبة في الفصل الدراسي عن الظن بأن النص مجرد مورد للواقعية الاجتماعية إذا تُرجم بعين نحو أداء اللغة الديناميكي الذي تحاكيه في المراجعة قواعد خطاب الماسيين in-between الذي أنتجه تسليم حرفي.

لعل الأمل الزائف في المسألة أمر مختلف. عندما ترجمت كتاب جاك دريدا "عن الأجرومية" De la grammatologie، كتبت علي إحدى الدوريات الكبرى مراجعة للمرة الأولى والأخيرة. وفي حالة ترجماتي لديفي، ليس لدي أي خوف تقريباً من أن يحكم علي قرأتي بدقة هنا. وهذا ما يجعل المهمة أكثر خطورة ومقامرة: وذلك بالنسبة لي هو الفارق بين

ترجمة دريدا وترجمة ماهاشويتا ديني، وليس مجرد المارقي الأكثر اصطفاً بين الفلسفة التفكيكية والرواية السياسية.

الحجة المضادة ليست صحيحة تمامًا. هناك عدد كبير من الناس في العالم الثالث الذين يقرأون اللغات الإمبريالية القديمة. فالتاس الذين يقرأون الرواية النسوية الحالية باللغات الأوروبية يحتمل أن يقرأوها باللغة الإمبريالية الملائمة. وينطبق نفس الشيء على الفلسفة الأوروبية. فعل الترجمة إلى لغة العالم الثالث غالبًا ممارسة سياسية من نوع مختلف. أتطلع وأنا أكتب هذا أن أحاضر بالبنغالية عن التفكير أمام جمهور متقدم للغاية، وواسع الاطلاع في كل من البنغالية والتفكير (والذي يقرأونه بالإنجليزية والفرنسية وأحيانًا يكتبون عنه بالبنغالية)، بجامعة جادابور في كلكتا. سيكون هذا نوعًا من الاختيار للترجمة ما بعد الكولونيالية على ما أظن<sup>(3)</sup>.

لتغير الديمقراطية إلى قانون القوة في حالة الترجمة من العالم الثالث والتسا أكثر وأكثر بسبب علاقتها المميزّة بأي شيء يمكن أن تطلق عليه القسمة العامة/الخاصة. يمكن أن تكون الحجة التي يمكن قلبها ممكنة إذا سيطرت دولة العالم الثالث بعينها الإصلاح الصناعي أولاً وشرعت في الرأسمالية الاستيطانية الإمبريالية الاحتكارية كواحدة من بين نتائجها، وبالتالي فهي قادرة على فرض لغة ما باعتبارها معيارًا عالميًا. شيء أشبه بتلك التكتة الحفقاء: لو سارت الأمور في الحرب العالمية الثانية على نحو مختلف، لكانت الولايات المتحدة ستحدث اليابانية. مثل هذه الأحكام المؤمنة بالمساواة والمقومة ملائمة بالنسبة للغاتنا المضادة للواقع. وتظل الترجمة معتمدة على مهارة الأغلبية اللغوية. أحد منظري الترجمة البليجيكين البارزين حل المشكلة عندما اقترح بأنه بدلاً من الحديث عن العالم الثالث، حيث ثمة الكثير من العاقلة، فمن الأجدر بنا الحديث عن عصر النهضة الأوروبية، بما أن قدرًا هائلًا من الترجمات بالجملة بين الثقافات من اللغة القديمة اليونانية-الرومانية قد أنجز وقتذاك. وما نغفله هنا هو السلطة البحتة التي تُضفي على النصوص الأصلية في تلك الظاهرة التاريخية. حالة إحدى اللغات في العالم هي ما يجب علينا وضعه في الاعتبار عند استقراء سياسات الترجمة. يمكن أن تتعرض الترجمات بالبنغالية للمسخرة والتقد من قبل جماعات كبيرة من البنغاليين الذين يتحدثون الإنجليزية ويكتبونها. اللغات المهيمنة فقط هي التي لا يأخذ المستفيدين منها في اعتبارهم حدود نوابها الحسنة العاقلة. وتغدو الظاهرة أعصى في محاربتها لأن الأفراد المشاركين فيها مستفيدون حقيقيون ويتم تحديدهم بأنك مثير للشغب. ويصبح هذا عسيرًا بصورة خاصة عندما تستحضر نصيرة المرأة الثرؤبوليتانية، التي تكون في بعض الأحيان ما بعد الكولونيالية المندمجة، أو تترجم بالفعل مفهوم الفهم النسوي المشترك شديد السرعة.

إذا أردت أن يكون النص المترجم مفهومًا، حاولي أن تترجميه من أجل الشخصية التي كتبت. وتأتي المشكلة بوضوح هنا لأنها ليست ضمن نفس تاريخ الأسلوب. فما الذي تجعله مفهومًا؟ مستوى الفهم هو مستوى التجريد الذي تكوّن فيه الفرد بالفعل، حيث

يمكننا الحديث عن الحقوق الفردية. فعندما تتسكعون مع لغة بعيدة عن لغتك الخاصة (Mitwegsein) بحيث تفضلين الحديث بـ تلك اللغة، أحياناً، عندما تناقشين شيئاً معقداً، فأنت في طريقك إذن لأن تكوني بُعداً للنسب المفهوم بالنسبة للزائر، بلغة خلفية وسلسة، لا تستجيب لها في حياتها اليومية. لكن إذا جعلت كل شيء آخر مفهوماً، عن طريق لغة سريعة التعلم مع الفكرة بأنك تتقنين مضموناً، فإنك بذلك تخونين النس وتظهرين سياسات أقرب إلى الريبة والشك.

كيف يمكن قياس تضامن النساء هنا؟ وكيف يمكن النظر إلى خبرتهن المشتركة إن لم نستطع أن نتخيل الحركة في الفهم وهي تذهب وتجيء؟ أعتقد أن تلك الفكرة لأبد من دفنها بلطف كأساس للمعرفة إلى جانب فكرة العالمية الإنسانية. من الجميل أن نفكر في أن بين النساء قاسم مشترك، عندما نتقرب من النساء اللاتي ستكون إقامة علاقة معهن غير ممكنة. لكنها خطوة أولى عظيمة. لكن، لو كان اهتمامك يكمن في معرفة هل "ثمة" تضامن بين النساء، فمماذا عن التقدم خطوة من هذا الافتراض، والملائم كوسيلة لغاية مثل العمل الاجتماعي المحلي أو العالمي، ونحاول أن نخطو خطوة ثانية؟ وبدلاً أن نتخيل أن بين النساء تلقائياً شيء مشترك يمكن إدراكه، إنم لا نقول، بتواضع وبشكل عملي، إن أول التزاماتي نحو فهم التضامن هو أن أتعلم لغتها الأم. وسوف ترين الفروق على الفور. وسوف ترين التضامن أيضاً كل يوم عندما تحاولين تعلم اللغة التي تعلمت بها المرأة الأخرى أن تدرك الواقع وهي جالسة على ركية أمها. هذا إعداء لجميعية الترجمة الثقافية. فإذا كنت ستجربين شخصاً آخر من خلال الإصرار على تصورك للتضامن، فإن عليك الالتزام بتجريب هذه التجربة وانظري إلى أي مدى يصل تضامنتك.

من ناحية أخرى، إذا كنت مهتمة بالحديث عن الآخر أو الاعداء بأنك الآخر أو كليهما، فمن الضروري أن تتعلمي لغات أخرى. ويجب التمييز بين هذا وبين تقليد اكتساب اللغة العلمي من أجل العمل الأكاديمي. أنا أحدث عن أهمية اكتساب اللغة بالنسبة للمرأة التي تنتمي إلى ثقافة مهيمنة أحادية اللغة والتي تحول حياة الجميع يؤساً من خلال الإصرار على تضامن النساء على حسابها. لا أشعر بالارتياح لمفاهيم التضامن النسوي التي يُحتفى بها عندما يكون إنتاج كل الأشخاص المشاركين متشابهاً. هناك لغات لا حصر لها كبرت خلالها النساء في جميع أنحاء العالم وأصبحن إنثاً أو نسيوات للمرأة، غير أن اللغات التي ما زلنا نتعلمها عن ظهر قلب هي اللغات الأوروبية القوية، وأحياناً اللغات الآسيوية القوية، وأقل منها في الغالب اللغات الآسيوية الرقيقة. نحن هنا وتقدم المساعدة عندما يكون أداء الشعوب المهاجرة الكبيرة رديماً في البلدان المهيمنة، دولنا. أما اللغات "الأخرى" فلا يتعلمها سوى الأنثروبولوجيون الذين "ينبغي" أن ينتجوا المعرفة من خلال تقسيم معرفي (إستيمبي). وهم يوجه عام (رغم أنهم غير متشابهين) غير مهتمين بالبنية الثلاثة الأجزاء التي تناقشها. إذا كنا نناقش التضامن كمكانة نظرية، لأبد أن نتذكر أيضاً أن كل نساء العالم لا يجدن القراءة والكتابة. هناك تقاليد ومواقف تظل غامضة لأننا لا نستطيع أن نشاركهن



دستورهن اللغوي. ومن هذه الزاوية أحسست أن تعلم اللغات سوف يقوي تصوراتنا عما يعنيه استعمال العلامة "امرأة". فإذا قلنا لا بد أن تكون الأشياء مفهومة بالنسبة لنا، فمن هذه الزاوية؟ وماذا تعني تلك العلامة؟

رغم أنني استخدمت أمثلة للنساء على طول الخط، فإن الحجج تنطبق في كل الحالات. الأمر ببساطة أن بلاغة النساء قد تكون غامضة بصورة مشاعلة. لا أرى ميزة التركيز تماماً على موضوع بعينه، رغم ضرورة التأسيس للأولويات العملية. في الكتاب الذي ظهر فيه هذا الفصل لأول مرة بين مختارات من فصول أخرى، كان المحررون مهتمون بما بعد البنيوية وأثرها على النظرية النسوية. وبينما يمكن تطبيق بعض الفكر لما بعد بنوي على مؤسسة الوكيل من خلال عمليات اللغة الأدبية، فإن نصوص النساء قد تعمل بشكل مختلف بسبب التمييز الاجتماعي بين الجنسين. وبالطبع تنطبق هذه التلقطة بوجه عام على السياق الكولونيالي أيضاً. فعندما قرر نوجوي أن يكتب بلغة الكيكويو، ظن البعض أنه يأتي بلغة خاصة في المجال العام. لكن ما الذي يجعل لغة يشترك فيها الكثير من الناس في مجتمع ما لغة خاصة؟ كنت أفكر فيما تعرف بتلك اللغات الخاصة عندما كنت أتحدث عن تعلم اللغة. لكن اعتقادي أنه حتى ضمن تلك اللغات الخاصة ثمة فارق في الطريقة التي لا ينتج بها أبناء اللغة الذات محددة الجنس فحسب بل الوكيل محدد النوع، عن طريق نسخة من المركزية، التي تعطلها البلاغة باستمرار وتشير إلى العرَضية. ولا يزال هذا بالنسبة لي، ما لم يوضح بشكل آخر، حالة تحديد النوع المهيمنة والتابعة وتأثيرها. فإذا كان الأمر كذلك، فإن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نركز على نصوص المرأة. دعنا نستخدم كلمة "امرأة" لتسمية ذلك الفضاء الخاص بالذوات الجماعية التي تُعرّف بهذا الشكل من خلال الكتابة الاجتماعية للخصائص الجنسية الأساسية والثانوية. ثم بعد ذلك يمكننا أن نبدأ بحرص تتبع نوع من الشبوع في الاتصال ضمن الاستراتيجيات البلاغية للغات المختلفة. لكن حتى هنا، لا بد من وضع الأفضليات التاريخية في الحسبان. فليس لدى بهاراتي مخرجي، وأنيتا ديساي، وجاياتري سيبفاك نفس تشكيل الوكالة البلاغي مثل خادمة أمية بأحد البيوت.

يمكن أن يقودنا تتبع الشبوع من خلال ترجمة مسئولة إلى مناطق الاختلاف وأشكال التمييز المختلفة. وقد يكون هذا مهماً أيضاً لأنه، في تراث الإمبريالية، تحمل الذات القانونية الأثنوية علامة فشل التحول الأوروبي، مقارنة بالذات الأنثروبولوجية أو الأدبية الأثنوية من المنطقة. على سبيل المثال، الانقسام بين الشفراء الفرنسية والإسلامية في الجزائر الحديثة يحدث في الأسرة والزواج والوراثة والشرعية والوكالة الاجتماعية الأثنوية. هذه اختلافات لا بد لنا أن نضعها في الحسبان. ولا بد أن نحتلي بالاختلاف بين الأقليات الإثنية في العالم الأول وشعوب الأغلبية في العالم الثالث.

سأنتني باريث في إحدى المحادثات بيني وبينها إذا كنت الآن أميل أكثر نحو فوكو. هذا هو الأمر بالفعل. ففي كتابي "هل يمكن للتابع أن يتكلم؟" أتبعته خطأً نقدياً قوياً

إلى حد ما بهذا على عمل فوكو، كجزء من نقد عام للإمبريالية<sup>(14)</sup>. وكما ذكرت في الفصل الثاني [من الكتاب]، أنني أجد رغم ذلك مفهومه عن السلطة-المعرفة *pouvoir-savoir* مفيداً للغاية. أسهم فوكو في اللغة الفرنسية بهذه الكلمة المزدوجة من اللغة العادية (القدرة على المعرفة [ك]) لتأخذ مكانها بهدوء إلى جانب كلمة *vouloir-dire* (الرغبة في القول - أن تعني المعنى). على أكثر المستويات عادية، *pouvoir-savoir* هي المهارة المشتركة التي تسمح بأن نخفي على الأشياء معنى (مشتركاً). ومن المؤكد أنها ليست فقط السلطة/المعرفة بمعنى السلطة/المعرفة *puissance/connaissance*. تلك مؤسسات كلية. الطريقة الشائعة أو المشتركة التي نخفي بها المعنى على الأشياء، من جهة أخرى، تقلد نفسها في شبه الفرد. عند إلقاء نظرة على السلطة-المعرفة من حيث النساء، فإن أحد نقاط تركيزي كانت المهاجرين الجدد وتغير اللغة الأم و السلطة-المعرفة بين الأم والبنات. فعندما تتكلم البنات عن حقوق الإنجاب وتتكلم الأم عن حماية الشرف، فهذا يعني ولادة الترجمة أم موتها؟ فوكو مثير للاهتمام أيضاً في مفهومه الجديد لأخلاقيات رعاية النفس. ولكي نستطيع الوصول إلى موضوع الأخلاقيات فلعلنا من الضروري النظر إلى الطرق التي يُكَلَّم بها فرد ما في تلك الثقافة الاهتمام أو رعاية النفس أكثر من المفهوم العلماني المحدد إمبريالياً وهو أن الفاعل أو الذات الأخلاقية يفترض أنها إنسانية. في علمانية تتطابق بثبوتها مع المسيحية المغسولة في بياض الفلسفة الأخلاقية، فإن ذات الأخلاق لا وجه لها. كان فوكو في خروجه عن هذا يتعامل عن طرق أخرى لإضفاء المعنى على كيفية أن تصبح الذات أخلاقية. وهذا يثير الاهتمام لأنه ومع افتراض الصلة بين الإمبريالية والعلمانية، ليس هناك طريقة تقريباً للوصول إلى الأصوات العامة البديلة فيما عدا من خلال الدين. وإذا لم ننظر إلى الدين كآليات إنتاج الذات الأخلاقية، فإننا نحصل على أنواع مختلفة من "الأصولية". لا بد أن يكون العاملون في السياسات الثقافية وترابطاتها بفلسفة أخلاقية جديدة مهتمين بالدين في إنتاج الذوات الأخلاقية. هناك الكثير من المساحة للعمل النسوي هنا الآن نصيرات المرأة الغربيات لمن حتى الآن على وعي بالدين كأداة ثقافية أكثر منه علامة على الاختلاف الثقافي. أنا أعمل حالياً مع الأخلاقيات الأدائية الهندوسية مع البروفيسور بي. كيه. ساتيالا، وهو مناصر مستنير للمرأة. وأنا نصورة نشيطة للمرأة. تعلمت بمساعدة تعليمه وتفححه أن أميز بين المحفزات الأخلاقية والمحركات الأخلاقية حتى عندما أترجم أجزاء من الملحمة السنسكريتية بطريقة مخالفة لكل الترجمات المقبولة، لأنني لا اعتمد فقط على التعلم، ولا على "الإنجليزية الجيدة"، لكن على تلك الخطة ثلاثية الأجزاء التي تحدثت عنها طويلاً. أتمنى أن تسعد النتائج القراء. إذا كنا سننظر إلى أخلاقيات تنبع من شيء ما غير المثال العلماني تاريخياً - إلى أخلاقيات الاختلافات الجنسية، إلى أخلاقيات يمكنها مواجهة ظهور الأصوليات بلا اعتذار أو رفض باسم التنوير - فإن السلطة-المعرفة ورعاية النفس في فوكو يمكن أن يكون مضيئاً. وهذه "الطرق الأخرى" تعيدنا إلى الترجمة، بالمعنى العام للكلمة.

## الترجمة بوجه عام

أريد الآن أن أضيف قسمين لما تولد من المحادثة المبدئية مع باريث. سوف أواصل الحديث عن سياسات الترجمة بمعنى عام، عن طريق ثلاثة أمثلة للـ "ترجمة الثقافية" بالإنجليزية. أريد أن أوضح النقطة أن دروس الترجمة بالمعنى الضيق للكلمة يمكن أن تصل إلى أبعد بكثير.

أولاً، رواية "فو" FOB لجيه. إم. كويرتزي. تمثل هذه الرواية عدم لياقة رغبة المهيمن في إعطاء الصوت للمحلي. عندما حاولت سوزان بارتون، المرأة الإنجليزية بالقرن الثامن عشر من "روكسانا"، تعلم فرايدي الصامت (من رواية "روبنسون كروزو") قراءة وكتابة اللغة الإنجليزية، المرسوم هو لعبة تخمين الكلمات من أصواتها rebus غير مفهوم على لوحه ليمسحه، وبحجبه. لا يمكن أن تترجمي من موقع التفوق أحادي اللغة. كويرتزي كمولد أبيض يترجم "روبنسون كروزو" عن طريق تمثيل فرايدي باعتباره عاملاً للحجب.

ثانياً، رواية توني موريسون "محبوبة" Beloved<sup>(١)</sup>. لننظر إلى مشهد تغير اللغة الأم من الأم إلى البنات. على نطاق ضيق، إنه ليس تغييراً، لكن فقداناً، لأن السرور ليس عن الهجرة لكن عن الرق. سيث، الشخصية المحورية بالرواية، تتذكر: "ما أخبرها نان - زميل أمها في الرق وصديقها - عما نسيته، إلى جانب اللغة التي تحدثت بها أمها، والتي لن تعود أبداً. لكن الرسالة - التي كانت - وظلت قائمة على طول الخط". (م، ٦). تمثل هذه الرسالة، حيث تمر من خلال نسيان الموت لابنة سيث الشبيهة بالأصابع محبوبة، تمثيل للمحبب: "ليست هذه حكاية يمكن تمثيلها من شخص لآخر" (م، ٢٧٥).

بين الأم والبنات، يتداخل حجب تاريخي معين. فإذا عمل الموقف بين الأم والبنات المهاجرة الجديدة على إثارة السؤال عما إذا كان ميلاد الترجمة أم موتها (انظر أعلاه، ...)، هنا تمثل المؤلفة بنفس ميلاداً معيناً داخل الموت، مؤثراً داخل الميلاد لحكاية لا يمكن ترجمتها أو تمثيلها لآخرين. لذا، وعلى نطاق ضيق، فهي القلق أو عدم اليقين aporia. لكن رغم ذلك تم تمثيلها، وعليها علامة "عدم" القابلية للترجمة، في الرواية المُقيدة "محبوبة" التي نسمكها بين أيدينا. قارن هذا باللغة في فهم في بيت القوة، حيث ينتظر التاريخ أن يُستعاد.

مشهد العنف بين الأم والبنات (القول والممر من البنات سيث إلى ابنتها دينفر، التي تحمل اسم زالة بيضاء، في اعتراف جزئي بتفاسد النساء في الولادة)، هو إذن حالة (عدم) إمكانية "محبوبة":

التقني وحلتي وراء بيت الدخان. ووراء فتحت مقدمة فستانها ورفعت ثديها وأشارت تحته. تحت حلمها تماماً كانت هناك دائرة وصليب محروق على الجلد مباشرة. قالت: "هذه هي أمك. هذه"، وأشارت ... قلت "نعم، أمي" "لكن كيف ستعرفيني؟ ... تعلميني بعلامة، أيتها" سألت دينفر "هل فعلت؟" "لعلقتي على

وجهي "إي" "لم أفهمها وقتذاك. ليس إلا عندما وضعت علامة على جلدي".  
(م، ٦٦).

هذا الشهد، مشهد ادعاء وسم المالك بعلامة على أساس أنه "خاص بي" كي تخلق في هذه السلسلة المكسورة من العلامات التي يملكها وكلاء، بيض ذكور منفصلين للملكية، سلسلة غير مكسورة من إعادة الذاكرة في البناات (المستقرات) كعلامات لتاريخ لا يمكن تعريبه لأحد، هو بالضرورة مختلف عن مشهد فرايدي للكتابة المحجوبة من المرأة البيضاء التي تريد خلق التاريخ عن طريق إعطاء لغتها "الخاصة". والدرس هو (عدم) إمكانية الترجمة بمعنى عام. تشير البلاغة إلى العُرضية المطلق، وليس تنابعية الزمن، وليس حتى دورة الفصول، لكن فقط "الطقس". لقد انمحي كل أثر مُستقبل، وما لبسي ليس فقط آثار الأقدام لكن الماء أيضًا وما تحته. الباقي هو الطقس. ليس نفس المنسبين وغير المحسوب حسابهم — يعد النحاء الأثر، لا مشروع لاستعادة تاريخ (النساء) — "لكن الرياح في طرف المطح الناشئ من الجدار، أو جليد الربيع الذي يذوب بسرعة هائلة. مجرد الطقس" (TV5).

ومع استحشار العُرضية، حيث الطبيعة قد تكون "الجسد العظيم بلا أعضاء امرأة" يمكن أن نضم أنفسنا مع ويلسون هاريس، مؤلف "رباعية جويانا" الذي يعتبر الأشجار "رثات العالم"<sup>١٧٠</sup>. يحيي هاريس (إعادة) ميلاد الخيال المحلي باعتباره أنه ليس فقط الترجمة لكنه تحول في جوهر trans-substantiation الأنواع. ما هو في لغة أكثر ملاءمة أطلقتم على الالتزام المترجمة كي تستطيع اللعب بحالات الصمت البلاغية في لغتين، يضع هاريس هذه الطريقة، حيث يشير إلى الحاجة إلى ترجمة إنجليزية الكاريبي:

القلوب العظمى الكاريبي، المصنوع من العظام البشرية، عبارة عن بشرة في روح الكاريبي. إنه تكنولوجيا بدائية يمكننا قليبها [نسخة مقلوبة؟]. باستهلاكنا لتحيزتنا وأوجه تعصبا داخلنا يمكن أن نجعل القلوب العظمى يساعدنا على أن نفتح أنفسنا بدلاً من قراءتها بالطريقة الأخرى — كافتراض كنائني للقطعة من اللحم البشري<sup>١٧١</sup>. ربط الموسيقى بأكل لحوم البشر تناقض راق. عندما تفتح موسيقى القلوب العظمى الأبواب، وتتدفق الغياهب، وتضع مكونات الخيال المحلي مكونات للأنية الكمية من مصادر لا يمكن التنبؤ بها.

يقول ويلسون هاريس أن الكتاب الكاريبيين عملوا القلوب العظمى لأن الواقعية التقدمية طريقة كاريبية لكتابة الرواية التي تحصد الجوائز. الواقعية التقدمية تقيس العظام. الواقعية التقدمية هي وصول الترجمة أو فهمها شديد السهولة كقتل للعادة.

واقعية الغرب التقدمية رفضت الخيال المحلي على أساس أنه محل الفيتش. ولعل هيجل كان أعظم مُنظم لهذا الرفض. وأحياناً يقيس النقد الثقافي التحليلي النفسي في تجسده الكاريبي الحالي العظام بدقة مخيفة. لعل ليس من قبيل المصادفة أن الفترة أدناه تعطينا فكرة عن هيجل وهو بالبسط البقيش لرؤية هاريس. تناقض الراقي والعظام هنا تؤدي إلى

اللغة التي ينظر إليها باعتبارها محمولاً، حيث بنية اللغة ليست إلا منطقاً. وتجمل سلطة اللغة العليا الترجمة مستحيلة:

الراقي إن تناقض شيء يقدم في ميدان التمثيل نفسه وبطريقة سلبية رؤية لبعد ما لا يمكن تمثيله ... العقائم، والجمجمة بالثاني شيء يملأ الفراغ عن طريق "حضوره"، استحالة تمثيل الدال للشيء ... عبارة "الثروة هي الفُلس" تكرر عند هذا المستوى عبارة "الروح عظيمة" [كلتا العبارتين لهيجل]: في كلتا الحالتين تتعامل مع عبارة عبثية لأول وهلة، وغير معقولة، ومعادلة مكوناتها غير متوافقة، في كلتا الحالتين نقابل نفس بنية الفقرة للمنطقية: الفاعل، مفقود تماماً في وسيط اللغة (لغة الإيماءات وانتباذات الوجه، لغة التملق)، تجد نظيرها الموضوعي في محمول شيء لا لغوي (جمجمة، نقود)<sup>(١٣٥)</sup>.

رؤية ويلسون هاريس مجردة، تترجم "طقس" موريسون إلى نسخة أوقيانوسية oceanic بن فيزياء الكوانتم (الكيم). لكن كل المترجمات الثقافات الثلاث المذكورة في هذا القسم يسلطنا أن نتعامل مع البلاغة التي تشير إلى حدود الترجمة، في الكرهول، وابهنة العبد، واستخدام الكاريبي للـ "الإنجليزية". نستعلم درس الترجمة من هؤلاء الغريبات/الداخلات الذكيات وتترجمه إلى موقف اللغات الأخرى.

### القراءة كترجمة

في الختام، أريد أن أبين كيف نترجم ما بعد الكولونيالية باعتباره غريبة/داخلية النظرية البيضاء أثناء قراءتها: بحيث تستطيع التمييز على أرض/منطقة الأصل. تريد أن تستخدم ما هو مفيد. مرة أخرى، أمل أن هذا يمكن أن يعبر درساً للمترجمة بالعنى الضيق للكلمة.

"الصلة بين الموسيقى وأكل لحوم البشر تناقض راق". أعتقد أن ويلسون هاريس يستخدم كلمة "راق" هنا بدرجة ما من الدقة، ليشير إلى تلك الذات الغربية التقدمية كمؤولة واقعية للتاريخ. هل يمكن أن يكون التفسير النظري للراقي الجمالي في الخطاب الإنجليزي، سوف استخدم قراءتي رواية الأكاديمية الرائعة لبيتر دي بولا بعنوان "خطاب الراقي" كمثال للقراءة المتعاطفة باعتبارها ترجمة، وبدقة ليست تسليماً بل تعلماً صديقاً عن طريق التباعد لمسافة ما<sup>(١٣٦)</sup>.

ص ٤: "ماذا كانت الذات في القرن الثامن عشر؟" القارة كترجمة متحسسة. القرن الثامن عشر الطويل في بريطانيا سرد لتكون أمة وتحولها في إمبراطورية. هل يمكن أن نقرأ تلك القصة؟ سيلمس الكتاب على الأقل ذلك الموضوع، حتى ولو لحوّل عنه. ولن نرى النساء على أساس أن تشكيل وكائنهن يلمسهن عن طريق ذلك التغيير. وترتبط تعاطفات الكتاب النسوية القوية مع المرأة الإنجليزية فقط كضحية للنوع. لكن سعة اطلاع النص تسمح لنا بأن نفكر أن هذا النوع من القراءة البلاغية قد يكون الطريقة لفتح السؤال "ما معنى أن تكوني

قارئة ما بعد كولونيالية للغة الإنجليزية في القرن العشرين؟" القارئة النموذجية لـ "خطاب الراقي" ستكون القارئة ما بعد الكولونيالية. هل لوحظ قانون الأغلبية ذاك، أم قانون الأقلية؟

في ص ٧٢ تأتي القارئة باعتبارها مترجمة لتناقش بيرك عن الراقي:  
للقاومة الداخلية لنص بيرك ... تقليد اللعب الكامل لهذه الصورة الصبائية [القوة .... باعتبارها صورة بيانية تعبر عن تفتيت الراقي]، وبالتالي تهزم وصفاً لخبرة الراقي بصورة فريدة من حيث الذات [هكذا] صاحبة القوة. باختصار، يلقب بيرك لعدد من الأسباب من بينها لابد أن نضم الأهداف والغايات السياسية، مفتقراً إلى خطاب عن الراقي، وبذلك أُميدت القوة النهائية إلى مكانتها كخطاب مجاور، لاهوت، يضع قوته السطمية مصداقيتها من ذاتها بإصرار ضمن حدود تفكير الإله أو الرب.

هل كان أيضاً لأن بيرك اشتبك بعمق في التفتيش في تجاوزات المسرح الذهني الخاص بالسيد الإنجليزي في المستعمرات بحيث كان لديه مفهوم ما لأنواع مختلفة من الذات وبالتالي، ارتد رعباً مثل كورتز قبل كونراد قبل الذات القوية برقي؟ هل بسبب أن بيرك حاول مثل كريستينا قبل "النساء الصينيات" أن يتخيل ملكات إودة Begums Oudh باعتبارهن ذوات قانونية وضعها في مصداقية الذات في مواضع أخرى<sup>(١٢)</sup>. يفتح "خطاب الراقي" من خلال ملاحظة اختلاف بيرك عن أصحاب خطاب عن الراقي الآخرين الأبواب للقراء الآخرين باعتبارهم مترجمين للانخراط في مثل هذه التأملات البحثية وبالتالي يتجاوزون الكتاب ويوسعون.

الصفحات ١٠٦، ١١١-١١٢، ١٣١: تأتي القارئة باعتبارها مترجمة إلى الدين الوطني الإنجليزي. كان الاستعمار البريطاني تفكيكاً عنيقاً للشرطة بين الأمة والدولة. في الإمبريالية تُفَرَس/تُخَصَّن الأمة implied(im) لتصبح إمبراطورية. وليس هناك أي دليل عن هذا في "الخطاب". تم مناقشة تلك إنجلترا. أنشأه في عام ١٦٩٦، وتحول خطابات الائتمنان إلى جد الشيك الحديث، له شيء أخيه بعلاقة بثروات شركة الهند الشرقية وتأسيس كلكتا عام ١٦٩٠. الدين "الوطني" في الواقع موقع لإدارة الأزمات، حيث تغير الأمة، وهي موضوع راق على أساس أنها تحول ذات الأيديولوجية، العلامة "دائن" إلى معجزة عن طريق الاستخدام غير الصحيح أو الملائم للكلمة catachresis أو الاستعارة الزائفة عن طريق "القبول بخلل دائم بين النقد الدائر الإجمالي والدين". وسرعان ما تُبجنت الحرب الفرنسية. وهي بالتأكيد العلة الفاعلة الباشرة في تسليح الأزمة الأرحب. "الخطاب" لا يرى الأمة تغطي الاقتصاد الاستعماري. وبمناسبة تحديد النوع الخاص بخصوصية الجرق، وبالتالي ظل الجدل حول خطاب رأس المال متعدد الجنسيات داخلها، داخل إنجلترا، جديلاً أوروبياً<sup>(١٣)</sup>. وتتعرض القارئة كمترجمة إلى خلطوة الصوت، والتخريب والاستياء. فهي تجد نوعاً من الراحة في تشكيل ما عاصوباً منتفع اللون لجسد المرأة كجديد بدلاً من التعامل مع هذا التاريخ للجسد الإنجليزي

<sup>(١٢)</sup> "خطاب بيرك عن الراقي"، ص ١١٢، ١٣١.

<sup>(١٣)</sup> "خطاب بيرك عن الراقي"، ص ١١٢، ١٣١.

”كوسيلة مُشوَّهة للمنظر disfigurative من أجل العودة إليها [أديبتها المفقودة]، القراءة كترجمة أخطأت الهدف هنا.

في ص ١٤٠ تأتي القارئة كترجمة إلى بيت الأكبر، ”رغم أن الوظيفية تُطَبَّر إليها مبدئيًا كمطلب ... عن طريق اندماج الأمة“، فليس بالإمكان على الأقل عدم ذكر الإمبراطورية عند الحديث عن صوت بيت:

صوت بيت ... يعمل تدخله المزيج في روح الزمن وشخصيته، على الفور يصبح أعلى مثال لل فرد الخاص في خدمة الدولة، والفرد الخاص الذي تم التخلص منه تمامًا عن طريق احتياجات إمبراطورية عامة وقومية وتجارية. وبهذا المعنى يصبح صوت بيت أكثر الأمتة تطرفًا لتحويل الجسد إلى النص لنهاي القرن<sup>(٣٣)</sup>.

وأينما حالة حرفية عن تحويل سطح الجسد إلى نص بين أم جارية وبيت جارية في رواية ”محبوبة“، حينما تضرب الأم البيت كي تلقف عن التفكير في أن علامات ذلك النص يمكن تمريرها، وهو درس يُكَلِّم بعد الحدث après-coup، حرفيًا بعد ضربة وصم البيت بعلامة. هل يجب أن تتوقع القارئة كترجمة لتفسيرًا للتمرير تحويل داخل الجسد إلى نص عبر الصوت، وهي كناية عن الوعي، من الأب السيد إلى الابن السيد؟ اتخذ بيت الأصغر الخطوة الأولى لتغيير الإمبراطورية القومية إلى أمة امبريالية بمرسوم الهند لعام ١٧٨٤. هل يستطيع خطاب الراقي تخطيط ذلك تكرار الراقي؟ ليس بعد. لكن هنا أيضًا، ترجمة متجاوزة ومتوسعة ممكنة.

كما هو متوقع، تجد القارئة كترجمة موضع قدم في بلاغة ”الخطاب“. يبدأ الفصل العاشر بما يلي: ”درس الجزء الثاني من هذه الدراسة بثبات كيفية انطلاق ”النظرية“ لإضفاء الشرعية والسيطرة على ممارسة ما، وكيف تنتج الإفراط الذي لا تستطيع إضفاء الشرعية عليه، وتزيل من المركز إلى الحدود حدها، حالة مُحَدَّدة“ (٢٣٠). هذه الفقرة تُقرأ كقارئة تفكيكية باعتبارها ترجمة كوصف ذاتي ممكن للنص، رغم أنه ضمن حدود الكتاب، يصف، لا نفسه، بل موضوع بحثه. بحلول الوقت الذي ينتهي فيه الكتاب، تشعر القارئة كترجمة أنها كُتِبَت في النص:

يقدم [هذا الكتاب] باعتباره تاريخًا لذلك الرفض والقائمة سجلًا بتحووله الخاص إلى تاريخ، تاريخ الفكرة التي تريد أن تعتبرها بصورة مختلفة، هناك. لذا فليس من المناسب إلا أن خاتمته يجب أن تومن نحو الحد، تخاطر بعملية إعادة قلب الحد عن طريق الحديث عن الآخر، رفض الصمت لما هو مسكوت عنه<sup>(٣٤)</sup>.

وراء هذا ”الضجيج من أجل قبلة“ للفضاء الآخر، إنها ”مجرد طقس“.

في ظل شخصية القارئة كترجمة، حاولت أن أصف بالكلام سياسات نوع معين من القراءة لما بعد كولونيالية السرية، مستخدمة العلامات الرئيسية للعلمة تاريخ. وبالتالي نكتشف ما الكتب التي يمكننا أن نقاات عليها، وما التي يجب أن نضعها جانبًا. يمكنني استخدام كتاب ”خطاب الراقي“ لبيتر دي بولا لفتح التواريخ العلة للقرن الثامن عشر

الكولونياتي. هل أجبرت توني موريسون وهي كاتبة طويلة الباع في النظرية الأدبية المعاصرة على أن تضع جانباً بول دي مان "الشريط المخنثس"؟<sup>(١)</sup>

عام ألف وثمانمائة وأربعة وسبعون والبيض كانوا لا يزالون مفكرين ... الدم البشري المظهي على نار أحد عمليات الشق كان أمراً آخر يرمته ... لكن أيها من ذلك أبلى نخاع عقامه ... كانت شريطاً ... فنه ريشه كاردينال عاقه في قاريه. غطس الذي خرج في يديه غير متماشك شريط أحمر معقود حول خصلة من الشعر الصوفي اللبل، لا زالت عاقلة في قطعة من فروة رأسها... احتلظ بالشريط، وإزعجه رائحة الجلد (م، ١٨٠-١٨١).

تستدعي موريسون بعد ذلك لغة كنازها تُسَلُّ للغة لدرجة أن أية "تُسَلُّ" يمكنه أن يسهل المرور الكامل: "هذه المرة، رغم أنه لا يستطيع أن يشفر سوى كلمة واحدة، اعتقد أنه يعرف من قالها. شعب الرقاب المكسورة، والدم المظهي على النار والبنات السوداوات اللاتي فقدن شرائطهن" (م، ١٨١). ألم يؤدّ تفسير الوعود والحجج في جنيف القرن الثامن عشر إلى الوصول إلى هذا "الصخب"؟ لن أقمص الأمر وأقيس القلوت المعظمي. لكنني ببساطة سوف أهدى هذه الصفحات إلى مؤلفة "محبوبة" باسم الترجمة.

الهوامش:

(١) "The Politics of Translation" in Spivak, Gayatri Chakravorty. *Outside in the Teaching Machine*. New York & London: Routledge, 1993, pp. 179-200.

(٢) يستند الجزء الأول من هذا المقال إلى حوار مع ميشيل باريت في صيف عام ١٩٩٠.

(٣) سيصدر عن دار نشر سيجل بكتكتا.

(٤) كلمة "تسهيل" "facilitation" هي الترجمة الإنجليزية لمصطلح فرويدي يترجم fraying الفرنسية. العلمي المعجمي للكلمة هو كالتالي:

المصطلح استخدمه فرويد في الوقت الذي كان يصوغ فيه نموذجاً عصبياً حول وظيفة الجهاز النفسي (١٨٩٥)، ويعني أن أية إشارة عندما تمر من خلية عصبية إلى أخرى تقابل بمقاومة ما، ولكن مرور هذه الإشارة يؤدي إلى خفض دائم في هذه الإشارة، ومن ثم يقال هنا إن نوعاً من التسهيل قد حدث، ومن ثم فإن أية إشارة متفعل المرور في مجرى حدث فيه هذا التسهيل عن أي مجرى آخر.

(٥) Jacques Derrida, "Force of Law: The 'Mystical Foundation of Authority'", tr. Mary Quaintance, *Deconstruction and the Possibility of Justice: Cardozo Law Review*, XI (July - Aug. 1990): p. 923.

(٦) "The Wet-nurse", in *Kali for Women* (eds), *Truth Tales: Stories by Indian Women* (The Women's Press, London, 1987), pp. 1-50 (first published by Kali for Women, Delhi, 1986), and "Breast-giver" in Gayatri Chakravorty Spivak, *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics* (Methuen/Routledge, New York, 1987), pp. 222-40.

(٧) تناقش لوس إريغاري Luce Irigaray بشكل مقلع مسألة أخلاقية ما هو إريغاري، وذلك في إطار أخلاقيات الاختلاف الجنسي. انظر:



"The Fecundity of the Caress", in her *Ethics of Sexual Difference*, tr. Carolyn Burke and G. C. Gill (Cornell University Press, Ithaca, N. Y. [1993]).

7. Sudhir Kakar, *The Inner World: A Psycho-analytic Study of childhood and Society in India*, 2nd edn (Oxford Universl. 171 ff.

جزء من هذا النقاش أتطرق إليه بشكل مختلف قليلاً في مقالي التالي:

(10) "Psychoanalysis in Left Field; and Fieldworking: Examples to fit the Title", in Michael Munchow and Sonu Shamdasani (eds), *Psychoanalysis, Philosophy and Culture* (Routledge, London, 1994), pp. 41-75.

(٨) للاطلاع علي نقاش مفصل للمصاغة الجنسية للقومية الهندية انظر:

(9) Partha Chatterjee, "Nationalism and the Women Question", in Kumkum Sangari and Sudesh Vaid (eds), *Re-Casting Women* (Rutgers University Press, New Brunswick, NJ, 1990), pp. 233-53.

9. Max Weber, *The Religion of India: The Sociology of Hinduism and Buddhism*, tr. Hans H. Gerth and Don Martindale (Free Press, Glencoe, Ill., 1958).

(١٠) للمزيد، وفي سياق له بعد شخصي انظر مقالي:

"Staging of the Origin" in *Third Text*.

(11) Ifi Amadiume, *Male Daughters Female Husbands* (Zed Books, London 1987).

(١٢) للاطلاع علي خلفية *Akhter* انظر الفصل الأول من:

Yayoi Matsui (ed.), *Women's Asia* (Zed Books, London, 1989).

(13) "More on Power/Knowledge", in Thomas E. Wartenberg (ed.), *Re-Thinking Power* (State University of New York Press, Albany, NY, 1992).

(14) Spivak, "Can the Subaltern Speak?", in Cary Nelson and Lawrence Grossberg (eds), *Mandarin and the Interpretation of Culture* (University of Illinois Press, Urbana, Ill., 1988), pp. 271-313.

(١٥) للاطلاع علي بحث موسع في هذه القضايا وأخرى مرتبطة بها، انظر مقالي:

"Versions of the Margin: Coetzee's *Foe* reading Defoe's *Crusoe/Roxana*", in Jonathan Arac (ed.), *Theory and Its Consequences* (Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1990).

(16) Toni Morrison, *Beloved* (Plume Books, New York, 1987).

أدرج أرقام الصفحات في نص المقال.

(١٧) حول مفهوم الإمكان/الاستحالة، انظر مقالي:

"Literary Representation of the Subaltern", in *Other Worlds*, pp. 241-68.

(18) Karl Marx, "Economic and Philosophical Manuscripts", in Rodney Livingstone and George Benton tr., *Early Writings* (Vintage, New York, 1975), pp. 279-400; Wilson Harris, *The Guyana Quartet* (Faber, London, 1985).

المقتبسات مأخوذة من:

Wilson Harris, "Cross-cultural Crisis: Imagery, Language, and the Intuitive Imagination", *Commonwealth Lectures*, 1990, Lecture no. 2, 31 Oct. 1990, University of Cambridge.

(١٩) يتتبع دريدا الخطاب الهيجلي وما قيل الهيجلي لفكرة الممن *fetish*، انظر:

Jacques Derrida, Glas, tr. Richard Rand and John P. Leavy, Jr. (University of Nebraska Press, Lincoln, Neb., 1986).

إن عابد الصنم يأكل اللحم البشري، عابد الله يتناول من القرابين المقدس في طقس الشركة المقدسة. هنا يقاب حارس مفهوم الصنم من خلال الخيال المعاني.

(20) Slavoj Žižek, The Sublime Objects of Ideology, tr. Jon Barnes (Verso, London, 1989), pp. 203, 208, 212.

(21) Peter de Bolla, The Discourse of the Sublime: Readings in History, Aesthetics and the Subject (Blackwell, Oxford, 1989).

أرقام الصفحات مدرجة في نس مقال.

(٢٢) المراجع والنقاش الخاص بالرجوع:

"The Impeachment of Warren Hastings" و "The Begums of Oudh"

مدرجة في:

The Writings and Speeches of Edmund Burke ed. P. J. Marshall (Clarendon Press, Oxford, 1981), vol. 5: India: Madras and Bengal, pp. 410-12, pp. 465-6, p. 470; and in vol. 6: India: Launching of The Hastings Impeachment.

(٢٣) انظر مقال:

"Reading the Archives: The Rani of Simur", in Francis Baker (ed.), Europe and Its Others (University of Essex, Colchester, 1985), pp. 128-51.

(٢٤) الرجوع نفسه.

(25) Paul de Man, "The Purloined Ribbon", reprinted as "Excuses (Confessors)" in de Man, Allegories of Reading (Yale University Press, New Haven, 1979), pp. 278-301.

# الترجمة

# والسلطة



## أندريه لوفيفر/ ت: رامي الجمل

المحور الأول<sup>(١)</sup>: سلطة الفرد

رعاة الترجمة والترجمون

السلطة هي التي تحدد المعايير الأيديولوجية لما هو مقبول. فهي تؤثر في عملية اختيار النصوص وعلى الطرائق التي نترجم إليها. ففي عمل لجون تريفيزا<sup>(٢)</sup> كتبه تحت عنوان "حديث بين أحد اللوردات وأحد الكتاب حول الترجمة" أهان اللورد عن موقفه صراحة ودون مواربة، إذ أخبر الكاتب بأنه يدفع "للزمار" لسمع ما يريد من أنغام، فيقول: "إنني لا أرغب في ترجمة هذه النصوص على أكمل وجه، فذلك غاية لا قيمة لها عندي، لكنني أريد ترجمة حاذقة ماهرة يفهمها الناس." لقد أراد اللورد ترجمة فعالة يفهمها جمهور التلقين المعني بهذه الترجمة، وهو بهذا يشير إلى ترجمة النصوص الأخلاقية دون النصوص الأدبية. وبعدها يستلورد الكاتب ويسأل اللورد: "هل تريد سيادتك هذه الترجمة مثورة أم مقالة؟" وللمرة الثانية يجيب اللورد بشكل قاطع: "أريدها نثراً، لأن النصوص المثورة لها من الوضوح ما قد لا يوجد في مثيلاتها المقلدة، فضلاً عن أنها يسيرة الفهم سهلة الاستجلاء."

أما إذا كلف هذا اللورد أحد المترجمين بترجمة الإنشاده للرجيل فإنه ما كان ليقترح أن تتم ترجمتها نثراً. إلا أنه لا فائدة من ترجمة فرجيل للجمهور الذي يقصده اللورد: وهم المستأجرون الذين يريد اللورد الارتقاء بآدابهم وسلوكهم الاجتماعي. إن هذا اللورد لم يكن يهتم بتحويل ترجمة من شأنها أن تصير موضوعاً يلوكة المتعلمون في أحاديثهم. بيد أنه،

ولحسن الحظ، كان هناك من بين هؤلاء اللوردات من هم على استعداد لتمويل مثل هذه الترجمات.

إن المترجمين يعرفون جيداً من يمول ترجماتهم، وهم بدورهم يرشدون غيرهم من المترجمين للتوجه لهؤلاء المولدين والرعاة. ففي شهادة نادرة ليوأخيم دي بيلاي<sup>(٣)</sup>، نجده يختتم تنبيهاته وعظائمه للمترجمين في جملة ضافية كاشفة يقول فيها: "إن ما أقوله ليس موجها لهؤلاء المترجمين الذين يترجمون مؤلفات أعلام اللغة اليونانية واللاتينية بأمر وتكليف من الأمراء و اللوردات، فطاعة هؤلاء أمر لازم لا تقبل فيه الأعذار."

وبعد مائة عام جاء الإيرل روسكومون<sup>(٤)</sup> ليشير إلى ضرب مختلف من رعاية الترجمة وكيف يعاملون المترجمين، إذ يقول:

أشفق من صميم الروح على رجال تصين

العوز بزهم الشرف فصاروا صاغرين

ضاققت بهم سيل الحياة ففتوا كالمحامين:

إما التلذل وبذل ماء الوجه وقدي الخاطئين،

أو جوع وسغبة لكل الراضين،

وهم من بعد في ركب الدراهم ساديين،

لا فرق عندهم بين قول الحق واطك الآفكين<sup>(٥)</sup>

ففي عام ١٧٠٠، ومع النمو المتزايد للقدرة على القراءة والكتابة والانتشار التدرجي لمجتمعات أكثر اتقانا، لم تعد السلطة مقصورة على الأمراء و اللوردات وحدهم، فقد انشم الناشرون إلى سلك أصحاب السلطة؛ إذ بدعوا بتكليف المترجمين بترجمة بعض الكتب التي أحرزت مبيعات كبيرة في البلاد الأخرى. وقد كان هؤلاء الناشرون يدفعون ثمناً بخساً في مقابل ما يقوم به المترجمون من أعمال، الأمر الذي أدى إلى فقدان المترجمين لمكائنتهم الاجتماعية والثقافية. ومع زيادة نفوذ وسلطة الناشرين في تحديد ما يجب ترجمته والأسلوب الذي يجب إتباعه في تلك الترجمات، نجد أن المعايير الأيديولوجية التي تم وضعها للمترجمين قد بدأت في الاتساع، فقد كانت قرارات الناشرين مبنية في المقام الأول على أساس الربح الذي سيعود عليهم.

فعندما كان يتم تكليف أحد المترجمين بترجمة عمل أدبي ما، وعادة ما يكون ذلك بسبب نجاح هذا العمل في بلد آخر، فإن هذا المترجم كان يميل إلى حجب جميع السمات الأيديولوجية المميزة لعالم خطاب العمل الأصلي الذي هو بمصدده، والتي يعتقد أنها قد يمجها جمهور المتلقين المقصود. كان المترجمون يفعلون هذا بدافع فهمونه جيداً، وهو الحفاظ على مصالحهم: فإذا قام المترجم بترجمة نص ما قد يسيء إلى مشاعر المتلقين، فإن ترجمته لن يكتب لها التداول والذيع، وبهذا فإن الناشر على الأرجح سيخسر ماله، ولن يكلف هذا المترجم بأية ترجمة أخرى. إلا أن هذه الحال في نظر المترجمين تعد تقدماً كبيراً وملحوساً إذا ما قورن بما كان يحدث منذ قرون قليلة ماضية، عندما كان ذو السلطان يقومون

بإعدام المترجمين حرقاً وشدهم على الخازوق لأنهم لم يترجموا الكتاب القدس ترجمة "سليمة".

إن المثلثي عند قراءته لترجمة ما سواء كانت للكتاب المقدس أو لعمل أدبي، فإنه غالباً ما يسعى إلى رؤية أيديولوجيته وعالته ماثلين في هذه الترجمات. فالثلاثي يود أن يحدد خلق العالم على صورته وعيخته، وينتج عن هذا أحياناً نتائج تدعش لها العقول كما هو الأمر في ترجمة الأب بريغو الفرنسي لرواية صاموئيل ريتشاردسون بإميليا فيقول بريغو في مقدمة ترجمته:

"لقد طعست العادات الإنجليزية أينما ظهر منها ما قد تنجيه الأمم الأخرى وتستشنعها أو جعلتها تنسجم والعادات السائدة في باقي القارة الأوروبية. ولقد تراءى لي أن الإبقاء على عادات البريطانيين الفجة اللقطة، والتي ما يمنع البريطانيين من ملاحظتها سوى أنها عادات مأثورة لديهم جُبلوا عليها، أقول إن الإبقاء على ذكر مثل هذه العادات سوف يسيء إلى كتاب جوهره ما في الأخلاق من نبل وفضيلة. وبعد، ولكي أصطي القارئ فكرة جلية عن عملي هذا، أقول ختاماً إن العمل ذا السبعة أجزاء في طبعته الإنجليزية الأصلية، والذي قد يصل إلى أربعة عشر مجلداً في طبعتي هذه، قد تم اختزاله إلى أربعة مجلدات فقط".

وإنه لأمر جلي أن الأب بريغو "الصالح الطاهر" لم يكن معتاداً على تقديم ترجمات "أمينة"، والأهم من ذلك أنه لم يظف بخاطره ولو ليرة أن ترجمة النص ترجمة "أمينة" قد تكون فكرة قبيحة بالتجربة. وذلك لأن أخلاق الثقافة الهدف التي ينقل إليها وعاداتها كانت، في نظره، أسمى من الثقافة المصدر المنقول عنها. فقد كان الأمر بالنسبة له محض بداعة أن الأخلاق والعادات "المالحة" لا بد ألا يُسمح لها بالتأثير في الأخلاق والعادات "الصالحة".

### المحور الثاني: سلطة الثقافات

تظهر في بعض الأزمان ثقافات يراها البعض أعلى شأواً وأكثر سلطة وسطوة من غيرها من الثقافات المجاورة أو الثقافات اللاحقة. فقد تُسرّل ثقافة ما ثقافة أخرى منزلة عليها سامية إذا كانت ترى أنها ستنهل من حياض تلك الثقافة الأخرى، وعلى ذلك فإن تلك المنزلة العالية والكنانة المحورية التي تحتلها ثقافة ما، ما هي إلا مسألة نسبية: فالثقافة الفرنسية مثلاً كانت محورية بالنسبة لألمانيا إبان النصف الأول من القرن الثامن عشر. وثقافة العصور الكلاسيكية كانت محورية بالنسبة لأوروبا منذ عصر النهضة حتى هذا القرن. كذلك ثقافة الصين في عصر الطان كانت هي الأخرى محورية لليابان في بعض أزمنتها القديمة.

وبطبيعة الحال فإن أهل الثقافات القوية ينزعون إلى احتقار أهل الثقافات الدنيا، فيعاملون آدابهم بطق لا تخلو من تيه وخيلاء. أما العلاقة ما بين الثقافات القوية والثقافات الدنيا فإنها لا تفر على قرار، فتدور في أدوار التغير عبر الزمن. فإبان القرن السادس عشر وبواكير القرن السابع عشر كان التوجه الفرنسي إزاء هوميروس، على سبيل المثال، مختلفاً تماماً عما يصفه لنا يوهان جوتفريد هيردر في القرن الثامن عشر عن هذه التوجه: فيقول:

"إن الفرنسيين، هؤلاء القوم الختالين بذوقهم الطبيعي، يكملوا كل شيء وفقاً لهذا الذوق، بدلاً من محاولة تكيف أنفسهم وفقاً لذوق مختلف خاص بزمان آخر. فهو ميروس لا بد وأن يدخل فرنسا أسيراً وأن يرتدى ما تفرسه "اللوثة" الفرنسية حتى لا يؤذي أنظار الفرنسيين. ويجب عليه أن يسمح لهم بأن يشربوا عنه لحيتهم المهيبة وحلته القديمة البسيطة. ويجب عليه أيضاً أن يهبأ نفسه للتوافق مع العادات الفرنسية، وأيضاً ظهر منه ما يدل على خشوعه أو فطاشته الرفيعة فإنه يُحقر ويُرمى بأوصاف الهمجية والتخلف."

لقد فعل المترجمون الفرنسيون بهوميروس ما فعله الأب بريغو برواية مابهيلا، بيد أن الفرنسيين لم يكونوا بدمناً في انتهاج تلك السنة. فنضد مائة عام تقريباً، كتب ادوارد فيتزجيرالد، المترجم الإنجليزي الذي اشتهر بترجمته لرباعيات الخيام، والذي يُعد ممثلاً للثقافة اللغوية الثانية وهي ثقافة إنجلترا في العصر الفيكتوري، كتب لصديقه كاول قائلاً:

"إنه شيء مثل أن أفعل ما يحلو لي بهؤلاء الفرس فهم، في نظري، ليسوا شعراء بالدرجة الكافية التي قد تخيفني وتجعلني أعرض عن القيام بمثل هذا التطواف الثقالي الممتع، فهم قوم في حاجة إلى القليل من المهارة والفن حتى يحسن صوغهم وتشكلهم."

أما فيتزجيرالد فإنه ما كان ليطلق العنان لأهوائه لو كان يترجم لأحد المؤلفين الرومان أو الإغريق، لا لأنهم يمثلون ثقافة قوية فحسب، ولكن لأن هناك الكثير من أهل العلم والذكر ممن يقدرون على مراجعة ترجمته وتحليلها مقارنة بالأصل. إن هذا التوجه الذي يُصنّب ثقافة المرء حكماً ومحكاً يقيس عليه الثقافات الأخرى بأسرها ويقومها يعرف باسم المركزية العرقية ethnocentrism، ولا أجد في النفس شكاً في أن الثقافات جميعها تعرف هذا المفهوم، إلا أن بعضاً من هذه الثقافات التي استطاعت أن تحوز قدراً من التفوق الحضاري هي التي تميل إلى التيه والخيلاء بمركزيتها. أما الثقافات التي لا تنبأها بمركزيتها، لولا ضيق الحال، لمالت هي الأخرى إلى الأمر نفسه، وبما أن ذلك ليس بمستطاع، فإنها تتظاهر بأنها خلو من هذا الشعور والهيل. إن المركزية العرقية تمنح أهل ثقافة ما الحرية في إعادة صياغة العالم على صورتهم، دون الحاجة إلى إدراك مدى وكيفية اختلاف واقع هذا العالم عن عالمهم. ولعل توجهاً كهذا كفيل بأن يقرض ترجمات تتناسب والثقافة الهدف فقط، فضلاً عن حجب هذه الترجمات كل ما لا يناسب هذه الثقافات.

ولعل إحدى صور المركزية العرقية الأكثر تطرفاً، بل والأكثر بغضاً نظراً لراوغتها وصعوبة الوقوف على كنهها، هي ما شاع في دراسات الترجمة باسم المركزية الأوروبية eurocentrism. وتتمثل هذه النزعة في مقولة مفادها أن دراسة الثقافات الأوروبية هي الدراسة الوحيدة ذات الجدوى. وعلى الرغم من جلاء مقاصد تلك النزعة، فإن أصحابها يواربون لاجئين إلى "اللعيب بالكلمات" إن صح هذا، فيأسفون لما يلاقيه الباحث من لأي وعنت عند دراسة الثقافات غير الأوروبية، ناهيك عن الترجمة من هذه الثقافات وإليها.

بينما هم في واقع الحال سعداء مستبشرون بطريقة خلفية لوجود هذه الصعوبات. وإحفاقاً للحق فإن أنصار هذه النزعة يعمدون كل البعد عن نزعة التفوق الأوروبي العنصرية، إلا أنهم يعتقدون أن دراسة هذه الثقافات غير الأوروبية والترجمة منها وإليها من الأمور غير المستحبة، حتى وإن كانوا يؤيدونها قولاً لا فعلاً. إن هذه النزعة تحمل على عاتقها مسئولية الأبحاث للثقافة التي يتم عملها حول مشكلات الترجمة التي تظهر خارج نطاق تلك الدائرة المسحورة المتميزة الخاصة بأوروبا وأتباعها التاريخيين.

### المحور الثالث: سلطة النص

إن الثقافات التي تستمد سلطتها المطلقة من نص ما، سواء كان الإنجيل أو القرآن الكريم أو البيان الشيوعي، تنزع إلى حماية هذه النصوص وإحاطتها بدائرة من الحرص والحذر، حتى إنه من الجائز لنا القول إن قوة من يملكون مقاليد السلطة تركن على هذه النصوص وتعتمد عليها، وعلى هذا فإن من يشطلع بترجمة هذه النصوص لا يتم السماح له إلا بهامش ضئيل للغاية من الحرية، كما كان الحال مع ثلثة من مترجمي الكتاب المقدس إبان عصر النهضة في أوروبا، إذ لقوا حتفهم على الخازيق وأعين الدرس على أبشع صوره. وعلى الرغم من خضوع الإنجيل لترجمات عدة، فقد تمت ترجمته بأسلوب محدد ولفترة طويلة من الزمن، والسبب في هذه المعالجة الخاصة لترجمة الإنجيل يجلبه لنا بلغة صافية شافية بطرس دانيولوس هونيوس<sup>٢٩</sup>، وهو واحد من أهم من كتبوا عن الترجمة وأقلمهم ذكراً واستشهاده، ولعل ذلك يرجع إلى أن جميع أعماله مكتوبة باللاتينية ولم تترجم على الإطلاق، فتجده يقول:

"إنني أصّر على معاملة الكتاب المقدس بمنتهى اليقظة والحرص، لأنني أرى بنبوءات الروح القدس أن يتم العبث بها وتدنيسها على أيدي البشر ومن هم مشدودين للأرض شداً. ذلك أن هذه الكلمات قد تم اصطفاؤها بوحى إلهي لا عيباً أو سدى، فقد تم اصطفاؤها من عوالم علوية وترتيبها على أنساق فريدة إلهية. إن بهذه الكلمات الربانية أسراراً خلفية يعدد ما في النص من نقاط أليس المسيح نفسه هو القتال إنه لا لأحد أن يحو نقطة واحدة من قانون الرب حتى تنفطر السماء وتعبد الأرض بمن فيها؟"

إن مثل هذه الترجمات الأمانة بل الحرقية، يتم وقفها على مثل هذه النصوص التي تعد مكنزاً للسلطة المركزية للثقافة ما ومستودعاً لها. وعلى الغرار نفسه نجد أن هذا الضرب من الترجمات ينسحب على كلاسيكيات الأدب العالمي. فقد صار من المؤلف لدى القراء أن يجدوا ترجمة ما، عادة ما تكون أولى الترجمات لعمل كلاسيكي، قد استحالوا إلى نص سلطوي، بل إنها تبقى كنص سلطوي لذاتها وفي ذاتها، حتى بعد أن يتم إسقاطها من عداد الترجمات الناجمة الصالحة. فهناك مثلاً ترجمة جاك أميو لأعمال بلوطبارك إلى الفرنسية التي تعد من كلاسيكيات الأعمال المترجمة في اللغة الفرنسية. وكذلك ترجمة جون

هارينجتون لأعمال أريستو Ariosto إلى اللغة الإنجليزية، وأيضاً ما يُدعى بترجمة تيك- شليجل لأعمال شكسبير إلى الألمانية، والحق أن الجزء الأكبر من هذه الترجمة قام به كل من دورينها شقيقة لودفيج تيك والكونت بلودينسن.

إن هذه النصوص- الترجمات السلطوية تنزع إلى اكتساب سمات تتخطى بها حاجز الزمن وتصبح لازمة بها متجذرة فيها فيشق على القراء الانصراف عنها والتحول إلى غيرها؛ فهم يفتنون بالترجم الذي اضطلع بالترجمة لا لشيء إلا أن ترجمته هي الترجمة التي أثلوها واعتادوا على قراءتها. فعادة ما يتردد القراء في الانصراف إلى ترجمة أخرى جديدة حتى وإن أعلن الخبراء وأهل العلم تلوقها على ما سبقها من ترجمات. إن هذا النمط في التفكير يظهر جلياً سافراً في حالة النصوص المركزية للثقافة ما، ولعل هذا ما يفسر لنا استمرار بقاء بعض الترجمات الرديئة مثل الترجمة السبعينية للمعهد القديم Septuagint.

#### المحور الرابع: الاستيلاء على السلطة

تشارك الأعمال المترجمة النصوص الأصلية ما للأخيرة من سلطة بل إن المرء ليذهب إلى القول بأن الأعمال المترجمة تستولي على سلطة هذه النصوص الأصلية استيلاء. وعلى أية حال، فإذا كان ثمة كاتب أو مفكر يريد أن يقول شيئاً فلماذا لا يقوله بنفسه وعلى لسانه بدلاً من اللجوء إلى الترجمة؟ ولعل الإجابة بأن هذا الكاتب أو ذلك يعوزة الإلهام أو القدرة الفنية على قول ما يريد قوله بلغته ليست إجابة صائبة، فالكاتب الذي يلجأ للترجمة ليعبر عن فكره يعتقد أن ما سيقوله سيكون له ثقل أكبر إن قاله تحت اسم مستعار.

إن أحد أكثر الأمثلة إجلاء لهذه الإستراتيجية الثقافية هو ما يدعى بالترجمة الزائفة pseudo-translation، وهي نص يتم من خلاله إيهام القارئ أنه يقرأ ترجمة لنص آخر وواقع الحال غير ذلك. فقد ظهر إبان القرن الثامن عشر في فرنسا عدد من الترجمات لأعمال فلاسفة إنجليز وهميين، لأن إنجلترا وقتئذٍ كانت في ذروة أدائها السياسي، فضلاً عن أنها كانت موضع حسد الجميع لما لحكومتها من نظام دستوري ناجع مقبوع. فنجد أن الكتاب والمفكرين السياسيين الذين أرادوا أن يؤثروا في الرأي العام وأن يوجهوا دفة نحو الإصلاح والثورة رأوا أن كلماتهم ستحمل ثقلًا أكبر إن وضعت على لسان أحد فلاسفة إنجلترا التي قامت بالفعل بثورة مجيدة جنت أحلى ثمارها. هكذا نجد أن الترجمة الزائفة تلعب دوراً ليس بالهين في الصراع القائم بين الفلسفات السياسية المختلفة.

إلا أن الترجمة الزائفة يمكن لها أن تلعب دوراً هاماً أيضاً في الصراع القائم بين الأنواع الأدبية المختلفة<sup>(١٧)</sup> poetics. ففي هذا الصدد يتداهى إلى الذهن ديوان أوسيان لكاتبه جيمس ماكفرسون وما يمثله من صراع بين الأنساق الأدبية ما قبل الرومانتيكية والأوغسطية في إطار الأدب الإنجليزي، كما يتداهى إلى الذهن أيضاً المعارضات الأدبية pastiches الخاصة بالقرون الوسطى لتوماس تشاتيرتون، وأيضاً كتاب الآثار Reliques لتوماس بيرسي. إن السوء وراء اللجوء إلى هذه الإستراتيجية (الترجمة الزائفة) يجليه لنا هوراس والبول في وصف ضاف جلي في مقدمتي روايته قلعة أوترونثو، تلك الرواية التي كُتب لها أن تكون النموذج



الأول لنوع أدبي جديد هو الرواية القوطية Gothic Novel، ففي تقديمه الأول لهذه الرواية نجده يقدمها للقراء على أنها ترجمة لإحدى المخطوطات الإيطالية، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك ويتعهد لقرائه بأن يعيد طباعة المخطوطة الإيطالية الأصلية إن حالف الرواية نصيب من النجاح. إلا أنه في التقديم اللاحق الذي كتبه بعد أن لاقى الرواية نجاحاً كبيراً نجد والبول يعتذر لقرائه قائلاً:

"وجب الآن على المؤلف أن يسأل قراءه العفو لأنه قدم عمله هذا منتحلاً شخصية المترجم." وعذره عن اللجوء إلى فعلته تلك هو "جدة المحاولة والمزج بين صنفَي القصة الخيالية قديمها وحديثها"، وبعبارة أخرى، لم يشعر والبول بداخله بتسزوع نحو المجاهرة بالتحدي والهجوم (لذا كان من المحتمل أن يحكم عليهما بالفشل) على الأسواق الأدبية السائدة في عصره. بل نجده قد أثر السلامة وجنح إلى السلم عن طريق طرح نسق أدبي مغاير تحت عباءة الترجمة، كاشفاً النقاب عن الحقيقة حين رأى أن تجربته قد كُتِب لها النجاح.

#### المحور الخامس: منح السلطة

ذكرنا آنفاً أن الترجمة تستولي على السلطة، لكننا لم نذكر بعد أنها تمنحها أيضاً، إلا تخلع الترجمة السلطة على لغة ما، وبعبارة شهبزون الخطيب الروماني الشهير: "إنما قدمت بصياغة نص قد قرأته باللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية، فإني بذلك لا أقوم باستعمال أفضل التعبيرات الشائعة فحسب، بل إتني أستطيع بذلك تحت تعبيرات جديدة تتأطر ما جاء باليونانية بقليلها وبمعها قوماً، مثلهم مثل أهل اليونان، طالما أن هذه التعبيرات تتناسب لوقهم."

فالترجمة تدفع اللغة إلى التوسع والانتشار، ويقابل هذا التوسع بالحقاوة والترحاب طالما أنه يتم مراقبته من قبل الجماعة اللغوية بأسرها.

تستطيع الترجمة أن تخلع السلطة الكاتبة في لغة من لغات السلطة (اللاتينية)-الفرنسية-الإنجليزية-الروسية) على نص مكتوب بلغة تلتصها تلك السلطة. قلعة عديد من الأعمال الأدبية التي تم كتابتها بلغات هامشية minor languages مثل مسرحيات أوجست ستريندبيرج التي ما كانت لتنضم إلى قائمة الأدب العالمي العظيم لو لم تكن قد قُدمت بلغة سلطوية وهي الفرنسية في حالة ستريندبيرج. وعلى النوايل نفسه نجد أن مسرحيات هنريك إبسن قد تم تقديمها إلى أوروبا لا بلغتها الأصلية وهي النرويجية، إنما قُدمت باللغة الألمانية من قبل مسرح الشعب ببرلين.

إن للترجمة أثراً بالغ الأهمية في هذا الصدد، حتى إن القراء بمرور الزمن يكتفون عن اعتبار هذه الأعمال التي كتبت بلغات أخرى "أعمالاً أجنبية" على لغة السلطة التي نُقلت إليها. فأقسام اللغة الإنجليزية، مثلاً، قد اعتادت على تدريس ستريندبيرج وإبسن، ولعل السمة الوحيدة التي تلفت أنظار الدارسين وتنبههم إلى أنهم يقرءون ترجمات من لغات أخرى هي تلك المسقة التي يجدونها في نطق أسماء شخصيات هذه الأعمال الأدبية.

وعلى العكس من هذا، نجد أن متحدثي اللغات الناشئة يُقبلون على ترجمة الأعمال الأدبية التي تم كتابتها بلغات سلطوية، لسبب بسيط وهو سوق البرهان على أن لغاتهم الناشئة تلك لها من تسج التعبير وحسن السبك ما لغيرها من اللغات. وكما أشرت آنفاً، فإن هذه العملية يمكن ملاحظتها أيضاً إبان القرن التاسع عشر بأوروبا ولاسيما أوروبا الشرقية حيث نجد عدداً من اللغات تسعى إلى أن يتم الاعتراف بها كأعضاء كاملي العضوية في دوائر المجتمع الأوروبي الفكرية والأدبية والفنية. ويمكننا أيضاً أن نلاحظ هذه العملية في وقتنا هذا في تلك الأجزاء التي تم استعمارها في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين. فنجد أن الكتاب والمفكرين يقومون بترجمة الأعمال العظيمة التي أنتجتها ثقافة المستعمر "السيد السابق". فعلى سبيل المثال نجد جوليفوس نويرا قد قام بترجمة شكسبير إلى اللغة السواحيلية لا لأن مثل هذه الترجمة ستسد نقصاً في المكتبة السواحيلية بل لأنه تعني أن يثبت أن اللغة السواحيلية تقدر إن أرادت أن تستوعب شكسبير ومن هم على شاكلته من الألفاظ، وليثبت أيضاً أن اللغة السواحيلية وسيلة ناجحة تستأهل التقدير، غير أنها تنتظر من لهم نصيب وافر من العبقرية والتميز كي يظهروها إلى العالم.

تسمح الترجمة أيضاً لكتاب الثقافة الهدف أن ينهلوا من سلطة الكتاب الأجانب الذين تم تقديمهم إلى هذه الثقافة من خلال مترجمين آخرين. وبعبارة أخرى، تُدخل الترجمة أصوات وأساليب جديدة إلى الآداب التي تتم عملية الترجمة إليها. فقد تم إدخال السونيتو إلى الأدب الصيني عن طريق ترجمات فينج تشي التي نشرت في العشرينيات من القرن العشرين، وأصبحت قصيدة "الأرد" أهم نوع أدبي لكتاب جماعة البلياد (الثريا) بعد أن تمت ترجمتها على نطاق واسع إلى الفرنسية من الأصول اللاتينية واليونانية. أيضاً ونحت درع السلطة الأخلاقية لجماعة اليسوعيين قامت الترجمة بتحويل الرواية التشريدية *picaresque* novel إلى نوع أدبي مغاير تماماً وهو رواية بناء الشخصية في الأدب الألماني *Bildungsroman*. نجد أيضاً أن التعاقب بين القافية المذكورة والمؤنثة في اللغة الفرنسية يرجع مصدره إلى ترجمة اوكتافيان دي جيلاس لأعمال أوفيد، فضلاً عن التفعيلة السداسية التي تم إدخالها إلى الشعر الألماني من خلال ترجمة يوهان هابنريش فوس لأعمال هوميروس. وهناك كذلك ترجمة جون هوكام فريز لأعمال لويجي بولتشي التي أعادت تقديم الأونافا ربما (القشوع الثمانية) إلى الأدب الإنجليزي، فإذا بالشاعر الإنجليزي بايرون يلتقطها ويوظفها ببراعة واقتدار في رائعته دون خوان. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمل الواعم الذي راود الشاعر الألماني العظيم جوته في أن يقرر تاريخ الأدب صراحة "من سبق إلى الدرب رغم ما تحفه من عقبات" يبدو أنه سيبقى على ما هو عليه من وهم ومفارقة للحقيقة. فإلى وقتنا هذا وتواريخ الأدب لا تجد فحة من الوقت تخصصه للأعمال المترجمة، إذ أن الترجمة في أعين مؤرخي الأدب ليست إلا قضية لغة فحسب، لا وشيجة لها بالأدب. إن هذا الاتجاه ما هو إلا ثمرة خبيثة من ثمار حركة توحيد لغة التاريخ الأدبي التي أرسى دعائمها مؤرخو الدراسة الرومانتيكية ومن تلمذوا عليهم، فقد كانوا عازمين على خلق وإيجاد آداب قومية تكون، قدر الاستطاعة والإمكان، مُصفاة من أي كدر أو شوب قد تجلبه عليها المؤثرات الأجنبية.

André Lefevre (1982) *Translating Literature: Practice and Theory in a Comparative Literature Context*, Modern Language Association of America, New York. pp.116-125

(١) جون تريفيزا (1٣1٢-1٤٠٢) John Trevisa أو John of Trevisa، مترجم إنجليزي، درس في جامعة أوكسفورد، وهو معاصر للشاعر الإنجليزي الشهير تشوسر (1٣٤٠-1٤٠٠) عمل مستشاراً للنورد بيركلي الذي صار راعيه فيما يتعلق بالترجمة، وقد ترجم بناء على رغبة النورد كتاب Polychronicon الذي صدره بمقدمة اتخذت شكل حوار بين أحد الكتاب والنورد حول الترجمة. وقد اشتهر عنه أنه ترجم الكتاب المقدس، وأنه قد ساهم في ترجمة جون ويكليف (١٣٢٠-١٣٨٤) Wyckliff الشهيرة للكتاب المقدس أيضاً. وهو بشكل عام يعد من أبرز المترجمين في عصره، ومن أهم من كتبوا عن اللغة الإنجليزية الوسيطة.

(٢) يواخيم دي بيلاي (1٥٢٢-1٥٦٠) Joachim du Bellay شاعر ونقاد فرنسي وأحد أعضاء جماعة الهلياد (التريا) Pléiade. وبعد هو وصديقه الشاعر الفرنسي الكبير "أمير الشعراء" بيير دي رونسار (1٥٢٤-1٥٨٥) Pierre de Ronsard من رواد مدرسة النهضة في الشعر الفرنسي.

(٣) إيرل روسكومون (١٦٣٠-١٦٨٥) Earl Roscomon شاعر وأديب إنجليزي، حاز شهرته الأدبية بترجمته فن الشعر Ars Poetica لأوفيد، حيث ترجمها بأسلوب الشعر الرسل غير القلي. كذلك اشتهر بقصيدته "مقال في الشعر المترجم" التي بسط فيها شعراً، وعلى نمط المنظومات والأراجيز التي تجدها في التراث العربي، آراءه في قرص الشعر وترجمته وحال المترجمين في زمانه.

(٤) أثرت ترجمة هذه الأبيات نلماً لتقريب طبيعتها في لغتها الأصل للقارئ العربي، وبالطبع فقد اتخذت رخصاً كثيرة لأخرج هذه الأبيات على هذا النسق، ولتصميم المائدة للقارئ للغة الإنجليزية أورد النص في لغته المصدر:

I pity, from my Soul, Unhappy Men

Compell'd by want to Prostitute their Pen;

Who must, like Lawyers, either Starve, or Plead,

And follow, right or wrong, where Gynns Lead

والأبيات مأخوذة من "مقال في الشعر المترجم" Essay on Translated Verse للأيرل روسكومون، وهي منشورة عام ١٦٨٤ بلندن. وقد حافظت في النص أصالة على أسلوب الكتابة كما في النص الأصلي، إذ كانت قد اطلعت على نسخة من "القال" في طبعها الأولى المذكورة.

(٥) بيلرس دانيولوس هوبنوس أو بيير دانيال أوي (١٦٣٠-1٧٢1) Pierre Daniel Huet عالم فرنسي ذائع الصيت، اشتهر بتحقيقه لعدد من النصوص الكلاسيكية الهامة مثل "شرح أوريجين على إنجيل متى" وسلسلة Delphin Classics التي نشر بها وحقق ما يربو على ستين عملاً من عيون المؤلفات المكتوبة باللغة اللاتينية.

(٦) مصطلح poetics من المصطلحات التي تذهب بالمترجم متاعب شتى وتورده موارد الحيرة والنسب. فهو مصطلح يدل على عمل من أعمال أرسطو الشهيرة وهو "البوطيقا" أو "فن الشعر" إلا أن المصطلح قد خرج عن إهاب اصطلاح المصطلحين عليه، واستحال إلى معنى آخر أجلاه الدكتور جابر عصفور في ملحق أحققه بترجمته المنارة لكتاب "مصر اللبنيّة"، إذ يقول: "وما حدث من فارق هو أن المصطلح القديم الذي كان لغة شارحة للجزء، أي الشعر، قد صار لغة شارحة للكل، أي الأدب". ولذلك نجد الدكتور عصفور يترجم هذا المصطلح إلى (علم الأدب). إلا أن لوفيفر يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى الأنواع الأدبية بأسرها مركزاً على ما قد يتناب هذه الأنواع من متباينة وصراع، لذا أثرت في ترجمتي أن أجلي هذه الفكرة بالإتيان بمقدمة تدل على الجمع (أنواع) لتأكيد فكرة الصراع تلك.

# ترجمة ما بعد الحداثة الأسبانيا وأمريكا انعكاسات حول تفسير الثقافة



## لويس بيجينوت<sup>(١)</sup> / ت: نادية جمال الدين

على الرغم من أن دراسة الترجمة تمثل إحدى الأدوات الفعالة التي يمتلكها من أجل تحليل العلاقات الأدبية على مستوى الثقافة، فإنه، حتى المتخصصون في الدراسات المقارنة، لم يستطعوا، إلى وقت قريب للغاية، منح الترجمة الاعتراف الذي تستحقه بوصفها قوة دافعة أساسية لتطوير الآداب المختلفة. كانت الترجمة سابقاً تعد نشاطاً ثانوياً يمكن، بقدر الإمكان، من خلاله، تخلي الحدود التي تفرضها الحواجز اللغوية ولكن لا يمكنها من مطاردة الأصل. وكان الرأي السائد دائماً هو أن ترجمة أي نص لا تكون نهائية وأنها محكوم عليها بانتهاء صلاحية وأن تستبدل بغيرها، مما صبقها بعدم الكمال وعدم الدوام مقارنة بنسخها الأصلي بصفات الثابتة وموازينته الصرفية غير القابلة للتصحيح. هذا المفهوم الاستدلالي والتقييمي والقياسي والتقليدي من تقليد موجه حتماً نحو القطب الأصلي، قد تعرض في السنوات الأخيرة لباحث منهجية منتظمة من جانب مجموعة من منظري ما بعد البنيوية الذين عكفوا على إعادة طرح مفهوم الأمالة ذاته بتأكيدهم على أن النص الأجنبي لا يعد نهائياً بشكل مطلق طالما أنه يعتمد على الترجمة للتأكيد بقائه. إن ما لا شك فيه هو أن بروز العديد من الكتاب الذين نذكرهم على المستوى العالمي كان ممكناً بفضل مترجميهم الذين تقدر دورهم نظراً لصعوبة مهمتهم. لذلك نرى أنه يجب علينا أن نعي أهمية التأكيد على أنه بجانب استحسان رواية "مئة عام من العزلة" مثلاً (وما تبعه من منح كاتبها جائزة نوبل)، لا يجب الاستهانة بالدور الذي كان لجورجي راباسا مترجمها إلى الإنجليزية. إن إعادته كتابة رواية جارتيا ماركيت بالإنجليزية - وهي من المستحيلات المطلقة - كانت ثمرة

قراءة شخصية تحت ظروف صعبة، كما أن الظروف المحيطة بكل قراءة لهذه الترجمة لا تشير لها.

إن الأدب الإسبانيأمريكي، شأنه شأن أي أدب آخر، يحتاج استيعابه إلى تفسيره أولاً، أي ترجمته، وهذا لا يتأتى إلا من خلال منحه الاهتمام الذي يتطلبه بُعد الثقافي وهو بالتحديد ما يمنحه طالبه المختلف. لقد بدأت ترجمة الثقافة الإسبانيأمريكية منذ اكتشاف "العالم الجديد"<sup>(١)</sup> حين حاول الغزاة والمستكشفون الإنسان تدوين ما وجدوه هناك باستخدام إحالاتهم الثقافية والتاريخية الخاصة. وقد عكف المؤرخون على فرض رؤيتهم للحياة في إطار واقعي جديد، أي أنهم كانوا يترجمون تجاربهم بحيث يقوم باستيعابها، ليس فقط مواطنوهم الذين خلّفوهم وراءهم، وإنما هم أنفسهم. لهذا الهدف، اعتمدوا على معتقداتهم الخاصة مما أدى - حسب "سوزان باسنت" (٨٧: ١٩٩٣) - إلى خلق مزيج غريب من العناصر والمثل الخيالية والأساطير والخرافات والتي كانت تهدف إلى حماية البحث المخفي عن الثروات الهائلة وكذلك، ما لا يمكن إنكاره، الحرص على فرض قيم حضارتهم. أدى هذا الاستعمار الثقافي إلى خلق شعارات فعالة وساذجة إلى درجة أدت بمفهوم "الاكتشاف" إلى تجريده سكان تلك الأراضي من هويتهم العرقية الحقيقية.

بعد هذا التقديم، والذي أتصوره مسهباً، أود الإشارة إلى الأعمال التي ستكون هدفاً للدراسة، ولكن من الضروري - قبل هذا - تقديم مصطلح دقيق يمكن من خلاله تبرير تسمين عنوان هذا العمل لتعبير "ما بعد الحداثة". إن سبب وجوده سهل التفسير: ولكي أوفر على القارئ التدقيق الجدلي الزائد عن الحد الذي قد يبعثنا عن الهدف الرئيسي، أقول ببساطة إنني لم أجد تسمية أخرى أكثر ملاءمة، إذ كان هناك تعبيران آخران للاختيار بينهما في البداية ولكنني قررت رفضهما لعدم تليينتهما ما أسمى إليه بشكل تام. فمثلاً كان يمكن استخدام تعبير "الفن السردى الإسبانيأمريكي الجديد" ولكن وصف "الجديد" لهذا الفن السردى قد يفترض التزييف، فعلى الرغم من أنه اقتضى مقابلة التراث الأدبي السابق، وخاصة واقعية الرواية الإقليمية، فإن أول شواهد هذا الانقطاع يعود إلى حوالي خمسين عاماً. من جهة أخرى، يمكن تحديد طورين كبيرين مما يعنى القول بأن التسمية الثانية تكون أحدث من الأولى. ففي الأعوام الـ ٤٠ و ٥٠ نجد إضافات لكتاب مثل "أرجيداس" أو "أستورياس" أو "بورخيس" أو "كاربنتيه" أو "أونثي" أو "روباستوس" أو "ولفو" أو "ساباتو". ولا شك أنه إذا ما كان هؤلاء الكتاب جميعاً قد مهدوا الطريق بشكل مناسب أمام الغزو الثقافي لكتاب آخرين أكثر شبهاً، مثل "كورتاسار" أو "فوينتس" أو "جارتيا ماركيت" أو "بارجاس يوسا أكبر ممثلي ما يسمى جماعة الإسبانيأمريكية في الأعوام الـ ٦٠ و ٧٠، إن هؤلاء الآخرين هم من boom من يسروا الاعتراف بأسلافهم. وقد أدى الاهتمام الذي أثارته تلك الأسماء الأربعة الكبار إلى نجاح ممكن لكتاب آخرين معاصرين لهم مثل "كابريرا اتفانتي" أو "دونوسو" أو "ليثاما ليما" وآخرين بعدمهم بتقريب مثل "برايشي إتشينكي" أو "بويج".

ليست من الكلمات المناسبة بشكل تام على الرغم من تكرار استخدامها كلمة boom وقد كان "خوسيه دونوسو" على حق في شهادته الشخصية على تلك السنوات التي لا تتكرر بتأكيده على أن: كلمة إنجليزية غير لازمة، على العكس فإنها مليئة بالدلالات التي أغلغها، تقريباً، boom تحفيزية أو طنية، وأقلها ربما، تمييز البعد والبالغة الزائدة. اسم صوت يعني فرقة، ولكن مع الوقت أضيف إليه معنى الزيف boom والانفجار الذي ينشأ من اللائح والذي يخلف أقل مما يتفهم. إنه يقتضى شمسناً، وبشكل خاص، أن يصاحب هذه اللمدة الوجيزة والجوفاً [...] الخداع والاستغلال (١٢: ١٩٨٣-١٣).

وإنما كانت التسمية المستخدمة، فإن مالا شك فيه هو أنه في عقد الستينيات عاشت أمريكا اللاتينية فترة غير معتمدة من القوران الأدبي تصالحت فيها الجودة مع الاعتراف بشكل موفق. ووجدنا، خلال سنوات قليلة، انتشاراً لأولى الروايات القيمة لبعض الكتاب الشبان التي تحمل إشارات رئيسية لفهمهم ممن كانوا قد قطعوا شوطاً ما في ممارسة فنهم بشكل ملحوظ. وكما يبين "هيجينز" (٩٢-٩١: ١٩٩١)، فإن الروائيين "الجدد" قد أبدوا في مهمتهم موفقاً على طرف التقيش لموقف الكتاب الإقليميين مثل "إلجريا" أو "جاييجوس" أو "جويرالديس" أو "ريبيررا"، الذين تعقبوا بسمو هدف تعليمياً ذا شكاوى اجتماعية عندما وصلوا بدقة شبه وثائقية واقع قارة مجهولة بالنسبة لسكان المدن الكبرى. كان الأمر يتعلق بفن سردي يتبع بعناية التقليد الواقعي للقرن التاسع عشر حيث كان يتم استيعاب العمل الأدبي إرضاء لمتطلبات اجتماعية وثقافية أكثر من كونه هدفاً في حد ذاته. كانت الرواية "الجديدة"، على العكس، تُقدّم بشكل قائم بذاته يتم تقييمه وفقاً لصفاته المميزة. لم يكن من الضروري أن تعكس بإخلاص الواقع، فقد كان يتم الجهر فعلياً بالطابع الخيالي للعمل الأدبي.

في رأى "هيجينز" (٩٢: ١٩٩١)، هناك فرق جوهري آخر، وهو عالمية الرؤية لدى الكتاب الجدد وهي نتاج تكوينهم الفكري والثقافي القوي والمنعكس من خلال الإحالات التناسية غزيرة العلم التي تعج بها أعمالهم. وحسب "دونوسو" فإن "الرواية الإسبانية الأمريكية بدأت تتحدث لغة عالمية" (١٧: ١٩٨٣) ببعثها على الاستلهام من نماذج أجنبية مثل "سارتر" أو "كاموس" أو "جراس" أو "مورافيا" أو "نوريل" أو "رويس-جريليت" أو "سلينجر" أو "كروك" أو "ميلر" أو "فريش" أو "جولدينج" أو "كابوتيه" أو "بافيميه" أو شباب الرجال الغاضبين أو "الكلاسيكيون" مثل "جويس" أو "بروست" أو "كافكا" أو "مان" أو "فوكتر". وهو يقول:

لقد تم طرح الرواية الإسبانية الأمريكية [...] منذ البداية كهجين، وكجهد بالتراث الإسباني الأمريكي (فيما يتعلق بإسباني وفيما يتعلق بأمريكي) وهي تنطلق من منابع أدبية أخرى حيث إن حماساً لنا البهيمية قد استسلمت بلا تردد للعدوى من الأمريكيين والفرنسيين والإنجليز والإيطاليين الذين بدأوا لنا أكثر انتماءً وخصوصية من "جاييجوس" أو "جيرالديس" مثلاً، أو "باروخا" (٢١-٢٠: ١٩٨٣).

وعلى الرغم من تعدد أصول كثير من الكتاب الكبار للرواية الإسبانية الأمريكية "الجديدة" فإنه يفترض أن قسماً كبيراً من هذه التأثيرات الأجنبية قد تم عن طريق الترجمة. وهذا ما اعترف به "خوليو كورتاثر" والذي كان مترجماً محترفاً خلال فترة طويلة من حياته، عندما يتساءل "ماذا كان سيكون مصري لو لم أقرأ هوميروس بالإسبانية وديوستوفسكي بالإنجليزية وكتاتولو بالإيطالية وبلاتون بالفرنسية؟". سؤال آخر كان يمكن لكورتاثر أن يصيغه بشكل شرعي وهو: ماذا كان سيكون مصري لو لم تكن هناك ترجمات لأعماله إلى الإنجليزية أو الإيطالية أو الفرنسية؟.

بدأت ترجمة الرواية الإسبانية الأمريكية على نطاق واسع خلال عقد الـ ٦٠ إلى الإنجليزية والفرنسية بشكل رئيسي ولكن أيضاً إلى الألمانية والإيطالية والروسية إلى عدد جيد من اللغات الإسكندنافية<sup>(٣)</sup>. يهمن القول بأن هذا النشاط الترجمي قد تصادف مع الزخم الأدبي الذي كانت تعيشه إسبانيا أمريكا حينئذ ولو أن الدقة تشير إلى أنه كان من نتاجه<sup>(٤)</sup>. ففي الولايات المتحدة كما يشير وليام لويس (١٩٩١: ٩) قائلًا: كان التيار الجارف من الترجمات يعود الفضل فيه إلى رواد تيار الرواية الإسبانية الأمريكية وأيضاً إلى اهتمام ملحوظ بواقع القارة boom والجزء الواقع بجنوب الحدود مع المكسيك مما افترض وضع العديد من البرامج الجامعية للدراسات اللاتينية - أمريكية. وسرعان ما تكشف أن ترجمة الأدب أصبحت من الوسائل الأكثر فاعلية لقبول ثقافة ليست فقط مختلفة عن الثقافة الخاصة وإنما إضافة إلى ذلك، تبتعد كثيراً عن أن تشكل كلاً متجانساً. عامل آخر مهم وهو أنه خلال الستينيات تم افتتاح مراكز متعددة للترجمة على امتداد البلاد. كل هذا سمح للأدب الإسباني الأمريكي بأن يجد منفذاً للولوج في سوق النشر الأمريكية محكمة الغلق فنجد أعمالاً مثل "مئة عام من العزلة" أو "لعبة الحجلة" تحقق مبيعات حقيقية ناجحة. وإذا كنت استخدم كلمة "الحكمة الغلق"، فإن ذلك يعود إلى أن الترجمات تشكل نسبة مئوية قليلة من مجموع الكتب المنشورة سنوياً في الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن عدد الكتب المنشورة في هذا البلد قد زاد أربعة أضعاف منذ عام ٥٠ فإن الأعمال الأجنبية المترجمة ظلت تمثل ما بين ٢٪ و ٤٪ من مجموعها، مع الاستثناء المهم لأعوام الستينيات والتي تراوحت خلالها ما بين ٤٪ و ٧٪. وفي عام ١٩٩٠ مثلاً طرحت دور النشر الأمريكية ٤٦,٧٤٣ كتاباً منها ١,٣٨٩ فقط (أي ٢,٩٪) مترجمة. نفس سياسة الحماية اتبعتها المملكة المتحدة: فمن الـ ٦٣,٨٩٠ كتاباً منشوراً في عام ١٩٩٠، كان ١,٦٢٥ فقط منها ترجمات (أي ٢,٥٪)<sup>(٥)</sup>. أما في السوق الأوروبية، فعلى العكس، مثلت الترجمات نسبة مرتفعة نسبياً من إنتاج الكتب المنشورة مع غلبة واضحة للترجمات التي تمت عن الإنجليزية. منذ الحرب العالمية الثانية واللغة الإسبانية هي أكثر اللغات ترجمة على وجه الأرض. هذا الأمر، إضافة إلى الحجم الكبير من صادرات الكتب المكتوبة بالإنجليزية، ساهم بشكل جوهري في نشر الثقافة الأنجلو أمريكية على المستوى الدولي. كل ذلك يمثل انعكاساً للهيمنة السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة. وقد كان للنتائج الشؤمة لهذه الإمبريالية الثقافية تأثيرها في الدول

الستعمرة كما في المستعمرة. وهناك دلالة في مسألة أن تكون الترجمة نشاطاً قليل الاعتبار من جانب تلك الأنظمة الثقافية المدعمة تماماً، أو التي تخضع لمرحلة من الإمبريالية<sup>(٢٧)</sup>. وهذا دليل قاطع على قلة استقباليها لكل ما هو أجنبي ولنوع من سياسة الحماية التي تجد في الدفاع عن أحادية اللغة أحد أهم حصونها. أن أدنى انتقاع لها على التأثيرات الخارجية هدفه الحفاظ على هوية تعتبر مكثفة بذاتها، ولكنها تميل حتماً إلى التبسيط وتكرار النماذج المقدمة كمصدر للإلهام البديع. إن صورة تلك الثقافات التي تمارس الترجمة فيها دوراً مسيطراً تبدو مختلفة للغاية، ولا يمكن الاعتراض على ذلك إلا فيما يتعلق بأن تكون مجموعة النصوص المترجمة ذات توجه واحد مما يستلزم فرض قيم أنجلو أمريكية واستبعاد كل ما عداها.

على كل الأحوال، فإن هذا الاستطراد المطلوب والموجز لا يجب أن يبعدنا عن هدفنا الرئيسي. إن نجاح الكتاب الإسباني الأمريكيين في الولايات المتحدة خلال الأعوام ٦٠ و ٧٠ ليس له سوابق. وكما يشير "فينوتي" (١٩٩٥: ٢٦٥) فإن هذا النجاح كان ممكناً بفضل المقالات النقدية العديدة والإيجابية التي تناولتهم وإلى مساندة دور نشر مثل "جروبي" و"بانتيون" أو "نيو ديركشون" وإلى تمويل بعض المؤسسات مثل "مركز العلاقات الإنترأمريكية". ومن جهة أخرى وحسب رأي "خوسيه دونوسو" (١٩٨٣: ٥٥)، فإن هذه الشعبية المفترض أنها كاصاعقة، قد شابهها الكثير من المبالغات وكانت حقيقتها نسبة. ويعترف "دونوسو" بوجود اهتمام شعبي كبير، مقارنة بسنوات سابقة، ومناقشة قاتلة بين دور النشر لكسب الأسماء الكبيرة وكثرة إنتاج للترجمات ورضى من جانب النقاد واهتمام من العالم الأكاديمي إلى أحد الكتاب boom ولكنه يرى عدم تحول أي من كتاب حركة الـ "الموشة"، أي أن يكون مثل "جولدينج" أو "موريل" الذين كانوا كذلك قبل خمس عشرة سنة. وحسب كلماته:

كانت ترجماتنا، في أغلب الدول، تخضع دائماً للنقد في الصحافة من جانب أساتذة متخصصين في الأدب الإسباني الأمريكي وكانت تظهر في الصحف اليومية لا بجانب روايات باقي العالم وإنما تحت تصنيف أو داخل إطار - "أمريكا اللاتينية"، - روايات لاتينية أمريكية - مما يعني شكلاً من أشكال الاستبعاد. يجب أيضاً ملاحظة - سواء أكان للنقبة أو لضرر - أن الدعاية لرواية لاتينية - أمريكية كانت بيد موظفين وكلاء لدور النشر أو تعتمد في أغلبها على مدى الشخصية والعلاقات الطيبة أو السيئة مع الأساتذة التخصصيين والكتاب والنقاد وذوى النفوذ. وهناك بعض الدول، منها ألمانيا مثلاً، تشهد فيها الرواية الإسبانية الأمريكية تراجعاً تاماً (دونوسو ١٩٨٣: ٥٥).

كان لهذه النخبة من الكتاب الكبار الحظ في ترجمة أعمالهم إلى الإنجليزية بفضل العمل الذي حظي باستحسان النقاد لترجمين مثل "أباسا" أو "لوفين" أو "سايزر بيدرين" أو بلاكيرون". وأغلبهم قد تناوبوا ممارسة الترجمة مع التدريس الجامعي. ومن بينهم جميعاً كان الأكثر شهرة وتناجاً، بلا شك، "جريجوري راباسا" الذي ترجم للكثير من الروائيين الإسباني الأمريكيين ذوى المكانة الأدبية مثل "ميجيل أنخيل أستورياس" أو "خوليو كورتاسر"



أو "جابريل جارتيا ماركيث" أو "خوسيه ليثاما ليما" أو "لويس رفايل سانتشيث" أو "ماريو بارغس يوسا" إضافة إلى كتاب برازيليين مثل "خورخي آمادو" أو "بينيتوس ديه موراليس" وأسبان مثل "خوان جوييتسولو" أو "خوان بينيت"<sup>(١)</sup>.

وقد أعلن جارتيا ماركيث بنفسه عن اعترافه بمهارة "راباسا" في الترجمة حين أكد:

لقد قرأت بعض الكتب التي ترجمها "جربوري راباسا" إلى الإنجليزية وأعترف بأن هناك بعض الفقرات التي أعجبتني أكثر من أصلها الإسباني. إن الانطباع الذي تخلفه ترجمات "راباسا" هو أنه يحفظ الكتاب عن ظهر قلب ثم يقوم بعد ذلك بإعادة كتابته كاملاً بالإنجليزية: إن أمانته أكثر تعقيداً من الحرفية البسيطة. وهو لا يقدم أبداً تذييلات توضيحية وهو اللجأ الأقل سرياً والأكثر تطرفاً، للأسف، من جانب المترجمين السليئين (جارتيا ماركيث ٢٩٢: ١٩٩١).

إن الفرق الجوهرى بالنسبة لراباسا (٢٢-٢١: ١٩٨٤)، بين مهمة الكاتب ومهمة المترجم يعود إلى أن الإضافة الأصلية لهذا الأخير تنحصر في الشكل، بينما المحتوى يكون مسلماً به. وهذا لا يعنى أن مهمته تكون بالضرورة المهمة الأيسر، لأن عليه أن يقهر لغتين بدلاً من لغة واحدة فقط<sup>(٢)</sup>. وفي رأيه (١٩٨٤: ٢٣، ١٩٨٤: ٣٢) فإن على المترجم أن يكون، قبل أي شئ، قارئاً عظيماً، حيث إن عملية الترجمة تتلخص في تحقيق قراءة أمينة إلى أقصى درجة ممكنة لعمل معين؛ ولكن يجب أن تتمتع أيضاً بمهارة الكتابة، وهذا ما تبينه مسألة عدم استطاعة كل قارئ جيد الترجمة. وبكلماته "إن المترجم قارئ ولكن واحد فقط هو من كتب ما يقرأ" (٢٣: ١٩٨٤). هذا المترجم الشهير قد حدد أكثر من مرة الإشكالية الضمنية لترجمة الثقافة. وكما يؤكد "حقيقة أن اللغة هي الثقافة والثقافة هي اللغة تنشأ بشكل حاد عند محاولة إحلال لغة الشخص بلغة أخرى [...] فنحن المترجمين نجرد، بعملية الترجمة، العمل الأصلي من مظهره الثقافي الجوهرى وهو حس اللغة الأصلية" (٤٤، ٤٣: ١٩٩١).

توضح صعوبة الترجمة عندما نعي بأن اللغة لا تتوقف عن كونها مجرد مهارة لا تعكس سوى رؤية غير تامة وغير كاملة للواقع أو لما نعتقد أنه الواقع. إن على المترجم أن يصل إلى أبعد من كلمات النص الأصلي؛ عليه إعادة بناء المعنى المضمّن الذي يمتحها الحياة والذي استطاع الكاتب نقله بشئ من الاقتدار. وعليه بمجرد إدراكه هذا المعنى، أن يعيد تخطى نفس الحيرة التي واجهها الكاتب، ولكن مستعيناً الآن بنظام لغوي مختلف. ولن نستطيع إظهار الإمكانات الباطنية للغة سوى بمعرفة حدودها. وهذا ما كان يعلمه جيداً "يورخيس" الذي طلب من مترجمه ألا يترجم ما كان يقول وإنما ما يريد أن يقول. إن عدم إمكانية ترجمة كلمات "يورخيس" - هذه في حد ذاتها يكشف مدى التعقيد المصاحب لعملية الترجمة. إن ما كان يوعز به المؤلف الأرجنتيني هو أنه يجب ترجمة ما كانت تعنيه كلماته (٩: ١٩٩١)، أو نعد أن تعنيه، وهو ما لا يمكن التوصل إليه بشكل متزامن وكامل إذا ما وضعنا في الاعتبار للسافة الفاصلة بين قصد الفكر ونتيجة الكتابة والتي تكون في حد ذاتها

معرضة للتأثر بترجمات مختلفة. إن التوصل إلى هذا التوفيق أمر صعب بالنسبة للمؤلف ولكنه أصعب بالنسبة للمترجم؛ إذ إنه كثيراً ما نكون غير قادرين على فهم مشاعرنا الشخصية بل وأكثر من ذلك التعبير عنها، فكيف لنا أن ننتظر أن ينجح في ذلك شخص غريب عنا؟ يمكننا المحافظة على أمل أن يصل المتلقي الأخير إلى التغلغل إلى أعتاب ما يتولد لديه؟ هناك كتاب يتمتعون بموهبة غير عادية لإدراك أي اللغات بالذات يكون أكثر دقة للتفكير، هذه تكون، إذا ما صدقنا "جريجوري راباسا"، حالة جارثيا ماركيث الكاتب الذي يرى أنه ليس صعب الترجمة، نظراً لبراعته في التوصل إلى أن تفقد الكلمات طبيعتها الرمزية الذاتية وتتحول إلى استعارات مجازية غير مرئية للمتصل بها. وبالفعل كما أكد "راباسا" في مقابلة مع "هوكسما" (١٨: ١٩٧٨)، فإن من بين جميع الكتاب الذين ترجم لهم كان جارثيا ماركيث ألقهم إثارة للمشاكل في الترجمة وخاصة في "خريف البطريق" على الرغم من أن هذه الرواية تتكون من ستة فصول يتضمن كل منها فترة واحدة وأن بعض الجمل تشمل أكثر من خمسين صفحة<sup>(١)</sup>.

يؤكد "راباسا" (٩: ١٩٨٩) أن أكثر الأعمال التي واجه صعوبة في ترجمتها هو "براديسو" وذلك بسبب نزوع "لثاماسا ليماس" المتأصل إلى ابتكار اصطلاحات جديدة وإلى انتهاكه المستمر للقواعد النحوية للجمل، وذلك رغبة منه في نقل مشاعره على أكمل وجه ممكن، على الرغم من أن هذا يقتضى التضحية بقواعد اللغة. ويعترف "راباسا" بأنه اكتشف من حين لآخر أن لغته الخاصة كانت تسمح له بإطلاق تعبير ما يمكن أن ينقل بقدر كبير المعنى الذي كان "لثاماسا ليماس" يبحث عنه، ولكنه يصبح عادياً إلى حد كبير ولا يتمكن من توليد القدرة الإبداعية للكاتب الكوبي مما يؤدي إلى ضرورة البحث عن شيء يكون مبتكراً، وأن يثبت أن في كلا اللغتين تتم إضافة عنصر غير عادي.

في مناسبات عديدة كانت مشاكل النقل تعود لأسباب ذات طبيعة ثقافية، وهذا كما يشير "جريجوري فوكس" (١٣٧: ١٩٩١-٣٨)، لا يعود فقط إلى أن تاريخ وتقاليد الشعوب يمكن أن تكون على طرفي النقيض، بل لأن مسألة هنا بالذات تكون مشفرة بمعناها الأوسع أو بمعنى أصح الطريقة التي تشكل بها فكرنا. وعلى المستوى الرئيسي للصعوبة، نجد من غير المتصور دائماً التكافؤ التقوي بين الكلمات. وهي حالة تلك المفاهيم التي تكون مجهولة - تماماً في اللغة - الهدف والتي يطلق عليها عادة "خاصة" culture-specific, Mona Baker 1992: 21 بتقاني ما.

تلك المفاهيم سواء أكانت جامدة أو معنوية تمثل طبيعة مختلفة تماماً، فنجد أنه يمكنها مثلاً أن تعبر عن معتقدات دينية وطقائيات اجتماعية واستخدامات وعادات أنواع من الأطعمة... إلخ. وعندما يواجه المترجم كلمة تشكل فراغاً ثقافياً في لغته فإنه يتبنى بلا شك إحدى الاستراتيجيات الممكنة التالية؛ أي: الإبقاء عليها (مع تفسير لها في ملحوظة، أحياناً) أو حذفها أو توضيح معناها عبر شرح مطول أو استخدام اقتباس أو النقل بالمحاكاة أو إبدالها بأخرى يمكنها أن تحدث لدى المتلقي "الهدف" نفس التأثير الذي أحدثته لدى المتلقي "الأصلي" على الرغم من أنها لا تحمل نفس المعنى الطرورج. إن الفائدة الأساسية لوضع ييجينوت -

للاستراتيجية الأخيرة تكمن في أنها تتيح للقارئ عنصرا يمكن أن يقر بأنه مألوف، ولكنها في نفس الوقت تمثل سلاحا ذا حدين، حيث تكمن الخطورة، وخاصة في الترجمة الأدبية، في فقدان الصبغة المحلية للعمل الأدبي<sup>(١)</sup>.

وعلى مستوى أكبر فإننا نرى أن اللغات جميعها تظهر تفضيلا لتواجد منظم مشترك بين كلمات معينة وهو ما يطلق عليه بالإنجليزية collocations وهي الكلمات التي يعكس أغلبها المحيط الثقافي الذي تحتله. وعندما يختلف المحيط الثقافي للغة الأصل ولغة الهدف بشكل جوهري فمن المحتمل أنه، في أغلب الحالات، تؤدي الترجمة إلى نقل ما يكون نداعيا لأفكار غريبة، حيث إنها بالفعل لم يتم التعبير عنها من قبل في لغتها الخاصة.

كثيرا ما تقتضى ترجمة "مجموعة الكلمات الخاصة بثقافة ما" زيادة جزئية للمعلومة المنقولة وهو ما لا مفر منه إذا ما أردنا أن يصبح القارئ قادرا على تفسير مفاهيم لا يمكن بطريقة أخرى أن تكون سهلة الإدراك (بيكر ٥٩: ١٩٩٢-٦٠). تزداد المشكلة حدة عندما يحدث أنه بدلا من "الوظائف"، نواجه تمييزات اصطلاحية أو ثابتة تكون فيها مرونة البناء ملغاة ومعناها التام لا يمكن استنتاجه من خلال مجموع المعاني الفردية للكلمات الأساسية. إن ما يؤدي أحيانا إلى صعوبة ترجمة هذه التمييزات الثابتة لا يكون بسبب أنها تتضمن عناصر خاصة بثقافة ما، وإنما أن يكون كذلك سياق الكلام المرتبط بالمعنى الكلى نفسه الذي تنقله. وفيما يتعلق بالجانب النحوي فإننا نلاحظ أيضا أن الثقافة تسهم في قومية تقديم الواقع عبر استخدام أزمنة فعلية محددة وترتيب الكلمات ونوع الصفات... إلخ. الشيء نفسه يقال بالنسبة للتشكيل النحوي حيث إن كل مجموعة لغوية تظهر اختصارات محددة فيما يتعلق بتشكيل أنواع الخطاب المختلفة وفي الطريقة التي تنقل بها وظيفته البلاغية.

من البديهي أن جميع الكتاب ليسوا على نفس القدر من الصعوبة في ترجمة أعمالهم. فـ"يورخييس" مثلا وهو كاتب يعتبر من أصعب الكتاب قراءة، ولكنه لا يعتبر صعبا إلى حد كبير عند نقله من لغة لأخرى. هذا إذا ما صدقنا "م. سايرز هيدن" مترجمة بعض قصصه ومؤلفين آخرين مثل "إيسابيل إيندي" و"كارلوس فوينتيه" و"أرنستو ساباتو"<sup>(٢)</sup>. ففي رأيها أن المجهود يكون على المستوى الفكري أكثر من البلاغي، بحيث إنه بمجرد حل العقبة الرئيسية يصبح من السهل هسيبا بحث الصوت المردي للكاتب الأرجنتيني. وقد حددت "سايرز بادن" إجماليا ما تطلق عليه "حلقة من صعوبات الترجمة" التي على الرغم من كونها مفرطة في التبسيط إلى حد كبير إلا أنها يمكن أن تفيد في أن توضح تصويرها تجربتها المهنية. في هذه الحلقة المقسمة إلى خمسة أقسام تعرض أنواعا مختلفة للثقافة. وبالنسبة باتجاه عقارب الساعة نجد تصاعدا فيما يتعلق بالصعوبة المفترضة للترجمة. وحسب تأكيدها، فإن أسهل أنواع النصوص ترجمة هو الهزلي الذي يتضمن الهجاء والسخرية، وبالحدديد كل ما يعرض بصيغة صريحة ومباشرة. يلي ذلك القسم الخيالي-أسطوري والذي لا يجب أن نطابقه بالضرورة بالشعر وإنما بما يكون أسنى بلاغيا من الكلام اليومي. أما التوصيل العادي، إذا كان لهذا وجود، فيحتل القسم التالي في سجل الصعوبات. يليه منطقة

تحتلها تلك التصوص التي يفصلها عنا الزمن. وأخيرا نجد الصعوبة الكبرى معقدة في اللغة الدارجة. وهذه المساحة الكبيرة بشكل واضح تطبق على اللهجة المحلية والبطانة واللغة الاصطناعية... إلخ، أي تنتمي لكل ما يكون على المستوى البلاغي دارجاً أو مختلفاً.

إن ما يلتفت النظر في نموذج "سايرز بيدن" هو أن القسم الخاص بالدراج وبالهجائي أو الساخر والتقاريرين جدا في الدائرة، يقمان على طرقي مقياس صعوبة الترجمة بحيث إن المترجم غير المطلع يمكن أن يقع في هوة معينة عند محاولة تخطى ما يبدو في الظاهر فرقا بسيطا للغاية فيحول إلى محاكاة ساخرة ما ليس إلا دارجا. إذن فإننا كانت هذه المترجمة لتعتبر أن خيال "بورخيس" ليس صعب الترجمة إلى حد كبير فإن ذلك، وبلا استثناء تقريبا، بسبب أنه يقع في القسم الخيالي - الأسطوري من الحلقة. فالحوار في أعماله - وهي في أغلبها روائية، - لا يفيض عادة ويحافظ فيها بقوة على نفس الصوت. ومعروف أن "بورخيس" كان مجهداً للفتن وهو متحيز واضح للإنجليزية مما حدا بـ "الاستر ريد" إلى التصريح بقوله: "إن ترجمة "بورخيس" إلى الإنجليزية تجعلك تشعر وكأنك تعيد العمل إلى لغته الطبيعية أو تعيد ترجمته" (17).

على الرغم من المقارنة بين كورتاثر وبورخيس أكثر من مرة فمن العدل القول بأن الاختلافات بين الكاتبين أهم من التشابهات. تعتبر "سايرز بيدن" (١٩٨٢: ٧٣) أن إنتاجه الأدبي بشكل عام يمكن أن ينسب إلى القسم "العادي" من الدائرة وأن تحويله إلى الإنجليزية لا يمثل مشكلة مهمة. بيدى "راباسا" (في ١٩٧٨: ١٣) نفس الرأي بتأكيد أن لدى هذا الكاتب ما لدى "بارجاس يوسا" وأن بيئة أعماله ذاتها هي التي تمنح الطابع المحلي وليس استخدام المصطلحات الإقليمية أو اللهجات التي يمكن أن تحمل نغمة فككورية مفرطة. إن العناصر الوحيدة ذات الصلة الإقليمية الموجودة هناك هي بعض المصطلحات الإقليمية القليلة وهي لكونها ليست غريبة في الأصل، فلا ضرورة للإبقاء عليها في الترجمة.

أما إذا أخذنا حالة "كارلوس فوينتيس" المؤلف الصعب تصنيفه ضمن أي من أقسام الدائرة وذلك بسبب تنوع اللغات المألفة في أغلب رواياته. ففي أعمال "فوينتيس" كما في أعمال "بارجاس يوسا" وخلافا لأعمال "جارتيا ماركيث"، ليس من المألوف وجود صوت سردي واحد مما يجبر المترجم بالطبع على تغيير المستوى البلاغي باستمرار<sup>(18)</sup>. يتميز نشر "فوينتيس" بقدرته على خلق انعطافات مختلفة للهجة الدارجة وبالإكثار من الزخارف حيث تكثر المصطلحات المستحدثة والتعبيرات الأجنبية الدخيلة. ففي روايته "كريستوبل نوناتو" وهي رواية تمت ترجمتها إلى الإنجليزية بالتعاون مع المؤلف، وفيها يظهر ملخص خفيقي للغات شفهية تبدأ من اللغة التشيلية إلى الإسبانية الفرنسية مروراً بالتشيلية الأكاديمية النحالة وبالله الاصطناعية الشائعة بمدينة المكسيك خلال المبعينيات. تكمن مشكلة النقل، - كما يعترف المترجم نفسه - في أن الإنجليزية الأمريكية ليست مؤهلة لكي (Mac Adam 1991: 340-41) ترسم بشكل طباعي لهجاتها المختلفة المتعددة (باستثناء الجنوبية على أكثر تقدير).

ويبدو العنصر العامي بقوة أكبر في "ثلاثة نمور حزينة" لـ"ج. كابريرا أنفانتيه". حيث نجد أهمية اللغة الشفهية بدرجة كبيرة، وكذلك النموذج الأكثر وضوحاً لكيافة لزوم تغيير الرموز اللغوية - لا محالة - فقدان الدلالة الثقافية. ويكفي لتعريض كلساني عرض الملاحظة التي قدمها "كابريرا أنفانتيه" للقارئ في الرواية الأصلية والتي تم حذفها بالطبع في الترجمة:

هذا الكتاب مكتوب بالكوبية. أي باللهجات الإسبانية المختلفة التي يتم التحدث بها في كوبا والكتابة ليست إلا محاولة للإسكاف بالصوت الإنساني بنفس سرعة من ينطقه. إن الأشكال المختلفة للكوبية تندمج أو أظنها تنصهر في لغة أدبية واحدة. وتسود بلا شك كلهجة لغة سكان لاهاغانا وبشكل خاص اللغة الاصطلاحية اللهجية وهي كما في كل المدن الكبيرة تعمل إلى أن تكون لغة سرية. لم يكن إعادة البناء سهلاً وبعض الصفحات يفشل سماعها عن قراءتها ولن تكون قراءتها بصوت عال فكرة سيئة.

إننا، لحسن الحظ، نعتمد على ترجمة لا يمكن وصفها سوى بالهارة. وإذا كانت كل الترجمات تفترض ممارسة إعادة الكتابة فإن هذه، بكل صدق وبسبب كونها نتاج التعاون الوثيق بين المؤلف نفسه و"س. جيل لوفين"، مشهورة على مستوى العمل الترجمي والمؤلفات النظرية حول الترجمة<sup>(٩)</sup>. ففي الترجمة الإنجليزية (أفضل أن نقول الأمريكية) فإن العديد من الحوارات تمثل علامات أصيلة للفردات والنبرات الخاصة بالسود في جنوب الولايات المتحدة. يهدف المترجمون هكذا إلى إظهار ملامح اللهجات التي تساعد في العمل الأصلي على تمييز الشخصيات تبعاً للثقافة والطبقة الاجتماعية. وبالرغم من أن الرواية في بدايتها كانت ستترجم باستخدام لغة اللندنية، أعتبر من الأنسب بعد ذلك الاستعانة بالإنجليزية الأمريكية<sup>(١٠)</sup>. cockney إن علينا أن نعي جيداً المشاكل الكامنة وراء هذا القرار الغريب. فالرواية، والمكتوبة في المنفى، هي إلى حد ما استحضار للثقافة الأمريكية، ولكن في نفس الوقت تعتبر نقداً لها مكتوباً بلغة الثقافة الخاضعة أي الكوبية. وكما يشير بوضوح "جيل لوفين" (١٩٩١: ٩)، ليس من السهل استرداد هذه الروح في اللغة المهيمنة. والحقيقة أن هذا التناقض بين ثقافة تعسفية وأخرى مظلومة يمثل سدى للإشكالية المضروبة في مفهوم الاكتشاف/ ترجمة للعالم الجديد الذي أشار إليه من قبل.

إن صعوبة الترجمة تعود إلى حد كبير إلى أن الاختلافات التي تفصل بين الكوبيين والأمريكيين كثيرة وجوهرية فيما يتعلق برويتهم للكون مما أدى بالتالي إلى الاختلاف في التقليد الأدبي الخاص بكل منهما. وعلينا أن نتذكر أن الترجمة الأدبية لا تنحصر فقط في تبادل الرموز اللغوية، وإنما أيضاً في نقل عمل أدبي إلى سياق أدبي مختلف. فاليوم يفصل بين أمريكا الشمالية والجنوبية أكثر من حدود يصعب عبورها بدون تأشيرة دخول. وفوق ذلك يفصلهما نمط حياة مما يعكس بشكل عرضي في أدبيتهما. ففي أعمال مثل "الخطوات الضائعة" للكاتب "البلو كارينتيه" أو "باراديسو" للكاتب "لثاماس ليمان"، نجد إكثاراً من الزخارف (الباروك) الذي هو في النهاية نتيجة التكافل الثقافي الذي افترضه التلاقي بين العالم القديم والعالم الجديد في القرن XV بين التقليد المسيحي والوثني، وبين وحشة المروج

الغرب إسبانية ووزارة الأدغال. من جهة أخرى إذا كان قد ازدهر في إسبانيا أمريكا نوع من السرد الروائي المستلهم مما أطلق عليه "الواقعية السحرية" فإن ذلك كان بسبب عدم إعطاء الفرصة لنمو تكنولوجيا حقيقي، ولأن التقليد الشفوي قد أبقى على معتقدات تتخاضم مع المذهب البراجماتي والعقلاني الأمريكيين. وكما يشير "ز. فيريه" كل ذلك له أهمية جوهريّة في مجال الترجمة:

إن عملية ترجمة الأدب من الإسبانية إلى الإنجليزية (والعكس) في القرن العشرين غير ممكنة بدون الوضع في الاعتبار الرؤى المختلفة للعالم وهذا يتضح عند المقارنة مثلا بين نوع الرواية اللاتينية الأمريكية اليوم لكتاب مثل "كارلوس فوينتيس" و"جابريل جارسيا ماركيز" و"إيسابيل إيندييه" فجميعهم منشغلون بالأحداث والتحويلات ونزاعات الحكم المطلق داخل مجتمعاتهم، وبين روايات كتاب أمريكا الشمالية مثل "ساؤول بيلو" و"فيليب روث" و"أ. ل. دوتورو" الذين استغرقوا في حل المشاكل النفسية المعقدة للإنسان داخل المدينة-الدولة الحديثة المجردة من الصلات الإنسانية.

يتغلغل الأدب الإسباني الأمريكي، عن طريق الترجمة، في وعي القراء الذين تختلف تجاربهم الحياتية عن تجارب الشخصيات التي تسكن الأعمال وعن تجارب المؤلفين الذين منحوها الحياة. إن إدراك العالم عبر عيون جديدة يقترح أنه يؤدي إلى الاعتراف بخصوصية "الأخر" مما يسمح في النهاية باكتشاف طابعنا الشخصية. تمثل الترجمة بمعناها الأشمل وسيلة لتفسير ثقافة غريبة وأداة أساسية لكي نتعرّف بشكل أفضل على ذاتنا عبر إدراك اختلافاتنا.

ملاحظات:

(١) لويس بويجنوت، جامعة بومبو فايرا، العدد ١٩ (١٩٩٧-١٩٩٨)، الصفحات ١٧٧-١٩٢ مجلة *Paradoles*

(٢) حسب "ب. كوهين"، "لاحظ كثير من الكتاب أن "العالم الجديد" المكتشف عبر كولومبس كان عالما قديما بالفعل وبأنه كان يتمتع بحضارات مختلفة لأهل البلاد الأصليين. لقد كان عالما قديما أيضا بمعنى ألق وشوحا: فقد كانت أفكار كولومبس حول الأراضي التي اكتشفها متأثرة بشكل عميق بمفاهيمه الفكرية والثقافية السبقة. وعليه فإن ردود أفعاله كانت كردود أفعال أي شخص يواجه شيئا غير مألوف (أي مجهولا)، سواء بالنسبة لمكتشف يبحث عن ممالك في أراض جديدة أو لعالم يحاول فهم غرائب الطبيعة. لقد كانت أفكاره مستمدة من الكتاب المقدس وأخبار الفاعرين السابقين ورسامي الخرائط ومن العلوم عامة، كل ما سبق وجد له سبيل في "اكتشافات كولومبس" (١٩٩٢: ٥٦)

(2) Lucille Kerr, "Interview with Julio Cortázar", *Diacritics* 4: 4 (1974), p. 40. Apud Sayers Peden (1982: 66).

(٣) قام كل من Castro-Klarén y Campos (1983: 333-38) بعرض لترجمات "بيورخيس" و"كورتازار" و"مارجاس يوسا" إلى أهم اللغات الأوروبية. وقدم Martín (١٩٨٩: ٤١١-٤١٢) قائمة بأهم الأعمال الإسبانية الأمريكية التي يمكن الحصول عليها مترجمة إلى الإسبانية. و Nunn (١٩٩١: ٧٤-٧٧) يصنف في سبع درجات عدد جيد من الترجمات لأعمال إسبانية أمريكية.

(٤) يؤكد وليام لويس (٧: ١٩٩١-٩) أن الظروف التي أسهمت في الاهتمام العالمي للرواية الإسبانية الأمريكية لم تكن أدبية فحسب، وإنما كانت أيضا سياسية. فبعد من المعاد مثلا ربط تولد حركة ال-boom بالثورة الكوبية. فالعديد من المفكرين، في البداية على الأقل، قد أبدوا بمرم كاشرو الذي قام بدعم الكتاب الذين كانوا يؤيدون ثورته. وقد أدت أزمة المورايخ والتغيرات الاجتماعية العميقة التي شهدتها كوبا إلى جذب أنظار العالم إلى هذه الجزيرة الكارثية مما أدى بشكل غير مباشر إلى اهتمام دولي بالواقعة

الإسبانيون الأمريكيون. ولكن التغيير الأيديولوجي للحكومة، نتيجة التقرب المتزايد للمبادئ الشيوعية، تسبب بعد ذلك في اختلافات بين مؤيدي الثورة. ثم كان الانشقاق القاطع والذي لم يكن الكتاب الإسبانولومريكيون يمدّون يدها عنه، في ١٩٧١ بعد ما سمي بـ "قضية باديا" ١٩٧١ والتبّد معه حسب رأى "ر. لويس" (١٩٩١:٩) فترة الـ "post-boom".

(٥) أمين بهذه المعلومات لـ Venutli (١٩٩٥:١٢) الذي أكد مراجعته للإحصائيات البريطانية الواردة في Whitaker's Almanac والأمريكية Publishers Weekly. وبأنها تتعارض مع الأرقام الواردة في United Nations Statistical Yearbook.

UNESCO Basic Facts and Figures

UNESCO Statistical Yearbook

An International Survey of Book Production During the Last Decades.

(٦) على العكس، فحسب Even-Zohar (١٩٩٠)، فإن الترجمة تلعب دوراً قائماً عندما تكون الثقافة في مرحلة التقاليد وذلك إما لأنها تكون غير مبلورة بعد، لأن أدبها، على الرغم من استقراره النسبي، فإن مصادر موارده تكون محدودة، أو لأنه في لحظة ما، تحدث أزمنة أو فترات أو تغييرات. وربما تجدر الإشارة إلى أن هذه الاعتبارات يجب قبولها بالتحفظ المناسب، نظراً لطابعها للفرط في التعصم ولذلاتها الكيفية الواضحة (والتعارف بشكل واضح مع الفلسفة التي يتبناها الجزء الأكبر من البناء النظري لـ Even-Zohar ذاته)، والؤكد أنها قيمة. وحسب Bassnett فإن كل ذلك يجرى مثلاً "لنأخذ، وبكلمات بسيطة، استطاعت اللغة الإنجليزية أن تتحول إلى لغة الدبلوماسية الدولية في القرن العشرين (والغة المهيمنة للتجارة أيضاً)، كانت الحاجة إلى ترجمة قليلة ومن هنا نجد القلة التسمية للترجمات إلى الإنجليزية في القرن العشرين مقارنة بتلك الترجمات إلى لغات أخرى كثيرة" (١١-١٠: ١٩٩٣)

(٧) أنظر (1983) Castro-Klarén y Campos لدراسة الصدام بين ترجمات أعمال إسبانيون أمريكية في سوق النشر الدولية.

(٨) من بين الترجمات التي قام بها "راباسا" يجدر بنا ذكر الأعمال التالية:  
- ميجيل أنخيل إسبورياس "ريح عاتية" (1950. Strong Wind, New York, Delacorte Press, 1969).

"البابا الأخضر" (1954. The Green Pope, New York, Delacorte Press, 1971).  
عيون المدفونين (1960. The Eyes of the Interred, New York, Delacorte Press, 1972).  
London, Cape, 1974)  
"مولانا" (Mulata de tal)

(1963. Mulata, New York, Delacorte Press, 1967; London, Peter Owen, 1967); de Gabriel García Márquez, La hojarasca (1955. Leaf Storm and Other Stories, New York, Harper & Row, 1972; London, Cape, 1972), La mala hora (1962. In Evil Hour, New York, Avon, 1980; London, Cape, 1980), Cien años de soledad (1967. One Hundred Years of Solitude, New York, Harper & Row, 1970; London, Cape, 1970), La increíble y triste historia de la cándida Eréndira y de su abuela desalmada (1972. Innocent Eréndira and Other Stories, New York, Harper & Row, 1978; London, Cape, 1979), El otoño del patriarca (1975. The Autumn of the Patriarch, New York, Harper, 1976; London, Cape, 1977) y Crónica de una muerte anunciada (1981. Chronicle of a Death Foretold, New York, Knopf, 1982; London, Cape, 1982); de Julio Cortázar, Rayuela (1963. Hopscotch, New York, Pantheon, 1966; London, Collins, 1967), 62 modelos para armar (1968. 62; A Model Kit, New York, Pantheon, 1972; London, Marion Boyars, 1977), El libro de Manuel (1973. A Manual for Manuel, New York, Pantheon, 1978; London, Harvill, 1984) y Queremos tanto a Glenda (1981. We love Glenda So Much and Other Tales (New York,

Knopf, 1983; London, Harvill, 1984); de Mario Vargas Llosa, *La casa verde* (1966, *The Green House*, New York, Harper & Row, 1968; London, Cape, 1969) y *Conversación en la catedral* (1969, *Conversation in the Cathedral*, Harper & Row, New York, 1975); de José Lezama Lima, *Paradiso* (1966, *Paradiso*, New York, Farrar, Strauss & Giroux, 1974; London, Secker & Warburg, 1974); de Luis Rafael Sánchez, *La guaracha del macho Camacho* (1976, *Macho Camacho's Beat*, New York, Pantheon, 1981).

(٩) بهذا المعنى تبدو كلمات T. H. Savory مهمة جدا والتي يقول فيها: "إن مهمة المترجم أصعب بكثير من مهمة المؤلف الأصلي. فعندما يبحث الأخير عن كلمة تعبر عن فكر أو تصف تجربة، فإنه يجد تحت تصرفه كلمات كثيرة بلغته الأم ويستطيع دون عناء أو إعاقة اختيار الكلمة التي تلائمها وتلمي حاجته أكثر. إن على المترجم لكلمة مختارة بهذا الشكل الإقرار بالكلمة الأكثر تكافؤاً واضعاً في الاعتبار الأفكار المترجمة للمؤلف والقراء والمعلم الذي عاش فيه المؤلف." (١٩٦٨: ٢٦).

(١٠) على الرغم من أن ترجمات أعمال جاريثا ماركيت قد لاقت اهتماماً ما من جانب النقاد، فلم يكن هناك أهمية لأي إضافة. فتجد (1990) McIntyre مثلاً يحلل في دراسة موجزة ومتواضعة بعض الظاهر الجدلية لترجمة "ملة عام من المملة". أما (1984) Dilmore فيقدم من جهته دراسة نقابية "واشبة" على المستوى البائتي الصغير بين النصين الأولين لـ "أخبار عن موت ملن" وترجمة راباسا. وهي إضافة ضعيفة جداً من حيث النقل القياسي البحث. وعليه يتم تحليل خطأ بين الفرد والجمع ومشكلات خاصة باسم الموصول "الذي" والصغير المفعول به المباشر وغير المباشر للذكر والمؤنث وللعاقل والجماد، واختلافات في الأزمنة الفعلية،... إلخ، وهي تصل إلى درجة نقد تحويلات ضرورية تتجاوز طبيعة اللغات ثنائية العدد. إن الوظيفة التقييمية لـ Dilmore، والتي مازالت شائعة للأسف في الدراسات الخاصة بالترجمة، تبدو جلية في خاتمة الدراسة: إن هذه الرواية، البسيطة بشكل خادع، مفيدة للغاية بحيث إننا في كثير من الأحيان لا نلاحظاً حيثما نجد أن المعنى الدقيق المحدد نوعياً وبالتعبير القششالي الأصلي، لا يكون أحياناً مفهوماً بشكل تام من جانب المترجم" (ص. ٨). أما Sayers-Peden (١٩٨٢) فتؤسس للفرق بين صعوبات الترجمة لما تسميه النشر "العقلي" لبورخيس وكورتشار والنشر "الاستوائي" للوينتس وماركيت (انظر بالذات صفحات ٧٦-٧٨ لدراسة هذا الأخير). وأخيراً يقوم Valero (١٩٩٥) بدراسة نقابية بين "خريف البطريق" والترجمة الإنجليزية لافلاً النظر إلى مستغرات نصية: القبول والقد و الاتساق والتماثل والوضوح. ويصل Valero إلى النتائج التالية: إن جريجوري راباسا نجح في أن يكون شريكاً عبقرياً يسمى كل مترجم إلى أن يكون مثله. إنه بلا أي شك يبحث عن الإخلاص للنص وهو إخلاص يتجاوز مجرد الحرفية. ولكنه ينجح في الاقتراب من القارئ في نفس الوقت الذي يستطيع فيه تجنب الاختلافات بين لغتين متعددتين في النظام والتنين يتم التعامل بهما. وهي مهمة صعبة إذا ما وضعنا في الاعتبار الاختلافات بين النقاد اللغويين وأسلوب المؤلف وتوعية القارئ الوجه إليه النص" (١٩٩٥: ٧٤).

(١١) يمكن، بالطبع، أن يحدث أيضاً أن يقدم لون محلي لم يكن مطروحا في العمل (أو أن المؤلف لم يقصد إظهاره). هذا ربما كان حسب راباسا (1978: 13, apud Hoeksema). المهم الرئيسي لارجاس يوسا. هؤلاء المهتمون بدراسة ترجمات الكاتب البيرواني يمكنهم الاستمارة بالمصادر التالية: Enkvist (١٩٩١)، حيث يتم تحليل مشاكل نقل "قصة مايقا" و Enkvist (١٩٩٢)، حيث تتعارض ترجمات مختلفة لارجاس يوسا إلى الإنجليزية والفرنسية والسويدية.

(12) De I. Aliende, *De amor y sombra* (1948, *Of Love and Shadows*, New York, Knopf, 1988; London, Hamish Hamilton, 1989); de C. Fuentes, *Terra Nostra* (1975, *Terra Nostra*, New York, Farrar, 1978; London, Secker & Warburg, 1977), *La cabeza de la hidra* (1978, *The Hydra Head*, New York, Farrar, 1978; London, Secker, 1979), *Agusquemada* (1980, *Burnt Water*, New York, Farrar, 1980; London, Secker, 1981), *Una*



familia lejana (1980, *Distant Relations*, New York, Farrar, 1982; London, Secker, 1982) y El gringo viejo (1986, *The Old Gringo*, New York, Farrar, 1986; London, Deutsch, 1987); de E. Sébeto, El túnel (The Tunnel, New York, Random House, 1988; London, Cape, 1988).

(13) "Basilisk's Eggs", *The New Yorker*, 8 Nov. 1976, p. 179. Apud Sayers Peden (1982: 69).

(14) يؤكد (12: 1987a) Sayers Peden أن ترجمته لـ *Terra Nostra* كانت من أصعب الترجمات التي قام بها حتى تاريخه. وهو يقوم بدراسة تقابلية موجزة (ويخلق) لبعض الفترات من "موت أرتميو كروث" وترجمتها الإنجليزية. (ناشر أعمال فولتيرس) والكاتب David Roff فيروي كيف أنه يحصله مترجماً و (1991) Mac Adam, أما Cristóbal Nonato, الكسبيكي نفسه (فولتيرس) قاموا معا بمراجعة المسودة الأولى لترجمته لـ وهو يقدم بالتبصيل منهج العمل والمصوبات التي اعترضته نظراً لبروز اللهجة الشفوية لرواية. (16) يشير (21: 1991) Jill Levine إلى أن كاهيرا أنفانيه كان قد أعد ترجمة أولية لبعض Donal Gardner. فترات من "ثلاثة نمر حزننة" بالتعاون مع الشاعر الإنجليزي. وقد اعتمد هذا الأخير على الترجمة الفرنسية حيث إن إلهامه بالإسبانية ضعيف. وقد تولوا بعد ذلك "لمرقة" هذه الترجمة محولين مثلاً:

bloody إلى filthy, damn إلى crying إلى dirty (Jill Levine 1991: 68).

#### المراجع:

- Baker, Mona. 1982. *In other Words: a Coursebook on Translation*, Londres / Nueva York, Routledge.
- Bassnett, Susan. 1993. *Comparative Literature: A Critical Introduction*, Oxford / Cambridge (EEUU), Blackwell.
- Cabrera Infante, Gabríel. 1988. *Tres tristes tigres*, Barcelona, Seix Barral.
- Cohen, I. Bernard. 1992. "What Columbus 'Saw' in 1492", *Scientific American* 267: 6, 56-62.
- Castro-Klarén, Sara y Héctor Campos. 1983. "Traducciones, trajes, ventas y estrellas: el 'boom'", *Ideologies and Literature* 4: 17, 319-38.
- Difmore, Gena. 1984. "One Hundred Years of Solitude: Some Translation Corrections", *Journal of Modern Literature* 11: 2, 311-14.
- Donoso, José. 1983 (1972). *Historia personal del 'boom'* (y El "boom" doméstico por María Pilar Serrano), Barcelona, Seix Barral.
- Enkvist, Inger. 1991. "Reader Response to *Historia de Mayta* in Translation", *Antipodas* 3, 69-83.
- , 1992. "¿Qué rasgos caracterizan una buena traducción literaria? Reflexiones basadas en traducciones de Vargas Llosa al inglés, al francés y al sueco", *Moderna Språk* 86: 2, 167-75.
- Even-Zohar, Itamar. 1990. "The Position of Translated Literature within the Literary Polysystem", *Poetics Today* 11: 1, 45-51.
- Ferré, Rosario. 1996. "On Destiny, Language and Translation: or, Ophelia Adrift in the C. & O. Canal", en Anuradha Dingwaney y Carol Maler (eds.), *Between Languages and Cultures: Translation and Cross-Cultural Texts*, Pittsburgh / Londres, University of Pittsburgh Press, 39-49.
- Fox, Geoffrey. 1991. "Mermaids and other Felishes: images of Latin America", en Luis & Rodríguez-Luis (eds.): 135-44.
- Frawley, William (ed.). 1984. *Translation: Literary, Linguistic and Philosophical Perspectives*, Newark, University of Delaware Press; Londres / Toronto, Associated University Press.
- García Márquez, Gabriel. 1991. *Notas de prensa. 1980-1984*, Madrid, Mondadori.

- González, Anibal. 1987. "Translation and Genealogy: One Hundred Years of Solitude", in Bernard McGuirk & Richard Cardwell (eds.): *Gabriel García Márquez: New Readings*, Cambridge, Cambridge University Press, 65-79.
- Higgins, James. 1991. "Spanish America's New Narrative", en Edmund Smyth (ed.), *Postmodernism and Contemporary Fiction*, Londres, Batsford, 90-102.
- Hooksema, Thomas. 1978. "The Translator's Voice: An Interview with Gregory Rabassa", *Translation Review* 1, 5-18.
- Jill Levine, Suzanne. 1991. *The Subversive Scribe: Translating Latin American Fiction*, Saint Paul, Graywolf Press.
- Luis, William y Julio Rodríguez-Luis (eds.). 1992. *Translating Latin America: Culture as Text (Translation Perspectives VI) [Selected Essays from "Translating Latin America, and Interdisciplinary Conference on Culture as Text", a SUNY Conversation in the Disciplines, April 19-21, 1990], Binghamton, State University of New York at Binghamton.*
- Mac Adam, Alfred. 1991. "Rebirth of a Novel", en Luis & Rodríguez-Luis (eds.): 337-42.
- McIntyre, John. 1980. "The English Translation of Gabriel García Márquez's *Crónica de una muerte anunciada*: Aspects of Castilian Grammar and Idiom", *Professional Translator & Interpreter* 2, 5-8.
- Martin, Gerald. 1989. *Journeys Through the Labyrinth: Latin American Fiction in the Twentieth Century*, Londres / Nueva York, Verso.
- Nunn, Frederick. 1991. "The Latin American 'New Novel' in Translation: Archival Source for the Dialogue Between Literature and History", en Luis & Rodríguez Luis (eds.): 67-77.
- Rabassa, Gregory. 1984a (1974/75). "If This Be Treason: Translation and its Possibilities", en Frawley (ed.): 21-29 (originalmente en *American Scholar* 44, 29-39).
- 1984b (1975). "Slouching Back Toward Babel: Some Views on Translation in the Groves", en Frawley (ed.): 30-34 (originalmente en *Centerpoint* 1, 57-59).
- 1984c. "The Silk Purse Business: A Translator's Conflicting Responsibilities", en Frawley (ed.): 35-40 (originalmente en *American PEN* 4).
- 1989. "No Two Snowflakes Are Alike: Translation as Metaphor", en John Biguenet & Rainer Schulte (eds.), *The Craft of Translation*, Chicago, University of Chicago Press, 1-12.
- 1991. "Words Cannot Express... The Translation of Cultures", en Luis & Rodríguez-Luis (eds.): 35-44.
- Savory, T. H. 1968. *The Art of Translation*, Londres, Jonathan Cape.
- Sayers Peden, Margaret. 1982. "The Arduous Journey", en Wendell Aycock (ed), *The Teller and the Tale: Aspects of the Short Story [Proceedings of the Comparative Literature Symposium result from annual Symposia organized by Texas Tech University's Interdepartmental Committee on Comparative Literature]*, Lubrock, Texas Tech Press, 63-85.
- , 1987a. "Telling Others' Tales", *Translation Review* 24/25, 9-12.
- , 1987b. "Translating the Boom: The Apple Theory of Translation", *Latin American Literary Review* 15: 29, 159-72.
- Valero García, Carmen. 1995. "Texto y contexto en traducción: Gabriel García Márquez en inglés", en *Apuntes sobre traducción literaria y análisis contrastivo de textos literarios traducidos*, Alcalá de Henares, Universidad de Alcalá, 63-78.
- Venuti, Lawrence. 1995. *The Translator's Invisibility: A History of Translation*, Londres / Nueva York, Routledge.

# الترجمة والمناقشة

كتاب معاودة العرب

في الأدب الإيراني المعاصر نموذجاً



بسام علي ربابعة

لا شك أن الترجمة بين اللغات المختلفة التي كانت على مر العصور أعم وسيلة للمناقشة بين الأمم والشعوب أضحّت من القضايا التي تشغل بال الكثير من المهتمين بالترجمة ودراسات الأدب المقارن ودررها في الثقافة، وفي إطار الحديث عن أهمية الترجمة ودرورها في الثقافة وتلاقح الأفكار والتلاقح مع الأمم والشعوب الأخرى- من خلال فكرة حوار الحضارات والتواصل والتقارب لا القطيعة والتنافر- يمكننا أن ندرس صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر، وهي قضية جذيرة بالبحث والدراسة والتحليل؛ فإذا ما أخذنا كتاب "معاودة العرب في الأدب الإيراني المعاصر" للباحثة والمستشرقة الأمريكية جوبا بلوندل سعد<sup>(١)</sup> نموذجاً لهذه الدراسة، والذي ترجمته إلى اللغة العربية وسأخذ طريقه إلى النشر قريباً إن شاء الله، فإنه يمكننا القول: إن هذا الكتاب حظي بما لم يحظ به غيره من الكتب الأخرى؛ فقد أحدث هذا الكتاب عراكاً ثقافياً في لغات ثلاثة هي: الانجليزية والفارسية والعربية، وربما تنتقل هذه الظاهرة التي قلّ مثيلها إلى لغات أخرى في وقت قريب وهي مؤهلة لذلك؛ إذ إن صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر هي الموضوع الذي بحثته المؤلفة في كتابها هذا، والذي انعكس في اللغة الانجليزية وترك تأثيره في الناطقين بهذه اللغة ولا سيما النخبة الثقافية منهم، ثم أنتقل هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية عن طريق ترجمة السيدة فرناز حائري، وتصحيح ومراجعة السيد ناصر بور بهرام، وترك انعكاسات متنوعة ظهرت في الصحف والمجلات والواقع الالكتروني داخل إيران وخارجها، خاصة عن طريق بعض مثقفي عرب إيران، وخير مثال على ذلك السيد يوسف عزيزي بني طرف الذي كتب عدة مقالات حول هذا الكتاب وهذه الظاهرة<sup>(٢)</sup>.

فقد لهذا الكتاب ولهذه الظاهرة أن ينتقلا إلى اللغة العربية؛ فقد كتب صاحب هذه المقالة دراسة موسومة بـ "صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر" اشتملت على مقدمة وتحليل وإضافة لهذا الموضوع، بالإضافة إلى ترجمة الفصل الخامس من الكتاب عن اللغة الفارسية، ونشرت هذه الدراسة في مجلة أفكار الأردنية<sup>(١)</sup>، كما قام بترجمة الجزء الخاص بصادق هدائيت أواخر عام ٢٠٠٦ وإرساله إلى إحدى المجلات المحكمة ضمن مقالة موسومة بـ: "صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر: صادق هدائيت نموذجاً"<sup>(٢)</sup> والتي صدرت في العدد الأخير من مجلة كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر، وبالإضافة إلى ذلك عمل على ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب ونشره في مجلة أفكار تحت عنوان "مدخل إلى صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر"<sup>(٣)</sup> وبدون مبالغة فقد كان لهذه المقالات انعكاسات واسعة على الصعيد الثقافي وبين النخبة الثقافية داخل الأردن وخارجه، إذ وصلت مجلة أفكار إلى دول عربية عديدة، ففي مؤتمر كلية الآداب الأول الذي عقد في رحاب جامعة اليرموك وشارك فيه أساتذة أجلاء من أكثر من عشر دول عربية كانت مجلة أفكار في عددها المذكور بين أيدي بعضهم وقد أثارتهم المقالة للشار إليها، إذ شكلت هذه الظاهرة صدمة للجميع؛ فقد استغرب المثقفون العرب هذه الصورة الشوهة الطالمة، وفي بدايات العام الحالي (٢٠٠٨) أطلقت على مقالة كتبها الدكتور فيصل دراج في موقع ديوان العرب<sup>(٤)</sup> عرض فيها كتاب: "صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث" الذي ترجم إلى اللغة العربية عن اللغة الإنجليزية، وقد ترجمه السيد صخر الحاج حسين وراجعها السيد زياد منى وصدر عن دار قدس في دمشق أواخر سنة ٢٠٠٧م، ولاقى هذا الموضوع رواجاً في الشبكة العنكبوتية، وكتبت حوله العشرات من الدراسات والتعليقات المختلفة، ويكفي أن نشع عنوان: صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر، ونبدأ بالبحث في محرك البحث google أو yahoo حتى نمثر على الكثير من هذه الدراسات والمقالات<sup>(٥)</sup>.

### الثقافة العربية الفارسية

إن الثقافة العربية الفارسية ليست مسألة جديدة، بل إنها قديمة وجذورها شاربة في أعماق التاريخ، والدلائل على ذلك الكلمات الفارسية التي تسربت إلى اللغة العربية في هذه الرحلة والتي ورد بعضها في القرآن الكريم؛ بيد أن الثقافة العربية الفارسية برزت بشكل واضح في مرحلة ما بعد الإسلام، وتجلت في مسائل كثيرة منها الثقافية واللغوية والاجتماعية والدينية وغيرها، ففي المجال اللغوي يكفي أن نعرف أن الأبجدية العربية دخلت إلى اللغة الفارسية محدثة مرحلة جديدة ومنعطفاً تاريخياً في اللغة الفارسية وآدابها حتى وصل الأمر إلى تقسيم اللغة الفارسية إلى مراحل ثلاثة هي: الفارسية القديمة (٣٣١ ق.م - ٣٣١ ق.م) والفارسية البهلوية (٣٣١ ق.م - ٢٥٤هـ) والفارسية الحديثة التي يؤرخ لها بسنة ٢٥٤هـ وحتى الآن<sup>(٦)</sup>. استبدلت الفارسية الحديثة أبجديتها القديمة وأصبحت تستعمل الحروف العربية، ومن هنا أحدثت العربية ثورة في اللغة الفارسية عزّ مثلها في اللغات الأخرى، ولذلك يمكننا

القول بكل اطمئنان إن المثقفة العربية الفارسية لا مثيل لها في اللغات الأخرى، فقد وصل هذا التثاقف إلى درجة أن الكلمات العربية التي دخلت إلى الفارسية أصبحت تشكل ١٠٪ من مفردات اللغة الفارسية، ولا تعرف لغة أخرى استعارت هذا الكم الكبير من الكلمات والفردات من لغة أخرى مثل اللغة الفارسية التي تأثرت باللغة العربية وآدابها بشكل عميق، حتى أن الشعر الفارسي الذي يشكل كنزاً من كنوز الحضارة الفارسية وتراثاً حضارياً غنياً ولد تحت تأثير الشعر العربي وجاء متأثراً بقوالبه الشعرية ومضامينه وموضوعاته واصطلاحاته المختلفة، ولذلك فإن الشعر الفارسي مدين للشعر العربي باعتراف الأساتذة الإيرانيين والعرب، وفي هذا الإطار يمكن الإشارة كذلك إلى البلاغة والعروض والمقالية التي دخلت إلى اللغة الفارسية وأصبحت تستعمل في هذه اللغة بعد أن استعارتها من اللغة العربية.

ما دام الحديث عن المثقفة العربية الفارسية فإنه يمكننا القول بكل جرأة إن التراث الفارسي وروائع الأدب الفارسي وكنوزه هي التي دونت وكتبت بالفارسية الحديثة أي بالأبجدية العربية في مرحلة ما بعد الإسلام، ولعلنا نذكر هنا أن شاهنامة الفردوسي وهي محط اعتزاز كل الإيرانيين وافتخارهم بماضيهم وتراثهم الحضاري وبطولاتهم، وهي التي تحتوي على التاريخ الإيراني منذ فجر التاريخ وحتى سقوط الإمبراطورية الساسانية على يد العرب المسلمين جاءت ردة فعل على الفتح الإسلامي وكانت ثمرة من ثمار المثقفة العربية الفارسية، وبعبارة أخرى لولا الفتح الإسلامي لما عمل الفردوسي على نظم شاهنامته، ولما وجدنا اليوم شيئاً باسم الشاهنامة التي تحتوي على ما يزيد على خمسين ألف بيت، على أي حال إن الأدب الفارسي بشقيه الشعر والنثر كان ثمرة من ثمار التلاقح والتثاقف العربي الفارسي، وللتدليل على هذا فإننا إذا ما ألقينا نظرة على كتاب "تاريخ الأدب الإيراني" للدكتور ذبيح الله صفا- الذي يعد أكبر كتب الأدب الفارسي والذي يقع في ثمانية مجلدات- فلن نجد شيئاً ذا بال عن الأدب الفارسي في مرحلة ما قبل الإسلام، لكل هذا فإن النتيجة التي نخلص إليها أن الأدب الفارسي مدين للعرب والمسلمين بشكل أو بآخر، ومن ثم فإنه ثمرة من ثمرات المثقفة العربية الفارسية.

إن المثقفة العربية الفارسية لم تكن من طرف واحد، فقد ساهم الفرس في هذه المثقفة بدورهم أيضاً، ولقد تجلت هذه المثقفة المتبادلة بين العربية والفارسية في ميادين كثيرة؛ فقد ظهرت آثارها جليلة واضحة منذ عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب عندما استعار المسلمون نظام الديوان من الفرس لتنظيم أمور الدولة، كما كانت اللغة الفارسية في القرن الثاني للهجرة مستعملة في البصرة والكوفة، ومتداولة على الألسنة كما تشهد بذلك الروايات المختلفة<sup>(١)</sup> وبالإضافة إلى ذلك دخلت بعض المفردات الفارسية إلى العربية، وألفت كتب في الكلمات الفارسية التي دخلت العربية.

إن عملية المثقفة هذه التي بدأت مع الفتح الإسلامي لإيران واستمرت عبر العصور بأشكال مختلفة وصور متنوعة كان من أبرزها حركة الترجمة، التي بدأها عبد الله بن المقفع بترجمة كتاب "كلمة ودعة" إلى اللغة العربية عن اللغة الفارسية البهلوية، وما زالت

الترجمة بين العربية والفارسية منذ ذلك اليوم وحتى أيامنا هذه مستمرة ولم تنقطع في عصر من العصور، ولذلك فإن هنالك مئات بل آلاف الكتب التي ترجمت من الفارسية إلى العربية وبالعكس، ومن هنا فإننا ندرك الدور الكبير والمهمة العظيمة التي تلوم بها الترجمة في عملية الثقافة العربية الفارسية أو في أي لغة أخرى، ومن أجل التأكيد على أصالة الثقافة والتراث الحضاري الفارسي ودور الفرس في الحضارة الإسلامية فإن ثمة جهوداً بذلت في إطار دراسة اتجايزات العرب والفرس في خدمة الإسلام، وفي هذا المشعار يمكننا الإشارة إلى كتاب "الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران" لمرتضى مطهري الذي ترجم إلى اللغة العربية.

إن المسألة الأخرى التي يجنب الإشارة إليها ضمن الحديث عن الثقافة العربية الفارسية هي دراسات الأدب المقارن التي جرت بين العربية والفارسية منذ العصور القديمة وحتى يومنا الحاضر؛ ففي المجال اللغوي أعد الجواليقي كتابه المعروف "المعرب" كما دون الخفاجي كتاب "شفاء الغليل" وصنف آدي شير كتاب "الألفاظ الفارسية المعربة" وفي مجال الأدب كتبت عشرات الدراسات والمقالات والكتب التي بحثت في مجال التأثير والتأثير في كل من الفارسية والعربية كذلك الدراسات التي تناولت المقتني وسعدي، وأبا العلاء المعري والخيام، وأبا نواس والروذكي، وأبا فراس الحمداني وسعد مسعود سلمان، ونهما يوشيج ويدر شاكور السياب وأدونيس وأحمد شاملو، والخيام وعرار شاعر الأردن المعروف، وليلس والمجنون، والقامات، والخمريات وغيرها من الدراسات ورسائل الماجستير والدكتوراه التي كتبت في أقسام اللغة الفارسية في العالم العربي وأقسام اللغة العربية في الجامعات الإيرانية.

### خلاصة الكتاب

اشتمل كتاب "معاودة العرب في الأدب الإيراني المعاصر" على خمسة فصول هي: مدخل الكتاب، وآثار الرجال، نظرة الرجال، وآثار النساء، نظرة النساء، والرجل المعتدل، والخلاصة والنتيجة، فقد وسعت الباحثة والمستشرقة الأمريكية الفصل الأول من دراستها بـ "المدخل" الذي جاء تمهيداً لموضوع الكتاب ومدخلاً للدراسة وهي الأطروحة التي ناقشتها المؤلفة عام ١٩٩٦م في جامعة تكساس وحصلت بموجبها على درجة الدكتوراه، وجاء هذا الفصل مشتملاً على العناوين التالية: دور الأدب في تعزيز النزعة القومية الحديثة، وإيران بلد متعدد الأعراق والقوميات، والنزعة القومية الإيرانية في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، ومبحث العربي والإيراني.

عملت المؤلفة على توضيح جذور ظاهرة معاودة العرب في الأدب الفارسي المعاصر ونشأتها، والتطورات التي وصلت إليها في القرن الماضي في مدخل الكتاب؛ إذ بلغت هذه الظاهرة أوجها في عهد الأسرة البهلوية (١٩٢٥-١٩٧٩) التي عملت على ترسيخ الاتجاه القومي لدى الإيرانيين وتغذيته بكل أشكال الدعم المادية والمعنوية منها؛ تعزيزاً لمكانتها ودعماً لسياساتها والاستراتيجية التي كان تنفذها والتي تلخص في محاولة جمع الإيرانيين من مختلف القوميات والعرقيات: الفارسيين والأفغان والأكزاد والعرب والتركمن والبلوش

و... وتوحيد كلمتهم على فكرة واحدة إلا وهي القضية القومية، وكما نعرف فإن هذا وتر حساس لدى الإيرانيين، ومن هنا فقد أخذت الأسرة البهلوية الأموال على الكتاب الذين ساروا في ركبها وارتضوا المنهج الذي خطته لهم، وفي هذا الإطار ظهرت أعمال قصصية وروائية ومقالات ودراسات وكتب سارت في هذا الاتجاه، ومن أجل التأكيد على القضية القومية وتشكيل الهوية الإيرانية عمل الكتاب على مدح العرق الآري والإعلاء من شأنه، في حين عملوا على ذم العرق السامي والخط من شأنه وتصويره بأبشع الصور وأكثرها اشتزازاً. خصصت الباحثة الفصل الثاني من دراستها للكتاب الرجال وموقفهم من العرب، فتناولت بالبحث والدراسة والتحليل صورة العرب عند أشهر الأدباء الإيرانيين في القرن الماضي، فعرضت لكل من : محمد علي جمال زاده (١٨٩٦-١٩٩٧م) الذي يعد مؤسس القصة القصيرة في الأدب الفارسي المعاصر، وصانق هدايت (١٩٠٢-١٩٥١م) أشهر الأدباء الإيرانيين في القرن العشرين وأشدهم معاداة وكراً للعرب، وصانق جويك (١٩١٥-١٩٩٨م) ومهدي أخوان ثالث (١٩٢٧-١٩٩٠) ونادر نادرپور (١٩٢٨-٢٠٠٠م) الذي عقد مقايمة بين انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ والفتح الإسلامي لإيران وسقوط الإمبراطورية الساسانية وخلص إلى نتيجة مفادها أن انتصار الثورة انتصار للعرب!١٩

جاءت صورة العرب عند هؤلاء الكتاب مشوهة ممسوخة؛ إذ إن صانق هدايت مشتمز من العرب والإسلام لأنه دين أجنبي، ووصف العرب بأقبح الصور وأكثرها بشاعة وتدنواً، في حين أنه عرف مرحلة ما قبل الإسلام والزرادشتية على أنها العصر الذهبي لإيران، ومن وجهة نظره فإن الهوية الثقافية الحقيقية لإيران مرتبطة مع الهند "الآرية"، وقد اندثرت هذه الهوية الثقافية عن طريق العرب المسلمين الغزاة، وهؤلاء العرب الهمجيون ذوو الثقافة المتعشبة للدم هم الذين فرضوا دينهم مكان الحضارة الإيرانية، أما صانق جويك فيزيد للفكرة المشادة للسامية، ويشاطر مهدي أخوان ثالث صانق هدايت رآيه بأن العرب المسلمين الغزاة مقصرون في القضاء على الهوية الثقافية الحقيقية لإيران، وبأمل بعودة الثقافة والعظمة الزرادشتية التي كانت سائدة قبل الإسلام، ويتبنى أخوان ثالث موقفاً متشدداً مقابل التأثيرات السامية والعربية والإسلامية، كما أنه يؤيد صانق هدايت في فكرة العرق الآري الأفضل من العرق السامي الوضع.

أما نادر نادر بور فيبشع العرب والإسلام في مواجهة القيم والثقافة الإيرانية الحقيقية ويدينهما، فهو يقدم العرب على أنهم ذوو بشرة سوداء ومتوحشون وغير إنسانيين ومرتبطون بالصور الدموية، ويضعهم مقابل الشخصية الإيرانية الصانعة للحضارة الفارسية الحديثة والمرتبطة بنار زرادشت والشمس والنيروز.

يرفض نادر بور الإسلام لأنه دين عربي، ومن ثم فإنه ظالم ومتخلف ويعتد موازنة بين تأسيس الجمهورية الإسلامية وفتح العرب لإيران في مواطن كثيرة من آثاره، فهو يعتقد بأن تأسيس الجمهورية الإسلامية في إيران استمرار للهزيمة الثقافية الإيرانية مقابل جهل

العرب، وفي النهاية يمكن القول إن لدى نادر بور نظرة معادية للعرب والإسلام مثل صادق هدایت وصائق جويك ومهدي أخوان ثالث.

تناولت الباحثة في الفصل الثالث من كتابها الذي خصصته للعنصر النسائي موقف الأدبيات الإيرانية من العرب، فعرضت صورة العرب عند كل من الشاعرة فروغ فرخ زاد (١٩٣٣-١٩٦٦م) والشاعرة طاهرة صفار زاده (١٩٣٦-٢٠٠٨)، والروائية المشهورة سيمين دانتشر (١٩٢١- ) زوجة الأديب الإيراني المعروف جلال آل أحمد، والتي ما زالت ترفد الحركة الأدبية بآثار رائعة، والعجيب في الأمر أن موقف النساء من العرب جاء مناقشاً ومعاكساً لموقف الرجال؟ إذ إن فروغ فرخ زاد لم تعمل على تناول قضية العربي والإيراني في أشعارها؛ لأن هذه قضية تاريخية سياسية تخص الرجال، وقد نأت بنفسها عن الخوض في هذه المسألة، بل إن هنالك تصاویر إيجابية عن الإسلام تشاهد في آثارها، ولعل المر في ذلك يكمن في أن العنصر النسائي غير مشغول بالقضية القومية والهوية الإيرانية، التي أرقّت الأدباء الإيرانيين وجعلتهم مسكونين بالهم القومي والإعلاء من شأن العرق الآري.

إن طاهرة صفار زاده مسلمة مؤمنة، إلا أن الإسلام في نظرتها ظاهرة عائلية وليست للعرب فقط، ومن الملاحظ أننا لا نجد في تصاویر طاهرة صفار زاده العرب الغريباء، بل إن العرب الذين يظهرون في أشعارها أناس مظلوسون وتخاطبهم على أنهم أخوة، كما أن للملاحظة الهامة في آثار هذه الأدبية تعود إلى نظرتها التاريخية التي ابتعدت عن نظرة صادق هدایت وصائق جويك وأخوان ثالث ونادر بور بشكل جذري، فقد صورت العرب في "سفر سلمان" على أنهم دعاة الحق وحرية الإسلام والذين كان الإيرانيون في انتقارهم، وليس هنالك شيء في آثارها عن الحرب وسبك الدماء وفتح إيران.

قدمت طاهرة صفار زاده سلمان الفارسي على أنه أنموذج ومثال للمسلمين الغرباء، كما كان بلال أنموذج للأفارقة وصهيب أنموذج للأوروبيين، فهؤلاء أصحاب الرسول الذين لا تعني جنسياتهم أي أهمية، إلا عندما تصبح الخصوصية العالمية للإسلام عميقة فقط.

جاء تعريف سيمين دانتشر للقومية الإيرانية مختلفاً عن الآخرين، ولذلك كان تعاملها مع العرب مختلفاً أيضاً، إذ إن هذه الأدبية مطلقة على وجود الاختلافات العرقية في إيران، وترى أن الوحدة بين هذه القوميات تكمن في الأساطير والذهب المشترك، إذ إن الأساطير الإيرانية ترتبط مع الأساطير الإسلامية في نظرتها، ومن خلال هذا التركيب تكونت الثقافة الإيرانية المشتركة، وتعد سيمين دانتشر الخصوصيات العربية الإسلامية في الثقافة الإيرانية، إذ إنها تتناول هذا الموضوع بشكل جميل في رواية "سوشون" كما عرض في قصة "الفارسية سكر" و"كيد الخائنين" لجمال زاده، والفارس والأترك وعرب إيران موجودون في آثار سيمين دانتشر، إلا أن العرب ليسوا غرباء، فالعرب في رواية "سوشون" عرب فقط.

اختص الفصل الرابع من هذا الكتاب بالأديب الإيراني المشهور جلال آل أحمد (١٩٢٣-١٩٦٩)، ولذلك خصّته الباحثة بهذا الفصل الموسوم بـ "الرجل المعتدل"، فقد جاءت نظرتة معتدلة في الدفاع عن القومية الإيرانية والإسلام حسب وجهة نظر المؤلفة.



إن جلال آل أحمد لا يقبل الإيديولوجية الآرية والنظرة التاريخية التي نشأت عنها، ولا يعمل على مدح الإمبراطورية الساسانية على أنها العصر الذهبي في التاريخ الإيراني، ويعرف الإسلام على أنه دين إيراني في الأصل ومرتبطة بإيران باسم سلمان الفارسي، إذ إنه يعد الانتشار الإسلامي الأولي مدينة لسلمان الفارسي، ويقول بوجود مشتركات بين الإسلام ومزك وماني، ويعتقد بأن الإسلام الحقيقي ظهر مع الوصول إلى إيران.

لقد أدى ميل جلال آل أحمد إلى كل شيء إيراني وانزعاجه من كل شيء عربي إلى أن يطرح "تأريخ" الإسلام وجمته إيرانياً، ويعرف هذا الأديب الشيعة على أنها بضرة القومية الإيرانية، ويضع الإسلام مقابل الإمبريالية والمادية الغربية من أجل الدفاع عن الثقافة الإيرانية، إلا أن المدقق في هذا الكتاب يجد أن موقف جلال آل أحمد لا يختلف كثيراً عن موقف الأدياء الإيرانيين الآخرين، ولذلك فإن المؤلفة لم تكن موفقة في اختيارها لهذا العنوان؛ إذ إن وجهة نظر جلال آل أحمد - كما ظهرت في النصوص التي قدمتها المؤلفة نفسها - أظهرت بشكل لا مراء فيه أن مواقف هذا المؤلف من العرب بعيدة عن الاعتدال ومراعاة الانصاف، ولذلك كان الأجدر بالمؤلفة أن تختار عنواناً آخر للفصل الرابع من كتابها. أما الفصل الخامس من هذا الكتاب فقد وسّته المؤلفة بالخلاصة والنتيجة، وهو الفصل الذي قدمت فيه الباحثة خلاصة بحثها والنتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة<sup>(١٠)</sup>.

#### إضافات

لعلني لا أقضي سراً للقارئ العربي إذا قلت: إن الهاجس الذي كان يراودني مراراً في ترجمة هذا الكتاب إلى العربية هو موضوع الإحجام والتردد في ترجمة مثل هذا الكتاب؛ فقد مضت سنوات منذ أن وقعت عيني على هذا الكتاب في طهران سنة ٢٠٠٣م، وكنت حينها أقيم في طهران ومشغولاً بكتابة أطروحتي للدكتوراة التي جاء عنوانها: "العلم في الأدب الأردني المعاصر، اعتماداً على آثار الشاعر الأردني الكبير عرار" قرأت الكتاب حينها فاستفدت منه كثيراً، واستكملت الصورة التي كانت تشغلني منذ وصولي إلى إيران عام ١٩٩٧م وإطلاعي على الأدب الفارسي وصورة العرب في هذا الأدب، وتجاوبت مع بعض الزملاء العرب والإيرانيين إثر قراءة هذا الكتاب أطراف الحديث حول هذه الظاهرة، التي أثارت بعض النقاشات والحوارات حول الصورة القائمة للعرب في الأدب الفارسي بشكل عام، وفي الأدب الفارسي المعاصر بشكل خاص.

عدت إلى الأردن في صيف عام ٢٠٠٤م والتحققت بقسم اللغات السامية والشرقية في جامعة اليرموك أساتذاً مساعداً ومدرساً للغة الفارسية وآدابها، وفاء لهذه الجامعة التي ابتعثتني إلى جامعة طهران للحصول على شهادة الدكتوراة في اللغة الفارسية وآدابها، وفي هذه الفترة كنت مشغولاً بالتفكير بترجمة بعض المقالات والكتب عن الفارسية، فوقع الاختيار على ترجمة بعض المقالات والكتب منها:

أولاً: مقالة مؤامرة لتغيير اللغة الفارسية التي نشرتها مجلة الدراسات الأدبية الليبانية<sup>(١١)</sup>.

ثانياً: نعماً يوشيج رائد الشعر الفارسي الحديث التي نشرتها مجلة فصلية إيران والعرب<sup>(١٧)</sup>.

ثالثاً: كتاب الأدب الفارسي منذ عهد الرحمن الجامي وحتى عصرنا للأستاذ الدكتور شفيعي كدكني الذي ترجمته إلى العربية وأرسلته على شكل مقالات إلى مجلات مختلفة تحت عنوان: فصول في الأدب الفارسي المعاصر<sup>(١٨)</sup>، وسوف يأخذ طريقه إلى النشر قريباً على شكل كتاب إن شاء الله.

رابعاً: كتاب مراحل الشعر الفارسي منذ الحركة الدستورية وحتى سقوط النظام الملكي للأستاذ الدكتور شفيعي كدكني.

خامساً: كتاب معاداة العرب في الأدب الإيراني المعاصر للباحثة والمستشرقة الأمريكية جويلا بلوندل سعد الذي هو موضوع هذه الدراسة.

أقول: بعد شيء من التردد في ترجمة هذا الكتاب عقدت العزم على ترجمته وتقديمه للقارئ العربي على شكل مقالات، قبل أن يصار إلى نشره على شكل كتاب، ولعل بيت الشعر العربي المشهور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة      فإن فساد الرأي أن تتردأ

قد أثر فيّ وكان حافزاً ضمن مجموعة من الحوافز دعنتني إلى ترجمة هذا الكتاب، ووضعه في متناول أبناء العربية حتى يكونوا على إطلاع على ما جاء في الأدب الفارسي المعاصر من تشويه وإساءة لصورة العرب.

حقيقة كانت هذه الفكرة تخالفي وهي أن هذا الموضوع وهذه الظاهرة قد يثيران الكثير من النقاش، خاصة في الوقت الحالي الذي اختلطت فيه الكثير من القضايا، فقد نجد أحدهم يقول:

إننا نعيش الآن في زمن رديء جداً، وليس من المناسب الخوض في أمور تحرك الكوامن وتثير الحساسيات التي نحن في غنى عنها، ويكفي أن أمثالها كثير، أقول رداً على ذلك: إن هنالك الكثير من القضايا التي عانت منها أمتنا العربية، وما زالت تتجرع العلقم من جرائمها فهل نسكت عنها؟ ومتى كان وضع الأمة والشروط المحيطة بها في حالة أفضل؟ وإذا كنا نعيش في زمن رديء فهل يعني هذا السكوت والتزام الصمت حيال قضية بقيت لعشرات السنين مغيبة عن أنظار النخبة الثقافية وكل أبناء العربية؟ أو ليس من حق أبناء الضاد الذين يزيد عددهم على ثلاثمائة مليون نسمة الاطلاع على هذه الظاهرة التي يندى لها الجبين والتي تجعل كل مثقف وصاحب فكر يتصبب عرقاً.

### النزعة القومية والأسرة البهلوية

إذا كنا نتحدث عن ظاهرة معاداة العرب في الأدب الفارسي المعاصر فيجب علينا أن نشع هذه القضية الاستثنائية في إطارها التاريخي؛ فقد بلغت النزعة القومية الإيرانية لوجها زمن الشاه محمد رضا البهلوي عندما تعاضد الشعور بالنزعة القومية التي وقعت تحت تأثير النزعة القومية الغربية ولا سيما النازية الألمانية؛ إذ عمل شاه إيران على تغذية الحركة

القومية الإيرانية ودعمها بكل أشكال الدعم المادية والمعنوية، ولذلك كانت النزعة القومية التي روج لها النظام الحاكم إحدى الركائز التي انتهجها شاه إيران في استراتيجيات حكمه، وما يؤسف له حقاً أن بعض الأدباء والمثقفين الإيرانيين قد أغرتهم سياسة الشاه والأموال التي كان يقدمها على من يصفي لأوامره ويبت أفكاره السمومة، فوقعوا تحت تأثير أفكار الشاه ودعواته إلى تمثين النزعة القومية الإيرانية وتغليب العرق الفارسي على غيره من العرقيات والأقليات الأخرى، لكل هذا عمل هؤلاء الأدباء والمثقفون - تلبية لسياسة الشاه ورغباته - على كتابة آثار أدبية مثلت هذا الاتجاه القومي القائم على مدح العرق الآري الفارسي والطعن في العرق السامي العربي، وكان من ضمن هذه الآثار الرواية والقصة والمسرحية والأشعار الكلاسيكية والحديثة، بالإضافة إلى بعض المقالات والدراسات والكتب الأخرى التي عمدت إلى بث سمومها وتصوير العرب بأبشع الصور وأكثرها تعسفاً واشتماراً واستغزازاً، وبناء على هذا فإن النتيجة الواضحة التي يمكن أن يستخلصها المتعقب في هذه المسألة هي أن جذور ظاهرة معاداة العرب في الأدب الفارسي المعاصر كانت قضية سياسية قبل أن تكون قضية ثقافية وتنعكس بهذه الصورة في الأدب الفارسي المعاصر.

أما القضية الأخرى التي يجب توضيحها في إطار بحثنا ودراسنا لظاهرة معاداة العرب في الأدب الفارسي المعاصر فهي أن الأمانة العلمية والدقة في بحث هذه الظاهرة تفرض علينا أن نكون موضوعيين، وأن لا نتجرف وراء المواقف والشاعر التي تثيرها هذه المسألة، ولذلك أسجل هنا هذا الاعتراف وهو أن معاداة العرب ليست مطروحة من قبل كل المثقفين والأدباء والكتاب الإيرانيين، إذ إن نظرة النخبة الثقافية الإيرانية ومن ثم الإيرانيين بشكل عام ليست واحدة للعرب، وبناء على ذلك فإن ما جاء في كتاب الباحثة والمستشرقة الأمريكية لا يمثل كل الأدباء والمثقفين الإيرانيين، إذ إن هنالك بعض المثقفين والأساتذة الإيرانيين الذين ينظرون إلى العرب نظرة معتدلة بغض النظر عن ولاياتهم واتجاهاتهم الإيديولوجية، بيد أن صوت هؤلاء يبقى صوتاً خافتاً مقابل الغالبية العظمى من النخبة الثقافية الإيرانية المصابة بداء النزعة القومية، والجدير بالذكر هنا أن النزعة القومية ما زالت تتجلى لدى كافة الأحزاب والاتجاهات السياسية الإيرانية: اليسارية والإسلامية والقومية بصور مختلفة، ولكن ليست بالزخم نفسه الذي كانت عليه في عهد الأسرة البهلوية.

على أي حال لقد برزت ظاهرة معاداة العرب في الأدب الفارسي المعاصر عند أغلب الكتاب والأدباء والمثقفين الإيرانيين وليس جميعهم، وهذا ما لمستُه عن قرب في السنوات السبعة التي قضي لي الإقامة فيها في طهران للحصول على شهادة الماجستير والدكتوراه في اللغة الفارسية وأدبها (١٩٩٧-٢٠٠٤) وهذا ما أشار إليه السيد يوسف عزيزي بني طرف أحد مثقفي العرب الإيرانيين المقيم في طهران وعضو رابطة الكتاب الإيرانيين، والذي تربطه علاقات واسعة مع المثقفين الإيرانيين من خلال هذه الرابطة، أما للملاحظة الأخرى التي يجب توضيحها فهي أن معاداة العرب في الأدب الفارسي بعد مرحلة الثورة الإسلامية قد خفت حدتها وتراجعت عما كانت عليه قبل عام ١٩٧٩م، غير أن ترسباتها ومظاهرها بقيت

موجودة في الثقافة الفارسية ولدى الإيرانيين بشكل عام، ولعل الحرب العراقية الإيرانية التي دامت ثماني سنوات، وتركت آثارها المؤلمة في أغلب الأسر الإيرانية قد ساهمت في استمرار صورة العرب المشوهة لدى الإيرانيين في مرحلة ما بعد الثورة الإسلامية.

إن هذه النزعة القومية التي بلغت أشدها زمن الشاه محمد رضا البهلوي لا تعني بطبيعة الحال أنها لم تكن موجودة لدى الفرس منذ مرحلة ما قبل الإسلام، فإذا ما استحضرنّا في أذهاننا تاريخ إيران والإمبراطوريات الفارسية، وسلسلة الدول والحكام التي سيطرت على إيران منذ قدوم الماديين واستقراهم في إيران، مروراً بالإخميين والإسكانيين وانتهاءً بالساسانيين نجد أن الدولة الإيرانية كانت دولة قومية منذ ظهورها، وعندما سقطت الإمبراطورية الساسانية على يد العرب المسلمين، وتم فتح إيران بشكل رسمي في معركة نهاوند التي تسعى فتح القنوج سنة ٢١ للهجرة، برزت النزعة القومية لدى الإيرانيين إثر سقوط هذه الدولة وبداية مرحلة جديدة من تاريخ إيران وثقافتها ولغتها، وكان من الطبيعي أن تظهر ردود فعل متباينة إثر الفتح الإسلامي، ومن ضمنها تعاطف الشعوب بالماضي الجميل والنزعة القومية والمشاعر المضادة للعرب لدى بعض الإيرانيين، ولا سيما ذوي الفزعات القومية الذين لم يستطيعوا قبول الإسلام، والتكيف مع الدين الإسلامي والمرحلة الجديدة، قاموا ببعض حركات العصيان والتمرد على الفتح الإسلامي، ومن ضمنها حركة مختار الثقفي وبابك الخرمي وأبو مسلم الخراساني وغيرها.

لعل من المناسب أن أشير هنا إلى أن الإسلام لم يستطع التغلغل في أعماق الشخصية الإيرانية المصابة بالنزعة القومية، ومن هنا فقد رأى الإيرانيون أن الدين الإسلامي الذي نزل في الجزيرة العربية يتناسب مع طبيعة الشخصية العربية، ولا يتناسب مع الشخصية الإيرانية، ولذلك عملوا على إيجاد مذهب يتناسب معهم فكان المذهب الشيعي الذي جاء ملئياً لحاجاتهم وفهمهم للدين، ولعل السبب في عدم تغلغل الإسلام في أعماق الشخصية الإيرانية يعود إلى طبيعة المذهب وما فيه من تقية ومراعاة وخرافات، فبقى سطحياً لدى الشخصية الإيرانية التي تعاني ما تعانيه من الأزواجية في الشخصية ومحاولة التأقلم مع المستجدات، وإذا كانت الشخصية الإيرانية لم تستطع الخلاص من الأثر القومي والاعتقادات الدينية الزرادشتية التي كانت جميعها مدعاة للقلق هذه الشخصية واضطرابها، فإنها لم تستطع الخلاص من عقدة العرب الذين هزموا الإمبراطورية الفارسية وانتصروا عليها، ولأنك أن هذه العقدة ظلت خاسدة في الشخصية الإيرانية فترة من الوقت، ومن ثم ظهرت بأشكال مختلفة كان من بينها العنصرية المتطرفة التي حاولت التأسيس للهوية الإيرانية من خلال إلغاء الآخر وتشويه صورته في الأذهان.

### الترجمة عن الفارسية

حقيقة منذ أن تنأى إلى مسامعي ترجمة هذا الكتاب إلى العربية عن اللغة الإنجليزية أواخر عام ٢٠٠٧م توقفت ملياً عند هذه القضية: هل أستمّر في الترجمة عن الفارسية؟ أم

أتوقف وأحجم عن ذلك؟ وما دام أن الكتاب قد ترجم إلى العربية، فما هي الفائدة من الاستمرار في الترجمة عن اللغة الفارسية الوسيطة ؟

لعلني لا أقضي سراً إذا قلت إن هنالك أفكاراً كثيرة كانت تخالجنني قبل الولوج إلى ترجمة كتاب " معاداة العرب في الأدب الإيراني المعاصر " ولعل من أبرزها ترجمة الكتاب عن اللغة الفارسية؟ وهذا السؤال الكبير ألح علي قبل اتخاذ القرار بالترجمة، إلا أن التهجئة جاءت مثمرة فقد أغنت الملاحظات العميقة والتعليقات القيمة التي كتبها السيد ناصر بور بيار أثناء تصحيحه ومراجعته للترجمة الدراسة وأضادت الكثير من القضايا التي كانت بحاجة للتوضيح، كما كانت هذه الملاحظات والتعليقات من بين العوامل التي قوت من عزمي على الإقدام على هذه الترجمة فبدأت بالمقالات الثلاثة التي أشرت إليها آنفاً، حقاً لقد شكلت ملاحظات السيد ناصر بور بيار في نهاية الأمر تلاحقاً ثقافياً بين الاتجاليّة والفارسية، إذ تلاقت أفكار السيدة جويلا بلوندل سعد مع أفكار السيد ناصر بور بيار في كثير من المواطن، وكأنها كانت المعبر عما يجول في ذهن هذا المفكر الإيراني، وغيره من النصارى المعتدلين من بين المثقفين الإيرانيين.

إن السيد ناصر بور بيار الذي يمتلك دار نشر في طهران والذي نشر هذا الكتاب أضفى من الشخصيات المعروفة في إيران، إثر نشره سلسلة من الكتب تحت عنوان " اثنا عشر قرناً من الصمت " انتصر فيها للعرب في الكثير من المسائل ودرس الكثير من القضايا والمسائل الأدبية، كما رد المغالطات الفاحشة التي جاءت في كتاب " قرنان من الصمت " لمؤلفه الدكتور عبد الحسين زرين كوب، والقصود بـ " قرنان من الصمت " أي القرنين اللذين تلتها الفتح الإسلامي لإيران ودخول العرب المسلمين إلى إيران، إثر هزيمة الإمبراطورية الساسانية في معركة نهاوند، إذ ألزم الإيرانيون الصمت إثر الفتح الإسلامي وكأنهم لم يستوعبوا التغيرات الجديدة، ولم يستيقظوا من سباتهم إلا بعد مرور قرنين من الزمان تقريباً، فكان الفتح الإسلامي شكل صدمة لهم، ولم يكونوا قادرين على فهم هذه الصدمة واستيعابها، والقصود بـ " اثنا عشر قرناً من الصمت " أي اثني عشر قرناً من المغالطات التي نشرها الدكتور عبد الحسين زرين كوب في كتابه " قرنان من الصمت " وبلغت دون إجابة إلى أن جاء هذا المثقف الذي قل نظيره من بين الإيرانيين وانتصر للعرب بعد مرور اثني عشر قرناً.

على أي حال، أثارت هذه السلسلة من الكتب ردود فعل مختلفة في إيران حتى أن صاحبها هدد بالقتل، ولو ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية لأحدث منعطفاً تاريخياً في فهمنا للكثير من المسائل التاريخية والأدبية، وهو قمين بالترجمة ويستحق البحث والدراسة والتحليل، ومما يجدر ذكره هنا أن الدكتور عبد الحسين زرين كوب وهو أستاذ جامعي وناقد مشهور له عشرات الكتب كان طفلة حياته (١٩٢٢-١٩٩٩) من أبرز الشخصيات الإيرانية التي روجت لقضية معاداة العرب، حتى أن أغلب كتبه لا تكاد تخلو من هذه الظاهرة، إلا أن صاحبة الكتاب غفلت عن هذا المؤلف ولم تشر إليه في كتابها.

ما دما نتحدث عن تلاقي الأفكار وتلاقحها وصلها ودور الترجمة في هذه الثقافة والتلاقح ربما يخطر ببال البعض السؤال التالي: إن هذا الكتاب كتب باللغة الانجليزية وهاهو يترجم إلى اللغة العربية عن طريق لغة ثالثة هي الفارسية فلماذا هذا الصنيع؟ أليس الأجدر أن تتم الترجمة مباشرة عن اللغة الانجليزية دون الحاجة إلى لغة وسيطة؟ خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مقولة الإيطاليين المشهورة: " الترجمة خيانة " و " المترجم خائن " فلماذا يقدم المترجم الحالي على الترجمة عن اللغة الفارسية إذن؟

أشرت إلى أن هذا الموضوع كان يشغلني قبل العزم على البدء بترجمة هذا الكتاب، إلا أنه تبين لي بعد التأمل والتدبر في هذه الدراسة، وبعد أن جربت حظي في الترجمة من الفارسية إلى العربية وبالعكس في بعض المقالات والكتب ككتاب دليل السياحة والسفر إلى إيران الذي ترجمته مع الزميل الدكتور محمد الزغول وطبعته وزارة الثقافة الإيرانية وزرع في كل الدول العربية مجاناً، أن ترجمة الكتاب عن الفارسية هي الأولى والأجدر، وذلك لجملة من الأسباب من أبرزها:

أولاً: إن موضوع هذا الكتاب يتمحور حول صورة العرب في الأدب الفارسي، ومن ثم فإنه يتعلق باللغة الفارسية ومن صميمها، وقد قام بالترجمة الفارسية أحد أبنائها المطلعين على خباياها والضياع بها.

ثانياً: إن المترجم قد أعاد النصوص الفارسية إلى لغتها الأم الفارسية؛ أي النصوص الفارسية التي تبحث في موضوع صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر، وترجمة هذه النصوص -وهي محور الدراسة التي اعتمدتها المؤلفة في كتابها- إلى العربية مباشرة عن الفارسية وليس عن طريق لغة ثالثة هي الأولى والأجدر، إذ إن ترجمة هذه النصوص وهي كثيرة عن الانجليزية تعد مأخذاً، ومن ثم يتم التساؤل عن أمانة الباحثة ودقتها وصحة الترجمة ومصداقها.

ثالثاً: لقد راجع الترجمة وعلق عليها وهذبها وصححها أحد اللغويين الإيرانيين، وهذه شهادة أخرى على صحة هذه النصوص من جهة، وعلى صحة وجهة نظر المؤلفة وآرائها، من جهة أخرى، وهذا ما عزز الترجمة الفارسية وفرض احترامها وجعلني أفضلها على الأصل الانجليزي.

رابعاً: إن كون مترجمة الكتاب إلى الفارسية والمصحح إيرانيين يعد مكسباً وثقلاً بحسب لصالح الترجمة، وهذا يعني شتمياً موافقتهما على ما جاء في هذا الكتاب، ويؤكد أمانة المؤلفة ومصداقيتها، فلو كانت المؤلفة مجحفة ومجانبة للصواب في كتابها لردت الترجمة والمصحح عليها بالكثير من الملاحظات، ولما وافقا على الإقدام على ترجمة هذا الكتاب ونشره في طهران؛ بيد أن المصحح وهو أحد اللغويين الإيرانيين وصاحب المسئلة المشهورة " اثنا عشر قرناً من الصمت " قدم ملاحظات غنية ومؤيدة للمؤلفة.

خامساً: إن صدور الكتاب المترجم إلى اللغة الفارسية في طهران يعد ميزة أخرى لهذه الترجمة؛ أي أن هذا الكتاب لا بد أن يكون قد أخذ إذن النشر من وزارة الثقافة الإيرانية،

وهذا بحد ذاته يعني الموافقة على ما جاء في الكتاب ضمناً، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب نشر عام ٢٠٠٣ زمن حكومة السيد محمد خاتمي الإصلاحية، ولو تأخرت هذه الترجمة إلى عهد السيد محمود أحمدني نجاد وحكومته المتشددة لما رأت النور.

سأبدأ: إن الكتاب موجود في الأسواق الإيرانية؛ فقد طبع في طهران ووزع في مختلف المدن الإيرانية، ولاقى رواجاً وإقبالاً خاصة بين عرب الأهواز الإيرانيين الذين يزد عددهم على خمسة ملايين نسمة وبين العرب المقيمين في إيران، ومن ثم فإن مجرد نشر الكتاب في العاصمة الإيرانية لا يترك لأحد فرصة الاعتراض على الترجمة أو التشكيك بها، فما دام أن الكتاب نشر في طهران فلا يمكن لأحد أن ياتهم الآخرين (المترجمين العرب) بتهمة الإساءة والخوض في أمور تحرك الكوامن وتثير الحساسيات.

سابعاً: إن السيد صخر الحاج حسين الذي أقدم على ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية عن الانجليزية غير مطلع على اللغة الفارسية وآدابها وغير متخصص فيها، كما بدا ذلك واضحاً في الأخطاء التي جاءت في الترجمة، خاصة في أسماء الأدباء الإيرانيين موضع الدراسة؛ فقد كتب اسم أخوان ثالث كما يلفظ في الفارسية "سالمس" وكتب اسم الأدبية الإيرانية المشهورة سيمين دانتشر هكذا سيمين دانش فار، والجدير بالذكر أن هذه الترجمة تحتاج إلى دراسة معمقة تلقف على الكثير من الهفوات التي يجب تصحيحها.

ثامناً: إن صاحب هذه المقالة متخصص باللغة الفارسية وآدابها، وقد قدر له الإقامة في طهران سبع سنوات، كما جرب حظه في الترجمة عن الفارسية إليها، وبناء على هذا فإنه متخصص باللغة الفارسية وآدابها ويعرف إيران معرفة تؤهله للخوض في مثل هذه المسائل، ومن ثم الإقدام على ترجمة الكتاب المذكور وغيره من كتب الأدب الفارسي الأخرى.

تاسعاً: إن كل هذه العوامل مجتمعة شكلت نقاط قوة وقوت من عزمتي على ترجمة هذا الكتاب ووضع في متناول أبناء الشام والناطقين بهذه اللغة الغنية حتى يطلعوا على صورتهم في الأدب الفارسي المعاصر؛ فقد مضت سنوات طويلة وأبناء العربية بشكل عام والتخية الثقافية بشكل خاص يجهلون ما يدور في الأدب الفارسي المعاصر عنهم، ولذلك فإن من حقهم الاطلاع على هذه الصورة وما كتب حولهم في الأدب الفارسي مهما كانت هذه الصورة، وما من أحد يضطلع بهذه المهمة الشاقة إلا المتخصصون باللغة الفارسية وآدابها.

على أي حال لقد أخذ كتاب "معاينة العرب في الأدب الإيراني المعاصر" على عاتقه القيام بمهمة شاقة؛ فقد كان لهذا الكتاب ميزة خاصة، من حيث كونه ملاً الفراغ في موضوع لم يسبق بحثه فهو موضوع خصب وبكر، وحسب علمي لم يلفت إليه أحد من الإيرانيين أو من العرب، ولذلك فقد وفقت الباحثة والمستشرقة الأمريكية في اختصارها لهذا النوح. وفي كيفية تنظيمها وعرضها للدراسة، إذ بات من العروف عن المستشرقين أنهم يتحرون الدقة في أبحاثهم ودراساتهم وغالباً ما تتصف أعمالهم بالاستقصاء والتنظيم حدّ المبالغة.

بحسب المؤلف صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر من خلال الرجوع إلى النصوص واستخراجها من بطون الكتب الفارسية. والمترجمة عن الفارسية إلى اللغة الانجليزية،

واستعانت ببعض أبناء اللغة الفارسية المقيمين خارج إيران، وفي نهاية الأمر قدمت دراسة غنية وعميقة، ومأملت فراغاً كان موجوداً في المكتبة الانجليزية، ومن ثم المكتبات الأخرى التي تترجم إليها هذا الكتاب (الفارسية والعربية) أو التي سوف يترجم إليها، لقد شكل هذا الكتاب في إطار الترجمة والمثاقفة ظاهرة تستحق البحث والدراسة والتحليل، فقد ألف هذا الكتاب الذي عُرِّظَ نظيره بالانجليزية وترجم إلى الفارسية وما هو يترجم إلى اللغة العربية وربما إلى لغات أخرى، ومن خلال هذا المسار الذي سلكه هذا الكتاب نستطيع القول بأنه ساهم في إيجاد حركة واعية حول دور الترجمة والمثاقفة وتلاقح الأفكار وتلاقيها وصلها من خلال الاطلاع على أفكار الآخرين، والإضافة إليها أو تصحيحها، ومن ثم فإنها (أي الترجمة) تشكل نطفة جديدة في عالم العولمة وحوار الحضارات وتلاقيها لا تناقضها وتصارعها، ولا شك أن هذا التلاقح والتثاقف أمر قد يخفى على بعض الباحثين والدارسين ولا يلتفتون إليه، أو أنهم قد يعبرون عليه مروراً سريعاً دون تراث واثق، بيد أن المتعمق في هذا الكتاب يجد أنه موضوع ثري وخصب وأنموذج فريد لموضوع الترجمة والمثاقفة.

### هواجس واعتراقات

لقد ألح علي هذا الموضوع وظل يشغلني منذ أن وصلت إلى إيران عام ١٩٩٧م، وبدأت بتعلم اللغة الفارسية والإطلاع على آدابها؛ فمُنذ الشهر الأول لوصولي إلى إيران مع أربعة زملاء لي، شاركنا في رحلة إلى مدينة مشهد التي تبعد عن طهران حوالي ألف كيلو متر، حيث أقمنا عدة أيام في هذه المدينة تعرفنا من خلالها على معالم وآثار كثيرة كان من بينها مقام أبو القاسم الفردوسي وعمر الخيام وفريد الدين العطار، وعندما كنا نتجول في مقام الفردوسي وأروقته همس في أذني أحد الزملاء العرب قائلاً: هذا الفردوسي الذي كتب أبياتاً عن العرب في شاعناته دائماً وقادحاً، وأصدقكم القول كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها شيئاً من مثل هذا القبيل، أعني الفردوسي الذي ذم العرب ووصفهم بالغزاة وأكلة الجراد والسحالي، والذين جاموا حطاة إلى إيران وقضوا على الحضارة الفارسية؛ بيد أن البعض يقول إن هذه الأبيات منسوبة للفردوسي.

أقول في ذلك الوقت لم أكن قد تعلمت الفارسية بعد، إلا أنني عندما التحقت ببرنامج الماجستير في جامعة طهران لدراسة اللغة الفارسية وآدابها، بعد أن اجتزت مرحلة تعلم اللغة بدأت أتعرف شيئاً فشيئاً على الأدب الفارسي، وكان الموضوع الذي شدني كثيراً وسبب لي بعض الصداق الكلمة أو التسمية التي يطلقها الإيرانيون على العرب؛ ففي الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون يستعملون كلمة "أعراب" للدلالة على العرب، ظناً منهم أن كلمة "أعراب" جمع "عرب" وكانت أوضح لزملائي وأساتذتي ولغيرهم أن هنالك فرقاً شامخاً بين الكلمتين، وإن كلمة أعراب جمع أعرابي، في حين أن كلمة عرب هي جمع كلمة عربي ولا داعي لجمعها مرة أخرى، وأن هنالك فرقاً في الدلالة وهو الموضوع الأهم مستشهداً بالآيات الكريمة: "قالت الأعراب آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا..." و "الأعراب أشد



كفرًا ونفاقاً..." وكنت أدخل في بعض النقاشات والحوارات وبما فهمي في بعض الأحيان، وبالإضافة إلى ذلك هناك كلمة أخرى تطلق على العرب غالباً ما تستعمل في النصوص الأدبية الفارسية وهي "تازيان" ومفردتها "تازي" أي الغزاة؛ فكيف يسمون العرب الذين أدخلوا الإسلام إلى إيران وجعلوهم مسلمين بعد أن كانوا زرادشتيين بالغزاة، والعجيب في الأمر أن هناك إصراراً على استعمال هذه الكلمات في الكتب المدرسية والمتاهج التعليمية ووسائل الإعلام كافة، ولعل هذه الإشارات ساهمت في تشكيل بذور صورة العرب في الأدب الفارسي الكلاسيكي والمعاصر في نعتي وحفرتها في ذاكرتي، قبل أن أعرف على جزئياتها وتفصيلها في الأدب الفارسي المعاصر في مرحلة لاحقة.

لأشك أن مثل هذه الكلمات للندالة في اللغة الفارسية وآدابها وثقافتها تعبر بطريقة واضحة عن العقل الجمعي للإيرانيين، وما يدور في خلد الأمة وأذعانتها، ومن ثم فإنها تساهم في رسم صورة العرب لدى الإيرانيين وتشويهها، وما انعكاسها في الأدب الفارسي في مرحلة لاحقة إلا تصوير لما يدور في ذهن الأمة وأفكارها، على أي حال ضمن النقاشات التي كانت تحدث معي ومع أبناء اللغة الفارسية كنت حريصاً على توضيح الصورة لهم، وأن هذه التسمية تثير اشتزاز العرب وتحرك كوامنهم، مبيناً لهم الحساسية الموجودة في إيران من استعمال كلمة "المعجم" التي كانت مستعملة للدلالة على غير العرب، ومن ضمنهم الفرس الذين لا يحسنون النطق بالعربية وتلفظ حروفها ومخارجها بشكلها الصحيح.

حقاً لقد ظلت هذه الظاهرة فكرة تشغلني وتحالطني وأنا ألتبس مظاهرها ومعالمها في الأدب الفارسي الكلاسيكي والمعاصر؛ فقد شغلتنني وأرقتنني وسببت لي القلق والاضطراب عندما تعرفت عليها عن قرب وكانت معالمها تتكشف لي شيئاً فشيئاً وبين الحين والآخر، وكنت أجمع الأبيات الشعرية التي تشير إلى موضوع العرب وكان من بينها أبيات الفردوسي وما ذكره ناصر خسرو والخاقاني في آثارهما الشعرية والنثرية، غير أن المفاجأة كانت كبيرة عندما صدمتني المستشرقة والباحثة الأمريكية جويلا بلوندل سعد بكتابها موضوع الدراسة، حقيقة لم أكن على إطلاع كامل على صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر - على الرغم من أنني كنت أقدم في طهران - لأسباب كثيرة يكفي أن أذكر منها أن هذه الظاهرة بلغت أوجها في عهد الأسرة البهلوية وأدبائه، وأغلب آثار هؤلاء تم إعادة طباعتها مرة أخرى بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩م مع حذف أجزاء مهمة من هذه الآثار بعد أن خضعت للرقابة، كما حدث لرواية البومة الميماء لصديق هدايت وقرتان من الصمت للدكتور عبد الحسين زرين كوب وغيرهما، في حين أن الطبعات القديمة ليست في متناول اليد ولا يمكن الحصول عليها ببسر وسهولة، كما أن بعض الآثار الأخرى اختفى من الأسواق ولم يعد موجوداً البقية كرواية "ديو" أي الغول لبزرگ علوي.

إن الموضوع الآخر الذي أثار دهشتي واستغرابي في هذا الكتاب هو السيد ناصر بير بهرام مصحح الكتاب وناشره؛ فقد كتب هذه المثلث الإيراني الأسيل الذي أصدر سلسلة من الكتب وملاحظات وإضافات جميلة في مواضع كثيرة من الكتاب؛ إذ إن التعليقات والهوامش

التي كتبها هذا المؤلف الإيراني أغنت الكتاب بملاحظات قيمة وجاءت شهادة قوية من شخصية إيرانية وليست عربية حول هذا الموضوع؛ فقد راعى هذا الرجل جانب الإنصاف والعدالة، وامتنك من الشجاعة والجرأة والشهامة ما جعله يقدم على كتابة هذه الملاحظات التي عاب من خلالها ما جاء لدى حركة التنوير الإيرانية من تشويه لصورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر، وهو الذي هدد بالقتل لما نشره في سلسلة كتبه " اثنا عشر قرناً من الصمت " كما أنه برهن على شجاعته وجرأته مرة أخرى عندما أقدم على نشر هذا الكتاب، فهو النموذج فريد قل نظيره للمثقفين الإيرانيين؛ في حين أن أغلب المثقفين الإيرانيين وليس جميعهم مسايرون بالزرعة القومية والنظرة الاستعمارية كما أشرت آنفاً.

لقد أحسن السيد ناصر يور بيرار صنعا عندما راجع هذه الترجمة وصححها وكتب عليها تعليقاته وملاحظاته القيمة التي جاءت شهادة ووثيقة تاريخية سجلها للتاريخ حتى تتطلع عليها الأجيال القادمة، ثم قام بنشر هذا الكتاب ليتم توزيعه في طهران وفي كل المحافظات الإيرانية الأخرى، وكأني به يؤسس لفكرة جديدة يضع بذورها في سلسلة كتبه التي تم الإشارة إليها، وفي هذا الكتاب أيضاً ساعياً إلى دحض الصورة التي تكونت في أذهان الإيرانيين، ومحاولاً الإجابة عن العيوب والمآخذ والمثالب وكل الصور المشوهة للعرب، علّه يرد شيئاً من هذه التهم والافتراءات التي ألصقت بالعرب وشوهت صورتهم ظلماً وعدواناً.

إن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية وطبعته في العاصمة الإيرانية طهران يعد شهادة في حد ذاتها، إذ إن لهذا الأمر مدلولات كثيرة ومن أبرزها التأكيد على صحة ما جاء في هذا الكتاب؛ فقد يخرج علينا شخص يشكك في هذا الكتاب واتجاهات صاحبه وابتعادها عن الأمانة والصدق وما شابه ذلك، إلا أن ترجمة هذا الكتاب من قبل مترجمة إيرانية هي السيدة فرناز حائري وتصحيحه ومراجعته ونشره من قبل مثقف إيراني معروف، ومن ثم صدوره في طهران بدو كل الشكوك والتساؤلات التي يمكن أن تثار حوله؛ حقاً إنها شهادة تاريخية من أبناء اللغة الفارسية وما أجملها من شهادة، ولو قدر لهذا الكتاب أن يكون مترجمه عربياً ونشره عربياً فربما لم توافق وزارة الثقافة الإيرانية على نشره واثارت حوله الكثير من الزواجر والتهم.

لأشك أن الموضوع الذي اتخذته الكاتبة بحثاً لدراساتها- وهو الهاجس الذي ظل يشغلني رداً من الزمن- مثير للجدل والدهشة والاستغراب؛ بل إنه شكل صدمة ثقافية ونفسية للعرب وغيرهم، إذ كانت الباحثة موقفة في اختيارها لهذا الموضوع المثير للجدل، فقد كان كتابها هذا بمثابة قنبلة فجرتها أمام القراء الناطقين بالانجليزية ثم بالفارسية ثم العربية، ولا شك أن الصدمة والدهشة والاستغراب والتأثير الذي يتركه هذا الكتاب ليس في مستوى واحد لدى كل هؤلاء القراء؛ فربما يكون الكتاب صدمة للقارئ الانجليزي إلا أنه أجد وقفاً وقسوة لدى القارئ العربي، فقد مضت سنوات طويلة دون أن يعرف القارئ العربي ماذا يدور في الأدب الفارسي المعاصر حول الشخصية العربية، حتى جاء هذا الكتاب ليرسم ملامح الشخصية العربية، ويقدم صورة متكاملة إلا أنها صورة مشوهة مغررة تثير الاستعزاز والتعجب من العرب ومن كل شيء اسمه عربي.

إن صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر كما تجلت في كتاب المستشرق الأمريكي صورة متعسفة ظالمة أساءت إلى العرب مرات عديدة: المرة الأولى عندما تجنى بعض الأدباء الفرس القوميون على العرب في الأدب الفارسي، وأسلموا بهم كل التهم والافتراءات وأشكلوا التخلف الأخرى، والمرة الثانية: الصورة التي قدمتها الباحثة في كتابها للناطقين بالإنجليزية، فكل من يقرأ هذا الكتاب من الناطقين بالإنجليزية وغيرهم سوف يقع تحت تأثيره، ومن ثم سوف تكون نتيجته تكوين صورة أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها صورة مشوهة طالمة، والثالثة: الدعشة والصدمة للقارئ العربي وهو يقرأ هذا الكتاب سواء كان ذلك باللغة الانجليزية أو الفارسية أو العربية، ومن ثم فإن موضوع هذا الكتاب شكل ظاهرة بدأت باللغة الإنجليزية مروراً بالفارسية والعربية وانتهاء بلغات أخرى قد يترجم إليها هذا الكتاب، ولذلك فإن هذه الظاهرة التي أخذت تتوسع وتنتشر، تتجاوز اللغة والثقافة الواحدة وتنتقل من خلال الترجمة والمناقشة وحوار الحضارات إلى العالمية، وأنى لنا أن نلغ أمامها؟ حقاً إنها قضية تتطلب من الباحثين المتخصصين من أبناء العربية والمتصلين من مثقلي الأمم الأخرى التوقف والتأمل والتدبر ملياً أمامها؟ ومن ثم بحثها ودراستها بطريقة عقلانية تقوم على النهج العلمي السليم القائم على الاستقصاء والتنظيم لا على العواطف والمشاعر.

ربما تعدد الآراء وتختلف التوجهات، إلا أن هذا الاختلاف والتعدد لا يمنع الآخرين أن يجربوا ويدلوا بدلوهم في هذه القضية، ومن ثم المشاركة في الخطاب الذي يبحث في ظاهرة الترجمة والمناقشة بشكل عام وصورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر بشكل خاص، على أي حال جميل أن نرى مثل هذا التفاعل والنشاط والعراك الثقافي الذي أثاره كتاب "معادة العرب في الأدب الإيراني المعاصر" بيد أن الأجمل منه أن نحاول نحن العرب أعني النخبة الثقافية المشاركة في هذه الظاهرة من حيث دراستها وتحليلها والرد عليها حتى نلغ وتبدد الصورة المشوهة التي تكونت في أذهان الآخرين عنا، ولا سيما في أذهان القارئ الإيراني والناطقين بالفارسية، أي المهدي الذي ولدت منه هذه الظاهرة وترعرعت فيه، فقد بدأت هذه الظاهرة من الأدب الفارسي وبقيت لعشرات السنين بعيدة عن أنظار المثقفين العرب لا يعرفون ماذا يدور حولهم وكيف هي صورتهم في الأدب الفارسي المعاصر، حقاً لقد شكل هذا الكتاب صدمة للمثقف العربي ولكل من إطلع عليه، إذ إن المثقف العربي لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن تكون صورة العرب هكذا في الأدب الفارسي، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العلاقات التاريخية والروابط الثقافية والتواصل مع الفرس منذ أزمان غابرة ضاربة في أعماق التاريخ.

لا شك أنه من حق أي أمة من الأمم أن تحتز بأسالتها وتراثها الحضاري والفكري ودورها في خدمة الحضارة الإنسانية، إلا أنه ليس من حق أمة من الأمم مهما كانت أن تحاول نفي الآخر، وإلغاء شخصية الآخرين، ودورهم الحضاري والفكري وتشويه صورتهم ووصفهم بأبشع الصور وأكثرها وحشية واشمئزازاً، ومن ثم تصويرهم على أنهم شر مطلق في سبيل التناصّل لتراثها، وحضارتها وتشكيل قوميته وهويتها، وفي الوقت نفسه تصور نفسها على أنها جنة الله على الأرض وعلى أنها خير مطلق؟

لقد شكل الكتاب المذكور صدمة بكل معنى الكلمة، صدمة ثقافية لم يكن يتوقعها العربي وصدمة نفسية لم تكن تخاطر بذهن المثقف العربي، والصدمة الأخرى هي: لماذا بقيت هذه القضية بعيدة عن أذهاننا لعشرات السنين حتى جاءت مستشرقة أمريكية بحثت هذه القضية في كتابها الذي نشرته باللغة الانجليزية، ثم عادت هذه القضية إلى الأدب الفارسي، وفي نهاية المطاف وصلت إلينا نحن العرب، فلماذا هذا الانتظار على الرغم من كوننا الأقرب تاريخياً وثقافياً ولغوياً وجغرافياً من الفرس وأدبهم؟ لكننا إذا ما رحنا نتملس الأعدار لمثقفينا العرب، ونبحث عن أسباب التقطيع بين العرب والفرس فإننا سنجد الكثير غير أنه يكفلنا أن نشير في هذا المقام إلى السبب السياسي وسبب جوهرى آخر، ألا وهو أن القلة القليلة من العرب هم الذين يعرفون الفارسية، ولعل عدم معرفة اللغة الفارسية وآدابها كان السبب الرئيس وراء هذه التقطيع، وعدم الإطلاع على الأدب الفارسي بشكل مباشر، ومن هنا فإنه يقع على عاتق أساتذة اللغة الفارسية في الجامعات العربية وكل المتخصصين في هذه اللغة وآدابها مهمة المشاركة في التعريف بالأدب الفارسي بشكل عام والأدب الفارسي المعاصر والدراسات المقارنة بين العربية والفارسية بشكل خاص، وهو ميدان خصب وثري جداً، ولعل قسم اللغات السامية والشرقية في جامعة اليرموك الذي تدرس من خلاله اللغة الفارسية وآدابها وهو القسم الوحيد في الجامعات الأردنية، ساهم في هذه المسألة منذ تأسيسه عام ٢٠٠٠م، في حين سبقتنا جامعات عربية أخرى في تدريس اللغة الفارسية وآدابها في كل من مصر ولبنان، وقامت بدور كبير في التعريف بالأدب الفارسي الكلاسيكي، إلا أنها أغفلت الأدب الفارسي المعاصر ولم تعمره اعترافاً كبيراً؛ فنحن أحوج ما نكون إلى معرفة اللغة الفارسية وآدابها، حتى نقرأ هذا الأدب ونتعرف عليه في لغته الأم، ولا نكتفي بما يترجم من المختارات فقط، ومن هنا المنطلق لابد أن نتعلم اللغات المختلفة ونقرأ كنوزها وروائعها بلغتها الأم، ومن ثم نطلع على صورة العرب في هذه الآداب، والسؤال الكبير الذي يلح علينا هو: إذا كانت صورة العرب هكذا في الأدب الفارسي المعاصر فكيف هي في آداب الشعوب والأمم الأخرى؟

الهوامش :

- (١) عرب سحرى در ادبيات معاصر ايران، جوبا بلوندل سعد، ترجمة قوناز حائرى، الطبعة الأولى، كازنك، طهران، ١٣٨٢ هـ.ش.
- (٢) انظر على سبيل المثال مقالة: "الأدب الفارسي الحديث: بدور العداء صاحبت ولادة الأدب الفارسي الحديث" يوسف عزيزي في موقع [www.Razzar.com](http://www.Razzar.com)
- (٣) انظر مقالة "صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر" بسام علي رباحة، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، عدد ٢٢٧، أيلول ٢٠٠٧م، صص ٢١-٢٧.
- (٤) انظر مقالة: "صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر، صادق هدایت نموذجاً"، قدم للدراسة ونظمتها إلى العربية بسام رباحة، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، العدد الثاني والأربعون، يوليو ٢٠٠٧، الجزء الثاني، صص ١٣٧-١٥٦.

- (٤) انظر مقالة "مدخل إلى صورة العرب في الأدب الفارسي المعاصر" مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، عدد ٢٣٥، أيار ٢٠٠٨، صص ٧-٢٦.
- (٦) انظر مقالة: "صورة العربي في الأدب الفارسي" فيصل دراج في موقع ديوان العرب [www.dibwanalarb.com](http://www.dibwanalarb.com)
- (٧) انظر مقالة: "صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث" في موقع عربي اعوازي [www.ankisahwazi.iesan.com](http://www.ankisahwazi.iesan.com) وانظر كذلك مقالة "العرب بعيون فارسية" جهاد فضل في موقع [www.alrivadh.com](http://www.alrivadh.com)
- (٨) انظر كتاب: تاريخ مختصر زبان فارسي، د. محسن أبو القاسمي، الطبعة الثانية، طهوري، طهران، ١٣٧٨، ص ٥٧.
- (٩) انظر الفصل الثاني من كتاب: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. محمد مصطفى هدارة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، صص ٧٨-٩٥ وترجمة هذه المقالة إلى اللغة الفارسية تحت عنوان: "تأثير فرهن" إيران در ادبيات عرب قرن دوم هجري، ترجمة بسام علي ربابعة، مجلة "نامه پارسي" عدد ٦، ربيع ١٣٨٢، صص ١٠٧-١٢٤.
- (١٠) من الجدير بالذكر أن صاحب هذه الكلمات عمل على ترجمة هذا الفصل ونشره في مجلة أفكار الأردنية التي سجلت الإشارة إليها، وقد اعتمد الباحث في عرشه لهذا الكتاب على الخلاصة التي قدمتها المؤلفة في الفصل الخامس من دراستها، ولذلك جاءت بعض الفقرات مترجمة بتصريف.
- (١١) انظر مقالة: "مؤامرة لتغيير اللغة الفارسية" د. خسرو فرشيدور، ترجمة بسام علي ربابعة، مجلة الدراسات الأدبية، الجامعة اللبنانية، عدد ١١، ١٢، ١٣، سنة ٢٠٠٥ صص ١١-٣٧.
- (١٢) انظر مقالة: "نوما يوشيج رائد الشعر الفارسي الحديث" ترجمة بسام علي ربابعة، مجلة فصلية إيران والعرب، عدد ١٢، ١٣، سنة ٢٠٠٥، صص ٢٩-٣٥.
- (١٣) انظر مقالة: "فصول في الأدب الفارسي المعاصر" د. شفيعي كككتي، قدم للدراسة ونقلها إلى العربية بسام علي ربابعة، مجلة جرش الثقافية، جامعة جرش، الأردن، العدد السابع والثامن، شتاء ٢٠٠٧-٢٠٠٨، صص ١٩١-٢٠١.

# تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب اللاتيني



تأليف: عوني عبد الرؤوف / عرض: ماجد مصطفى

"إن المترجم يضطر أحياناً لانتهاك المؤلف. وعليه أن يفهم كيف يختصر، أو يكمل النص، أو يقدم فيه ويؤخر. أي أنه باختصار يجب أن يساعد المؤلف المكتوب... وإن أحسن مترجم هو الذي لا يترجم عن المؤلف إلا العنوان، خاصة إذا كان المؤلف يتمتع بشعبية ما. وخلافاً لذلك عليه أن يعتمد على إبداعه الأدبي".

بوهوميل متهيسوس Bohumil Mathesius  
(أعظم مترجم معاصر من الروسية إلى التشيكية)

ليس هذا كتاباً في نظريات الترجمة بل في تاريخ الترجمة من العربية واليهما منذ أقدم العصور حتى الآن. وقضايا الترجمة في العربية كثيرة ومتشعبة وأحياناً شائكة خصوصاً عندما تكون الترجمة أدبية. فعند بدأت حركة الترجمة إلى العربية في البصرة في أوائل القرن الثاني، عندما ترجم عبد الله بن القلقع كتاب "كليلة ودمنة" عن البهلوية، ومازال الباحثون حائرين حتى اليوم هل هي ترجمة أم تأليف؟ ومنذ كتب الجاحظ في كتاب الحيوان معللاً استحالة ترجمة الشعر، وأثار الشك في عمل المترجمين على اختلاف أنواع الترجمة التي يمارسونها، ما زال الخلاف قائماً بين النظرية والتطبيق في الترجمة. يقول الجاحظ في نصه الشهير: "إِنَّ التَّرْجَمَانَ لَا يُؤَدِّي أَبَدًا مَا قَالَهُ الْحَكِيمُ، عَلَى خِصَالِصِ مَعَانِيهِ، وَحَقَائِقِ مَذَاهِبِهِ، وَدَقَائِقِ اخْتِصَارَاتِهِ، وَخِلَافَاتِ حُدُودِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُؤَفِّهَهَا حَقُوقَهَا، وَيُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فِيهَا، وَيَقُومَ بِمَا يُلْزَمُ الْوَكِيلُ وَيَجِبُ عَلَى الْجَرِيِّ، وَكَيْفَ يَقْدِرُ

على أداؤها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقا وصحتها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، بل أن مؤلف الكتاب ووضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قُرَّة، وابن هُيرِز، وإِسْرَافِيل، وابن هُيَلِي، وابن المقفع، بل أن أرسطاطاليس ١٩ ومتى كان خالد بل أن أفلاطون ١٩

والأستاذ الدكتور عوني عبد الرؤوف أستاذ اللغات السامية بكلية الآلسن مهمته بقضايا الترجمة منذ وقت مبكر. وقد أصدر مؤخرًا كتابًا ضخمًا عن "تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوروبي" (مكتبة الآداب - القاهرة ٢٠٠٨). ولأن كلية الآلسن هي امتداد لمدرسة الآلسن التي أسسها رقاعة الطهطاوي عام ١٨٣٥، وهي من أقدم المدارس التي تأسست في مصر الحديثة، ولأن الدكتور عوني واحد من الأساتذة الكبار الذين أسسوا الآلسن الحالية لتصبح إحدى كليات جامعة عين شمس (في ٢٠ ديسمبر ١٩٧٣)، فمن الطبيعي أن يشغل هذا الأستاذ الكبير بنشاط الترجمة في العربية قديمًا وحديثًا، ويسود الآلسن مدرسة وكلية جامعية في تاريخ الترجمة وفي تطور علم الترجمة - إذا جازت هذه التسمية على جهود رقاعة وتلاميذه - في اللغة العربية خاصة. وعندما تعرف اهتمام الدكتور عوني القديم بنشاط الترجمة من العربية وإليها لا نستغرب إقدامه على تأليف هذا الكتاب المهم - وأكاد أقول الرائد - في إحاطته وشموله في تناول تاريخ الترجمة العربية في كل العصور. وكان الدكتور عوني مهمته منذ وقت مبكر بنشاط المستشرقين والأدباء الأوربيين - والألمان على وجه الخصوص - في ترجمة الكتب والنصوص العربية إلى لغاتهم الأوروبية الحديثة. وللدكتور عوني كتاب بالغ الأهمية وفريد في اللغة العربية عن الشاعر والمستشرق الألماني "فريدريش ريكتر عاشق الأدب العربي" (صدرت طبعته الثانية عام ٢٠٠٦ عن مكتبة الآداب بالقاهرة أيضًا)، كما أن له كتابًا ضخمًا في جزئين، عن "جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة (الجزء الأول صدر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ٢٠٠٤، والثاني عن مكتبة الآداب ٢٠٠٦). كما أن للدكتور عوني دراسات وبحوث في الترجمة منشورة في دوريات علمية وثقافية كثيرة في مصر والخارج. وقد مارس الدكتور عوني الترجمة من الألمانية، ومن ذلك مشاركته لزميله محمود فهمي حجازي (وآخرين) ترجمة موسوعة "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق الألماني العظيم كارل بروكلمان، كما راجع الترجمة العربية للحمعة جلجامش التي أنجزها عبد الغفار مكاوي عن الألمانية، على الأصل الأكدي.

وفيما يخص هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن والدافع من وراء تأليفه في هذا التوقيت بالذات، يقول الدكتور عوني:

"تكريم الأستاذ الجليل الدكتور/ محمد حمدي إبراهيم فأشار عليّ بكتابة دراسة عن الترجمة الأدبية، فشكرت له ثقته الغالية واحتشدت للاستجابة للطلب، ولكنني حين شرعت في العمل تبينت وجوب تقديم تاريخ للترجمة حتى يكون

العمل جديراً بالوفاء بمطلب سيادته مستحقاً لثرائه عنه. إذ إن الترجمة، علماً وفناً، لن تكتمل إلا بعد دراسة تاريخ الترجمة" (ص ١٠).

ويقول الدكتور عوني أيضاً في التمهيد:

"الترجمة علم وفن، وقبل أن يقبل أحد على ممارسة الترجمة يجب أن يمتلك ناسية اللغتين، اللغة التي يترجم عنها والتي يترجم إليها، وأن يكون قادراً على تذوق بلاغة اللغتين، وأن يتعرف حضارة كل لغة وثقافتها، والتي قد تكون مختلفة عن غيرها، وبخاصة عندما تكونان من أسرتين لغويتين مختلفتين. وعلم الترجمة فرع من العلوم الإنسانية متعدد التخصصات، فمنه الترجمة التحريرية، والترجمة الشفوية الفورية أو اللتلمعية، ومنه الترجمات العلمية والفنية والأدبية، ولكل من هذه الترجمات وغيرها قواعدا التي يجب أن يتقنها المترجم وأساليب تختص بها يجب أن يتعرفها، فضلاً عن تعرفه الطريقة التي سيتبها عند الترجمة" (ص ٩).

ولأن علم الترجمة أحد العلوم الإنسانية فإنه:

"يتطلب وجود ملكة فنية أدبية عند المترجم يصقلها بالمران والدرية بعد أن يدرس مقومات الترجمة العلمية فيكتسب مهارات يجب أن تتوافر له عند الترجمة" (ص ٩).

والكتاب يحتوي على مقدمة (في عشر صفحات) تتحدث عن بدايات الترجمة قديماً (قبل الميلاد)، ثم أربعة أبواب جاء ترتيبها هكذا:

الباب الأول (في ٥٠ صفحة) ويتناول "ترجمة كتب الديانات السماوية" في ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: القرآن الكريم — ترجمة معاني القرآن الكريم.
  - الفصل الثاني: العهد الجديد (الإنجيل) — ترجمة العهد الجديد.
  - الفصل الثالث: العهد القديم (التوراة) — ترجمة العهد القديم.
- وبعالم الباب الثاني (في ١٠٢ صفحة) "ازدهار الترجمة عند العرب"، ويبدأ بالحديث عن الحضارة الهلنستية وإفادة العرب منها، ثم تأتي فصوله هكذا:
- الفصل الأول: ازدهار الترجمة في المشرق العربي في العصرين الأموي والعباسي:
- أشهر المترجمين عن اللغة اليونانية: يوحنا بن ماساويه، حنين بن إسحق، ثابت بن قرة، إسحق بن حنين المبادي (وهو ابن حنين السابق ذكره)، حبيش بن الحسن الدمشقي (ابن أخت حنين)/ الترجمة عن الفارسية/ أشهر المترجمين: ابن المقفع، أبو العباس الدميري، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري، أبو إسحق إبراهيم ابن القاضي، أبو علي المحسن التنوخي/ الترجمة عن الهندية، وأشهر المترجمين/ الكتب التي نقل عنها العرب حضارة البشوقيين: الفهرست لابن النديم — تاريخ الحكماء للقفطي — الملل والنحل للشهرستاني/ قائمة الكتب المنقولة إلى العربية في العصر العباسي/ كتب عما ترجمه العرب،



وما ترجموه عنهم/ علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب: كتاب أرسطو في الشعر - الأخلاق - شرح لكتاب ديسقوريدوس - تفسير كتاب ديسقوريدوس.

والفصل الثاني: ازدهار الترجمة في الأندلس:

العرب في الأندلس/ الترجمة في إسبانيا - مدرسة طليطلة/ من الكتب التي ترجمها الأندلسيون عن اليونانية واللاتينية/ كتاب ديسقوريدوس في هيول الطب/ كتب نقل عنها العرب حضارة الأندلسيين/ طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل/ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي/ من أشهر المترجمين: ابن رشد.

ويعالج الباب الثالث (في ٧٠ صفحة) "نقل الغرب عن حضارة المشرقيين"، ويبدأ بالحديث عن تاريخ الترجمة في أوروبا عن اللغة العربية، ثم تتتابع فصوله هكذا:

الفصل الأول: الترجمة في العصور الوسطى

والفصل الثاني: الترجمة في العصر الكلاسيكي: الكتب العربية التي نقلت إلى اللغات الأوروبية.

والفصل الثالث: الترجمة في العصر الرومانسي:

الاعتماد بالترجمة عن اللغة العربية وأسبابه/ الدراسات العربية في إسبانيا في العصر الرومانسي/ كتب عربية كثرت ترجماتها إلى لغات عديدة: ألف ليلة وليلة - حي بن يقظان - ابن رشد وأعماله الطبية.

والفصل الرابع: الترجمة في العصر الحديث:

التناقض الأنجلوسكسوني - نظريات الترجمة/ المراجع التي قدمت قوائم بأسماء الكتب العربية المترجمة إلى لغة أوروبية:

أ- من المراجع المؤلفة بلغات أوروبية - ب- المثلث الببليوجرافي لدكتورة كاميليا صبحي.

ويعالج الباب الرابع (في ١١٢ صفحة) "نهضة الترجمة في مصر" في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الترجمة في عصر محمد علي: مدرسة الألسن وقلم الترجمة - المترجمون والمصححون/ رقاعة الطهطاوي وجهوده في الترجمة.

والفصل الثاني: الترجمة في مصر في العصر الحديث:

لجنة التأليف والترجمة والنشر - جهود فردية - إدارات الثقافة - المشروع القومي للترجمة - المركز القومي للترجمة/ من الكتب المترجمة إلى العربية في العصر الحديث: تاريخ الفلسفة في الإسلام - كتاب فن الشعر لأرسطوطاليس - فن الشعر لهوراس - هوراثيوس الشاعر والفكر - الفكر العربي ومكانه في التاريخ - ملحمة جلجامش - شمس الله علي الغرب - الكليات لابن رشد.

والفصل الثالث: كلية الألسن: الألسنيون والمشروع القومي للترجمة - كتب ترجمها الألسنيون: الجسر الذهبي لبرتراند راسل/ سيرة حياة - فلسفة العصر الوسيط - عند نافورة الدموع وقصص أخرى - وفي جيبه المطر وقصص أخرى - قصص لخوريخي لوبس بورخس - مدعاة الوحدة - تاريخ مسلمي صقلية.

وبعد قائمة المراجع تأتي ملاحق الكتاب: كشف المترجمين (عن مجلة الألسن للترجمة)، وبيلوجرافيا المصادر العربية التي حققها المستشرقون أو قاموا بترجمتها، والإطار القانوني للترجمة في مصر والعالم: حماية حقوق الملكية الفكرية.

ويغلب على الكتاب - كما هو واضح من عناوين فصوله وأبوابه الطابع التوثيقي البيلوجرافي، مادام موضوعه التاريخ لحركة الترجمة من العربية وإليها منذ أقدم العصور حتى العام الحالي ٢٠٠٨. وهو جهد غير متاح للكثيرين إنجازه بهذه الرؤية العميقة لموضوع من أعقد الموضوعات العلمية في مجال الدراسات اللغوية، خصوصاً أن علم الترجمة من أحدث العلوم التي بدأت دراساتها تنشط في جامعات العالم.

وربما كانت البداية (الباب الأول من الكتاب) مع ترجمة نصوص الكتب السماوية المقدسة تتفق - وهذا حس علمي دقيق من الدكتور عوني - مع أهمية هذه الكتب المقدسة ووضعاها المركزي في تاريخ الحضارة الإنسانية. فلا شك أن الكتاب المقدس والقرآن الكريم هما أكثر الكتب انتشاراً وتداولاً بين الناس في الشرق والغرب، فضلاً عن الدراسة التي يعكف عليها اللاهوتيون واللغويون والمختصون في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لذلك كان لهذين الكتائين المقدسين تأثيرهما البالغ في حركة الفكر الإنساني وتطوره، وكان لهما دورهما الكبير والحاسم في الصلات الممتدة والمعقدة بين الشرق والغرب بدلالات هاتين الكلمتين المتعددة، ومن هنا كان دور الترجمة بالغ الأهمية في انتقال هذه النصوص المقدسة إلى لغات وثقافات عديدة قديماً وحديثاً، كما أن الكتب المقدسة تمتاز عن غيرها من الكتب بأن الإقبال عليها قراءة ودراسة لا ينقطع بل يزداد يوماً بعد يوم سواء في المجتمعات التقليدية أو المتقدمة.

وإذا كان من المعتاد أن تتم ترجمة كتاب ما إلى لغة ما مرة واحدة، فإن القرآن الكريم والكتاب المقدس لا تتوقف إعادة ترجمة نصوصهما في كل لغة. فهنقل الدكتور عوني عن الدكتور محمود حمدي زقزوق بهذا تقريباً للترجمات المعروفة للقرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية حتى عام ١٩٨٣: ففي الألمانية ١٤ ترجمة للقرآن الكريم، وفي الإنجليزية ١٠ ترجمات، والإيطالية ١٠ ترجمات، والروسية ١٠ ترجمات، وفي الفرنسية ٩ ترجمات، والإسبانية ٩ ترجمات، واللاتينية ٧ ترجمات، والهولندية ٦ ترجمات.

ومع أن الموضوع الأساسي للكتاب هو تاريخ الترجمة فإن الدكتور عوني يتوقف في الفصل الرابع من الباب الثالث عند نظريات الترجمة، ويذكر أنه اعتمد بشكل أساسي على كتاب جورج مونان في الترجمة، فيذكر رأي يوهانيس متهيسوس أعظم مترجم معاصر من الروسية إلى التشيكية الذي يقول في نص طريف يكشف في ثيرة ساحرة عن الشائكة في قضايا الترجمة، خصوصاً الأدبية:

"المترجم يفسد أحياناً لانتهاك المؤلف. وعليه أن يفهم كيف يختصر، أو يكمل النص، أو يقدم فيه ويؤخر. أي أنه بالاختصار يجب أن يساعد المؤلف المكتوب... وإن أحسن مترجم هو الذي لا يترجم هن المؤلف إلا العنوان،

خاصة إذا كان المؤلف يتمتع بشعبية ما. وخلافًا لذلك عليه أن يعتمد على إبداعه الأدبي" (ص ٢٣٣).

ويعتبر الدكتور عوني سريعًا بعض نظريات الترجمة فيما قبل السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وقبل أن تحدث الطفرة الملحوظة في دراسات الترجمة ونظرياتها الحديثة (راجع ملف هذا العدد عن الترجمة والثقافة الذي أعده الزميل الباحث سامح فكري)؛ فيعرض لبعض النظريات الإنجليزية تحت عنوان التناقض الأنجلوساكسوني، عند برونسلاو مالينوفسكي الذي تأثر به فيث ولغويو مدرسة لندن، ونظرية تيودور سالكوري الذي يرى أن لغة أربعة أنواع متميزة للترجمة: ترجمة تتعلق بحقائق يبحث فيها القارئ عن معلومات تفهده، وترجمة تتعلق بحوادث مسرودة يبحث فيها القارئ عن معلومات أولية، والترجمة العلمية التي تتلخص معونتها في اصطلاحاتها، وترجمة أسلوبية تقتض أن المؤلف والمترجم والقارئ يتحركون في المستوى الثقافي أو العلمي نفسه. ويعلق الدكتور عوني على هذه النظرية بالقول:

"هذه النظرية التي تعتمد على تجربة أنجلوساكسونية حقيقية، ليست نظرية فسطائية مطلقًا، ولكنها مضلة لما فيها من مبالغة في فصل أنواع الترجمة كليةً، ليس طبقًا لتباين المؤلفين أو أنواع النصوص المترجمة، أو اللغات المترجم عنها، أو المترجم إليها، وليس وفقًا لتخصص المترجم نفسه، بل طبقًا للاحتياجات المختلفة التي تجعل القارئ يلجأ للترجمات" (ص ٢٣٤).

كما يستعرض الدكتور عوني النظريات الروسية في الاتحاد السوفيتي، حيث تتعامل الإدارة الحكومية والحياة الثقافية يوميًا مع مائة وخمسين لغة مختلفة حتى أصبحت مشكلة الترجمة مشكلة يومية. ويذكر الدكتور عوني أنه في الطبعة الأولى لكتاب التمهيد لنظرية فن الترجمة لأندريه فنيل كوتوفيلش فيدوروف:

"ظهرت لأول مرة محاولة لتقديم نظرية علمية للترجمة، وتعتمد هذه النظرية في المقام الأول على أن الترجمة عملية لغوية، وأن مفتاح أي فن للترجمة يجب أن يبحث عنه في التحليل العلمي لهذه العملية" (ص ٢٣٥).

ويتوقف الدكتور عوني أيضًا عند نظريات الترجمة الفرنسية. ويرى في نهاية هذا البحث أن القرن العشرين [يمكن أن أشيف من عندي: حتى مطلع السبعينيات] كان بعيدًا عن بحث جميع التجارب في ميدان الترجمة، ولكنه عمق وجهات النظر التي وجدت من قبل، وأتى بالكثير من الآراء والنظريات عنها، ولكن لم يُعن بعد يبحث نظريات عملية جادة للترجمة.

والفصل الثالث من الباب الرابع الخاص بدراسة تجربة كلية الألسن في الترجمة، يبدأ بتصحيح علمي دقيق لما ورد في كتاب "الترجمة ومشكلاتها" لإبراهيم زكي خورشيد الذي صدر سنة ١٩٨٥، من أن "مدرسة الألسن التي أنشئت حديثًا لم نسمع أنها خرّجت مترجمين نابغًا!"

والفصل كله دفاع مجيد وبهان إحصائي دقيق لجهود أساتذة كلية الألسن في الترجمة ممارسةً وتدريباً وتنظيراً على مدار نصف قرن منذ عودتها عام ١٩٥١ بعد أكثر من قرن ونصف، بمعادة اللوحوم مراد كامل (وهو أيضاً أستاذ في اللغات السامية وظل عملاً للألسن إلى عام ١٩٥٧).

فمن المترجمين الكبار وأساتذة الترجمة الذين تألفت أسماؤهم في السنوات الأخيرة: مصطفى ماهر، ورمسيس عوض، ومحمد أبو العطا، وغيرهم من أساتذة الألسن بأقسامها التي بلغت الآن ثلاثة عشر قسمًا هي:

قسم اللغة العربية، قسم اللغة الإنجليزية، قسم اللغة الفرنسية، قسم اللغة الإيطالية، قسم اللغة الإسبانية، قسم اللغة الألمانية، قسم اللغات السلافية، قسم اللغة اليابانية، قسم اللغة الصينية، قسم اللغات الإفريقية، قسم اللغات الشرقية الإسلامية، قسم اللغات السامية، قسم اللغة الكورية.

وأخيرًا، ونظرًا لطبيعة موضوع الكتاب وضخامته، وهو مليء بأسماء الكتب والمؤلفين والبلدان والمصطلحات، وبالإحصاءات، والمراجعات الدقيقة لجهود المترجمين من العربية وإليها منذ أقدم العصور إلى اليوم، كنت أتمنى أن يكون في آخر الكتاب فهرس لهذه المجالات، فليكن ذلك في الطبعة الثانية حتى تكون الإفادة من هذا المرجع الموسوعي المهم في تاريخ الترجمة العربية، أكثر يسرًا للباحثين في الترجمة وتاريخها الذين سيرجعون إليه، وما أكثرهم.

تبقى في النهاية ملاحظة لم أكن أحب أن أتوقف عندها، لكنني مضطرًا لذلك، حبًا لهذا الكتاب ومؤلفه وحبًا للعلم وحرصًا عليه، وهي آفة الطباعة في الشرق العربي وما تسببه الأخطاء المطبعية الكثيرة لأجل الكتب وأكثرها قيمة، وتؤدي المؤلفين والقراء معًا. فمع أن الأخطاء في هذا الكتاب قليلة لكنها — نظرًا لطبيعة موضوعه ومنهج مؤلفه الوثائقي الدقيق — يجب أن تحتفي تمامًا في الطبعة القادمة، فأني خطأ في تدوين اسم أو تاريخ ربما يسبب ارتباكًا للقارئ أو تشويهاً للمعلومة. وتحيية للدكتور عوني عبد الرؤوف مؤلف الكتاب للمجهود البحثي الكبير وللعنق والشموخ في تناول قضايا الترجمة في العربية في القديم والحديث.



# شعرية السرد في ديوان أبجدية الروح

ف

## أمنة يوسف

اتسع مجال الشعرية، بوصفها نظرية ذات صلة وشيجة بالمنهج البنيوي اليوم، ليشمل جميع الأجناس الأدبية. بما فيها فن الشعر دون أن يقتصر الأمر على فنون النثر المختلفة، كالرواية والقصة القصيرة. ذلك أن القصيدة نفسها أصبحت منفتحة على تقنيات سردية متنوعة، علاوة على أنها أصبحت منفتحة على تقنيات شتى مستمدة من الفنون الإبداعية المختلفة، كالسينما والتشكيل والموسيقى وما إلى ذلك، مثلما أصبحت الفنون الإبداعية والسردية المختلفة منفتحة على تقنيات القصيدة وأبرزها الإيقاع والتكثيف المجازي والتتناص. ولذلك نجد النقاد اليوم يتحدثون عن الرواية الشعرية أو عن "القصة-القصيدة" فيما يظنون عليه بالنص المفتوح أو الكتابة عبر النوعية<sup>(1)</sup>.

وفي قصائد أبجدية الروح للشاعر الكبير الدكتور عبد العزيز المقاتل - موضوع الدراسة - تتجلى شعرية السرد باعتبارها ظاهرة فنية ميزت قصائد الديوان، وحفزتنا إلى تتبع هذه الظاهرة الفنية في عدد من النماذج الشعرية التي نستدل بها على سبيل التمثيل، لا الحصر، على النحو الآتي:

### أولاً: قصيدة فاتحة:

#### أ) المقدمة:

المقدمة: على غرار المقدمة أو التمهيد السردية في الكتابات القصصية والروائية برأينا تبدأ القصيدة، بالآتي:

لأرض الروح أكتب ماء أشعاري

وله الذي يسمائه وجلاله، يحتل وجداني وأفكاري

وللأطفال، للمرضى،  
لكل مسافر في شارع الإيمان،  
متهم بإنكار السماء  
وفي رحاب الله تحتفل السماء به،  
لكل مسافر في شارع الإيمان  
تشرق في مرايا قلبه  
أسرار من سواه  
من ماء وفخار

\* \* \*

لهم أتمد النجوى  
وأرسم ظل أحزاني وأوزاري  
أنا المنفي بين خرائب الأرواح  
داخل حفرة للوقت  
خارج وردة للعشق  
أخشى الله - حين يقول لي أخطأت -  
لا أخشى من النار.

في بنية هذه القصيدة التي تنصدر الديوان ويتناسع عنوانها تناساً دينياً مع فاتحة القرآن الكريم، يبرز المقطعان الأول والثاني باعتبارهما تمهيداً موجزاً وتلخيصاً مسبقاً لما سيرد في أسلوب الحكيم الذي يبدأ منذ المقطع الثالث معبراً عن التسلسل المنطقي لوحدات السرد الثلاث ذات البداية والوسط والنهاية.

#### ب) البداية ووحدات السرد:

بداية الحكيم هي ما يعبر عنها المقطع الثالث بالتقول:

"سنايك خيلهم وصلت إلى روحي  
فيا الله !! خيل الغزو في داري؟!  
يحاصرني نزيف الروح.  
تهجرني مرايا الحلم  
يوغل في بياض دمي سواد العمر  
عتمته

سعت الشعر

عفت العالم المقتون بالكذب المؤه،

بالشعارات التي سفحت دم القاري.<sup>(1)</sup>

هكذا يبدأ المقطع الثالث من الحكى القائم على تتابع أفعال السرد وإيقاع التصليل المنطقي (سنايك خيلهم وصلت إلى روعي، يحاصرني، تهجريني، يوغل...) .

غير أنه إيقاع ينتهي في بقية المقطع بتعبير يدل على سيادة القصيدة على السرد وليس العكس؛ أي أن الحكى لم يطل على ضرورة أن نفهم بأننا في الأساس أمام قصيدة وليس قصة أو رواية، على العكس من ظاهرة "القصة-القصيدة" التي تشترط سيادة السردية حتى مع حضور الشعر وترى "أن هناك نوعاً من التملك الشعري للبنية السردية في القصة-القصيدة ولكنه لا يسود ولا يجرف أمامه عنصر السرد"<sup>7</sup>

إذن، لتفترض مسبقاً بأننا بصدد ظاهرة فنية، تسمى هذه الظاهرة لدينا بـ"القصيدة-القصة" لتصبح الهيمنة بالدرجة الرئيسة للشعر حتى مع حضور الحكى المكثف وانفتاح القصيدة على أسلوب السرد انفتاحاً لا يجرف معه حضور الشعر وهيئته.

ونعود إلى القصيدة المختارة ابتداءً، فنقول كما أشرنا بأنها ابتدأت في مقطعها الأول والثاني بمقدمة تمهيدية ليس فيها حكى، لكنها من منظور السرد بمثابة مقدمة أو تمهيد، كالذي يحدث في النصوص القصصية أو الروائية، كما أنه تمهيد يتخذ شكل تلخيص موجز ومكثف للفضاء السردى الذي يعبر عنه إيقاع السرد في المقاطع اللاحقة.

حتى يجيء المقطع الثالث باعتباره بداية السرد وأول وحداته الثلاث ذات البداية والوسط والنهاية، في ظاهرة "القصيدة-القصة" لدينا. ذلك أن القصة باتفاق النقاد أقرب الأجناس الأدبية إلى الشعر، بسبب تحددتها بعدد من الشروط الضرورية لبنائها مثل: "الوجازة" (..) وثائها: الكثافة والتركيز. وهي قرين الوجازة والزهد في الحشو والإسهاب. وثالثها: إيقاعية التشكيل وموسيقية الجملة والتركيب على السواء..."<sup>8</sup>

إذن، انتهت بداية السرد في ترتيب وحدات السرد-بهيمنة القصيدة التفعيلية المتناغمة مع نهاية المقطعين الأول والثاني بإيقاع حرف الراء المنتهي بكسرة دالة على إيقاع الحزن من جهة، بسبب ما تعرض له الشاعر من تجربة واقعية، حين اتهم في عقيدته بالكفر. ومن جهة أخرى، ينسجم الإيقاع المنتهي بالكسرة والمضغ الصوفي الذي تخلف فيه الذات الشاعرة. جناح الدل من العشق البالغ مداه في حضرة الله ذي الجلالة والإجلال حسب ما يؤكد هاتين الوظيفتين البنويتين اللتين يؤدبهما إيقاع حرف (الراء)... كامل البنية الدلالية للقصيدة التفعيلية.

### ج (الوسط:

يبدأ وسط الحكى حسب وحدات السرد الثلاث منذ المقطع الرابع من بنية القصيدة وهو المقطع الأطول نسبياً بالقياس إلى المقاطع السابقة واللاحقة على غرار الوسط الذي يكون أطول نسبياً في الأعمال القصصية والروائية. هنا ينتقل الشاعر من ملخص التجربة وعرضها التي اختزلتها المقاطع السابقة إلى الإجابة هنا عن سؤال العقدة الحكائية. وهو: ما الحل ؟



هذا هو السؤال العقدة الذي تضمنه الوسط وحاول الإجابة عنه ، حسب وحدات السرد الثلاث.

الحل كان لدى الشاعر هو في اللجوء إلى من اتهم بالكفر به ، إلى الذات الإلهية المنصفة وإلى التصوف الخالص في رحاب الله العادل :

وفي قبو من الكلمات، مهجور  
نبحت العمر منحازًا، طريقي غامض  
وهوى ملتبس،  
ألود به،  
وبالكتب التي صدرت لإضجاري  
وحين رأيت نلي هاربًا  
يمطاد أخطائي، ويشقى  
قلت يا هذا :

وأخرج في القصيدة شاعرًا حبي  
وأحزاني وإصراري  
سأرحل حاملًا أحزان ذاكرتي  
وبعضًا من هوئى مازال أخضر  
من أقاليم الطفولة  
من لزقتها  
بوادي الروح ينمو صوت أسئلتي  
ويصبو،  
يصطفى ما شاء من نخل، ومن شوك،  
وأزهار  
وما يشتاق من معنى يشيق به لدى  
وأضيق حين يشيق بي،  
ويحرقه العاري.  
رحلت،  
رحلت  
في ساحات هذا الحب  
كم ضوء أعانته  
وكم حلم أداعبه  
وفي مدن يقيم الله بهجتها  
ويصنع ماءها من تبعه التدقيق الجاري

هنا شاهدت ما لا عين تدركه  
رأيت الحب في أسنى مراتبه  
وكننت -وقد بدا ضعفي- أنا المتسول الشاري  
دمي للحب مذكور  
وصوت دمي وأذكاري.

لقد هجر الشاعر الناس مؤقتًا واعتكف في غار حراشه، المعبر عنه مجازًا بالكلمات،  
(وفي قبو من الكلمات) دون أن يعرف مصيره (الملتبس) مؤقتًا إزاء التهمة التي نشرت مكتوبةً  
ضده. ويستمر الحكمي باتجاه البحث عن حل (وحين رأيت ظلي هاربًا .. الخ.) مستعينًا تارة  
بأسلوب الحوار الموجز، (قلت يا هذا...) وتارة أخرى يستعين بتقنية التذكّر أو  
الفلأش باك المختزل تجربته الحزينة التي مرّ بها في مراحل العمر المديد وكذا ذكريات  
الطفولة بطهرها الكامن في أعماق الذات الشاعرة:

(سأرحل حاملاً أحزان ذاكرتي  
وبعضاً من هوى ما زال أخضر،  
من أقاليم الطفولة، من أزقتها...)

إلى أن يقول: (رحلت، رحلت، في ساحات هذا الحب ... هنا شاهدت ما لا عين  
تدركه، رأيت الحب في أسنى مراتبه...) ليمرّ نوعاً من التناسخ الديني الإنشائي مع قصة  
الإسراء والعراج الواردة في القرآن الكريم يختزلها الشاعر باعتبارها قصة حب عميق للذات  
الإلهية عاشها الشاعر في ملكوت الله وفي رحابه. كل ذلك في إيقاع سردي، معبر عنه في هذا  
القطع الشعري الرابع والوحدة السردية الوسط، بالأفعال وبإيقاع من الحكمي الذي يربط بين  
أفعال السرد تارة بحرف العطف وأخرى بالفاصلة المؤدية معنى العطف على ما قبلها من  
إيقاع الحكمي السردي (ذهبتم العمر، ألوذ به، وحين رأيت، قلت يا هذا، سأرحل،  
وأخرج... بنمو صوت أسلتي، ويصمو، يصطفي، وأشيق، رحلت، رحلت، كم شوق أعانقه،  
وكم حلم أداهيه، يقيم الله بهجتها، ويصنع ماها، هنا شاهدت، رأيت الحب...)

د) نهاية السرد:

منذ القطع الخامس والأخير تتجلى النهاية باعتبارها لحظة التنوير التي يعرفها التقاد  
بأنها تتمثل نهاية الحدث<sup>(٥٠)</sup> الحكائي والتي نجدعها في بنية القصة القصيرة ونراها هنا تبرز  
شعراً على النحو الآتي:

هنا استرجعت لون حروفي الأولى  
وفي الخلوات شاهدت الذي يوماً  
سيقتلني  
رأيت السرّ مخبوءاً ومكشوفاً  
فلم أجزع

دعاني الشوق فاحترقت على جفنيه

أوتاري

وغادرني سراب كآبتي، وسواد أمطاري

وعدت إلى نداء الأبهدية

في سماء الروح

في كفي مواجيد التراب

وصوت أسراري.

هكذا كانت نهاية هذه الظاهرة الفنية التي أسميناها (القصيدة-القصة) وربما الرواية المكثفة والمنسجمة ولغة القصيدة المختزلة لتجربة الشاعر ومعاناة ما واجهه من اتهام بالكفر في عقيدته وإيمانه العميق بالله العظيم، وكيف كانت رؤية الشاعر الصوفية طوق نجاة يحميه من باطل الاتهام ويكشف له مؤخرًا الوصول إلى حقيقة ما كانت تستهدفه تهمة الكفر وهو القتل-قتل الشاعر. هذا هو بعض ما كشفت عنه تقنية التوقع -توقع القتل التي تحتمل التحقق وعدم التحقق. وبالطبع لم يتحقق القتل منذ أن رأى الشاعر عبر رحلة الإيمان التي اختارها بمحض إرادته؛ رأى ما كان مخبوءًا وغدا أمرًا مكشوفًا أمام حدسه (وفي الخلوات شاهدت الذي يومًا سيقطنني)، كأنما رحلته الشبيهة عبر التماسك الديني برحلة الإسراء والعراج قد ألهمته كشف السر الذي كان مخبوءًا وغدا الآن وأخيرًا في لحظة التنوير من الحكيم السريدي مكشوفًا (رأيت السر مخبوءًا ومكشوفًا)، مخبوءًا لأن من اتهموه بالكفر كانوا يستهدفون قتله -قتل الشاعر- لكنهم أخفوا هدفهم الإرهابي الذي لا صلة له بالدين، على مستوى السكوت عنه، وجاء اللطوق السريدي في لحظة التنوير التي وردت في نهاية بنيتها القصيدة ليعلم المخبوء الذي غدا مكشوفًا أمام رؤية الشاعر الصوفية وعلى مستوى اللطوق السريدي من نهاية القصيدة. وهو إعلان وكشف من شأنه وقتل أن يمدح أمة تهمة باطله بالكفر وأن يميز بين درجات الإيمان لدى طرفي الاتهام، المتهم (بالكسر) والمتهم (بالتفتح) أيهما الأشد إيمانًا أو المؤمن فعلاً بالله العلي العظيم. لذلك وحين انكشفت الحقيقة التي أعلن عنها إيقاع الأفعال السردية في المقطع الأخير من بنيتها القصيدة، قال الشاعر (فلم أجزع) هدأت نفسه بالإلهام الذي أتاه (سجازًا) بالحقيقة الجليلة أخيرًا، بل يحدس الشاعر وحاسته السادسة ذات الشغافية اللامتناهية، لذلك ازداد عشقه الصوفي وشوقه العميق إلى الذات الإلهية وانقشعت غمة الكتابة وحزنه اللذان واقتاده في سابق تجربة المعاناة، زمن الاتهام بالكفر (وغادرني سراب كآبتي وسواد أمطاري) مؤكدًا أنه بالفعل كما يقول الله عز وجل (ألا يذكر الله تطفئ القلب) قلوب المؤمنين الصوفية، الدائبين في عشق الله، الواثقين ببدله وحده لا إله إلا هو العادل، المنصف عباده من إفك الظلم والباطل.

هكذا انتهت رحلة الشاعر في رحاب التصوف الإلهي الصادق، بالعودة إلى أبجدية روحه المحلقة زمانيًا في سماء الروح. الظاهرة (وعدت إلى نداء الأبهدية) كأنما نادته أخيرًا أبجدية الروح، طلولها، وفطرتها، كي يهبط ثانية إلى كينونته الأولى بظهورها المستمد من طهر الذات الإلهية ونورها (في كفي مواجيد التراب وصوت أسراري) هكذا هبط الشاعر إلى

أصل تكوينه (من التراب) يحمل معه صوت أسراره التي منحها الله إياها؛ إذ لكل صوتي نائب في عشق الله سره العلن والمخيو، يعلن بالصوت وبالشعر ما يراه ضروريًا ويخفي ما بينه وبين الله من أسرار الإيمان والحكمة التي يصطفي بها الله الأولياء من عبادِهِ. وكما يقال: إن بين الصوفية أسرار إلهية لا يظنك بعض شيوخها إلا الصوفة المصلطون وحدهم. واذن، أسهمت أفعال السرد في المقطع الأخير غير التكتيف والإيجاز اللذين أسهما في تسريع حركة السرد وإغفاء خاتمة ذات رؤية تفاعلية خففت من حدة الحزن التي شابته اللغة الشعرية في المقاطع السابقة وكشفت عن إيقاع الأفعال السردية المتصقة بقلب الشاعر التصاقًا شديدًا منذ أن يبدأ الشاعر مقطعه الأخير باسم الإشارة الدال على القريب (هنا) سواء أكانت الرحلة باتجاه الخارج، السماء والنور والعلو الواسلة كلها روح الشاعر بالذات الإلهية في رحلة الإيمان الشبيهة مجازًا برحلة الإسراء والمعراج، أم كانت الرحلة متجهة إلى الداخل إلى الضمير وإلى الذات وإلى فطرة الإنسان الأولى التي فطر الله عليها عباده، على الإيمان (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه، يهودانه أو ينصرانه) كما في الأثر النبوي الشريف.

هكذا انتهت لحظة التنوير بالأفعال السردية المتسلسلة تسلسلاً منطقيًا، معبرة بإيجاز شعري عن خاتمة الحكيم (هنا استرجعت، شاهدت، رأيت "رؤية ذهنية"، فلم أجزع، دعاني، فاحتقرت، وفادرتي، وعدت...).

هكذا انتهت (القصيدة-القصيدة) لدينا بوصفها ظاهرة فنية يحضر السرد فيها عبر إيقاع الأفعال السردية، دون أن يحرف معه كما أشرنا عنصر الشعر؛ لأننا في الأساس أمام قصيدة شعر شابهها جو من الفضاء القصصي الموجز والتجربة الروائية المختزلة للغاية. ولذلك يجدر بنا الآن أن نلخص بإيجاز شعرية القصيدة التي جعلت عنصر الشعر هو الهممين حتى مع حضور السرد، على النحو الآتي:

- (١) القصيدة تنتمي إلى شعر التفعيلة الذي يتميز بتنوع التفعيلات (فعلون، فاعلون، فاعلن، فاعلن، فاع) التي يحتوي عليها السطر الشعري وكذا بحرية التقفية مع بقاء حرف المد والراء باعتباره لازمة إيقاعية لا يتقيد ورودها بنظام وزني محدد، بل هي لازمة إيقاعية تصدر منسجمة والإيقاع النفسي الحر من ضرورة ورودها في نهاية هذا السطر تحديدًا أو ناك. ولعل الإصرار الفني على بقاء لازمة حرف التقفية المبوب بند (الراء) كما أشرنا ذو وظيفة بنوية تخدم الرؤية الصوفية الرئيسة برأينا التي يتطلب الخشوع معها نوعًا من الخضوع المطلق للذات الإلهية المهيمنة على عواطف الشاعر وقلبه، فكان حرف الراء المنتهي بكسرة ملائمًا لجو التصوف الروحاني من جهة مثلما ناسب هذا الكسر إيقاع الحزن الذي يعبر عن الانكسار النفسي للمنجم وحرف الزوي الياء أو الكسرة اللذين تنتهي بهما لازمة التقفية الخرة لحرف الراء، من جهة أخرى. ذلك أن تجربة التكفير التي استهدفت حياة الشاعر وإيمانه ليست بالهينة؛ وذلك لأن ارتباطها بمفوض بالغ الخطورة في واقعنا الإيديولوجي الصارم عند تعامله مع قضايا الدين والإيمان، والحكم

السريع على البشر واستهداف حياتهم بالقتل، بسهولة أو تأنيً فيها. الأمر الذي أثار حزن شاعرنا المبالغ ليس على ما واجهه شخصياً من استهداف شخصي لحياته، بل حزناً على أولئك الذين يفكرون بمنطق التكفير والقتل ولا يعون القول الشاؤم (بأن من كفر مسلماً فقد كفر) ومتى كان الإنسان وثقاً من دخوله الجنة حتى يتحول إلى وصي على الآخرين وعلى مدى إيمانهم ؟!

إن ما نرجحه هو حزن الشاعر على من اتهموه، لا حزنه على حياته، بدليل ورود نبوة الشجاعة الموافقة لرؤية الشاعر الصوفية، وخاصة حين يقول في خاتمة القلعة الثاني الذي يسبق بداية السرد الشعري:

(أخشى الله -حين يقول لي أخطأت- لا أخشى من النار)

قمة الشجاعة الملتحمة بقمة الإيمان والعشق الخالص للذات الإلهية. ذلك أن الشاعر يعطي مدلولاً صوفياً لا سلفياً لمعنى الخشية من الله؛ فهو يخشى الله إن وقع في الخطأ، إن أخطأ في سلوكه وأساء في تعامله مع بني البشر، فظلم أو اعتدى... أليس الدين هو المعاملة ؟؟ في جوهره ؟؟ إن الشاعر يخشى الله ليس خوفاً من دخول النار وطمعاً في ملذات الجنة، إذن. وهذا قمة العشق للذات الإلهية التي تجعل الشاعر يتورع بشجاعة في وجه من اتهموه بالكفر ويكشف عن صدق إيمانه وما ينبغي أن تكون عليه الخشية من الله، عز وجل. وهذا بيت القصيد، الذي تبرز معه لازمة حرف الراء المكسورة دالة على خشية الله التي منحتة قدرها من الشجاعة عند مواجهة الخصوم -خصوم الصوفة من ناحية ومن ناحية أخرى الحزن على أولئك الذين اتهموه في إيمانه وفي عشقه الصوفي المطلق للذات الإلهية؛ ذلك العشق الذي يجعله يخشى الله حباً له، لا خوفاً من ناره. وإن، نحن أمام ثنائية إيقاعية لحرف الراء، ثنائية ليس بالضرورة أن تكون متضادة، بل دالة من جهة على إيقاع الحزن ومن جهة أخرى على الشجاعة النابعة عن عمق الإيمان الصوفي الخارج عن المألوف والترتيب في أسلوب العبادة لله عز وجل. وكلا المعنيين: الحزن والشجاعة كامن في أعماق الذات الشاعرة ومنطلق منها.

(٢) الصورة الفنية: وتبرز منذ أن يربط الشاعر بين الحسي والمعنوي على سبيل الاستعارة المكنية التي يُحذف فيها أحد طرفي التشابه وهو الشبه به ويمؤتى بشيء من لوازمه، أسلوباً مجازياً مكثفاً يلائم القصيدة التي ينبغي أن تكون لغتها مكثفة وصورها إبداعية، مبتكرة لا مستعملة ومكررة أو مستهلكة. وحسب جان كوهن في سياق حديثه عن الانزياح اللغوي، فإننا "يمكن أن نميز صنفين من الصور البلاغية، ندعوها صور إبداع وصور استعمال".<sup>(١)</sup> "فإذا كانت الصور البلاغية انزياحاً، فإن صيغة صورة استعمال، لا تخلو من تناقض إذ الاستعمال هو نقض الانزياح".<sup>(٢)</sup>

وإن، تبرز الصور الإبداعية باعتبارها انزياحاً لغوياً منذ أول الفاتحة، منذ أن تنطلق القصيدة من القول: (أأرض الروح أكتب ماء أشعاري)، أي منذ أن يزاوج الشاعر بين الحسي والمعنوي. وهذا الأخير مستمد من قاموس الصوفة الدائرين في عشق الذات

الإلهية. إن الشاعر إن، يهدي ماء أشعاره لأرض ليست موجودة على مستوى الوعي الفعلي بل هي لـ(بوتيبيا): لمدينة فاضلة متخيلة أو شبيهة بجنة روحية، لا حسية جنة موجودة على مستوى الوعي الممكن، التخيل الذي يتمنى تحقيقه، ولا يجده إلا في متخيل أقرانه من شعراء التصوف، الباحثين عن المثل الأعلى المنشود، وحسب. ولذلك يتابع فيقول (وه الذي بسمائه وجلاله، يحتل وجداني وأفكاري، وللأطفال، للمرضى، لكل مسافر في شارع الإيمان، متهم بإنكار السماء... الخ)

فالشاعر صوفي يبعث قصيدته إلى أول من يقدر وحده أن ينصفه، إلى الله عز وجل الذي يحتل وجدانه وقمة شعوره، وإلى المظورين على حب الله صغاراً، أو كباراً، تكمن طفولة الشعر وحب الله في صقاء سرانهم، وفطرتهم الأولى، إنه يكتب للمرضى النبيين إلى الله كي يشفي علتهم، وباختصار... للموجوعين في عافيتهم أو في مشاعرهم وهم المسافرون في طريق الوصول إلى ذروة الإيمان، حين يتهمون كالشاعر في علفيتهم ومنتهى إيمانهم بالله. كل ذلك، عبر عن الشاعر الصوفي بانزياح لغوي مكثف، ومستعين بالاستعارة التي تضفي على الحسي روحاً ومعنى وبعثاً صوفياً خالصاً. وصورة إبداعية مزاحمة أخيراً عن التعبير التقريبي المباشر ومتجاوزة إياه إلى التكثيف المجازي المطلوب عند كتابة القصيدة.

وثمة إشارة فنية تتصل بالقطع الثالث الذي انطلقت منه بداية الحكى السري نذكر بها هنا: (سنايك خيلهم وصلت إلى روعي، فيا الله 11 خيل الغزو في داري 12 يحاصرني نزيغ الروح، تهجرتي مرايا الحلم، يوغل في بياض دمي سواد العصر، عتمته... الخ.) حيث يحيلنا هذا اللطوق السري للسكوب في قالب شعري إلى ثنائية أزلية متضادة في علاقة كل طرف منها بالآخر. وهي ثنائية الخير الذي تضاهلت مساحته والشر الذي اتسعت دائرته لتحقيق بالشاعر وتدفعه ليعبر عنها وعمماً عاناه من قوى الشر، مبتدئاً بلفظة (سنايك)، فالسنايك. وهي أطراف حوافر الخيل (كناية عن الوطء الشديد) قد وصلت إلى روح الشاعر باعتبارها على سبيل الرمز دالة على طرف قوى الشر التي اتهمت الشاعر (بانكار السماء) بالكفر وأصدرت لذلك الكتب والأحكام المستهدفة حياته، بل استطاعت أن تقتحم الشاعر في عقر داره حتى أدت إلى أن يتخيل روحه معها وهي تنزف دماً على سبيل المجاز، وكناية عن الحزن البالغ أشده والذي أوشكت معه (مرايا الحلم) الباحث على التفاضل أن تهجره. لقد وصلت إذن سنايك خيل الخصوم (وهي شيء مادي، مرئي ومحسوس) إلى روح الشاعر (وهي شيء غير مرئي للعيان، لكنها جهاز الاستقبال الذي به يشعر بالألم والحزن وبكامل المعاناة القاسية. وتكمن الاستعارة هنا في تشبيه الروح بجسم مادي محسوس، يمكن للسنايك، مجازاً، أن تصل إليه وتطأه؛ لذلك لا بد بالله القوي العادل، منهياً، ومنادياً بالدعاء (فيا الله!).

وفي قوله (يحاصرني نزيغ الروح). و(تهجرتي مرايا الحلم) تبدو الاستعارة الإبداعية مركبة، فتارة (نزيغ الروح) وتارة (يحاصرني نزيغ الروح) وكذا الاستعارة

الأولى في (مرايا الحلم) ثم (تهجرني+مرايا الحلم)، حيث يشبه مرايا الحلم، ربما ١، بحبيبة (قد تكون القصيدة نفسها وما تفيض به من أحلام يقظة وخيالات فنية) تهجره، لسبب ما، لعله الحزن على ما أصابه من حال غدا عليه كذلك، بعد أن استهدفته سذابك خيل الخصوم، فوصلت إلى روحه وغزته في عقر داره ونزلت بمسببها روحه أُلأً وعُنايًا شديدين. وكذلك حين جسد الحلم فجعل له (مرايا) على سبيل الكثرة والبالغه، تهجره... وَ (يوغل في بياض دمي سواد العصر، عمقته) حيث تبرز صراحة ثنائية الخير والشر للفتادة، منذ أن يجسد الشاعر استعارته الإبداعية التي تجعل الألوان تتخذ صفات منزاحة عن طبيعتها الكلاسيكية (بياض دمي) استعارة رامية للخير وَ (سواد العصر) استعارة رامية للشر، مبدوعين بفعل الإيغال (يوغل) الذي يدل على العنف والقسوة والإرهاب، كناية عن أسلوب العنف الذي سلكته قوى الشر وهي تنتهم الشاعر بالكفر وتستهدف قتلَه.

(٣) وتختتم نماذجنا الدالة على هيمنة القصيدة على القصة في بنية هذه الفتاحة بالإشارة إلى ثنائية إيقاعية تنطلق منها موسيقى القصيدة. وهي: الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية:

#### أ) الموسيقى الخارجية:

وهي الموسيقى التي تنبني عليها الأسطر الشعرية في هذه القصيدة التفعيلية، حرّة من نظام القصيدة الكلاسيكية وأوزانها المحدودة. هنا الشاعر حرٌّ في تنوع تفعيلاته على مستوى الأسطر مازجًا بين أكثر من بحر شعري ومنطلقًا من عنصرَي الاختيار والانتقاء مثل تفعيلة (فعلون) من بحر الطويل، وفاعلن من بحر المتدارك وكذا فعلن، متفاعلن من بحر الكامل... الخ. علاوة على لازمة حرف الراء بوصفه تفعيلة حرة تستوعب الفضاء الفني (النفس والصوت) لجو القصيدة العام. ولا يلتزم الشاعر بوضعها تمامًا بعد نظام وزني محدد، أو سواء، مادام حرًا في بث التفعيلات بحرية على امتداد الأسطر الشعرية غير الملزمة بقوالب أو نظام وزني معد سلفًا.

#### ب) الموسيقى الداخلية:

وهي الموسيقى الناتجة عن تكرار الحرف داخل المطر الشعري. ولعل حرف الراء الذي ينتهي به عدد من أسطر القصيدة بوصفه لازمة أو تفعيلة حرة هو نفسه الحرف الذي نجده يتكرر أيضًا داخل الأسطر الشعرية. وبذلك تنسجم التفعيلة بحرف الراء مع الموسيقى الداخلية من ناحية أخرى ومع الموسيقى الخارجية باعتباره (أي حرف الراء) لازمة شعرية حرة ومتكررة في نهائيات الأسطر الشعرية، بل قاسمًا مشتركًا بين ثنائية متناقضة لا متضادة هي ثنائية الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية.

## ثانيًا: قصيدة صوتان:

يمكن للقصيدة أن تفتتح على الحوار المسرحي (الديالوج) انفتاحًا يكسبها طابعًا دراميًا، كالذي نجده في المسرحية، حتى مع سيادة الغنائية وما يتسم به الشعر من صورة فنية مخيَّلة وإحياءات تجعلنا نحكم على النص الذي أمامنا بأنه قصيدة أولاً. وفي هذا الصدد، يقول النقّاد: "وأما عن علاقة الدراما بالشعر، فقد برز شكل يتخذ الدرامية ركيزة أساسية في بنائه، ويتجلى ذلك في القصيدة الدرامية، وهي التي هضمت الكثير من السمات الدرامية، كالتوتر والصراع والحوار وتعدد الأصوات، ومع ذلك فهي ذات طبيعة غنائية." (٤٥).

وفي بنية القصيدة الممنونة بـ (صوتان) يدور الحوار الدرامي بين صوتين، ١- الصوت الأول، ٢- الصوت الثاني، حسب العناوين الفرعية للحوار الذي يوهنا الشاعر فنيًا بأنه ديالوج مسرحي، أي أنه حوار لثاني بين شخصين، حوار مسنوع على خشبة المسرح في هذه القصيدة الحوارية عبر صوتين: هنا يغيب الراوي بأنواعه المختلفة تمامًا وتتقدم فقط الشخصيتان المتحاورتان حوارًا دراميًا ذا طبيعة غنائية ومسكوبة في قالب حر من قصيدة التثر التي تستوحي موسيقاها من إيقاع النفس وفضاء الإحياءات الرمزية اللامتناهية وكذلك من إيقاع ما يسمى بالموسيقى الداخلية الناتجة عن التوظيف البيوي لتقنية الإصانة أو المحارفة حسب إدوار الخراط حين تكرر الأحرف داخل بنية القصيدة.

يبدأ الصوت الأول بالحكي للوجز عن نفسه، مستعينًا بشمير المتكلم ومصحوبًا بروية تشاؤمية، سوداوية ذات إيقاع نفسي وموسيقى حزين:

### "الصوت الأول:

منفرد في صحراء الصمت

غريب في ساعات الكُرْ

وفي ساعات الفُرْ

تتحطم روحي شوقًا وحنينًا لديار

أعرفها بالقلب

وتعرفني بالذكرى."

الجو النفسي، نلاحظه هادئًا، ومصحوبًا بجمل خيرية، سواء أكانت اسمية مبتدأها محذوف تقديره أنا (أنا منفرد، أنا غريب) على سبيل الإيجاز الضروري في الشعر، أم كانت جملة فعلية ليست إنشائية. هكذا تقدم الصوت الأول في وصف نفسه والحكي الموجز ابتداءً عن نفسه بنفسه، غير أن الأمر يختلف في نبرة الصوت الثاني التي تلو دراميًا، مستعينة تارةً بشمير الخطاب اللاتم للغة الحوار (الديالوج) وتارةً بشمير الغائب المعبر عن موقف الصوت الثاني الاحتجاجي على الصوت الأول، حتى مع حضور هذا الأخير على مسرح الحوار الثاني المباشر:



“الصوت الثاني:

مهلاً

وجهك يشبه دثباً يتمطى

تتماوج في سحنته الصفراء ثعابين الغابة

هاإنك تطلق نأراً من عينيك

دخاناً من شفتيك

لسانك أقمى.

لا شوق لمن لا يغسل بالضوء الكلمات

ومن يتحدث عن صمءاء

وينسى غرناطة.”

هكذا تملو نبرة الصوت الثاني وتدخلنا في جو درامي، يستمر معها الصوت الأول هادئاً، على العكس من أسلوب حوار الصوت الثاني، ذي التبرة العالية التي أسهمت الجملة الإنشائية في الإعلاء منها وكذا كاف الخطاب المنقح درامياً على الآخر المستمع والشارك أو الذي يعد الطرف الآخر في الحوار الثاني، الذي يستمر معه الصوت الأول هادئاً في مقطع لاحق واستمعياً تارةً بشمير المتكلم وتارةً مفتتحاً على شمير الخطاب:

“الصوت الأول:

أضحو من خدر الخوف

على صوتٍ يدفعني ببديه

ثقل الخطوات، يناديني:

كان عليك لتخترق الصمت

وتوقظ ما كان يسمى قلباً

أن تعرف أن الناس يساوونك في الخوف

يساوونك في الموت

وكان عليك لتعرف أكثر

أن تتألم

أن تتقشر عينك من الحزن.”

كأنما هناك صوت ثالث تداخل مع الصوت الأول، يناديه محاولاً إيهام بشمير الخطاب، ربما هو صوت الذات المعبر عنه في الكتابة السردية بالحوار الداخلي (المونولوج) الذي يمكن أن يتم أيضاً على خشبة المسرح عبر مسرحة العقل ومناجاة الذات، ثم يأتي الصوت الثاني في أسلوب الحوار الدرامي تملو التبرة عبر الجمل الإنشائية على النحو الآتي:

“الصوت الثاني:

ما بك يا هذا ؟

هل شفت روحك ؟

وأماط الخوف ستار الرغبة ؟  
أم داهمك الحزن ففاضت أقداحك  
وارتجت جدران الجسد الخابي  
ما أشقاك،

هل أخطأت العنوان، أم أخطأك العنوان ؟<sup>١٩</sup>

هكذا عادت نبرة الصوت الثاني الدرامية لتعلو مستفزة موقف الصوت الأول السلمي. وربما تم الحوار الدرامي والهادئ للصوتين الأول والثاني على مستوى واحد من الحوار الداخلي الذي يتمسرح فيه العقل ويعيش نوعاً من الصراع الدرامي مع الذات التي يهدأ صوتها تارةً ويعلو أخرى، مفتحة على ضمائر المتكلم وضمير الخطاب وضمير الهو منذ المقطع الأول الذي أوردها والذي قال في سياقها (تتحطم روحي شوقاً وحنيئاً... الخ) مادامت في نهاية الأمر يمدد فضاء منبهمة من أبجدية الروح وأمام صوت منفرد لا يمكن أن يكون إلا صوت الشاعر. لا بأس، نتابع النطوق الشعري، للصوتين المتمسحين في أسلوب الحوار اللغوي: صوت أول وصوت ثانٍ، حسب العناوين المتصدرة للمقاطع المختلفة من بنية القصيدة للوسومة: (صوتان).

على كل، يعود الصوت الأول معبراً عن نفسه بالقول:

"يا وجمعي ..

هل سيكون لهذا القلب الضامر

أن يتحدث في العشق

وعن صبوات الروح

وأن يتحدث للعمر الآتي عن جبر

وبداية تقويم آخر

أم يتحدث عن أرقام لا تخلو من

إيقاع الدهشة؟"

نلاحظ أن نبرة الصوت الأول هنا علت وأصبحت درامية، مهددة بهجم إنشائية (النداء، والاستفهام) لاحظ هناك إشارة إلى الروح في هذا المقطع الشعري للصوت الأول (وعن صبوات الروح) كما أن هناك إشارة إلى الروح، عبر ضمير الخطاب في المقطع الذي سبقه للصوت الثاني (هل شغف روحك ؟) الأمر الذي يرجح نسبياً رأينا حول إمكانية أن يكون الصوتان الأول والثاني محض حوار داخلي منفرد يتمسرح فيه العقل وانفتح على الضمائر المتنوعة، حتى مع علو نبرة الصوت تارةً وهدوئها أخرى، كأنما الذات تحتج على نفسها تارةً منتقدة على نحو ما يقوله الصوت الثاني مثلاً:

"الصوت الثاني:

حاول أن تخرج من جلدك كي تتحرر

منك خطاياك

وأن تدخل موسيقى الضوء خفيفاً

إلا من شجن يتوهج في الأجفان

ويهطل من زمن لا ينسك.

وتارة تبدو الذات شاكية وتساؤمية على لسان الصوت الأول:

"الصوت الأول:

مشدوداً كالحبيل إلى شرفات الأوهام

أبحث عن نفسي في قاع الحلم الميت

لا شيء تبقى في جسدي

في روحي

لا غيمة في الأفق ولا دمة خلف جفوني.

\* \* \*

مستقر أنت الآن بثوب الدولار

ومعتصم بالبيتك

تقايش كنز الروح - وكنز الروح جواهر لا تفنى

بغبار اللذة، قل لي:

هل ستظل تقايش بالرغبات الرغبات ؟

وتدخل دهليز الخوف وحيثاً ؟

ما أشقاك."

بدأ المقطع السابق في حوار مع الآخر، حسب المنطوق الشعري، بضمير المتكلم، بل قل: انقسم الصوت الأول لمقطعين: المقطع الأول فيه مبدوء بضمير المتكلم الذي اعتمد عليه الصوت الأول في المقاطع السابقة وفي هذا القطع، في حين ابتدأ المقطع الثاني منه بضمير الخطاب المنفتح على الآخر: الصوت الثاني وهذه مفارقة حوارية لم ينطلق منها الصوت الأول منذ أول الحوار (الديالوج) وربما كان ضمير الخطاب هنا نوعاً من الحوار الداخلي المنفتح درامياً وانتقادياً تعلق فيه التبرة الاستكبارية، الاحتجاجية على الذات وليس بالضرورة على الآخر في الديالوج (الخارجي) بل بالمونولوج (الداخلي).

كأنما بدأ يعلو الصوت الأول الذي كان هادئاً في المقاطع السابقة، ولم يكتف بهاتخاذ مساحة أطول نسبياً في المقطع السابق، بل استحوذ أكثر على مساحة الحوار الدرامي وجاء المقطع الذي تلاه بعنوان (الصوت الأول) أيضاً كاسراً منطقي التناوب في الحوار بينه وبين الصوت الثاني، هكذا جاء المقطع اللاحق:

"الصوت الأول:

لا تحزن إن الله معك

لا تحزن إن الشعر معك

لا تحزن إن الفكر معك

لا تحزن، هذا ما قالته الأرض،  
وأعطاني من أعطى الموتى خبزاً،  
وثياباً لا تبلى."

هكذا، كسر الصوت الأول منطق التناوب في الحوار بينه وبين الصوت الثاني، لترتفع حدة الحوار الدرامي باتخاذ مساحة أوسع من الحوار، حين بدأ المقطع اللاحق بعنوان آخر للصوت الأول نفسه أيضاً ويجعل إنشائية مهددة بالانتهى؛ الأمر الذي من شأنه أن يعطي من نبرة الصوت الأول ويسهم في تسريع حركة الحوار المسرحي ديالوغاً أو مونولوجاً، لينتهي الحوار برمته على مستوى الصوت الثاني أخيراً وتنتهي القصيدة بالمقطع الآتي:

"الصوت الثاني:

تترامى فيك مفازات اليأس

تطاربك اللوعة

والندم الحارق والحسرات

يا هذا ...

نصف رغيف يكفيك

وجرة ماءٍ من نهر أو نبع،

في منعطفات ظلال وأسعة الرحمة

يا هذا تحبيك."

هكذا انتهت القصيدة بهدوء نسبي في نبرة الصوت الثاني، على العكس مما كانت عليه في المقاطع السابقة، تماماً كما يحدث في الكتابات السردية ذات الصراع الدرامي الذي ما إن يبلغ ذروته في الوسط من ترتيب الوحدات السردية الثلاث ذات البداية والوسط والنهاية حتى يبدأ في نهاية السرد... غير أن النهاية هنا في بنية القصيدة موضوع الدراسة - نهاية منفتحة على الآخر المحاور في الديالوج، أو الذات في المونولوج، وهي لذلك نهاية مفتوحة على مساحة من التأمل الصوفي اللائم ودلالة النهاية (نصف رغيف يكفيك، وجرة ماءٍ من نهر أو نبع) المسبوقة بجملة إنشائية مكررة (يا هذا...) ومنهية السطر الأخير (يا هذا تحبيك) ذلك، لكي يوهنا الصوت الثاني بأنه مازال محتفظاً ولو نسبياً بالنبرة المرتفعة حتى نهاية الحوار الدرامي المنسجم هنا وبنية القصيدة ذات الإيقاع الغنائي اللائم لوسيقى خاصة بقصيدة التثر الحرة. والصورة المجازية المكثفة.

ذلك هو القاسم المشترك (والفارق) بين درامية السرد ومجازية الصورة في بنية القصيدة. يقول النقاد: "ولما كان استرخاء القوى الداخلية، أو نشاطها، هو الفاصل الحاسم بين الشاعرية والدرامية، فإن الفرق الفني بين هذين البعدين الجماليين هو تطابق الشعر مع الصورة وتطابق الدرامية مع الموقف، أعني أن الشاعرية هي الروح في الصورة، والدرامية هي الروح في الموقف، في أزمة مشطوبة إلى شطرين، ولما كانت الصورة المبنية على التناقض هي الأخرى كان في ميسورتها الذهاب إلى أن الغنائية أو الشاعرية الخالصة هي الدرامية مكثفة على الداخل ومعلقة على ذاتها ورافضة للتجسد."<sup>9</sup>

### ثالثاً : قصيدة (جدارية للفصول الأربعة) :

تتبنى القصيدة في أسلوب سردها على الإحياء الفني من جهة وعلى الحوار وتنوع الضمائر من جهة أخرى، علاوةً على الصورة المجازية الكثيفة التي تلائم طبيعة الشعر، حتى تكون السيادة في نهاية الأمر للقصيدة حتى مع الإيهام الفني. بحضور عنصر السرد. فالقصيدة تبدأ بقول الشاعر:

"ذات يوم من الغيم  
حدثني، وأنا بأصابعي التعميات،  
بحزني الذي لا يرى  
أتحسس وجه الطريق  
وأغسل في مائه شجني..."

وهو أسلوب يمزج فيه الشاعر بين الحكيم والشعر؛ الأمر الذي يجعلنا نحكم على بنية القصيدة بأنها تنتمي إلى ما أسميناه سلفاً بظاهرة "القصيدة-القصة" من الكتابة غير النوعية أو النص المفتوح.

فالشاعر أوهماً منذ البدء بجو حكاثي قادم في الأسطر اللاحقة، التي يبرز فيها أسلوب الحوار المبدوء بقال لي وقلت:

قال لي:

كيف تمضي الفصول إلى البحر  
تكتب بالماء جغرافيا الوقت  
كيف تخين في الصيف أمطارها  
وتداعب بالضوء لون البهوت  
قلت: الشتاء رسولٌ إلى الله بالماء  
يهبط راحته

والربيع حديقة شعرٍ تندن في هضبات القصيدة

والروح

والصيف "تسألني" موعداً دائي العواطف.

..الخ..

نلاحظ أنا الشاعر الحاضرة وهاء الغائب المرتبطة بالطرف الآخر في الحوار، ثم الانتقال مخيلة الشاعر إلى ضمير الخطاب الذي جعل الآخر المحاور ينتقل حسب مخيلة الشاعر من الغياب إلى الحضور النسبي، حين قال "تسألني" بدلاً من أن يقول "يسألني" على نسق (حدثني) السابق. الشاعر بهذا الانتقال والكسر الفني لرتابة النسق، أغلى على بنية الحكيم روحاً وحيوية وأوهماً فنياً بحقيقة الحوار والحضور الممكن للآخر المشارك في أسلوب الحوار الفني المعبر عنه بالصورة الاستعارية المكثفة.

ثم يعود، في الأسطر اللاحقة ليقول: "وحدثني:" أي يعود إلى ضمير الغائب، بعد أن اطمأن إلى إيهامنا فنياً بحضور الطرف الآخر المشارك في الحوار عبر فيض الأسئلة

الاستفهامية المؤدية إلى فيض من الأغراض البلاغية ذات الدلالات الفنية والرمزية الموحية،  
 من قبيل: "كيف تضطرب السمكات إذا أظلم الأفق  
 وانكسرت فوق سطح المياه المواطف  
 واشتعلت في التلوج بقايا من الضوء  
 وتحت سماء من البرد أطفأت الريح نار  
 فوانيسها  
 أين تذهب؟"

نلاحظ أن الشاعر في سطر شعري سابق قال (تسألني) أي أنسألني (أنت) حين حذف  
 حرف الاستفهام وخاطب الآخر الذي هو في التقدير التحويلي (أنت) الفاضل. محتفظاً بـياء  
 التكلم، في الفعل (تسألني) (المفعول به) ذلك أن السؤال صادر على لسان الطرف الآخر  
 المشارك في الحوار (أين تذهب) هو الذي يسأل الشاعر. وفي التنوع الفني للخصائر ما يحفظ  
 للحوار حيويته ودراميته الملائمين لبنية النص الشعري المنفتح على عنصر من عناصر البنية  
 السردية ذات الطابع الحكائي. وهو عنصر الحوار الفني، على الرغم من أننا هنا أمام نص  
 شعري يوهج منذ البدء كما أشرنا بأسلوب الحكيم المعبر عنه بـ (ذات يوم) علاوة على عنصر  
 الحوار... فإنه حكي غير معني بما يسمى بوحدات السرد الثلاث ذات البداية والوسط  
 والنهاية، قدر اعتناكه بما دار من حوار فني مسكوب في قالب استعاري، هذا وكأنه بالفعل  
 لوحة تشكيلية بديعة للفصول الأربعة. وهذا ما يؤكد رأي النقاد حول إمكانية أن تنفتح  
 النصوص الأدبية على بعضها، مثلاً لها أن تنفتح على القنون الإبداعية المختلفة من موسيقى  
 وتشكيل وسينما ونحت وما إلى ذلك.

#### الهوامش:

- (١) انظر: إدوار الخراط، الكتابة عبر النوعية مقالات في ظاهرة "القصة- القصيدة" ونصوص مختارة، ط ١٩٩٤م، دار شرقيات للنشر والتنوع، القاهرة.
- (٢) د. عبد العزيز النقال، قصيدة فاتحة، ص ٧، ديوان أبجدية الروح، ط ١٩٩٨م، الناشر: الهيئة العامة للكتاب، الجمهورية اليمنية.
- (٣) إدوار الخراط، الكتابة عبر النوعية، ص ١٢.
- (٤) المرجع السابق، ص ١٥.
- (٥) الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة، دراسة ومختارات، ص ٩٩، ط ١٩٩٢م، دار المعارف، القاهرة.
- (٦) جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ص ١٣، ١٤، دار توبقال للنشر - المغرب.
- (٧) علي بن نعيم، السرد والظاهرة النثرية (دراسة في التجليات النثرية للسرد العربي القديم)، ص ١٢، ط ٢٠٠٣، المركز الثقافي العربي.
- (٨) المرجع السابق، ص ١٥ - ١٦.

# شعر



## الحياة اليومية



### دلال بخش

#### تأملات أولية

عاش جل الشعر العربي حياة التصور والبلاط قرونًا طويلةً، متخذًا قوالبه الرسمية من الشعر الجاهلي في سياقه المركزي الذي تمثله العلاقات خير تمثيل، وظل الزمن طويل يرفل في ثوب من الكلاسيكية والأغراض النبيلة من فخر ومدح وريثاء وغيرها. وقد تطورت آليات الأداء الشعري مع تطور العقلية العربية إلا أنه ظل يدون المآثر والأيام والكارم ويدور في ذات القلک من حيث الموضوعات حتى تشكل نمط يمكن أن نطلق عليه ثقافة المركز.

لقد أخذ كثير من النقاد والمفكرين قديمًا وحديثًا يحكمون برسمية الشعر العربي ومناسبته لحياة البلاط، وربما اتهمه قليل منهم بالأرستقراطية والبعد عن آهات المجتمع ونفقاته التي تلهث بالجوع والفقر والمرض في حقب زمنية متغايرة، إلا أن القليبيس التي وضعت ليقاس بها جيد الشعر من رديته قد بنيت على بعض الأحكام النقدية بدايةً بآبن سلام الجمحي وآبن قتيبة وانتهاءً بكثير من النقاد المعاصرين. درج تدريس مناهج الأدب على اختيار نصوص من عيون الشعر العربي والارتكاز على عرضها وتحليلها من أجل التعميد لعصر من العصور الأدبية، هذا وقد ارتبطت في أذهان الكثير ارتباطاً وثيقاً بالسياسة والسلطة الحاكمة حتى إنها اشتقت تسميتها وتصنيفها التاريخي منها. ربما أطلق النقاد العرب المحدثون -الذين يقدرون ظلمًا واقعا على التراث الأدبي- اسم ثقافة المركز أو اللئن على كل ذلك الرخم من النصوص التي ولدت في القصور أسوة بالنماذج الجاهلية العملاقة، متمثلة على سبيل المثال لا الحصر في شعراء لعت أسماؤهم في سماء الشعر: أبي تمام والبحثري وآبن الرومي والتنبلي وآبي فراس الحمداني وجبرير والغزدي والأخطل.

يشير إدوارد سعيد في كتابه "العالم والنص والناقد" إلى أن النقد ينبغي أن يتعامل مع النصوص بصفاتها نشاطاً إنسانياً، لا يقوم على قراءة النصوص وتحليلها وتصنيفها فحسب بل على تحليل علاقتها بالواقع السياسي والاجتماعي بما فيه من قوى السلطة وقوى المقاومة، كما يصر سعيد على أن هذه القوى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في النقد والوعي النقدي. ليس هذا فحسب، بل إنه يشير إلى أن الثقافة هي الوسيط بين سلطة الدولة وأفراد المجتمع، وبالتالي يكون دور الثقافة هو المحافظة على أيديولوجية معينة نافذة أو مقيدة لكل ما يخالفها زاعمة بذلك أنها تقوم بدور أخلاقي أو تهذيبي في المجتمع. وعليه فعندما تنشأ في أي مجتمع حالة من التوتر بين الثقافة السائدة وعناصر مقاومة لها من داخلها تقوم الثقافة المهمة بمحاصرتها وقمعها<sup>(1)</sup>.

قد تكون الثقافة العربية شأنها شأن غيرها من الثقافات التي درسها سعيد واستقى أحكامه منها.

يقول عبد الله الغدامي: "في العصر العباسي الأول جرى فرز ثقافي تقررت معه الطَّبَقَةُ الثقافية العربية"، وإن كان آخر العصر الجاهلي قد شهد نهيلاد التمسك الثقافي الفخولي الذي تمت العودة إليه وتمثله مع مطلع العصر الأموي، فإن مشروع التدوين في العصر العباسي قد اعتمد النموذج الجاهلي/ الأموي حيث جرى تدوين النسخ الشعري الفخولي مع ما يتبع ذلك من شعرة للقيم ومن ترسيخ لصيغة القحل الثقافي والاجتماعي، ثم جرى مع عمليات التدوين المعتمدة على النموذج النسخي أن صارت عملية الفرز لكي تتميز ثقافة المتن (...) المستندة على الذات المفردة المستبعدة المطلقة (...) وعلى كون من عدا تلك الذات هامشياً لا قيمة له<sup>(2)</sup>. ويرى الغدامي أن هذا النسخ مازال مسيطراً على العقلية العربية، وهو نسخ يقّس نمطاً معيناً من الثقافة ولا يقبل غيره. وقد أدى تقديس هذا النمط، بين ما أدى إليه، إلى رفض النتاج الأدبي في قرون عديدة من تاريخنا، لأنه أدب مخالف للنمط اليهودي المقدس، والنظر إليه نظرة متعالية وتسميته أدب عصور الانحطاط.

غير أن باحثين آخرين رفضوا تقبل هذا المنظور للثقافة العربية والشعر العربي، ودعوا إلى إعادة دراسة الشعر والثقافة من منظور مغاير تماماً. فقد طرح كمال أبو ديب فكرة أن عصر الانحطاط مقولة خاطئة في عمل مبكر له. وفي دراسة تالية اقترح أن الصورة التي نملكها عن الثقافة العربية والشعر العربي تقوم على نمط من الأدب كتب مرتبطاً بالباطل والمؤسسة الرسمية، أما خارج هذا الفضاء فقد كان ثمة أدب وانتاج ثقافي متميزان وجديران بالعناية بهما وبما، يحملانه من خصائص مقابرة لخصائص معظم الأدب المنتج داخل الفضاء الرسمي<sup>(3)</sup>.

وهناك بحق شعر من نوع آخر يجسد حياة البسطاء والقراء أو إن صنع التمييز جبالاً السود وجواريب من الحياة اليومية يندجج الشعر وبداياته الجاهلية، لكنه لم يلق إلا جزاءاً ضئيلاً من اهتمام الدارسين، لأن القوانين النقدية التي تحاكم الشعر لم تفسح بهن جنياتها، حيناً يحتفي بمثل هذه النماذج البسيطة في الفكرة والتناول واللغة وإن جفني كثير منها،



بميزان شعري متميز وجرس أنيق وتجربة إنسانية عميقة. ولعل أمانة التدوين التي تمتع بها العرب تكون بين أهم العوامل التي أسهمت في نجاة مثل هذا التراث الشعري. ولنتطرق - أسوة بتقاداتنا المحدثين - على النماذج الشعرية التي تصف الحياة اليومية والتجربة الشخصية وعلى ما درج بعض النقاد على تسميته شعر الحماق اسم "ثقافة الهامش" مجازاً (والحق أن الساحة المتروكة لثل هذه النماذج - التي تمثل تجربة الإنسان الجاهلي أو الأموي أو العباسي أو المملوكي البسيط في الإطار النقدي العام - لا تتعدى فعلاً مساحة الهامش اتسع ذلك الهامش أو ضاق).

وكما يقول ميشيل فوكو، الثقافة شبكة سلطوية تمنع من يخالفها من التعبير والتجذر في المجتمع ولهذا تحكم على من يواجهها أو يعارضها بالشذوذ والنقص<sup>(١)</sup>، أي أن الآخر يبقى خارج الثقافة. بناء على سابق يصبح إدراج أنماط معينة في الهامش فعلاً إراديًا أمالته الثقافة العربية على كل مالم يتطابق مع النمط الصادر عن طبقة معينة.

وفي محاولة أشد دقة لتعريف شعر الحياة اليومية - وهو الذي تسلط عليه هذه المقالة شيئاً من الضوء - أقول: إنه التعبير عن شعور أو تجربة ناجمين عن معاناة أو اعتناء أو حدث نابع من تفاصيل الحياة العادية ومسالك الإنسان فيها، وهو نمط من الشعر كثيراً ما يلتصق بخلفه الظل المبطنة بالسخرية، ويحتفي بحياة الإنسان البسيط، ويصور أثر الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيشها عليه، في قالب من لغة فصيحة سهلة التداول والجرمان على ألسنة العامة وإن دخلتها أحياناً بعض المصطلحات العامية تجسيدا لنهش البيئة التي تنبثق منها.

## (٢)

قد تكون الثورة التي حملها النقد الحديث على الأنماط الكلاسيكية أو المركزية أو على النسق الشعري الفحولي، واتجاه التجربة الشعرية المعاصرة إلى الخصوصية واستنطاق الذات وبث آعاتها، من جهة، ثم الحكم الجائر الذي أطلق على الشعر العربي بأنه شعر الرسميات والهلاط، أهم ما يحدثنا إلى أن نعيد النظر في نتائجنا الشعري ونبعث ما بقي في الهامش قرونا طويلة؛ لإدراكنا أنهم به الشعر العربي وحسب، ولا مجازة لما يظن العصر الحديث أنه قد أوجده وخلقته تأسيساً بختيار غربي معين (بإلزام من وجوده قرونا طويلة في بطون المخطوطات) بل حرصاً على تقصي الواقع الفعلي للثقافتنا، وعلى تحقيق فهم أعمق لكونياتها المختلفة والاتجاهات المتباينة، المتعارضة أحياناً، التي تشكلت فيها ومنحتها درجة عالية من الثراء والتنوع والحيوية. وحرصاً بعد ذلك كله على تلمس عناصر التشابه والتباين في هذه الثقافة في لحظات تاريخية مختلفة من تطورها وتغيرها. ثم إن ثمة جانباً آخر يتجاوز حدود الثقافة العربية وينسج بتلمس أبعاد لطبيعة التجربة الإنسانية في اللان تتكون في ثقافات مختلفة وفي مراحل تاريخية متفاوتة. وينبع ذلك في هذا البحث بالذات من ملاحظة أن شعر الحياة اليومية الذي تنقصه هنا في حقل تاريخية غابرة في الثقافة العربية يصبح في الشعر

الحديث، في العربية وبعض الآداب الغربية، واحداً من أكثر الاتجاهات غنى وانتشاراً ومن أشدها استثارة لإعجاب المتلقين وبشكل خاص الباحثين منهم والعشوين بنظرية الأدب والدراسات المقارنة.

فلما واجدوا عند ابن دانيال أو الجزار ما يشبه إلى حد كبير بدايات بدر شاكر السياب والأخطل الصغير وغيرهما. أغلب الظن أن بداياتهم الذاتية تلك تحسب تقليدا لتيارات الرومانسية والواقعية والرمزية التي استوردتها الشعر العربي، في حين أن مثيلات لها موجودة مدونة في بطون كثير من الكتب الموسوعية مثل خريدة القصر. تجدر الإشارة إلى أن بذور بدايات التحول في مفهوم الشعر ووظيفته إلى ما آكل إليه في النقد الحديث اليوم هي إلى حد ما بين أكثر ما أسهم في وصم عصر الدول المتتابعة بالانحطاط حيث أنها كانت فعلا بداية ذلك التحول!

يتنقد إدوارد سعيد الاحتكار الثقافي ويشير إلى أن فلسفة المركز/الهامش تنطبق عالمياً، فتعميم التجربة الأوروبية ورفعها إلى درجة النموذج يجعل كل ما هو غير أوروبي هامشياً وثانياً<sup>(١٤)</sup>. بالتالي قد يكون إغفال ما جاء به الشعر العربي -مركزاً وهامشاً- في سياق الثقافات عالمياً تجسداً لواقع الأدب العربي برمته في هامش الآداب العالمية التي اعتبرت نفسها مركزاً وكل ما عداها هامشاً.

لثة قضية أخرى قد يسهم هذا البحث في إلقاء شيء من الضوء عليها ومناقشتها، بل في إعادة صياغتها من منظور مغاير، وهي تسمية العصر المملوكي والعثماني بعصر الانحطاط أدبياً في حين أن معظم تراثه الشعري والنثري مازال مدفوناً في بطون مخطوطات تملاً مكتبات أوروبا. إن السعي لمعرفة سبب التسمية ومن أطلقها، والتساؤل عن كونها انعكاساً لتصور وجود عصور انحطاط في ثقافات أخرى (مثل ما أطلقه الفرنسيون على الأدب اللاتيني وحملته الدراسات الاستشراقية<sup>(١٥)</sup>)، أو عن وجوب وجود عصر انحطاط يسبق نهضة ما، أمر ليس وراءه من طائل وقد لا يحقق أي منفعة لدراسة الأدب، ولكن استنطاق النصوص المملوكية المفردة من عصر الانحطاط بالمقاييس النقدية الحديثة اليوم التي تعنى عنابة كبيرة وتحفظ بشعراء مثل فرانسيس بونج<sup>(١٦)</sup> شاعر الأشياء-الذي لم يترك ذرة أثارت فيه إحساساً في الكون إلا وصفها خارجياً وبما يتمثل داخله تجاهها- ويانيس رتسوس<sup>(١٧)</sup> شاعر الحياة اليومية -والذي يعتبر واحداً من أعظم الشعراء الذين أنتجته أوروبا في العصر الحديث- وترانسزمر الشاعر السعودي -الذي يبدو الواقع الكوني مرتبطاً بحياته اليومية وتصبح أشياء الحياة اليومية من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً هي مادة الشعر لديه، إضافة إلى عوالم الأنا على حد قول أدونيس<sup>(١٨)</sup> - قد يتصف الكثيرون من شعراء العصر المملوكي وقد يسير بتصورنا للشعر العربي في اتجاهات تبعده عن الرسمية التي طالما أطر داخلها.

إن العودة إلى قراءة الموروث، بل وقراءة مراحل شعرية بأكملها من منظور مختلف يفتقر عن الأنماط السائدة في دراسة الأدب القديم التي تعد كل ما يخرج على نمط محدد فيه انحطاطاً أو تقيراً نحو الأسوأ هي الهدف الحقيقي وراء هذا البحث، حيث نقرأ ونحلل شعر هذه المرحلة من مصادر الأساسية في قيمته الذاتية تجسداً لعلاقة الشاعر بنفسه وبالوجود والحياة المعيشة لا من منظور المقايسة على النموذج التقليدي السائد المرتبط بالباطل والمذموم والهجاء والرتاء. إن تنمية ثقافة الاختلاف وتقبل الآخر والامتنان بأن طرقاً ما في الانتعاش الثقافي لا ينبغي له أن يلغي الآخر أو يهيم به هي الأساس، خصوصاً وأن هناك تحولاً جوهرياً في مفهومي الشعر والنقد ووظيفة كل منهما لا من وجهة الانحدار والصعود بل من باب الاختلاف في علاقة الأدب بالمجتمع والسياسة والتفكير الانسانية فردية وجماعية. فإن كان الشعر المحتل به عادة يمثل ثقافة القصور والشعارات الكبيرة والخاصة من الناس فإن شعراً مثل شعر الحياة اليومية هو بفخر ثقافة العامة وأسلوب حياة الإنسان العادي بكل صدق. وكلاهما له حضوره القوي للتمييز في الشعر العربي، كما في الشعر في ثقافات أخرى. وكلاهما مكون من مكونات ما نسميه "التراث الشعري العربي".

ولا أجدني مبالغة إن قلت بأن كتابة تاريخ الأدب العربي قد تجد سبيلها إلى التغير والتجديد إذا اتبع لثل هذا النمط المغاير من البحث أن ينتشر ويعم. وكان كمال أبو ديب قد عبّر عن موقف مشابه حين قام بتحقيق رباعيات نظام الدين الإصفهاني ودرس ما فيها من أبعاد جديدة فقال:

"ولعل كشف عمله أن يجبرنا على إعادة النظر في تقويمنا للعصر العباسي المتأخر كله، ورفض النظرة السائدة إليه؛ ثم على إعادة تحديدنا لمرحلة الخصب في الشعر العربي بتوسيع حدودها بحيث تشمل، على الأقل، القرن السابع الهجري، ريثما يتم اكتشاف آثار شعرية جديدة قد تجبرنا، هي بدورها، على إعادة النظر من جديد في تطور تاريخنا الشعري. وعلى أسس كهذه فقط يمكن أن تكتمل لنا صورة حقيقية عن الشعرية العربية وتناميها عبر القرون حتى المرحلة الحاضرة، وأن نعيد صياغة التراث الشعري بحيث تتوثق بيننا وبين تيارات منه روابط أعمق، وتتناهى بيننا وبين تيارات أخرى منه روابط قائمة الآن".<sup>١٠٢</sup>

وتاريخ الثقافة والأدب في حاجة مستمرة إلى مثل هذه الشورات النقدية التي تعيد موضوعة الأشياء والنصوص والمكونات الثقافية الأخرى موضوعة جديدة بعد أن تكون قد خلخلت استقرارها لزم طويل في الوعي والممارسة. يحدث هذا، مثلاً، كما يقول إدوارد سعيد، مع مجيء المدرسة التفوقية (أو التفكيكية) بعد النبوية معثلة موقفاً نقدياً يهدم لبيبي.

فيعد التركيز على البناء النصي ووحده والتفكيكية للنصدي بأن النص ساحة تهيئات لا بيانات وتفسير للمعاني وأحسب أن هذا العنصر الهدي ضروري في الحالات التي

يكون فيها الموروث سيقاً مسلطاً يهْدُ انطلاق الفكر وبساطته وحرية. وتقوم الثورة النقدية بإزاحة القيم التقليدية المتعارف عليها ويصبح النقد اكتشافاً مستمراً<sup>(١١)</sup>.

### (٣)

تحاول هذه الدراسة أن تلمح بعض التمازج البسيطة من شعر الحياة اليومية الذي يقطن الهامش حالياً وتحديداً في العصر المملوكي. هذه التمازج مستقاة من مصدرين الأول هو كتاب خريدة القصر وخريدة العصر أما الثاني فهو الجزء المملوكي من الموسوعة الشعرية الإلكترونية والتي تشتمل على التراث الشعري العربي المحقق حتى بدايات القرن العشرين. وربما نتاج في المستقبل عملية جمع وتدوين للنصوص الشعرية البسيطة كشعر الحياة اليومية أو شعر التجربة الشخصية بين دفتي ديوان خصوصاً في ما يسمى خطأ "عصر الانحطاط" الذي نملك عنه حتى الآن صورة بالثة تماماً وتصور أن العرب ناموا قروناً من الزمان يجتزون أنفسهم وشعرهم خاصة ليستيقظوا على مدافع حملة ناهليون أو الثورة العربية الكبرى.

### مقدمات متأخرات

لعل الأجدد أن تحمل البدايات شيئاً من الاستقرار لما جاء حول الموضوع ومن ثم محاكمة نتيجة الاستقرار بناء على ما سبق عرشه وتوضيحه. يقوم الاستقرار على استطلاع ما سبقت كتابته من عصر الانحطاط وتحديداً عن شعر الحياة اليومية؛ أهميته، قيمته الفنية، وطرائق التحليل النقدية التي مورست على هذا النتاج، كما يشمل ذلك بحثاً تنظيرياً عن النظرة العامة للأدب العربي بصفته رسمياً أو معبراً عن آهات أمته، أو بكلمات أخرى، هل هو أدب العامة أم الخاصة أم أنه يمثلهما معا في فكر ونتائج المفكرين والنقاد العرب.

بين أهم الدارسين الذين أرخوا للعصر المملوكي محمد زغلول سلام في كتابه المكون من أربعة أجزاء، وفيما يلي عرض لما جاء فيه متصلاً بفكرة شعر الحياة اليومية:

تعرض محمد زغلول سلام لأدب الحياة اليومية من حيث المضمون وقال بأنه وصف للحياة العامة في السوق والشارع مشيراً إلى أنه قد برع جماعة من شعراء مصر في وصف الحياة العامة في الشارع والسوق والزحام فيه، ووصف بعض المهن وأعمال الباعة وصناعات الحلوى والخبز وما إلى ذلك، ووصف أحوال الناس من العامة في بيوتهم وما يعانونه من الفقر والحاجة<sup>(١٢)</sup>. أما من حيث اللغة التي استخدمها الشعراء في كتابة أشعارهم فقال في هذا: "يعرضون هذا كله بلغة شعبية وصور واقعية لا تكلف فيها ولا صنعة"<sup>(١٣)</sup>.

ثم بدأ يتحدث عن اللغة التي نظمت في شعر الحياة اليومية مشيراً إلى أنه قد برع في هذا الشعراء وتساوق فيه جماعة من شعراء الجوف ومن اعتادوا الأسواق والاتصال بعامة الناس كالشاعر ابن دانيال، وكانت له دكان يبيع فيها العطارة ويمارس طب العيون، ويجمع عنده أحياناً بعض زملائه من الشعراء أمثال أصحاب الجوف كالجزار يحيى بن عبد العظيم،

وأبن النقيب جندي الحلقة، والورق سراج الدين والحمامي، وقد ينضم إليهم ابن سيد الناس الفقيه الشاعر المحدث، والذي كانت تحلو له مشاركتهم في مطارحاتهم الشعبية، وقد يجتمع بهم البوصيري في شابه أيام كان يشغل إحدى الوظائف العامة، وكان يجسري في شعره على طريقتهم<sup>(١١)</sup>.

وفي محاولة منه للتقيد للمصدر الذي استقي منه هذا النمط يقول سلام: "ولعل هؤلاء الجماعة من الشعراء المصريين في أخريات القرن السابع حاولوا أن يتخذوا من أسلوب أبان وابن الرومي في الشعر طريقاً، أو شكلاً يعبرون به عن هزليتهم، أو هذه المنظومات الواقعية لحياة الناس في عصرهم، متلكرين أحياناً، وهازلين أحياناً، وماجنين أحياناً"<sup>(١٢)</sup>.

ثم قال أن من مقتضيات هذا اللون الذي عمد إليه الشعراء المصريون وغيرهم ممن سار على درب "معارضة الشعر القديم بشعر هزلي على الوزن والثقافة"<sup>(١٣)</sup>.

وبعد ذلك ختم سلام حديثه بالتعرض لشعر الحماق والمجون والإحماض - ولم يدرجه تحت شعر الحياة اليومية- حيث وضح أن هذه المصطلحات الثلاثة أجراها العلماء على ألوان من الشعر سادت في العصور المتأخرة، وإن كان شعر المجون قد عُرف منذ العصر العباسي موضحاً بأن "الحماق هو الشعر الهازل الذي يريد صاحبه به المفاكهة والإضحاك سواء أكان ذلك بالتقليد المضحك لشاعر قديم أو أن يبدع الشاعر قصيدة هزلية من نظمة دون تقليد"<sup>(١٤)</sup>. أما المجون والإحماض فهو "الحديث المكشوف عن الجنس بشكل يחדش الذوق ولا يطبق قراءته المره دون أن يبدي كثيراً من التقرّز والإعراض، فحديث الجنس فيه حديث مكشوف يخلو فيه الشاعر خوفاً ينزل به إلى السخف، كما فعل محمد بن الحجاج البغدادي"<sup>(١٥)</sup>. وأخيراً وضح سلام متأسفاً بأن "كثيراً من علماء العصر وشعرائه لم ينفوا عن مثل هذا الشعر"<sup>(١٦)</sup>.

أما بكري شيخ أمين فقد أشار إلى أدب الحياة اليومية في قوله: "ولما انتقلنا إلى الحياة العامة وجدنا الشعراء قد وصفوا أسوأ كثيرة من بيع وشراء وأسواق، وتجارات وصناعات، كما وصفوا بعض ما تحويه المنازل من أثاث وأفراد، وبعض ما يدخل هذه البيوت من إنسان أو حيوان، كما وصفوا الشيوخ الثقلان، أو رسوا العلماء والمصلحين، والفجار والفاسقين، ويبدو أنهم لم يتركوا شاردة أو واردة إلا وصفوها بأبيات قد تقل فتكون بيتين، وقد تكثر فتكون قصيدة كاملة"<sup>(١٧)</sup>.

ولا نجد بمدح أو يذم أو يعلق على النصوص الدرجة في هذا البند سوى ما يكون من شأن انحدار الشعر آنذاك.

ويقول شوقي شفيق في سياق الحديث عن عصر الدول والامارات "وكانت طبقة العامة في هذا العصر - كما في العصرين السابقين - تعاني من البؤس والجوع والفقر والمرض وكانت تكدح صياح سماء (...) فكان طبيعياً أن ينشأ فيها شغراء جوالون يرحلون في البلدان العربية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً طلباً لكسب ما يسدون به رمقهم"<sup>(١٨)</sup>. ويورد نماذج من أشعارهم.

ثم يقول "وواضح أن هذه الطائفة من الشعراء كانت شعبية خالصة، شعبية في حياتها المتواضعة، وشعبية في لغة أشعارها فهي أشبه بلغة الحياة اليومية وقد أكثروا في أشعارهم من ألفاظ العامة والطبقات الدنيا. وما يؤكد هذا الجانب من الصلة الوثيقة بين الشعر والشعب أننا نجد بين شعرائه طائفة من الأميين مثل الخيازي البلدي (...). ويدل على تغفل الشعر حينئذ في جميع الطبقات أننا نجد كثيرا من أصحاب الحرف في الشعب يسهمون فيه مثل الزاهي من شعراء القرن الرابع الهجري وكان قطناً وكانت دكانه بالكرك وكان وصافاً محسناً كثير الملح حسن الشعر"<sup>(١١)</sup>.

يقول محمد عبد النعم خفاجي "ومن الأغراض الشائعة في الشعر المصري في هذا العصر شيوخ الوصف للأشياء الفاخرة من مثل وصف سحرة أو مروحة أو سجاد أو دواة أو ما شابه ذلك"<sup>(١٢)</sup>.

ويقول عمر فروخ: "غلب على الشعر العربي في هذه الفترة شيء كثير من السهولة والرقية، ومن تناول الأغراض القريبة من النفس، مع شيء كثير من الصناعة والتأنيق، ومن الاكتفاء على التزيينات خاصة"<sup>(١٣)</sup>.

ويختلفي الحديث عن شعر الحياة اليومية تماماً من كتاب "أدب الدول المتتابعة" الذي يحمل بين دفتيه قرابة تسعمائة صفحة. وكما أن للحضور مدلولات فإن دلالة الفهيب كثيرا ما تكون أوقع"<sup>(١٤)</sup>.

يتضح بما لا يترك مجالاً للشك بعد استعراض آراء جل من تعرضوا لهذه الحقيقة الزمنية بالدراسة والنقد والتعميد أن شعر الحياة اليومية لم يكن ينظر إليه إلا كليون شعبي يمثل آهة مبثوثة بشيء من السهولة والبساطة التي لا تسترعي اهتماماً ولا تحتمل وقوفاً وتأملاً. وتلاحظ أن النظرة إلى هذا الشعر لا تتجاوز كونه راسماً لصورة البسطاء والفقراء ضمن مجتمعاتهم. ولم تسر دراسة هذا الشعر إلى أي بعد يلي البعد البديهي المباشر، كما أن النقد الحديث بمدارسه وأفكاره لم يستحضر أو يستدع لدراسة أي نص من هذه النصوص. ولم يكن التعرض لشعر الحياة اليومية إلا من باب إدراج كمنط موجود وقائم في تراث هذه الحقيقة وأنه يعد رافداً من الروايف التي تدعم فكرة الانحطاط مقارنة بالنصوص المراقبة في الأهداف والتناول. وأحسب أن إدراج الآراء المختلفة أو الاكتفاء بأحدها لا يغير شيئاً فالرواية واحدة متكررة عند الجميع ولا أدري أي أسطوانة مكررة تعاد مرة تلو الأخرى أم أن الواحد ينقل عن الآخر ويتفق معه دون استنطاق النصوص أو حتى محاولة إبداء رأي مغاير إزاءها. ويبسود أن النصوص المستخدمة للتعميد هي ذاتها في حين استطاع البحث لإعداد هذه الدراسة أن يجمع أكثر من مائة نص لشعر الحياة اليومية ومن مصادر محققة ولم تمنح الفرصة بعد للنظر في المخطوطات.

ثمة دراسة تجدر الإشارة إليها يقف صاحبها<sup>(٣١)</sup> وقفة طويلة ليفرق بين مايسميه الأدب العامي الذي يندرج شعر الحياة اليومية تحته، والأدب الشعبي الذي غالباً ما يميل إلى اللحن والتجديد في الأشكال الشعرية. يعلل الكاتب نشأة هذين التمتين من الأدب ويخرج كثيراً من الأمثلة عليها متناولاً نصوصه بشيء يسير من التعليق. ولعل هذه الدراسة وإن كان هدفها مختلفاً ونصوصها متلفة مع هذه الدراسة أن تكون الأكثر عمقا وإن لم تتعرض لإشكالية المركز الهامش.

أما حسين عطوان فقد ألف كتاباً كاملاً عن شعراء الشعب في العصر العباسي الأول جمع بين دفتيه كثيراً من نصوص الحياة اليومية ويؤبها من خلال الموضوعات (باب الفكر والبؤس مثلاً) عارضا لأسباب ظهور هؤلاء الشعراء ومترجماً لخمسة منهم وكأنه يجمع ديواناً لنمط شعري معين في فترة زمنية محددة<sup>(٣٢)</sup>.

أما في إطار صلاحية النتائج المتواترة لتمثيل الثقافة العربية فمن الغلائل الذين تعرضوا لهذه القضية أحمد أمين في مقال بعنوان (أدبنا لا يمثلنا)<sup>(٣٣)</sup> يقول:

"ذلك لأن الأدب إنما يعد صالحاً للأمة إذا كان مظهرها تاماً شاملاً صادقاً لحياتها الاجتماعية على اختلاف اشكالها، في جسدها وهزلها، في صبا أفرادها وكهولتهم وشيوخوتهم، في آلامهم وآمالهم، في حياتهم اليومية في البيت والصنع ودور اللهو والتمثيل، في حياتهم السياسية وحياتهم الاقتصادية؛ فإذا استطاع أدب الأمة أن يعا كل هذا الفراغ عُد أدباً صالحاً كافياً، وإلا لم يكف وحده".

ويقول في موضع آخر:

"ولست أحب أن يفهم من هذا القول أنني أنكر فائدة الأدب القديم وقيمته، فإن هذا القول لا يقول به عاقل، ولكنني أريد أن أقرر أن فائدته كفائدة كل أدب "كلاسيكي"، هو أدب استقرائي يُعنى به الخاصة من أهل الأدب لا العامة، هو أدب لدراسة التخصصين لا أدب للشعب عامة يعني به من يدرس تاريخ الأدب كما يعني المؤرخون بدراسة التاريخ".

وبعضي قائلًا:

"والنتيجة لهذا كله أن الأدب القديم ثقافة الخاصة لا ثقافة العامة، وثقافة العدد القليل لا الجم الفقير، وليس يكفي ذلك وحده في أداء رسالة الأدب العامة إذ هو لا يؤدي رسالته حتى يجد الناس فيه - عامتهم وخاصتهم - التعبير الفني عن مشاعرهم، والصورة الفنية التي تصور عواطفهم، وميولهم وأمانتهم، وأحزانهم وأفراحهم، وليس يستطيع الأدب القديم أن يحقق هذا الغرض إلا إذا عرض عرضاً فنياً جديداً".

تجدر الإشارة إلى أن هذه الملاحظة وإن لم تدعم بشواهد من الأدب لهي لب مهم لما تحاول هذه الدراسة تقديمه، عرض الأدب عرضاً فنياً جديداً وبعث النصوص التي لم تتلق حقها من الدراسة والنقد.

ليس شعر الحياة اليومية ولید عصر ما، بل هو قديم قدم الشعر نفسه، ولكن حمى التنظير بناء على أطر معينة ومقاييس الفحولة الثقافية التي فندت ما يصلح للمثن وما يتبع في الهامش هي بالتأكيد سبب رئيس في تهميش التراث الثقافي اليومي البسيط.

لم يكن تيار شعبنة الأدب أو الاتجاه بالأدب اتجاها بعيداً عن الرسمية تياراً مفاجئاً حادثاً في الأدب العربي، بل كان شأنه شأن أي تيار آخر: يظهر قوياً في فترة معينة ويخبو في فترات أخرى ويتفاوت بتفاوت الظروف والأمكنة. فهذا التيار ظهر في العصر الجاهلي والأموي والعباسي بشكل يمكن معه تلمس آثاره يوشوح، إلا أن تيار الأدب الرسمي كان المسيطر على النتاج الأدبي في تلك العصور، حتى أواخر العصر العباسي حين أخذ تيار أدب الحياة اليومية يحتل مكانة أوسع في الساحة الأدبية ويظهر بشكل قوي في نتاج الأدباء، ولكن الأمر الذي لا يمكن تجاهله هو استمرار هذا التيار على مر العصور وهو الأمر الذي يبدو رداً وضاحاً على وصف الأدب العربي بأنه أدب رسمي أو أدب مناسبات. استقراء سريع لنتاج العصور الأدبية للدون في المصادر الأساسية ينتج عشرات النصوص التي تجسد شعر الحياة اليومية لشعراء بعينهم مشهور وبعضهم مغفور. وفيما يلي عرض لبعض هذه النماذج الشعرية. يقول الجهمي وهو شاعر من شعراء العصر الجاهلي في نغم تحمله المفضليات<sup>(1)</sup>:

أمت أمانة صمتا لا تكلمنا	مجنونة أم أحسّت أهل خروب
مرت براكب مَلْهُوز فقال لها	ضربي الجميح ومسيّه بتعذيب
ولو أصابت لغالت وهي صادقة	إن الرياضة لأتنبصبك للثيب
يا بني الذكاء ويأبى أن شيخكُم	لن يعطي الآن عن ضرب وتأديب
أما إذا خردت خردني فعجربة	جرباء تمنع غيلاً غير مقرّب
وإن يكن حادث يخشى فذو علق	تظنّ تزيّره من خشية الذيب
فإن يكن أهلها حلوا على قفة	فإن أهلي الأولي حلوا بملحوب
لما رأت إبلي قلت حلّوبتها	وكل عام عليها عام تجنّب
أبقي الحوادث منها وهي تتبعها	والحق مبرمة راع غير مغلوب
كلّ راعينا يحدو بها جُمرا	بين الأبارق من مكرّان فاللوب
فإن تقرّي بنا عينا وتختفيضي	فيما وتنظري كروي وتغريبي
فأقني لعلك أن تحظي وتحتملي	في سحبل من مسوك الضان منجوب

هذا النغم يقوم على دقة شعورية واحدة تتركز في تجربة مستقلة من الحياة اليومية، فزوجة الشاعر قد أصابته نوبة يظنون غضبا من حالة اللقار التي تعيشها معه. ولعل البيت الأول يحمل دلالة صارخة على بساطة النغم وعفويته، أما اللغة فصنعية فقط في صناعي



مفرداتها لأنها مفردة من العصر الجاهلي إلا أن النص ينشع من حدث عرضي محدد يصور تشابك الوجود اليومي بين الزوج وزوجته في دفقة شعورية واحدة وشريحة فريدة ذات موضوع واحد. النص في أوله يحمل بعداً سردياً يوضح أبعاد المشكلة ثم يمتطيق لأسباب المشكلة في وسطه ثم يتحول في نهايته إلى خطاب موجه من الزوج إلى زوجته، وكأنا أمام مشهد خارج إطار الزمن والأهداف النبيلة السامية وشعارات الكرم والوفاء. نص بسيط في بنائه وتركيبه وأعدائه لا ينشغل بالوجود وإنما يرسم صورة اجتماعية أولية لرجل وامرأة من السواد. كما يرسم نمط الحياة البدوية وسبيل العيش رعيًا وطبيعة الترحال في أبسط صورها.

وفي العصر الأموي نجد أبياتاً لأبي الأسود الدؤلي<sup>١٥</sup> تصور ذات الجانب من الحياة اليومية بين زوج وزوجته، لا في إطار الإنفاق أو الغنى والفقير، بل في إطار السيطرة على مجريات الحياة هذه المرة. فمن هو صاحب الأمر الطاع والكلمة العليا في شئون الحياة المنزلية:

تُعَاتِبُنِي عِرْسِي عَلَى أَنْ أَطِيعَهَا	لَقَدْ كَذَبْتُهَا نَفْسُهَا مَا تَمَلَّتْ
وَقُلْتُ بَأْتِي كَسَلًا رَحِمْتُ بِهِ	رَحِمْتُ بِهِ يَا جَهْلَهَا كَيْفَ ظَلَمْتُ
وَصَاحِبُهَا مَا لَوْ صَحِيتُ بِعَلِيٍّ	عَلَى دُعَاهَا أَرْوِيَّةً لَأَطَعْتُ
وَقَدْ غَرَّهَا بَلِي عَلَى الشَّيْبِ وَالْبَلِي	جُنُونِي بِهَا جُنْتُ جِهَالِي وَخَلْتُ
وَلَا ذَنْبَ لِي قَدْ قُلْتُ فِي بَدءِ أَمْرِنَا	وَلَوْ عَلِمْتُ مَا عَلِمْتُ مَا تَمَلَّيْتُ
تَشْكِي إِلَى جَارِئِهَا وَيَنَابِئِهَا	إِذَا لَمْ تُجِدْ ذَنْبًا عَلَيْنَا تَجُنَّتْ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا خِفْتُ جَفَوْتُ	بِمَنْزِلَةٍ أَبْعَدْتُ عَنْهَا نَفْسِي
وَإِنِّي إِذَا شَقِيتُ عَلَى قَرِينَتِي	ذَهَلْتُ وَلَمْ أَحْبِبْ إِنَّا هِيَ خَلَّتْ

يحمل النص أبعاد شعر الحياة اليومية تمامًا في بساطته وأحادية موضوعه وتناوله، كما يعكس في ذات الوقت نمطاً ذكورياً بحتاً يصور الرجل صعب القليد محباً ما لم يلمس الحب جزء الكرامة، محنكاً حكيمًا ذا حظ من التعليم. وهذا النمط سيطر على مجرى الثقافة قروناً طويلة. ويعكس النص كذلك نمطاً نساءياً متكرراً تظهر المرأة فيه ثرثرة متشكية ذات حيلة وقليلة الحظ من العلم.

ويرسم النص أيضاً لوحة للتعامل بين الزوج والزوجة، فيصور لمرور الزوج ورفقه الانصياع لها من منطلق أن طاعة المرأة أمر مشين بالرغم من حبه لها، كما يدرك أن العلاج للمشكلات الزوجية يكون بالتهديد والهجر لأنه هو الحل الجذري انطلاقاً من مبدأ الحزم والقوامة.

العلاقة الشعرية تتركز في استحضار عدة تجارب بين الشاعر وزوجته وصوغها بطريقة تحصر النص في إطار هذه العلاقة وما يتصل بها من طرح للمشكلة والحل خارج إطار الرسمي والتكلف.

وفي العصر العباسي نجد أبياتاً لأبي الشمقمق<sup>(٥)</sup> يقول فيها:

ما جمع الناسُ لديّاهمُ	أنفعَ في البيت من الخبزِ
والخبزُ باللحمِ إذا نلتَه	فأنت في أمن من الثَّرزِ
وقد دنا الفطرُ وصبيأنا	ليسوا بذئ ثمر ولا أرزِ
كانت لهم عثرٌ فأودى بها	وأجديوا من لبن العثرِ
فلورأوا خبزاً على شاقٍ	لأسرعوا للخبزِ بالجمزِ
ولو أطافوا القفرَ ما فاتهم	وكيف للجائع بالقفرِ

تتجلى في النص ملامح شعر الحياة اليومية من حيث كونه يمثل حياة الطبقة العامة الفقيرة في روح من المرح والسخرية يبعث عليها الجوع وقلة ذات اليد. ليس هذا فحسب، بل يعد النص وثيقة اجتماعية لعادات المجتمع من حيث المأكولات الشائعة من تمر وأرز ولحم ولبن، كما يصور طريقة تناول حيث يؤكل الخبز مع اللحم، وتتشأ عادة تربية الأغنام في المنازل، وتزايد الإلحاح على مالذ وطاب في شهر الصيام. اللغة أيضاً مما بلغت النظر فما التمرز والجمز؟.

أما عن رؤية الشاعر للحياة فقد اكتسبها من تجربته اليومية وهو يلخصها في أول بيتين من النص. فالتوت هو خير ما يجلبه الشخص لأهله، والأمن من الهلاك مقرون بالحصول على الطعام. وهذه الرؤية التي خرج بها الشاعر هي الرؤية التي خرجت بها الطبقة الفقيرة بأسرها وهي تلخص حالة إنسانية عامة حين يصبح الإنسان عبداً للقوت ولا يرى همّاً سواه، فهو الحاجة الأولى للإنسان وتصبح المعادلة كما هي عند الشاعر: الدنيا تساوي القوت، فهو يمثل الاستمرار والاستقرار. قد يتبادر إلى ذهن أول وهلة أن النص زهدي يحمل موعظة لما بعد الحياة خصوصاً في الشطر الأول من البيت الأول، ثم يحمل الشطر الثاني مفاجأة طريقة حيث يتحول الجمع من جمع للمصاحات كما توحي الدلالة إلى كسب للقوت مثملاً في الخبز، وكأن الإنسان يبر نفسه وعياله بتوفير القوت ويصبح ذلك طقساً يستدعي الثواب في زمن يصعب فيه ذلك.

## مع التحليل والنظر

### (٥)

في محاولة أولية لاستنطاق شعر الحياة اليومية في الحقبه الملوكية وقع الاختيار على مجموعة من النصوص قد يسلط تنوعها وطريقة عرشها ومعالجتها نقدياً شيئاً من الشوه أو لعل هذا يعني بعداً تطبيقياً يدعم ما سبقته المحاولة لعرضه واستقرانه والتفسير له.

يقول ابن دانيال<sup>(٣٧)</sup>:

والشَّهْرُ شَهْرُ كُلِّ آيَاسٍ	العِيدُ عِيدٌ، وَالصَّيَامُ صِيَامٌ
لَكِنَّهُ بَعْدَ الشَّرِيقِ حَرَامٌ	وَالْفِطْرُ بَيْنَ بَعْدِ الْغُرُوبِ مُحَلَّلٌ
مَا كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَحُورِ طَعَامٌ	وَإِذَا دَنَا وَقْتُ الْمَحُورِ فَكُلْ إِذَا
الَلِيلُ الْبَهِيمُ إِذَا دَنَا الْإِظْلَامُ	وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ، وَالنَّهَارُ وَإِنَّمَا
هَجَعُوا فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ يَسَامُ	وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فَوْقَ رِحَالِهِمْ
ذَاكَ الْمُقَدَّمُ فِي الصَّلَاةِ إِسَامُ	وَإِذَا سَعَيْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا
يُرْعَى، وَمَنْ فَرَسَ الْبَسَاطَ غَلَامُ	وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّسْتَ مَجْلِسُ سَيِّمٍ

يتعامل ابن دانيال مع الكلمات والصور بحساسية ودقة فيعامل الطبيعي معاملة الخارق في إطار ما لا يمكن أن يسمى بالسخرية بل الأخرى أن يسمى بالمفارقة اللاذعة التي قد تكون علامة الشعرية الأولى عند الإنجليز (في شعر شكسبير مثلاً)، ولعلها أن تكون ركنا من أركان الشعر الحديث عربيته وغريبته. والمفارقة اللاذعة ليست هجاء ولا تهكما، وإنما هي ألطف وأدق وأخفى. ما الذي يجعل الشاعر يكسجج جاعدا في نظم مسلمات أولية وتفسير الماء بعد الجهد بالماء؟ أهو الحماق كما ساء نقادنا، أم أن هذا الشعر يقع في دائرة شعر الحشيشة كما أدرج في كتب تاريخ الأدب، أم أنه في سياق معاملة أكثر الأمور بهاءة وكأنها حقائق خارقة تومض ومضات خفية مستورة إلى أن قلّة من الناس هم من يمكنون للمحور طعاماً؟ وتقف "إنّا" الشرطية في هذا الإطار سيقاً للحقيقة مسلماً يلمس الجوع والفقر عند عامة الناس ومفتاحاً تلك به مغاليق النص على بساطته الظاهرة. لعل هذه الومضة وحدها ترفع الأبيات تماماً فوق مستوى الحماق والحشيشة وتنتج للنص آفاقاً للتأمل فيما وراء الظاهر المكتوب بلغة الحياة اليومية البسيطة.

إذا قبلنا باعتبار ما جاء في البيت الثالث مفتاحاً للنص تنهال علينا الحقائق الخفية الواحدة تلو الأخرى، فتصبح فرحة العيد بمالذ وطاب منتفجة تماماً لغيب اللائذ في غيباب الفكر، وتتحول الشهور كلها إلى مطلق أيام مجردة لا يميز واحدنا عن الآخر صنف لهذه أو دخل متزايد. ولعل هذا الواقع يصبح أكثر حدة وإيلاماً حين يصطدم بشهور الخير والكرم. يعضد وضعية هذه الشهور من حيث التميز بالأعطيات والكرم مفهوم إسلامي عميق يلتزم به الناس جلهم بشيد بالصيام والصلاة، وإن لم تذكر الزكاة وصدقة الفطر لأنها سوف تحصيل المعنى المبطن أكثر سطحية ووضوحاً. في حضور هذه المفاهيم أو الأعراف الإسلامية في المجتمع يستمر الفكر والجوع على منواله طوال العام فلا يحمل رمضان ولا حتى شوال أي تحسن في الحالة المعيشية. ليس هذا فحسب بل حتى في ساعات العمل المشني (وأغلب الظن أنها سخرة<sup>(٣٨)</sup>) التي يفترض أن تراعى شهر الصيام لم يحدث ذلك حتى نام الناس على

رجالهم إعياء أوفقوا. ويقف المتصود بكلمة "رَحْلٌ" وجمعها "رِجَالٌ" لغزاً آخر تحمله هذه اللقافة. עוד إلى لسان العرب لاستطلاع تجليات معنى "رحل" بحثاً عن دلالة تناسب السياق تكشف، فيما نقل ابن منظور عن الأزهري، أن الرجل للنساء دون الرجال وأن الكلمة إذ تنسب للرجال تعني البيت والسكن<sup>(٣٧)</sup>. لعل في ذلك عدداً من الأبعاد، أولها وأكثرها بداهة التنمية والإشراك وإظهار الأمور على غير حقيقتها لمن تعود دارج الأمور وعاش على سطحها، وثانيها أن الرجل كما ورد في مرادفة للمنزل يعني السكن بأقل متاع ممكن، وتحليل آخر يحمل الرجل بمعنى الركوبة فيكون استمرار العمل لئلا تنهار والقدر قد منعهم العودة إلى منازلهم فجمعوا راحة على رجالهم.

وتصرخ دلالة الطبقية في البيت الأخير في وجود السيد مقدمة إليه الرعاية من جهة مجهولة لعلها الدولة، وكان موازيين الأمور مختلة تماماً، فبدلاً من أن تعلي سيادته عليه الرعاية لمحتاجيها في الشهر الكريم بكل ما تحصل الرعاية من أبعاد، يكون هو المرعي المخدم في سطوة الأنا وإنكار الآخر بل وربما في استخدام ذلك الآخر لأغراض نفعية وحسب. السؤال الذي يطرح نفسه بالحاج هو كيف تدرج هذه الأبيات في إطار الحماق أو الحشيشة أو الإشحاك في حضور كل ماسبقت مناقشته وعرضه ناهيك عن المدارس النقدية الحديثة التي تتبنى مقاهيم البساطة لغة وعرضا وشخصنة التجربة وصدقها في التعبير عن الكيان النفسي والاجتماعي الذي انبثقت عنه؟

يقول شرف الدين البوصيري<sup>(٣٨)</sup>:

يا أيها المولى الوزير الذي	أيامه طابغة أمة
ومن له منزلة في العلا	تكل عن أوصافها الفكرة
أخلأ لك الغرّ دعشنا إلى ال	إدلاء في القول على غرة
إليك نشكو حالنا إننا	عائلة في غابة الكثرة
أخذت المولى الحديث الذي	جرى عليهم بالخيلة والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا بمن يهبرهم عبرة
إن شربوا فالبيتر زير لهم	ما برحت والبشرة الجرة
لهم من الخبيز مسلوقة	في كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزّوها في الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم	فتح ولا خبز ولا فطرة
فأرحمهم إن أبصروا كمة	في يد طفل أو رأوا ثمة
تخص أبصارهم نحوها	بشفقة تشبعها زفرة
فكم أفاصي منهم لوعة	وكم أفاصي منهم حسرة
كم قائل يا أيتنا منهم	قلعت عن الخبز في كرة
ما عبرت تأتينا بفلس ولا	بدرهم وبق ولا نغرة

وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ  
يَا خِدْمَةُ الْمَسْعَى إِذَا لَمْ يَكُنْ  
لَقَدْ تَعَجَّبْتُ لَهَا فِطْلَةً  
وَكَيْفَ يَخْلُو الطِّفْلُ مِنْ فِطْلَةٍ  
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمْ أَحْتَمَا  
وَأَقْبَلَتْ تُشْكُو لَهَا حَالَهَا  
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النَّسَا  
قُوسِي الْمَطْلَبِي حَقْلِكُ مِنْهُ بَلَا  
وَأَنْ تَأْتِي فَخِذِي ذَقْلَهُ  
قَالَتْ لَهَا مَا عَانَتِي هَكَذَا  
أَخَافُ أَنْ كَلَّمْتُهِ كَلِمَةً  
فَهَوَّلَتْ قَنَرِي فِي نَفْسِهَا  
فَاسْتَقْبَلَتْني فَتَهَنَّدَتْهَا  
فَحَقُّ مَنْ حَالَتْهُ هَبْ

تُخَذِّمُهُمْ يَا أَبَتَا سُخْرَةٍ  
يَجْرِي لَنَا أَجْرٌ وَلَا أَجْرَةٌ  
أَتَى بِهَا الطِّفْلُ بِلَا جَرَةٍ  
وَكُلُّ مَوْلُودٍ عَلَى الْبِطْرَةِ  
وَالْأُخْتُ فِي الْغُبَرَةِ كَالضَّرَةِ  
وَضَبْرَهَا بِنِي عَلَى الْعُسْرَةِ  
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا غُبْرَةٍ  
تُخْلِفُ مِنْكَ وَلَا قُفْرَةٍ  
ثُمَّ انْتَقَبَهَا شَعْرَةً شَعْرَةٍ  
فَإِنْ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَةٍ  
طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَةٍ  
فَجَاءَتْ الزَّوْجَةَ مُحْتَرَةً  
فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِأَجْرَةٍ  
أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ نَظْرَةً

هل يعد شعر الحياة اليومية هذا جنساً من الجذور التي استقى منها فن رسم الكاريكاتير بداياته، أم أن كليهما يشتركان في أن السخرية الساحكة من أكثر الظواهر الاجتماعية إيلافاً وبداهة؟ فيما يبدو أن الشعر من هذا القبيل والرسم الكاريكاتوري كلاهما ينهلان من مصدر ثر واحد ويترجم كل منهما للمعطيات الأولية بالطريقة التي يختطها لنفسه. النص يبدو جدياً في بداياته ويحمل طابعاً تقليدياً بحثاً حيث تقتضي حالة الفقر المدقع الشاعر التوجه إلى من يبيده أن يرفع غائلة الزمن من منطلق طواعية الأيام له. وربما ذكرنا ذلك بنمط من أنماط القهولة الشعرية حين يستوجب وضع المدح فوق الزمن حتى يتسنى له إيقاف فوائله. قد يكون هذا اللبداً مشتركاً، ولكن العرض وتسلسل الأفكار وميلها إلى الإضحاك والفكاهة تنأى بها عن أن تستقر في المدن بحال. ويمكن أن تكون هذه البدايات اعترافاً من البوصيري بأنه من طبقة تختلف عن طبقة الوزير تماماً، وبالتالي فهو ينظم على نمط مغاير تماماً لذلك الذي ألفه الوزير. وكما يقول لوكاش الماركسي التحرر الحقيقي من ريقه القوالب المحيطة لا يتم إلا عبر الوعي الطبقي<sup>37</sup>، فقد يكون البوصيري قد تحرر من نمط مدحي سابق ومال إلى الإضحاك بوعي طبقي كامل فقد يجزّل المعطاء مع تغير النمط. وقد ترجع أهمية النص، إذا نظرنا إليه بعيني ميشيل فوكو، إلى كونه يشخص قوة لها علاقة حاسمة بالحياة الجارية مع خضوع أصحابه بشكل غير واع لسلطة الخطاب العربي discourse<sup>38</sup>. عمل خضع البوصيري لسلطة الخطاب العربي مادحا الوزير ومشخصا الحياة الجارية من خلال أسرته واستخدامه مصطلحات اللغة الدارجة وأعراف المجتمع بمطامعه وأهواءه؟ يبدو أن هذا النص اكتسب قوة وأهمية من هذا المنطلق.

لقرأ القصيدة السابقة قراءة اجتماعية بحثة توضّح بعض ما شاع في العصر المملوكي، وتحديدًا في طبقة الفقيرة، من مطاعم ومشارب وأسلوب حياة وأنساق اجتماعية وعلاقات أسرية ودين وتقاليد وعملات. أما الطعام فورد منها ما يوجد وما يشتهي، أما الموجود على الدوام فهو الخبز وهو أشبه ما يكون بالخبز ينمو في الأرض فيقطف ويسلق، وأما المشتهى من غير المتوفر فقرأ فهو الخبز والقمح والتمر والكعك، ويأتي فقدان هذه المطاعم متزامنا مع أشد أوقات الحاجة لها في رمضان والعيد حيث تخرج زكاة الفطر قصدا ودقيقا وشعيرا اتباعا للسنة. والشاهد في الأمر أن فقدان اللذات من الطعام لا يعني عدم وجودها بل عدم القدرة على اقتنائها، مما يمثل بعدا حضاريا في طريقة الخبز والإعداد. ويكون ماء الآبار هو الوحيد المتوفر شرابا دون غيره رنقا حارا لخروجه من باطن الأرض دون أن يتسنى له المكوث في جرة ترسب شوائبه وتبرده بفخارها إذا ما داعبه النسيم. وتسترعي الانتباه كلمتان "النشرة" و"السخرة"، أما الأولى فإنها فيما يبدو أشبه بالقرمانات السلطانية التي يأتي بها رسول السلطان معلمة الشعب بخبر ما أو أمر معين (كما تفعل نشرة الأخبار اليوم) ولعلها على تكرارها وديمومتها تطالب الشعب الفقير بأن يعمل سخرة في تشييد القصور والمدارس والمساجد التي أولاه المالك أيما اهتمام، ومات الكثير من الناس إعياء وهم يعملون سخرة كما شهدت صفحات التاريخ. انتقالا من الأوضاع العامة للمجتمع إلى الحياة الأسرية في إطاره، ثمة رجل قليل المال كثير العيال يعمل سخرة بقوت يومه فلا طعام إلا الخارج من الأرض مجانًا. وتبدأ القصيدة ببلورة وضع العيال في غياب الأم فهم جوع ولديهم نيرة اعتراض واضحة على وضعهم الراهن ثم تزداد الأمور سوءا إلى أن تكاد تصل إلى السخرة السوداء حين تصبح الزوجة طرفا في المعادلة ويقض كيلها وتتصرف بما يبدو مدعاة للضحك لكنه من جوهر المأساة في النص.

ثمة أبعاد أنثروبولوجيا. للحياة الزوجية ونمط شخصية كل من طرفيها في النص، وليس هذا فحسب بل والنمط الذي تحمله الأعراف الاجتماعية تجاه الشرة وأخت الزوجة. وكان البوصيري قد تقمص دور المرأة وراح ينظم بلسانها ويفكر بطريقتها ويتصرف بما تلعبه عليها بنيتها الثقافية وبيئتها. وتلاحظ الروح الإسلامية واضحة في الأبيات وتجلو مفاهيم الصورة التصويرية مدى التأثير بالنص القرآني والمنة النبوية (تشخص، أولي عسرة، شهقة، زفرة، كل مولود على الفطرة...). مما يعكس أمرا هاما عن مدى التزام المجتمع بتعاليم الدين وإن اتخذت صيغة العادة والتقليد.

يحمل النص بعض الألفاظ التي يبدو استخدامها عاميا ليعتد الحياة في النص ويجعله نيفسا متجانسا مع الصورة الصادقة المنقولة عن الواقع، ويستخدم الكلمات المناسبة سواء للمرأة أو للطفل. النص أحادي الشريحة أحادي البعد وإن تعدد فيه الشخوص وتوالت الأحداث، ويكون الفصل هو تشخيص الفقر وأثره على كل فرد من أفراد العائلة باختلاف مرحلته العمرية، فالزوجة ساخطة مجاورة جاهزة للشجار أيما لحظة، والأبناء جوع يعوزهم

تفسير منطقي للحالة التي يعيشونها ولا يفهمون أن يعمل الوالد ويكد ولا يتمكن من تلبية أبسط الحاجات، والأب مابين لوعة وحسرة. ثمة ملاحظة أخيرة وهي غياب عاطفة الأمومة من النص تماما وكأن الفقر قد غفلها وطفى عليها.

زوجة أخرى في شعر يانوس ريتسوس يصفها الشاعر ليلة الفراق ويحتفي بوصفه لها

النقد الحديث:

(كأن الزوج يقيم أطاقر قدميه، وكانت الزوجة تعد له حقائب السفر، بهدوء، بصمت - ترتب قصصانه الواحد تلو الآخر ملايه الداخلية، متاديله، حينما خرج لبرهة إلى المر، سارعت والتقطت ظفري إصبعيه الكبيرين وخبأتهما في جيبها. حينما عاد الرجل كانت تكتس الأرشية بانفعال. في جيبها شعرت بأن الظفرين هلالان طريان شبقان حنونان لليالي وحدتها القادمة حين على جزيرتها تزمجر الريح)<sup>(٣٣)</sup>

لا يقتصر أن يغيب عن أذهاننا فرق العصر والثقافة والبيئة التي أفرزت كلا النصين لكن تظل الزوجة هي الزوجة محتفى بها لأنها ركن من أركان الحياة اليومية.

يقول الطغرائي<sup>(٣٤)</sup> المتوفى سنة ١٠١٥ هـ في صفة مائدة يدعو إليها بعض الأصحاب نوي الآداب، يصف الخوان والألوان، وأكل الشوي مع الدجج الشوية والسُكر على الأرز والغالونج:

فديك قد حان وقت الصُبح	ولاح الصباح ولم تحضر
وجاء العُشاء بما عندهم	وحت السُقا على السُكر
ومد القهطيل فوق الخوا	ن يلمع كالقمر الأزهر
وحان الصلاة على ابن الشهيد	فجىء على دقته يؤجر
وفوق المنصة مجلوة	عليها عرايس بن كسكر <sup>(٣٥)</sup>
بنات المؤذن ذاك الذي	يؤذن والصبح لم يسر
سُبين وعُرين بن بعدما	نُسخن فيالك من سُكر
فلما سبَّحَ اللهب ابتلين	بسواء موجشة السُنظر
أصابها الحُجْج مسنونة	نواشب منهن في الفجر
فزارت بهن سواد الجحيم	ثُرُجُ باللهب السُعر
فعضوبة سُمُرت كفها	إلى جيبها وهي لم تُسعر
ومثوبة البُظن في جوفها	كرات من الذهب الأحمر
وأخرجن منها إلينا يَسَد	ح سوق العُصاة إلى الحُضر
كان تماثيل كالفور	تضخ بالملك والغنبر
لُجِين إذا قشَرَتْهُ الأكف	وتبر إذا هي لم تُفسر
وقدَم طيخاننا ورّة	عليها لثام من السُكر
كما احتجب البدر تحت الغمام	قلم تتجل ولم تُسُكر

## نرى للذهان على وجهها

## عيونًا تدور بلا محجّر

فيما يبدو أن النص يتكّن على الرمز وإن كان يرسم صورة واضحة لملامح المآدب بهالحها وحلوعها وخبرها. الصورة وتفيضها مقارنة مع النص السابق، والطبقة القليلة مقابل المترقة. فتبدأ مراسيم الحفل في الصباح الباكر مصحوبة بشرب الخمر في حين ينصب الإيوان الذي يحمل مادية الطعام والتي تتنوع فيها اللقبات، والتي قد نجد لها مرادفات في موايد اليوم. ثم يأتي دور الأطباق الرئيسية ممثلة في اللحم أو لعلها الخرفان التي ذهبت وسلخت وتكتف بربط أطرافها مع جيدها وتبلت استعدادا للطبخ دفنًا في حفرة ملئت جمرًا.

ويقع استخدام صيغة المؤنث أقرب إلى الثقافة العربية في الإكرام حيث أن العرب تذيب العيل (الأنثى الرضعة) لأن لحمها أذ وأطرى نظرا لوجود الحليب، كما يحمل النسب جانبها إمتاعها فليس الطعام لسد الجوع وإنما للمتعة شكلا وطعما. لعل من البديهي أن المرأة والمتعة توأمان لا يفتقران فجاءت صور أصناف الطعام كلها مؤنثة إكنا لحس الاستمتاع، فمن العرائس إلى بنات المؤذن إلى السبايا العاريات. النص لا يستخدم صيغة المؤنث فحسب بل يجمد كل صنف من الأصناف نوعا من النساء أو جزءا معينا من جسد المرأة، الأصابع والبطن والجيد والوجه والعيون. وتتنوع صنوف إمداد الأطعمة، فالأوزة تتبل وتدهن بطبقة من السكر تجعل لونها غاية في الجمال بعد خروجها من الفرن. ومن الصور صارخة الدلالة تلك التي تصور الدجاج فهن بالضرورة بنات المؤذن وقد سيين كما تسمى الجوارى تاركات حظيرة الأهل والأصحاب ثم عرين سلخا وانكشفت مكونات أجسادهن وجوفن لتحشى أحشاهن. وتشكل الغزالة أيضا طبقا رئيسيا حيث يتم صليها استعدادا للطهي فتتضج من وعج النار دون أن تلبس النار أطرافها، وفيما يبدو أنها تقدّم مصلوبة يتقاطر ماء نداوتها ودمها مسكي الرائحة على الأرز من تحتها فيقتطع منها الطعام الجزء الذي يطيب له. وما أكثر ما شبهت النساء بالطباء!

الانفتاح والتأثر بثقافات أخرى بديهي في النص فاستخدام فكرة الصلب والحديث عن التماثيل التي تبدو أقرب إلى آلهة اليونان قد يعكس بعدا اجتماعيا ينم عن بون ثقافي شاسع بين طبقات المجتمع، فنحن عادة لا نجد تنوعا في منابع الصورة التصويرية ينم عن وعي بثقافات أخرى وحضارات مندلرة إلا في إطار طبقة اجتماعية معينة..

ولعل الناظر إلى هذا التراث الدقيق يدرك الحاجة إلى دراسة أنثروبولوجية للمجتمع المملوكي بمطامعه ومشاربه وعاداته من حيث ساعات تقديم الطعام وطريقة تحضيره وتقديمه. ليس خافيا في النص مدى الاعتداد بطريقة العرض والتقديم، التي نبعث منها جل الصور في هذا المقطع. هكذا يقب النص شاهدا حضاريا على جانب هام من جوانب الحياة يسترعي الوقوف والتأمل والدراسة.

وقد وردت أبيات أخرى في ذكر الطوائف:

شقاء نفسي لو به أسعفت  
تطايّف تعبّ في القم



يَشْهَدُ بِالشَّهْدِ لَنَا ظَاهِرٌ      وَبَاطِنٌ فِي التَّلَوْنِ وَالطَّعْمِ  
كَأَنَّهَا الْإِسْفَنْجُ فِي مَائِهِ      غَرِيقَةٌ فِي دُھْبِهَا الْجَمِّ

وهذه الأبيات لأبي اليَمن الرُّشيد "ابن عليّ بن المهنا"<sup>(١)</sup>. وهي استكمال للحديث عن الأنظمة والمذات حيث انقطع هنا النص السابق قبل أن يورد صنوف الحلو التي اشتهرت وذاع صيتها آنذاك. تتناول الأبيات ذكر القطائف، حيث يظلمها الشاعر ويمسكها بذكرها، ويصف شكلها، فهي مغطاة بالعسل، ولا يذكر محتوى الحشوة وإن أوحى كلمة الدهن أنها القشطة دون الكميرات وكذلك لأنه يحتمل الشهد على ظاهرها وباطنها اللذيذ الطعم ناعمك عن الطراوة التي تنم عن حداثة الصنع مشبهة الإسفنج في مائه. ولم تكن القطايف وحدها هي التي تصدرت عرش الحلويات وإنما شاركتها في نصوص كثيرة الكثافة.

وقد نستطيع أن نقطع بأن منبع الصورة التصويرية في النص يشير إلى المذهب الصوفي حيث أن مصطلحي الظاهر والباطن صوفيان صرفان، فالشاعر هنا يلعب على الظاهر والباطن في القطائف ولذاتها، فيذكر حلالة ظاهرها وباطنها وكأن في ذلك إشارة مغلوبة إلى شيوع المذهب الصوفي وتداوله بين العامة لغة ومضمونا. وتدعم الكلمات المختارة في النص هذه الرؤية تماما (شفاء نفسي، تعذب، يشهد..).

وربما نجد ملامح الجوع تظهر في هذه الأبيات، لأنه يطلب القطائف وكأنها شفاءً لنفسه، تلك النفس التي سقيمت من قهرها وإن كان المعنى مبطنًا يكون المذهب الصوفي شفاءً للنفس من ترهات الأحداث على تنوعها.

كذلك فإن ذكر "الإسفنج" ذلك الحيوان البحري، يطرح بعض التساؤلات عما إذا كان المعالكة على علم بتلك الحياة المائية والحيوانات البحرية بعمومها، وإلا فكيف يذكرها الشاعر مشبهاً للقطائف وسائلها بالإسفنج وماء؟ وإن بدا التشبيه شكلها بحثا إلا إنه يحمل بعض الدلالات الحضارية في باطنه.

ويقول شاعر في نص لم يذكر اسم قائله وإنما ارتبط بمجاعة أرخت بعام ٨٥٣ هجرية لما عز حتى الخبز<sup>(٢)</sup>:

قسما بلوح الخبز عند خروجه	من فرقه وله الغداة نؤار
ورغائف منه تروكك وهي في	سحب الثقال كأنها أقمار
من كل مصقول السوائف أحمرال	خدين للشونير فيه عذار
كالفضة البيضاء لكن يفتدي	ذهبا إذا قويت عليه النار
تلقى عليه في الخوان جلالة	لا تستطيع تحده الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم	وكان ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه	لو لم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه	لا حبة تبقى ولا معيار

لعل أكثر ما يلتفت في الأبيات ليس الغزل برقيق الخبز أو حتى رشاؤه وإنما شدة اتكائه السور العروضة على عالم المادة من جراء الحاجة الملحة. فالشاعر يرى في صورة قرص الخبز ذمها وفضة ودرهما ودينارا وكأنه يحلم بها ولا يملكها ولا يملك حتى الخبز شبيهها. روح الصخرية تغلف النص وتعطيه بعدا قد يكون أدهى للانسجام ثم تأتي الحقيقة المرة والحكمة البالغة المنصبة في نهاية الأبيات وهي أن النعمة لا تدرك إلا بعد فقدها. ما أشبه الفكرة التي انبثقت منها هذه الأبيات بتلك التي استخدمها فرانسيس يونج شاعر الأشياء واصفا رغبها من الخبز في قصيدته السمة "الخبز"، وإن كان الوصف عنده لا ينبع من مجاعة بل من حالة من التأمل.

(ما أجمل سطح الخبز، أولاً بسبب الانطباعات شبه البانورامية التي يولدها: كأنك قد حملت جبال الألب وطوروس والأنديز على راحة كفك... تلك الكتلة الهلامية العظيمة رُجَّ بها في النار من أجلنا، وعناك وهي تتصلب تشكلت وديانا وتلالا وبطاحا ووهادا وتموجات).

...وتلك الجزء الداخلي منه يشارك الأسفلنج في نسجه، أوراق أو أزهار تلتحم معا في كل فصل من مقاصله كتوائمين سياسيين. وحينما يجف الخبز ويعفن تذوي تلك الأزهار وتتكسر وتغزو الكتلة هشة سريعة التفتت. لنقطعه هنا فالخبز في أفواهنا لا ينبغي أن يكون موضعاً للاحترام، بل للاهتمام والاستهلاك<sup>(14)</sup> إنها محاولة متسرعة للترجمة ولكننا نخدم الغرض الذي من أجله سيقت، فأمثال هذه النصوص لا تسكن الهامش على الإطلاق مهما اختلفت بيئاتها والثقافات التي انبثقت منها.

يقول أبو الحكم المغربي<sup>(15)</sup> في المدح بجودة اللعب بالنرد:

وإن ولّمت كفه بالقصوص	فإنّ الفنى لديه فقير
تدين التشوش له والبنوج	وما لليكوك لديه ظهور

تحمل الأبيات قراءة واضحة لشبوع اللعب بالنرد في ذلك الوقت، بالإضافة إلى وجود تعبير للمسميات التي تحملها تلك اللعبة، وفي أكثر الأحيان يكون الحديث عن النرد حديثاً عن القمار، فبرمز للقمار بالنرد وتأتي دلالة الفنى والفقر لتعتمد ذلك المفهوم. وفي مدح هذا الشاعر للاعب النرد يوضح أنه يمتاز فيه لدرجة أن التشوش والبنوج تدین له ( والتشوش هي الرقم ستة في حجر النرد، والبنوج هي الرقم خمسة، وهي علامة الريح ) أما اليكوك ( وهي الرقم واحد في حجر النرد، وهي علامة خسارة غالباً ) فلا تظهر عنده أبداً.

هل هذه اللعبة هي الطاولة التي نعرفها اليوم أم سواها؟ وما السر وراء تسمية النرد أو الزهر بالقصوص؟ وهل يتم ذلك ويعتمد لطريقة من طرق الترفيه وقضاء الوقت فتح الضحبق

في العصر الملوكي؟ ألا يعد مثل هذا النص وثيقة تاريخية واجتماعية يحتفي بها العصر الحديث القتون بأوليات الأمور وتاريخها وظاهرة التأثير والتأثير بين الحضارات؟ كل ذلك ربما يسهم في غريزة النتاج الأدبي وإعادة التصنيف على أسس جديدة للشعرية. ولقد شارك الشطرنج أيضا ذلك النوع من الترفيه للوسوم بالتحدي والتكسب قمارا. فيما يلي نص يحفل بالتساؤلات.

ابن الوردي<sup>(١)</sup> يقول في الشطرنج:

لاعبُ شطرنجٍ علا نُسُهُ      بلقَبه الداخل غير الدخيلُ  
أخشى على نفسي منه فإن      قاطعني متٌ ولو كنتُ فيلٌ

الدمست مجلس السادة كما حكمت أبيات سبق عرضها وكان الشطرنج لطيفة اجتماعية أرقى من تلك التي تلعب الطاولة. ويقف اللغز وراء قوله (بلقبه الداخل غير الدخيل) فهل معناه الثقل المتبعث من حكر طريقة اللعب دون ثقل الجثة أم أن هذين من مصطلحات الشطرنج التي لا ادعي معرفة بها. وقد يفسر البيت الثاني شيئا من اللغز منطقيا حيث أنه معروف أن اللاعب حين يلعب متحركا حركة استراتيجية تقتل أفرادا من جيش المنافس يمنح دورا إضافيا، فإن أسك خصم الشاعر يزمام الأمور وراح يتحرك بجيشه سقط الحصان وإن كان فيلا ومات الملك وكان التمصر حليف الوصوف.

وهذه أبيات لفتيان بن علي بن فتيان بن شمال<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦١٥هـ في غلام شواء:

أنا في الهوى لحمٌ على وضمٍ لعا      عايَنتُ من بَرحٍ وبن بَرحا  
بمُشمَرٍ عن معصيةٍ مُزُنَرٍ      يهتَزُ بين النُفْيَةِ والخِيلِ  
غير اللباس، متى بدا لك وجهه      أبصرتُ فوق الأرض بدرَ سماءِ  
ما قد مُدِينَتُهُ يَقطعُ شوائه      إلا أَرانا أعجبَ الأَفساءِ  
ظهي لواحظه أشد موالعا      من شفرةٍ بيديه في الأحشاءِ  
يسطو على ما ليس يعقلُ مثلعا      يسطو بمُدِينَتِهِ على العُسلِ  
فاعجب لشواءٍ فعالٌ جفونه      في الناس ضعفُ فعاله بالشاءِ

الأبيات في الشواء وهي غزل من نوع الغلمانيات وقد شاع وانتشر، وقد نستطيع أن ندرس النص من نواح ثلاثة: الأولى والأكثر بداهة هي إنتشار الغزل بالذكر مكشوفاً فاضحا كما كان عليه في العصر العباسي، وقد شغل انتشار هذه الظاهرة كثيرا من دارسي الأدب والمجتمع. أما الثانية فهي شيوع وصف أصحاب المهنة آنذاك من شوائين وخياطين وكحالين، وكان المجتمع قد أصبح يسرع الخطى باتجاه المهنية والتخصص والصناعة. أما

ثالثها فهو احتمال شئيل أن باعث هذا الغزل داع من دواعي الجوع والقرقر فوق الغزل على صاحب الهنة ثورية عن المتشغل به من لحم مشوي. ومهما يكن فالتفسيرات الثلاثة ظواهر اجتماعية حملها ونقلها بصدق شعر الحياة اليومية. بغض النظر عن القيمة الأخلاقية للنص فإن الغزل يبدو فيه رقيقاً برغم أن الذبح والسلع والشواء لا تحمل من الرقة شيئاً، ولكن الشاعر ببراعة تامة استطاع أن يخرج النص من دائرة العنف التي يقتضيها السياق إلى آفاق أرحب تصور الوله والشفا في الحب ورشاقة الحركات بثقه مذهب بالألهاهب. وإن كان الحديث عن الجوع مرمي بعيد إلا أن رصف الكلمات في النص يوحي بها التلمع على وضغ، الدية لقطع الشواء.

يقول ابن دانيال<sup>(١٧)</sup> الموصل في مجلس طرب:

أَيْنَ زَمَانِي الَّذِي تَقْضَى	وَأَيْنَ جَاهِي وَأَيْنَ مَالِي
وَأَيْنَ عَيْشِي وَأَيْنَ طَيْشِي	وَأَيْنَ حُسْنِي وَحُسْنُ حَالِي
وَنَحْنُ فِي مَجْلَسٍ بَدِيعٍ	جُلُّ عَنِ الْوَصْفِ وَالْمَثَالِ
جَفَعَ فِيهِ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ	فَقَمَّ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ
فَالذُّكُّ دَفَّ نَدْفُ نَدْفٍ	وَالزُّمَرُ ثَلْثُ ثَلْثِ ثَلَاثِي
وَالجُنُكُ تَبْلُثُنُ تَبْلُثُنُ	تُصْلِحُهُ رَبَّةُ الْحِجَالِ
غَفَّتْ فَهَامَ الْغَوَاذِ وَنَيَّ	وَجَدَا إِلَى مَخْرَجِهَا الْحَلَالِ

مجلس الطرب يعنصره الأصيلة من خمر وموسيقى ونساء يتجلى في هذه الأبيات فغياپ الإحساس بالزمن وتساوي ذي الجاه والمال مع غيره علامة صارخة بالمسكر الذي يقلب موازين الأمور فيصبح الغني حراً من هموم الثروة ويثري الفقير محققاً أحلامه، كما قد تحمل الدلالة أيضاً نشوة يجتليها الحشيش في ذلك المجلس البديع كما يسميه ابن دانيال. تصدح الموسيقى فعلاً من جنبايات النص الذي يحمل حتى ترنيمات الآلات مصحوبة بالجرس الذي تحدثه الخلاخيل إذا ما تمايلت صاحباتها ورقصا ونشوة. نرى في الأبيات ما يمكن أن يسمى بمحاكاة اللغة للأصوات إن جاز لنا أن نستعير هذا المصطلح من فقه اللغة، حيث تمد محاكاة الطبيعة رافداً رئيساً من روافد اللغة. فالشاعر يذكر اسم الآلة مشغوعاً بصوتها وكأنه يزداد نشوة وطرباً بذلك أو يدون وثيقة تاريخية رياضية الأبعاد لمجلس السمير. ويأتي الفناء في نهاية المطاف فالكلمة بصوت عذب ولحن شجي لها قدسيته وألقها.

يدرج مثل هذا النص على أقرب الأحوال تحت ما يسمى "شعر الحشيشة" وإن كان كما أسلفنا وثيقة اجتماعية فنية من درجة عالية. الحديث عن الزمن في بداية الأبيات قد يوحي لأول وهلة بزوج من الحسرة على عزم مضى أو ثروة ذهبت أنراج الرياح أو جاه تبدد. ولكن الناظر إلى المعادلة بعقم الإحساس بالتجربة يدرك أن عمق النشوة يقلص الحياة الماضية إلى لحظة ويختزلها فيصبح الزمن غير الزمن الزباني وتصبح كل الحياة الماضية لحظة يهيمها

اللحظة الحاضرة عمراً يعاش في لحظة من الكثافة الحسية التي يحملها. وتفتح كلمة "الحلال" آخر النص الباب لأكثر من سؤال. هل لذلك دلالة تاريخية حيث عاش ابن دانهال في وقت حرم فيه الظاهر بيبرس الهندقاري صنوف الملاهي الحرام، أم أن النشوة تحمّل المحرمات حلالاً وتلقي كل الحواجز والروادع من هذا القيد، أو لعله باب جديد من أبواب سخريته اللاذعة من الأمور؟

## (٦)

لستخلص من استقراء التصوص وتحليلها أن شعر الحياة اليومية قد شاع واتسع في الفترة المملوكية وما بعدها، ولكنه لم يلق من الدراسة والاستقراء إلا النزر اليسير في إطار التقعيد لوجوده وغياب دواعي إيلاله جهداً ودراسة تمثيلاً مع معطيات النقد الحديث. يميز إدوارد سعيد بين مصطلحين، الأول هو ميراث الإنسان والآخر تحصيل الإنسان، الـ *filiation* والـ *affiliation* وكلاهما يمثلان نوعين من الاندماج الثقافي، فالأول على نمط العائلة وفيه تشديد على التدرج الهرمي، أما النمط الثاني فيجمع الأفراد على أساس حربي أو فكري أو سياسي بدافع التشابه النفسي والتقارب الفكري والهوية المهنية<sup>(١)</sup>.

لئن كان الموروث هرمي التدرج متمثلاً في أبي تمام والمتنبي وعائلة الشعر الرسمي، إن شعر الحياة اليومية حتماً هو النوع الآخر من الاندماج الثقافي. فلم يتمكن الإنسان المملوكي من مضاعفة العصر الذهبي بموروثه فاكثفي بحفظ وتدوين التصوص الموروثة، وقد تعرضت لهزة كادت تؤدي بها، والتفت إلى نوع آخر من الأداء على أساس طبقي حربي إلى حد ما. وإذا كان الحرفيون من طبقات المجتمع الدنيا آنذاك استمدى ذلك نمطاً عاماً من التعبير عن الذات وآهاتها ببساطة، وقد لا تكون البساطة والمباشرة إلا رفضاً للمكون الشعري الموروث في قوامه البلاغي، وقد تكون في جانب منها إلحاحاً إلى أن الطبقة الحاكمة التي يتوجه إليها بعض هذا الشعر لا تجد العربية أصلاً. لعل الجزء الهرمي من التراث الشعري قد قتل بحشا ودراسة وآن الأوان لدراسة وتحليل التراث الشعري القائم على الحرفة والطبقة الاجتماعية والانفعال بالحياة الإنسانية في أبعادها المادية الملموسة كما يمارسها الإنسان في علاقاته اليومية بالآخرين وبالعائلة التي يعيش ويموت فيها. ومن هذا المنظور تسقط الأطروحات السائدة عن الشعر العربي وكونه مدحاً وقرعاً وهجاء وفخر لا أكثر، وينشئ أمامنا مكوناً رائعاً من مكونات تراث عريق يتجدد ويبتكر ويظل في كل شيء من هذا وذاك مرتبطاً بتجربة الإنسان في وجوده المعتقد البهيم في العالم.

الهوامش:

(١) أود أن أشكر الأستاذ الدكتور كمال أبوديب على العناية التي أولاهها لهذا البحث والملاحظات القيمة التي أبداها فأثرت.

(1) Edward W. Said, *The World the Text the Critic*, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1983, P.P.6-12.

(2) عبد الله الغناتي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠١، ص ٢٢٣.

(3) كمال أبوديهب، الأدب العجائبي والعالم القروايشي، دار الساقي ودار أوكس، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١١-١٦.

(4) فريال غزول، إدوارد سعيد، العالم النص الناقد (١٩٨٣)، مجلة فصول للنقد الأدبي والعلوم الإنسانية، المجلد الرابع، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٣، ص ١٨٩.

(5) المرجع السابق، ص ١٨٨.

(6) عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٩، ص ١١-٢٣.

(7) Francis Ponge, *Selected Poems*, edited by Margaret Guiton, Faber and Faber, London, P. xi.

(8) Yannis Ritsos, *Selected Poems*, edited and translated by Kimon Friar and others, Brockport, N.Y, U.S.A, 1989, P.405

(9) [http://www.alriyadh.com/2005/06/16/article72578\\_s.html](http://www.alriyadh.com/2005/06/16/article72578_s.html)

(١٠) كمال أبوديهب، رباعيات نظام الدين الأصفهاني: نخبة الشارب وعجالة الراكب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٠.

(١١) فريال غزول، ورد، ص ١٨٧.

(١٢) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط ١، د.ت، ج ٣ ص ٦٣-٦٧.

(١٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٣-٦٤.

(١٤) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٥-٦٦.

(١٥) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٦-٦٧.

(١٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٦-٦٧.

(١٧) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٧-٦٨.

(١٨) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٣-٦٧.

(١٩) المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٣-٦٧.

(٢٠) بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي و العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ص ١٥٤.

(٢١) شوقي شفيق، الشعر وطوايفه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ط ٢، ص ١٥٤-١٥٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٦.

(٢٣) محمد عبد النعم خلجاني، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٠٩.

(٢٤) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٠٦.

(٢٥) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر الحديث، دمشق، د.ت.

(٢٦) أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٦٩-٩٣.

- (٢٧) حسين عطوان، شعراء الشعب في العصر العباسي الأول، مؤسسة الرسالة، عمان، ١٩٧٠.
- (٢٨) أحمد أمين، فيض الخاطر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، د.ت، ج١، صص ١٦٣-١٦٤.
- (٢٩) الفضل الصبي، الفضليات. تحقيق أحمد شاکر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٤٢، ص. ٣٥.
- (٣٠) التوسعة الشعرية الالكترونية.
- (٣١) شوقي سيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط٤، د.ت، ص. ٤٣٩.
- (٣٢) التوسعة الشعرية الالكترونية
- (٣٣) هي العمل دون أجر في مقابل الثقة وقد اشتهرت في عصر المالك إيجاباً من الحكومة لهذا، مراقبها.
- (٣٤) لسان العرب، ج٥، ص. ١٦٩.
- (٣٥) التوسعة الشعرية الالكترونية.
- (٣٦) فريال غزول، ورد، ص. ١٩٠.
- (٣٧) المرجع السابق، ص. ١٩١.
- (٣٨) ترجمة من ديوان المختارات ليهان رسوس، ورد، ص. ١٤٨.
- (٣٩) عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، الطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م، ج (٧) ، صص ١١٧ ، ١١٨ .
- (٤٠) كسكر : مدينة في العراق بالقرب من واسط و تعرف اليوم " قلعة سكر".
- (٤١) الخريدة، ج ( ١١ ) . ص. ١٠٦
- (٤٢) المرجع السابق، ج ١١، ص. ٢٠١.
- (٤٣) ترجمة من ديوان مختارات فرونتيس بونج، ورد ص. ٣٣
- (٤٤) الخريدة، ج (١٩) ، ص ٣٧١ .
- (٤٥) التوسعة الشعرية الالكترونية.
- (٤٦) الخريدة، ج ( ١٠ ) ، ص ٢٥٨ .
- (٤٧) المرجع السابق، ج (١٤) ، ص ١٦١

(48)Edward W. Said, op. cit, P.16

#### المراجع:

- الأصفهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر، الطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م.
- أيوب، كمال، رعايات نظام الدين الأصفهاني: نخبة الشارب وعجالة الراكب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
- أيوب، كمال، الأدب المجاثي والعالم العراقي، دار الساقى ودار أورانس، لندن و أكسفورد، ٢٠٠٧.
- أمين، أحمد ، فيض الخاطر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، د.ت.
- أمين، بكري شيخ ، مطالعات في الشعر الملوكي والعشاق، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
- باشا، عمر موسى ، أدب الدول المتتابعة : قصور الزنكيين والأيوبيين والمالكي، دار الفكر الحديث، دمشق، د.ت.
- باشا، عمر موسى ، تاريخ الدب العربي: العصر الملوكي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩.
- الجمال، أحمد صادق ، الأدب المامي في مصر في العصر الملوكي، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

خطاجي، محمد عبد النعم ، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠.

سلام، محمد زغلول ، الأدب في العصر الملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.  
الضبي، المنفلد ، اللغويات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٤٢.

شبيب، شوقي ، الشعر وطوائفه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، ط٧، د.ت.  
شبيب، شوقي ، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط٧، د.ت.  
عقول، حسين ، شعراء الشعب في العصر العباسي الأول. مؤسسة الرسالة، عمان، ١٩٧٠.  
الغلامي، عبد الله ، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٧، ٢٠٠١.  
مغزول، فرهاد ، "إدوارد سعيد، العالم النخب الناقد"، مجلة فصول للنقد الأدبي والعلوم الإنسانية، المجلد الرابع، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٣.

فروخ، عمر ، تاريخ الأدب العربي، ج٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩.  
الوسوعة الشعرية الالكترونية، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣.  
ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ج٥، ص١٦٩

Said, Edward W., The World the Text the Critic, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1983.

Ponge , Francis, Selected Poems, edited by Margaret Guiton, Faber and Faber, London.

Ritsos, Yannis, Selected Poems, edited and translated by Kimon Friar and others, Brockport, N.Y, U.S.A, 1989.

[http://www.alriyadh.com/2005/06/16/article72578\\_s.html](http://www.alriyadh.com/2005/06/16/article72578_s.html)



## نص وقرأتان



الطريق الذي يسلكه الإنسان في حياته هو طريق طويل ومعقد، مليء بالتحديات والمخاطر. في كثير من الأحيان، نواجه قرارات صعبة يجب اتخاذها، ونحتاج إلى توجيه ونص من الآخرين. نص وقرأتان هما من الأدوات التي يمكن استخدامها لتوجيه الإنسان في حياته. النص هو عبارة عن نصيحة أو توجيه من شخص ما، بينما القراءة هي عملية استيعاب المعلومات من كتاب أو مقال. كلاهما يمكن أن يكونا أدوات قوية تساعد الإنسان على اتخاذ قرارات أفضل وتحقيق أهدافه.

### سلطنة الفضاء: قراءة في "صحراء" لوكليزيو

محمد العبد

#### الشعرية والبناء السردي

### في رواية "صحراء" لجان-ماري ج. لوكليزيو

لورديس كارينيدو لوبيث / ت: هالة عبد السلام



# سلطة الفضاء قراءة في صحراء لوكلينزيو



محمد العبد

## ١- توطئة

جان - ماري جوستاف لوكلينزيو J.M.G.Le Clézio ( ١٩٤٠ - ) هو - في نظر مجلة " أقرأ Lire " - أعظم كاتب حي في اللغة الفرنسية. في ١٠/٩/٢٠٠٨ منحت الأكاديمية الملكية السويدية لوكليزيو جائزة نوبل في الآداب ، ووصفته اللجنة بأنه "كاتب الانطلاقات الجديدة، والغامرة الشعرية، والنشوة الحسية، ومستكشف بشرية ما وراء الحضارة السائدة". والحق أن التقاد يجدون صعوبة بالغة في تعريفه وتحديد توجهاته الأدبية الخاصة، وذلك لتنوع مؤلفاته ووفرتها. كتب لوكليزيو الرواية والقصة القصيرة والمقالات وكتب الأطفال. وقد بلغت أعماله نحواً من أربعين كتاباً. ونحن نلاحظ أن أعماله تعكس في مجملها اهتمامات إيكولوجية واضحة، كما تعكس تمرده ورفضه للفكر العقلاني الغربي. وقد كان لتجاربه في أفريقيا واقتنائه بعالم الهنود الحمر الذين أماط عنهم اللثام مبكراً والذين كانوا بالنسبة له تجربة غيرت حياته تغييراً كلياً الأثر البالغ في أعماله وأفكاره. يقول لوكليزيو في مقابلة معه: "ظهرت هذه التجربة في أفكاري عن العالم والفن وعلاقتي بالآخرين، كما غيرت في طريقة سيرى وطعامي ونومي، بل لقد غيرت في الطريقة التي أحلم بها"<sup>(١)</sup>. رحل لوكليزيو وهو ابن الثانية مع والده إلى تيجيريا ، حيث كان والده جراحاً بالجيش البريطاني هناك. وفي عام ١٩٦٧ سافر إلى تايلاند لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، ولكنه أعيد لاحتجازه على سوء معاملة الأطفال هناك، ثم أُرسل إلى المكسيك لإكمال فترة خدمته. وبين عامي ١٩٧٠ - ١٩٧٤ عاش لوكليزيو بين بعض القبائل المعروفة في بنما. وفي عام ١٩٧٥ تزوج بفتاة مغربية. درس لوكليزيو بجامعة بريستول بإنجلترا. وقضى سنوات عدة بين مدينتي بريستول ولندن. وفي

عام ١٩٨٣ أنجز أطروحته للدكتوراه عن تاريخ المكسيك القديم . قام بالتدريس في عدد من الجامعات في أمريكا وكوريا الجنوبية.

لقد كانت أعمال لوكليزيو ثمرة تجاربه الطويلة في السفر والترحال. وهو في ذلك مقارن باثنين من كبار الأدباء المعاصرين هما: روبرت لويس ستيفنسون R.L.Stevenson وجوزيف كونراد J. Conrad. عرف لوكليزيو بقدرته الفائقة على تصوير حياة المهشين في الفضاءات البعيدة النسية وقدرته الفائقة على تصوير حياة الإنسان المعاصر وما يعانيه من غربة في مجتمع غربي ألهمته المادة على حساب الروح. خرج لوكليزيو بفضاءات أعماله الروائية إلى أنحاء مختلفة من العالم، واتسمت أعماله من أجل ذلك بأنها ذات طبيعة كوزموبوليتانية Cosmopolitan وعرف بين أدباء عصره بـ "المواطن العالمي"، وصار رمزاً على ما يسمى بالوطنية العالمية Cosmopolitanism.

في عام ١٩٦٣ أصدر لوكليزيو روايته الأولى، وهي رواية "المحضر Le Procès Verbal" ونال بها وهو ابن الثالثة والعشرين جائزة رينود في الأدب. وقد أجريت معه مقابلات عدة، يتكلم فيها عن أصوله الموريشيوسية، وأفكاره عن العلاقات بين الأجناس، وعن آرائه في الرواية والأدب: "إن أعظم عن موضوعي أيسر عندي من أن أعير عمن أكون أو عما أعتقد".<sup>(١)</sup>

وفي عام ١٩٨٠ أصدر لوكليزيو روايته "صحراء"، فكانت من أهم رواياته التي ساعدت على شهرته خارج الثقافة الفرنسية، وكانت بترجمتها مع روايات أخرى مجالا كبيرا للتشاقف عبر الترجمة للإبداعات الأدبية. وقد رأت الأكاديمية السويدية المانحة للجائزة أن هذه الرواية "تقدم صورة رائعة لثقافة شائعة في صحراء شمال أفريقيا". من ناحية أخرى، كانت هذه الرواية مجالا للنقد والجدل. يتحدث ولهم تومبسون William Thompson عن الملحة التي يحظى بها القارئ، عند قراءته لأعمال لوكليزيو، لا سيما روايته "صحراء" التي يقود فيها الكاتب قراءه إلى رحلة معتدة وغنية ثقافيا على الجانب الآخر من كوكب الأرض<sup>(٢)</sup>. وترى بوتينا كتاب Bettina L. Knapp أن الشفافية transparency كاتمة في قلب تلك الرواية، وأنها الشفافية المرتبطة بتجارب لوكليزيو الأولية، وأنها تجارب شخصية أحيانا، ولكنها غالبا تجارب شخصية سامية. إنها انعكاس لحقائق حية وحارقة كاملة- في نفوس شخصياته. وهو لا يتعامل في هذه الرواية مع كائنات خرافية، ولا مع اللاهوت، ولا مع أبطال تاريخيين، ولا مع قوى خارقة للطبيعة. إنه يتعامل مع البربر، هؤلاء الناس الذين يقطنون شمال أفريقيا والذين زودتهم الصحراء بمعتقدات قوية والذين يعيشون خارج الزمن الحاضر<sup>(٣)</sup>. وفي إحدى المقابلات أشار لوكليزيو إلى بعض مما استرعى انتباهه في مثل هذه المجتمعات، وأنها تنتم بالتجانس مع الطبيعة harmony with nature ومع البيئة المحيطة ومع أنفسهم دون أي تمييز ديني. إنهم يتمتعون بالتماسك الاجتماعي. كان بعض النقاد قد اتهموا لوكليزيو بالسذاجة والبساطة والوقوع في خرافة "البرابرة النبلاء" noble savage، ولكنه دافع عن نفسه بأن ذلك كله لم

يكن ما يعنيه في روايته على الإطلاق، يقول لوكليزيو : "أنا لا أستطيع أبدا أن أقول عن أولئك الناس الذين عشت بينهم: إنهم برابرة أو متوحشون، ولا أقول عنهم أيضا إنهم نبلاء. إنهم يعيشون بمعايير أخرى وقيم أخرى"<sup>14</sup>.

تحكي تلك الرواية قصة محاربى الصحراء أو الرجال الزرق (نوى الأردنية الزرقاء) الذين طردهم الغزاة الفرنسيون وتعليقهم من الجنوب حتى الشمال واقتالوا منهم من اغتالوا وفر منهم من فر إلى الصحراء الكبرى. تصور الرواية رحيل هؤلاء الناس في قوافل وهم يوطهم إلى وادي "ساقية الحمراء" في شتاء ١٩٠٩ - ١٩١٠، وهم من أصول بربرية. تسير القافلة من الرجال والنساء والأطفال في طرق مطبوعة وعرة وظروف جوية صعبة يمانون الجوع والعطش والموت. وفي هذا السفر الطويل من "ساقية الحمراء" إلى مدينة "سمارة" ومدن أخرى يقابل أفراد القافلة جنود الصحراء، أو من يطلق عليهم في الرواية اسم "الرجال الزرق". وتسلط الرواية الضوء على الشخصيات المهمة والمحورية مثل "نور" والشيخ الكبير "ماء العينين". أحد الرجال الزرق وصاحب الكلمة وحلقات الذكر والابتهالات، فضلا عن "نعمان" المعجوز صائد الأسماك والذي سبق له أن عمل طاهيا في مدينة "مرسيليا" والذي لم يكف في الرواية عن حكاية سفره إلى إسبانيا وباريس ومرسيليا لبطلة الرواية "لا لا" التي كانت من أحفاد هؤلاء الرجال الزرق والتي خبرت الطرق ويطون الكثبان في الصحراء. ويتحدث هؤلاء جميعا عن الجنود المسحيين الذين دخلوا واحات الجنوب، وجلبوا الحرب إلى البدو، كما يتحدثون عن المدن المحصنة التي بناها المسيحيون في الصحراء والتي أغلقت الأبواب حتى شواطئ البحر. ويتحدثون عن المعارك الخاسرة وعن مات من رجالهم المحاربين الزرق، وعن التوافل التي لا حصر لها والتي اخترقت الصحراء إلى الشمال، وعن هؤلاء الجنود المسيحيين الغزاة عندما يظنون سراح العبيد ويطردونهم ناحية الجنوب، وعن اللصوص الذين دخلوا الصحراء في الوقت الذي دخلها فيه المسيحيون. في كل ساعة من نهار كانت تصل جماعات من البدو الرحل الذين طحنهم التعب والعطش والذين من الجنوب وبعدهم آثار جراح من المعارك ضد جنود الغزاة أو من قطاع الطرق في الصحراء. ويصل "نور" مع القافلة إلى مرتفعات الشمال حيث توجد المجارى المائية وحيث مدينة "سمارة" التي بناها الشيخ الكبير "ماء العينين" من الصقيح والطوب وفروع الأشجار بعد أن غادر قريته مع أهله. إنها الرحلة الكبرى نحو الجانب الآخر من الصحراء التي ذاق فيها هؤلاء بسبب بطش جنود الغزاة حرارة الشمس المحرقة فوق الصخور والرمال واستبد بهم الجوع بالوانه: جوع الطعام والأمل والتحرر.

كانت حكاية "لا لا" مع الراعى الصبي "الحارثاني" من أهم حكايات الرحلة الممتدة عبر الصحراء. ارتبطت "لا لا" بذلك الراعى وصارت "تزي بعينيه وتحس بجلده". ولد "الحارثاني" في جنوب الصحراء الكبرى وعاش بين سطورها. وعلى رغم أن "لا لا" لم تكن تخاطبه إلا باللغة التي يفهما: لغة الإشارة، فقد أحبته حبا قويا. ولكن العمة كانت تصيح

دائما إلى أن تصرف "لا لآ" عنه. وهي تحتج لذلك بأنه كان طفلا لقيطا غريبا عن البلدة وأنه لا يصلح لها زوجا.

تفرغ الرواية - بعد ذلك كله - لقصة رحيل "لا لآ" إلى "مرسليها"، إلى مجتمع آخر، وإلى فضاء آخر، وإلى حضارة أخرى. وهو دائما الحلم الذي يراود "لا لآ" والذي طالما دارت حوله الحكايات مع "العمة" والصادق المجوز "تعمان". كان الرحيل إلى مرسليها هو الحلم بالبلدان والمدن الكبيرة البيضاء ذات الأبراج الدقيقة كجذوع النخيل والتصور الحمراء المزينة بالنباتات والزهور المتسلقة المعلاقة. تحكى الرواية قصة الرحيل إلى تلك المدينة بحرا. الأرض تظهر بعيدا كبقعة في البحر، ولكن "لا لآ" لا ترى المدينة البيضاء ولا القصور ولا أبراج الكنائس. لم تر "لا لآ" سوى أرضة لا نهاية لها، لونها كالأحجار والأسمنت، أرضة تلتصق على أرضة أخرى. كان طموح "لا لآ" أن تعمل في مرسليها خادمة في منزل، ولكنها عملت خادمة في فندق رخيص لا يقصده إلا الفقراء. عانت "لا لآ" في عملها أشد المعاناة، ووجدت في هذه المدينة سجنا كبيرا. لقد هالها المتسولون والحانات ورياح الشر التي تهب في كل مكان. كانت "لا لآ" دائمة التفكير في الأراضي التي جاءت منها، وفيمن عرفتهم وعاشت بينهم هناك، لا سيما نورا والحاتراتي. وذات يوم تحرر "لا لآ" على الرحيل إلى بلدها دون أن تخطر أحدا.

لأنك أن رحلة "لا لآ" إلى مرسليها، إلى الجانب الآخر من البحر، إلى الشمال، سوف تذكر القارئ العربي بالرحلة من الوطن إلى بلد المحتل، والتي شغلت بها الرواية العربية في أعمال لأجيال مختلفة مثل توفيق الحكيم ويحيى حقي والطيب صالح. وربما كانت "صحراء" من أهم الروايات العربية التي تلتح أمام الدارسين في الثقافة العربية مجالا جديدا للمقارنة.

من ناحية أخرى، فإن القارئ العربي لرواية "صحراء" سوف يدرك أن لوكليزيو قد أفاد فيها من تجاربه الشخصية ومن رحلاته إلى كثير من البلدان والحضارات والثقافات. ولو لم يتح لوكليزيو لنفسه فرصة المعاشة الحقيقية للناس في فضاءات صحراوية، بما تعرفه من طقوس وقيم، ما استطاع أن ينقل لقائه في هذه الرواية الممارسات الدينية والحياة الروحية للأبطال، وما نعا إلى علمه أسرار علامات خاصة في ثقافتهم. كانت "لا لآ" مثلا قد عرفت في مرسليها كثيرا من الناس، منهم المصور الذي رغبته عند رحيلها أن تترك شيئا ما لكي تودعه به. ولما لم يكن معها شيء، فقد أخذت قطعة من الصابون، ورسمت بها العلامة المشهورة لقبيلتها والتي كانت تهمز إضمارا للمصور في باريس ١٩٥٥، لأن هذه العلامة هي "أقدم رسم تعرفه"، وهو يشبه القلب (الرواية ص ٣٦٤). يمكن للتدقيق في صورة هذه العلامة الأيقونية أن يراها قارئة على اختزال جوهر حضارة شرقية عربية مركزيتها الوجدان والعاطفة بإزاء حضارة أخرى عقلانية قد لا ترى في مثل هذه العلامة شيئا ذا بال.

## ٢- صحراء لوكليزيو بين السرد والوصف

من المعروف في نظرية أنواع النصوص أن مركز الضبط في النص السردى هو تصورات للأحداث والأفعال، وأن مركز الشيط في النص الوصفي هو تصورات للأشياء والمواقف. وليس لنص سردى أن ينشئ رواية بعيدا عن الأحداث والمواقف في آن معا. وتؤكد مناقشات الوصف التقليدية أهميته في تأسيس زمان ومكان للفعل يمكن تصديقهما، وفي تهيئة الفرص للكاتب ليشي الحالة النفسية ("كانت ليلة مظلمة وعاصفة")<sup>(٦)</sup>. ولا شك أن التداخل بين السرد والوصف - من حيث إن لكل منهما وظائفه في الخطاب - يجعل من البديهي القول بأنه ليس بالسرد وحده يحيا نص سردى روائى. في الوقت الذي يقوى فيه التمييز النظري بين السرد والوصف ما بينهما من حدود وفروق، نرى كثيرا من الروايات، ومنها صحراء لوكليزيو، تدفع بما لا يمكن حصره من السياقات اللغوية التي يمتزج فيها السرد والوصف حتى يصير كائنا بالآخر داخل النص. عزل الوصف عن السرد آراء ممكنة عليها في ضوء "الشهد"، ما يبدو في المشهد فعلا ملموسا سوف يعزى إلى فئة الحدث، وما يبدو في المشهد تصويرا للكيفية التي وقع بها هذا الفعل ينبغي له أن يعزى إلى فئة الوصف. ولنشرب مثالا على ذلك من "صحراء" المشهد الاستهلاكي للرواية:

"لقد ظهروا كحلم على قمة الكتيب، يكاد يحجبهم ما تشيره أقدامهم من شجار. وبدأوا يهبطون إلى الوادي في بطة يتبعون طريقا مطبورا لا يكاد يرى. وعلى رأس القافلة كان الرجال يرتدون عباءاتهم الصوفية ويخفون وجوههم بأقنعة من قماش أزرق ومعهم اثنان أو ثلاثة من الإبل، ثم يتبعهم الماعز والخراف يستحشها على السير بعض الغلمان. أما النساء فقد كن في المؤخرة، وكن كهياكل التفت بأفضية ثقيلة. وكانت جلود أزهرهن وجباههن تبدو أكثر سودا تحت أقنعتهن الداكنة بلون النملة.

لقد مضى هذا الرهط فوق الرمال دون شوشاء وفي بطة ودون أن ينظروا إلى أين يذهبون؟ وكانت رياح الصحراء تهب حارة في الصباح وباردة في الليل، والرمال تتشال من حولهم ومن بين أخفاف الإبل لافحة وجوه النساء اللاتي يمددن التمشيح الأزرق على عيونهن، في تحين يبكى الأطفال الرضع وقد لفوا بأردية زرقاء فوق ظهور أمهاتهم كما يجري الصغار. وتتن الإبل وتتنفس في صعوبة ولا أحد يدري إلى أين يذهب" (الرواية ص ٧).

يمكن القول بأن الأحداث التي اشتمل عليها المشهد السابق ثلاثة، وهي: ظهور أفراد القافلة - هبوطهم إلى الوادي - مضى هؤلاء فوق الرمال. وهي جميعا أحداث إن وضعت في مشهد مرئي أو متخيل متعاقبة في غير مدى زمني ملموس. ولكن هذه الأحداث الثلاثة في حركة السرد ليس لها أن تكون ذاتها مشهدا متكاملا. يتكامل المشهد - إذ ذاك - بالفعل والوصف. وعلى قدر ما يرى الفعل داخل المشهد بتفاصيله وملابساته ذات الأهمية تتبدى أهمية الوصف. فإذا طال الوصف - على نحو ما نرى في المشهد السابق - دل ذلك على أن الكاتب يحرص على توضيح الوصف داخل الخطاب إلى أبعد حد ممكن. إنه يصور لنا المشهد تصويرا، بل يخرجنا للقرى إخراجا. منطوقات ثلاثة إذن هي ما يمنع الأحداث في ذلك المشهد:

- " لقد ظهروا (كحلم) على قمة الكتيب".

- "وبدأوا يهبطون إلى الوادي".

- "لقد مضى هذا الرهط فوق الرمال".

باستثناء هذه المنطوقات الثلاثة نرى القطعة السابقة بأسرها وصفاً. وهو وصف تتعدد فيه الأنواع:

- فقد يكون وصفاً نحويًا: كالنموت: التعت المرد "طريقاً مطمورا"، والتعت الجملة "لايكاد يرى"، والتعت شبه الجملة "في بطنه". والأحوال لاسيما من نوع الجملة "يكاد يحجبهم ما تثيره أقدامهم من غبار".

- وقد يكون وصفاً بلاغياً، كالصور البلاغية الجزئية "كحلم، كهياكل" والصور البلاغية الكلية، وهي الأهم والأشيع في النموذج السابق وفي الرواية كلها، وذلك مثل: "وعلى رأس القافلة كان الرجال يرتدون عباةاتهم..." أو "يمدنان النسيج الأزرق على عيونهن...".

الحرص البالغ على التصوير استراتيجية نصية مهمة في "صحراء" لوكاتينزو. والتصوير ليس مقصوداً إليه لذاته. إذا كان الحدث في مثل تلك المشاهد مركزاً، فإن الوصف بجميع أشكاله دائره. نلاحظ في هذه الرواية أن الدائرة تتسع بقدر أهمية المركز أو جذته في حركة الحكى. ولكن الوصف يعني في الوقت نفسه توقف حركة السرد. وعلى قدر تكرار الوصف وطول مداه والاستغراق في للمة تفاصيله كان توقف السرد في هذه الرواية عن الحركة. لم يتوقف الجدل بين الحركة (في السرد) والسكون (في الوصف) إلا بانتهاء النص. ولكن سلطة الوصف هنا كانت تابعة لسلطة القضاء التي عاشت في كنفها الرواية. يبدو السرد في مثل المشاهد كأنه توقف عن الحركة وعن الكلام، وأن كل شيء قد تحول إلى فضاء. السكون الذي يفرضه الوصف قد يرى معادلاً للسكون الذي يفرضه القضاء الصحراوي ذاته. لقد نجح الكاتب في خلق موازنة بين العبارة والموضوع الذي تعبر عنه. يدعي أن ليس للعبارة أن تتعلق بنفسها. إذا كانت طبيعة الصحراء تعلق جريان الأحداث، فإن الوصف يعلق جريان الزمن. وهو لا يعلق جريان الزمن فحسب، بل يسهم - كما يقول جيران جينيت - في تعديد النص في القضاء<sup>(١)</sup>. في الصحراء الأيام - في الغالب - متشابهة "إن الأيام هي نفسها الأيام"، وربما انتظر الإنسان شيئاً، ولكنه لا يعرف كنهه، ومع ذلك فهو ينتظر. يمسى ويصبح وهو لا يتوقع تغيراً مهما في محيطه الاجتماعي ولا في البيئة المحيطة. ولعل ترد عبارات مثل: "فى بطنه" و"في رفق" و"في غاية الهدوء" ونحوها في عشرات السياقات ما يدعم سمات الرتابة والتكرار في ذلك الفضاء.

يتجاوز الوصف في رواية "صحراء" وصف الأحداث إلى وصف معطيات أخرى عوّل عليها السرد في وصف البيئة والتشخيص؛ كوصف المعطيات التكنولوجية والأثرولوجية التي تتخفف عنها الأنشطة والممارسات اليومية لأبطال الرواية وأبناء القبائل الصحراوية؛ كالعادات والطقوس الدينية، والأنشطة اليومية: كالرعى والصيد وإعداد الطعام والمعاملات، والمعتقدات الشعبية، والأساطير، ولغات التخاطب اللغوية وغير اللغوية، والعلاقات

الإنسانية وغيرها. أما التصورات عن الأشياء والمواقف، فهي في الرواية من الأهمية بمكان. النار والبحر والأماكن المجهولة والثراب من ناحية، والتصورات عن أسرار الوجود والحياة والموقف من الآخر الصديق أو الآخر العدو من ناحية أخرى، كانت جميعاً موضوعات فرعية مهمة للوصف. وما يلحظه نقاد لوكليزيو بشأن هذه الرواية، وعنايته بالبعد الإيكولوجي والأنثروبولوجي في حياة الشخصيات، مما لا يجادل فيه أي قارئ.

ولعل من أهم ما تجدر ملاحظته هنا أيضاً هو تغير منظور الوصف بتغير الأحداث. نرى في ذلك ما يطبع البنية الوصفية بقوة علاقتها بالسرد من ناحية، ويطبعها في ذاتها بالدينامية التي تخفف من وطأة الإحساس بالرتابة لتكرار الموصوفات من ناحية أخرى. الموصوف واحد ولكن منظورات وصفه متباينة، والقضاء واحد ولكن علاقات الناس والأشياء به متعددة الوجوه. خواء الفضاء الصحراوي في الطبيعة صار امتلاء بالوان الإبداع الوصفي في النص.

كذلك الحال مع عناصر القضاء في السرد. إذا كانت "صحراء" لوكليزيو رواية لم ترهقها الثقليات، فإن لكل عنصر من عناصر ذلك القضاء وجوه مختلفة وعلاقاته المتباينة التي يخبر عنها السرد. النار في سياق هي النار التي توقدها النساء لتجهيز الطعام لأفراد القافلة عند حكاية الرحلة، ولكنها في سياق آخر النار التي في المواقف والتي تتجاذب النساء حولها الأحاديث في ليل الرحلة. علاقة الناس بالنار في السياقين هي علاقة الانقفاع، ولكنه الانتفاع المادي في السياق الأول والمعنوي في السياق الثاني. في هذين السياقين كليهما يختصر الحكى الموضوع اختصاراً. ولكننا نرى النار في سياق آخر موضوعاً شافلاً ومهما للسرد داخل الرواية. تتوسع الرواية في الكلام عن النار ويصير السياق المحدود فصلاً كاملاً، نرى فيه نار "لا" ونار "نعمان المعجوز" وسحر النار، والنار التي تثير الرغبة في الجري والمصباح والضحك، والنار التي يرى الإنسان في ثنائها كل شيء، وما تحبه "لا" من النار، والنار الذي يشبه نور بعض الكواكب السائرة، ودوامات الدخان وما يدور حولها من حكايات.

### ٣. سلطة القضاء

القضاء في "صحراء" لوكليزيو هو القطب الثابت الذي يدور عليه شيرة من عناصر البناء الروائي الأخرى كاللغة والأحداث والشخصيات. يدعي أن كل رواية تريد أن تقول شيئاً ما. وهي تقول غير مجموعة من الأفعال والمواقف والعلاقات. وهي تختار لذلك كلمة ما تراه مناسبة من فضاءات. وعندما اختارت "صحراء" لوكليزيو الصحراء فضاءها الرئيس (فهناك فضاء آخر مهم تمثله مدينة مرسيليا) فإن هذا يعني أن الرواية سوف تجعل من ذلك الفضاء نقطة الارتكاز التي تنطلق فيها تلك الأفعال والمواقف والعلاقات في اتجاه إنتاج مقصديتها. ينتظم القضاء تلك الرواية من عنوانها حتى نهايتها. "صحراء" عنوانها بالتذكير للعموم، وأنها ليست إلا صحراء واحدة من صحراوات أخرى لم يفتح لها الإبداع الروائي بعد.



باب العناية مع احتمالية مطابقة ما بينها من تجمعات بشرية ومعاناة إنسانية لما عرفته تلك الصحراء التي جابها لوكليزيو جغرافيا وفنيا.

لم يشأ الكاتب بالطبع أن يقدم للناس كتابا في جغرافيا الصحراء من حيث هي أرض فضاء واسعة يندر فيها الماء ولا نبات فيها. لوكليزيو روائي؛ أي أنه يستند إلى ذلك الفضاء الصحراوي مهمة استيعاب الأحداث التي أرادت الرواية أن ترويها تخبيلا لا تأريخا. وهذا يعني بالضرورة أن الرواية سوف تتجاوز بالفضاء حد الإشارات المكتوبة للأحداث إلى الإشارات السمعية؛ من حيث هي أفعال ومواقف وعلاقات متنامية على مدار النص. الصحراء - الجغرافيا صارت في الرواية الصحراء - الأحداث والتجارب والقيم والثقافات المشتركة لأفراد وتجمعات بشرية متفاعلة في المكان. ولأشك أن للبعد الطبوغرافي الذي تختص به الصحراء تأثيرا مباشرا في طبيعة ذلك التفاعل وقوته وتأثيراته.

عندما يتجاوز الفضاء محيط تأثيره الخاص في النص حتى يصبح مؤثرا متصلا في سائر العناصر التكوينية داخل الرواية، تبدأ مؤشرات أولية لما نسميه هنا "سلطة الفضاء". هذه السلطة يحولها النص للفضاء بقدر موقعه من تلك العناصر الأخرى ويقوة سياسته لها نحو إنتاج دلالة كلية. وتبين لنا عملية تنظيم الفضاء أن هذه السلطة قد تزيد أو تنضال في فصول الرواية الواحدة. وربما انتقلت هذه السلطة على نحو ملحوظ إلى أحد عناصر التكوين انتقلا مؤقتا وفقا لمقتضيات السياق السردى. في الفصل الرابع مثلا تضامل الفضاء حتى اختزل إلى بعض مما يرتبط بهذا الفضاء الصحراوي من عناصر كالنار والزئبقر ونحوهما. ولكن هذه العناصر تتعلق في الوقت نفسه داخل السياق السردى بالتشخيص؛ وذلك أنها جميعا قد عرضت من زاوية "لا لآ"، وهي زاوية ما تحبه في ذلك الفضاء: "إن أجعل شيئا أيضا هو هذه الزئبقر. فهي في كل مكان في المدينة (ساعة) بأجسامها الطويلة الصغرى ذات الخطوط السوداء وأجنحتها الشفافة. إنها تذهب في كل مكان طائفة في تودة ودون أن تأبه بالرجال. فهي تبحث عن غذائها. إن "لا لآ" تحبها كثيرا. فغالبا ما تنظر إليها وهي عالقة في أشعة الشمس وفوق أكوام القاذورات أو حول موائد اللحم في حانوت الجزائر. فهي بعض الأحيان تقترب من "لا لآ" حين تأكل برتقالة، فهي تسعى لتهدئ على وجهها أو على يديها. وفي بعض الأحيان أيضا يلدغها أحدها في رقبتها أو في ذراعها مما تبقي ألم لدغتها لعدة ساعات، ولكن هذا لا يهم لأن "لا لآ" تحبها رغم ذلك" (الرواية ص ٨٤).

مثل هذه الأشياء الصغيرة التي يتسع لها السرد حكيا والتي يجتمع بعضها إلى بعض لتكون عناصر أولية في تكوين الفضاء بعيدا عن الفضاء ذاته أو بعيدا عن الفضاء القريب المفرد للأحداث المهمة، مثل هذه الأشياء تراها أشد ارتباطا بعملية التشخيص؛ وذلك أنها تشير إلى انطراط "لا لآ" في البيئة المحيطة انطراطا، وهو بعد إيكولوجي مهم في حياتها الخاصة انشغلت به الرواية.

أما مظاهر سلطة الفضاء في هذه الرواية، فهي متعددة، ولعل من أهمها تأثيره في لغة السرد، وتأثيره في عملية التشخيص. لا يمكن تحليل لغة الرواية والوقوف على سماتها

الخاصة ومعجمها الخاص بعيدا عن الغشاء. ولا يمكن رسم معالم التشخيص وتعيين استراتيجيته الخاصة في تلك الرواية إلا بمعرفة مواقع الشخصيات من البيئة المحيطة بمظاهرها الجغرافية والاجتماعية .

### (أ) الغشاء والتشخيص

علاقة الشخصيات بمحيطها من الموضوعات المهمة في تحليل الرواية. التشخيص عبر الغشاء من أهم ما يميز البناء الروائي في "صحراء" لوكليزيو. لقد تماهت الشخصيات مع الغشاء الرئيس للرواية وعناصره التكوينية إلى أبعد حد. تظهر سلطة الغشاء في علاقتها بالشخصيات في صورتين التئمتين رئيسيتين:

(أحدهما) الإشارات النصية الصريحة التي تربط ربطا بين شخصيات الرواية والغشاء الصحراوي أو عنصر من عناصره. (والأخرى) ما يستنبطه القارئ من ملامح ظاهرة أو باطنة تُرى بها الشخصيات بتأويل المنطوقات في سياقاتها النصية.

أما الصورة الأولى فهي تجمع بين التشخيص الفردي والتشخيص الجماعي . من النوع الأول مثلا ما يتصل بنعمان المجوز، كقول الكاتب: "لم يكن "نعمان" عاديا كسائر البشر، فهو طويل، نحيل، عريض المنكبين، بارز عظام الوجه، ولون بشرته كلون الطوب الأحمر" (الرواية ص ٦٨). أما النوع الثاني، وهو من سمات التشخيص في الرواية التي تجعل للغشاء مثل هذه السلطة، فمنه قول الكاتب: "إنهم رجال ونساء الرمال والريح والشمس والليل... يحملون بين أضلاعهم صلابة الغشاء" (الرواية ص ٩) أو قوله: "ليس هناك من شيء أو إنسان فوق الأرض. لقد ولدتهم الصحراء" (الرواية ص ٨).

وأما الصورة الأخرى، فهي من أهم ما يسم الرواية باللغة الشاعرية الموحية. هذه الصورة بتأويل منطوقاتها في السياق النصي ترى لها بعدين اثنين رئيسيين: أحدهما يرتبط بملامح وسمات خاصة في الشخصية، والآخر يرتبط بما يمكن اعتباره رغبة الكاتب في بيان الطبيعة الحقيقية لهؤلاء البشر الذين احتلت بلادهم. إن منطوقات مثل: "لقد أحب "نور" التجوم" (الرواية ص ٣٥) أو: "إن "لا" تحب كثيرا النظر إلى السماء" (الرواية ص ٧٥) أو: "تذهب "لا" لتجلس في الرمل على شاطئ البحر" (الرواية ص ١٢٢) أو "هنا النور جميل كل يوم فوق البلدة. ولم تنتبه "لا" قط لهذا النور حتى علمها "الحارثاني" كيف تنعم بالنظر إليه" (الرواية ص ١٠٨). يمكن تأويل النور والسماء والبحر في علاقتها بالشخصيات، وهي جميعا عناصر فضاء دالة على الصفاء والشفافية، بما يمكن اعتباره رغبة الكاتب في الكشف عن طبيعة هؤلاء البشر الذين احتلت بلادهم. "نور" و"الحارثاني" و"لا" وغيرهم ممن ألفت الرواية على شخصياتهم الضوء على نحو مباشر أو غير مباشر والذين أشرتهم الطبيعة طبيعتها نبلا ومسألة هم أنفسهم أحفاد الرجال الزرق الذين امتد إليهم بطش الغزاة الفرنسيين ورموا بهم في صحراء قاحلة. على هذا النحو، ينبغي للتشخيص أن يفهم في ضوء

معطيات الفضاء، كما ينبغي لوجهة نظر الكاتب في الرواية أن تفهم في ضوء معطيات الفضاء والتشخيص في آن معا.

## (ب) الفضاء ولغة الحضور

تبدو ملاحظ سلطة الفضاء على لغة السرد في هذه الرواية، لا سيما الفضاء الصحراوي الذي شغل معظم الفصول، من زاويتين اثنتين: أولاها ما يمكن تسميته بالتشكيلات البصرية، والأخرى التوظيف التداولي لبعض الإشارات المكتاتبة والزمانية.

### (أولا) التشكيلات البصرية

بدأت سلطة الفضاء الصحراوي على لغة الرواية إيجابية النتائج. صور شئى رسمتها الرواية بمواد وعناصر من ذلك الفضاء لاستحضار الأحداث والمواقف. يمكن أن نصرب أمثلة على ذلك بالعناصر التالية:

١- الصحراء: وهي في هذا السياق علامة على الهدوء والسكون. كان نور في زيارة مقبرة أبيه ومعه المرشد الذي جلس وظهروا متكئين على حائط القبرة، في حال من السكون والقياس، لا يعني ما حوله: "فقد كان تحت تأثير قوة أخرى وزمن آخر جعله غريبا عن كل ما يألفه الرجال. فربما لم يعد ينتظر شيئا أو يعرف شيئا، بل صار هادئا ساكنا كالصحراء" (الرواية ص ٢٨).

وربما تجاوزت الصحراء كونها علامة على الهدوء والسكون إلى كونها علامة على الخرس. الرجال والنساء في هذه القافلة التي راحت تهبط إلى وادي "ساقية الحمراء" وقد نال منهم الظما في ظروف صعبة "قد يهست شفاعهم ويستنتهم بفعل الجفاف. ملحنهم الجوع، فما استطاعوا الكلام حتى لقد صاروا خرسا منذ وقت طويل كالصحراء" (الرواية ص ٨).

٢- الحيوان والطير: وقد ينظر إليها من منظور اللون: فالوشم ذو اللون الأزرق يبرق على وجوه النساء كالجعران، أو منظور الصوت: فماء العينين رنّ صوته مدويا في حلقة الذكر مثل نداء ماعز بعيد ضالة، أو منظور الحركة: فالحارات التي الراسي ذو مشية مملوءة بالحيوية والرشاقة مثل الأرنب البري. وهو يعدو في سرعة كالكلب قافرا فوق الصخور، أو منظور الهيئة: فالرجال الأزرق حول مدينة "تزنيت" كحيوانات ضالعة، ينتظرون في مخابثهم من الأعراس وفي الأكواخ. وكل مرتل في حلقة الذكر التي يصورها الكاتب يصيح باسم الله في سرعة ماداً رأسه كبقرة تخور، وعروق الرقبة شبيهة بالحيال من تأثير الجهد.

٣- الصخور والحصى: وينظر إليها من منظور ما تنسم به من جمود، فنظرة رجل الصحراء الأزرق إلى "لا" نظرة ذات جفاف مرعب، "إنها نظرة جامدة كفتات الصخور التي تشرب وجهها وملابسها". إنه يريد الزواج بها كرها، ولذلك سمعت "لا" على

الرحيل، لأنه عاد عدة مرات إلى بيت "العمة"، وفي كل مرة يرمقها بعينه البراقنتين الجامدتين "كالحصى الأسود".

4- الآبار وحيون الماء: فالرجال المحاربون ذوو الملابس الزرقاء يسبحون على طريق لا نهاية له، يعشق الضوء الشعور لديهم بالدوار، عندما بدا ظل هؤلاء الرجال كآبار لا قرار لها. ينبغي لهذه التشكيلات البصرية التي عولت في بذائها على عناصر فضائية أساسية في الفضاء الصحراوي أن تضم إلى ما لاحظناه عن دور الوصف في تبليغ إيقاع السرد، ليكونا معا انعكاساً لاستراتيجية كبرى في إنتاج تلك الرواية، وهي الوامة الفنية بين الموضوع الروي واللغة التي ترويه.

### (ثانيا) الإشارات المكانية والزمانية

تستغرق أحداث الرواية ثلاث سنوات، هي السنوات الواقعة بين عامي ١٩٠٩ - ١٩١٢، أي أنها تحكي للقارى أحداثاً مضى عليها نحو قرن من الزمان. ولأن "صحراء" لوكليزيو رواية وليست كتاباً في التاريخ، ولأنها رواية تسعى إلى القارى بما تريد أن تقولها سعيًا، فإن الكاتب سوف يسعى هو الآخر إلى الوسائل التي تتيج لروايته تواصل أديبها فعلاً مع القارى. كانت تقنية الانتقال بالقارى إلى مكان الأحداث وزمانها معاً على رغم البعد المكاني والزمني من أهم تقنيات السرد في تلك الرواية. وقد اتخذ إنجاز هذه التقنية هنا وسيلة التوظيف التداولي للإشارات المكانية والزمانية.

يستخدم المتكلم الإشارات deixis في كلامه كثيراً. وهي تعني الإشارة باللغة pointing. كل شكل لغوي نستخدمه لإيجاز هذه الإشارة يطلق عليه في اللسانيات التداولية اسم "التعبير الإشاري deictic expressions". والتعبيرات الإشارية ثلاثة أنواع: الإشارات الشخصية Person deixis والإشارات المكانية spatial deixis والإشارات الزمانية temporal deixis<sup>(٦)</sup>.

في "صحراء" لوكليزيو كانت "هنا" من الإشارات المكانية و"الآن" من الإشارات الزمانية مما وقع في حشد هائل من المنطوقات. من المعروف أن هذه الإشارات تعتمد في تفسيرها على التكلم والاستمع المشتركين في سياق واحد، وأنها تستخدم - في الأساس - في التفاعل المنطوق وجهاً لوجه. "هنا" الدالة على القرب والتي تفسر في حدود مكان المتكلم أو مركز الإشارة، و"الآن" التي تشير إلى نقطة ما في الزمن (هي زمن منطوق المتكلم في محيطه) سوف ينقل بهما الكاتب إلى قارئه في ذلك الاتصال الأدبي المكتوب في هيئة رواية إلى سياق الأحداث نقلاً مكانياً وزمانياً. ولكنه بطبيعة الحال انتقال بالقارى إلى هذا السياق انتقالاً عقلياً mentally وليس انتقالاً مادياً أو جسدياً physically. ولنتأمل ذلك في المنطوقات التالية:

١- "هنا أبداً الرجال والنساء في سيرهم في الصف الأخير". (الرواية ص ١٩٨).

٢- "فإن الناس هنا في الدن ينظرون ولا يعملون في الحقيقة شيئاً" (الرواية ص ٧٧).

٣- "وهنا في هذا المكان وما حوله لا يوجد غير نور السماء على مرمى البصر" (الرواية ص٦١).

٤- "فهناك يعيش الحارثاني حيث لا يوجد سوى الشعابين والعقارب أو على الأكثر الأرواح الشريرة... أما هنا فالخوف هو خوف الفراغ والبؤس والجوع" (الرواية ص٢٢٩).

٥- "لقد وصلوا إلى هنا الآن صوب المدينة الكبيرة سمارة" (الرواية ص١٥).

٦- لقد وصلت الآن (أي "لا لآ") بالقرب من المكان الذي كان "تعمان المعجوز" يحب أن يجذب إليه قاربه" (الرواية ص٣٧١).

٧- "إنهم يتبادلون الآن حساء الدقيق الساخن مخلوطا باللبن والخبز والتتمر الجاف" (الرواية ص١٦).

في المنطوق ١ إشارة إلى مكان بعينه ينفيش للغاري أن يشارك الكاتب في معرفته، وهو مكان وقع فيه حدث بذاته، هو إبطاء الرجال والنساء في السير الطويل بوادي "ساقية الحمراء". وفي المنطوق ٢ يزيد السياق النصي الإشارة الكنائية تحديدا ("هنا في المدينة"). وفي المنطوق ٣ يضيف التكلم إلى ما سبق إحالة إشارة زيادة في التحديد الكنائي ("هنا في هذا المكان"). وفي المنطوق ٤ تقع "هنا" في مقابلة ساقية نسية مع "هناك". "هنا" المتكلم في سياق السرد إشارة إلى فضاء المدينة مرسيليا الذي انتقلت إليه "لا لآ" و"هناك" إشارة إلى الفضاء الصحراوي الذي انتقلت منه. هذه المقابلة بين الفضاءين استهدفتها الرواية ورمت بها إلى دعم حقيقة بعينها للناس كافة، وهي أن ليس للإنسان إلا وطنه، فإن شاع شاع. وفي المنطوق ٥ اجتمعت "هنا" و"الآن" في منطوق واحد، أي اجتمعت الإشارة إلى المكان والزمان جنباً إلى جنب. وهو منطوق ذو أهمية خاصة في سياقه، لأنه يشير إلى حدث مهم في الرواية، وهو وصول القافلة برجالها ونسائها وأطفالها إلى مدينة "سمارة" قادمين من وادي "ساقية الحمراء". وفي المنطوق ٦ تشير "الآن" إلى نقطة في الزمن يبدو لنا مداعها مقبدا زمنيا بوقوعها مع فعل في صيغة الماضي، ولكنها تبدو في المنطوق ٧ نقطة أطول مدى نسبيا من سابقتها لوقوعها في منطوق واحد مع فعل في صيغة المضارع.

تنوع "الآن" و "هنا" كما وكيفا كان من الوسائل اللغوية التناوبية المهمة لبناء الرواية على لغة الحضور. وقد صرنا نرى الآن من الروائيين العرب من يشع هذه الإشارات عنوانا لعمله، على نحو ما نجد في رواية عبد الرحمن منيف: "الآن... هنا، أو شرق المتوسط مرة أخرى"، وأراد منيف بذلك أن يبين كيف تقود حياة الإنسان العربي "هنا" و"الآن" كابوسا من الجنون والعرب والسجون.

الهوامش:

(١) انظر:

Interview with Jean \_ Marie Le Clézio. Conducted by Tirthankar Chanda Academic and Contributor to "Le Magazine Littéraire.

المقالة منشورة على شبكة المعلومات.

(2) المرجع السابق والموقع نفسه.

(3) Thompson, William: Voyage and Immobility. In: J.M.G.Le Clézio's Désert and la Quarantaine.

بحث منشور على شبكة المعلومات.

(4) Knapp, L., Bettina: J.M.G.Le Clézio's Désert: The Myth of Transparency.

بحث منشور على شبكة المعلومات.

(٥) مقابلة مع لوكليزيو، مرجع سابق.

(٦) مارتين، وآلان: نظريات السرد الحديثة. ترجمة حياة جاسم - محمد. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ١٩٩٨، ص ١٦٠.

(٧) جيشت، جيرار: سرية الفضاء الروائي. ترجمة لحسن أحمامة: ألفريفا الشرق. الدار البيضاء (٢٠٠٣) ص ١٠٤.

(٨) راجع في تفصيل ذلك مثلاً:

Yule, George: Pragmatics. Oxford Uni. Press (1996) P.8.

# الشعرية والبناء السردى في رواية صحراء رواية لجان ماري ج لوكليزيو

ف

لورديس كاريدو لوبث/ ت: هالة عبد السلام

عندما نُشرت رواية "صحراء" عام ١٩٨٠، وضعت حدًا فاصلاً في الإنتاج السردى الغزير لجان-ماري ج. لوكليزيو وقسمته إلى ما قبله وما بعده ظهور هذه الرواية. وتشمل فترة ما قبله بدءاً من روايته الأولى البارعة "المحضر الرسمي" Le procès verbal ١٩٦٣، التي يظهر فيها جلياً تأثير تيار الرواية الجديدة Nouveau roman، وهو الذي يتميز بهذه الكتابة المقتضبة والمحتدمة في صياغة عالم مفكك، والحكم عليه بنظرة لاذعة دون حلفة، والتي بدأت، على الرغم من ذلك، في دمع موقفه منذ عام ١٩٧٨ عندما نشر أعمالاً مثل "مونديو وقصص أخرى" Mondo et autres histoires أو "المجهول على الأرض" L'Inconnu sur la terre.

أما فترة ما بعده فهي تعني سكوتنا سردياً أكثر، حيث تم إثراء الخطوط العريضة للمغامرة - طبقاً لأجواء اللحظة l'air du temps في الثمانينيات في فرنسا- بصورة متوازنة مع عنصرين آخرين: الأول ما يمكن أن يطلق عليه صورة الذات، إذ أنها تقدم مغامرة داخلية، وجودية وفلسفية؛ والعنصر الآخر صورة الكتابة، حيث إنها تحوي تأملاً حول عملية الخلق الأدبي. وبالتمازج الدقيق بين تلك البناهيح الثلاثة، فإن "صحراء" حققت انزناً دقيقاً ما بين، إذا سمح لي اللعب بالكلمات على طريقة ريكاردو Ricardou، كتابة الشroud وشroud الكتابة<sup>(١)</sup>، وصيغت في نص بصوت مزدوج، فهو سردي كما هو شعري. والتأمل حول طرق مثل هذا المقتضى المزدوج ووظائفه، يشكل الهدف الأساسي لهذا العمل والذي يشير إليه عنوان المقالة.

وليس هناك أدنى شك أن البناء الأساسي لـ "صحراء" هو في أساسه بناء سردي، حيث تُروى لنا حكاية - ولكلّهما هنا حكايتان- وفقاً لمتابع مكاني وكذلك سببي<sup>(٢)</sup>. ولكن "صحراء"، في الوقت ذاته، تقدم هيمنة من الشعرية التي من خلال استراتيجية استطرادية

بعينها، أضفت على النص شحنة انفعالية أكبر، وصدى خيالياً أعمق، كما أضفت كثافة تصويرية خاصة رنانة وإيقاعية. كل ذلك أسهم في تشكيل عالم مروي خاص، منطلقاً من طريقة فريدة للحلم وللإفصاح عن العالم بصورة أكثر حرية وأكثر جمالا. وهكذا أصبحت "صحراء" ليس فقط رواية تحوي في طياتها بعض عناصر شعرية، بل نسا شعرياً طويلاً، مشاسكاً، يستعير من الشعر جزءاً كبيراً من منهجه ومن تأثيره (Tadié, 1978:7). وأيضاً المثير للاهتمام، هو أن "صحراء" تبدو وكأنها توالتقت بشكل دقيق مع تعريف القصيدة الذي قاله "جول سوبرفيل" Jules Supervielle في نصه الليتائلي: ونحن نفكر في فن شعري (En songeant à un art poétique) (١٩٥١:٦٢)، الذي يحاول فيه من اختلاف بين القصة القصيرة والقصيدة: القصة تتجه مباشرة من نقطة إلى أخرى، بينما القصيدة، كما صورتها دائماً، تتقدم في حلقات محورية (م)<sup>(١٠١)</sup>.

ولا نستطيع أن ندع هذا التعريف يمر هكذا من بين أيدينا دون أن نعلق عليه. فصحيح أن في كل من القصة القصيرة والقصيدة هناك ارتقاء، كما يشير إليه علم الدلالة (القصة تنهب والقصيدة تتقدم)، وذلك بفضل ديناميكية الوحدة النحوية الكامنة في كل نص، وإن كانت ذا طبيعة مختلفة في كل واحد من النصوص. وإذا كانت القصيدة كما يشير إليها "سوبرفيل" تتقدم وهي تصف حلقات محورية، فمن المؤكد أن "صحراء"، من وجهة النظر الشكلية، تقدم جناساً يعكس بصورة جليلة التتابع التكراري لمستوى الحكيم. فالجملة تتقدم بالرسم من الحشو المعجمي والدلالي، وقد تصل في بعض الحالات إلى حد المبالغة. وقد اخترنا مثلاً واحداً لذلك له مغزاه فيما هو مُشيد في زبادة متواصلة لإسقاط حروف العطف والتي تُبرز التيمات المفتاحية للنص كاملاً بدءاً من التعبيرات الطرفية الحصرية وخاصة، الهدف الدائم للنشاط التشخيصي: البحث عن الحرية.

لم ينسَ أحد المعاناة، العطش، حرقة الشمس فوق الحجارة والرمل التي لا نهاية لها ولا للألق الذي يتراجع دائماً. لم ينسَ أحد الجوع الذي يضني، ليس فقط جوع الطعام بل كل أنواع الجوع: جوع الأمل، جوع الحرية، جوع كل نقص ومصيب للدوار تحت الشمس، الجوع الذي يدفع للأمام في سحب من الأثرية بين حرق مهلهلة، الجوع الذي يدفع لتسلق منحدرات التلال حتى النقطة التي يهبط أمامه فيها عشرات بل مئات من تلال أخرى مثيلة (١٩٨٠:٥٦) (م).

وتعني<sup>(١٠٢)</sup> الرواية كما تعني قافلة البدو الرُحَّل، في بطنه ومشقة، في رصانة، لكن دون ارتياح، تلبية لرغبة هروب تحولت لبحث، نداء ألق حاضر حتى النعمة<sup>(١٠٣)</sup>، فأقرت الحدود بين الشكل الرثي وعمق اللامرئي.



والسلسلة التكرارية للنص هي في تناغم مع ديناميكية سرده. وتذكر أن النص يبدأ من خطي حكى في تناوب إيقاعي كامل، إلا أنها في تزامن زمني زائف: فمن جهة، هناك النص للحكي لهجرة وانهمزام الطوارق من قبل القوات الفرنسية عام ١٩١٢؛ ومن جهة أخرى، وفي تسلسل تاريخي أبعد من ذلك بكثير، نجد حكاية "لالا"، فتاة الصحراء الأصلية التي يتم بناء سرد حكايتها كرواية تعلم. في كلتا الحالتين هناك تحول مكاني، وهو علي الرض من خطاه الدائرية فإنه لا يعوق التنقل التقدمي للمركز كما حدث عند تجوال رجال "ماء العينين" عبر الغرب، أو مع سير "لالا" الشارد في مدينة "مارسيليا" حيث بدأت تسير وتسير، أولاً وهي تدور في حلقات حول شارع "السلة" حتى وصلت إلى البحر (٢٦٩: ١٩٨٠) (م).

والطرق في "صحراء" ليست مستقيمة، بل متعرجة. ترسم حلقات حلزونية ديناميكية حول أماكن منتقاة بعينها حيث يمكن فيها احتواء كل الوجود واكتساب بُعد مقدس. هذا هو حال "ساقية الحمراء" حيث الطريق دائرية تقود دائماً إلى حيث بدأت راسمة دوائر تزداد ضيقاً (٢٧٤: ١٩٨٠) (م). أو حالة مدينة "سمارة" التي أسسها الشيخ "ماء العينين" في القرن التاسع عشر، والذي طرد منها فيما بعد عقب الانتشار الاستعماري الأوروبي. أو حال القير الذي يزوره "تور" ووالده بكل تهجيل والذي تحول مركزاً لقلب الصحراء والنفشاً - قلب الصحراء، ربما، المكان الذي بدأ فيه كل شيء في الماضي حين وصل إليه الناس للمرة الأولى (٢٧٧: ١٩٨٠) (م). أو للمكان الذي تمعن فيه "لالا" النظر بكل قوتها إلى الرجل الأزرق، "السّر"، فتحس بالآ وجود للزمن. هذا الراعي الغريب ووجوده المتخيل الذي يظهر عندما تكون الشمس صافية والتور يسطع، فيلخص حرارة الصحراء وذكرى المحاربين، ذكرى وعثها ذاكرة أخرى سيطرت عليها دون أن تعرف (٢٨٤: ١٩٨٠) (م).

كل هذه الأماكن هي أماكن ساحرة، تشع قوة فتولد لغة جديدة قادرة على أن تشير إلى ما هو أبعد من الحقيقة، كما يوضحه نص "أشخاص من السحاب"، النص الذي كتبه حديثاً لوكليزيو مع "جيما" الفتاة ذات الأصول الصحراوية. وفي هذا النص يتم وصف قبر سيدي أحمد العروسي وكأنه: مكان مشحون بقوة غامضة، مكان صمت، وبالنسبة فهو مشحون بالحياة، حيث نجد لغة أخرى (لوكليزيو و جيما، ٨٠: ١٩٩٧) (م).

فنحن إذن بحاجة إلى لغة أخرى لكي نروي أسرار العالم في تناوذه الصارم مع الأنا. لغة تحوي قوة أكبر من الإحياءات حيث تتمدد فيها الكلمات مقصدتها الأولى. لغة قادرة على نسخ ونقل التاريخ والإشارة إليه كأنه أسطورة ونشر صدها على نحو غير محدد في سلسلة لانتهائية من الجمل يمتزج فيها الحلم والحقيقة، الحاضر والماضي، الدنيوي والديني. وبالفعل فهذه هي إحدى أكبر رهانات "صحراء"، من بين رهانات أخرى كثيرة ستتطرق إليها لاحقاً.

المحنا من قبل إلى أن طرق "صحراء" ليست بالستقيمة، وكذلك سطور جعلها. ومع ذلك، فهين ثنائيا انسياق الرواية الطاهر وتحت شكلها الجُزْأ، هي تقدم معماراً متقناً، بناءً

تأثراً، قائماً على وحدة الدلالة والفعل. هو التحام نووي يحدد كل عنصر فيه آلاف الأصداء المتنوعة في كل صفحة.

وكما أشرنا، كذلك، فالببناء السردى في العمل قائم على حكايتين متوازيتين متقابلتين، أي في طباق، وموزعتين على متتاليات تسع كبار تتعاقب في إيقاع ثنائي لا ينقطع إلا مع موت "رادكس" (المتتالية السادسة). وهذا المشهد وإن كان في ظاهره مشهداً مستقلاً تسفياً إلا أنه يقدم - على أصداء الفاعل، والشيء والرمز - صلات قوية مع الحكايتين: فـ "رادكس" من ناحية، أقام علاقة صداقة مع "لالا" ثم تصدعه سيارة فيموت أمام عينيها، هذا الجو المغمم بالحزن هو صورة مسبقة لأحد نصوص لوكليزيو اللاحقة والتي تحمل عنوان "الجولة" La Ronde. ومن ناحية أخرى، فإن موت هذا المتسول المارسيلى، في علاقة مقابلة مع "ماء العينين"، يدمج اللحظة التي يتركز عليها العمل، ويشير إلى حركة العودة: وهو عندما تقرّر "لالا" العودة إلى الصحراء، وكذلك عندما يبدأ الرجال الزرق في الانسحاب باتجاه الجنوب. وهذا التغيير في الأحداث الرئيسية يشير إلى ديناميكية الذهاب والإياب، التي تم الإعلان عنها بصورة توقعية في المتتاليات الأولى. وفي البداية، وخلال تراثيل "ماء العينين"، أحس "تور" في أعماقه بوخزة سريعة كحد الوسى، أحس بأقصى درجات القلق المبهم (١٩٨٠: ٩٣) (م)، واستشعر قدر قومه المأساوي. أما نعمان فمن جانبه أخير "لالا" بشي. سوف يتحقق: أنصروا. ستنعيبين. وسوف ترين كل هذه المدن ثم تعودين إلى هنا مثلي (١٩٨٠: ١٠٤) (م). وبعدما جابت "لالا" كل المدن التي حلمت بأسمائها وهي طفلة، رجعت مرة أخرى إلى الصحراء، حضور حتمي، لكي تلد بجانب شجرة التين ذات الأبعاد الكونية، تلد حياة جديدة يُضمن بها اليقظة والدوام.

أما إيقاع النص الذي يقوم على المحورين الحكائي والتمثالي، اللذين يحددان الأجزاء، فهو على النحو التالي A-B-A-B-A-C-A-B-A، حيث تشير A إلى الحكاية المأساوية للرجال الزرق، وB إلى حكاية "لالا"، C تمثل انقطاعاً في تطور الشخصيات وفي التيمة فيما يخص التناوب<sup>(١)</sup> الثنائي السائد وذلك عن طريق إدخال خط لحني جديد لا يدوم كثيراً.

يجدر بنا أن نفكر أن التتابع السردى قائم على تراتب وتنسيق بليغ كأنه عروض الشعر، حيث إن كل فصل من فصول الكتاب يشكل وحدة مقطعية، ويمكن داخل كل وحدة ترتيب مركب من الإيقاع. إذن يمكن لنا أن نتحدث عن وجود بنية غرويفية مركبة تتوافق بصورة تامة مع الشكل السردى.

وهذا ليس بالغريب لو تذكرنا أن الرواية قد استطاعت الدمج بين التتابع وتناسق النظم في بنائها السردى الأساسى، ولم يحدث ذلك فقط منذ "الرواية الحديثة" بل قبل ذلك بكثير، وإن كانت هذه الأخيرة هي التي أظهرته على العالم كله<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان النظم يخضع أساساً لهيكل صوتي، فإن الرواية بدورها تقدم حبشاً لا يسود فقط ترتيبها الاستطرادي، بل كذلك صورها السردية. ولا يكون هذا على المستوى الميكانيكي

اللغوي فقط، بل يمتد إلى المستوى الماكروبنائي كذلك. وبذلك وكما يشير "ج.ي. تاديه" J.Y. Tadié، يتم وضع: نظام من الترددات، والاستعمات، ومن التقابل يعادل على نطاق واسع الطابع والجناس والثقافية (١٩٧٨: ٨) (م).  
 ودراسة الإيقاع التقابلي الناتج من وجود حشو صوتي ونحوي، وكذلك دلالي وموضوعي، يحملنا إذن إلى إثبات ثنائي.

فمن جهة، يقدم النص ثوابت خاصة بمعمار غروفي نماذج من الثقافية والتكرار والتوازي و"الليثموتيف"<sup>(١٠٠)</sup>، فتتحول كل وحدة سردية مستقلة إلى مسودة "رومانسية"<sup>(١٠١)</sup> والذي يمكن أن نفهمه كما نفهم الشعر الملحمي الغنائي ذا الطابع الموسيقي. وذلك بالسيط - وأعتقد أنه ليس محض صدفة - هو العنوان الفرعي لعمل لو كليرز "قلب يحترق وحكايات أخرى" Coeur brûlé et autres romances. وهي "رومانسية" وليست حكايات أو متنوعات أو فصولاً أو أخباراً، كما أتى في عنوان القصص القصيرة التي تم نشرها من قبل<sup>(١٠٢)</sup>.  
 ونذكر في هذا الصدد، أنه في أحد "الرومانسية" هذا والذي يحمل عنوان البحث عن المغامرة Chercher l'aventure، يظهر صدى واضح لصورة "لالا" في شكل ناص ذاتي:  
 ويجن الليل ويأتي معه ذكريات البدو الرحل، شعب الصحراء وشعب البحر (...). إنها تنتمي لشعب البدو القديم، شعب الصحراء والماء والرمول، شعب الكهوف والوديان، شعب الغابات والأنهار. إنها تنزل في الليل. إنها تبعث (٨٧ - ٩٠: ٢٠٠٠) (م).

أما من الجهة الأخرى، فالنص يقدم خصائص تماثل خصائص المقطوعات الموسيقية. فمعنى اللحظة الأولى التي ينهني فيها العمل انطلاقاً من تعدد صوتي في تواز ومقابلة، فإن التفتحت الموسيقيتين الرئيسيتين - أو خطي الحكى - تعزفان كل على حدة في حرية، دون أن يتوركا تقديم عناصر مشتركة، تأملية سواء على النطاق الإيقاعي أو اللغوي أو التيمات. وإذا كان الأمر كما يقول ميشيل بوتور Michel Butor في "مساحة الرواية" L'Espace du roman: أن معظم المسائل الموسيقية لها ما يقابلها في نسق الرواية (بوتور، ١٩٦٤: ٤٢) (م). فعلى ذلك يمكن بالطبع قراءة "صحراء" كنوثة موسيقية وضعت بدءاً من تقنية طباق متقلبة وبناء دائري.

ويجب علينا ألا ننسى أن هذا العمل يقدم بالطبع شكلاً دائرياً واضحاً يصل بين البداية والنهاية. ففي المقام الأول، تظهر إيماءات وإشارات مكانية وتاريخية محددة: حركة خط السرد الأول، أو حركة التهمة الأساسية، تبدأ في وادي "ساقية الحمراء"، في المنطقة الإنسانية القديمة في جنوب المغرب والتي كانت تعرف ببلهر الذهب، خلال فصل الشتاء ما بين الأعوام ١٩٠٩-١٩١٠، والتي امتدت إلى ١٩١٢، الوقت الذي انهزم المتمردين في أغادير وتمركز فيه نظام الحماية الفرنسية. هذا التدقيق في الزمن والذي يستند إلى التاريخ يتعارض في الوقت نفسه مع التباعد الحلمي للبداية، حيث تظهر صورة الطوارق كما لو كانت حليماً:

لقد ظهرت كحلم على قمة الكثيب. يكاد يحجبهم ما تشهده أقدامهم من  
ضباب. ويدعوا يهبطون إلى الوادي في بطن يتبعون طريقاً مظلوماً لا يكاد يرى  
(...) لقد مضى هذا الرهط فوق الجبال دون ضوضاء، في بطن دون أن ينظروا  
إلى أين يذهبون (لوكليزيو، ١٩٩٧: ٧) (م).

وبعد أربع مائة وأربعين صفحة، تأخذهم النهاية في إعادة تكرار سردي للكلام:

في كل يوم، وينفس الإشارات يمحوون آثار نيرانهم ومخلفاتهم من قانورات  
متجهين نحو الصحراء، يؤدون صلواتهم دون كلام. لقد ذهبوا وكأنهم في حلم.  
وهكذا اختفوا (لوكليزيو، ١٩٩٧: ٤٣٩) (م).

والبناء الدائري لا يعني البتة الإنتهاء الفعلي للأحداث<sup>(١٠)</sup>، بيد أنه سألهم أنه سوف  
يعاد تكرار النص المنتهي. وزمن الفعل في الماضي المستمر يشير إلى ذلك، في تناقض مع  
تصريف الفعل المحدد في المضارع التام المركب الذي يبدأ به النص (لقد ظهرت) Ils sont  
apparus ولا يمكن للنص أن ينتهي، وذلك لما جاء في أحد الجمل الأخيرة التي تم إسقاط  
حروف العطف بها، وهو ما يمكن أن نجد فيه سدى للتناص مع "بودلير" Baudelaire:

لا نهاية للحرية فهي واسعة كالأرض، جميلة قاسية مثل الضوء، رقيقة  
كحيون الماء (لوكليزيو، ١٩٩٧: ٤٣٩) (م).

والنص يفتح ثم يغلق<sup>(١١)</sup> ظاهرياً حتى يصل إلى درجة التلاشي باللغة السينمائية، في  
صورة واحدة لحلم مستمر (وذلك بصورة صريحة من خلال المقارنة التي تتكرر مراراً على مدار  
الرواية: كحلم<sup>(١٢)</sup>). وضمنياً، من خلال عناصر بيئية: ضباب/ صور غير محددة/ بطن حركة/  
صمت). وتزداد الرؤية وضوحاً كلما توغلنا في النص، وكلما تقدمت القافلة إلى أن تصل إلى  
وضوح وشبه يعينان البصر، ربما كان مغرطاً في الواقعية، ثم يعود ويتلاشى رويداً رويداً.  
ولابد أن نبرز هنا أهمية عنصر الحلم والسياق في رؤية الأحلام ذات الطابع الوهمي  
الذي يرجع لشدة تأثر لوكليزيو بـ "لوتريامون" Lautréamont وشدة إعجابه<sup>(١٣)</sup> به، ولتعلمه  
منه الكثير من دروس الكتابة، وهو ما يصرح به لوكليزيو نفسه.

وما يجب إبرازه كذلك هو الوصول إلى أن تصبح اللغة أداة الحلم، من خلال التطور  
الكبير للمقارنات كوسيلة نحوية، إذ إنها الصورة المفضلة للتشبيه<sup>(١٤)</sup>.

و"صحراء" مليئة بالمقارنات، فهناك أدوات التشبيه (مثل، كـ) وهي أدوات الوصل  
الأكثر استخداماً، ثم يتبعها صيغ الوصف (يشبه هذا، يبدو مثل) ثم الأفعال (هذا كـ، ظهر

مثل). وفي بعض الأحيان فإن هذه الأدوات تشير إلى حركة كونية ذات طابع تحولي يصيب الإنسان كما يصيب العالم، ويصبح فيه كل شيء قابلاً للتبادل:

ومن بعيد، يتراقص السراب بين السماء والأرض، تبدو مدن بيشاء وأسواق وقوافل من الإبل والحميز محملة بالوؤن، وبأحلام لا تتحقق. وحتى الرجال كانوا يشبهون السراب، ذلك لأن الجوع، والعطش، والتعب قد أوجدتهم فوق الأرض القاحلة (لوكلينيو، ٢٤: ١٩٨٠) (م).

فربما لم يعد ينتظر شيئاً، أو يعرف شيئاً، صار هادئاً ساكناً كالـ "صحراء". صمت، سكون، غياب (لوكلينيو، ٣٢: ١٩٨٠) (م).

مما يُستشف من هذين المثالين أن الفضاء الصحراوي الذي تظهر عليه حركة الراوي التخيلية، تحول إلى ما يشبه الشاشة، اتمكت عليها صور تراكم بعضها فوق بعض مرات عدة. عالم خاص من الإبداع شديد الصغر، مكوناته الأساسية الزمان والمكان، ويعتمد على نظرة قوامها المجاز. إذ إن جوهر "صحراء" ليس تقديم فضاء زمني كان موجوداً من قبل، بل إبراز إحداثيات جديدة ولدتها استعارات الواقع. وهذا ما يشير إليه جاتون بيكون Gaetan Picon في كتابه استخدامات القراءة L'Usage de la lecture:

ما كان الجوهر ليكون إذا كانت الأشياء سجيئة لتتابعها الكائني وتشتتها الزمني. فالجوهري ليس لحظة من الماضي ولا نقطة في الفضاء، وعلى ذلك: فهو ليس إلا حركة مجازية للحظة الراهنة تجاه ما قد وُلّي، من هنا تجاه الآخر. فالجوهري مجاز الزمان والفضاء، هو استعارة الواقع (م).

ويأتي عنوان "صحراء" بصيغة التذكير ليخبرنا أن المحور الزمني الذي يقوم عليه العمل قد اكتسب بُعداً تجريدياً، كما أنه على الرغم من وجود أسماء مدن حقيقية عديدة يمكن الاستدلال عليها جغرافياً، فإنه أوجد ما يمكن أن نطلق عليه صورة متخيلة أصيلة. وتشكل "ساقية الحمراء" نواة المكان، مقصد الوصول، ونقطة رحيل كل الأشخاص الذين حكم عليهم بالتيه والهيام على وجوههم. هناك في تقاطع ظاهري تسكن ذاكرة شعب سلفية، وهناك تجد أحلامهم المأوى. ولكن ذاكرة الشعب التاريخية هذه، هي أيضاً ذاكرة كلامهم، إذ إنهم — وكما يوضح لوكلينيو صراحةً في كتابه "أناس من السحاب" Gens des nuages — على طول طريقهم، سيجدون وادي الساقية الفسيح، وهناك سوف يروون ملحمتهم، ويصيغون موسيقاهم، وينطقون شعرهم (م).

والمكان ليس فقط أصل الإدراك الحسي والتلازم، بل هو أيضاً أصل الكلمة والموسيقى. فالحفاظ على روح المكان (كما يقول بيوتور Butor) قادر ليس فقط على توحيد طاقة الكون

بصورة مثقلة أو على حشد آثار التاريخ، بل هو قادر على استعادة أسداء الكلمة المفقودة التي نثرتها الرياح وأخفتها كثبان الأجيال. الفضاء ليست له خاصية مادية، بيد أنه يُقدَّم من خلال أسلوب انطباعي يعتمد على لمسات جزئية منثورة بسيطة، خطوط تنتشر في انسياب متجانس. ويغلب على وصف هذا الفضاء وحدات دلالية مثل /فارغ/، /إغياب/، /سكون/، /عراء/، /ضياء/، فيساعد ذلك، من ناحية، في السبح في عالم الخيال المهبأ للمادة الفاصضة الفارغة، ومن ناحية أخرى، يساعد على إدراك الفضاء المعاكس حيث الرغبة في الهباء على الحياة يستلزم جهداً فوق طاقة البشر، وذلك كشرب من شروب التطهير. هو إذن نظام الـ"صحراء" الفارغ، حيث كل شيء جائز، حيث المشي بلا ثقل إلى حافة الموت (لوكليزيو، ١٩٨٠: ٢٣) (م).

وعندما نتناول الأمر من وجهة نظر البناء المجازي، فمن جانب، نجد أن سعة اتساع الرمال تقدم تجانساً مع اتساع المحيط في اتجاه المشاركة، ومن الجانب الآخر، مع تهويمات دائمة تتأرجح بين أرض-سما، ماء-أرض. فمن حولهم، وعلى مرمى البصر، هناك قسم الكثبان الرملية المتحركة، أمواج الفضاء التي لا يمكن معرفتها. (ص، ٢٣) (م).

فالـ"صحراء" كالبحر، بأمواج الريح فوق الرمال الجامدة مع زيد أصشاب حارقة، وأحجار مفلطحة (...). يميز الرجال في الـ"صحراء" وكأنهم سفل في البحر، لا يعرف أحد متى سيعودون (...). فيموتون شارقين في الرمال، يموتون ضياعاً كما تشبع السفن في العواصف، وتحفظ الرمال أجسادهم. (ص، ٢٠٩) (م).

ومن الجانب الآخر، وإن كان بصورة أقل، نجد تهويمات أرض-سما في صور كونية تقابلية تسودها الوحدة الدلالية /ضياء/ - وجود دائم على مدار الرواية - انطلاقاً من وحدات زائدة مثل شرر، يأخذ بالأبصار، يبرق، يتلأأ، وتنتهي بتشكيل صياغة مبالغ فيها غالباً: أرض فسحة كالسما، كم هي خالية، كم هي مشيئة (ص، ٢٠٩) (م).  
لازمة أخرى تتكرر في صور الفضاء الصحراوي هي /الصلابة/، إلى الحد الذي اكتسب فيه النظير العام خصائص معدنية انعكست، في تأثير تبادل مجازي شخص-فضاء، في لون بشرة الطورق وشعرهم اللحاسي، أو في نظرتهم المتقدة: (وجوههم وشعرهم اللحاسية، عيونهم السوداء تشبه قطرات من المعدن، وعكست أعضاؤهم صلابة وقوة الفضاء، إلخ.) (م).

وفي أول صور النص الخيالية، تشاركت الشخصيات مع الـ"صحراء" في صلابتها فبدت كاتبعات من المكان حتى جبولوا إلى تماثيل (لقد ولدتهم الـ"صحراء"):

كانوا رجال ونساء الرمال، الرياح، الضياء، الليل. كانوا يترامون كما في حلم على قمة الكثيب، وكأن السماء بدون سحب قد ولدتهم، وكانت أضلاعهم تحمل صلابة الفضاء (لوكليزيو، ١٩٨٠: ٩) (م).

وإذا ما نظرنا إلى الـ"صحراء" من خلال منشور يتماثل فيه المعدني والصخري، فإنها تبدو بيئة عدائية، قاسية. أما ثبات الصلابة ومعدنية المادة هذه، التي غالباً ما تكون في توازن مع هندسة تخطيطية للفضاء، فهي تتناوب على مدار النص في تفاعل عكسي مع الحياة والحركة، فيحدد إيقاع متعاقب للديناميكية المتخيلة التي تقتزن فيها أوقات احتدام مع أوقات أخرى يُخلّ فيها الكون في تجميد مفاجئ للصورة. وفي هذه الأحيان يحدث كما لو أن الحياة قد توقفت عن الحركة ومن الكلام، وتحولت إلى حجارة (١٩٨٠: ٢٨) (م). وعلى ذلك، فليس من الغريب أن يحدث شلل أو إلغاء للحدث الزمني في بعض اللحظات التي يكون الفضاء فيها إما «خارج الزمن»، أو أنه يشغط كل الحيز الزمني، فيبدو أمامنا تأثير من التراكم المذهل:

هنا، عند ساقية الحمراء، فإن الماضي ليس هو الماضي، لقد أضيف إلى الحاضر كسحابة تراكبت فوق سحابة أخرى. (أناس من السحاب، ٧٥) (م).

ويجج النجم بأشكاله من صور الاتصهار والتراكب على التناقض الكائني والفضائي. وخير مثال لهذا التراكب الفضائي هو تصوير رقعة "لالا" الجامحة في الرقص الباهيسي، حيث ترى كيف أن هذا المكان الخائض والمزدهم اكتسب بُعداً منفقحاً كالفضاء الصحراوي. وذلك من خلال دلالات واضحة، جليلة لا تدع مجالاً للشك وتنعكس موقف الراوي الأيديولوجي، والذي يتوافق هنا مع كلام المؤلف:

ففي الصالة الكبرى، لم تعد هناك كل هذه الحواشي، والمرايا، والأشواء. لقد اختفوا من دوار الرقص، تلاشوا. لم تعد هناك كل هذه المدن التي لا أمل فيها، هذه المدن الهوائية، مدن المتسولين والمعاهرات حيث الشوارع فخاخ. حيث المنازل قبور. لم يعد الآن هناك شيء من هذا (...) فالآن، حول "لالا حواء" توجد مساحة لإنهائية من الأثرية والحجارة البيضاء، مساحة حية من الرمال والملح، والكثبان الغامضة. كما كان في الماضي، بعد طريق الماعز، هناك حيث كل شيء يبدو متوقفاً، كما لو كنا في نهاية الأرض، تحت صفحة السماء، في مهب الريح (١٩٨٠: ٣٥٦) (م).

ورغبة "لالا" في استعادة زمن من السعادة قد ولّى - والسعادة هو أحد عناوين أجزاء هذا الكتاب - يسمح بالسيح في خيال الـ"صحراء" انطلاقاً من تراكب صور تتلاشى فيها حدود الفضاء الحقيقي كما يتوقف مرور الزمن وتكتسب اللحظة الراهنة بُعد اللاهائي. القصصية والبناء السردي

وهكذا فليس من الغريب أن يقابل الأماكن المميزة أوقات مميزة تحلق وقلقات من النشوة في حركة الأحداث. فهي تلك اللحظات التي يتشارك فيها مع العالم كلية في وقت بعينه، في سراب حلم من الوحدة والشمولية، التي تعتبر من أهم خصائص أعمال لوكليزيو، وحيث الشخص يحاول ببساطة أن يستحوذ على الأرض، وأن ينتزع "نور" السماء، ويلتهم كل شيء: الفضاء، الزمان، الأرض، وحتى نفسه (لوكليزيو، الأرض المحبوبة، ١٠٦ م).

ومن بين الأمثلة العديدة التي تقدمها "صحراء"، نتوقف عند اللحظة التي يتطلع فيها "نور" إلى القوة الأرضية التي تعيده إلى زمن سحيق وذلك عندما كان منحنيًا على الأرض بالقرب من القبر المقدس. فهذه لحظة التحام تام بين إنسان-كون، يشكل فيها الإنسان والأرض والفضاء كلاً متكاملًا، يشتركون دون تصدع في الحركة الكونية:

في مكانهم، كان هناك ذلك التيار الغريب الذي كان يهتز في الأرض المختلطة بالدم، هذه الموجة، هذه الحرارة. لم يكن ذلك يشبه أي شيء على الأرض. كانت قوة مباشرة، دون تفكير، كانت آتية من باطن الأرض متجهة نحو أصابع الفضاء، وكأن رباطًا غير مرئي وصل جسد الرجل الممدد وبقيّة العالم (١٩٨٠: ٣٠) م.

وبالفعل فإن هذه القوة الكونية، وهذا الاهتزاز العميق، هو ما يجب أن تكون الكتابة قادرة على إبرائه من خلال الإشارات والكلمات:

الكتابة من أجل حماية الزمن، وحماية المكان، وصيانة كل ما هو موجود من خلال الإشارات الرقيقة والقوية (...) إعادة كتابة الحاضر، جعل ما لا يمس ملموسًا، فانتزاع ما هو حاضر الآن وينتفي، وتسميتها للأبد (لوكليزيو، ١٩٦٧: ١٩٨) م.

وهذا هو المقصود، المقصود تسميتها للأبد، وذلك لأن الوسيلة الوحيدة الأصلية للأمسك باللحظة هي تسميتها. فتسمية الأشياء تسهم في إصطائها كياناً في حينه، في منحها وجوداً من خلال مادية الكلمات وجعلها تدوم من خلال الكتابة، وحفظ أثر النص حتى لا تمحوه الرياح الخوالة. وفي هذا الشأن، فإن الفضاء الصحراوي لا بد من قراءته كصفحة كبيرة بيضاء، تقوم الكتابة عليها بالبحث عن أفق من الكلمات، حاملة على عاتقها مغامراتها الخاصة الدائمة. نقلة تجاه الرصيف الآخر من السطر، تجاه مكان آخر مهمل دائماً، قدر لا يمكن تجنيه.

ويتحتم علينا أن نتحدث عن توازي المعنى الرمزي بين الطرق في الرمال والطريق الموجود في الرواية، وعلينا كذلك، أن نتطرق، كما فعلت جاكلين ميشيل Jacqueline Michel في موقف في قصة للصمت Une mise en récit du silence، إلى مسار ضوضاء



الكلمات وأثرها في الفضاء الصامت للنص. فلن تكون "صحراء" إذن إلا استعارة رقيقة لعملية كتابة لو كليرزو في شكل نص شاعري.

وفي النص سجدت تخطيط طريق تم البحث عنه بينما يتم تشييده، ويتم تشييده بينما يُعاش وبينما يتم تأمل العالم من خلال نظرة انفعالية ضمنية شديدة الاهتزاز. وتقتن الشاعرية هذه النظرة التي تتخطى الواقع لكي تحلم به في تهويمات مناظرة، يتلفظ بها راوي تشرب من الأحلام والإيقاع، يذف بالحجر ثم يخفي يده، يحتمي هنا خلف نص مبهم، حر بطريقة غير مباشرة وتكمن وجهة نظره<sup>(١٩٩٧: ٦٣)</sup> الرئيسية في الشخصية، سامحا بذلك أن يقدم للقراء نتائج تخيله وفانتازيته الناتجين عن احتكاكه المباشر والأصيل مع العالم. هي نظرة تتابع الأثام بما هو بعيد، ما هو على الجانب الآخر للواقع الطبيعي والواقع التاريخي وذلك عن طريق الاندماج والاندسار في الحلم العالي للأدب.

وهناك فقط بعض الأثر لا بد من تتبعه، حدسي أكثر منه ملموساً، خطوات كثيرة لا بد من المشي فيها وهي تمثل المغامرة الكبرى لتشكيلها: بصير، ومثابرة، وشجاعة، وشي، من الإلهام وكثير من البصيرة. ففي "صحراء"، السفر عبر الـ "صحراء" يمكن مقابله رمزيا بهذه الأرض الجديدة الموعودة والتي هي كل عمل تم إنجازه، خط طريقه البطيء يعادل صيرورة الكتابة واكتشاف أماكنها الرئيسية، هنا هو حيث تظهر وتفتتح الرموز، فتحقق ليس فقط وجود قوة انفعالية بل حماساً لا يمكن التعبير عنه إلا بالطريق الشعري. وكما قيل في أناس من سحاب: عندما نزل باتجاه "ساقية الحمراء" آتين من "سمارة"، فلننا نحس بتأثير آخر، أقوى بكثير، نوع من الحماس (لوكليرزو، ١٩٩٧: ٦٣) (م). وعلى ذلك، ينكشف طريق مميز هو الذي يجمع بين حياة وكتابة، ذلك الذي يسمح بالوصول إلى نظام آخر روحاني ومقدس: نحن نمشي في الصمت كما نمشي بمفردنا على الطريق الأبيض (لوكليرزو، ١٩٩٧: ٣٩) (م). ولكي نجوب طريق التظهير الأبيض، الذي هو أيضا صفحة بيضاء للكتابة، فلا بد من نظرة متفحصة قادرة على احتواء العالم في نفس الوقت الذي نخطو عليه، وهي مثل لحظة قص يدلي فيها بشهادته، فيحول الصورة إلى كلمات ويجعل الرواية تنطق من العدم ومن الصمت: وإذا كان جول سويرفيل (١٩٥١: ٦٢) يقول:

القصيدا تنتظر ونحن خلف ستارة سميكة من الضباب، ويكفي أن نهطل كل الاحتمالات حتى تستقيم لنا هذه القصيدة (م).

ففي هذه الحالة، القصيدة التي تظهر من الضباب تحمل اسم "صحراء": فقط كان علينا أن ننتبه للسراب ونصوغه بالكلمات للأبد.

الهوامش:

(١) عنوان المقال بالإسبانية:

Poeticidad y narratividad de Désert de J-M.G. Le Clézio

الكتابة: Lourdes Carriedo López

وهو منشور في الملتقى: الدراسات الفرنسية والفرنكوفونية. من مطبوعات جامعة "لا ريوخا" La Rócha، في المجلد الأول عام ٢٠٠٤، في الصفحات ٤٨٥-٤٩٨.

(١) سوف نستعمل، مع تغيير بسيط، لعب جون ريكاردو بالكلمات، والذي انحاز في الرواية الحديثة إلى مغامرة الكتابة بدلاً من كتابة المغامرة. أما بالنسبة لـ"لوكلينيو"، فهذان الطرحان لهما معنى متوازن.

(٢) كما هو معروف، لكي يكون هناك بناء سردي فلا بد من وجود تتابع في الأحداث يقوم بها أو يعاني منها فاعل، والذي عن طريق نزاع مطروح أصلاً، يصل إلى حل ما ويخضع عامة لمنطق السبب - النتيجة. فالزمنية والسببية في علاقة لما يحدث يشكلان، على هذا، عنصرًا أساسيًا في النص السردية.

(٣) التصوص الواردة في المقال باللغة الفرنسية قستُ بترجمتها، ووضعتُ حرف المهم بين قوسين للإشارة إلى الترجمة (م).

(٤) هذه العلاقة الوثيقة بين إبداع وحكي جعلنا نلجأ في التأمل الكاسل بين عملية كتابة لوكلينيو وتخليله، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار كلمات آلان جوفرو Alain Joffroy: لوكلينيو يكتب كرجل يعيش معصب العيدين بإفلاح منتظم، خشن، صارم، صلب، بلا التقطاع يوقع حيوي. (كلام ذكره بيير لوست Pierre Lhoste في محاورات مع ج.م.ج. لوكلينيو، ميركوري دي فرانس Mercure de France، ١٩٧١، ص: ١٥).

(٥) والأقل يمثل الأزواجية الخاصة بالصورة الزمنية. وفي هذا الصدد، تعود لدراسة ميشل كولو Michel Collot الشائكة تحت عنوان: الشعر الحديث وبناء الأفق، حيث يمتشي من أزواجية صورة الأفق: (العالم محسوس ومعيش) لا يقسمون إلا كأفق، أي من خلال وجهة النظر الخاصة للفاضل. ويحسب ما يقول بين ما هو برتني وما ليس كذلك، وبين تشديد بناء أو فتح فرص لا تتغلب من الترددات (١٩٨٩).

(٦) وجود أساسي في "معراء"، قصيدة الأفق تنسق بإتقان الأبعاد الثلاثة: الزمني والوجودي والكتابي.

(٧) "ماء العيون": هو لقب الشيخ مولاي أحمد بن محمد الفاضل اللواتي.

(٨) ويكفي أن نتصفح الكتاب لكي نلاحظ تعاقباً واضحاً في الشكل الطبوغرافي للتسلسل، وذلك حسب تبعاتها: فالمساحة أكبر وأكثر منطقية بالنسبة للوحة الطوارق النأسوية، بينما المساحة في حكاية "لألا" أقل بكثير ويرجع ذلك إلى حجمها الطبوغرافي في النص السردية.

(٩) ولنتذكر ما أكده جان ريكاردو (٧٦: ١٩٧٣): القافية المتجاذبة بشكل واضح في الشعر المعاصر، وجدت بصورة عامة ودقيقة وعلى كل المستويات، مجال عمل في السرد الروائي الجديد.

(١٠) "Leitmotiv" هي كلمة ألمانية الأصل. وهو مصطلح موسيقي يُقصد به موضوع لحني يظهر طوال القطعة الموسيقية. أما بالنسبة للأدب فهذا المصطلح يطلق على كلمة يعونها، مصطلح، بيت شعر أو صورة شعرية (تصوير، استعارة، رمز) يُعاد ظهوره على فترات في عمل ما (م).

(١١) Romance: هو شرب من شروب الشعر الإسباني الشعبي (م).

(١٢) من الجدير بالذكر أن أسماء لوكلينيو المنشورة حتى الآن، تتباين بشكل جوهري على ضوء منحى شعري يتزايد باضطراد في علاقة وثيقة مع رؤية كونية: موندو وقصص أخرى Mondo et autres histoires (١٩٧٨)، الجولة وحقائق متنوعة أخرى La Ronde et autres faits divers (١٩٨٢)، الربيع وفصول أخرى Printemps et autres saisons (١٩٨٩)، قلب يحترق وحكايات أخرى Coeur brûlé et autres romances (٢٠٠٠).

(١٣) مثل الحكاية الأسطورية للرجال الزرق، فإن حكاية "لألا" تقدم حركة دائرية، حيث إنها تبدأ بسميها الشارد عبر كثبان قريبتها، حيث تعيش طفولة حرة وسعيدة، وتنتهي بعودتها من رحلتها الفاشلة في المدن الأوروبية التي يقترض فيها التحضر وذلك لكي تلد من جديد كائنًا حرًا، والتجسم الذي سيحمل للمستقبل. يتقدم العرض بناءً درامياً كاملاً: مقدمة (تجمل عنوان "السعادة" Le bonheur)، الحكاية

(التجربة الفاشلة في النجاة الأوربية: "الحياة عند العبيد" La vie chez les esclaves)، وحل المقدمة (البودة للمحرمان).

(١٠) على ما يبدو ينفلق، فهو كما يرد في كتاب الهروب Le livre de fuites (٢٨٥: ١٩٦٩): الحيوات الحق ليس لها نهاية. الكتب الحق ليس لها نهاية. ويتبع.

(١١) هذه الوحدة من القارئات تظهر بصورة منتظمة في الأوقات الفاصلة للأحداث، ويحدث ذلك في عملية الإبداع الخيالية: مثلاً في الأوقات التي تتقابل فيها "اللا" مع "حارثاني" في الكهف (أرادت لا أن تصرخ، ولكن كما يحدث في الأحلام، لم يخرج صوت من حنجرتها، لم يخرج أي صوت (لوكليزيو، ١٤٠: ١٩٨٠).

والحلم يعني كذلك، احتمالية التناوب مع عالم آخر، عالم أفضل من البصيرة كما يحلم "نور" في تهجيل لـ"ماء العينين"، الوسيط الأصيل: أحس وكأن كل شيء كان حليماً... كان وكأنه خرج مرة أخرى من حلم لا ينتهي، حلم أكبر منه، يلوذ به إلى عالم آخر (لوكليزيو، 244-245: 1980).

(١٢) من هذا الإجاب ولدت اللالة التي تدور حول أعمال "لوتريامون" عام ١٩٨٧ تحت عنوان وحلم مالدورور Le rêve de Maldoror.

(١٣) انظر دراسة "لويس جاستون إلدواين" Luis Gastón Elduayen: «المصاغة القياسية، شاعرية القياس» في Universitat de Valencia، ١١١. Actes du Colloque international

(.....) هو مصطلح ظهر في النقد الأنجلوساكسي (The point of views، «The focus of»، «narration»، وتحوّل في الإسبانية إلى: «enfocaje»، «focalización» (٢٠٠٠).

المراجع:

- AAVV. (1992): J.M.G. Le Clézio. Actes du Colloque international. Universitat de Valencia.
- BUTOR, M. (1964): Répertoire II. Paris: Minuit.
- COMBE, D. (1989): Le roman et la poésie. Paris: Nizet.
- DEL PRADO, J. (1989): Análisis e interpretación de la novela. Madrid: Síntesis.
- FREEMAN, R. (1972): La novela lírica. Barcelona: Barral Editores.
- Le CLÉZIO, J.M.G. (1980): Désert. Paris: Gallimard.
- Le CLÉZIO, J.M.G. - Jemla (1997): Gens des nuages. Paris: Stock.
- Le CLÉZIO, J.M.G. (1967): L'Extase matérielle. Paris: Gallimard.
- Le CLÉZIO, J.M.G. (1978): Un inconnu sur la terre. Paris: Gallimard.
- Le CLÉZIO, J.M.G. (1995): La quarantaine. Paris: Gallimard.
- Le CLÉZIO, J.M.G. (2000): Cœur brûlé et autres romances. Paris: Gallimard.
- LHOSTE, P. (1971): Conversations avec J.M.G. Le Clézio. Paris: Mercure de France.
- MICHEL, J. (1986): Une mise en récit du silence. Paris: José Corti.
- PICON, G. (1980): L'Usage de la lecture. Paris: Mercure de France.
- RICARDOU, J. (1973): Nouveau roman. Paris: Seuil.
- SUPERVIELLE, J. (1951): Naissances. En songeant à un art poétique. Paris: Gallimard.
- TADIÉ, J.Y. (1976): Le récit poétique. Paris: P.U.F.





## الفتون لؤاد قنديل: تلك السيرة الروائية المتفردة

حسن فتح الباب

الرحلة إلى الشرق في مقابل الرحلة إلى الغرب:  
قراءة في «الطرف الآخر من البيت» و«ثوب  
الغزالة»

يوسف الشاروني

ثانيليا... رواية تحاور النوع الروائي:  
الراوي عليم لكن ذاته منشطرة

سيد ضيف الله

الأقندي... رواية محمد ناجي

محمود عبد الوهاب

الحلم... و.. الوجه المراءو:  
قراءة في قصص (سكن الليل)

محمد قطب



# المفتوح لفؤاد قنديل تلك السيرة الروائية المتفردة

ف



## حسن فتح الباب

منذ السطور الأولى في رواية (الفتون) للأديب فؤاد قنديل تثبت أن ارتقى شروعة جديدة في الهرم الإبداعي الذي جاهد طويلاً في سبيل تشييده بحيث لا يقاد فيه غيره ولا يستطيع غيره أن يقلده، فالرواية مزيج مدهش من الوقائع التي عاشها والأحلام التي راودته، من معانيات القدر وقساوة البشر، من الإحساس المرهف والفكر الفلسفي، وقد سماها الكاتب سيرة روائية لأنها سيرة ذاتية في قالب روائي، تحكى عن أحداث ليست من نبع الخيلة، وإنما هي من صميم الواقع وكذلك أشخاصها، فهم حقيقيون بأسمائهم وصفاتهم وأفعالهم ودورهم في مسار تلك الأحداث وأثرها فيهم. وهؤلاء الأشخاص يكاد بعضهم أن يكون متقدراً لغرابة أطواره، ومنهم أفراد عائلة الكاتب الراوي حتى أنه وصفها في ثانياً السرد بأنها [عائلة عجيبة] وإن انبثقت من صميم تراب مصر في الريف والمدينة، هذا التراب الذي ولد ونشأ فيه وارتوى من نهله بناة أقدم حضارة في العالم.

ويتفاوت أفراد هذه العائلة وأصهارهم وجيرانهم وكل من عرفهم الكاتب وعاشهم في طباعهم وردود أفعالهم حيال صنع الآخرين بهم أو صنع القدر، فمنهم من أوتوا حظاً من العلم والثقافة، أو تجارب الحياة في تقلباتها، ومنهم من اكتسبوا مالا أو حظوة استبدوا بهما، ومن سخر وهما لتقديم الضعفاء. كما أن منهم الحمقى والأشرار. وأهم شخصية في الكتاب هي بالضرورة فؤاد قنديل لأنه كاتب سيرته التي بدأت منذ نعومة أظفاره في قرية تابعة لمركز بنها في محافظة القليوبية حتى شبابه الباكر فيها ثم في القاهرة. وهذه الشخصية مركبة مثل الكثرة الغالبة من الأدباء الكبار حيث يدهش قارئه بسيرته ببعض وقائع حياته الأشد غرابة من الخيال وإن كانت حقيقية. وهي مزيج من المثالية والواقعية، كما أنها نموذج لكفاح ومعاناة جيل الخمسينيات والستينيات التي شهدتها مصر والأمة العربية

والعالم. ومن خصائصها استكشاف الطاقات الكامنة في أعماقها واستنقارها لتحقيق أهدافها، شخصية فريدة تتألف مع ذاتها وتختلف عن غيرها، مسكونة بالتلق مثل معظم المثقفين من أبنائها، جعلها في تلك المرحلة، تطمح إلى المثال ولكن الواقع المعيش يشدها إليه وإن كانت لا تعرف طريق التنازلات، تلك إلى جانب وهيما الفردى وعيا جمعيا يشق الظلمات ويعرف أن هناك فجرا صادقا وفجرا كاذبا، وهو في الحالين لا يستقيم إلى قدره بل يخالفه، فيكسر ما يحثور دبره من عثرات، فيسقط أحيانا وما يلبث أن ينهض مثل الفارس القديم من كبوته أو الغنيق من رعد احتراقه. هكذا يجمع فؤاد قنديل كما تصوره سيرته الروائية بين قرار الحب الذى يمشى الفؤاد وبين أفق الفكر الواعى التأمل فى حياة البشر ومصائرهم.

### صورة جمال عبد الناصر

على كثرة ما قرأت عن جمال عبد الناصر أحد أعظم الأبطال فى التاريخ المصرى والعربى، وكيف تناول سيرته المؤرخون والأدباء والساسة، لم أجد جديدا من وجهة نظرى يضاف فى الحديث عن رؤية شعبنا لهذا البطل الشامخ إلا فى السيرة الروائية لفؤاد قنديل، وهو يصور فى معظم صفحات كتابه اللامع الخارجية والداخلية لابن الشعب العظيم، متداعيا معه، مدفعا أدق وأعرق الدلالات من مواقفه التى شهد الكاتب بعضها ومن دوره التاريخى؛ فقد هام فؤاد قنديل حبا وعشقا لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال حتى تلك التى يدرجها أعداؤه فى الداخل والخارج فى عداد المثالب. ويكاد القارى يسمع قلب هذا الأنيب المتفرد فى أفكاره وصياغاته وهو يندق بين ضلوعه حتى يكاد يشب منها كلما شاهد عبد الناصر أو ورد ذكره.

يصف فؤاد قنديل عبد الناصر قائلا: (كنت أرقبه كأنى أرقب كائنات أسطوريا قادمة من أعماق التاريخ)، كما يصفه بأنه: (ذلك الشاب المصرى الذى يشبه الحرية المقدسة، فقد اقتحم الفضاء الإنسانى المتكلس وقاد ثورة مع إخوانه ضد الملك، وقاموا بتوزيع الأرض على الفلاحين البؤساء). ثم يعقد مقارنة بينه وبين جيفارا، ولا يكاد طيفه يغادره فى صحوه ومتابه، وكأنه الفردوس الذى يدميه فقد بعد أن أسدلت ستائر الظلم والظلام على الوطن والأمة بل على العالم الثالث ويكاد أن يقول الكاتب بل العالم كله. وتتخلل سيرة عبد الناصر معظم الأحداث والحوارات، فالمؤلف هو الشخصية الأولى فى الرواية وناصر هو الشخصية الموازية أو كأنهما ظلان لجسد واحد. ويبلغ تأثيره الذروة حين يقول فؤاد قنديل: (غمرنى خاطر مستبد أن هذا الرجل سيموت قريبا لأن معاناته فوق احتمال البشر).

ويسرد الكاتب الأحداث التى صنعها عبد الناصر وغيّرت مسار التاريخ فى مصر والعالم العربى وإفريقيا، منذ اندلاع ثورة ٢٣ يولية حتى حرب الاستنزاف، مروراً بكتابة انضمام سورية عن مصر وثكنة ١٩٦٧، وذلك من خلال ما ننسج به ذاكرة المؤلف حيث تمتزج الذات بالموضوع والخاص بالعام وتتحد البذرة بالثمرة والعطر بالزهرة، وهو يستهل الفصل

الأول من روايته وعنوانه ( خبطة الوعي) بالحديث عن بداية تعرفه على الرجل الأسطوري وكان في العاشرة من عمره.

[أفقت من نومي العميق على لكزة ملاجئة، سمعت أخى الكبير (فوزى) يتسائل مستكثراً: كيف تمام وعبد الناصر يطلقون عليه الرصاص؟ هذا هو اليوم الذى يتعين أن أبدأ به "يعنى بدء كتابة سيرته الروائية"، لأنى استيقظت فيه من نومي الجسدى ومن شبه غيبوبة استمرت نحو عشر سنوات منذ ولدت، كان ذلك فى أحد أيام عام ١٩٥٤]. وتصور السطور التالية الفتوة التى أنبتت شجرة الفكر السياسى للؤاد قنديل إذ يقول مخاطباً نفسه: [أفهمك فوزى الذى كان يستمع دائماً إلى الراديو أن أحد رجال جماعة الإخوان المسلمين...].

### صورة الأم

إذا كانت الصورة التى رسمها بقلمه الكاتب فؤاد قنديل لشخصية عبد الناصر قد زادت بها جلاء وعمقا، فإن تلك التى رسمها الراوى لأمه لا تمحى أبداً من الذاكرة، فهى نموذج للمرأة التى تتسم بركة الزهر وصلابة الصخر، أم حنون ترعى أبناءها وزوجها وتضحي فى سبيل كل الأمهات، ولكنها تتفرد بظاهرها الخاص، إذ تختزن من تجاربها فى القرى والمدن خبرات تكسيها متانة فى مواجهة ما يصادفها وأسرتها من عقبات تحيل اليرود إلى أشواك والماء الجارى إلى جليد والسماء الصافية إلى غيوم كابية، فهى بالفطرة المورثة والخبرة المكتسبة كائن سماوى حيناً، وأرضى حيناً آخر، مما جعلها أجمل الخلق فى عيشى ولدها فؤاد وقلبه، والنبع الصافى الذى يستقى منه إلهامه، فقرأها فى كثير من صفحات الكتاب تشيع عبراً من أنبل العواطف فيمن حولها، ولا تتحنى لأشد العواصف.

وقد تجلت سمات هذه الأم ولا سيما قوة شخصيتها ورهافة حسها فى موقفين تخللت فيهما عما عرفت به من هدوء وصبر، أولهما حين صفى زوجها أعماله تجارته بالقاهرة، وأصدر أمره بالانتقال مع الأسرة إلى القرية فى بنها، ليرعى والده فى محنة صحية ألت به، رغم ما تسببه هذه النقلة الملاجئة من خراب للأسرة فى حاضرها ومستقبلها بعد أن استقرت وظاب لها العيش فى مصر. حاولته بمنطق شديد يدل على رجاحة العقل، وحاولت جاهدة، وهى تدافع عن حقها وحقوق أولادها، مستعينة بالمسير وبما يجمعهما من ذكريات العيش الهائى الهادى، أن تثبته عن عزمة، ثم تحولت من قيمة رقيقة إلى عاصفة مدوية حيث آثر الرفض، ولكنها رضخت فى نهاية الأمر، لخضوعها لتعاليم الدين والعرف والعيش المشترك. فهى فى البدء والختام امرأة مصرية مثل شجرة باسقة تثبت بجذورها.

أما الموقف الثانى فهو بكائها جمال عبد الناصر أشرف الرجال وأكثرهم وطنية حينما سك فجأة سمعها نباحاً رحيمه، إذ كانت كما قال الراوى تكن له حبا أقوى من حبها والديها؛ وقد ورث عنها فؤاد قنديل كما ورث عن والده هذه العاطفة الجياشة كما ورثها أبناؤه. وقد كانت مع أفراد أسرتها فى السنين حينما علمت بالجامعة: [سالت دموع أمى وبدانا



نزحف كالسكاري، تراحموا عند الأبواب، اضطراب في اضطراب.. خبئت أسمى صغرها  
وهي تقول: حبيبى يا خويا... ظلت تتادى: حبيبى يا خويا، مولوك يا حبيبى.

### عالم المرأة

تناول فؤاد قنديل فى سيرته الروائية عالم الأنثى من خلال العلاقة التى ربطته فى  
طفولته وصباه بأمه (أسلانة) ثم بالفتيات اللاتي عرفهن، فصور ما يجيش فى صدورهن من  
أحاسيس ويزى وأحلام، محللا هذه العلاقة فى ضوء ما ورثه وما اكتسبه من وعى تعمق  
بتوالى الأحداث وتعدد الشخصيات وتراكم التجارب والخبرات. وكان تصويره للشخصية  
النسائية من داخلها وسرد للتفاصيل الدقيقة ذات الدلالة عليها.

وكانت (كريمة) جازته هى حبه الأول فى زمن المراهقة إذ كان فى السادسة عشرة من  
عمره. ومن وحيها صاغ أبياتا شعرية أهداها لها، يقول عنها: [أحرص على القرب منها  
بكل وسيلة، فإن لم ألمسها شممتها، ولجسدها رائحة عطرة لبست ككل الروائح، كم  
تنفسها وذهبت جمدى وخلاياى، طويلا كنت أهدق فى لحم الذراع وأنفذ فى ذراته  
الثقيرة. ألقب داخل مراهقتى، فلا أملك مقاومة استراق النظر، وأكتشف ذلك الدبيب فى  
صدرى، ثمة لمل كبير أو مايشبهه يمشى تحت جلدى وفى أعفائى]. وتنتهى تجربة  
الحب الأولى بالإخفاق، فقد تزوجت كريمة، وإن كانت فى أثناء مدة خطبتها لتلقى به  
وتسقيه من كئوس فتنة الأنثى التعوب وتتسبب فى رسوبه. وتضى صفحات الحديث عن  
هذه التجربة يوسف سهرة أم كلثوم الشهيرة، والتفاف الأسر المصرية حول صوتها المتدفق من  
الذيعاق، والنشوة التى تفيض بها قلوب هذه الأسر وتعبر عن هيامها بالغن الذى يصور الجمال  
فى أسمى تجلياته.

أما الحب الذى انتهى بزواجه فكان مع (عند)، تلك التى كانت زميلته أثناء عمله  
موظفا فى ستوديو مصر، فتاة مثقلة متعددة شخصيتها تتأتى على مغازلات الآخرين  
ومرواداتهم، وتشاركه فى عشق القراءة، ولكنه بعد زواجه منها قاسى الأمرين من أمها  
السلطة التى تستنزفه، مستغلة حبه الجارف لاهتها التى لا تعصى لها أمرا، والتى تخضع  
أخيرا لرغبتة فى قضاء خلوة معه بالمسكن الذى أعده للزوجية. ولكنهما يلاجان بمصابة  
تلتحم هذا المسكن، ويدرك العاشق التمس أن حماته هى التى دبرت هذه المؤامرة حتى تذله  
فيستجيب لرغباتها. وقد أفرد الكاتب فصلين من كتاب سيرته الروائية لسرد وتصور علاقته  
بهند وأنها وزوجها الميكانيكى الغليظ القلب، مضيفا بذلك صفحات جديدة إلى القمص و  
الروايات التى تناولت ما يعتور الأسر المصرية من تناقضات فى مسيرتها المعيشية وأحوالها  
النفسية التى تأثرت بالبيئة الاجتماعية والميراث الثقافى والظروف الاقتصادية، والتى شكلت  
أسلوبها وصراع أفرادها فى سبيل تحقيق كل فرد أو جماعة أحلامها المشروعة أو غير  
المشروعة، وهو صراع قديم جديد لا يزال يصيغ المجتمع بظاهمه دون أن يواكبه تغيير  
ملبس فى السلوك، مما ينشأ عنه من تخلف يرجع إلى ضعف الوعى الثقافى لدى كثير من  
الأفراد والجماعات.

### خصائص نفسية وفنية

يتحرى كثير من المفكرين والأدباء الغربيين الصدق في كتاباتهم لذكراتهم التي تتضمن سيرتهم الذاتية، ولا يخجلون من الكتمان، وأقدم هؤلاء هو (القديس أوغسطين) في اعترافاته، والفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) في اعترافاته أيضا، والشاعر الفرنسي (أنتول فرانس) في مبادئه. أما في الأدب العربي فلا نجد قديما إلا الإمام الغزالي في كتابه (المقصد من الضلال) وإن لم يصب إلا بالجانب العقلي. فإذا قرأنا السير الذاتية للكاتب والمفكرين العرب ألفيناهم يجمعون عما قارفوه من أهواء جنسية إلا الأديب المغربي محمد شكري في كتابه (الخيز الحافي)، ولم يش بأسرار أسرته ويعد نقائصهم في رأيه إلا الدكتور لويس عوض في كتابه (أوراق العمن)، وألح أيضا إلى ابتذال جنسي الأديب الدكتور شريف جنتاه والدكتور شكري عباد. ويرجع كتان التجارب العاطفية والجنسية الذي تنسم به السير الذاتية التي كتبها معظم الأدباء العرب، حتى أن الدكتور محمد حسين هيكل لم يدون اسمه على قصة (زينب) وإنما كتب (فلاح مصري)، يرجع ذلك إلى الخضوع للأعراف الاجتماعية والوازع الديني وخشية ثورة الرأي العام الذي يملئه القراء.

ومن هنا نحمد للروائي الكبير فؤاد قنديل جرأته في كتابة سيرته الذاتية، فأفصح عن تجاربه ومغامراته الجنسية وآرائه السياسية والدينية متخطيا حاجز التابوهات الثلاثة: الجنس والدين والسياسة، وفيما يتعلق بإفصاح كاتبنا عن آرائه السياسية التي يختلف معه فيها الكثيرون لست من بينهم، فإنه يذكرنا بمقولة جان بول سارتر: (إن مهمة المثقف هي إزعاج السلطة)، وقد سمى الشخصيات بأسمائها حتى أفراد عائلته بدءا من الأم. ولم يحجب ما اصطاح المجتمع على اعتباره من المحظورات أو الرذائل... فالكتاب الذي ضمنه سيرته ينضح بالصدق المبين وبالشفافية منذ سلطوره الأولى حتى النهاية، وهو ما ينذر مثيله فيما إطلعنا عليه من المذكرات أو السير الذاتية. وإذا كان لوركا هو القائل (الشعر والصدق توأمان لا ينفصلان)، فإن ذلك ينطبق أيضا على السيرة الذاتية الثرية لفؤاد قنديل.

### الخصائص الفنية:

أبرز الخصائص الفنية في هذه السيرة هو صيها في قالب روائي، وقد جاء سرد معظم الأحداث وتصور الشخصيات بضمير المتكلم، بمعنى أن الكاتب يتناجي نفسه، على خلاف في ذلك مع الكثرة الغالبة من أصحاب المذكرات إذ يكتبون بضمير الغائب مثل طه حسين في الأيام. وقد أضفت هذه الصيغة على الكتاب مزيها من إحساس القارئ، بصدق الكاتب وتجاوبه معه.

أما الملمح الثاني للكتاب فهو تواضع أحداث السيرة الذاتية وشخصها بالأحداث والشخصيات التاريخية الماضية أو المعاصرة، فكل منهما تنعكس على الأخرى أو توجد بها.

في انسياب وتدفق لا يشوبه تصنع أو افتعال، فتداخلهما أو اندماجهما يتم تلقائيا مثل الصوت والصدى أو الزهرة والعبير، مما جعل سيرة الكاتب هي سيرة الوطن والأمة ورواية المجتمع في الخمسينيات والستينيات، وقد صيغ هذا التداخل بأسلوب التداخي وجاء شكلا من أشكال أسلوب تيار الوعي الذي أبدعه جيمس جويس وفرجينيا وولف.

واللمح الثالث في الكتاب أو الرواية هو إحكام بنائها فقد جاء معارا متناسقا، وجاءت فصوله متصلة ومنقصلة في الوقت نفسه، بمعنى أن كل فصل يصلح أن يكون قصة قصيرة قائمة بذاتها. أما الرابط بين الفصول فهو اختلاف الشخصيات في فصل ثم العودة في فصل آخر انبثاقا من تيار الوعي.

ثمة سمة أسلوبية أخرى وهي الاستقواء من ينابيع القصص القرآني كما يتجلى في الفصل المعنون (نجاة يونس) فهو مستوحى من قصة النبي يونس الذي ابتلعه الحوت ثم نجا، كما تتضمن بعض الفصول إشارات إلى أعمال روائية لبعض كبار الكتاب أسهمت في التكوين الأولي للمؤلف الذي بدأ بالاستماع إلى الملاحم الشعبية في طفولته مما جعله مسحورا بفن الحكيم، ثم تطور هذا التكوين في زمن الشباب حتى بلغ لروته حين التحق فؤاد قنديل بقسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، الأمر الذي أكسب أعماله الروائية طابعا فلسفيا، ويبدو ذلك واضحا في الفصل المعنون (الجبر والاختيار) في السيرة الذاتية.

ويظهر القارئ لهذه السيرة كما في أعمال أخرى للكاتب تلك الشاعرية المجنحة الدالة على رفاة الإحساس وخمب الخيلة، ولا غرو فقد بدأ فؤاد قنديل مسيرته الإبداعية بكتابة أبيات من الشعر كما رأينا في علاقته - بكرمه.

ونلتقي بهذه السمة الأسلوبية الساحرة في الفصل المعنون (الضربة القاصمة):

[السما غائمة... القرية ترتعد... الوجوه المعفرة بالأيام شاحته... الجدران ساحت في التربة الموحلة... الأشجار مالت والظلال مصفرة... المسمت شامل لولا نباح بعض الكلاب التي تعاني من الفراغ والجوع].

وتحلق الشاعرية المخيطة الحائلة في تصوير سهرة العائلات المصرية كما سبق أن أشرنا حول الراديو الذي يذيع غناء كوكب الشرق التي وجدت العرب في ليلاتها: [نزهة ووليمة للبطاء والقراء، تسهر نحن فوق السطح ويرطب أبنائنا التسم العليل، بينما القمر الحاني يتروى في عبوره لعله يلتقط بعض الأنغام الآسرة].

وفي تصوير شاعري غير مبدل رسم كائنا المقاتل الجديدة لمحبوته كريمة: [حياتي كلها تحط على شواطئ عينيها، وأيامي تتحد بدقات قلبها... السعادة تغمر العالم إذا ابتسمت، أما جسدها البليغ الريان فقد لأعيني كثيرا، وصيت بي ذلك المتوحش ممرق البساتين... كم تغلبت على وهج فوراته وجموحه... صدرها الشقي يطارطني ويجتذبنني إليه، لا يلتأ يطل علي من مكمنه ويخرج لي لسانه... الخمر التحيل والقوام الرشيق والشفاة المتأججة الغائنة المكتنزة المتأهية للالتهام اللذيذ، كل ما فيها مدمج بالإشارة والسهب... إن عشقتنا فعدرتنا/أن في وجهنا نظر].

ونختتم هذا المقال بالتنويه بمقدمة الكتاب (من أنا)، فقد دون فيها فؤاد قنديل خلاصة تجربته الفنية، فجاءت رحيلًا عذبًا صالحيًا مُصطفى من أجمل زهور حدائق الإبداع، وحكى فيها بأسلوب الواقعية السحرية الذي يتقلبه كيف تحول شخصه إلى رواية، [وَمِمَّ خَلَقْتَ؟ ولماذا أتصور إمكانية أن يكون شخصي المتواضع رواية؟ هل لأنني عشت نحو ثلث قرن (٢٣٠٠٠ يوم) واستهلكت جبلا عاليًا من الأشياء ؟ أظنني التهمت خمس جواميس وملء ترعة صغيرة من الأسماك، وألف دجاجة ومائتي ديك وعشرين ألف بيضة، وعشرين عربة نقل من الخسار وضعفها من الفاكهة، وشربت عدة سهاريج من الماء، وأربعين ألف فنجان من القهوة والشاي، ودخنت ثلاثين ألف سيجارة، وتجرعت نحو دلوين من الخمر].

وهكذا قدم لنا فؤاد قنديل هذا العمل الفني الفريد الذي يصور سيرة مفتون بالحياة والحب والفن، مما جعل قارئه مفتونًا مثله بكل ما هو جميل وتبيل وجليل في الوجود، وجعله مشوقًا إلى قراءة الجزء الثاني من هذه السيرة، والذي يروي فيه أحداث مصر السياسية والاجتماعية والثقافية في السبعينيات وما بعدها من خلال رواية سيرة حياته الخمية.

الرحلة إلى الشرق في مقابل الرحلة إلى الغرب

قراءة في «الطرف الآخر من البيت»

و«توب الغزاة»



يوسف الشاروني

- ١ -

• حفل أدبنا العربي الحديث بكتابة أكثر من رحلة إلى الغرب لأكثر من أديب من أديبنا.

وقد تمت هذه الرحلات منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين بدءاً من كتاب «كشف الخبايا في فنون أوروبا» و«الساق على الساق فيما هو القاريان» لأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٨) مروراً بكتاب رفاعة رافع الطهطاوي «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» (١٨٣٤)، ثم علي مبارك «علم الدين» (١٨٨٣)، فالجزء الأخير من حديث عيسى بن هشام (١٩٠٥-١٩٠٦) للمويلحي، وعصفور من الشرق (١٩٣٨) وزهرة العمر (١٩٤٣) لتوفيق الحكيم، والحي اللاتيني (١٩٥٣) لمهديل إدريس، والخيوط الأبيض (١٩٦٣) لمفيد الشوباشي وموسم الهجرة للشمال (١٩٦٧) للطبيب صالح.. الخ كل هؤلاء عالجون قضية الصراع واللقاء مع الغرب، ومعظمهم سافر في سن اليقظة لطلب العلم. وقد تغلب جانب الانبهار على جانب النقد.

وإذا كانت معظم هذه الرحلات قد تمت حتى منتصف القرن العشرين، فقد تلتها رحلات أخرى في الاتجاه المعاكس - نحو الشرق - بدءاً من الربع الثالث من القرن العشرين. لكن رحلة أبطلها كانت لهدف مختلف، هو - كما يعلن صابر بطل «الطرف الآخر من البيت» (٢٠٠٥) لمحمد قطب - «مقابلة محزنة، وأن أيام شبابك تكاد تبقيها في مقابل حفلة من المال تساعدك على الزواج وتدبير المسكن» (ص ١٥). وكما تروي لنا هدى بطل رواية «في توب غزاة» لعزة بدر انهارت على الأرض بعد ما شأقت بهم سبل العيش في أم الدنيا (ص ٣) ما أبعد الفرق بين الرحلتين.

وقد أخذتتا هاتين الروايتين باعتبارهما أحدث ما صدر في تناول هذا الموضوع وكشودجين لقصص وروايات سابقة لمبدعين مصريين قدموا لنا تجربتهم بهذه من «لا أحد» (١٩٨٢) لسليمان فياض، فالقياي (١٩٩٠) لمعيد بكر، علا والبلاد الميمدة (١٩٩٨) لعلي شوك، البليدة الأخرى (٢٠٠٤) لإبراهيم عبد المجيد، ورباعية عبد السلام العمري «أهبطوا مصر» (١٩٩٧)، صمت الرمل (٢٠٠٣)، قصر الأفراح (٢٠٠٤) مأوى الروح (٢٠٠٧).

## - ٢ -

نشر محمد قطب روايته «الطرف الآخر من البيت» عام ٢٠٠٥ (إبداعات التفرغ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) لكنه كان قد نشر قصة قصيرة بالعنوان نفسه في مجموعته القصصية «ذات الشعر المنسدل» الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب قبل ذلك بثلاث سنوات (٢٠٠٢)، ويبدو أن القصص الثلاث الأولى في هذه المجموعة بعنوانين «ذات الشعر المنسدل» و«الطرف الآخر من البيت» و«الوجه الساكن في غيبته» كانت الإلهامات الأولى لروايتها إذ يبدو أن كتابتها لم تفرغ الشحنة الإبداعية بكاملها، بل لعلها هي التي حفزت مبدعنا إلى الانطلاق من أسر القصة القصيرة إلى آفاق العمل الروائي الذي لا يتكرر بذرتة الإبداعية الأسبق بدليل أنه لم يتخرج أن يستمد عنوان روايته من عنوان إحدى قصصه القصيرة الثلاث.

من ناحية أخرى فهذه خامس رواية من روايات محمد قطب، مما يعني أنه متمرس بالإبداع الروائي. وما يلاحظ أن السرد الروائي يبدأ بشمير المخاطب، لكنه ليس مخاطباً آخر، بل هو شمير البطل الروائي يخاطب نفسه كأنما يريد أن يشع مسافة بينه وبين نفسه عسى الأمور تصبح أكثر انفتاحاً له ولنا كقراء.

فالحظة التي تبدأ بها روايتنا لحظة مصيرية في حياة بطلنا صابر (لاحظ الاسم) هي لحظة تعرفه على أسرة صومع فيما بعد زوج ابنتهم، لكن الأمور لا تتم بين ليلة وشحاحا على حد تعبير أجدادنا العرب، بل بعد خطوات تؤدي أو تتوج بتلك العلاقة الحميمة. وقد ظلت طوال روايتنا علاقة حميمة ربما لأن الزواج لم يكتمل على نحو ما تتم الزيجات الأخرى، فقد انفصل الطرفان على أمل أن يتلاقيا والزوج سافر إلى المملكة العربية السعودية العروس ذات الشعر المنسدل، والتي لم يذكر اسمها أبداً ربما تمسحها مع تقاليد المجتمعات المحافظة<sup>(١)</sup>، بقيت مع أهلها في القاهرة، بينما البعد يلعب دورين متناقضين. يشاعف الوجه العاطفي حينما بحيث يتماس الأسلوب مع الشعر، وبوهنه حينما آخر أما الإجراءات والإجراءات الحاضرة للموسى. غير أن هذه العلاقة لم تكن سوى اللحن الترفهسي - إن صح التعبير - في روايتنا يعلو صخبه حينما وينساب خلفها حينما آخر، ليربط بين أحداث العمل الروائي فيهبه جانباً من جوانب مذاقه الخاص به. وهكذا عاش بطلنا هذه المفارقة العاطفية، فقد افترق على أمل أن يعود فيلتقي، وهو ما دفعه إلى أن يعيش متأرجحاً - طوال رحلتنا الروائية - بين عالمه: الداخلي (الحبيبة الغائبة الحاضرة والتي أصبحت بطلانة لما تلاها من أحداث) والحاضر الخارجي.

ويستقبل مطار جدة بطلنا في «حياء وبرود» وهكذا انتقلت عدوى التشخيص إلى المطار حيث أسقط بطلنا رؤيته ومشاعره عليه معترفاً أنه لم ينجح في إقامة علاقة عابرة مع المسافرين معه «وقدم وأزاد توحده» (ص ١٤). وهكذا ينتقلنا الراوي - الذي يقدم لنا الآن بطله بشعر الغائب بدلاً من شعر المخاطب حين كان يعبر لنا عن علاقة أكثر حميمة - ينتقلنا من البداية العاطفية الدافئة، إلى فضاء رحب، وصحراء مسفرة مترامية، وهواء لزج مشبع ببخار البحر يحمل بين ثرائه سخونة - وليس مجرد دفء - شعر بها وهي تلج إلى مسامحه (ص ١٥). ولم يتقدم هذا الاستقبال الصحراوي - وجدائتها وواقعها - إلا زميل فلسطيني تعرف عليه، اكتشف أنه أفضل حظاً منه، فهو أقدر على المواجهة: «تعود الأمر.. سراته وأقاربه وأسداؤه يعملون في كل البلاد العربية - لا يعدم صديقاً أو قريباً إن طلبه.. طوى أله وللم وهيه وتتم ولا أحد لي هنا» (ص ٢٦).

وكان مما واجهه بعد القبط والغربة وحتى أنفاسك يعدونها عليك، وفي إمالة الأذن إحياء بالتوجس، وموظف الفندق عينه عليهما.. والعامل يتلطف معها كلما أتى بمشروب» (ص ٢٢-٢٣). ويحدد محمد قطب الفترة التاريخية التي تقع فيها أحداث روايته، فخروجه من مصر كان حلمًا مستحيلًا لولا الانفراجة التي حدثت بعد وفاة عبد الناصر صاحب التركة الذي مات «وخلف بأساً شديداً» (ص ٢٦). ثم مستطرداً: وفي ظل الرأي الواحد القروض وغياب البشر ونهاية النخبة الحاكمة عن الجميع لم يبق إلا الأثواء.. أو اللوحي إلى أبواب جهنم» (ص ٢٧) ثم هناك أسباب أخرى «فالحاجة تقهر العقل أحياناً.. والخروج في صالح الدولة. دعم مالي وتخفيف لضغوط الداخل» (ص ٥٠) مضيفاً بذلك دوافع اقتصادية إلى جانب الدافع السياسي تحقيقاً لحلم الزواج.

ولكي يستطيع مواجهة الغربة كان عليه أن يطور من طبيعته ويلي دعوة زميله الفلسطيني «أن تتصلب وتكسر قشرتك الخشنة التي ظلت زمناً تتدفع بهاء» (ص ٣٢) بينما زميله الفلسطيني يصبح فيه بصوت كالصراخ: تجلد يا رجل ولا تستسلم. (ص ٣٤) وعندما زار سوق نابل بجدة شدد بصره النساء «بعباءات فخفاضة، وجوههن مسقورة بالخمار، والعيون نافذات كالبريق» بينما شدته الهندامات ببطنونين الموشومة والعارية، وبموجب ألا يحظى هذا المنظر بالانتباه. (ص ٤٤) معبراً بذلك عن أحد الأبعاد السكانية لغربته بعد أن كشف لنا عن مبدئين سابقين: الجو المشحون بالقيظ ومراقبة الواقفين وغير الواقفين.

وفي الطريق الصحراوي من جدة إلى البلدة الساحلية الصغيرة «يتعفن وجه الصحراء في فضاء رملي ساخن يقبض على الروح» (ص ٦٣). وتركز رمز الرعب في شعبان لم يذكره الراوي بالاسم لكن بالوصف ولئن افصح أنه ليس من النوع المام (ص ٦٤) إلا أنه في الصحراء «إن فقدت سلاحك خاسمك الأمان» (ص ٦٥) لكن الشعبان وبقية الكائنات الصحراوية ليست التهديد الوحيد في الصحراء، بل إن رمليها نفسه تهديد آخر فمائلت العربية ما أن أحكم قضاها وأدراها ومضى خذراً تجاه الخيمة وقيل أن يصل انطلق الرمل للقطنين وطوى العجلات وأطبق عليها. نزل وتبادل في عصيبة، كيف تجاهل مراوغة الرمل وخداعه» (ص ٤٧)، لكن

المحنة ما لبثت أن تحولت إلى منحة، فقد وجد المرتحلون المتعطلون أنفسهم أمام خيمة بدوي وطبق أرز واسع محشو بقطع اللحم ليتعرف صابر على الأسلوب البدوي في تناول الأرز، فزميله دهب أصابعه في طبق الأرز الواسع، جمعه بكفه، كوّمه وشغفه في باطن الكف حتى بدا كأصبع غليظ، رفع اليد ودفعه برأسه إبهامه إلى الفم (ص ٧٥). بينما عجز صابر عن تناول الطعام بهذا الأسلوب فاستخدم ملعقة بلاستيكية (ص ٧٦). وهكذا تطورت عادات البدو، فأصبحت خيامهم محطات انتظار للمسافرين وتدير الأغراض اللازمة للاستضافة مدفوعة الثمن (ص ٧٧). وتلوح رائحة البين والهبل بينما رجل التعليم المرافق يواصل حديثه عن الصحراء: الجوارح وهي تنقض، والذئاب وهي تترصد، والنسور وهي تبني الأعشاش وتعالى، والبنات وهو يتأفخ على الجيف، والحملان وهي تروغ، والبشر حين يضيعون، والرياح حين تنصف فتقلعك بخيامك، والرجال وهم يقفون على رأسك يقفون حلالك أو يظلمون ثارات.. كل ما في الصحراء ينادي بعضه بعضا، ويحذر بعضه من بعض (ص ٧٨) ومن لا يواجه الصعب لا ينعم بالسهل (ص ٧٩) ما أشبه الصحراء المكشوفة، بالغابات الكثيفة الأشجار، كل منهما مزدهج بالثني والأسرار والرعب.

ويهس بظلنا صابر لنفسه - ويبدو أن لاسمه علاقة بدوره الروائي. وظاهره مخالف لباطنه - وأنت للتوجس دائما فتتعد، بظنونك عزوفا عنهم أو متعاليا عليهم، مع أنك تحرس على تجنب مثل هذه المواقف، وتسعى إلى تصحيح ما يأخذونه عليك.. وتمعجز كثيرا، وأنت تعي ذلك.. فالحاجز يلف بينك وبينهم، يعكر المسافة، ويؤلب الشعور، مع أنك تتننى - في الحقيقة - لو ذبت فيهم ووزعت عليهم ما تنوء به (ص ٨٠).

ثم يرتد بظلنا صابر إلى مرض أمه الميت مستخدما ضمير المخاطب لنفسه حتى أفاقه زميل رحلته حين أحتد عليه ناصحا كالمفيط مستخدما لغة محلية تلون الأسلوب: يا رجال.. أنت ستعيش مع أودم. فغربة المكان قاسية، وكان لا بد أن أقرب من الناس، أهل البلد، فيتواري الإحساس بالوحدة والغرب. لكنه عاد يحذره: سيتحالف عليك الرمل والخلاء والوقت الطويل واقتاد الصحة وعليك أن تواجه ذلك كله وإلا (ص ٨٣) كيف تقوم بواجبك وأنت على هذه الحالة (ص ٨٤) وما ثلثت الأشداد أن تسيطر على السرد دلالة على معركة داخلية تدور رحاها لوفد لم يألف المكان: يوم أن وصل إلى المكان قرّ في داخله أنه مفارقة (ص ٨٤). فقد أزعجته - وليس مجرد أمهشله كما يعبر راويثنا - معمار البيوت المتواضعة كأحواش المقابر (ص ٨٤) بينما السائق يشير إلى عايش الغامدي وكيل للدرسة وصاحب بقالة قائلا له «معلم جديد.. تركوه الصاورة» (ص ٨٦).

وظمأنه عايشي أنه سيبيع له بالأجل، فلم يحصل على مرتب بعد وإن مد يده إليه بورقة من مائة ريال (ص ٨٧). وقاده العايشي إلى مسكن أكثر تواضعا ربما من مساكن ريف مصر (كأحواش الموتى، والفضاء الواسع لا تنقصه إلا نباتات الصحراء (ص ٨٨). ليستقبله مختار الذي كان يحتل الطرف الآخر من البنت (عنوان روايتنا): حجرة صغيرة بابها مسجج بالسلك بينما قاده عايشي إلى شرفة أكبر اتساعا، شد انتباهه فيها سرير بمعدان، خديجة



تحيطه كلة ببشاء معتمة (لاحظ اللقاء الأضداد) قوائمه مغموسة في علب من الصفيح المثلث بلأه تجنبا لأذى التاموس والمقارب (ص ٩٠). وهكذا أدرك بطلنا أنه انتقل إلى مستوى حشاري مختلف ومتخلف. لهذا فلا عجب أن يقتابه كابوس نطل فيه الحبيبية باحثة عنه ومتسائلة في لغة شاعرية عذبة: ما الذي جعلك مطروحا في الكون.. أشعلت الرغبة وأججعت الهوى. ثم تواصل بأسلوب يتعاقب فيه اللفظ وشدته وكأنها تنشد: ما بالك تنجلى حتى تكاد تخفتي؟ عدوت رامحا لأجمعك، استعصيت، رأيته مهنرا دمك وأنا الذي حسبك خالما لي.. تتخلنى عني وتقصيني. يحجزك الماء، الماء الذي يتمدد حتى كاد يفرقك.. وأنا الذي أجهل العموم أنفذك.. وأنت تستكين في الورق، يحصرك ويبعدك، وأنا الذي أجهل العموم أنفذك. (ص ٩١-٩٢) حتى أيقظته عما الأمر المعروف بدعوه لصلاة الفجر في المسجد الكبير مما دفع بطلنا إلى أن يعلو صوته مغيظا: «أعذا وقته؟» (ص ٩٢) بينما الأمر المعروف ينهه زميله صلاح إلى أن ينتظم في الصلاة ويدع الكسل بل ويوقع بالحضور (ص ٩٣) مما دفعه إلى الاحتجاج «لم يبق إلا أن أوقع في الدفتر على عتبة الجامع» (ص ٩٣) فنصحه الغامدي شاحكا أن «يهاديه» فالشبكة التي ينسجها الأمر متقنة الصنع، لكن ثوبها تتسع (ص ٩٤).

وفي المدارس الابتدائية التي زارها مع طلبته أغراه التعرف على حماماتها فهي «المرآة الحقيقية لنظافة المكان. الحمامات جماعية، تنشع بالربطية، والمياه تندفع رفيعة من ثقب المواسير الصدئة، والرائحة تزكم الأنوف، والباعوض يترصد من ينامر بالدخول، وخزانات المياه مكشوفة ومعبئة. مما ذكرني بقصتي «اعترافات شقيق الخلق والثانية» حيث مستوى دورات المياه العمومية في أية دول يعبر عن مستواها الحضاري.

ويلخص بطلنا أزمته التي لا مهرب منها. فهم يفر من الخارج القائل: يتكالب عليك الزمل والزواحف والخنود ودوائر اللع الببشاء في الأرض السبخة.. واللهب يهب وتعجز عن اتقاء رشة الشمس (ص ٩٨)، فيلجأ إلى عزلته التي يحشأها حيث «تلتف حول نفسك تلعق الألم، والجفاف يصحبك، وروحك تذوي» حتى حين يهرب إلى صاحبة الشعر المنسدل «لم تعد قادرا على اصطلاذه» (ص ٩٨) «حتى فر منك، وانطمس الشعر» (ص ٩٩) بينما يرفع زميله صلاح طرف كلته لتراه بملابسه الداخلية، «تائها مشيعا ينظر إليك كأنما يبغى سماعك» وهو يمثل لك هذه المفارقة: حين تبعد عنها تقترب منها (ص ١٠٠).

ويرتبط حراسانهم من طراجة الحشور الأنثوي إلى الحرمان من طراجة الطعام الأنثوي، لهذا أعلن مختار قائلا: حين أزهد من المعليات أعزم نفسي على أحد المعارف فأكل الأرض باللحم وأحسني المرق. (ص ١٠٣).

وبعد أن كان الشكل الروائي مجموعة مراحل متتابعة في حياة الراوي أو البطل الروائي، يتحول إلى مجموعة قصص متتابعة، أولها قصة ذلك السوداني الذي كان يعمل بالمعهد منذ ستين وكان مولعا بالخمر والتدخين، وعندما رفض طلب الحارس الذي شبطه متلبسا أن يرشوه كل شهر نظير سكوته ألفوا عقده آخر العام فليس الحارس أفضل ممن

يحرسه. تتلونها قصة العجوز البيضاء وأمتها السوداء، وإعدادها مائدة كبيرة بمناسبة زواج ابنها الأخير والذي يعمل خارج الوطن دعت لها كبراء البلد، وظالت السمهرة، وفي الوداع تقدمت وسلمت سافرة الوجه في حشمة طاغية وسلوك محترم (ص ١٠٩) قصة عادية في مجتمع مغلوج.

قصة الزوجة الجديدة الصغيرة لتجديد شباب الحارس، ثم قصة داخل هذه القصة على نحو ما نقرأ في بعض قصص ألف ليلة وليلة التي تتداخل في بعضها البعض حين يروي الحارس قصة المصري عبد العزيز الذي انتهكت زوجته أثناء غيابه عن بيته فاسافرا في إجازة نصف العام ولم يعودا ولا طالبا بحقوقها المالية والمعنوية وكانا يعلمان ألا أحد يقادر على المساعدة، وأن سفارة بلدهما غائبة عن الوعي ومنتهكة (ص ١٢١) ويعلق بطلنا «من يخير المترهين على دست الحكم في بلده أنهم طاردو أبنائهم وأول المنتهكين لهم» (ص ١٢٢).

بعد هذه القصة أو الحدث الاعتراسي ذي الدلالة على أن الجريمة لا يحول دون اقترافها حصون دينية ولا أسوار أخلاقية بدليل أحكام الإعدام المتواصلة التي تنفذ علينا بعد صلاة الجمعة على مدار العام نقرأ حكاية محمد الأبيض الذي لدغته عقرب في كفه اليسرى وهولاً أن وجدنا الطبيب في بيته ما كنا نعلم كيف ينتهي الأمر أي رعب يعيشونه، حتى حلم البقطة بالوجه الذي كان يمكن أن يتأى بصاير عن هذا الكابوس الذي يجثم عليه في يققته بدأ يستعصي عليه، مما دفعه إلى معاقبته ما الذي جعلك تهرب ولا تتجلى أيها المراوغ؟ (ص ١٢٦) وما يلبث أن يرثي نفسه فائحا (ص ١٢٧) مما يغضي به إلى استدعاء الماضي مشوها حين تعرض - وهو ما يزال بالصف الأول الإعدادي - لإغواء أرملة والده زميل له ظل يتردد عليها حتى أخبرته أنها ستزوجه على كتاب الله وستة رسوله، وحذرتة من المجنى مرة أخرى (ص ١٢٠) وما هو وجهها المملوخ يعود ويدها المحترقة وينكأ السرداب المملوء بالخوف (ص ١٣٩).

بعدما واجهه عامل الشامي (القهوجي) السعودي وهو يتابع ما يجري من أحداث ليعلم أن الحرب خربتكم، فعلمها عبد الناصر ومات.. طردوكم علينا.. بالله نحن أولى بالمال منكم، مما يرغم صاير على الدفاع قائلا: ليس في ذلك عيب.. والله خلق الناس أمما وشعوبا لتعارفوا (ص ١٣٧). لكنه فيما بينه وبين نفسه همهم: ها أنت محاصر ومتهم ينظرون إليك نظرة الذي ينتهب فأنت الآن تسرق مالهم وتخطف أرواحهم (ص ١٣٩).

وننتقل إلى حفل صيد السمك ليلا وفضائله التي يحدث عنها زميله مختار، ليتنقل بطلنا من حلقة البحري على جناح ذكرياته إلى حفل ليلي بالجيزة حيث نمت علاقة بينه وبين فتاة وصلت إلى عرضها مشروع زواجهما، عندئذ اقترن صيد السمك بصيد الأزواج فقد «غاصت عيناه في الماء والسمكة تلتهم الطعام وتغوص به، وتقلته بينما ابتسم صاير لها وهو يقول «أخيرا غمرت السمارة» وحين أدارت ظهرها قال: البحر يثير الوجد.

ثم ما يلبث الراوي أن يتقلنا على مياه النيل ومياه ذكرياته إلى مغامرة من مغامرات شبابه مع فتاة كان دوره فيها أكثر إيجابية حين أبحر بهما اللشش شطر التقاطر مصحوبا

بالزغاريد والموسيقى العالية وأنغاني أفلام الحب، وفي مقهى جميل بالتقاطير دبر العامل سذارة وطعما وهو يهيمس في أذنها همساً ذا دلالة مزجوجة: ستلوز بـسيد سمين.. وعندئذ أسرع يقول: وصلتنى رسالة من تحت الماء، سألتك عن قحوى الرسالة فأجب: تقول الرسالة: ملك البهلوية.. سبقتنا إليك، أغرأها طعمك وفتحت لها قلبك فدخلته وتمكنت (ص ١٢٧).

ونفخ من هذا الماضي الرومانسي البعيد نستمتع إلى قصة من أقصى الطرف الآخر، قصة مدرس العلوم في المدرسة المتوسطة المرتبط بعلاقة «مكينة بأحد الطلاب حتى شاع الأمر» ثم اعتاد الناس الحكايات المتشابهة فقلل الاهتمام (ص ١٤٨). بينما أعلن الحارثي مدير المدرسة أن للصحراء قاموسها السلكتي «لهب الصحراء، والبلوغ المبكر، والعوز الشديد، وغلاء البور.. أسباب حاكمة» (ص ١٤٩). ثم اتضح أن القصة — كقصة الدرس السوداني.. مسخت عليها عامان. فراونا يذكرهما — ربما — من باب التأريخ للمنطقة وسليبتها وإيجابيتها.

ويتلقتا السرد من هذا الماضي القريب إلى الحاضر الروائي حيث تخلف بطلنا صابر عن حفل عرس نجل الشيخ فلاته في مضارب القبيلة لينفرد برؤيا ذات الشعر المنسدل، حين أخرجه من إغفائه صيرير الباب لتدخل منه الجارة وقد «أحكمت عبايتها وأرسلت حجابها على الوجه كله» (ص ١٥٣) مطمئنة إلى ذهب زميله وزوجها — حارس العهد والمطوع — إلى وليمة العرس «القصر بدنه وشملت رعدة تنقلبة، وخشي أن تكون هناك مكيدة مديرة» (ص ١٥٣) أحس أنه يواجه امرأة داعية فالترزم الحذر وظل ثابتاً (ص ١٥٤) لكنها ما لبثت أن أعلنت عما دفعها إلى زيارته، فقد اختارته لمساعد فرثها الجديدة في علومها، فهي طالبة بالسنة الثانية بالموسطة، وقصدته لأنه على حد تعبيرها: طبيب وخام وأثق فيك وهي تريدك أنت (ص ١٥٦) فيعلق معياراً عن تعالق الجنس والرعب: أي خلط عقلي تحدثك به المرأة الهلوك، وترمي به في هوة سحيقة لا قرار لها. تسلط عليك أفامي الحس، وتعاين الهوى فتحاصرك.. إما أن تقبل أن تدبر لك مكيدة مما يذكرك بقصة يوسف عليه السلام، وما ذكره بقصة زميله عبد العزيز وزوجه. لهذا احتج قائلاً: كيف أدرس لامرأة. أجابت: كما تدرس للولد.. أهي حية تنهشك؟ وكيف تنكشف على رجل غريب ولو في خلوة العلم؟ (لعل تذكر درسه مع خطيبته مجهولة الاسم شأنها شأن كل حريم — ولا أقول نساء — الرواية، إذ يبدو أن محمد قطب قد سرت إليه عدوى البيئة التي استوحاها فطبق تقاليدها على كل شخصياته النسائية دون ترفقة، فتطمئن: لن ترى سوى عينين ولساناً وشفتين وساكون موجودة كالتيديان.. الدروس الخصوصية ممنوعة، لا أستطيع. أجابت مهددة: الأفضل أن تقبل.. تهددني. تستطيع إذن أن تدعي ما لا يحدث: لا بد أن يطلب الزوج ذلك مني حتى أطمئن.

وما لبثت أن نستمتع مرة أخرى إلى قصة داخل هذه القصة، قصة البشر في قرية الأحد التي تشفي الأمراض خاصة ما يتعلق باليشرة والباه (ص ١٧٣) والعراقة التي اختارت مكانها قربها من البشر تقرأ طوائع النساء والرجال في فتجاتها المنكس حين همست له: ليس في قلبك إلا صورتها (ص ١٧٧) بينما هو يدعو «حققي حلولك في الشرايين والأوردة» (ص ١٧٨) قرار أساسي في الرواية يربط بين

????????????

ومن ذات الشعر المنسدل إلى منطاحرة الكباش. شاهدنا مناقرة الديوك في تايلاتد، ومصارعة الرجال مع الثيران في مدريد عاصمة أسبانيا، ومصارعة الثيران في سلطنة عمان واحتجاج المتدينين ضدها. وها هو محمد قطب يحشد فصلا في روايته لتشاركه الفرجة بينما لا يتحرج أن يبلغنا ما يجهر به شيخ بصوت سموع: لهو لا يقره شرع (ص ١٨٠) ونستمع إلى الإجابة نفسها التي طالما سمعناها في ظروف مشابهة: هو ما عهدناه من الآباء ألا يشابه الأمر كرة القدم؟ لكن البهائم تتألم. إجمع الغنم لتخطب فيهم وتحرضهم علينا (ص ١٨١) فالنقل يدعيها تسليّة تاريخية ولهو الإنسان بالحيوان وحشد الجماهير التي أقبلت للفرجة انصهرت على معارضة فرد حتى لو استلجذ بالشرع في بلد دستورته الشرع. ويتساءل القارئ عما إذا كان لا تنصاع الكباش المجرد من كل زينة على منافسه الذي أسرف صاحبه في تزيينه له دلالة لاسيما عندما يعلق الراوي على هذه النتيجة قائلا: ما الذي جعل الغنم التاحل الذي زين كبشه أن يقدم على هذه العادة التي جعلته يتباهى وينسى المطلوب منه؟ (ص ١٨٢). ويواصل الواقع عناق بالرمز حين نستمع إلى من يقول: نمر رخيس - شغله الترتير عن المناطحة (ص ١٨٣) هنا برز الشيخ من جديد معلنا ومعلقا على ما سبق أن استنكره: حب الذات يورد الهلكة.. لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر (ص ١٩٨) قصة قصيرة جميلة.. معنى ومبني من بين المجموعة القصصية التي يختتم بها محمد قطب روايته، يجمع بينها المكان وربما الزمان.

ونعود إلى ما انقطع من دعوة بطلنا لإعطاء درس لزوجة الحارس الفتية. جاءت الدعوة هذه المرة من الحارس نفسه: الشيطان - والعياذ بالله - ركب البنت، تبغي الدرس وتكمل، ومعلماتها أجهل منها (ص ١٨٧) وأذن صابر لطلب الحارس بشرط أن يكون هلا مقابل «وساحبه شعور بأن الدرس المعروض عليه كالتدريج» (ص ١٨٨) لا فكاك منه.

ومرة أخرى نقرأ قصة من داخل قصة، فقبل أن نعرف مسير حكاية الدرس المعروض كالتدريج على بطلنا صابر نستمع إلى ما يمكن تسميته فاصل بينما نحن في حالة من التوتر مشوقين إلى معرفة النهاية، حيث يروي لنا الميرفتي ملتقى اللغة العربية قصة غرام وانتقام لقرود كان يقتنيه أحد المدرسين لهصحبه في سفراته الصحراوية مستأنسا لهحميه من أكلة اللحوم. كان يعمل في قرية بالجنوب في الجبال العالية انتهت باحتلال القرود غرفة نوم المدرس مع قرودة، فلم يبقى إلا أن ينأى في ركن صغير بالقضاء الخارجي، وظل على هذه الحال إلى آخر العام الدراسي حين ألفوا عقده، كان قد جن (ص ١٩٢).

ثم نعود مرة أخرى إلى ما انقطع من قصة صابر مع تلميذته زوجة الحارس الفتية، حين نقرأ هذا التساؤل المشغور بالرمز: ما الذي أتى بالعصفور الداكن ليقتل على الجار العالي الذي يفصل بين البيتين (سكن صابر وبيت الحارس) ويروح وينقر الفتحات ويرسل جناحيه ويطويهما ثم يظهر باعنا بأصواته الصائتة كأنها رسالة (١٩٢). بعدها نقرأ قصيدة تروق جسدي عاطفي في ختامها «حق الشيخ مطلبها، واستكان لها، دافعتها بجندها فترج» (ص ١٩٣). تتالت بعد ذلك هزائمه أمامها.

وكأنما محمد قطب يأخذ قارقه في رحلة سياحية ليشركه فيما أتاحت له أن يعايشه فيدع روايته بأخذ قارقه معه في جولة بسوقية من سويقات البوادي، لكن السوق ليس مجرد بيع وشراء بل لقاءات بين الجلوسين يشخصها الحرمان (ص ٢٠١)، وتعود من جديد إلى قصة صابر مع طالبتة العروس الفتية كأنها القرار في ترتيلة تجمع بين تقيضين: شيق ورعب ووفي أول لقاء كشفت عن نفسها، باحت حركاتها بما يحتمل داخلها. ماذا تخفي هذه البنت في الروات القادمة. كان صوتها — مع أخطاء القراءة — جميلا، وكأنها تدرت على توقيع الحذاء.

وهكذا، كما بدأت روايتنا وبطلها يعطي درساً لتلميذته أفضى إلى خطبتهما فإنها تنتهي وبطلنا يعطي درساً لتلميذة — ربما في عمر خطيبته — لكننا زوجة لشخص من شيوخ البادية، فإذا كانت العلاقة الأولى في مفتاح روايتنا بين بطلنا وتلميذته أفضت إلى قصة حب فزواج، فإن العلاقة الأخرى — في نهاية روايتنا — أصبحت مصدر رعب. وقد تصارعت عليه الملاحظتان: نهرتها، زجرتها، حذرتها أن تتلبس بوجهك المحبوب فتلوثه أو تكدر سمرة (ص ٢١٢).

«ألا يكفوك وجعك الذي يتأبى عليك فتروح تتشغل بهذا الجسد إلى ينز شهوة (ص ٢٠٢) لم يدرك إن كان التأبى جاء عن جبن أو قيمة — اختلط الأمر وانهمم (ص ٢١٩) ويتساءل: لماذا لا يتجه نحو وجه الحبيبة الثالثة «أيسر له بعنايات الرحلة ومسراتها السحيقة؟ ثم يعلن قراره مختلما به مغامرته: فكما جاء يعود لكن بعد أن أثرته التجربة، ثم يقص لنا محمد قطب عما انتواه بطله صابر في جملة مشحونة بالرمز: «ويخلق قديمه في جهد ومثابرة من قبضة الرمال الحاكمة» (ص ٢٢٠).

- ٣ -

تبدأ روايتنا وفي ثوب غزالة لعزة بدر بداية تليق أو توحى بما سيتلوها ولا ينفصل عنه «تبدو جميع الأبواب مغلقة والنوافذ أيضا، مبنى السفارة مصمت لا تستبين منه كوة» (د. عزة بدر، في ثوب غزالة، كتاب الجمهورية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٣) واقع ورمز لنا سنكشف معه ما يمكن تسميته بالمجتمع المغلق، مجتمع وسلطة ترى أن الفضيلة يمكن السيطرة عليها في سرّة، غير أن شدة القبضة تؤدي — كما سنرى — إلى تصرفات احتجاجية حيناً عكسية حيناً آخر.

ويستمر الواقع / الرمز في التمهيد الروائي: تصارع المنتفرون... تسابقوا في الوصول إلى الأوراق وجوازات السفر ذات القدسية التي انهالت على الأرض بينما انفتحت الشبابيك في الأعالي وظهر موظفو السفارة ليتأملوا المشهد، يضحكون من اللهفة التي ترتجف لها الحلق والجافة، والتفرقة هنا ليست بصرية فقط ترمز إليها فوق وتحت، فالهدعة تدعما بحاسة الشم أيضا: رائحة العطر النفائذ المعنة في الترف والغارقة في المسك تستلزل الأنوف الغارقة في العرق. (ص ٤) فجوة بين محتاج ومن يشوهه بالفضل نذكر أن الضمير المتكلم هو ضمير بطلتنا هدى التي تبدأ روايتها مع بدء حياتها العائلية، وهي عروس لباسم ينتظرها منذ بطلتنا هدى التي تبدأ روايتها مع بدء حياتها العائلية، وهي عروس لباسم ينتظرها منذ

ثلاث شهور ريثما تنتهي من إجراءات السفر لتبدأ رحلة الزواج في البلد العربي الشقيق. «كان عليه أن يتم غريمته وكان علي أن أبدأ غريمي» (ص 4) كان ثمة معركة بين الصورة والواقع: صورته وهو يحتفل يدي تدفئني لإتمام إجراءات السفر، ومشهد الشباك والأوراق والملقاة من الأعلى تدعوني ألف مرة للكنوص والتراجع. وهذا التذبذب بين الإقبال والإدبار سيصبح سمة من سمات السيرة الروائية. وقد انتصرت الصورة - رغم أنها صورة - على المشهد البائس، فعندما لجأت إلى قسم الشرطة وتماعت مع فتاة في مثل عمرها تدلف بيومي إلى القسم للإبلاغ عن موضوع ليس من اختصاص الشرطة لأنها «تعبانة نفسها»: لاحظت ثمة شيئا بين ملامح وجهي وملامحها، فكلانا حزين بشكل ما... مجروح بطريقة ما (ص 5) لكن ما يرجح كلفة الغامرة أنها في طريقها إلى «بلد الشبي الغالي» (ص 5) وليس إلى زوجها فقط، دافع روحي آزر الدافع العاطفي الاجتماعي.

ثم ما تلبث عزة بدر أن توضح معالم المرحلة التاريخية التي شكّلت وجدان بطلتها حين أفسحت عن تساؤلها: ألم تدرس المناهج التي صعدت بالثورة إلى السماء في عهد عبد الناصر، والمناهج التي هوت بالثورة في عهد السادات. إنها ابنة هذا التناقض الرهيب والمغاهيم والأفكار (ص 9).

ثم ما تلبث أن نعود إلى فجر التاريخ العاطفي لبطلتنا حين تتعرض أنوثتها في مرحلة الدراسة الجامعية: تحرشات ممن ترفضهم مثل ماهر، ودعوات لمن تستجيب لهم مثل باس. وما تلبث أن تنتقل إلى مرحلة ثالثة وبطلتنا تعد رسالة جامعية في تاريخ مصر الحديث، لنشدها شحبة صراع بين أساتذها الدكتور نزيه المشرف على رسالتها والغربي الهول، والدكتورة فاطمة سليم مؤلفة أحد مراجعها الذي تنقل عنه والتي تعارض اتجاه الأرمكة للدكتور نزيه. ومؤلفتنا - عن طريق بطلتها - تقدم لنا صورة مجسمة لأستاذها سواء من خلال ديكور مكتبه أو محادثته الهاتفية مع سيدة تدعى كلود، أو حديثه معها هي. ويختتم القارئ هذا الفصل حين تسفر البهلة عن شخصيتها: أنا المعلمة.. لن أبحث عن أستاذ (ص ١٩) سرد وحوار مشحونان بالحيوية الدافئة. فعندما نتحدث بطلتنا عن قاهرة الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) تؤكد بذلك شخصيتها ونصها يتأرجح بين الزمنين: الماضي والحاضر، وهي سمة ستلازم النص الروائي دلالة على أن ماضيها - ليس ماضيها الشخصي فقط بل والحضاري عن طريق رسالتها الجامعية - مكوّن من مكونات حاضرها.

وإذا كانت بطلتنا قد سبق أن عانت - على المستوى الجماعي - التفرقة بين أهل وطنها من العمالة المحتاجين إلى العون المادي، والمادة الجيران المحتاجين إلى العون الحضاري، فإنها ما تلبث أن عانت المشكلة نفسها على المستوى الفردي حين قصدت لمقابلة الأستاذ راشد المعني ممن ينتمون إلى الطين من الشبابيك في الأعلى - بعد وساطة خالها - فحاولت رشوته بمرس اهتسامه على شفتيها، بينما تلجأ إلى حاسة الشم لتتبرع عن المسافقين، فقد داعمتها رائحة عطره (فوق ماديا) ثقيلة (تحت حضاريا) مما دفعها إلى التعبير عن رد فعلها: أذهلتها وقاحتها - يبدو أن راويتنا لا تدري أن ما يقوله هذا المسؤول عن متقدمين

يحملون شهادات دراسية مزودة إما يعبر عن واقع يحدث فعلا - لكن ربما كان رد فعلها الاحتجاجي ثمرة أسلوبه الهجومى حتى أنها حين حاولت أن تتعالى عليه بإبلاغه أنها لن تسافر للعمل بل لحراسة دراستها العليا، وأصل أسلوبه الساخر: حسنا هناك أماكن للعمل في رياض الأطفال، كان الشهد كله ثقبًا ملغما بإرثاعة عطره اللثيمة (ص ٢٤) هكذا توتر الموقف إلى درجة توظيف المطر لعكس ما يُستخدم وهكذا حصلت على تأشيرة الدخول إلى الغربة على حد تعبيرها.

وبداخل الماضي لهدى على تنهذب بطلتنا بين أستاذيها: الدكتور نزيه غريب الموهول، والدكتورة فاطمة سليم الفرنسية التعليم. وهنا - وفي أكثر من موضع - تكشف عزة بدر من خلال شخصياتها الروائية عن معرفتها الموسوعية من تاريخ مصر إلى الأدب الفرنسي وتوظيفها روائيا.

ثم تعود إلى الماضي القريب لهدى حين خلق قلبها لأول مرة في حديقة الأورمان المجاورة لجامعة القاهرة وتذوقت واستمتعت بأول قبلة، وعانت تجربة حبها الأول الفاشلة مع معتز حين اكتشفت أنه دون جوان. وهي توقف التراث هنا للسخرية، أو لتجاوز هزيمة عاطفتها البكر حتى تسأل دون جوانها: كيف جمعت في قلبك حين؟ فيجيبها مستدعيا كلمات المتصوفة رابعة العدوية من مجالها القدسي إلى مجال عيشي: حب أنت أهل له.. وحب لأنها أهل لذلك. لكنها - وقد تكشف لها خداعه - تحسم العلاقة بإعلانها: أنت لا تحب سوى نفسك (ص ٣٠).

وتقفز إلى الحاضر القصصي لتجد بطلتنا هدى وقد أصبحت أكثر نضجا، وتبرز شخصيتها القوية حين تروي لنا مبدعتها أنها هي التي اختارت باسم القلب والعقل مهندس كمبيوتر يكبرها بأربعة أصوام، يبحث عن عمل في دار الهلال. كما يلتفت نظرنا دورها الإيجابي: نفذت نظراتها إلى قلب النائم الوسنان، فأيقظته في حنان (ص ٣١). وليس أدل على إيجابيتها أنها قررت ألا تكون هذه السفرة معنا ضاعها ولا إنما رحلة الزواج فقط بل ولابد أن يكون لها مشروعها الخاص، حلما الخاص (ص ٣١) مما دفعها إلى الاطمئنان على حقيبتها المخصصة للكتب قبل حقيبة الملابس دون إلغاء شخصيتها الأنثوية: خلق قلبها وقد وقع بهرما على قصصان نومها.. الحاصلات الرفيعة والتل والورد المصعب.. والقصصان الشفتيني (ص ٢٢) ويعبر باسم عن التحام ثقافتها بأنوثتها حين نسمعه يعلق ضاحكا على قسيس رمادي منقوش على الصدر بورود بيضاء صغيرة تشبه زهور الفل: هذا قسيس نوم مثقف (ص ٣٠). كان كل منهما يكتشف الإنسان البكر في الآخر، وكانت حلالة الاكتشاف هي التي تجذب كلا منهما قبل أن تحول الألفة - فيما بعد - علاقتهما إلى مرحلة أخرى.

وتواصل هدى الإطلاع بثقافتها حين تتناهى إليها أسداء هارب فرعونى وأغنية فرعونية وهي تطير مغادرة وطنها: وأسفا إن نفسي لتذوب حمرة على المدينة والكنوز.. مدينتي منق والكنوز.. وأهش أن عزة بدر قد احتشدت لإبداع روايتها: بالحماس والدرس، بالقلب والعقل، كما تشارك بطلتها نظرتها الانتقادية حين اكتشفوا عطلا بالطائرة بعد

إقلاعها فتنسأل: لا نكشف ذواتنا إلا لحظة المغادرة، لحظة الإقلاع (ص ٣٤) وهي نظرة تقنية ستظل تلازم هطلتنا طوال السرد الروائي. كما أن أول رد فعل عند وصولها رؤية تجمع بين الإيجاب والسلب، وهي سمة أخرى من السمات الملازمة لرؤية راويتنا: أرض شقيقه بحكم الخريطة واللغة والجغرافيا والحقيقة إلا أن صهدها بدا لافحا قاسيا من أول لحظة على الرغم أننا وصلنا إليها ليلًا (ص ٣٤).

وتدرك الراوية أنها وصلت إلى مجتمع مختلف يعلن عن ذلك مظهره قبل مخبره: فلباس الركابات تتبدل - تغير في المظهر - اللواتي كن قد أخذن زينتهن عند الإقلاع تجلبهن في ثياب سوداء، فلم تترك سوى أعين براقه مكحولة (ص ٣٥). وواضح مما تخبره من ألفاظ تحيزها ضد ما تشهده: كتمن الأنفاس بقماشات ثقيلة سوداء.. كأننا سندخل غرفة معقمة بالسواد.. كهوف صامتة.. لكن إذا رسمت وجهها بلا شفقتين فماذا تكون النتيجة؟ يكون الواقع أسوأ لو رسمت وجهها بلا أعين ولا شفاه (ص ٣٥). وإجراءات الخروج من المطار ليست أقل تعقيداً: فلا يمكنك أن ترى الناس يتعائنون، أو أن تعطي المرأة بكامل حريتها إلى فتشك أو إلى جوار معارفها وهنا اكتشفت أن المرأة بالذات لا تستطيع أن تتجاوز الخط الأحمر.. المرأة هنا لابد أن يتسلمها رجل فهي كالحقيرة لا تُسلم إلا لصاحبيها (ص ٣٦-٣٧) فلا عجب أن أسباب الهلع إحدى الركابات التي لم يكن زوجها في انتظارها.

ومن هذا الوجه السلبى لتقف راويتنا إلى جو إيماني وتعبر إلى بلد النبي الغالي، حيث تبدو المدينة من بعيد كأنها قطع من الضوء اللألأ على جبل عال، هنا «غار حراء»، وهنا «جبل ثور» هنا «أحد» جبل يحينا ونحيه، وهنا جبل «أبو قبيس»، وهنا «جبل الطير» (ص ٣٨) ثم تلطم سردها بأغاني الحب لبلد النبي. وتسترجع ذكريات حج جدتها والنقش على جدران بيتها - بعد عودتها - برموز الحج ما بين رسوم وآيات قرآنية. وهنا تسجل راويتنا أحد التطورات بين الرحلتين: كانت قد حملت جدتها باخرة، واليوم حملتها هي طائرة.

أخيراً وصلا إلى «البيت» فيترقق الأسلوب ترقيق «مشتاق يسعى إلى مشتاق» ويتماس مع لغة الشعر حتى كأننا نقرأ نشيد الإنشاد لسليمان الحكيم: حملتي بين ذراعيه، فمرني بقبلاته، وأن لنهين أن تتزاح بينهما السدود.. على صدره الواسع تركت خصلاتي كجميزة عتيقة أشرب بجذوري في أرض صدره الواسعة، فوق صدره يستطيل السعف ويثمر الثمر (ص ٢٤) ولأن سمة من سمات روايتنا التآرجح بين الإيجاب والسلب، كما بين الحاضر والماضي، فإن السكن في الصباح بعد خروج باسم للعمل ما يلبث أن يبدو موحشا، وحين تلتمس حقيقة مراجعها سلوتها في هذا الفراغ العريض - لإعداد رسالة الماجستير - تتذكر أنه لم يسمح لها بها إلا بعد أن أبرزت لضابط الجوازات خطاها من الجامعة يفيد أنها تعد رسالة للماجستير (ولابد أن أحداً نبهها إلى اصطحاب مثل هذا الخطاب)، بينما يتحدث زملاء باسم عن مصادرة ما معهم من كتب ومجلات قبل الدخول إلى المدينة (ص ٤٢)، تقصد الدولة. أما الأثاث فهو يشير وعيب العروس: موتور التلاجة يئز بشكل شره، وفجأة ينقلب كأن التلاجة قطعت الأنفاس.. والفسائية صغيرة يبدو أنها لفصل قطعة ملابس واحدة فقط، وطلقة نار



اليوتاجاز مخفية مما حفزها إلى العدو تجاه باب جارتها (ص ٤٩). وكما نقول رب غشاة نائمة فقد أدى ذلك إلى التعرف على جارتها الباكستانية لثمنائس بجيرتها هي وبنايتها الصغيرات.

وبدخول الزمن في العلاقة بين الطرفين تحول العاشقان إلى فأرين دخلتا الصيدية فجأة وكان عليهما أن يتعاشيا: عجبت للشوق كيف يتبرد وكيف يخبو يوما بعد يوم.. بدأ كبيرا وها هو يتقلص ويتكشمش على نفسه مثل قط في ليلة شتاء (ص ٤٧) وقد قيل إن الفرح — مثل الألم — الوحيدان اللذان يولد كل منهما كبيرا لم يضمحل. لكن التحول لم يكن فقط في المواطف، بل تحول آخر مواز — ربما مشاد — في قوام هدى من عود خميزان إلى شجرة بلوط. من رشاقة سنيديانة إلى شجرة جيميز (ص ٤٧) تحول ثالث في علاقتها بجارتها الباكستانية: البسات شغلن بدروسهن، والألم تحتاج ترجمانا، أي انتكاس ثلاثي العلاقات: زوجها وجسدها وجارتها، بينما البيت خال من أية لمة من لمسات الجمال (٤٩).

لكن هذا الجو الكابوسي لم يكن نهاية العالم، بل حافزا للتحدى.. فالحركة الروائية تتأجج بين السلب والإيجاب، «سأعلم نفسي بنفسي.. ألتهم ما جئت به من كتب، سأصنع ذاتي.. وأكرس لنهجي، ولن أصبح ظلا لباس يتجههم أو يهتسم» (ص ٤٩).

وهكذا كما قال شمشون في أحجيتة: من الأكل خرج أكلا، ومن الجاني خرجت حلاوة فما تلبث العزلة أن تبعد حوارا طريقا بينها وبين الباب المقابل ذي العين المسحوبة كانت نتيجته اعتزالها أن تغادر ورقة مأونة لكنها مملعة (ص ٥١).

كان أول خروجها من شرنقتها إلى جارتها عروس المصري الذي أنهى عزوبيته وهي تتسائل عن مصير هذه العروس «عندما تكتشف أن الوجوه للغترية تمتدح إلى يوم» (ص ٥٢) بينما تؤنّب نفسها على الوصول إلى هذه النهاية العجيبة: ما جدوى السفر؟ أن أجد باسم.. ها أنا ذا في بيته (لاحظ وليس بيتنا) لكن أين هو؟ وما يلبث الشعور بقلد قاهرتها أن يرتفع بأسلوبها إلى مرتبة الشعر: لا نهز هنا.. ولا بحر.. صحاري ترقرق فيها أنهارنا وبحارنا ولا ترتوي (ص ٥٢) مما يوحي لها بصورة بلاغية مؤثرة: صورة كبيرة لأمة تسافر وتبلى مسافرة ولا ترى غير السفر حلا (ص ٥٣) فأخوها تخطئه الحلم الأمريكي، وجارتها أوديت هاجرت مع زوجها إلى أستراليا، ولم يكن هناك حل لتحقيق حلمها سوى السفر، والآن يتسرب باسم بين يديها «كحفلة من رمل» (ص ٥٤) حتى بلغ تطور العلاقة بينهما أن خيراها بين اليلاء معه أو السفر دون أن يمنحها فرصة للفضضة. مما دفعها إلى الدخول — وليس الخروج — إلى البلكونة لأنها مقلدة بعارض خشبي مصمت، وذلك لتمتروخ نسمة في هذا التقيظ، وذلك من خلال كوة صغيرة تتسع لعينيها ولأنفها، كأنها برقع من برقع النساء هناك (ص ٥٥).

وما تلبث هدى أن تتأرجح بين اعترافها أنها أصبحت امرأة ككّل النساء، تدور في فلك زوجها، وأن صورتها في عينيه ليست كل شيء «الهم صورتي أمام نفسي» (ص ٥٩). لهذا عندما ارتدت لأول مرة عبايتها السوداء — طبقا للزي المقروء على النساء — وغطت

وجهها بالطرحة خلعتها فجأة كما خلعت النساء النقاب عن وجوههن في ثورة ١٩١٩، غير أن باسم حذرهما أنها إذا خلعت النقاب هنا تعرضت لعصى المشعوذين. تعلن الراوية احتجاجها على الإسراف في التزميت حين يمترض المطوع على جوربها الفاتح فلا بد أن يكون أسود، وأن تضع على وجهها برفع الأسود والدنيا ليل مما يدفع القارئ إلى التساؤل: ما مرجعه في اختيار هذا اللون؟ حتى تصل إلى ذروة الاحتجاج الساخر حين نستمع إلى هذا الحوار بين هدى وزوجها باسم: اعتبريه نظارة شمس. شمس في الليل، ماذا جرى لك يا باسم؟ ارتديه وأنا أسحبك إلى حيث تريد أن تودين أن نلقى كرامتنا هنا؟ وتحتج هدى وهي تترنم مستجيبة بجدتها الفرعونية: جدتي شُفرت شعرها منذ خمسة آلاف سنة لمسجد أمام خصلاته القصوة كل من يزور المتحف المصري (ص ٧٤) فالتاريخ المصري في هذه الرواية وحده شعورية متصلة. ويكون احتجاجها المتاح سلبيا: الامتناع عن رؤية الشارع (ص ٥٦).

ثم تبدأ جولة سياحية مع بطلتنا هدى لندلف معها إلى عالم الحريم المنوع على الذكور ولوجه: على نحو ما فعلت زميلات سابقات مثل الشريفة مصباح حيدر أباد التي كتبت مذكراتها عن الحياة في بيوت شرفاء مكة في استنبول ومكة المكرمة في مطلع القرن العشرين، ومثل مذكرات أميرة عربية للسيدة سائلة ابنة السيد سعيد بن سلطان، سلطان عمان وزنجبار من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦، والتي كتبتها بالألمانية بعد أن خرجت على تقاليد قومها وتزوجت شابا ألبانيا هجرت من أجله وطنها وملك أبيها لتطوح بها الأقدار في ديار الغربية بين لندن وبرلين مستبدلة باسمها العربي اسماً أجنبياً هو البرنيس إيميلي روث، ونشرت ترجمتها العربية وزارة التراث والثقافة العمانية. ونحن ندلف مع بطلتنا هدى إلى هذا العالم النسائي من خلال حفل عرس قادتها إليه صديقتها هند المنصورية فتعرض علينا من خلال حاستي السمع والبصر ما يذخر به هذا العالم النسائي في تلك المناسبات الاحتفالية بدءاً مما ترتديه وتزين به النساء سلطة الشو على العروس التي اختفت داخل ستارة منصوبة حتى لا يراها أحد فتظل متقنية حتى يرفع العريس نقابها عن وجهها (ص ٧٨) وننتقل من العين إلى الأذن حيث نستمع إلى الأغاني المحلية وموسيقاها، وتلتاعن العين والأذن حين تقوم الدعوات بالرقص الإيقاعي الهدوي على أنغام الغناء الذي تهب ألقاظه وموسيقاه اللون المحلي للحفل. وما تلبث حاستا التذوق والشم أن تشاركا حاستي البصر والسمع حين تدور القهوة في فناجين صغيرة بلا أيد تلوح منها رائحة الهيل بعدها مرت حلوى «طيطاب الجنة» تقلل من مرارة القهوة (ص ٨٢) بينما نحن نستمع إلى معوقة المغنية، تلتها المغنية الغلامية، وهو لقب يشف عن علاقتها غير السوية مع هند بذلك تلج عزة بدر مع قرائها أدق خلفا هذا العالم النسائي سواها كان أو شاداً. وتكثف الحفل حاسة التذوق حين يُختتم بصوان حافلة بالأرز المطعم بالزبيب بينما نام تحت الخروف المشوي (ص ٨٤) بعد أن شاركت معه ثلاث جواس أخرى على الأقل: البصر والشم واللمس.

ومن نشوة حفل العرس تليق على مطالبة صاحب البيت برفع إيجاره مائتي ريال، مما أثار قلق بطلتنا عزيز عنه باسم: أين نجد أربعة جذران تشمنا في البلد الغريب؟ ومن يوسف الشاروني

سمات غربته هيئة الأمر بالمعروف على تركيب الدش الذي يتيح رؤية محطات التلفزيون الفضائية.

وعند مغادرتها سكنها ووداعها لجارتها الباكستانية وطفلتها رقية ذات السنوات الأربع، ذكرتنا هدى بقسيتها التي تتركها: أن تصبح أما.

وكانت ميزة السكن الجديد إطلاله على جامعة البنات، مما يتيح لهدى الاستعانة بمكتبتها لإتمام رسالتها، ومما أفراها بتجربة غطاء الوجه تأقلمها مع ما أتاحت لها.

وهكذا يتعاقب الخاص بالعام في روايتنا تعاقب الماضي بالحاضر حين يذكرنا باسم صالحة زغلول - زوجة سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي لحصر - ليس فقط لأنها خلعت البرقع كما يقول (ص ٩٣)، بل تشبه لأنها عاشت دون أن تنجب ودون أن يحول ذلك بأن تشارك زوجها كفاحه بل مما أتاحت لها هذه المشاركة.

وفي الجامعة تبدأ هدى مرحلة جديدة من مراحل حياتها في الجامعة تغيرت حياتي، صار لي لأول مرة صديقات تفتح قلبي لهن.. فلقد جبرن غربتي.. عرفت سواي وسعدى وقتنة.. هناك وساء وندى والفلسطينية الودود الدكتوراة سلمى المشرفة على الكتبة بشكل دقيق ومنشيطه (ص ١٠٢) إلا أن سعادتها شابها القلق - سمة من سمات روايتنا تشابك الإيجابيات والسلبيات - عندما اكتشفت أن جزءا كبيرا من الكتب يتم حيمه في مكتبة زجاجية (عمل أفضل من إعدامها فهناك أمل في إعادتها إلى الحياة يوما) وحين سألت ففقه عنها أجابتها بابتسامة حذرة: لا كلام في السياسة.. دعينا نعيش (ص ١٠٢) حتى الكتب التي تصور الولادة تتم مصادرتها.. وتعلن الراوية رؤيتها المعارضة حين تستلرد أن هذا الحصار كان يجد له منافذ والمعاكسات التليفونية هنا تفوق حد التصور (ص ١٠٨) الأمر نفسه حين يُسمع في الجامعة صوت الأستاذ من خلال الدوائر التلفزيونية المغلقة ولا تُرى صورته، وتصل الصحف والمجلات بعد تسويد بعضها، بينما صور الرجال والنساء في التلفزيون ومن خلال أطباق الدش (ص ١١٩) مما يهب روايتنا رؤية نقدية لعلها أحد دوافع إبداعها.

ومن هذه القضية العامة إلى قضية هدى الخاصة حين ذهبت إلى طبيبة النساء لتساعد على تجاوز ما حل بهي من وزن زائد وللتكشف معي كيف تنمو في رحمي بذرة صالحة (ص ١٠٨) وتربط بين عقمها وصحرائها التي تعيش فيها ومن أين لي بالخصوبة بعيدا عن النيل. هذه الصحراء عقيم يا باسم (ص ١١٠) وتلقي هذه الأزمة بظلمها على العلاقة بين هدى وباسم من لفة كل منهما على الآخر إلى المعركة بينهما، وكل طرف يحمل الآخر سبب عديم تحقيق الحلم. وتطفو هذه القضية التي تترك الطرفين من حين لآخر كأنها قرار بوجود مراحل الحكيم الروائي ويمهد لتطور مقبل، وهكذا يتوالد الخدان: فقمم الجسد الأنثوي يخضب موضوعنا الروائي.

ومن الأزمة الخاصة إلى أزمة الفلسطيني ممثلة في موظفة المكتبة وقتنة حين حكمت لها عن عريس عن طريق أبله ندى التي لديها ثلاث فتيات في سن الزواج، «لا بد أنه لا

يصلح إلا للمطينة مكنورة الجناح سهلة ميسرة للاستغلال والاستبداد». (ص ١٢٢) ومن فتنة إلي سُدَي موطقة الآلة الكاتبة التي طلقها زوجها السابق أو ابتلتها، إختولها ورفضه يوم جاء لردّها لورة لكرامتهم «فهذا العبد على رأسي، تزوج وأصبحت مربية لابنتي» (ص ١٢٩) مما أزعج مشاعر هدى حتى تحول إلى كابوس ليلي، وعندما استيقظت اكتشفت أنها نجت من كابوس ليلي لتواجه كابوس اليقظة: لم يأت باسم، ما يزال ساهراً في عمله بينما انتصف الليل (١٣٠). وتتساءل هدى: لماذا تبدوا النساء هنا تعيسات إلي هذا الحد؟ وهل هي بين بين أم أن حكيها يشعها فوقه؟! وهل ثمة علاقة بين عقها وهذه العلاقة الزوجية القلقة. وهل إحداها سبب للأخرى أم نتيجة؟ بينما تتساءل بعد محاولاتها التي تتأرجح بين الشك واليقين: هل تم الأمر على أكمل ما يكون هل تسمير البويضة في مسارها الأزلي؟ (ص ١٥٢).

وتلهم عزة بدر في روايتها موضوعاً حساساً وشائكاً، فكثير من الإحصائيات عن أهم ما يخلصنا متاحة تماماً، والمنهج الدراسي لا تُنتج إلا بعد الموافقة على موضوعات البحوث بما يخدم أهدافهم (ص ١٧٠) وأنه يمكن شراء الصحفي بعزومة فقط (ص ١٧١) ثم ترمز إلى ذلك بأوضاع العلاقة الجنسية بين الدكتور نزبه المصري وزوجته الأمريكية ناتسي حين أدخلتنا بطلتنا مبهما فراهما «لا تستلقي أبداً على ظهرها.. ربما تحتقره.. تقول وهو تحتها إن هذا وضع يناسبها أكثر» (ص ١٧٢) بينما هناك صراع بين د. نزبه وامرأة أخرى هي الدكتورة فاطمة سليم التي ترى أنه لا فضل للحملة الفرنسية بقيادة بونايرت على مصر وهي ما تبتهل هدى في فصل من فصول رسالتها التي تعدّها بإشراف د. نزبه الذي كان يرى عكس ذلك، فما كان منه إلا أن «مزق الفصل.. ودفع به إلى سلة تحت قدميه» (ص ١٧٤).

ومن أزمة هدى مع أستاذها (أزمة خاصة) إلى أزمة سُدَي مع طليقها فهد (ستؤدي إلى تقاطع العلاقات). فإذا كانت هدى ضحية أزمتها الأولى، فإنها تحاول أن تكون واسطة خير في الأزمة الثانية معلنة «سأكون بينكما حمامة حمى لا يضيرها أن تحمل في عنقها رسالة حب»، لكنها ما لبثت أن نددت حين سمعها تهمس لنفسها «أتركت أنني ورطت نفسي في هذه المشكلة» (١٧٩) فلا بد لها أن تخفي عن باسم رسالة سعدى إلى فهد ومقابلة رجل غريب كانت إجابته رسالة غرامية مبتكرة: تلاحقه قضمها قبل أن يرسلها مع هدى إلى سُدَي وفهد حتى أنها في الحلم رأت «سعدى تضحك ثم تبكي، تضحك إذا قضمت التفاحة، وتبكي إذا نزعها منها فهد، أراها مستعطفة لتسعيداه» (ص ١٥٦).

وعندما اتصل بها فهد استجابات لدعوته.. وواضح أن عزة بدر تستخدم عالم الحلم للتعبير عن العواطف المؤودة لبطلتها وفي الليل كانت سعدى معلقة من شعرها في شجرتها وكانت تبكي، بينما كنت أنا أنتزع منها التفاحة». وكأننا زوجها باسم هو الذي كان يدفعها دفعا - بغيا به عن حياتها - نحو هذه الغامرة وقمت فزعة، «أثقلت فلا أجد باسم إلى جوارى، الثالثة صباحاً ولم يأت» (١٩٠). فعالم الوعي وما تحت الوعي يتشاوران لتكامل شخصية بطلتنا الروائية. وقد ترتب على ذلك أن ألقت هدى نفسها تتجذب نحو ما خشيت

منه ، وتلاقي الأضداد حيناً وصراعها حيناً محور من محاورنا الروائية ، فعندما قابلت فهد للمرة الثانية تصف شخصته كأنما من خلال تعانق حاسة التذوق مع مجهر للرؤية ومرشح للصوت ، فهي «عذبة (تذوق) لها رنة ولغة مميزة (صوت) أحب البُظر إلى شفتيه ، استدارة السلي وروقة العليا (رؤية) (ص ١٩١) . ثم ما تلبث أن نسمعها تقص عن اتجاذباها نحو فهد بلغة تقترب من الشعر يفرشها عليها الموقف العاطفي فيبعدنا كما تعودنا كلما احتدمت مشاعر بطلتنا مستخدمة أكثر من حاسة : معنى صامت يدور بيننا . غامضا له رائحة عطر بعيد فاض ، فراشة صامئة انطلقت فجأة من بين أهدابه ، نظرة من عل هوت كذرات كحل مفاجئ.. إلخ (ص ١٩٤) .

وكأنما فجأة تشعر بما ترتكبه من خطيئة في حق سعدى (وربما في حق زوجها أولا) «وها أنا ارتكبت ذنبا.. أقص بنفسي جدائل سعدى ، أقص جذورها من قلب فهد بمقص متلوه (ص ١٩٥) بينما لا يبادلها فهد الشهور نفسه ، لأنها عندما تُذكره بموضوع سعدى يكون رده «أجمل ما في موضوع سعدى هو أنت» . دون جوان جديد في تاريخ أدبنا العربي في مكة مما يذكرنا بعمر بن أبي ربيعة ، ومما دفع هدى إلى إغرائه والشعور بالذنب : لهنّ ما رأيت سعدى ولا قابلتك ولا لامست تفاحتك ، دعني أتمسك اللك الذي يشق القلوب ويطورها (ص ١٩٥) . وما تلبث بطلتنا وروايتنا أن نتعرف بتأرجحها بين زوجها باسم الذي يربط استمرار حياتهما معا بإتجاب طفل ، وزير النساء الذي تطالبه مستعلقة أن يمدعها — كأنما الأمر بيده لا تشاركه هي فيه : أنا امرأة بائسة مقترية .. أنت مدجج بامرأتين ، امرأة تأكل في الليل وامرأة تتنازعك في النهار ، فعلا فعل بامرأة ثالثة ؟ (ص ٢٠٠) .

وتختلم هدى ما يمور في أعماقها من صراع معبرة عنه : ابتمد يا فهد ، دعني كما أنا ، ثم تتبته شاكبه : أنا امرأة لم تعش أبداً ، ولم تعرف طعم الحب . هكذا أنكرت بطلتنا تجربة حبها بل عشقها لاسم الذي افتتحت به مبدعتها روايتها . وهكذا باعد الزمن الروائي ما بين بدايته ونهايته بسبب ما تلقده الألفة والقلق على تحقيق التللمات من حلاوة التجربة البكر وإن واصل دعمها عقد اجتماعي ، بينما يهدد الثانية — نفس ما يشعلها — أنها بلا عقد .

ومن الخاص إلى العام حين يتداع حريق في بيت الطالبات بسبب ماس كهربائي فيحال بينهن وبين هروبهن بملابس النوم متكشفات «قالوا نحن نساء نحترق ، رفضوا إلا أن يشموا احتراق النساء على إنقاذهن» سحقا لكم قساة القلوب (ص ٢١٥) . وتنفذت هدى من الحريق بجسم على ذراعها ، بينما تتلقتا روايتنا من خلال هذيانها إلى فانتازيا أشبه بجسيم دانتي افتتحت بها روايتها تليق بعدنا لتجد «أصحاب العصى والهزوات من حولنا ونحن على مراتب من قماش وقد شُربت من حولنا خيام سوداء» (ص ٢١٦) ومنها إلى المستشفى لتعود بثرع مكسورة وصوت باسم واضحا : تتاولي الأقرص (ص ٢١١) .

لكن عزة بدر لا تريد أن تفارق أحداث روايتها وقلوبنا مكسورة ، فنحن ما تلبث أن نسمعنا نشيد إنشاد هدى وهي تتغني بفرحة خصوصيتها : «ساعد الأسابيع والشهور ، وأخشي

طاولة الولادة، كأنني أول أنثى في التاريخ تشع البهش في سلة والدمع في الشهد... (ص ٢١٤) ولا تتم ولادة هدى دون مقاجآت، فقد طلبوا منها في المستشفى إقرار بتبرعها بأعضائها في حالة وفاتها، إقرار بدونه لا يدخل والمريض غرفة العمليات حتى ولو كانت ولادة. مما دفع بطلتنا إلى التساؤل الساخر: هل شرط الميلاد الموافقة على الموت؟ وتتذكر إيزيس - فوحدة التاريخ المصري معلم من معالم روايتنا مثلها بمثل ترابط الجغرافيا العربية - حين جمعت أعضاء ابنها أوزوريس بعد ما شنتها إله الشرسة في أنحاء مصر، لكن يقلقها أن الروح وإن تتعرف على الجسد لو سرقوا قلبه (ص ٢٣٠). وتلتقي خاتمة الرواية ببدايتها عندما تكتشف هدى طبيبها بهلاسه خضراء في غرفة الولادة، لتدرك أنه معتز طالب الطب الذي هجرته بعد اكتشافها أنه دون جوان، لكنه الآن يذقن مغطاه بشعر كثيف يصل إلى منتصف صدره، دلالة مزوجة على أثر الزمن في الشخصية وفي المجتمع الذي أفرزها.

وعندما زكمتها رائحة المخدر لتلد ولادة قيصرية راحت تستنجد بهاسم مرة وفهد مرة أخرى، وهي تملن محتجة على حرمانها من الإسهام في خروج مقلها إلى الحياة. وتذكرت صورة المرأة وهي تلد في كتاب بالكتابة المصرية محتجة: لا يريدون للنساء أن يتعرفن على أجسادهن.

وتختتم روايتنا - التي يمكن أن نضيفها إلى روايات الأدب الاحتجاجي - نهاية فانتازية حين يغوي فهد كل نساء روايتنا حتى الطوعة عقيلة، وحضورهن مهرجانا صاحبيا تختلط فيه الفانتازيا بالواقع وبالحاضر بالفرعونيات «يتعلق فهد بهزاعي، فتتخذ وضعنا الأول، أنا وفهد وسعدى وعلى رأسها قرنا حتحور» (ص ١٣٨) وهكذا يتحول فهد إلى رمز يعثل اللذة الجنسية المرتبطة بالهلاك، كما يحدث في ذكر النحل الفائز بإخصاب الملكة، لكن الشحية هنا هي الأنثى لا الذكر.

#### الهوامش :

- (١) يذكر سلامة موسى في سيرته الذاتية «تربية سلامة موسى» أنه نادى على شقيقته بالاسم وهو في الشارع بينما كانت تطل من نافذة البيت، فكان عقابه الصفع عندما صعد إليها.

# فانيليا ..

## رواية محاور النوع الروائي الراوي عليم لكن ذواته منظره



### سيد ضيف الله

إن الاهتمام بـ"الراوي" قديم في "التقد الروائي"، ويرجع ذلك إلى أن الراوي - بوصفه تقنية - يهيمن وظيفيًا على عناصر العمل الروائي، ويحدد علاقاتها وحركاتها من منطلق أنه الذات الفنية للكاتب.

لقد عرفت الرواية بوصفها نوعًا أدبيًا ينتمي للكتابة الأدبية ومؤسساتها الاجتماعية خيارات فنية للموقع الذي يرى منه العالم الروائي، وقد تحكمت عوامل رئيسية في هيمنة أحد هذه الخيارات، منها التطور التاريخي، واختلاف المجتمعات. و هذه الخيارات الفنية أربعة:

١- راوٍ غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من داخله.

٢- راوٍ غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من خارجه.

٣- راوٍ حاضر في العالم الروائي يرى العالم الروائي من داخله.

٤- راوٍ حاضر في العالم الروائي ويرى عالم القصة من خارجه.

إن ثمة لثانيتين هما ثنائية (الداخل / الخارج)، وثنائية (الحضور المعلن/ التخفي) تنتج عن تفاعل أطرافهما على طريقة "التباديل والتوافيق" تلك الخيارات الفنية الأربعة. ومن الملحوظ أن لكل خيار قيمة جمالية وثقافية تحدد مؤسسة الكتابة في ضوء علاقتها بالسياق الثقافي الذي تتفاعل معه. إن القيمة الجمالية والثقافية لأي من هذه الخيارات لا تتغير بتغير حركة التاريخ فقط، وإنما بتباين عقول الناس للعاشقين للشاركون في الزمن التاريخي نفسه، لكن كل منهم ينتمي لزمان ثقافي مختلف عن الآخر، ربما يصل هذا الاختلاف في بعض الحالات إلى عدة قرون. وهذا يعني أن الماضي لا يموت، وبالتالي لا تموت قيمه

الجمالية. مما يعني إمكانية التجاور الجغرافي في اللحظة التاريخية الأتية لشخص ينتمي ثقافيًا وجماليًا للقرن التاسع عشر مع شخص ينتمي ثقافيًا وجماليًا لبداية القرن العشرين مع شخص ينتمي لبدايات القرن الحادي والعشرين، وبالتالي تحضر الرواية على اختلاف ثقائدها كتابتها، بل على اختلاف الهدف منها. لكن الانتماء لزمن ثقافي يترسخ ليصبح بمثابة إيديولوجيا تجيد تحويل الحقائق لصالح حقيقة واحدة هي الحقيقة التي نضعها بعقولنا، ثم نستعيد بها عقول الآخرين. ولعل هذا ما يفسر حالة الإقصاء المتبادل بين مواطني الأزمنة الثقافية المختلفة، ذلك الإقصاء الذي يتخذ شكل إقصاء لمفاهيم الجمال والأدبية التي لا تتفق مع تقاليد جمالية وأدبية ترتب عليها العقل حتى صار عبداً لما ترتب عليه.

إن السلطة قد تكون للشئ وتنفيه، فثمة سلطة للقديم باعتباره قديماً، وثمة سلطة للجديد باعتباره جديداً. وهذا ما يمكن ملاحظته حين تستمع لحجج البعض لإقصاء ما يُسمى "الرواية الجديدة"، وفي الوقت نفسه تستمع لحجج مقابلة تدعم النظرة الإقصائية لدى بعض الروائيين الجدد في نظرهم لكثير من الروائيين القدامى باعتبارهم ينتمون لنمط من الكتابة عفا عليه الزمن.

يبدو أن اللاهوتيين المتطرفين لم يمودوا وحدهم الذي يزعمون أنهم مالكو الحقيقة الوحيدة، وأنهم وحدهم من لديهم السراط المستقيم الذي يفرض للجنة. ففي الأدب هناك لاهوتيون يزعمون امتلاك المفهوم الأوحى للأدبية والمغار الوحيد الذي تقاس وفقه، ويحكم على الرواية بدخول نار مؤسسة الكتابة، أو يحكم لها بدخول جنة مؤسسة الكتابة.

وفي هذا الإطار انحازت المؤسسة الكتابية من خلال ذوي السلطة النقدية ولجان الجوائز الأدبية فيها إلى وضعية الراوي التي تكتسب أكبر قدر من الموضوعية باعتبار أن الموضوعية في السرد هي أكثر الطرق إقناعاً للقارئ، مما يساعد على تحقيق ما يسمى بالصدق الفني. وبالتالي انحازت للخيار الأخير ضمن الخيارات الفنية الأربعة وهو: "راؤ حاضري في العالم الروائي ويرى عالم القص من خارجه".

ثم انحازت مؤسسة الكتابة الروائية انحيازاً أقل من سابقه للخيار الثالث وهو: "راؤ حاضري في العالم الروائي يرى العالم الروائي من داخله". على اعتبار أن حضور الراوي بوصفه شخصية في الرواية لا يعطيه كامل الحق في أن يروي كل ما يدور في نفوس بقية الشخصيات إلا إذا كان على سبيل الحوار معه أو شاهداً على الحوار أو الحدث أو أن يتحامل فنياً لإخراج مكنون الشخصية النفسي، ويقدر نجاحه في هذا التحامل الفني بالتقنيات السردية المختلفة يكون قد اقترب من مكانة الخيار السابق في مؤسسة الكتابة الروائية.

ومنطلق الانحياز يكمن في أن التقنيات التي يستخدمها الروائي في سرده هي بمثابة "حيل فنية" عليه أن يجيد توظيفها ليعرض نفسه الجوهرية، هذا النص الجوهرية هو كونه كاتباً وليس راوياً شفاهياً، لكن غايته هي أن يحقق الهدف الأسمى من وراء كل فعل قصصي أو حكاية وهو أن يصل لما كان يصل إليه الراوي الشفاهي من درجة التوحد بين الراوي والشخصية والجمهور بحكم المزية النوعية لسباق الإنتاج والتلقي.



وعلى هذا الأساس تجرّد مؤسسة الكتابة الروائية الخيار الأول من أحقية الدخول في المنافسة على رشاها وهو: "راو غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من داخله"، على اعتبار أن عدم حضور الراوي في العالم الروائي لا يعطي له الحق لأن يروي الجانب الخارجي منه، فكيف يبيع نفسه أن يروي بواطن الأمور؟ وأين هو هذا التوازن السالحي الذي يمكن أن يصدق فنه ويقتنع به أو يتعاطف معه؟ بل لا يمكن اعتبار هذا الخيار خياراً فنياً بقدر ما يمكن اعتبار نقطة البدء في السرد الكتابي التي ورثها عن السرد الشفاهي، فهذا الموقع للراوي هو الموقع نفسه الذي يرى منه راو السيرة الهلالية عالم قصه، وهو الموقع نفسه لشهرزاد في ألف ليلة وليلة، ثم نجده بعد ذلك في المقامات. وقد نرى اتساقاً بين هذه التقنية والمثلية الشفاهية يرجع إلى علاقة الإنسان في العالم القديم /الشفاهي، بالعالم والله، حيث كان يعتقد بأنه مركز الكون، وأنه خليفة الله على الأرض ومن ثم الكل مسخر له. وهذا الاعتقاد تجسّد فنياً في راو يرى عالم قصه من عل، فهو خالق لهذا العالم بلعل الحكيم، وهو يكلف أتباعه سواء أكانوا شخصيات في عاله أم رواة ثانويين - يكلفهم بأن يروا له.

وفي منطقة "الأعراف" حيث لا جنة ولا نار، يمكن الخيار الثاني راسياً بالاتحياز له حيناً وباستلكاره أحياناً: "راو غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من خارجه"، على اعتبار أن عدم حضوره في العالم الروائي لا يبرر له أن يروييه، لكن يبقى له أن روايته هي فقط للجانب الخارجي من العالم الروائي.

وتستمر في هذا الخيار بعض آثار المرحلة السابقة عليه، فالراوي كلي المعرفة يعلم الغيب من الأحداث، ويعلم ما لا تعلمه الشخصيات عن نفسها إلا أنه نتيجة للتطور التاريخي والتغيرات الاجتماعية - والذين انعكسا على علاقته بالعالم - يدخل عالم قصه لكنه يعاني تذبذباً فلا يدري إن كان خالقاً لعالم القص أم مخلوقاً من مخلوقاته، ومن ثم يسقط المسافة أحياناً بينه وبين الأحداث فتجده موجوداً في كل مكان في الوقت نفسه، لكنه قد لا يستطيع أن يدخل إلى بواطن شخصية بسلطانه السردية نفسها في العالم الروائي الخارجي. وبالتالي ترى مؤسسة الكتابة الروائية اللاحقة عليه تاريخياً أنه لم يحسن التخفي خلف الشخصيات، وقد لازم هذا الخيار إرهاسات الرواية العربية.

إن الخيارين السابقين (الأول: راو غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من داخله، والثاني: راو غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من خارجه) لم يكن من أهدافهما إيهام القارئ - سواء أكان سامعاً أم قارئاً - بالواقع أو حشد الوسائل الفنية المخطط لها لإقناعه بأن ما يقال هو الحقيقة، وذلك أن الراوي الشفاهي لم يكن يخطر بهاله أنه موضع تكذيب، فضلاً عن أن الهدف من القص لم يكن إقناع السامع بإيديولوجيا ما، وإنما "السامرة"، وهذا المجلس يخفي على الراوي المصادقة الفنية التي تنتج للمستمعين من تعبيرات الجسد. وقد تبدلت تلك الوسائل الشفاهية في الخيارين الأول والثاني إلى ما أسميه "بلاغية زائفة" تمثلت في نبرة خطابية يسود فيها الاستفهام التقريبي والتعجب وغيرها

من الأساليب الإنشائية.. إلخ، ومن ثم كان دور الملقني تجاه الروايات التي يمسودها هذان الخياران هو السمع والطاعة نظير ما كان يقدمه هذان الخياران له من راحة ذهنية.

أما الخياران (الثالث: راو حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من داخله. والرابع: راو حاضر في العالم الروائي ويرى عالم القصة من خارجه.) فلم يستبدلا وسائل الإقناع والإمتاع بذلك النوع من البلاغة الإنشائية الزائفة، وإنما ببلاغة سردية يمكنني أن أرى أساسها التراثي في الحرص على "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، والتأمل في تلك العبارة الموجزة لتعريف البلاغة، يمكنه أن يطورها لتكون أساساً للبلاغة للسردية إذا ما تم تفسيرها بالتقول بضرورة الحرص على المواءمة أو المطابقة بين الموقع الذي يجعل الكاتب راويه يرى منه عالمه الروائي والأسلوب اللغوي الذي يستخدمه لتقديم ما يراه للقارئ.

لقد عاينمت مؤسسة الرواية ثلاثة أساليب رئيسة هي:

١- الأسلوب المباشر

٢- الأسلوب غير المباشر

٣- الأسلوب غير المباشر الحر.

ففي الأسلوب المباشر يمنح الراوي الشخصيات هامشاً من الحرية فتعلن عن نفسها بألفاظها ولا يتدخل الراوي في ألفاظها، وفي الأسلوب غير المباشر فإن الراوي يسرد بلغته الخاصة المدلولات التي تطرحها الشخصيات حيث يعيد صياغة منطوق الشخصيات فيأتي السرد بصوته، أما الأسلوب غير المباشر الحر فيعتمد الراوي إلى إحداث لبس في بين لغته ولغة الشخصية فتتداخل الأصوات<sup>٩٠</sup>.

ومن هنا فإن البلاغة السردية هي الأسلوب المناسب مع الراوي المناسب، ولا يعني ذلك أن العمل الروائي لا يشتمل إلا على أسلوب واحد أو موقع واحد لنوع واحد من الرواة، وإنما يعني أن موقعاً للراوي يهيمن على غيره من المواقع في العمل الروائي مع إمكانية الحضور الهامشي لبقية المواقع، وأن شكلاً مهيماً من أشكال الخطاب السردية قد هيمن في هذا العمل الروائي على غيره من أساليب السرد مع بقاء بقية أشكال الخطاب السردية حاضرة نسبياً.

واستناداً إلى هذا التصور النقدي النظري أعتقد أن رواية فانيها للظاهر الشرقي قد أقامت حواراً مع النوع الروائي هدفه المطالبة بإعادة النظر في تقييم المؤسسة الكتابية للخيار الأول: "راو غير حاضر في العالم الروائي ويرى العالم الروائي من داخله". على اعتبار أن الرواية قد لجأت لهذا الخيار الفني التقليدي جداً والذي لا يعدو كونه مجرد نقطة بدء للسرد الكتابي، لكنها استطاعت أن تقدم تصوراً مختلفاً على المستوى العرفي والجمالي لتقنية الراوي العليم في ضوء الظروف الثقافية ما بعد الحداثي، حيث انشطار الذات وتجاوز مفرداتها للتناقض من أهم مفردات هذا المشهد الثقافي.

يبدو أن رواية فانيها منذ البداية أراد لها كاتبها أن تلعب باستخفاف بالفكرة الحداثية المألوفة والمربطة بالنقصان العالم إلى مركز وهامش، ليس يخلق مراكز متعددة أو

بتفكيك المركز، وإنما بتحويل المركز إلى هامش، وتحويل الهامش إلى مركز. حيث ينقل الشخصيات العادية والمألوفة في حياتنا اليومية والتي اعتدنا أن تحتل مكان المركز بين شخصيات الرواية التقليدية ليُسكنها هامش الرواية ويطلق على عالمها الروائي (الملاحق)، وهذه الشخصيات هي (سيدة القلط / السيدة المهووسة بالغسيل/ سيد الجنائزات)، فكل شخصية تمثل نمطاً حياتياً مألوفاً ومتوفر في الأسواق المحلية بدرجة تجعلنا نراه "الطبيعي" الذي يجب أن يقيس عليه الآخرون مدى اختلافهم عن الأنماط السائدة في المجتمع المصري، فسيده القلط امرأة عجوز تلتف القلط حولها حين تسير بالشوارع ، وهي تحاول أن تتذكر الأماكن بها دون جدوى لأن الأماكن تبقى، بينما رواندا يذهبون بلا عودة، هي امرأة بسيطة لم تحقق حلمها في شبابها بأن تصبح ممثلة كملابيين لم يحقق حلمهن، لكن حياتهن في مرحلة الشيطوخة تتحول للعيش على الذكرى سواء كانت ذكرى ما تحقق أو ذكرى الأحلام التي لم تتحقق. إنها نوع من أنواع الإيقاف عن ممارسة الحياة بعد فوات الحياة من بين الأصابع.

أما السيدة المهووسة بالغسيل فهي نوع آخر من أنواع تكريس الحياة لفعل عديم الصلة بالحياة ، فهي تعيش لتغسل، وربما لا تتمكن من أن تغسل ما تغسله لتعيش حياتها بتلك الملابس. وهذا النوع على ألفته الشديدة فهو توقف إرادي عن ممارسة الحياة باخترالها في فعل لا يصلح أن يكون الغاية من الحياة لدى البعض ، لكنه كذلك عند هذا النمط من الناس. وعلى مستوى الرجل، فالرجل "سيد" كما هو المألوف في ثقافتنا، لكنه هذه المرأة "سيد الجنائزات"، الذي يمكن اختزال حياته في كونها الخطوات التي يسيرها منذ بدء علمه بوفاته شخص ما له صلة به من قريب أو بعيد ، وحتى تسليمه إلى القبر. ولم يندم "سيد الجنائزات" على شيء إلا ندمه على أنه كان طفلاً أيام جنازة عبد الناصر فلم يحتفظ بصورة لنفسه في الجنازة، أما في جنازة السادات فقد كان مشغولاً بالمرأة الأولى التي يمارس فيها عادات السرية، لكن الذنب لم يكن ذنبه فقد تسببت بنت الجيران في هذا التأخير غير المقصود عن جنازة السادات، ففاته حدث مهم كان يريد أن يزين به حياته.

إن هذه العملية الروائية المقصود منها تعميش المركزي، المألوفة مركزيته في المجتمع ، وذلك لحساب الوجه الآخر، وهو مركزة الهامشي غير المألوف في المجتمع وذلك يجعله "متن الرواية"، وقد أسكن الروائي شخصيتين فحسب في هذا المتن وهما "الولد الصامت"، و"البنت حافية القدمين". وهاتان الشخصيتان يشتركان في كونهما طرفي الفعل الدهش على مستوى الإنتاج والتلقي. فالبنت تثير الدهشة بقدمها الصغيرة أو كما يسميها الولد متعجباً ومعجباً "القدم الطفلة"، وهذا خلافاً لموقف الثقافة السائدة التي لا ترى للتقدم أية علاقة بعلامات الاختوة، فالشئ الهام عندها هو نمو الأعضاء التناسلية على النحو المألوف. وترسم شخصية البنت ذات القدم الطفلة بوصفها كائنًا غير مألوف ، فهي التي تجرؤ على السير حافية في الشارع، وهنا نلاحظ علاقة نشوة بين: باطن القدم والرصيف الساخن، لكن مسار النشوة مخالف لمسار النشوة التقليدي. في العلاقة الحسية المألوفة بين رجل وامرأة، حيث

تسير النشوة من أسفل إلى أعلى" وفي حركة ثلاثية تخلع الصندوق، وتمسكه في يدها، وتواصل سيرها بشكل عادي تمامًا، منتشية بإحساس ملمس الرصيف لياطن قدميها. لم تكن تسمع شيئًا من تعليقات المارة، الذين لاحظوا أنها تمشي حافية، أو تلقى بالألحاف التي تتابعها في صمت، فقط منتبهة لصوت ديبب خفيف، يسري في عروقها، ويدغدغ برق، صاعدًا ببطء من أسفل القدم إلى الساق، ثم ما بين الفخذين، مواصلة رحلة الصعود مارًا بالبطن، والصدر، والرقبة، والخدين، والأذنين، حتى فروة الدماغ، التي تنكشف بسرعة محدثة دغدغة يقف لها شعر الرأس". (ص ١٤)

وفي هذا العالم اللامألوف للسعادة أسباب بسيطة لدى هذا الكائن كصوت محمد منير، وحمام دافئ، والرقص عارية أمام المرأة، والشط الخشبي المسكون بالعشق الذي كان لجدتها ذات يوم.

وفي عالمها اللامألوف ليس من الضروري أن يكون لكل شيء سبب، فيكفي أنك ترغب في شيء أو تشعر بشيء لتعبر عنه دون حاجة لتبرير ذلك بالبحث عن العلل والأسباب، التي يمتثل بها عالم المألوف والأفكار والمشاعر ليميطر على مصدرها وهو "الإنسان". ولذلك فالبنات حافية القدمين أو ذات القدم المغطاة دون أن تقيدها باسم، هي بنت تريد أن تموت في سن ١٨ دون سبب لهذا التحديد، وهي تريد لشقتها أن تكون كلها مطبخ.

إن الكائن اللامألوف كائن يعيش الحياة وحيدًا سعيدًا بوحده حيثما تكون إرادته كما في اختبارها يوم الأحد ليكون ملكًا لها وحدها، حتى أن أصدقاءها يسمونها "ميس صنداي" "Ms.Sunday"، لكن تصبح الوحدة معاناة قاسية حين تكون مفرضة عليها بسبب عزوف الآخر عنها من خلال الفشل المتكرر لعلاقات عاطفية مع الآخر / الولد، فتكون الكنتية، التي هي مكان إمارسة الحياة لفرد واحد منعزلًا، هي المكان الفضل لديها لممارسة الحياة متأملت سقف غرفتها وكأنها مذكراتها... إلخ.

إن هذا الكائن اللامألوف هو كائن مختلف منذ كانت طفلة تتمنى أن تكون زهرة أو سمكة عندما تكبر لا أن تكون طبيبة أو مهندسة، ويبدو أن هواية الاحتفاظ بمخلوقات الماضي هواية تربّي الشخصية على القدرة على الاختلاف مع المحيط الاجتماعي بوعيه المألوف للعالم، فمخلوقات الماضي تحول إلى فكرة جدوى الحياة ومعناها، حيث الأشياء تبقى، بينما لا يستطيع أصحابها البقاء معها!

هذا الكائن اللامألوف هو صانع الدهشة في الرواية وهو المؤهل لقراته الإنسانية أن يخترق عالم المألوف، لأن هذه القدرات الإنسانية تأسست على تنوع مصادر المعرفة، بل واختلاف هذه الوسائل عن وسائل المعرفة المتاحة في العالم المألوف، فالحدس وسيلة أساسية من وسائل المعرفة التي تتحصل عليها، والخيال- وليس المنطق- مهارتها وخاصتها الإنسانية الأساسية، وبالتالي من الطبيعي جدًا أن تختلط خطابات هذا الكائن غير المألوف بواقع وحدته فتتحول أفكاره إلى واقع معاش بالنسبة للشخصية (فالحيوانات بديل البشر دون شعور بأدنى حاجة لإضاعة الوقت في إقناع الآخرين المألوفين بما صنعت).

تلعب البنت حافية القدمين دور مثير الدهشة والولد هو الملقب الأول لها غالباً، لكنه ليس الوحيد، فجميع الشخصيات في الرواية متقنون لأفعالها غير المألوفة مع تباين النواقل منها.

"صاحب كشك السجائر، قال لولد بدت على ملامحه الدهشة لما عرت بجواره، وهو يناوله الحساب: إنها مجنونة. لكن ماسح الأحذية المجوز، الذي يقعد دائماً قدام بار "باراديس"، ذي الباب الموارب، تلم: قدمها صغيرة جداً، ونظيفة... إلخ" ص ١٣

تبدأ علاقة الولد الصامت المزهل بصفته هذا للدخول لعالم اللامألوف بموقعه المختلف من القدم الطفلة، فالقدم "حلقة ريتا" تراها شخصيات الرواية جميعها إما تتبر الأسي والشقة أو أنها غضب من الله، بينما يراها الولد وحده مثار إعجاب، وأنها قد وقع عليها ظم تاريخي يشع مقارنة ببقية الأعضاء التناسلية. إن القدم الطفلة تلعب دور المرشد للبنت حافية القدمين للتعرف على بقية جسدها وخاصة أعضائها التناسلية المألوفة المعترف بها في الثقافة السائدة، وكان العضو الذي لم يكتسب الاعتراف به تاريخياً يسهم في التعرف على بقية الأعضاء، وكان أيضاً كل الأعضاء لم تجتبر حتى لحظة اكتشاف القدم المظلة لها!

ومع ذلك تهلي رغبة الولد الصامت الذي يُعجب بالقدم الطفلة كرسبة علماء الآثار في الاحتفاظ بالتحف البنية؛ "حيث يشعها بلقوفة في غلاف زجاجي" ص ١٢

إن الخبرة باللامألوف تملو عند الولد فيتحوّل لنوع جديد من العلاقة به وهي علاقة (موسى بالخضر) الذي يطلب أن يصبحه ليتعلم من علمه الحديسي، فالولد الصامت الذي عاش في المدينة لسنوات لم يعرفها إلا على يد البنت حافية القدمين وكأنه كان قد أعمى استرد بصيرته فرأى الأشياء البسيطة التي كان يمر عليها كل يوم، ولم يكن يراها، على الرغم أنها كانت مما يبحث عنه (محل الحلويات ورائحة اللاناهيا المحببة لديه).

إن الرؤية بالعقل في عالم المألوف لا تتيح ما أتاحته الرؤية بالحدس في عالم اللا مألوف لهذا الولد الصامت على يد "خضره الجديد" في المدينة البائسة، ففي هذا العالم يتعرف على رائحة اللاناهيا التي تقرن بجسد البنت حافية القدمين، ويمجد أن يشتم الجسد/ رائحة اللاناهيا تنفك عقدة لسانه ليتطلق حاكياً ذاته دون توقف، بينما تكون البنت حافية القدمين قد انشغلت عنه بهذاها طارحةً على نفسها أسئلتها الوجودية. وهنا يأتي لحظة الانقراض بين "موسى والخضر" (هذا فراق بيني وبينك).

إن الكائن اللامألوف بعد أن علم الولد الصامت كيف يمارس الحياة، يكون قد أدى بعض رسالته، لكن البعض الآخر من رسالته لا يكتمل إلا بتحوّل إلى مسيح ينقذ البشرية من الألفة / قريئة الموت. فتصعد الفتاة حافية القدمين إلى السماء لتعطر السماء على الأرض ورائحة اللاناهيا، عسى أن تنفك بها عقدة ألسنة البشر فيستطيعوا أن يحكوا نواتهم قبل أن يتحولوا لـ "سيد الجنائزات" أو "سيدة مهيوسة بالفضيل" أو "سيدة القلطة".

إن عالم اللامألوف يشقّه (الولد الصامت/موسى، والبهت حافية القدمين/الخضر) كان يعاني من عسر الكتابة، فالولد الصامت يود أن يكتب عن عالم لا مألوف لأنه يعيش

المألوف، فيختار البنت ذات القدم الطفلة موضوعاً لكتابته، بينما البنت ذات القدم الطفلة تود أن تكتب عن عالم المألوف الذي لا تنتمي إليه، فتبدأ في كتابة قصة "السيدة الموهومة بالغسيل". إن عسر الكتابة هو هم الولد وهم البنت كقاسم مشترك بينهما، وكلاهما لم يكتب ما يود كتابته، وإنما الذي كتبهما هو "الراوي العليم غير الحاضر في القصص" الذي أعطى لنفسه الحق في أن يروي ويروي أحلام البنت ذات القدم الطفلة، ويروي كذلك هواجس الولد الصامت بحرية تامة كأنه يروي ذاته أو بعض ذاته. نعم هذا ما أود الوصول إليه، ففي سياق ثقافي يعد انشطار الذات وتجاوز متناقضاتها من مفرداته الأساسية، أستطيع أن أرى في توظيف تقنية "الراوي العليم غير الحاضر في القصص" التقليدية توظيفاً ما بعد حداثياً في رواية فانيليا للظواهر الشرقاوية، حيث إن هذا "الراوي العليم غير الحاضر في القصص" قد انشطرت ذاته ليكون بعضها ذات الولد الصامت/ موسى، وبعضها الآخر "ذات" البنت حافية القدمين / الكائن اللامألوف/ خسر/ المسيح. وعلى هذا، تكون رواية فانيليا قد أقامت حوارها الخاص مع النوع الروائي الذي تنتمي إليه باقتدار.

الهوامش :

- (١) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ومعنى العيد، دار توبقال، الغرب، ١٩٨٦، ص ٢٠٢.

# الأفندي

## رواية محمد ناجي



محمود عبد الوهاب

حبيب الله هو الشخصية المحورية في أحدث روايات محمد ناجي: الأفندي الصادرة في مايو ٢٠٠٨، تقدم لنا الرواية صبياً تربى بين أبه الحلاق وأمه ربة البيت، وشاباً تخرج في كلية العلوم، وجامعياً يمارس مهنة لا علاقة لها بدراسته، إذ كان يعمل مرشداً سياحياً، لكن إرشاده لا يمت بصلة للتاريخ أو الآثار. فهو يرشد السائحين إلى عثاوين الشلق المقروشة، ومخلات بيع السيارات، وأسواق السجاد والأحجار الكريمة وصواني الفضة والأرجيل ... إلخ.

ترقي حبيب من بائع يوفر المعلومات المفيدة للسائح، إلى بائع ليعض ما يحتاجونه من الأسواق، ثم إلى بائع يتاجر في فروق العملات. وعندما تكاثرت أمواله غامر بالتجارة في الأراضي واليشائع المهرية، قفزت ثروة حبيب في طفرات سريعة إلى الملايين فشارك في إنتاج أفلام رواثة للباحثين عن التسلية.

تعرف حبيب في حبه الشعبي على نازك بائعة الزهور وقارئة الكف لرواد المقاهي والفنادق، وقد نمت بينهما علاقة اختلط فيها الإعجاب بالتطور وتراوحت بين القرب والبعد، والمصالحة والخصام وتواصلت بخيط رفيع من العاطفة والجنس أو بين حبيها له واشتياقه لها.

حدثت نازك حبيباً عن ابنة لها كانت تسكن معها أحد أحواش القابر، وكيف جاهدت ظروفها البائسة حتي أمكنها أن توفر لها سكناً مناسباً وتعليماً عالياً، لم ير حبيب هذه الابنة حتي ماتت نازك، وحينئذ عرف أنها ابنته.

بفضل خدماته للسائحين تعرف حبيب على شخصيات تسكن المناطق الفاترة وشقق

وسط البلد:

موزة الأميرة الخليجية والشاعرة التي قدمت إلى القاهرة وفي قلبها جرح قديم من قصة حبها الفاشلة لرجل من سلالة العبيد تعلم تعلما عاليا وتقلد مناصب مهمة لكنه ظل يرى نفسه في القاع وبرأها أميرة في قصرها العالي.

ووداد قروي مذيعة التلفزيون سابقة التي شرعت في إعداد فيلم عن حياتها في دنيا الإعلام، وعن تعرضها لمؤامرة زعمت أنها السر في الإطاحة بها من دائرة الضوء إلى دائرة الظل.

بين حبيب وموزة ووداد كان هناك الصديق المشترك: فايز ناصف، وهو زميل حبيب في كلية العلوم، ومشروع شاعر ونقاد، تخلص عن كتابة الشعر والنقد وتحول إلى تأليف الأغاني وتمثيليات الإناعة وإعداد البرامج.

الزمن التاريخي للرواية هو الفترة من عام ١٩٥٦ حتى بداية الألفية الثالثة، والزمن الروائي يبدأ من تفتح وهي حبيب على علاقات أبيه بأمه وجيرانه وطبيبهم وزبائن محله وأقاربه، ثم تعرفه على عالم السوق، وعلى مقاهر التفاوت الطبقي بين زملاء الكلية، حتى اعتقاله للأموال التي صعدت به في سبعينيات القرن الماضي من عالم السمسرة إلى شريحة من رجال الأعمال تضارب في الأراضي؛ ولتخرج من صفقات تعقد بعيدا عن عين الرقابة وضوابط القانون.

في نهاية الرواية تموت نازك ووداد، وترحل موزة إلى بلدتها محبطة ومكتنية، ويظل حبيب على حياته بعد أن تجاوز الخمسين فيكتشف أنه كسب أموالا ولكنه ظل فقيرا: بأرضه البعيد ليس فيه سوى عمه الميت الحي وحكاياته الخرافية من جده حمروش، ومناخيه القريب ليس فيه سوى أبيه الحلاق الثرائ وأمه بلاك هانم ذات المظهر البراق والخير الوضيع، ثم علاقات سطحية بنازك وموزة ووداد، وخيوط مهترئة من مشاعر بنوة كان يمكنها لصديق أبيه وجاره حسين جوهر تاجر الأحجار الكريمة.

حاولت في السطور السابقة أن أقدم تلخيصا لرواية تستعصي على التلخيص، إذ لا تتوالى فصولها في تتابع سردي وزمني متلاحق، إن شخصياتها وأحداثها أشبه بالأميال المتعاقبة التي تتماكب ظلالتها وأشواؤها لتبرز مجيها أعين جسيورا وأشد كثافة (انظر من فضلك حكاية حبيب ونازك ثم إلى حكاية موزة والعبد سليل العبيد؛ وكيف تتمتع في الحكايتين صورة الفجوة بين النخبة والعامية، وقارن من فضلك بين ما يرويه عم حبيب عن جدهم حمروش ذلك الذي لا اسم له في سلسلة الجدود ولا قبر له في مقابر العائلة؛ وبين ما يرويه نازك عن سنان بنت السماء والواطي، وتأمل ما تصوره الروائتان من ألوان التوهمات والضلالات، وأخيرا قابل بين شررة الحلاق ولغو المثقفين لترى كيف تخلو الكلمات من المعاني وتتجول إلى أسداف فارغة لا تتفقد أحدا من متاعه ولا تدل على طريق).

والسؤال الآن: هل الأفندي هجائية لمظاهر الفساد في الواقع المصري المعاصر؛ مظاهر الرشوة وتزوير المستندات، والانحلال الأخلاقي والانحدار الفني الفئاني والسينمائي؟ هل هي مرثية لزمن التنمية الاقتصادية بالزراعة والصناعة والتعليم والتخطيط والبنوك الوظيفية؟

هل هي محاولة لرصد نوع شائع من الحراك الاجتماعي يتوارى فيه إلى الهوامش المعتمة المثقف ودارس العلوم، ويصعد إلى الأضواء الانتهازية وتاجر العملة والدجال والمهرج ؟



هل تؤرخ الرواية تاريخاً فنياً للمجتمع المصري والعربي في الثلث الأخير من القرن العشرين، لتتصد غروب شعارات مثل الأرض لمن يزرعها، وبزوغ شعارات جديدة مثل الفهلوة هي لغة العصر؟

وإذا كانت الرواية تمارس ذلك النقد الجزئي لطوايف الواقع الراهن السلبية، لماذا تضمنت إشارات إلى تأميم القناة والحروب العربية الإسرائيلية واتفاقيات السلام وحزب الخليج وسقوط بغداد ... إلخ.

ولماذا تضمنت حوارات حول الحرية والشعر والديكتاتورية والجبنات الروائية ... إلخ وكيف جمعت فصولها بين الأحلام والأوهام، وبين هالات القديسين والثقافت على المال الحرام ؟

بعض هذه الأسئلة قد يطرأ على ذهن القارئ مع انطباعات القراءة الأولى للرواية، وهي انطباعات غالباً ما تكون سطحية ومهتمة بالتعرف على خطوط سير الأحداث دون الانتباه إلى إطارها الكلي، ودون ملاحظة أسلوب ناجي الخاس في الحكى، ذلك الأسلوب الذي يتكون من خليطين متجانسين الأول هو خليط تجليات الواقع الموضوعي والتاريخي والثاني خليط الوعي الذاتي بهذا الواقع كما يتجسد في أطراف من شرائخ اجتماعية مختلفة، من هذين الخليطين نسج محمد ناجي رواياته لحن الصباح ١٩٩٥ والعليقة بنت الزين ٢٠٠٢ ورجل أبله وامرأة تافهة ٢٠٠٢.

وأثنى أن قراءة الأفندي ضمن السياق الفكري والفني لتلك الروايات سوف يعين القارئ على حدس أبعادها الأعمق والأشمل.

\*\*\*\*\*

قبل أن يولد حبيب كان هناك دائماً ومنذ زمان بعيد عنه ذلك الحي منذ سنوات عديدة وكأنه يحيا خارج الزمن، فهو موجود في حجرة باقية بلا تغيير رغم كل ما يطرأ حولها من متغيرات، وهو نائم طول الوقت حتى يزوره حبيب فيلتق عينيه وينقل الغبار عن شعره، في كل زيارة كان حبيب يشع أمامه طعاماً، وفي الزيارة التالية كان يجد الطعام كما هو، كان هذا العم لا يحيا مثل كل البشر بلماء والخيز وإنما يحيا بالحكي واستدعاء الذكريات.

بسبب زيارة حبيب كان يعود إلى عمه وعيه الغائب فيحكي له عن جده حمروش: يقول إن النساء كانت تأتي إلى المقهى الذي يتراده باعتباره أقوى الذكور وأشدهم فحولة، ينهي حمروش مهمته ويحصل على أجره دون أن يعنيه التعرف على أسمائهن إذ لا فرق عنده بين سمحة ومديحة، وقد حاول يوماً الاقتراب من امرأة قاهتمت عنه وغابت عن عينيه ثم جاءته في الحلم وقالت له إنها بلا اسم لأنها كل النساء، أيقن حمروش أنها جنية، وظل يطاردها في الشوارع والحدائق والأزقة.

يبالغ عمه في وصف حمروش فيقول إنه كان منهاباً وإن طرف شالاه كان مثل راية السلطنة وأنه كان أعلى وأغلى من كل الرجال.

يولد حبيب وفي مساء طفولته وصباه أصدقاء من ناس بعيد حائل بكل تلك الطراوات والأكاذيب، وما إن يترك الحياة من حوله حتى يكتشف أن أباه كان حلاقاً، ويسبب توترة

أطلق عليه سكان الحي لقب سي كلام، ذلك لأنه حول الكلام من مقدرات لها معنى وجدوى وقيمة، إلى أكوام من مضمين حافل بالادعاءات والنبوءات والكاذبة والمعارف الزائفة.

تعرف حبيب علي نازك باثمة الزهور وقارئة الكف، كانت لا تقرأ ولا تكتب، وكانت تتعامل مع الرجال دون تحقق، كسبت مالا بالمهارة والجراة، ولكنها لم تكن تهتم بالأوراق العتيدة التي توثق الحقوق. وكانت تحرق بعض أوراق النقد باستهتار ولا مبالاة.

ساعدت نازك حبيباً في بداية عمله بالسوق: عرفت بالتجار وأسعار العملات وطرق التهرب من الشرطة لكن حبيباً كان يعاملها باحتقار ويحرص على مسافة تبعد عنها، كان يتعالى عليها لأنه جامعي وهي بلا تعليم ولا مال ولا نسب. أما نازك فكانت تلاحقه باعتباره قدراً ووعداً المكتوب، وقد أنجبت منه ابنة دون أن يعرف وحين كانت تحدثه عنها كان يظن أنها إحدى شخصيات عالمها الوهمي. فقد عاشت نازك كل عمرها في عالم تؤمن أن ما يهيمن عليه هو دورات الصراع بين سلتا بنات السماء والواطي ذي الوجه القبيح والقلب الأسود والعين الشريرة.

في حياة حبيب صديق لأبيه هو الحاج حسين جوهر، كان يتاجر في الأحجار الكريمة ويعتقد أن من تلك الأحجار ما يجلب الحظ ويدفع الشر ويمنع الحسد، وكان يؤمن أن موظفي الحكومة كائنات علوية: أختامهم حجج وتوقعاتهم قضاء نافذ وأوراقهم سجل مكتوب فيه عمر الإنسان ورزقه وأنهم - وحدهم - من يعطون له شهادة الوجود ومفاتيح المصالح.

في ذلك العالم الذي يحفل ماضيه البعيد والتقريب وحاضره بالخرافات والأوهام كيف انتفع حبيب من دراسته في كلية العلوم، لقد أضافت إلى معرفته بأحوال السوق نوعاً من الوجاعة وقدرة على إبهار الزبائن، وبفضلها اتسعت دائرة علاقاته مع المثقفين.

ولكن هل ارتقت الثقافة بهؤلاء المثقفين عن ذلك المحيط الشعبي ؟ لقد كانت لهم أيضاً خرافاتهم وشلالاتهم:

فهم يؤمنون بتأثير الأبراج على حياتهم، وبأن بعض الأحجار الكريمة تمنحهم القدرة علي التنبؤ، واستدعاء الإلهام، ويتعاملون مع متع الجسد باعتبارها الحقيقة الوحيدة في الوجود، ولا يفرقون بين الخيال الذي قد يغير الواقع والوهم الذي يطمس معاله، ويؤمنون بأن كل ما يحدث في العالم هو بعض تجليات مؤامرة صنعها كبار مجهولون حددوا لكل إنسان دوره في الحياة، ولم يبق له ليفعله بآرادته الحرة سوى قتل الوقت بالتسلية أو البحث عن النشوة في كتوس الخمر ودخان المخدرات.

فإذا سحبيهم جدلهم المقيم إلى حوار فكري عن الحتمية التاريخية حولها إلى ما يشبه القدرة الموقوفة أو إيمان العوام بالكتوب. لقد تكاسلوا عن بذل الجهد لفهم قوايتين حركة الواقع بكل أبعاده والبحث عن الأسلوب المناسب للتأثير فيه وتغييره، ورأوا أن الحتمية التاريخية (ذات المحتوى الموضوعي) تتأثر بالأهواء والبيول الحزبية والمذهبية، وهي وجهة نظر تبرر القعود واليأس وفنور الهمة.

داخل هذه المتاهات التي يحيا في، يعاليزها وسرايبيها وكهوفها الأميون والمتعلمون والمثقفون كانت الأحداث الكبرى تتساقط فوق الروس كأنها زلازل تندلع من الأرض أو

صواعق تنقض من السماء: هزيمة ١٩٦٧، وحوادث الإرهاب وقتل السياح وحرب الخليج وسقوط بغداد... إلخ، دون أن ينتبه أحد إلى إرهاباتها الأولى... ودون أن يلمح في الهياكل الآيلة للسقوط علامات التشقق والتصدع قبل الانهيار.

درس حبيب في كلية العلوم معلومات عن الانفجار الكبير والمادة التي لا تقنى، لكنه عاش حياته بلا علم حقيقي أو ثقافة، فقد ظل يعتقد أن الحديث عن ذاكرة الأمة وتاريخ الشعوب كلام فارغ، وأن من الطبيعي أن تسهر المدينة ليالي الأُنس والمجون بينما هناك على الجبهة شهداء ومحاربون، وكان يحرص على الانتماء عن تجمعات الطلبة ذات الطابع السياسي، إيماناً منه بأن ما يحصده المتحاربون ليس سوى نوع من الطرب السياسي وعندما قالت له الأميرة موزة: لا بد أن تفكر في إنتاج فيلم يجسد التعلق الذي تعيشه والعذاب الذي تكابده، بحثاً عن معنى لحياتنا والمستقبل الذي لندفع إليه دون أن ندري شيئاً عنه وكأننا نتحدر به إلى هاوية.. عندما قالت له تلك الكلمات الجادة والمحرسة على التفكير والاهتمام لم يفكر ولم يهتم وإنما ظن أن موزة تعطي همومها الشخصية بعبارة ملتزمة في السياسة والأدب.

إن دراسته في الجامعة وحواراته مع المثقفين لم تفتح في وعيه شعاعاً لإدراك البعد السياسي لكل متغيرات السوق، ولم تفتح في قلبه سبيلاً إلى رؤية مختلفة لتنازك، فهو لم ير فيها سوى المرأة الجاهلة المتهللة، دون أن يرى الأم التي احتضنت بثرته، وانتقلت بها من سكنى المقابر إلى سكنى الأحياء، ومن مصير بائعة الزهور في الشوارع إلى الطالبة الجامعية والمدرسة، هل كان يوسع حبيب بذلك الوعي الفحل والهلل أن يدرك مسؤوليته عن الارتقاء بنازك (رمز الجماهير البائسة) وعياً وعاطفة وأمانة وسلوكاً؟

\*\*\*\*

الأفندي رواية تغوص في سراديب الذات المصرية والعربية كي تلقي ضوءاً على منحنيات الظلام وأسراب الخفافيش والجنات والعقارب والأشباح والأرواح الشاردة تلك التي سكنتها منذ زمن طويل واكتسبت فيها بمرور الوقت عراقاً وقداً.

وقد صاغ محمد ناجي روايته من خيوط استدعائها من التراث الشعبي الشفاهي: لاحظ من فضلك استحضاره لروح الحكيم الشعبي في وصفه لسفنا بنت السماء: الجلد طيات ورد، ونظرة العين وعد والغم إبريق سعد، ولاحظ وصفه للواطي: عجوز لا يعرف العشق ولا يرى الجمال، قبح بعين زجاج وقلب صخر ووجه صفيع، وأخيراً وصفه لحسان سفنا الواقف بين السماء والأرض ينظر إلى سقوطها من السماء ويصهل حزناً عليها.

لقد حول تلك الخيوط إلى عزف على أوتار القارئ في سعي مثابر لإخراجه من كهوف الظلام وتهاويل الماضي وعناكبه آملاً في الاقتراب به من شمس العصر العلمية والفلسفية.

هي رواية تنسج إلى احتواء الواقع الراهن لإبراز شقوقه وتصدعاته وإضاءة الشروخ الكامنة في العقل الجمعي للأمة، ذلك العقل الذي اعتاد استدعاء تراث الماضي في كل مناسبة وقراءته واستلهامه دون فحص ودون نقد، بما أدى إلى تعميق فجوة انفصاله عن العصر، وحرمانه من القدرة على الاستفادة من علومه وفلسفاته، تلك القدرة التي لا غنى عنها للتقدم على كافة الأصعدة.

# الحلم و الوجه المراءوغي قراءة في قصص سكن الليل

محمد قطب

ثمة أعمال أدبية لا يقوى متذوق الأدب أن ينساها سريعاً بعد قراءتها، إذ يظل تأثيرها عالماً في اللاهث والوجدان معاً.. تناوشه النماذج البشرية في قوتها وضعفها، واقعها وأحلامها — مسراتها الصحيحة وخزنها الموصول وتأسره اللغة الصافية في صورها الشفيفة وزمنها الرقراق.

وإبداع «سامي فريدة» في السرد القصصي من هذا النوع الذي يظل قارراً في الوجدان زمناً قبل أن يخالفه عمل آخر له.. وهو موهبة قصصية نجح أخيراً أن يقلمت بها من رائحة أحبار الصحف الزاكمة فيعود إلى غرامه القديم.

والتجارب التي قدمها في مجموعته القصصية (سكن الليل ٢٠٠٢).. تجارب تنسم بطايع التخفي — إن صح التعبير — إذ لا يسلط النص — في مباشرة — عن الدلالة ويظل الموضوع — في حالة كالأعراف — تأخذ منه وتلف حوله. وهي تقنية فنية تعطي للتجربة أبعاداً تأويلية.. لكن الحالة الشعورية للمصاحبة تتواصل فتحدث الهزة النفسية وتحقق المتعة. وهي تجارب لها سياقات متصلة ومنفصلة معاً مما يجعلها تصنع متناً قصصياً متراكماً ومتوازناً فيه من الاتصال مثل ما فيه من الانفصال..

وتتقرب النصوص في (سكن الليل) من الوجدان الإنساني، في ضعفه وقوته، وتوقه إلى التحرر من القيود التي تعيقه، سواء جاءت في هيئة القيم أو العداقة، أ، العرف السائد، أو الحثيث إلى الزمان أو المكان أو الاستدعاء لعالم الطفولة أو لرمز تراوي.

تكتشف قصة (سكن الليل) عن الشاعر الكويحة بفعل العداقة. فالتراوي عليل، وزوجته تكايل الراوي، فيخرج من البيت ليلا ليواجه بصدده هواء الخارج، ويجلس على

حافة السور في انتظار طلوع النهار.. وبهياً إليه أن امرأة النبروي ترحف عيناها عليه..  
وتتقدم وسط حالة الشؤ، جميلة وحين يخاله هذا الوجه الجميل للزوجة يسمع.. في الداخل  
سعلاته المكتومة فوق الوسادة الكالحة..)

وفي الليل تكثر التوهجات والهواجس، ويصبح مثيراً شرطياً للمسك الذي يوضح طبيعة  
الذات.. ومن ثم تتحرر المشاعر ويطلق الكبح منها، وتتحرى الشخصية من الإطار الخارجي.  
يقول الكاتب (ينقض الليل على فريتنا بمجرد أن يعطها النهار ظهره.. يسقط على  
البيوت والناس والطرق والحقول فيسكت كل شيء، يتمرغ في حفتها وينام..) وهو نفسه  
الذي فعله الراوي/ الأنا.. وهو مستمريل برداء الليل.. حالاً بما لم يقو على تحقيقه في  
النهار..

ذلك أن سامي فريد يتوسل لتحقيق الدلالة وللخروج من المأزق بألية فتية تسود أصابعها  
غالباً وهي الحلم.. فهو يأخذ بعداً فنياً ونفسياً في التصوص القصصية.. وهو مصحوب -  
غالباً - بتجاني وجه المرأة المراوغ في مساحة الحلم، إذ يُفسر ويتخفى - لكنه في النهاية  
يوحي بدلالة القند والإحباط واقتتاد التوازن.. والتطهير أيضاً!

فالحلم في القصة حلق رغبة مكبوتة ما كان يمكن أن يحققها في الواقع بحكم المصادقة  
القائمة، فع علمه بمرض الزوج وبما تحمله نظرات الزوجة.

ولاح الوجه المراوغ أيضاً في قصة (غربي النيل).. وهي قصة تتحدث عن الزمن عبر  
المادة فالتراب يتساقط من واجهة البيت الذي آك إلى السقوط وقرر أن يمضي إلى البيت  
الجديد غرب النيل.. وشعر أنه غير معروف له يسهم وأن أحداً لم يتعرف عليه. وبأخذه  
الحلم تلك الآلية التي تصل الماضي بالحاضر وتستروح منها الذات صغراً له زخم الذكريات..  
ويسترجع وجه المرأة الجميل (وهي تدلي السلة القارفة، مائلة فوق السور الحديدي للناعم  
بصدرها المنعم بأشواق الحياة..). وكانت قد استقبلته بصوت يتفجر لشجاء.. وأحسن بالعيون  
التي تترصد لها خلق التواضع وتخایل وجهها الحزين وانكسرت عيناها بأهدابها الطويلة ورأى  
الدموع تلعب فيها.. ثم (اختفى وجهها فجأة فرحت أفتش فرحت أفتش في مداخل البيوت  
العمسة الباردة عنها..). وقطع الطريق ساعداً وقرر الخروج إلى النيل.

ووجه المرأة - هنا - يظل وسط حالة مأزومة وقع فيها الراوي/ الأنا..

في التصاقه بالذات (تلفست التراب من كلي وقال صوت عبر من خلفي كالطيف:  
أخرس فالبيت آيل للسقوط). ولعل الوحدة التي تعاني منها (ماذا عساي أفضل لو لم أجد  
أحداً هناك أيضاً..) هي وراء المثير الشرطي ليروز الوجه، لإحداث نوع من التوازن الذي في  
ظله يشعر بوجوده/ الداخل حين لا يشعر بأحد في الحقيقة/ الخارج.

وفي قصة (نهر الشارع) تسيد المكان متن القصة، وبرزت مفرداته لتصنع مشهداً محشداً لحي قديم.. الماضي، المكان، الشارع، المضايق، المرب الضيق، مدخل البيت، السلم، الحوش..

وفي زيارة الراوي للمكان بمفرداته القديمة.. يغيب الزمان، ويستعيد زمناً ولى، واستغرقه المشهد حتى بدا هذا الاستغراق كأنه حلم.. وتراجع ينظر إلى الشرفة وتساءل ههل ستزل أم تراها نسيت.. ثم (أطلت بقوامها المفلوف نحو الميدان الواسع) مضى خلفها ويتقدم ليمسك ذراعها بقوة فصرخت.. والتفتت نحوه في حدة (.. كان وجهها غريباً لا أعرفه..).

وجاء التعليق في نهاية القصة (.. في الأفق البعيد كان صوت أنين حزين يأتي..). إشارة إلى التغير الذي طال المكان والإنسان معاً وأن الوجه خادعه وراوغه، حين لمس الزمان ملاح رؤاه..

ويظل الوجه يراوده ويلح على الكاتب في نموصه.. وجه لامرأة لتتنوع مراهاها وصورها لتجسد هزة، وتكشف يافئاً..

لكنه في قصة (أبيض وأسود) كان الوجه هذه المرأة.. وجه الأم.. الوجه المزاحم الذي يخترق الأسجة إليه (.. على شريط من نور شديد المطوع..). وحين مدت كفها سار خلفها.. كانت صامتة، والخلاء واسع.. كان يود أن يسألها عن أبيه، لكنه سرعان ما فقدتها أمام الباب (.. أصابني رعب حقيقي فصرخت: أمي.. ظل يسأل نفسه: هل لتكرار الحلم دلالة ما.. هل يعني هذا أنني ساموت؟) وهو ما يمثل الوجه من دلالة للفتن والحزن الكامن.

وتداخل الوجه مع غيره، وراح يتجلى له.. في أماكن متنوعة.. فالمرأة كانت تقف على الطوار المقابل مبسمة (كانت تكشف شعرها.. تأكدت هذه المرة أنها هي..). وحين هروا تجاعها.. لم يجدها.. وراح الوجه يتجلى له.. ويراوغه وهو يشعر بأنه يلتقطها بشدة..

وهو نفسه - الحلم - الذي يزاحم المشهد.. ويستغرق القتي.. يقطعه ونومه.. وأضحى يشغله ويحتويه.. في (فستان خروج) يحتوي وجه المرأة/ الخياطة خيال القتي الصغير ويصيه الولوج بها، جمالها، وجسدها (ورائحة صابونة معطرة) تفوح منها.. كان سعيداً برؤيتها وهو يقدم لها القماش الذي أعطته أمه له.. ليتصنع منه فستاناً للخروج.. قالت له (القماش حلو قوي.. ح أعمله فستان يلفع بيت وخروج..). وراوده الوجه في أحلامه.. وصنع الحلم له عالماً ظل يستدعيه.. وتلج عليه صورتها وهي تمد ذراعها العارية نحوه.. ورسم لها صورة تتسم بالبهاء.. (رأيتها تجري في غيشة نور اللجر في أرض فضاء يحيط بها شجر.. أشارت لي أن اتبعها فعدوت.. لم ألحق بها.. وجدت نورا يسطع مكانها وبسعت صوتها يتناديني: انت ا.. أشرت بإصبعي إلى نفسي متسأللاً أنا.. وجاني صوتها.. تشرب شاي معاً). وحين علم بوفاتها - في الحقيقة - قار داخله بأمواج الحزن.. تماماً كما شعر

الراوي في قصة غربي النيل.. والأسى يشملته وبحوثيه حين راح يفتش في بيوت غادرتهما أنفاس الحياة عن وجهه/ الحلم.

لكننا في قصة (نور الصباح..) نرى الوجه مجسماً.. يصنع الدلالة التي تنبئ عنها القصة.. الوجه الذي يتحول - في العابنة - إلى حلم الخلاص.. والذي هو رمز للتحرر من القيد، ولواجهة القمع السلطوي.. هذا الرمز الذي راح - كالحلم - يداعب الناس حتى هبوا مرة واحدة وكتبوا شهادة الحرية بأنفسهم.

والقصة اتجه مغاير لأبنية القصص في المجموعة.. حيث لجأ الكاتب إلى التاريخ يستعدي - نماذج - في سياق عصري ويحدد الإسقاط الرمزي من الأسماء والرموز.

يرى السلطات البنت الجميلة أثناء تفقده القوات فيغرم بها.. والبنت تعلم أنها مراقبة من العيون لكنها تصر على المواجهة.. وحين يقول القائد له (في ثقة حازمة: قواتنا على أتم الاستعداد يا مولاي..). ينهره السلطان ويشير إليه أنه يريد البنت الفاتنة التي رآها في استعراض القوات.. وأنها كانت تصوب مدافعها إليه.. والبنت قررت أنها (ستخرج وتواجه وتضرب تلك الأيدي حتى وإن كانت لا تراها..)

وحين أخبرها القائد أصرت أن يأتي السلطان إليها.. فذهب متخفياً - وظالمته أن يتزوجها أو يمسي.. وحين عاد أحس بالهزيمة.. واستعدي رئيس الشرطة.. لكنها فرت منه..

في مواجهتها للسلطان قالت بصوت مشدح (لماذا أنا تحديداً يا مولاي؟). وتعفر الإجابة عن الرمز الكامن.. يقول السلطان (لأنك منهم.. من هؤلاء الناس الذين يحيطون بنا ويديرون من حولنا في الشوارع.. أنت من هؤلاء الذين يخوضون في الوجع.. وفي كتبنا القديمة.. أن مثلك إن خضعت لسلطاني خضع الشعب كله.. وإن باثت في حضيبي يات الشعب كله في حضيبي..)

وتصل الرسالة إلى أفئدة القوم.. الجيش والشرطة والقضاء.. والناس (نحن الآن غضب الناس.. وكبرياء نور الصباح التي يريدها السلطان وترفعه.. الخ)..

وقروا سجنه لكنه يفر خائفاً.. ومن بعيد (أشرقت نور الصباح في شوب شديد البياض راح يهتف مع نسمات الصبح الجديد..).

وكشف النص عن التناقض الذي وقع فيه السلطان بين رغبة الخاصة وبين ضرورات الأمن الخاص بالبلاد وكذلك المواقف المتباينة التي تمكس طبائع الشخصيات وملامحها.. واقتناص السخريّة من المفارقات والتناقض.. وتعرية أساليب الحكم القامع.. فالسلطان حين أرسل إلى رئيس الشرطة كي يأتي بالبنت كان.. (مشغولاً بكتابة تقريره عن الأمن الذي استلب في البلاد بعدل وحكمة مولاه السلطان وعن تراجع الجريمة واختفاء المخدرات وانتهاء المرفقات..)

لقد حمل الوجه/ البهت/ نور الصباح.. الحلم الذي داعب العقول والأفئدة، واستطاع أن يرفرف أمامهم.. وينشر مع رفرفته الرغبة في الحرية وتحقيقها.

ولقد توسل الكاتب للقبس على نسه وشخصياته بآليات فنية.. منها اللغة التي وشت بالموقف وأبانت عن الشخصية وحركت الأزمنة.. ويلاحظ على لغة الكاتب في أغلب النصوص الميل إلى الاختزال والكشافة والإحياء الشفيف.

وحين نقرأ النص نجد الكاتب يميل إلى الصورة الغنية التي تنبئ عن لشخصية في إبراز الدافع.. وهو صورة تتحو نحو التجسيد الذي يقترب من فن الصورة التشكيلية.. ولعل مقردة الليل أخذت جانباً مهماً في المجال التصويري وتجسيده للمعنوي.. فضلاً عن المصاحبات الدلالية التي تبوح بها.

يصف الليل فيقول «ينقش الليل على قريتنا بمجرد أن يعطيها النهار ظهره.. يتمرغ في حضنها وينام فتكاد تسمع شخير..» هنا يتخذ الليل سمة البشر في مزاحمته لهم حتى كأنه واحد منهم.

وانظر إلى دلالاته في نور الصباح وهو يعكس الحالة الكابوسية التي يحياها الناس (أنشب الليل مخالبه في جسم بلدنا..). وانظر إلى دلالة الخلب والصورة الكاسرة للكائن المتوحش الذي ينشئ عن المعنى الذي تبوح به القصة. وهو نفسه يكشف عن المجاهدة والصراع الذي دار بين الليل والنهار.. كي يسترد النور قوته فيمحو ظلام المخالب، ومخالب السلطان (كان الفجر قد بدأ يسترد عافيته بعد صراع مرير استمر الليل بطوله مع الظلام..).

ولليل سطوته وثقله ويصبح وسيلة لرسم الصورة الضاغطة ويصبح هو الجانب الأقوى في التصوير وتوضح المعنى. (الرمال رطبة رطوبة بطن الليل — قصة متمتع للكبلاء).. ومثل هذه التراكيب اللغوية تحمل طرافة في الصورة وتوحي بقدرة الكاتب التحليلية على الاقتناص.. (كانت الشمس تنسحب مبتعدة في هدوء من لا يعنيه الأمر في شيء.. اشتد تكاثف الذات البشرية في غربي النبل).

ولعل الصورة في نور الصباح أن تكون المقابل الدلالي للصورة المابقة لأنها تعكس آمال البشر (رياح الليل التي كانت تكش ما أمامها.. تنتظر أن تسكنها شمس الصباح التي كانت تتقدم في إصرار وثبات..).

إنها لغة فنية تمزج بين التعبير ولغة الشعر. واستطاعت في سهولة وسبولة جمالية أن تقدم الإنسان في حالاته المختلفة ما بين الفقد والحضور والفرح والأسى والواقع والحلم وصنعت من ذلك كله صورة رهيبة من الأبنية الصوتية التي تكرر في إيقاع يسمغ على النص جمالاً في الإيقاع.. والتلقي.



دوريات بريطانية وأمريكية

ماهر شفيق فريد

دوريات فرنسية

ديما الحسيني

دوريات عربية

ماجد مصطفى

ثلاث رسائل جامعية

ماهر شفيق فريد

المؤتمر الدولي للنقد الأدبي العربي

متابعة: إخلاص عطا الله

فصول . نت

ماجد مصطفى



# دوريات

## بريطانية وأمريكية

ف

### ماهر شقيق فريد

إ.م. فورستر على الأثير

"أحاديث إ.م. فورستر من محطة الإذاعة البريطانية ١٩٢٩ - ١٩٦٠" عنوان كتاب اشتركت في تحريره ماري لاجو ولندا هيوز وإليزابيث ماكليود ولز، مع كلمة تمهيدية بقلم ب.ن. فيربانك، صدر عن مطبعة جامعة ميزوري الأمريكية في ١٧٧ صفحة.

وقد حملت "مجلة نيويورك للكتب" The New York Review of Books الصادرة في ١٤ أغسطس ٢٠٠٨ عرضاً لهذا الكتاب من قلم زادي سميث. لقد كان الروائي الإنجليزي إدوارد مورجان فورستر (١٨٧٩-١٩٧٠)، صاحب "رحلة إلى الهند" وغيرها، مختلفاً من نواح عديدة عن كثير من معاصريه؛ فهو لم يجنح سياسياً إلى اليمين مع التقدم في السن، ولم يسمح لشعوره بالحنين إلى الماضي أن يتحول إلى كراهية للبشر، ولم يؤد فروض الولاء للبابا أو للملكة، ولم يغازل هتلر أو ستالين أو ماو. لم يؤمن قلباً، كما آمن بعض معاصريه، أن الرواية قد ماتت، أو أن السلال تدب فيها الحياة. وظل يقرأ روايات معاصريه بعد أن جاوز الخمسين، ولم يكن كراهية خاصة للجيل الذي سبقه أو يليه، ولم يشعر بأن إنجلترا مقضى عليها أو أن لغتها تنتقرض، أو أن المجانين يديرون مستشفى المجانين، أو أن الأجانب قد أغرقوا المدن البريطانية. وكان كتوماً، فقد أخفى ممارساته الجنسية المثلية عن الأعيان حتى بعد أن سمح القانون الإنجليزي بها. وكان - في قضايا السلام والطبقة والتعليم والأجناس - تقدمياً بين محافظين. وظل دائماً ينهج نهجاً أقرب إلى الوسيلة في كل الأمور لأنه يدرك ما تنطوي عليه من تعقيدات، وأنه ليس هناك أبهى خالص أو أسود خالص، وإنما درجات لا حصر لها من اللون الرمادي.

كان فورستر من أنصار المذهب الإنساني الليبرالي، ولم يكن اعتداله يحظى دائماً بموافقة رفاقه من الكتاب. قالت عنه القاصة النيوزيلندية كاثرين مانسفيلد: "إن إ.م. فورستر لا

يمضى قط إلى أبعد من وضع براد الشاي على النار حتى يذفأ. ليس البراد. ليس دافئا بشكل جميل؟ أجل، ولكن لن يكون شاي".

والكتاب الذى نعرضه هنا يضم مختارات من أحاديث فورستر الإنشائية وأغلبها عن كتب قديمة وحديثة (كان العنوان الذى اختاره لهذه السلسلة من الأحاديث هو : "بعض الكتب"). ويرجع هذه الأحاديث موجه إلى الهند وشعبها حيث عاش فورستر زمنا. وثمة خليط من الموضوعات التى استهوت : الصقيع الكبير الذى داهم بريطانيا فى ١٩٢٩ ، موسيقى بشجاءين برمتن ، الحفلات الموسيقية التى كانت تُقدم مجانا أثناء الحرب العالمية الثانية فى "ذا ناشيونال جالري". بلندن ، وما إلى ذلك من موضوعات.

والنقمة التى يسلطها فورستر فى هذه الأحاديث تحدثية ، بسيطة ، بعيدة عن الادعاء الأكاديمي (انظر مثلا إلى قوله عن الشاعر الأيرلندي و.ب. ييتس : "والآن فلن عليك أن تستوصى بالهدوء عند الكلام عن ييتس . لقد كان شاعرا عظيما ، وقد عاش شعره ، ولكن كان ثمة عنصر من اللغو فيه"). إن نغمته تختلف عن نغمة ت.س. إليوت الذى كان بدوره يسجل أحاديثه الإنشائية فى الاستوديو المجاور فى تلك الفترة ذاتها. لم يكن فورستر يعد الأحاديث التى يليقها نقدا أدبيا أو حتى مراجعات للكتب ، وإنما كان يسميها ، بتواضع ، "توصيات" أو "تركيبات". وكان يختم كل حديث بتلاوة عنوان الكتاب الذى يتحدث عنه وشبهه بالجنينيات والشللات. فعلى النقيض من نغمة إليوت المثقلة الصارمة كان فورستر أشبه بأمين مكتبة يعمل على الطاولات ويصحك بقراءة هذا الكتاب أو ذاك. لقد كان حريصا على التواصل مع جمهوره ، ولنتذكر أن روايته "هواردز إند" كانت تحمل هذا الشعر على صفحاتها الأولى: "لا يقولون أن تربط بين الأشياء". فهو يريد أن يربط بين السامع والمؤلف ، وبينه وبين مستمعيه. وهنا يختلف عن أقرانه من كبار الروائيين : جويس وإليوت وفرجينيا ولف ممن لم يكونوا يلتقون بالأدب إلى الجمهور. لقد سألت نورا بارناكل - زوجة جويس - زوجها يوما : "لماذا لا تكتب كتبا معقولة يفهمها الناس ؟" فما كان منه إلا أن تجاهلها - على حبه لها- وشرع فى كتابة روايته الأخيرة "ماتم فنجانز" باللغة الصعوبة. لقد كان القارئ المثالي لجويس ، فى نظره ، هو جويس ذاته. أما قارئ فورستر المثالي فكان إسقاطا لذاته ، ومختلفا عنه.

ومن بين هذه الأحاديث حديث عن الشاعر الرومانتيكي صمويل تيلور كولردج ألقاه فورستر فى ١٣ أغسطس ١٩٣١. كانت المناسبة هى صدور طبعة جديدة لمجموعة أعمال كولردج ، حصة الطباعة ، لا يتجاوز ثمنها ثلاثة شللات وستة بنسات. ولكن فورستر ، العليم بأنواق سامعيه وميولهم ، يدرك أن الكثيرين لن يهتموا بصور هذه الطبعة ، إذ لا يعنهم من أمر كولردج غير قصيدتين أو ثلاث. يقول فورستر : "ربما قلتم : لست أريد الأعمال الكاملة لكولردج. إن لدى قصيدة "اللاج المعجوز" فى بعض كتب المكتبات ، وهذا حسبي. "اللاج المعجوز" و"قوبلى خان" وربما النصف الأول من "كرستابل". هذا ما يهم فى كولردج حقيقة". أما الحقيقة فهراء: بل إنه ليس حتى هراء جافا جيدا. إنه هراء رطب لزج ، يبعث

على الاكتاب". وهكذا فإني إذا أخبرتك أن هذه الطبعة الجديدة مؤلفة من ستمائة صفحة، فلن يعدو جوابك أن يكون : "يؤسفني أن أسمع منك هذا".

وحين يتحدث فورستر عن يمتس الذي صدم الكثيرين بغرابته وآرائه وانغماسه في السحر وتحضير الأرواح والكتابة الميكانيكية يقول : "إن قسما كبيرا من عمله رتيب، وبعضه يصدم الناس إلى الحد الذي يجعلنا نجتنح إلى أن نقول : "أى خسارة ! أى خسارة أن يمشي في الحديث عما تحت الشعور والخفية الشمسية والذكورة والأنوثة والظلمة الإفريقية والحركة الكونية بينما هو قادر على أن يكتب بكل هذا الاستيثار عن البشر وبكل هذا الجمال عن الزهور". هذا سؤال قد دار بخلد كثيرين، منهم فورستر نفسه. ولكنه يضيف : "إنك لا تستطيع أن تقول : "لننسط نظرياتنا من الحيطان ونستمتع بفنّه". ذلك أن الأمرين يتماهيان. لا تصدق نظرياتنا — إن شئت — ولكن لا تحبها جانبا قط. إنه أشبه بعملية طبيعية من أغلب الاكتاب.. وأن تؤنّب أشبه بأن تؤنّب زهرة لأنها نبئت فوق كومة روث، أو تؤنّب كومة روث لأنها أنهت زهرة".

ويدعو الناقد ب.ب. فيرباتك — في كلمته التمهيدية — فورستر : "المبسط العظيم". من الحق أنه كان يكتب على نحو مبسط، وكان موهوبا في التعبير البسيط عن الأفكار المعقدة، ولكنه لم يكن يعد التبسيط غاية في حد ذاته. لقد كان يلهم التعبير عن التعقيد، بل يدافع عنه لدى سواه من الاكتاب. وهكذا دافع عن جويس — رغم أنه لم يكن يعيل إليه كثيرا — وعن فرجينيا ولف — رغم أنها كانت تريكه — وعن إليوت رغم أنه كان يوقع في قلبه الرهبة. وقد زكى نص بول فاليري المسمى "أسمية مع منيو تمت" بقوله : "إن أول جملة فيه مضيلة : "ليست الحياة ممكنة قوتي". كلا، إنها لم تكن كذلك. فاليري لم يكن غيبا قط. ولو أنه كان غيبا أحيانا لكان — بلا شك — أقرب إلى بقينا، نحن الذين كثيرا ما نكون أغبياء. لقد كان ذلك هو ما يحدده. ولنتذكر، على الجانب المقابل، حدودنا، وكَم نحسرها بعجزنا عن أن نتابع عمل ذهن متفوق علينا".

لم يكن فورستر من طراز فاليري، ولكنه دافع عن حق فاليري في أن يكون فاليري. كان يفهم جمال التعقيد ويزجى إليه التحية حين يلتقي به. وإذا كان هو شخصا يؤثر البساطة فإنه كان يدرك أن هذا ليس إلا تفضيلا شخصيا نابعا من رغبته في التواصل مع الآخرين.

وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية وجّه فورستر أحاديث دعائية معدلة النبرة إلى الهند، وظل يسخر من "فلسفة" التازي منذ مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، ويهاجم الأنظمة البوليسية القائمة على فتح أبواب السجون والمعتقلات، ويدافع عن البرنامج الثالث (وهو يعاد البرنامج الثقافي عندنا) في الإذاعة البريطانية، ويدعو إلى إتاحة التعليم للجماعير، ويدافع عن حقوق اللاجئين، ويحش على تقديم حفلات موسيقية مجانية للفقراء. ولم يكن غافلا عن نواحي القصور. في المذهب الإنساني (الهيوماني) ولكنه ظل محتفظا بإيمانه به. يقول : "أترانا في هذا الزمان المروع نريد أن نكون إنسانيين المذهب أو متعاطفين ؟ لا شك

لدى فيما أريده. فأننا أولئذ أن نكون إنسانى المذهب بكل عيوبه من أن نكون متعصبا بكل فضائله.

وكان فورستر من أوائل من تهيئوا مواهب الكتاب الشبان فى عصره : روزاموند ليتمان ووليم بلومر وكريستوفر إشرود، مرتليا أنهم يملكون ما دعاه كيتس "قداسة عواطف القلب". وكان مصيها فى تقييمه لكتاب المؤرخ لايتن ستريشى عن الملكة فكتوريا، وتقييمه لأعمال هـ.ج. ولز وريكاوست وأولانس هكسلى، وتقييمه للصحيدة إليوت "أربعاء الرماد"، وتقييمه لكتاب براتراند رسل "تاريخ الفلسفة الغربية". وحين سُئل فى ١٩٤١ : "أثرى الرواية قد ماتت؟" كان جوابه بالنفى.

إن أحاديث فورستر الإناعية دملة ساحرة، ككل ما كتب. وهى بالإضافة إلى ذلك ممتعة حين يسترخى الإنسان ليقراها - ذات أسيل كسول - فى مقعده الوثير. وتكرر مثلما كان يكرر فى ختام أحاديثه، إن كان قد فاتك ما قال : عنوان الكتاب هو "أحاديث [م. فورستر من محطة الإناعة البريطانية". والثمن ٥٩ جنيه إسترلينا و ٩٥ پنا.

رتشارد رايت فى الذكرى المئوية لمولده

عرف القارئ العربى رتشارد رايت (١٩٠٨-١٩٦٠) الكاتب الزنجى الأمريكى لأول مرة عندما كتب عنه طه حسين فصلا (أدرجه فيما بعد فى كتابه "البوان") عنوانه "فى الأدب الأمريكى" فى عدد أكتوبر ١٩٤٧ من مجلة "الكاتب المصرى". ثم صدرت بعد ذلك بعض ترجمات لأعماله أذكر منها : "أنت أسود وقصص أخرى" من ترجمة مازن الحسينى وتقييمه (دار النديم ١٩٥٥) و"أبناء الموم" من ترجمة منير البعلبكي (دار العلم للملايين، بيروت) وللكتاب نفسه ترجمة أخرى بقلم أحمد محمد عطية، دار الوقف العربى (١٩٨٢). هذا الكتاب هو موضوع مقالة عنوانها "رتشارد رايت : الأسود أولا" نشرها "ملحق التايمز الأدبى" (١١ يونيو ٢٠٠٨) من قلم جيمز كامبل. ومناسبة المقالة هى صدور ثلاثة كتب :

- القوة السوداء : ثلاثة كتب من النفس : القوة السوداء، حاجز اللون، أبها الرجل الأبيض ألق إلى بسمعك ١ (الناشر : هاربر برينال ٨٢١ صفحة) من تأليف رتشارد رايت.

- قانون أب (الناشر : هاربر برينال ٢٦٨ صفحة) من تأليف رتشارد رايت.

- رتشارد رايت : حياته وعصره (الناشر : مطبعة جامعة شيكاغو ٩٢٦ صفحة) من تأليف هيرل راول.

يقول كاتب المقالة : بمنح الوقت الذى أبهر فيه رتشارد رايت من نيويورك إلى فرنسا فى ١٩٤٧ كان قد غدا نجما استقرت مكانته فى سماء الأدب. كان اثنان من كتبه - "أين البلد" (١٩٤٠) و "صبي أسود" (١٩٤٥) - قد صارا من أكثر الكتب مبيعا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكرجما إلى عدة لغات أوروبية. وفى باريس غدا موضوع ترخيص الدوائر المثقلة : فقد تصادق هو وزوجته إلين مع سيمون دوبوفوار (وقبما بعد غدت إلين وكيلة

أدبية لدو يوفوان وإلى حد أقل مع سارتر الذي لم يكن يجيد الإنجليزية ومع سائر كتاب مجلة "الأزمة الحديثة".

على أن نجمه بدأ يخيب في السنوات التالية : تدرجيا في البداية ثم على نحو أوضح حتى إن رايت قال لوكيله المخلص بول ريتولنز عام ١٩٥٨ بعد أن انتهى من كتابة رواية جديدة عنوانها "جزيرة الهلوسة" : "إذا لم تنجح فسيكون عليّ أن أفكر جديدا في هجر الكتابة فترة من الزمن. على المرء أن يكون واقعا". وقد توفي بأزمة قلبية في باريس في نوفمبر ١٩٦٠ عن اثنين وخمسين عاما. ولم تر روايته الجديدة النور قط.

ومع الذكرى المئوية لمولده (ولد في ١٩٠٨) أعادت دار هارثير كولنز للنشر طباعة عدد من كتب رايت من بينها "القوة السوداء" و"حاجز اللون" وهما يتدرجان في باب أدب الرحلات، كتبها في منتصف خمسينيات القرن الماضي (وله كتاب رحلات ثالث عنوانه "إسبانيا الوثنية")، ومجموعة محاضرات ألقاها تصدر الآن تحت عنوان "أبناء الرجل الأبيض ألقِ إليّ بمعصا" (١٩٥٧). كذلك أصدرت الدار "قانون أب" وهي رواية بدأها رايت في الأسابيع الأخيرة من حياته ولكنه لم يتمها قط. أما كتاب هيزل راوي عن حياة رايت وعصره فقد ظهر لأول مرة في عام ٢٠٠٤ وهو الآن يصدر في طبعة شعبية ورقية الغلاف.

ينتمي رايت إلى مجموعة الكتاب الأمريكيين الذين علا نجمهم في ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياته : جون ستاينيك الذي كانت روايته "أمناب الغضب" تنافس "ابن البلد" في المبيعات، وجون دوس باسوس صاحب التقنية السينمائية المبتكرة، وجيمز ج. فاريل الملتزم سياسيا واجتماعيا. وبمجيئ الوقت الذي نشر فيه رايت روايته الثانية، كانت قد ظهرت مجموعة جديدة من الكتاب بدأت تستحوذ على الأنظار : ج.د. سالنجر، سول بيلو، نورمان مايالر، جوزيفدال، ماري مكاشي، فضلا عن كاتبين زنجيين آخرين هما رالف إليسون صاحب "الرجل الخلفي" وجيمز بولدين صاحب "انهب قلبا على الجيل".

أخرج رايت في ١٩٣٨ مجموعة قصصية عنوانها "أبناء العم توم". وفي الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٠ كان ينشر تقريرا كتابا جديدا في كل عام، ويكتب الكثير إلى جانب ذلك. ولكن هذه الأعمال لم تلق صدى يذكر لدى النقاد والقراء.

إن كتاب "القوة السوداء" سجل لرحلة رايت إلى ساحل الذهب (غانا الآن) في ١٩٥٣. وكتابه "حاجز اللون" موضوعه مؤتمر باتندونج الذي انعقد في إندونيسيا عام ١٩٥٥ وحضره قادة عدم الانحياز في العالم الثالث آنذاك. ولكن هذين الكتابين أدنى مستوى من كتب الرحلات التي أخرجها جريام جرين ويول فلمنج ونورمان لويس وغيرهم.

و"قانون أب" هو سادس كتاب يصدر لرايت بعد رحيله، وقد سبقته مجموعة قصص قصيرة، وكتاب ذكريات، ورواية، وديوان شعر، فضلا عن رواية "جزيرة الهلوسة" التي لم تظهر بعد. وهناك مجموعة رسائله التي حالت زوجته إلين (توفيت في ٢٠٠٤) دون نشرها. وفي مقدمة كتابها جوليا - الابنة الكبرى لرايت - لرواية "قانون أب" تعترف بأنها رواية "ذات عيوب، تخطيطية غير واقعية، وتكرارية أحيانا". لقد كتب رايت مسودتها في

سنة أسايك في النصف الثاني من عام ١٩٦٠ وكانت محاولة متأخرة منه لكتابة رواية أفكار. إنه يتساءل : ما "القانون" لماذا يقتل الناس؟ ما الذنب؟ لماذا يشعر به البعض ولا يشعر به آخرون؟ والشخصية الرئيسية في الرواية تدعى ردى تكرر، وقد رُفِي إلى منصب رئيس الشرطة في إحدى ضواحي شيكاغو. والمنطقة التي يشرف عليها مستهدفة من قاتل يرتكب سلسلة من جرائم القتل، دون دافع فيما يبدو. وابن ردى الراهق - تومس - وهو تلميذ لامع يتأهب للالتحاق بالجامعة يعرف الكثير من الحقائق المقلقة عن هذه الجرائم.. إنها رواية شائعة ولكنها أدنى مستوى من الروايات البوليسية التي كانت تكتبها باتريشيا هاي سميث في خمسينيات القرن الماضي عن الجريمة والذنب في ضواحي المدن الأمريكية. وينتهي كاتب المقالة إلى أن رأيت كان متعدد الجوانب، ذا حيوية. ولكن موهبته الكبرى - وهي ما يكفل لاسمه البقاء مائة عام أخرى - كانت تتمثل في تصوير المظاهر التي يتعرض لها صبي أسود صغير في عالم أبيض كبير، أو على حد قوله : "كانت هذه هي الثقافة التي نشأت منها. كان هذا هو الرعب الذي فرت منه".

### جون شتاينبك (١٩٠٢-١٩٦٨)

في مقالة لدونالد هوتون - الذي كان أستاذا زائرا للأدب الأمريكي بجامعة القاهرة وعين شمس في ستينيات القرن الماضي - عنوانها "شتاينبك : الفنان والجائزة" يكتب هوتون :

"لما سأل الصحفيون شتاينبك : هل ترى أنك جدير بجائزة نوبل؟

أجاب من فورهِ : .. يقينا لا !

والظاهر أن كثيرا من الناس يوافقونه على حكمه، فإن نأ استحقاقه لجائزة نوبل في الآداب عن سنة ١٩٦٢ لم يكذب يعلن حتى آثار موجهة كبيرة من النقد جاء في أغلبه من مواطنيه الأمريكيين أنفسهم، هذا مع أن مؤلفاته للقيت رواجاً شديداً منذ أن واثته الشهرة في الثلاثينيات من هذا القرن، كما طاب للشيء أن تستغل بعض قصصه" (ترجمة يحيى حتى، مجلة المجلة فبراير ١٩٦٣، ص ٤٤). وتشير هذه الكلمات إلى الحمرة التي تخامر نقاد شتاينبك ودارسيه. فهل هو كاتب من الطبقة الأولى مثل فوكسر وهمنجواي - في بعض أعمالهما على الأقل - أم أنه لا يعدو أن يكون كاتباً جذاباً ناجحاً من الطبقة الثانية؟ يشير هذا السؤال وروبرت جوتلب في مقالة له عنوانها "تجدة جون ستاينبك" في "مجلة نيويورك للكتب" (١٧ أبريل ٢٠٠٨) وذلك إذ يعرض كتاباً صادراً في سلسلة "مكتبة أمريكا" من ٩٩٠ صفحة عنوانه "أسفار مع تشارلي والروايات اللاحقة ١٩٤٧-١٩٦٢" ويضم من أعمال شتاينبك : الأنوبيس الجائع، الاحتراق المساطع، يوم الخميس العذب، شقاء سخبنا، أسفار مع تشارلي بحثاً عن أمريكا".

ويقول جوتلب : إن روايات شتاينبك تحقق مبيعات عالية، فالطبعات الورقية منها في سلسلة بنجوين تبيع أكثر من مليون نسخة في السنة. وإذا استثنينا أسوأ روايتين له -

"الكأس الذهبية" و"حكم ليجين الرابع القصير" - فسجد أن أروج كتبه هي : "عن الفئران والرجال" (وعنوانها مأخوذ من قصيدة للشاعر الإسكتلندي روبرت بيرنز) و"المهر الأحمر" و"اللؤلؤة" و"أعقاب الغضب" و"شرقي عدن" (تحولت هذه الأخيرة إلى فيلم من إخراج إيليا كازان وبطولة جيمز دين).

لقد نُشرت أعمال شتاينبك الكاملة، وغدت من المقررات الدراسية على طلبة المدارس الثانوية والجامعات وحصل على جائزة نوبل، ومع ذلك يظل بعيدا عن الخريطة النقدية، لا يذكره سوى بعض الأكاديميين وبعض القراء المتحمسين. فلم كان الأمر كذلك؟ ربما كان أحد الأسباب هو ميله إلى التفلسف دون عمق حقيقي (قال عنه الناقد آرثر ميزنر : "إن موهبته المحدودة - في خير كتبه - مخلفة بتفلسف من الدرجة العاشرة"). فهو يثقل على قارئه بآراء وأفكار فادحة الوطأة. لقد كان، ككثير من كتاب جيله، يشعر بالاشمئزاز من النظام الرأسمالي، ومع ذلك لم يكن ثوريا حقيقيا. إنه أقرب إلى أن يكون مراعقا ساخطا يتسم بكليته بلهدة الحس. ورغم أنه يحاول دائما أن يرسى قوانين أخلاقية وأن يعالج قضايا كبرى، فإنه ليس بالفكر أو المنظر التجريدي. أنه ينظر بعين الشك إلى التعليم الرسمي، ويكره السلطة والمؤسسات وهذا ما حال بينه وبين الانضمام إلى الحزب الشيوعي حتى حين كان في قمة راديكاليته في ثلاثينيات القرن الماضي. ونضع الأمر بصورة أخرى فنقول : إنه يملك الحرارة والإخلاص - وكذلك الأفكار المختلطة - لكثير من المعاصرين الأذكياء الذين علموا أنفسهم بأنفسهم.

التحق شتاينبك في شبابه، على فترات متقطعة، بجامعة ستانفورد ولكنه لم يحصل على شهادة منها. واشتغل بعدد من الأعمال اليدوية المتنوعة، وكاد يتضور جوعا في نيويورك عندما كان في الرابعة والعشرين إذ عمل بالبناء، وقشل في محاولته أن يعمل صحفيا. ولكنه لم يفقد قط ثقته في نفسه كاتبا، وكان يقرأ ما كتب على أسدقائه لمدة ساعات.

نمت روايته المصاة "إلى إله مجهول" (١٩٣٣) عن تأثر بهجاء لندن ود. هـ. لورنس. أما الرواية التي تلتها "تورتيلافلات" (١٩٣٥) - وهي أول عمل له يحقق مبيعات عالية - فقدمت نماذج من البسطاء - ملح الأرض - يشبون ويتشاجرون ويزنون ويسرقون. وتبرز في هذه الرواية الفكرة التي غدت فيما بعد من أهم أفكار رواياته : التضامن الجماعي بين الفقراء والكادحين والعمال غير المتعلمين.

وفي ١٩٣٦ أخرج رواية "الحرب سجال" وبطلها شاب غاضب مغترب يدعى جيم ينضم إلى الحزب الشيوعي في سان فرانسيسكو. ويشارك جيم في إضرابات العمال ويصاب بجرح ثم يُقتل.

ورواية "عن الفئران والرجال" (١٩٣٧) مكتوبة بالطريقة الواقعية - نفسها - المباشرة الفعالة كسابقاتها. وبطلها عاملان يدعيان جورج وليني : الأول بارع بملك صفات القيادة، والثاني نصف أبله يعبد جورج. ويبدى شتاينبك تعاطفا حقيقيا مع هذه النماذج الإنسانية؛



مما يجعل من هذه الرواية - وإن لم تكن أكثر أعماله طموحا - أقرب ما كتب إلى العمل الفني المُرغَّب.

كانت "عن القنار والرجال" هي أيضا مدخل شتاينيك إلى برودواي. فقد تحولت إلى مسرحية ناجحة - بفضل جورج كوفمان - وحصلت على جائزة "تقاد الدراما في نيويورك". ومن هنا بدأ تعلق شتاينيك بالكتابة للمسرح رغم أن موهبته لم تكن درامية وإنما هي، بالأساس، رواية تقوم على تقديم تقارير واقعية.

كانت "أعقاب الغضب" (١٩٣٩) التي تصور هجرة الزارعين الفقراء إلى الغرب هي عمل شتاينيك الكبير. كتبها في خمسة أشهر، وجعل فصولها تناوب بين سرد قصصي مباشر قوى وتعليقات المؤلف. وتصور الرواية كيف أن دخول الآلات مجال الزراعة قد كسر الصلة بين الإنسان والتربة: "إن الجرارات لا تحب الأرض". حصلت الرواية على جائزة بولتزر، وصنع منها جون فورد فيلما سينمائيا ناجحا.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية أخرج شتاينيك "مغيب القمر" (١٩٤٢) واشتغل مراسلا حربيا. كتب عن لندن أثناء "الحرب الخاطلة" التي شنها عليها هتلر، وعن شمال إفريقيا، وعن إيطاليا. لقد كان ينظر إلى الخارج أكثر مما ينظر إلى باطن نفسه، وكان يشعر بأنه على راحته حين يكون رجلا بين رجال، أو صبيا بين صبية، لا حين ينخرط في علاقات مع الجنس الآخر (رغم حياته الجنسية الغنية بالخبرات، وزواجه ثلاث مرات، فإنه لم ينجح قط في رسم شخصيات نسائية: فتنازه إما قديسات وإما عاهرات - وأحيانا يجمع بين الأمرين - وهن رموز، إلا أن يكنّ ممثلات للشر الخالص).

وفي ١٩٤٨ نشر يوميات هن زيارته للاتحاد السوفيتي بعد أن قضى فيه ستة أشهر بصحبة الصور الفوتوغرافي روبرت كايا.

وفي "شارع السردين الملعب" (١٩٤٥) يترد شتاينيك إلى عالم "تورتيل فلات"، و"الأوتوبيس الجانح" (١٩٤٧) تصور - على نحو صناعي مفتقر إلى الاقتناع - مأزقا يقع فيه ركاب أوتوبيس، على نحو يذكرنا برواية ثورتون وايلدر "جسر سان لويس راي". أما "شرقي عدن" (١٩٥٢) - أكثر رواياته طموحا - فتدور أحداثها في وادي ساليكاس وتلمح إلى تصوير الصراع الأيدي بين الخير والشر من خلال ابتعاث آدم وحواء وقابيل وهابيل.

كان شتاينيك في الخمسين عندما نشر "شرقي عدن"، وبعدما لم يكد يخرج شيئا ذا قيمة. لقد فشل في محاولته استيحاء قصة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة وإضفاء طابع عصري عليها. ولكن روايته السماء "شاه سلطان" (١٩٦١) (وعنوانها مستوحى من إحدى مسرحيات شكسبير التاريخية) نمت على تجدد قواه. إنها رواية أزمة أخلاقية، مروية بضمير المتكلم، أشبه بروايات معاصره: جون أوهارا وجيمز كورنز وجون ماركاند وهاملتون باسو وسلون ولسون. وبطل الرواية - الذي يعد نفسه مواطنا مستقيما يحافظ على القانون - يتعرض للإفراء ويسقط ويخون رئيسه في العمل وكذلك صديق طفولته. إن لحظات ضعف إيثن هولي، وإفقار ابنه الراهق إلى الأمانة، تعكس التدهور الأخلاقي لعصرنا.

وآخر عمل طموح لشتاينيك هو "أسفار مع تشارلي بحثا عن أمريكا" (١٩٦٢). والكتاب أشبه برحلة عبر القارة الأمريكية (تبعث رواية "دون كيشوت" : كتاب شتاينيك المفضل) تبين كيف أن الفسائل القديمة - الاستقلال والتضامن - تكاد تختفي من أمريكا الحديثة، وتحل محلها عنصرية مقبلة من جانب البيض ضد السود في نيو أورليانز وغيرها. وخلال عقد الستينيات غدا شتاينيك أشبه بسفير ثقافي للولايات المتحدة إلى الخارج. لقد صادق ينجيني يفتشكو وداغ همرشلد، واستبان ملامحه : ديمقراطي ليبرالي ينهج نهجا وسطا، ويناصر أدلاي ستيفنسن، ويعيد لندن جونسون في حربه على فيتنام. قضى شتاينيك سنواته الأخيرة مشتغلا بكتابة المقالات والتحقيقات الصحفية، وأخرج كتابا عنوانه "أمريكا وأمريكيون" (١٩٦٦) تغلب عليه نغمة الوعظ والنزعة التعليمية والبحث عن إجابات كبيرة عن أسئلة كبيرة. إنه الآن "أمريكي وطني" عن اقتناع، وقد ابتعد كثيرا عن راديكاليته الباكرا مما أفقده حب كثير من اليساريين والليبراليين ومنافسي التدخل العسكري الأمريكي في فيتنام.

# دوريات فرنسية



## ديما الحسيني

في العدد ٧٦ لدورية بنك المعلومات La Banque des mots (أغسطس ٢٠٠٨) التي يصدر منها عددان في السنة عن المجلس الدولي للغة الفرنسية Conseil International de la Langue Française - المتخصصة في المصطلحات، والكلمات المحدثّة في اللغة الفرنسية - دراسات وتوصيات بشأن المصطلحات واستخداماتها المختلفة في المجالات العلمية والتقنية. وجاءت دراسة لهوبير جولي Hubert Joly حول كلمة التراث Le mot patrimoine ودراسة لهيربير إيسيل Herbert Eisele حول البحث عن المعنى En quête du sens، ومصطلحات الموسيقى والنظرية الموسيقية Terminologie de musique et de théorie musicale لميشيل أزاريتي Michel Azzaretti، وأخيراً عرض برنار كيماذا للكتب والمعاجم الخاصة باللغة وعلم المصطلحات.

### التراث

في دراسة بعنوان "كلمة التراث" Le mot patrimoine يعرض هوبير جولي Hubert Joly لفهوم التراث، إذ يرى أنه مفهوم يشوبه الغموض. بل شهد تغيراً مشطرباً في معناه على مر السنين. ففي البداية، كان يشير إلى الأشياء الثنوقلة وغير الثنوقلة التي تتوارثها الأجيال، ويحدد المحامون قيمتها المالية. ثم ما لبث أن تغير مدلول الكلمة حتى غدا يعبر عن الأشياء التي ليس لها طابع الملكية الخاصة - كالأعمال الفنية والآثار التاريخية - وذلك منذ قيام الثورة الفرنسية - وعلى وجه التحديد - منذ فترة الإمبراطورية الثانية. وتتوارث الأجيال هذا التراث، ولا يتوارثه الأفراد - كما كان الحال سابقاً - ولا يتم هذا التوارث عن طريق التبع أو التنازل. واستطرد الكاتب، ليوضح كيف أن مفهوم التراث الوطني انتشر انتشاراً واسعاً منذ أن قامت اليونسكو بتصنيف بعض الأماكن، ولاسيما المدن باعتبارها تراثاً

عائلاً أو تراثاً ملكاً للإنسانية بأكملها، وذلك حفاظاً عليها من التخريب. ويقول هوبير جولي إن مفهوم التراث اتسع مع امتداد مفهوم التراث الطبيعي الذي يشمل المناظر الطبيعية، بل الأماكن التي تحوي النباتات النادرة، وأماكن القطب الشمالي. ويضيف جولي قائلاً إن المخاطر التي تحف بالعالم غدت تهدد كل الكائنات الحية، وأصبح التنوع البيولوجي - أيما كان شكله وأينما كان - تراثاً يتعين حمايته، وتقديره. فإن تركز ثاني أوكسيد الكربون في الجو الأرضي من الممكن أن يُعد بمثابة تراث، على حد قوله.

ويرى الكاتب أن المفهوم شهد منذ قرنين من الزمان اتساعاً كبيراً في المعنى. فأصبحت هناك ضرورة ملحة لأن تعي الأجيال قيمة ما ستتركه، وتورثه للأجيال القادمة. وسائق على ذلك مثال الثورة الفرنسية ثم الحروب التي تلتها ؛ فدمّرت كميات كبيرة من الأعمال الفنية التي تم إتلافها سواء بفعل التكسير، أو الحرق أو التلوث ليعوض أجزائها. فعلى الجيل الجديد أن يهتم أيضاً بما تركه له الجيل السابق، على حد قوله.

ويضيف هوبير جولي أن مرحلة الاهتمام بالتراث تأتي بعد فترة من الإهمال يعزوها إلى التغيرات التي تلحق بعالم الموضة ؛ فيتغير ذوق الناس ويميلون إلى نمط يعينه دون سواء - كما حدث في العصر الكلاسيكي من ازدياد للذوق الفني الشائع في عصر النهضة - ويسوق مثلاً آخر على ذلك، فتوافير المياه المصنوعة من النحاس - على طراز القرنين السابع عشر والثامن عشر - التي لم تعد تستخدم، يتم تدميرها قبل الإحساس بجمالها وقيمتها الفعلية. فندرة وجودها تصيغها بهذا الطابع التراثي المرتبط بالحضارة. ويقول الكاتب : "من كان ليتخيل أن نتخذ مكواة أو سيارة من طراز عام ١٩٥٠ طابعاً تراثياً؟" بيد أن هذه الأشياء قد تفقد قيمتها عندما تنتهي صيحتها. ويقول هوبير جولي إن أي شيء اكتسب طابعاً تراثياً، لا يُنزع عنه هذا اللقب، ولا سيما إن غدا ضمن مجموعة صُنفت على أنها تراثية. ولكي تبدو الفكرة أكثر وضوحاً، يشرح الكاتب كيف أن صورة دينية، أو شريطاً لاصقاً على علية جبن - على سبيل المثال - لا يكون لهما أي قيمة تراثية في حال بقائهما منفصلين ؛ ولا يتخذ الطابع التراثي إلا إذا أُنتج منهما على الأقل عشرة آلاف نسخة. فهي تصبح حينئذ شاهداً على شكل من أشكال الحضارة.

ثم ينتقل هوبير جولي للحديث عن التراث الشفهي - كالوصفات المطبخية، والأمثال، وصيحات الأزياء، والعادات الاجتماعية، وعادات الحياة اليومية التي لا تكتسب الطابع التراثي إلا حين يقوم شخص ما بتسجيلها. ويتبادر سؤال إلى ذهن هوبير جولي: "من ذا الذي يجرؤ على القول بأن شعار فرنسا - ذا الطابع المعنوي - لم يكتسب في خلال قرنين من الزمان قيمة تراثية؟". ويختم الكاتب مقاله قائلاً: "إن أي شيء سواء أكان له طابع مادي أم معنوي يمكن أن يدخل ضمن ما يطلق عليه "تراث". فنظرنا إلى الشيء هي التي تحدد ذلك في زمن محدد، وفي وقت بعينه. ألم تغدو الفلسفة التي شاعت في القرن الثامن عشر، وتغلغلت رويداً رويداً في الفكر السياسي الفرنسي، ألم تغدو تراثاً؟ وفي ذلك أيضاً شأن الجذور المسيحية لأوروبا التي نتحدث عنها اليوم، على حد قوله.

## المعنى في الترجمة

في دراسة بعنوان البحث عن المعنى En quête du sens يتطرق هيربير إيزيل Herbert Eisele إلى مفهومين شائعين ألا وهما المعنى وعكس المعنى. ويقول إنه لا وجود للتفكير ولا للمعنى في غياب اللغة. فالمعنى ينتقل من خلال الكلمات. وللبحث عن هذه الكلمات يعكف الناس على القواميس، بل يتحققون من المعاني المختلفة للكلمات. ويقف جولي عند ما يُطلق عليه اسم "الذاكرة الجماعية" أي اختلاف المعاني وفقاً لاستخداماتها والظروف المحيطة بها. وهو ما يسميه اللغويون "السياق" contexte. ففي السياق تأخذ الكلمات معناها. إذن فالمعنى يتغير وفقاً للسياق، ولعارف القارئ ومدى اهتمامه بالوضع. غير أن التجارب التي نمر بها تغذي ذاكرتنا بمعان مختلفة تكون مرتبطة بدورها بهذه التجارب بشكل مباشر؛ فينتج عنها معنى عام يتكون بدوره من عدة معانٍ، ومعانٍ متضاربة في معناها، بل معانٍ خاطئة. ويرى هيربير إيزيل أن كلمة "معنى" تنطوي على عدة استخدامات. وتتعدد تعريفاتها. ويسوق الكاتب مثلاً على جملة "كيف حالك؟" Comment ça va ? فهي لا تعني قطعاً ما تعنيه. بل قد تعني أيضاً "لقد رأيتك"، "مرحباً. لكن تركني وشأني!". ويذكر مثلاً آخر عن الوعود الانتخابية التي تحمل في طياتها معنى واضحاً وصريحاً، وكان المتقدم للحملة الانتخابية يقول: "أنا أريد هذا الكرسي (كرسي النائب أو الرئيس)؛ أجلس عليه". ويرى الكاتب أنه من الخطأ استخدام الجملة المنتشرة بشكل كبير في الصحف والمجلات: "يعتقد الكثير من الناس أن..."؛ وذلك لأنها خالية من أي معنى. فهناك الكثير من الناس ممن لا يعتقدون بذات الشيء، على حد قوله.

ثم ينتقل هيربير إيزيل للحديث عن مبدأ الصدى في عملية الاتصال وعلاقته بالمعنى. فالكلمة المنطوقة تحمل أفكاراً ومادة أي الذاكرات التي تثير الشاعر والأحاسيس؛ فيدرك الإنسان من خلالها ما هو حسي، وساخز، وفكاهي، وجمالي، وعملي، وأخلاقي. ثم يتحدث عن الكلمة ومدى ارتباط المعنى باستخدامها، إذ تخول إليها النبرة المعنى المراد. وبذلك يتوقف المعنى على النبرة التي بدورها تُحدث صدى في نفس السامع. فالمتلقي يفهم ما تحمله الكلمة من معنى، ويفهم ما وراء الكلمة، بل يفهم ما لم تنبئ به الكلمة. فالصمت يحمل في طياته معنى كبيراً أيضاً، على حد قوله. ويعتقد الكاتب قائلاً إن هناك كلمات تزخر بالثروة أكثر ما تزخر بالمعنى - كالحب والشجاعة - ويقول إن المعنى واللامعنى يتعايشان. فالمعنى ممتلئ في هيئة أحرف وأصوات تشير إلى الأشياء، والشاعر، والحقائق. فكل كلمة تخفي بداخلها مفهوماً ما. ولذلك فلا يمكن أن تشير الكلمة في حد ذاتها إلى معنى بعينه. ينبغي على المرء أن يعرف الأسباب وراء استخدام هذه الكلمة دون غيرها، والغرض منها. ويرى هيربير إيزيل أن الكشف عن الأسباب يكشف بدوره عن المعنى. فالكلمة توشك أن توقع في شركها دارس المعاني اللغوية.

ثم ينتقل للحديث عن دراسة معاني الكلمات التي تعنى بدراسة العلاقة بين الرمز اللغوي والكلمة والمشار إليه، أي الشيء المقصود. وهذه العلاقة هي التي تعطي لكل من الكلمة والجملة والتعبير معناه. ويسوق الكاتب مثالاً للعمل "يشير إلى" الذي يُستخدم فيه

الإصبع للإشارة، ويستلزم طرح السؤال وتقديم الشرح اللازم في آن واحد ، لأن الإصبع يشير إلى الشيء، ويتحرك تجاهه. فهذه الحركة هي أساس كل عملية اتصال. كما أن الكلمة تحمل معنيين، المعنى اللغوي والمعنى المجازي. فالقواميس تعطي المعنيين فضلاً عن وجود قواميس خاصة بالتعابير الاصطلاحية والمجازية.

أما عن المقابل في اللغة الهدف، فيقول الكاتب إن التصوص المكتوبة في القرون الوسطى كانت تحتل عدة معان سواء حرفية أم رمزية أم روحانية. أما عن المعنى الرمزي، فيقول الكاتب إن الصورة اللغوية تحل محل المعنى. وعرض في ذلك لأسماء العلم وما قد تحمله من معنى. ثم انتقل للحديث عن الترجمة وعلاقتها الوثيقة بالمعنى. فالمعنى يتكون من خلال الكلام أو النص. والأمر يتعلق بالعملية العقلية التي تتخذ فيها الفكرة شكل الكلام الشفهي أو التحريري. والكلام يتغير ولا يبقى سوى ما هو مكتوب، ولا يبقى سوى الرمز. بل يُعد الرمز في حد ذاته ترجمة. فما هو إلا نتيجة لاستقبال فكرة قُدمت في شكل معين. ويحتوي هذا الشكل المتكون من صورة وثيرة على الفكرة التي تعطي للشكل معناها وقيمتها. وبذلك نجد أشكال متعددة لمعنى واحد في البيئات المختلفة.

ويؤكد هيربير إيزيل أن المعنى يكون بمثابة الرشد للمترجم؛ إذ يعينه في نقل الرسالة باستخدام كلمات مناسبة في اللغة الهدف. وإذا ما أخطأ المترجم الفهم، فسوف تكون الترجمة سيئة. ولكن يتساءل هيربير إيزيل عما إذا كان سيلاحظ القارئ الخطأ في هذه الترجمة، ولا سيما إن كان أسلوب المترجم منسقاً، وواضحاً ، بل منطقيّاً. ثم يتطرق للحديث عن المفهوم الشهير "الجميلة الخائنة" *La Belle infidèle* الذي شاع في القرن السابع عشر وأطلق على الترجمة الجميلة التي لا تلتزم بالمعنى كما جاء في النص الأصلي. ووفقاً لهذا المفهوم، تكون الغلبة للشكل على المضمون. فالشكل الجميل والأسلوب المنمق يحددان تغييراً في المعنى ، وبالتالي فهما يخونان المعنى. ويقول الكاتب إن المعنى هو غاية كل ترجمة. فالمترجم يسير أغوار المعنى من خلال الشكل الذي جاء فيه، ثم ينقله في شكل آخر، يتناسب واللغة الهدف، آخذاً في الاعتبار المتلقي أي قارئ الترجمة. ويتساءل الكاتب عما إذا كانت هاتان المرحلتان - البحث عن المعنى في الشكل الذي جاء فيه ثم التعبير عنه بشكل مختلف - قد تحدثان تغييراً في المعنى الموجود في النص الأصلي. ثم يعرض أيضاً لأهمية الشكل الذي يحمل "معنى" في الترجمة. فالنص المتخصص - على سبيل المثال - يُقدّم في شكل معين، في كلمات، بل صيغ خاصة بمجال التخصص. فإذا ردت الترجمة المعنى ولكن أساءت التعبير عنه باستخدام صيغة غير مقابلة له في اللغة الهدف ، فسيمحق ذلك فهم القارئ. ويرى هيربير إيزيل أنه يتعين تقديم المعنى في شكل جيد يتناسب واللغة الهدف.

## قواميس وكتب

يعرض بيرنار كيماذا Bernard Quemada للكتب والمعاجم في مجالي اللغة وعلم المصطلحات الصادرة في عامي ٢٠٠٨ و ٢٠٠٧ ويعرض أيضاً لبعض الكتب والمعاجم الصادرة في عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٦. وهو إذ يقدم فكرة وإلماماً عن ما تضيفه هذه المراجع ، يلفت انتباه

التأري إلى ضرورة متابعة كل ما هو جديد في مجالات التخصص التطبيقية وعلاقتها الوثيقة باللغة. ويعرض بورتار كيماذا لحوالي ٢٧ مرجعاً يعقب عليها أو يكتفي بسرد ما جاء فيها. فكتاب آلان ري Alain Rey بعنوان "حب اللغة الفرنسية رغمًا عن المتحفظين والآخرين ممن يفرسون الرقابة على اللغة" L'amour du français contre les puristes et autres censeurs de la langue, Paris, Denoël, 313p. هذا. فقد ظهرت لغة جديدة مع الانتشار الواسع لاستخدام رسائل الهاتف المحمول. كما ظهرت اللغة الفرنسية المطعمة بالإنجليزية والتي يطلقون عليها بالفرنسية "اللغة الفرنجليزية" franglais، إذ نجد كلمات فيها مركبة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية. ويتساءل عما إذا كانت اللغة الفرنسية تنهاري سريعاً وتحتضر. فهذا الواقع يثير قلقه. بيد أنه لا يمكن تفادي وقوع ما يحدث الآن، على حد قوله. ويرجع آلان ري إلى جذور اللغة، ليبين أن حزب الكلمات هذه قديمة قدم اللغة الفرنسية نفسها. وي طرح سؤالاً في هذا الصدد: "ألم نخش منذ أربعمئة سنة هيمنة اللغة الإيطالية وذلك قبل أن نختلف ونتشاجر حول ظهور "اللغة الفرنجليزية" franglais؟ ألا تعود جذور اللغة الفرنسية إلى اللاتينية وإلى لهجات ولغات أخرى؟" ويترفع آلان ري عن الخلاف الدائر حول هذا الموضوع، وينحاز إلى صف رابليه Rabelais وسيلين Céline ويعبر عن شغفه باللغة الفرنسية. وهو حين يتحدث عن لغته الفرنسية فهو يعني تلك اللغة المتنوعة والمتغيرة، أي لغة حية نحسن الدفاع عنها إذا ما كنا نعرف تاريخها تمام المعرفة. فهو يأخذ قارئه إلى رحلة علمية عبر اللغة، بل أيضاً مسلية ومليئة بالفاآآت. إته يدعو قارئه للتعرف على اللغة كما هو واقعها اليوم وليس كما يتوهم البعض.

ولآلان ري أيضاً إصدار جديد للقاموس الروبير الموسوعي Le Robert encyclopédique des noms propres (dictionnaire illustré, nouvelle édition refondue et augmentée du Petit Robert des noms propres, Paris, Le Robert, 2008). يحتوي القاموس على أسماء الأعلام وعلى أطلس يضم الموضوعات المختلفة وتسلها التاريخي. وقد جاء هذا القاموس المصوّر بإضافات جديدة إلى قاموس الروبير الصغير Le Petit Robert. ويشتمل القاموس على كل مجالات العلوم، والعارف، والثقافة منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى يومنا هذا - كالتاريخ، والسياسة، والجغرافيا، والاقتصاد، والفنون، والمسرحيات، والأدب، والفلسفة، والأساطير، والدين، والعلوم، والتكنولوجيا، والرياضة - ويشرح أيضاً تاريخ العالم وتطوره من خلال أربعين ألف (٤٠,٠٠٠) اسم علم تشمل الأماكن، والأشخاص، والأحداث، والمنظمات، والمؤسسات، والأعمال الأدبية. ويحتوي على ألفي (٢٠٠٠) صورة فوتوغرافية للمناظر الطبيعية، والآثار، والأعمال الفنية، فضلاً عن أصل عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) كلمة واسم علم من الأماكن والشخصيات. ويضم أيضاً ثلاثمئة وخمسين مقالاً (٣٥٠) عن المدارس الفنية، والدينية، والحركات السياسية. كما يضم مائتين وأربعين (٢٤٠) خريطة للعالم، فضلاً عن خرائط سياسية، وجغرافية، وتاريخية، ومائتين وأربعين جدولاً (٢٤٠) بها معلومات اقتصادية للبلاد الرسمية، وكثافة سكانها،

والمنظمات الدولية بها، ومائتي (٢٠٠) صفحة عن التسلسل التاريخي للحركات الإنسانية في العالم أجمع منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى عام ٢٠٠٦. فهذا القاموس يضم في جزء واحد ما تشمه موسوعة كبيرة، على حد قول كيمادا.

وعرض كيمادا لقاموس خاص بتنظيم الفعاليات Dictionnaire de l'événementiel لبيرنار جيرو Bernard Giraud وهو قاموس ثنائي اللغة فرنسي-إنجليزي وإنجليزي-فرنسي صادر في باريس عن داربييت القاموس La Maison du Dictionnaire. يحتوي القاموس على ستة آلاف مصطلح وتعبير اصطلاحي من الفرنسية إلى الإنجليزية ومن الإنجليزية إلى الفرنسية يشمل مجال تنظيم الفعاليات - كالحلقات البحثية، والمؤتمرات، والمعارض، الخ - وتنظيم الفعاليات الفنية والثقافية. ويحتوي على أكثر من مائة جملة مصنفة وفقاً للمجال التطبيقي ومرفق بها جداول تتضمن المقابلات باللغة الأخرى. ويرى كيمادا أن هذا القاموس سريعاً ما سيكون بمثابة أداة أساسية للعمل تستخدمه وكالات الدعاية والإعلان، والعلاقات العامة، والعاملين في قصر المؤتمرات Palais des Congrès وللطلاب الدارسين لمجال التسويق والدعاية.

كما يعرض لقاموس قاتوني ثنائي اللغة (فرنسي إنجليزي) لفرديريك جيروم بانسييه Frédéric-Jérôme Pansier يتناول اللغة القانونية الإنجليزية بالشرح والتعريف لأهم مفاهيم القانون الأنجلو ساكسوني Legal English, l'anglais juridique, français et anglais, (spécial CRFPA/CAPA). ويشتمل القاموس على منهج التقدم لامتحان الراكز الإقليمية للتأهيل المهني للمحاميين CRFPA. ويذكر القاموس بالمفردات المصنفة وفقاً للموضوع، فضلاً عن مقتطفات من الأدب تناولت تطبيق الشرائع القانونية، وتعارين عملية. ويهم القاموس الطلاب الذين يعدون أنفسهم لامتحانات أو مسابقات تتضمن اختباراً عن القانون الإنجليزي. كما يهم القاموس كل قارئ يود اكتشاف المؤسسات القضائية الإنجليزية والأمريكية والقواعد التي تحكمها.

ويرى كيمادا أن قاموس برنار جيار Bernard Guyard ثنائي اللغة فرنسي وإنجليزي-الصادر في باريس عن دار القاموس للنشر - سيكون بمثابة أداة عمل لا غنى عنها في مجال الدوائر الإدارية والحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية-التعليمية، والإدارية Dictionnaire bilingue des collectivités territoriales et de l'aménagement, vie économique, politique, socio-éducative et administrative, Paris, La Maison du Dictionnaire. ويحتوي الجزء الفرنسي الإنجليزي على أكثر من اثني عشر ألف (١٢٠٠٠) مصطلح وتعبير اصطلاحي وترجمتها. أما الجزء الإنجليزي الفرنسي فيحتوي على أكثر من أحد عشر ألف (١١٠٠٠) مصطلح والمئات من الرموز. ويشمل القاموس مجالات عدة منها التعبير، والهندسة المعمارية، والبيئة، والمؤسسات كما يضم أيضاً أسماء الوزارات والمنظمات الإقليمية. فضلاً عن مجال البيئة التحتية - كالشوارع والمستشفيات والمدارس والجامعات - فهو يحتوي على المصطلحات القانونية والاجتماعية والسياسية.



ويعرض كيمادا للطبعة الثامنة للقاموس الطبي Dictionnaire de médecine

المصادر في باريس عن دار النشر فلانماريون Flammarion لسيرج كرينوم serge Kembaum وتصدير جون بهير جرونفلد Jean-Pierre Grunfeld . يحتوي القاموس على خمسة وعشرين ألف مدخل فضلاً عن المفردات (إنجليزي-فرنسي) تمتد على ١٢٠ صفحة. ويرى كيمادا أنه لا مناص من ارتكاب الأخطاء عند كتابة القواميس. ثم ينهري بعمر عن وجهة نظره المتعلقة بكتابة القواميس الطبية. فلا ينبغي أن يكون القاموس مختصراً في المجال الطبي. كما أنه لا ينبغي شرح كيفية تشخيص الأمراض وعلاجها. لا جرم أنها معلومات مهمة ولا غنى عنها. بيد أنه على كل من يقرأ مقالاً قديماً - على سبيل المثال - أن يجد في القاموس ما يعينه في القراءة والفهم. ويرى كيمادا أنه يتعين تحديث المفردات وإدراج الصيغة التي تم استخدامها بالفرنسية في التصنيف الدولي لبعض المصطلحات. كما يتعين تحديث الإملاء والغاؤها الشرطة بين الكلمات إلا في الكلمات الطويلة والغامضة في الكلمات المركبة. كما ينبغي تحديث إلغاء إضافة حرفي الـ a و الـ e في نهاية بعض الكلمات. ويرى كيمادا أنه ينبغي أن يضع كاتب القاموس نفسه مكان القارئ ويقترح عليه التعاريف القيمة والمختصرة والتي تتضمن المعارف الحديثة. فهذا القاموس أداة عمل لا غنى عنها للطلاب والأطباء والمرضى والقائمين بأعمال السكرتارية ممن يقرأون عن الطب ويكتبون عنه.

أما القاموس الطبي ل ميشيل أزاريتي Michel Azzaretti - المصادر في باريس عن دار القاموس للنشر- فيتضمن المصطلحات الطبية في ست لغات هي الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية والروسية Dictionnaire médical en six langues. يحتوي القاموس على أكثر من ٩٠٠ مدخل، ويأتي المصطلح الفرنسي متبوعاً بالمصطلح المقابل في اللغات الست السابق ذكرها. ويتضمن المصطلح المجال التطبيقي الخاص به، وتعريفه، والعلاجات الطبية الممكنة سواء أكان العلاج تقليدياً أم طبيعياً. كما يأتي القاموس بجعل نمطية متبوعة بالترجمة. ويحتوي على فهرس باللغات الست. ويرى كيمادا أن هذا القاموس سيندو في فترة وجيزة أداة للعمل لا غنى عنها للأطباء والطلاب والمترجمين وغيرهم.

أما قاموس شارل نوديه Charles Nodier المصادر في جنيف عن مكتبة Dictionnaire raisonné des onomatopées françaises, Librairie Droz دروز فيعرض له كيمادا ويعلق عليه بشيء من النقد. لقد اعتمدت لجنة التعليم العام للمكتبات والدارس هذا القاموس ذا اللغة البليغة. ويثير هذا القاموس اهتمام القارئ؛ إذ يكاد يكون بمثابة عمل أدبي صغير للغويات الحديثة. وكتب جون فرانسوا جانديلو Jean-François Jeandillou تصديراً رائعاً بأسلوب جميل. ويرى كيمادا أن الكاتب يبالغ في قوله إن الأصوات هي المصدر الوحيد لكل اللغات. فكان بإمكانه أن يسوق بعض الأمثلة على الكلمات التي كان الصوت مصدرها لها عند نشوئها. ويقول في تعريف الأصوات التي تنشأ عنها الكلمات: "هي اللغة المنطوقة تماماً كما تُعد الهيروغليفية لغة مكتوبة، وقد لجأ الإنسان في طور تكوين الكلام إلى التعبير عن الشيء الذي يراه وذلك من خلال الرموز أو الأصوات." ويرى كيماداً أنها قاعدة ثابتة. بيد أنه لا يجب أن نعلم. ويقول إن قاموس نوديه يزخر

بالأبحاث والتعليقات المحددة. فيجد القارئ كل الأصوات الفرنسية بالإضافة إلى الكلمات التي لم تعد تستخدم على أنها أصوات. بل يثبت ذلك في كلمات لا تظهر فيها الأصوات. ويشير إلى أن أسماء أعضاء الجسم تبدأ بحرف يعود على العضو نفسه ، وذكر — على سبيل المثال — كلمة لسان langue التي تبدأ بحرف اللام L وأنف nez التي تبدأ بحرف التون N وحلق gosier التي تبدأ بحرف الجيم G. ويرى شارل توديه في ذلك تأكيداً على أن الأصوات هي مصدر الكلمات.

كما يعرض كيمادا لبعض الكتب والقواميس الصادرة في عام ٢٠٠٧. فقاموس لغة الخمر Dictionnaire de la langue du vin لمارتين كوتيه Martine Coutier الصادر عن المركز القومي للبحوث العلمية CNRS — يحتوي على ٤٧٦ صفحة تشمل الكلمات المتداولة في هذا المجال منذ القرن الثالث عشر. ويأخذ كيمادا القارئ في جولة عبر المناطق الفرنسية والعصور المختلفة. إنه قاموس "مغمم بالشوشة والمتعة"، على حد قوله.

أما المجلة الدولية للكلمات الجديدة "نيولوجيا" Néologia الصادرة عن جامعة باريس ١٣ حين دار النشر جازنيه Gamier — تصدرة سنوياً — فهي تسعى إلى ملء الفراغ الذي يعانيه مجال دراسة مفردات اللغة. وتُشر المجلة باللغة الفرنسية وبلغات أخرى. ولها نفس اتجاهات دورية دفاتر علم المفردات Cahiers de lexicologie. ولصدور هذه الدورية أكبر الأثر في تفنيد محبي الكلمات والمصطلحات. ولا يغفل كيمادا عن التوجه بالشكر لمن قاموا بهذه المبادرة.

أما كتاب برنار دوبريز Bernard Dupriez عن تعليم الفرنسية وتلازم المعايير Le français enseigné sur mesure, apprivoiser la norme, Ottawa, CILF, 2000 فأثبت نجاحه؛ إذ طبقت وكالة الفرائكوفونية في اثني عشر بلداً إفريقياً، وفي بلاد المغرب العربي. فكل منطقة كلمات وأسلوب خاص بها. كما أن لكل منطقة طريقتها في التعلم والفهم تعود إلى جذورها التاريخية. وتقدم تلك الدراسة بناءً على إحصائية تعرضها من خلال الرسوم البيانية. ويقدم كيمادا للقارئ الموقع الإلكتروني للاطلاع على هذه الدراسة القيمة: [www.cafe.edu](http://www.cafe.edu)

كما توثقت الدورية في نهاية عددها بظهور الطبعة الجديدة لكتاب جاكولين بيكوش Jacqueline Picoche بعنوان تعليم المفردات الفرنسية Didactique du vocabulaire français الذي سبق أن نفذت طبعته الأولى لدى دار النشر ناتان Nathan وجاءت الطبعة الثانية للكتاب في ثوب جديد. على أسطوانة سي دي. زوم به. أن قامت الكاتبة بتتقيقه وتحديثه وأصدرته دار النشر ألوش بعنوان جديد: "تعليم المفردات. النظرية والتطبيق" Enseigner le vocabulaire, la théorie et la pratique. Ed. Allouche

## الدفاع عن اللغة الفرنسية

في العدد رقم ٢٢٩ (شهر يوليو وأغسطس وسبتمبر ٢٠٠٨) الدورية الدفاع عن اللغة الفرنسية Défense de la langue française الصادرة عن جمعية الدفاع عن اللغة

الفرنسية - موضوعات شائعة عن الفرنسية في فرنسا والعالم، وعن لغات أوروبا والإصدارات الحديثة في مجال اللغة الفرنسية.

### تغيير الإملاء

في مقال بعنوان "نعم للتعرية، لا للجراحة" L'érosion, pas la chirurgie، عرض رئيس الأكاديمية الفرنسية جون دوتور Jean Dutoit لكتابه الصادر في شهر فبراير ٢٠٠٨ عن دار النشر بلون بعنوان "القتلة اللوثة والأقمار" La Grenade et le suppositoire. Plon, 2008. فالكتاب يضم كل المقالات التحليلية التي سبق أن نشرها في جريدة فرانس سوار France Soir في الفترة ما بين ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥ و ٢٠ ديسمبر ١٩٧٨، والمثير في هذه المقالات أنها لا تزال لتتناسب والوقت الحاضر، بل تُعد من موضوعات الساعة. وثاني مجلة الدفاع عن اللغة الفرنسية بنص من الكتاب من الصفحات ١٦ إلى ١٩. ويتطرق جون دوتور في هذه الصفحات إلى موضوع الإملاء في اللغة الفرنسية وسبل تغييره. وهو الأمر الذي لم يتحقق بعد، على حد قوله. ويستحسن الكاتب ذلك الأمر. فهو - بصفته كاتباً - معادي بشراوة فكرة تغيير الإملاء، إذ إنه لا يجب مس كل ما يتعلق بوجودنا. ويوضح وجهة نظره فيقول إنه لا يعارض فكرة تغيير الإملاء، لكنه يرى ضرورة أن يأخذ الإملاء في تطوره الشكل الطبيعي للتغيير، وأن يتم ذلك التطور رويداً رويداً. وهو يشبه الكلمة بالحجر الذي يستلزم تغييره مرور ثلاثمائة سنة. فالكلمة شأنها في ذلك شأن الصخر الذي تصيبه التعرية. ثم ما لبث دوتور أن يحدل عن تشبيه الكلمة بالحجر، ليفضل تشبيهها بالكائن البشري الذي لا ينبغي التدخل في شكله دون وجود داع لذلك التدخل. فالشيء الوحيد الذي يمكنه إحداث تغيير ما هو "حناجر الشعب" التي لها نفس تأثير عوامل التعرية على الصخر. ويسوق مثلاً على كلمة "رأس" tête التي كانت تُكتب فيما سبق tête ثم حُذِفَ منها حرف السين ؛ لأن الناس لم تكن تنطقه في الكلام. وبعد وقت طويل، وبكثير من الحذر أُلغِيَ حرف السين. وينتقل دوتور للحديث عن اللغة في عصر النهضة التي ألغتها الإنسيون وأهل البلاغة باستخدام الكلمات اليونانية. ثم ينتقل إلى الحديث عن الوقت الحاضر والفسطة الكلامية في استخدام الكلمات ذات الطابع الفلسفي والعلمي - ككلمتي سداسي hexagonal إشارة إلى فرنسا و"فرنجليزية" franglais إشارة إلى اللغة الفرنسية المطعنة بالإنجليزية. ويتساءل عن معنى استخدام الكلام. أهو الشعب؟ فيخلص إلى أنه ليس الشعب من يسمي الكلام. بل إنهم عليه القوم ممن يدعون أنهم مفكرين ؛ وذلك لأنهم لا يملكون سوى العقل وليس لديهم آذان يسمعون بها. فالشعب يعيش مع اللغة شأنه في ذلك شأن الفلاح الذي يعيش مع أرضه، ويشعر تجاهها بالحب، والوصال، والاحترام، والألفة، على حد قوله. فالفلاح ليس عالماً جغرافياً ولا عالم أراض جوية. بيد أنه بإمكانه التنبؤ بالشمس والطر. أما الشعب فهو ليس بعالم لغة وليس متخصصاً في معرفة أصل الكلمات التي يستخدمها. لكنه يظل مخلصاً للغة وخصوصاتها. وذلك رغم الصيغة "الهمجية" التي تتطبع بها هذه اللغة. ويرى الكاتب أن مشكلة اللغة تكمن في أساساتها وعلمائها والتحدثين. فالأساتذة عقلانيون، وإذا ما أتيد بهم

تغيير الإملاء ، فسيحكمون العقل في تغييره؛ مما يضر بعملية التغيير هذه. فاللغة كالحياة، ليست عقلانية.

ويغند دوتور رأيه ويقول إن الكلمات بالنسبة إلى الكاتب ليست مجرد أصوات، بل هي عبارة عن أشكال تلعب دوراً في الكتابة ثم في القراءة. ويسوق مثالا على ذلك من كلمة فلسفة philosophie التي تُكتب بالحرفين p و h والتي لا يمكن أن يكون لها نفس الوقع عندما تُكتب بحرف الـ f كما في philosophie. ويعارض دوتور هنا فولتير الذي سبق أن صرح أنه لا يابه بإملاء الكلمتين philosophie و philosophie ، فالأمر بالنسبة إليه سيار. ويؤكد دوتور وجهة نظره قائلا إن وجود الحرفين معا ph إنما يعكس طابع الفلسفة، بل يعكس عظمتها كما مارسها العلماء الكبار.

ويقول دوتور إنه — منذ نعومة أظفاره — كان يولي اهتماماً كبيراً للإملاء الفرنسي، ويرى أن العلاقة التي تربطه بفرنسا وتاريخها ولغتها وثيقة جداً. فهناك ألفة منذ قديم الأزل بين الكاتب والكلمات. كما أنه يعرف قيمة الكلمة. فإذا ما غيرنا فجأة إملاء الكلمة، يتغير بالتالي ثقلها وقيمتها. فلن تعود هي ذات الكلمة ولن تعود لها الموسيقى ذاتها. بل من الممكن أن يتمخض عن هذا التغيير فساد الأدب بأكمله. وينهي الكاتب مقاله متسائلاً: "لصلحة من يكون تغيير الإملاء؟ إملاء يعتمد على ما هو منطوق من الأحرف؟ لا جرم أنه سيكون لمصلحة الجاهلين. وما بهم إن أخطأ الجاهلون؟ إنهم دائماً يرتكبون أخطاءً، ولم يقض ذلك مضجعمهم قط."

### جائزة حافظة الأقدام الذهبية

وفي فصل بعنوان الفرنسية في العالم Le français dans le monde كتبت فرانسواز دي أوليفيرا Françoise De Oliveira عن مسابقة حافظة الأقدام الذهبية<sup>(1)</sup> Le plumier d'or والمرشحين للحصول على تلك الجائزة والبالغ عددهم عشرة آلاف مرشح؛ وأدرجت في صفحات أسماء الفائزين الستين ومن بينهم سوفيا كوربا Sofia Correa ابنة رئيس جمهورية الإكوادور والحاصلة على المركز الثاني للمرشحين غير الفرنسيين. ووالدة سوفيا مدرسة لغة فرنسية ووالدها يتحدث الفرنسية بطلاقة ؛ مما أثلج صدر منظم المسابقة ميشيل جروزييه Michel Grosier.

أما عن الكاتب جوليان كيلانجا موزيند Julien Kilanga Musinde رئيس وحدة اللغة الفرنسية واللغات الشريكة في المنظمة الدولية للفرانكوفونية (OIF) فقد قرأ على الحضور النص الذي كتبه حول موضوع المسابقة: "كان هناك مركب...". Il était une fois un navire وقص عليهم قصته مع اللغة الفرنسية. فقد تعلم الفرنسية في المدرسة ثم ما لبث أن تذوقها حتى غدت مع مرور الوقت اللغة التي يستخدمها في التعبير الأدبي. وكتب شعراً، وصدر له حديثاً رواية في دار النشر ريفنوف في باريس. (Retour de manivelle, Riveneuve) كما درس اللغة الفرنسية لأجيال عريضة، بل لدرسي الفرنسية. وأشرف على العديد من الرسائل والأبحاث في مجال الدراسات الفرنسية. ويسهم موزيند في النهوض باللغة

الفرنسية بشكل واسع من خلال المشاريع التي تسهم في انتشار اللغة في العالم والإبداع الأدبي بالفرنسية. ويرى أن النهوض باللغة يكون عن طريق تشجيع الكتابة ومهنة الكاتب من خلال تنظيم ورش للكتابة وتسهيل ممارسة هذا الفن بوضع سياسة خاصة بالجوائز الأدبية.

## لعبة المفردات

بمناسبة مرور عشرين عامًا على اللعبة التعليمية "الكلمات" vocabulon قررت جمعية الدفاع عن اللغة الفرنسية تقديم دعمها لـ Pascal Esnol مؤسس شركة ميغا بلو méga bleu بشأن تنظيم الدورة الفونكوفونية للألعاب للتلاميذ المرحلة الابتدائية وذلك تحت رعاية وزارة التعليم الفرنسية. وتتيح هذه الدورة للتلاميذ الفرنسيين وغيرهم من الأتاركة الفرصة للاشتراك معاً في الألعاب التعليمية. وسوف يتم إهداء عشرة آلاف نسخة من اللعبة التعليمية vocabulon، فضلاً عن ألعاب أخرى تم جمعها إلى ثلاثة بلاد إفريقيا هي الكاميرون، وغينيا الإستوائية، ومالي.

## لغات أوروبا

في انعقاد الجمعية العمومية لجمعية الدفاع عن اللغة الفرنسية (DLF) في ١٢ أبريل ٢٠٠٨ ألقى السيد جريد شرامن Gred Schrammen - ممثلاً عن الأستاذ كرامر Krämer رئيس جمعية الدفاع عن اللغة الألمانية - خطاباً بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عامًا على تأسيس الجمعية الفرنسية. استهل السيد شرامن خطابه بتوجيه خالص التهناني للأعضاء. ثم تحدث عن الجمعية الألمانية التي تهدف إلى حماية اللغة الألمانية والتي أنشئت منذ عامين ووصل عدد أعضائها إلى حوالي واحد وثلاثين عضوًا منهم خمسة عشر ألفًا في ألمانيا، وستة عشر ألفًا في الخارج في أكثر من مائة بلد منها فرنسا. ونوه بالدعم المعنوي الذي تتلقاه الجمعية من الأدياء والفنانين، ورجال السياسة، ورجال الأعمال. وقال إن الاستشارة الألمانية ميركيل أعلنت أنها ضد الاستخدام المفرط للكلمات الإنجليزية. كما بدأت مجموعة من نواب البرلمان الألماني باتخاذ إجراءات لحماية المستهلك ضد موجة التعبيرات الإنجليزية التي لايلهمها أغلب الألمان والتي لهدت تسير كعسرى النار في الهشيم. ثم تحدث عن اللغة الألمانية المطعّمة بالإنجليزية Denglisch وهي نفس الظاهرة التي تعانيها الفرنسية المطعّمة بالإنجليزية "الفرنجليزية" franglais. وأضاف أن الجمعية الألمانية تختار في كل عام شخصاً أو مؤسسة ملئت خطراً على اللغة الألمانية. وأضاف قائلاً: "نحن لم نكسب الجولة بعد ضد الإنجليزية. وإنني أكتشف كل يوم وجود بعض الكلمات الإنجليزية الدخيلة على الألمانية." وأضاف أنه لا يزال أمامهم الكثير من العمل. وكثيراً ما تتجه أنظارهم نحو فرنسا التي يطبق فيها قانون توبون<sup>(١)</sup> Toubon الذي يحرك - في آن واحد - مشاعر الإعجاب والغيرة الألمانية تجاه فرنسا. وذكر على ذلك مثال المؤسسات الأمريكية في فرنسا التي تفرض على موظفيها التحدث باللغة الإنجليزية والتي لم يعد لها هذا السلطان وفقاً لأحكام قانون توبون. كما أعرب عن إعجابه وتقديره لفرنسا التي فرضت غرامة قدرها خمسمائة وثمانون



## الهوية

تجتمس دورية دراسات لغوية تطبيقية Etudes de linguistiques appliquées عددها رقم ١٥٠ (شهر أبريل ومايو ويونيو ٢٠٠٨) للهوية. ويأتي عددها زخراً بالدراسات القيمة. وتعرض مارجازيا مارجاريتو Mariagrazia Margarito في المقدمة لموضوع العدد. فالدراسات حول موضوع الهوية جد كثيرة، ولا سيما في مجالات العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية واللغات والثقافات. كما تتعدد أوجه تناول الموضوع. فهناك المقاربة الثقافية والاجتماعية اللغوية وتلك المتعلقة بعملية إنتاج المعنى. فالتنظير للحديث عن الهوية لا بد أن يتصل بالحديث عن الهوية حتى غدت متعددة. ففي مجال اللغويات، يكون الاهتمام منصفاً على الهوية التي يبينها الكلام وتنعكس في تعليم اللغات أو تعلمها. كما تظهر فيها ديناميكية اللغة. فالهوية الظاهرة التي غالباً ما تكون مُعلنة و أحياناً مُهْمشة هي موضوع العدد.

وتشير الكاتبة إلى أبحاث روبرت جاليسون Robert Gallisson عن المفردات والثقافة التي سبق أن نشرها في المجلة. أما روجيرو درويتا Ruggero Druetta — من جامعة تورينو — فيطرح تساؤلاً حول العلامات التجارية للمنتجات والهوية التي تعبر عنها في دراسة له بعنوان *Les noms de marque et de produit comme marqueurs identitaires*. فهذه المنتجات والعلامات موجودة في حياتنا اليومية وتستدعي المكونات اللغوية وما بها من ثقافة وأهمية اجتماعية واقتصادية والتي ليست بمنأى عن أي تحديث سواء في اللغة أو الكلام. فأى هوية تلك المرتبطة بأسماء العلامات والمنتجات؟ إنه سؤال شائق يطرحه التصويق ؛ ليوضح أهمية العنصر اللغوي، إذ يجذب المستهلك لبعض المنتجات دون غيرها. فهناك علاقة بين المنتج والاسم الذي يحمله. فمن ناحية المفردات، يشير التحليل إلى الظواهر اللغوية التي يتم تفعيلها وإلى مدى دلالة المعطيات الثقافية على هوية ما دونها الاكتفاء بالهدف الدعائي.

أما ماري آن بافو Marie-Anne Paveau من جامعة باريس ١٣ فيلانتوز paris 13-Villetaneuse فتأتي دراستها في مجال اللغويات الاجتماعية بعنوان كلام الطبقات المسيطرة هل هو غير سليم لغوياً؟ *Le parler des classes dominantes, objet linguistiquement incorrect ?* وهي إذ تقوم بأبحاثها في اللغويات الشعبية، تركز على الهويات اللغوية لمختلف الطبقات الاجتماعية. وتعرض للطبقات المسيطرة — كالأستقراطية والبرجوازية الكبيرة، والبرجوازية — التي لم تكن تنطبق إليها الدراسات اللغوية ؛ لأنها فشلت دائماً الطبقات الدنيا. فهناك القليل من الدراسات في علم الاجتماع التي تناولت هذه الطبقة في أبحاثها، بل نادراً ما تعرضت لها اللغويات. غير أن مجال اللغويات الاجتماعية الشعبية زخر بالدراسات حول هذه الطبقة وإن كانت قد تناولتها بشيء من السخرية.

أما نادين سيلوتي Nadine Celotti — من جامعة تريستي Trieste — فقد تناولت في دراستها بعنوان "من خلال القواميس، حق قبول كلمات من الفواحي" *Par des*

dictionnaires, droit de cité aux mots des cités يتعلق بالفردات وما وراءها. فعملت على دراسة مجموعة من القواميس التي تحتوي على الكلمات المتداولة بين الشباب الممشين في ضواحي الدن. لقد ظهرت تلك الكلمات منذ عام ١٩٥٠ في المدن ذات الأوضاع المتدنية.

وتعرض أوديل لوكليز Odile Leclercq - من جامعة إكس مارسيليا Aix-Marseille - لموضوع الهوية الجماعية في دراسة لها بعنوان "دور كتب تعليم الفرنسية بوصفها لغة أجنبية في تكوين المفردات في القرنين السادس عشر والسابع عشر" Le rôle des manuels d'enseignement du français langue étrangère dans la construction du lexique aux XVIe et XVIIe siècles. وتتحدث عن المفردات في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ تهدف إلى عرض حال اللغة الفرنسية في قاموس الأكاديمية الفرنسية في عام ١٦٩٤. فإن تكوين المفردات من خلال تحديد الأشياء لم يكن ليحقق دون اللجوء إلى تقنيات لغوية حددتها الكتب التربوية - كالكتب الدراسية التربوية لتعليم المفردات الفرنسية - وأبدت لوكليز تفضيلها لبعض الكتب دون غيرها، ولا سيما تلك الموجهة للجمهور الألماني - ككتاب "المرادفات" لجيرارد دو فيغر Synonymes de Gérard de Vivre الصادر في عام ١٥٦٩ وكتاب "عقيدة اللغة الفرنسية" لجون مينودييه Le génie de la langue française الصادر في عام ١٦٧٤ وكتاب "مفردات اللغة الفرنسية والتعابير الاصطلاحية المناسبة لكل الكلمات" للويس شارل دي كلو Vocabulaire français avec une phraséologie convenable à tous les mots الصادر في عام ١٦٧٨.

أما إيف جامبييه Yves Gambier - من جامعة توركو بفنلندا - فقد تحدثت عن الصعوبات التي تشكلها ترجمة الإحباطات، والألم، والمعاني الضمنية، والعناصر الثقافية. فالعنى الضمني يؤثر تساؤلات عديدة أثناء عملية الترجمة، مما يشير إلى وجود إشكالية. ويعتك المترجم على دراسة هذه الإشكالية من خلال تحليل المفاهيم المفتاحية - كأبعاد والخيال الإلثي والاجتماعي الثقافي، والتنمية - ويقدم جامبييه بصفته مترجماً مخسراً ومدرساً للترجمة استراتيجيات لترجمة الإحباطات من خلال خيارات بسيطة آخذاً في الاعتبار القارئ المثلي.

وتكتب فاليريا فرانزيلي Valéria Franzelli - من جامعة برشيا Brescia - عن ترجمة السينما، وتحلل عملية ترجمة الأفلام في دراسة لها بعنوان "ترجمة الكلام العاطفي في ترجمة الأفلام: الغضب والهويات" Traduire la parole émotionnelle et sous-titrage : colère et identités. وتتضمن دراستها اللغتين الفرنسية والإيطالية. وترى أن نقطة الانطلاق التي تحدد اختياراتها هي الانفعال، ولا سيما الغضب الذي ينبغي أخذه في الاعتبار، إذ يعكس مصادر هذا الغضب، والصراعات المتعلقة بالهوية التي تأجج الشعور - كالتزام السياسي، والتمييز، وتدمير الصورة الذاتية - فالقيود التي تفرضها ترجمة الأفلام



تجعل الترجمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتحديث اللغوي. وتقدم فاليريا فرانزيللي نماذج لهذه الترجمة والقيود الزمنية والكمالية والخيارات المتعلقة بالترجمة والتي تحكمها العديد من العوامل - كالعامل البصري، والشطحي، ومستوى اللغة، والثقافة.

وكتبت مارياجرازيا مرجاريو Mariagrazia Margarito - من جامعة تورينو - عن الوصفات المطبخية وعلاقتها بالهوية، وذلك بالتطبيق العملي لدورة تعليمية تتم في إطار التعليم الإلكتروني الافتراضي من خلال الشبكة التعليمية جالانت Galant، إذ يتم العمل بأربع لغات مختلفة حول موضوع المأكولات المحلية والقومية، وعلاقتها بالذكريات الشخصية، ولا سيما في مرحلة الطفولة وما يصاحبها من صفات الجدة والأجداد، مما يسمح بالربور إلى الهوية الجماعية، إذ يظهر فيها الدور الذي تلعبه الهجرة.

الهوامش:

(١) مسابقة في اللغة الفرنسية تنظمها جمعية الدفاع عن اللغة الفرنسية لطلاب الرحلة الإعدادية في فرنسا والبلاد الناطقة بالفرنسية. ويتم اختيار خمسين فائزاً من الناطقين بالفرنسية وعشرة من غير الناطقين بالفرنسية. لمزيد من المعلومات يرجى الاطلاع على الموقع الإلكتروني <http://www.langue-francaise.org/Concours.php> (الترجمة).

(٢) قانون رقم ٩٤ - ٦٦٥ الصادر في ٤ أغسطس ١٩٩٤ بشأن استخدام اللغة الفرنسية في التدريس والمعلم والتهادلات والخدمات العامة. لمزيد من المعلومات يرجى الاطلاع على الموقع الإلكتروني: <http://www.legifrance.gouv.fr> (الترجمة).

(٣) مسابقة ينظمها الاتحاد الأوروبي للإذاعة والتلفزيون. لمزيد من المعلومات يرجى الاطلاع على الموقع الإلكتروني للمسابقة: <http://www.eurovision-fr.net> (الترجمة).

(٤) يلهم هذا المقطع من النشيد الوطني الفرنسي جدلاً واسعاً، إذ يرى البعض أنه يدعو إلى التفرقة العنصرية - إشارة إلى الدم الملوث غير الفرنسي - بينما يرى آخرون أنه نشيد حربي وليس من الغريبة في شيء أن يدعو إلى قتل الأعداء - إشارة إلى الدم الملوث - ولا سيما ممن يعارضون مبادئ الثورة الفرنسية.

# دوريات عربية



ماجد مصطفى

أصبحت قضية الترجمة واحدة من القضايا الملحة التي ازداد الشغال العقل العربي بها في الوقت الراهن بوصفها إحدى الأدوات الرئيسية في التواصل الفاعل والإيجابي بين الثقافة العربية وثقافات العالم في وقت أصبح فيه تدفق المعلومات عبر وسائل الاتصال الإلكترونية يشكل طوفانا معرفياً غير مسبوق في التاريخ. ولذلك تصدر الدوريات المتخصصة في الترجمة باللغة العربية، كما أن الدوريات الثقافية تنشر ملفات خاصة لموضوع الترجمة بكل أنواعها وتلفياتها المتطورة بشكل متسارع في الوقت الراهن.

في هذا السياق صدرت مؤخراً عن المركز القومي للترجمة دورية "أواصر" في شكل كتاب غير دوري (المجلد الأول- أبريل ٢٠٠٨). وبشم العدد الأول: دراسات في الترجمة، ودراسات مترجمة، وشهادات، وعروض كتب، وملفاً عن الترجمة في العالم، وأبواباً أخرى. ويقول محمد أبو العطا رئيس التحرير في الافتتاحية:

"ربما لا يزال الوقت مبكراً قليلاً كي يدرك البعض أهمية إنشاء المركز القومي للترجمة في مصر (صيف ٢٠٠٧). وتتأسس هذه الأهمية، في رأينا، على المنطلقات الطموحة التي رسمها لنفسه ويسعى إليها: أن يكون جسراً حلقاً للتواصل والتلاقح الفكري، وأن يحقق ملقبة نوعية ويسد الخلل المعرفي في مجتمعاتنا العربية، وأن يشارك المبادرات العربية والعالمية في مساعيها لتعزيز الحراك الترجمي - ومن ثم الثقافي العلمي - في الوطن، وأن يفعل ذلك ببصيرة وخبرة. كما يطمح المركز - استناداً إلى أهدافه التي تنشر نصها في هذا العدد- إلى إيلاء القيمة العلمية والجودة والحرفية والنفع العام العناية الأكبر، فشلا عن الإفادة من الموارد المتاحة لإسداء أكبر خدمة معرفية ممكنة للقراء. ولكن، ليس هذا وحده هدف المركز الذي سيقدم حزمة من الأنشطة التفاعلية لارتقاء بهذا الميدان ألهم من ميادين العمل المهني والثقافي. من بيننا إصدار مطبوعة دورية تهتم بقضايا الترجمة في الوطن العربي ومراجعة ما أنجز في هذا المجال".

ويكتب مصطفى ماهر "على هامش نظرية الترجمة"، ويكتب رمسيس عوض "أنا والترجمة وحرية التعبير"، ويكتب أحمد صديق الواحي عن "استراتيجيات ترجمة العبارات الثابتة من الإنجليزية إلى العربية"، ويترجم سعيد بحيري دراسة للمستشرق الألماني توماس

باور عن الشاعر الملوكي إبراهيم المعار، وبترجم محمد أبو العطا "مشاهد من تاريخ الترجمة في إسبانيا وأمريكا" للباحثين في جامعة برشلونة: نورا كاتالي ومارييتا جارجانلي. ويعالج ماثيو قويدر في مقاله "تكنولوجيا الترجمة في عصر المعلومات": إشكالية المحتوى الترجمي، ومن هو المترجم العربي؟ وحاجات المترجم العربي، والحاجة إلى ذاكرة ترجمة مختصة، وإلى بروتوكول معرفية عربية، وبرمجيات منهجية للمترجم العربي. ويذهب قويدر إلى "أن حاجات المترجم العربي في مجال نظم المعلومات والترجمة الآلية تكاد تنحصر اليوم في صناعة المحتوى الترجمي حتى يتسنى للمعلوماتيين تطوير البرمجيات المناسبة. وقد أضحت الترجمة جزءاً من نظم المعلومات نظراً لتوفر كميات هائلة من النصوص المترجمة في كل اللغات بما في ذلك اللغة العربية. لذا فحاجات المترجم العربي اليوم تتطوي أساساً تحت تكنولوجيا المعلومات. ولكن لا بد من التأكيد هنا على أن عصر المعلومات ليس فقط عصر "حاجات" بل له أيضاً "متطلبات" كثيرة. فما تحتاجه اليوم هو صنف جديد من المترجمين الذين لا يكتفون فقط بترجمة ما يطرح عليهم من كتابات ومقالات بل يتفحصونها وينتقدونها ثم يسطعون بنورهم على الساحة الثقافية. لأن مترجم عصر المعلومات "مترجم محلل" قبل كل شيء، يتابع ما ينشر في التفتيش وما يكتب في التفتيش، ليكون الوسيط البقظ في عصر تتداخل فيه المعلومات وتتضارب فيه الأخبار والكتابات. وهذا التغيير الكبير في دور المترجم هو أساساً من إفرازات تكنولوجيا المعلومات التي أدت إلى نقلة نوعية شبيهة بما حصل في أوروبا إثر الثورة الصناعية وأدى إلى بروز المترجم المتخصص في الميادين التقنية والعلمية. فمترجم اليوم تتمحور كفاءته حول الطريقة الأمثل لنقل المعلومات بمدى فزها والتثبت منها لأن دوره حضاري يتجاوز الترجمة إلى هدف أعمق وأشمل ألا وهو بناء مجتمع المعرفة في العالم العربي".

ويضم الملف دراسات عن تدريب المترجمين في السياق الكندي، وأخطاء الترجمة بين الصينية والإنجليزية. وتترجم هيام عبيد دراسة بالغة الأهمية للمستشرق الإسباني مريديس دل آمو أستاذة الأدب العربي بجامعة غرناطة عن ترجمة الأدب العربي إلى الإسبانية، وتقول الباحثة: "الخطوط الأساسية التي تتناولها بالبحث هذه الدراسة هي الكتب والكتابات الذين ترجمت أعمالهم إلى الإسبانية، وكذلك الأجناس الأدبية التي تنتمي إليها هذه الأعمال، وأيضاً سوف نتحدث عن دور النشر الإسبانية، والذين التي تركز فيها النشر، وكذلك سوف نتعرض للمترجمين، والتتابع التاريخي لظهور الترجمات، وكمية الأعمال المترجمة. كل هذا يقودنا إلى نتائج مهمة تبلور العلاقة بين الثقافتين المصرية والإسبانية".

ويكتب شوقي جلال تحت عنوان "الترجمة والمستقبل": "يؤكد الواقع الحضاري الآن أننا إزاء مرحلة حضارية جديدة لها خصائص مميزة نحن عاطلون منها ومن ثم معوقون حتى الآن. الحضارة الجديدة، أو الطور الحضاري الجديد الذي يحدد لنا معالم التحدي والمستقبل الذي يتعين أن نشهده ونحشد القوى والطاقت من أجله هو حضارة عصر المعلومات وبناء مجتمع المعرفة: الاقتصاد والإنسان والثقافة... إلخ وهذا الطور الحضاري هو الباب الثاني من حضارة عصر التصنيع".

وفي هذا السياق أيضاً يأتي العدد الرابع من دورية "لوجوس" (٢٠٠٨) التي تصدر مرة كل عام عن مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية بجامعة القاهرة، ويبدو حول "ترجمة العلوم الإنسانية: المشكلات والحلول"، فيكتب محمد حمدي إبراهيم رئيس التحرير في الافتتاحية:

"اختلف أولو الرأي في مجتمعنا على مسمى العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية: فالبعض يرى أن مسمى العلوم الإنسانية ينبغي أن يطلق على العلوم النظرية عامة، ابتداء من القانون والاقتصاد حتى الاجتماع والفلسفة، في حين يرى البعض الآخر أنه من الأوفق أن تسمى هذه العلوم جميعاً بالعلوم الاجتماعية. ولقد خطرت لي فكرة مؤداها أنه الأوفق أن نطلق على الأدب والفلسفة والتاريخ مسمى العلوم الإنسانية، وأن نطلق على الاقتصاد والاجتماع والقانون مسمى العلوم الاجتماعية، وهما تسميتان تتفقان مع النشأة الأولى ومع التدرج في الدلالة، ولا أزعم أن هذا الرأي سوف يحل المشكلة أو يحسم الجدل الدائر، ولكنه اجتهد شخصي قد يجد القبول أو الرفض أو يقبل التعديل.

"وأما كان الأمر، فإن هذا العدد يقدم أبحاثاً مؤنّها المتخصصون والأعلام كلٌّ في مجاله الذي يبرع فيه أو أحرز فيه قصب السبق أو نال اللّقب المعلن، ولقد تناول الباحثون في هذه الأبحاث: علم الاجتماع والفلسفة والجغرافيا، على أمل أن نخصص العدد التالي لما تبقى من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية سواء بسواء. ولا يستطيع أي شخص أن ينكر قيمة الترجمة في مجال هذه العلوم إبان الحقبة الزمنية التي نحيّاها منذ أواخر القرن العشرين، حيث نشأت منذ عدة عقود فكرة الدراسات البيئية التي تهدف إلى التكامل بين العلوم التطبيقية والعلوم النظرية، والتي تجعل الفريق البحثي لا الباحث المنفرد هو الأساس في الدراسة والبحث".

ويضم هذا العدد الجديد من "لوجوس" مجموعة من الأبحاث المهمة في الترجمة، فيكتب محمد الجوهرى عن "حركة الترجمة إلى العربية في ميدان العلم الاجتماعي (مع دراسات حالة لبعض جهود تعريب المصطلح)، ويكتب عبد الستار الحلوجي "عن الترجمة وصعوباتها في مجال الإنسانية والعلوم الاجتماعية"، ويكتب يوسف فايد عن "ترجمة الجغرافيا"، وهو العلم الذي كان يسميه العرب بـ(صورة الأرض) أو (جغرافيا) في أحيان أخرى تعريباً للكلمة اليونانية القديمة. ويكتب صبري محمود عن "المصطلح الجغرافي الطبيعي في مصر صياغته وتباينه المكاني وسبل توحيده"، ويكتب قاسم عبده قاسم عن "الترجمة في مجال الدراسات التاريخية: أفكار وملاحظات أولية"، ويكتب سعيد توفيق: "ملاحظات أولية على ترجمة النص الفلسفي"، ويكتب كونغ لينغ تاو من جامعة الدراسات الدولية بشنغهاي بالصين عن "تأثير الزجل والوشحات الأندلسية على الشعر الغنائي الأوربي"، ويكتب سيد صادق عن "الفقد السياسي في كوميديا بلاوتوس".

وفي القسم الإفرنجي بحثان، الأول بالفرنسية كتبه أنجيلكا شوبر من جامعة ليموج بفرنسا بعنوان "هكذا تحدث زرادشت لفريدريك نيتشه: قنوط المترجم"، والثاني بالإنجليزية كتبه لبنى عبد التواب يوسف بعنوان "الخطاب الإسلامي: الشريعة أم القانون الإسلامي؟" وفي بحثه عن "ترجمة النص الفلسفي عند عثمان أمين (١٩٠٨ - ١٩٧٨)" يذهب مصطفى لبيب إلى أن "التابع لمسيو عثمان أمين للفلسفة يعرف اطلاعاً واسعاً على مجمل تاريخ الفلسفة عند أعلامها البارزين، ويقدّر وقلته اللاتنية، على وجه الخصوص، مع فلسفة فشت وهيدجر وباسيرز في ألمانيا وعلى فلسفة هيوم وفرديناند سكوت شيلر وبرتراند رسل في إنجلترا، أما اهتمامه بالفلاسفة الإسلاميين فأمر ملحوظ". وقبل ذلك كانت صحبته للفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت مؤسس الفلسفة الحديثة في القرن السابع عشر، والفيلسوف الألماني إيمانويل كانط رائد التنوير في القرن الثامن عشر ومؤسس الفلسفة النقدية التي حكمت تطور الفكر الفلسفي من بعد".

ويقوم مصطفى لبيب بدراسة نصية لترجمة عثمان أمين لكتاب التاملات لديكارت مقارناً بينها وبين ترجمة نظمي لوقا للنص نفسه، ومن هنا جاء ثراء الدراسة وعمقها.

ويُخْلِصُ إلى القول بأن النماذج المدروسة من ترجمة عثمان أمين تتجلى فيها "دقة التعبير ووضوحه وسلامة الأسلوب ونصاعته، وكان هذا النص المنقول مكتوب أصلاً بالعربية".

وفي عددها السابع (مايو ٢٠٠٨) تُخصص مجلة "الدوحة" قضية العدد عن "حركة الترجمة في الميزان"، وتظهر على الغلاف صورة الشيخ رفاعه الطهطاوي بعمامته الضخمة الشهيرة. ورفاعه هو راشد حركة الترجمة إلى العربية في العصر الحديث ومؤسس مدرسة الأسن التي اضطلعت منذ إنشائها في عام ١٨٣٥ بمهمة محددة هي "نقل المعارف والعلوم المصرية إلى اللغة العربية". وهو في الأساس مشروع رفاعه النهضوي.

فيكتب حسام الخطيب عن "الترجمة الرقمية / الإحصائية"، ويقول: "لم تكن الآلة أبداً هي العقبة في وجه تطور الترجمة الآلية بالسرعة التي يتطلبها عصرنا اللاحق دون هوادة. ولكن كان قصور الدراسات اللسانية التي توفر المعالجة الآلية للغة هو المشكلة دائماً. وفيما يتعلق باللغة العربية تتضح هذه المشكلة إلى درجة مازقة بسبب فقر الدراسات اللسانية المتعلقة بالعربية".

ويكتب ديزيره سقال عن "اللغة المونة"، ويرى أن "حركة التعريب تأثرت واضحاً في اللغة العربية/ تمثل في تساقط كثير من المصطلحات الأجنبية، خطأ، إلى التركيب العربي، كما تمثل في تحول معاني بعض الكلمات وتوسيعها توسعاً يمكن أن يسهم في تطوير اللغة العربية إذا عملت المجامع اللغوية العربية على هذا، وبعضها يعمل مشكوراً، وخصوصاً المجمعين المصري والعراقي. ويمكن أن يمثل التعريب دوراً سلبياً وخطيراً، وإن بدا لنا هذا للوهلة الأولى مستغرباً، وذلك إذا تناول مصطلحاً سياسياً، أو تعريباً لمقاطع من نصوص سياسية. نمثل على ما نقول بمعضلة كبيرة نتجت في العالم العربي بسبب التعريب، تجلت في نص القرار ٢٥٢ الذي وضع عام ١٩٦٧، والذي ينص على انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، فقد جاء في نص القرار العبارة: *withdrawal from Arabic lands*، وكانت المعطلة في تعريب كلمتي *Arabic lands* من الإنجليزية، فمن الممكن أن نعرّب العبارة: "الانسحاب من أراض عربية"، وبهذا نعني: من بعض الأراضي العربية (وهذا هو التعريب الذي تبنته إسرائيل رسمياً)، كما من الممكن أن نعرّبها: "الانسحاب من الأراضي العربية"، وبهذا نعني كامل الأراضي العربية (المحتلة في ذاك العام، وهذا هو التعريب الذي تمسك به العرب، وهو التعريب المنطقي لعنى العبارة، ولكامل نص القرار المذكور)، ومن الواضح هنا الفرق الكبير بين التعريبين، لأن معنى الشمول في اللغة الإنجليزية يمكن أن يقوم بحذف أداة التعريف *the* (أل التعريف العربية)، كما يمكن أن يقوم بذكرها. وإذا حذفنا هذه الأداة جاز اعتبار الكلمة تكررة أو معرفة بحسب السياق الذي وردت فيه، والمشكلة هنا أن السياق يحتمل المعنيين".

ويكتب محمد عثاني عن "جسور المعرفة"، فيذكر عدداً من العوامل التي تحدد مسار حركة الترجمة، وأولها عامل الاختيار، أي اختيار العمل المراد ترجمته علمياً كان أو أدبياً أو غير ذلك. والعامل الثاني هو قدرة المترجم على النقل الصادق الذي لا بد أن يكون بالغ الدقة في حالة الترجمة العلمية، وأن يكون قريباً من المستوى الفني للأصل في حالة الترجمة الأدبية. والعامل الثالث هو مدى قدرة العمل المترجم على الشروع أو الانتشار. وبذهب محمد عثاني في مقاله المهم إلى القول: بأن "قدرة المترجم إذن عامل مهم من عوامل تقديم عيون الآداب العالمية إلى قراء العربية، وعيون الآداب العربية إلى قراء اللغات الأجنبية، وإذا كانت إجادة اللغة "الأخرى" لازمة لفهم النص ونقله بدقة إن كان علمياً، فإن إجادة اللغة المترجم

إليها ذات أهمية أكبر وذات لزوم أشد، فالترجم يتوقع منه ألا يلتزم بأسلوبه الخاص وحسب شأن كل كاتب ذي أسلوب خاص، بل المتوقع منه أن يتميز بالقدرة على تلوين أسلوبه ليحاكي الأصل، وهو ما يتطلب منه جهداً خاصاً في الدرس والتحصيل والدرية، فالترجم، كما قلت في بعض كتبي، كاتب في المقام الأول، ومهمته شاقة عسيرة لأنها تتمثل في صوغ أفكار غيره وبدقة متناهية وبأقصى درجات الوضوح في حالة الترجمة العلمية، وصوغ فكر غيره ومشاعره وبأسلوب غيره أيضاً في حالة الترجمة الأدبية<sup>١</sup>.

ويشم العدد ٦٠٠ (نوفمبر ٢٠٠٨) من مجلة "العربي" ملفاً عن "الترجمة ولقاء الحشرات" يكتب فيه جورج زيناتي عن "تعريب الفلسفة"، ويكتب راسي الجمل نقداً للترجمة العربية لكتاب "العقل" الصادرة في سلسلة عالم المعرفة. ويصدر الملف مقال كتبه نعمة الله أبي راشد من جامعة مارك بولوك ستراسبورج بفرنسا بعنوان "الترجم من منظور مغاير"، وتذهب فيه إلى القول بأن "الترجمة في ميزانية الدول مرتبة إذ تشكل بنسبة أساسية من مشروعها في تكوين المجتمع. هكذا تخصص الدول أموالاً وتقرر الوزارات البرامج التعليمية والكتب المدرسية وتعلي الإرشادات وتهين المعلمين والمدرسين والأساتذة وكل ذلك في إطار سياسة الدولة وبقايتها"، ولتأنيق القول: "بما العيار اللغوي شغل الباحثين الشاغل في الدراسات الترجمة التي احتلت فيها مسألة المصطلحات الدرجة الأولى من اهتماماتهم... واقع لا يحتمل النقاش أن اللغة تُعد من أبرز أدوات التعبير عن الثقافة والحضارة. من هذا المنطلق، نلاحظ أن العملية المنوطة بالترجم في نقل الحضارة والثقافة عبر اللغة تصطدم لا محالة بغوارق التراكيب اللغوية، بما تحمله من مضامين معنوية قد تكون مغايرة للتباعد الشديد بين اللغات الصامية واللغات الهندوأوروبية". وتنتهي في مقالها إلى أنه يجب أن تُطور "في معاهدنا مفهوم الترجمة ومعاييرها مُعَدِّين العدة من تخصيص المنح وفتح مختبرات بحوث تديرها وحدات علمية تتكاثف لتكوين رعييل جديد متميز من المترجمين فلا تتحكم بهم السوق ولا تقتصر مهمتهم على النقل البحت، بل تتعداه إلى الشروحات والتعليقات في الخدمات والهوامش، أسوة بالأولين".

ونقرأ في العدد الرابع والخمسين من مجلة "نزوى" (إبريل ٢٠٠٨) للشاعر محمد بنيس، مقالاً بعنوان "الحياة والترجمة - يوميات العزلة"، يدور حول تجربته في ترجمة قصيدة المارمييه "رمية نرد" إلى العربية، ويقول: "كانت بداية الثمانينيات علامة صامتة على رغبة شخصية في ترجمة "رمية نرد" إلى العربية. علامة ملقاة في صيغة ملاحظة مكتوبة، بيد، مرعوبة، يدي، في كرّاس صغير. كانت القصيدة تحت بصري: الصفحات والعنوان تلعب. وجسدي يستقبل هذا الضوء الفريد. كنت أعامل هذه الرغبة بما هي عرض من أعراض النزوع إلى الاستحيل. كنت آنذاك أضرع في قراءة القصيدة فإذا بدوار بصيصي. دوار الجمال. دوار المطلق. دوار ما لا يدرك إلا نوماً. وعند قراءة كل صفحة من صفحاتها كانت النشوة تملئني باللاطمأنينة. هي قصيدة تجعل من المطلق مقامها الذي لا مقام سواء. لغة وتفلسفة". ويتابع بنيس وصف رحلته مع قصيدة "رمية نرد" بدلالاتها وإيقاعاتها وجذور كلماتها التي تجمع بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، ويقول: "كان المارمييه متشبهاً بقراءة كتاب ألف ليلة وليلة في ترجمة أدبية وفيه للأصل... لماذا اعتنى المارمييه إلى هذا الحد، وهو المتحرر من كل إغراء استشراقي، بكتاب ألف ليلة وليلة؟ أنظر إليه وهو يصمت يقرأ هذا الكتاب. بدءاً، بحكاية السندباد البحري، الذائعة الصيت، منذ ترجمة أنطوان جالان. عالم هذه الحكاية هو

البحر. وحوادث غرق السفن لا تنفصل عن الحكاية. إن "رمية نرد"، كقصيدة بحرية، تروي بطريقة، حكاية سندباد بحري حديث، يلقي النرد من عمق غرق السفينة. كان مالارميه، بدون شك، يعرف القصة في مراحل كتابته قصيدة إيجيتور. لكن هناك ما كان ينقصه في ترجمة أنطوان جالان. أقصد لغة كتاب ألف ليلة وليلة، ثم بناءها الأصلي. فهذا الكتاب عمل مزيج، على الخصوص، بين الأجناس في عمل واحد، لا تتعارض فيه القصيدة الحكائية مع القصيدة الغنائية. ألف ليلة وليلة نموذج نمط من التأليف الشائع عند العرب، فيه الأجناس يتنادي بعضها على بعض. من هنا فإن رمية نرد ليست فقط قصائد في قصيدة، معتقنا، بل هي كذلك رَحمٌ كلام شعري متعدد المجالات. العالم السعالي لكتاب الوائق والعالم البحري لحكاية السندباد البحري يسبحان بالتفكير في "رمية نرد"، منفتحة في فضاءها على ثقافة عربية-إسلامية.

وفي العدد نفسه يكتب عبد الله إبراهيم عن ظاهرة الروايات التي لاقت رواجاً استثنائياً في السنوات الأخيرة ويلاحظ أن هناك فكرة أو تيمة أساسية تجمع بينها جميعاً هي فكرة الارتحال في الزمان والمكان، وهذه الروايات هي: "السيد إبراهيم وزهور القرآن" لـ"ريك إيمانويل سميت" التي تمثل لفكرة التسامح، والحوار بين العقائد، وتبادل الانتماء فيما بينها، والوصول إلى فهم مشترك لا يسمح بالاحتراش والتعارض، فهو كتاب سردي يرحل بين الأديان بغرض اكتشافها. ورواية "شيفرة دافنشي" لـ"دان براون" التي تنطلق من فرضية بحث في أصل المسيحية، وفي تاريخها، وعملية الاكتشاف تقترب بالارتحال إلى الماضي لوصف تحولات الرموز الدينية عبر سياقات ثقافية متعددة، وهي تعرض جملة من التصورات الشائعة عن المسيحية، والتأويلات المتصلة بها. وتبحث في كيفية كتابة الأنجيل، وما له علاقة بشخصية المسيح وصلته بعريم المجدلية، والبعد الإنساني لشخصيته، وتقترح، في الوقت نفسه، تاريخاً مغايراً للمسيحية. ورواية "شيكاجو" لـ"علاء الأسواني" التي تبحث في قضية المنفى باعتباره ملائمة أخيراً للشخصيات الواعية جراء فساد الأنظمة السياسية. ولكن الرواية تفضح أيضاً، العجز عن التكيف، والتعلق بومع الانتماء إلى الوطن على الرغم من تغير الظروف والأحوال، "وتلتقي رواية "شيكاجو" في الدلالة العامة برواية "علاء الأسواني" التي سبقتها، وهي "عمارة يعقوبيان" حيث تعرض الروائيان رؤاهن مبررة للخدع العلمية، والسياسية، والثقافية في ظل نظام سياسي واجتماعي وتعليمي يتفاهم فساد. فيدفع بالفرد نحو تغيير أفكارهم، ومواقفهم، بل وتغيير انتماءاتهم، واختياراتهم، فالأحداث السردية في الروايتين تقوم على شبكة متلازمة من الأحداث العامة التي تعطل أي فعل إيجابي بسبب انهيار القيم الأصلية، فتتخبط الشخصيات في سلسلة لانهاية من أعمال اللحاق والاحتياط والتواطؤ لتواصل حياتها.

وأخيراً نتوقف عند العدد الأول من مجلة "مقفعة" (كتاب غير دوري يُعنى بقصيدة النثر - ديسمبر ٢٠٠٧)، التي أصدرها مجموعة من شعراء قصيدة النثر من مصر وفلسطين وسوريا. على نفقتهم الخاصة. وجاء في تقديم هيئة التحرير:

"تسعى المجلة إلى أن تكون سجلاً أميناً ودقيقاً وموضوعياً لقصيدة النثر العربية الراعنة، مؤكدة أنها ضد فكرة الأجيال الشعرية لأنها تؤمن بأن اللحظة الشعرية الراعنة يصنعها شعراء من مختلف الأعمار والأجيال، وتشارك فيها المراكز التقليدية والأطراف في آن

واحد وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة. وإن تتواني المجلة عن فتح حوار دائم مع النص العالي يشعوله في كل اللغات ما أمكنها ذلك، لإيمانها بالتلاقي الحضاري الخلاق وقناعتها بالقيمة الإنسانية للإبداع التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

ويضم العدد دراسات نقدية فيكتب شريف رزق عن "آليات ما بعد الحداثة في قصيدة النثر"، ويكتب صبحي حديدي "الموضوع الغنائي وقصيدة النثر العربية"، ويكتب وإشل غالي: "قصيدة النثر أكثر من مجرد قصيدة"، ويكتب أمجد ريان: "قراءة لديوان كوارث الفرج ومخاطر المعادة لميلاد زكريا يوسف"، ويكتب عماد غزالي عن "شعرية المعالجة الدرامية في ديوان مخيال الأمكنة لعاطف عبد العزيز". فضلاً عن ملف خاص عن الشاعر أنسي الحاج يكتب فيه أمجد ناصر، ورفعت سلام، وعبد المنعم رمضان، ومحمد بدوي، مع قصائد مختارة من أنسي الحاج.

ويترجم سامر أبو هواس مختارات للشاعرة الأمريكية كيم أدونيزيو (١٩٥٤ - ) من دواوينها: "قل لي"، و"جميعي وريثا"، و"نادي الفلاسفة".

لكن الساحة الأكبر في هذا العدد كانت للنصوص الإبداعية، ومنها هذا القطع للشاعر أحمد طه:

فصل في خصائص الخرافة الكاكية:

لست في حاجة إلى معجزة إضافية

يكفيك معراجك اليومي إلى السماوات

والأزمنة

وحديثك السري مع الجنرالات

والأنبياء والألهة

فافترض منهم الخبز والتقميص

والسجائر والنساء

فماذا ينقصك إذن سوى شارع ترابي لا يحمل لافتة

وبعض عجائز يرتدين السواد

وجماعة من الشعراء والقراء اليائسين

وجنرال واحد

لا يشيع

ولا يموت

يلبس خرقة لا تشبه خرقة أصحابك

ومرديك

من الصوف أحياناً

ومن الحرير أحياناً

ومن الكاكي دائماً

وهكذا استطاعت الدوريات العربية - من خلال هذه القراءة السريعة لبعض ما جاء على صفحاتها - أن تعبر، بدرجة من الصدق، عن اهتمامات العقل العربي، وأن ترصد القضايا الملحة التي تشغله في الوقت الراهن، ومنها قضايا الترجمة، بما يؤكد الدور الفاعل لهذه الدوريات - سواء منها ما يصدر لأول مرة، أو ما يغاود الصدور، أو ما يواصل الصدور بانتظام - في حياتنا الثقافية.



ثلاث

## رسائل جامعية

ف

ماهر شفيق فريد

١) معالجة الألفاظ المشتقة من أسماء الأعلام في المعاجم الإنجليزية - العربية الكبرى : رسالة معجمية <sup>(١)</sup>.

تعالج هذه الرسالة (التي تقع في أكثر من ٥٥٠ صفحة) شريحة مهمة من مفردات اللغة الإنجليزية وهي تلك المفردات المشتقة من أسماء الأعلام، سواء كانت أشخاصاً أو أماكن. وقد اختار الباحث أن يفحص هذه المفردات في أربعة معاجم إنجليزية - عربية هي: اللورد (مثير الإعجاب) (٢٠٠٤) اللغني الأكبر (حسن الكرسي) (٢٠٠١) النفيس (مجدى وهبه) (٢٠٠٠) قاموس أطلس الموسوعي (٢٠٠٥) مقارنة بثلاثة معاجم إنجليزية وأمريكية هي: معجم ويستر الموسوعي غير المختصر (١٩٩٦) معجم ويستر الموسوعي (٢٠٠٦) معجم كولنز للغة الإنجليزية (٢٠٠٣).

وتتألف الرسالة من :

إقرارات الشكر

قائمة الاختصارات المستخدمة

مفتاح لرسم الكلمات العربية باللغة الإنجليزية  
ملخص

الفصل الأول ("مقدمة") وفيه يبسط الباحث الشكيلة التي يعالجها، ودلالة بحثه وعده، وما يطرحه من أسئلة، والمنهج الذي اتبعه، والمنطق الذي حكم تقسيم الرسالة إلى فصول - مع هوامش ختامية.

الفصل الثاني ("مراجعة للأدبيات المتصلة بالموضوع") وفيه يتناول قضايا الترجمة ووضع المعاجم، مع تاريخ وجيز للترجمة والتعريب في العالم العربي وآراء الباحثين والأدباء، في مزايا التعريب وعيوبه، مع هوامش ختامية.

الفصل الثالث ("الألفاظ المشتقة من أسماء أعلام في معاجم اللغة المتبع والهدف") حيث يتناول مفردات أدبية وفنية ، وأسطورية ، ومفردات مشتقة من أسماء مؤلفين ، ومفردات تاريخية ودينية ، ومفردات من حقول الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، ومفردات متصلة بالتغذية والملابس والأقمشة ، ومفردات من علوم الحياة والنبات والطب ، ومفردات متفرقة.

والفصل الرابع يقدم نتائج البحث الذي لخصى ثلاثة مجالات : التعريب والترجمة والتعريف ، مبيّنا ما لكل منها وما عليه . ومن بين هذه النتائج : إنه ما من معجم من هذه المعاجم الإنجليزية - العربية قيد الدراسة يغطي كل المفردات المشتقة من أسماء أعلام مهما ادعى من موسوعية.

كذلك لا تقدم هذه المعاجم معلومات وافية ، على نحو منهجي ، عن أصول المفردات وتاريخها.

ويشتمل قاموس "المورد" أعلى نسبة من الكلمات العربية (٥٦٪ من مواده) تليه معاجم : أطلس (٣٩٪) ، فالنقيس (٣١٪) ، فالغنى (٢٦٪).

وأكثر هذه المعاجم لجوءاً إلى الترجمة هو النقيس (٤٤٪) يليه الغنى (٣٨٪) فاللورد (٣٣٪) فأطلس (٢٨٪)

وتغلب التعريفات الشارحة على قاموس الغنى (٣٦٪) يليه في هذا الصدد :

أطلس (٣٣٪) فالنقيس (٢٥٪) فاللورد (١١٪).

وقد استعان الباحث بالأحصائيات الحسابية للبرهنة على هذه النتائج ، وهو منهج علمي محمود من شأنه ضبط النتائج وضمان دقتها.

ثم قدم الباحث عدداً من التوصيات أهمها :

١) أن تستكمل المعاجم الأربعة التي رجع إليها ما يلتصقها من ألفاظ مشتقة من أسماء أعلام ، خاصة المفردات التقنية والعلمية التي تتنامى على نحو متزايد السرعة في كل عام.

٢) أن تنتهج هذه المعاجم سياسة أكثر تحديداً فيما يخص تاريخ الكلمات واشتقاقاتها مع النص على تاريخ أول استخدام لها وبعض التعريف بمن منحها اسمها.

٣) أن تتجنب التعريب بقدر المستطاع فلا يلجأ إليه إلا للضرورة القصوى.

٤) أن تستخدم معادلات الترجمة كلما أمكن ، مع التسليم بأنه لا مفر من بعض الاستثناءات في أسماء النباتات والحيوان مثلاً.

٥) أن تتجنب التعريفات الشارحة بقدر المستطاع ، فهي لا تكاد تقيد المترجم أو تدرس اللغة.

٦) أن توجه مزيداً من الاهتمام إلى مشكلات ترجمة الألفاظ المشتقة من أسماء أعلام في مقررات الترجمة بأقسام اللغة الإنجليزية وآدابها في الجامعات المصرية.

(٧) أن تلوحى المعاجم الأربعة المدروسة أعلاه نهجا موحدا في تقديم مادتها، خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات التقنية والعلمية.

ويقترح الباحث على باحثي المستقبل أن يوجهوا عنايتهم إلى جوانب أخرى لم تتناولها رسالته مثل المفردات المستعارة من لغات أجنبية والمروق الدقيقة بين الألفاظ العربية والألفاظ المستعارة، مع توجيه اهتمام خاص إلى مشكلة التعريب لما لها من آثار خطيرة في اللغة العربية.

مراجع

مراجع عربية

معاجم إنجليزية / إنجليزية وإنجليزية / عربية وعربية / عربية.

ويُحسب للباحث البهلولجرافيا الوافية التي ختم بها رسالته وما تحويه من كتب ومقالات باللغتين الإنجليزية والعربية، كذلك سعة إطلاعه على المعاجم الإنجليزية والأمريكية والعربية - الحديث منها بخاصة - والمنهج الدقيق الذي اتبعه في عرض مقدماته ونتائجه.

على أن الملخص العربي تعيبه بعض أخطاء نحوية وهو ما لا يليق بباحث اختار أن يتخذ من مفردات اللغتين للرسالة الإنجليزية والعربية - أو شرحه منها - موضوعا لدروسه ومشغلة لوقته وميدانا لتخصصه.

كذلك يؤخذ على الرسالة أن فكرة الدعوى thesis غير واضحة فيها فهي أقرب إلى العمل الموسوعي أو إلى أن تكون معجما إتيولوجيا به مادة علمية غزيرة، تتخلله تعليقات نقدية، ولكننا لا نتهين بوضوح ما الذي يدافع عنه الباحث أو يحاول أن ينتقشه، وإن كان الإنصاف يقتضي أن نذكر أنه يتخذ أحيانا مواقف واضحة من القضايا التي يتناولها كتحفظاته القوية - مثلا - على منهج التعريب وعلى التعريفات الشارحة، ودعوته إلى الثور على مقابل عربي للكلمة الإنجليزية بما يلائم طبيعة اللغة العربية وأساليبها في التعبير وأداء المعنى.

(٢) مؤثرات رومانتيكية إنجليزية في شعر مي زيادة وترجماتها :<sup>(٨)</sup>

كانت الآتية مي زيادة (١٨٨٦-١٩٤١) أنبغ أديبات الشرق والعروبة في العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين وأوسعهن أفقا : أعانها على ذلك إجادتها عدة لغات أجنبية (لها ديوان شعر باللغة الفرنسية) وإطلاعها الدائب على أحدث تيارات الفكر الغربي في عصرها (كانت من أوائل من كتبوا - مثلا - عن أوتامونو وبراندلو في اللغة العربية) ومن ثم كان من المهم أن نفحص عملها في سياق علاقته بالأدب الأجنبية التي اطلعت عليها وتأثرت بها.

وهذا ما نلطف به - أو بجزء منه - هذه الرسالة الواقعة في ١٥٢ صفحة وتتألف

من :

مقدمة

الفصل الأول : عصر من زيادة

الفصل الثاني : مؤثرات رومانتيكية إنجليزية في شعر من زيادة

الفصل الثالث : مؤثرات رومانتيكية إنجليزية في ترجمات من زيادة

خاتمة

ملاحق

ببليوجرافيا

والرسالة دراسة للدور الأدبي الذي لعبته من وأعمالها إنشاء وترجمة (تري الباحثة أن من مبتكرة الشعر المثنوي في اللغة العربية، وأنها سابقة لوروث مدرسة أبولو الرومانتيكي في الترجمة) مع إبراز المؤثرات الأوربية بعامة - والإنجليزية بخاصة - في عملها، مع إشارات إلى كتاباتها في فن السيرة حيث أصدرت ثلاث دراسات عن : باعثة البداية (ملك حقني ناصف) ١٩٢٠ / وردة اليازجي ١٩٢٤ / عائشة التيمورية ١٩٢٤ نمت على موهبة نقدية في تناول أعمال هؤلاء الكتابات.

والفصل الأول من الرسالة دراسة للخلقة السياسية والاجتماعية والذهنية والثقافية العامة للعصر وأحواله التي أثرت في موهبة من، وحياتها المبكرة وتعليمها، ومراسلاتها مع جبران، والصالون الأدبي الذي كانت تقيمه وكان يحضره مثقفون وأدباء كبار كلطفي السيد، وشوقي، والبقاد، وطه حسين، وسلامة موسى، والمازني، والرافعي، وشبلى شميل، ويعقوب صروف، ومصطفى عبد الرزاق، وإسماعيل صيرى وغيرهم.

ويبين الفصل الثاني كيف تفاعلت من - شعوريا ولا شعوريا - مع الحركة الرومانتيكية الإنجليزية، ومن حيث هي شاعرة للطبيعة واهتمامها بشخصية اللورد بايرون الذي كانت تعدّه (في مبالغه مغلوبة) قريبا من قائمة شكسبير، والصور والطيوط والأفكار التي تعكس أثر الرومانتيكيين في عملها.

أما الفصل الثالث فيذكر أن من ترجمت رواية تاريخية للسير آرثر كونان دويل - مبتكرة شخصية شرلوك هولمز - هي رواية "لاجشون" (١٨٩٣) وسقتها "الحب في العذاب" (١٩٢١). وموضوع الرواية اضطهاد البيروتستانت في فرنسا وهجرتهم فرارا إلى أمريكا في عصر الملك لويس الرابع عشر، مع فحص لأوجه الشبه والاختلاف بين الأصل والترجمة.

كذلك ترجمت من رواية ألمانية للمستشرق وعالم اللغة ماكس مولر عنوانها "الحب الأثاني" وسقتها بالعربية "اهتصاصات ودموع" (١٩٢٢). ومن الفرنسية ترجمت رواية "رجوع الموجة" ليرادا (كان الأثر الفرنسي في كتاباتها - لاسارتين ودي موسيه بخاصة - لا يقل عمقا عن الأثر الإنجليزي، بل ربما أرى عليه).

وثمة ببليوجرافيا تورد أعمال من وأهم من كتبوا عنها، مفيدة من شبكة الإنترنت. وقد جمعت الرسالة بين المنهج التحليلي ومنهج الأدب المقارن، وقدمت تحليلا لعدد من نصوص من الشعرية والشعرية مثل : كتابة، ارتياب، عينطورة، أمل، وداع ليشان، ألحان الخريف. وحديث خيوطها الرومانتيكية الأساسية بأنها : الكتابة والحلم والعزلة والحسين

إلى الماضي والطفولة والإنسان والحياة والموروث الإغريقي القديم (هنا نقطة لقاء مع الكلاسيكية) والله والدين.

وقد كانت مي - إلى جانب إجادتها عديدا من اللغات الأجنبية (الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، إلخ...) قادرة على تطوير قراءاتها في هذه الآداب للذوق الشرقي والقارئ العربي. وتمكنت من إجادة الفصحى - في مرحلة لاحقة - وكانت على معرفة طيبة ببلغة القرآن الكريم وقدامى الشعراء والكتاب العرب. وجنحت، بمزاجها الشاعري المطلق، في أواخر أيامها إلى التصوف وقارنت حظها في الحياة بحظ أبي العلاء. وهي تمثل رائدا مهما من روافد الحركة الرومانتيكية العربية في عصرها.

والأثر الغربي في أعمالها يتمثل في معالجتها فنونا من قبيل الشعر المنثور والترجمة الأدبية والقصص القصيرة.

وأكدت خاتمة الرسالة إنجاز مي المنفرد في سياق مطلع القرن العشرين : وهو السياق الذي ضمّ شعراء الأحياء وشعراء المهجر (جبران بخاصة)، وشعراء جماعة الديوان، وشعراء مدرسة أبولو، وشهد نشأة الصحافة التي وسّعت من دائرة القراء، كما أثّرت في أساليب الكتاب، ونشطت حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية.

والإضافة التي تقدمها الرسالة هي تركيز الضوء على المؤثرات الأجنبية في عمل مي على حين اهتمت أغلب الدراسات السابقة بمسيرتها الذاتية ودورها الاجتماعي. على أني أخذت على الرسالة أمورا منها : إنها لا تبرز بدرجة كافية أثر جبران في أدب مي، وأن الباحثة في معالجتها مأساة مي في سنواتها الأخيرة - حين أصابها التهابات العصبى وأدخلها أقاربها مستشفى العصبوية للأمراض النفسية والعقلية ببيروت - فاتها أن ترجع إلى مقالة مهمة لسلامة موسى عن هذه المأساة ترد في ختام كتابه "تربية سلامة موسى".

ويشوب الرسالة عدد من الأخطاء اللغوية والطباعية ثم تلبيه الباحثة إليها لتتداركها قبل إيداع الرسالة مكتبة الجامعة ومكتبة الكلية ومكتبة القسم.

٣) رسم الخريطة المعرفية للحدائثة وما بعد الحدائثة : مدخل مقارن إلى زيجمونت باومان وعبدالوهاب السيري.<sup>(٣)</sup>

ترسم هذه الرسالة إلى عقد مقارنة بين مفكرين معاصرين : أحدهما عالم اجتماع بولندي المولد، والثاني ناقد وباحث وأستاذ مصري للأدب الإنجليزي.

أما الأستاذ البولندي فهو زيجمونت باومان المولود في ١٩٢٥ والمقيم في إنجلترا منذ عام ١٩٧١ حيث يعمل أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة لندن. وله سبعة وخمسون كتابا وأكثر من مائة مقال منشور تتناول قضايا من قبيل العولمة والحدائثة وما بعد الحدائثة والفرقة الاستهلاكية والأخلاق.

وأما الأستاذ المصري فهو عبد الوهاب السيري (١٩٣٨-٢٠٠٨) الذي تلقى تعليمه في جامعات الإسكندرية وكولومبيا ورجرز، ودرس بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٨٨، كما درس في جامعات المملكة العربية السعودية والكويت وماليزيا. وله أعمال بالإنجليزية

والعربية تتناول اليهود واليهودية والصهيونية والعلمانية والتحيز والثقافة الغربية المعاصرة ونظرية الأدب والأدب المقارن.

وتسعى الرسالة إلى إبراز دور التمثيل المجازي في رسم الخريطة المعرفية للحدث وما بعد الحدث بالإشارة إلى ثلاثية باومان : مشرعون ومفسرون (١٩٨٧) الحدث والمحرقة (١٩٨٩) الحدث والأزدواج الوجداني (١٩٩١) حيث يسعى باومان إلى دحض فكر عصر التنوير الذي يحتفل بالفتنة العلمية ويشر بنهاية التاريخ.

وتبين الرسالة أن ما يقدمه باومان من استبصارات وتصورات جديدة يشترك في الكثير مع تفسير المسيرى للأسس العقلية للحدث وما بعدها. إن باومان يستخدم استعارتين رئيسيتين: "الحدث الصلبة" و"الحدث السائلة". ويكاد المسيرى يستخدم هذه المجازات نفسها: "المادة العقلانية الصلبة" و"المادة السائلة غير العقلانية". وتدور في فلك هذه المجازات الكبرى مجازات أخرى فرعية ترسم أفاق الحدث وما بعد الحدث. ويركز الباحث على أعمال المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (١٩٩٩) العالم من منظور غربي (٢٠٠١) اللغة والمجاز : بين التوحيد ووحدة الوجود (٢٠٠٢) الحدث وما بعد الحدث (٢٠٠٣) دفاع عن الإنسان : دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة (٢٠٠٣).

#### وتتألف الرسالة من خمسة فصول :

**الفصل الأول** ("رسم الخريطة المعرفية والمجاز") يناقش العلاقة بين رسم الخريطة المعرفية والمساقة النقدية والنماذج الإرشادية والاستعارات والأنطولوجيا (مبحث الوجود بما هو كذلك) في ضوء منهجية باومان والمسيرى وأيديولوجيتهما. ويبين الفصل أن التفسير المجازي واحد من الآليات الكبرى لرسم الخريطة المعرفية عند هذين المفكرين.

**والفصل الثاني** ("الحدث بوصفها سردا غنوصيا") يتناول السرديات والمجازات الكبرى التي يستخدمها باومان والمسيرى في النظر إلى الحدث على أنها شكل من الغنوصية التي تجنح إلى تأليه الإنسان وأو الطبيعة بهدف إقامة يوتوبيا أرضية.

**والفصل الثالث** ("رسم خريطة لعواقب الحدث") يستكشف ويقابل بين استخدام باومان والمسيرى للمجاز بوصفه أداة هرميوطيقية كبرى لدراسة عواقب الحدث. كذلك يكشف الفصل عن الدور الذي لعبته خبراتهما الوجودية المعيشة وأيديولوجيتهما في النظر إلى الحدث على أنها رؤية غنوصية.

**والفصل الرابع** ("قياس الحدث الأقرن" بمعنى ورطتها Dilemma) يفحص حالة الخلط التي صاحبت نشأة الحدث وإدراكها، مع التركيز على مجازات الجنس والجسد في الفن والأدب وكافة مسالك الحياة.

وتنتهي الرسالة بخاتمة، ومراسلات متبادلة بين باومان والباحث في ٢٠٠٦، وحوار أجراه الباحث مع المسيرى، وبيليوجرافيا.

والرسالة جهد علمي طيب وإن كنت لا أستطيع أن أحول بين نفسي والشعور بأن المسيرى قد نال من التقدير - لدينا - فوق ما يستحق. فهو - مع الإقرار بكل فضائله - لا يعدو في نظري أن يكون - شأنه في ذلك شأن الدكتور حسن حنفي - استشرافيا معكوسا: يستخدم تقنيات الفكر الغربي وآلياته من أجل دحض هذا الفكر، مدفوعا بعوامل وطنية ودينية. وأصائله - إذا أخذنا بهذا التفسير - موضع نظر إذ هي لا تعدو أن تكون من قبيل رد الفعل.

الهوامش:

(١) معالجة الألفاظ المشقة من أسماء الأعلام في المعاجم الإنجليزية - العربية الكبرى : دراسة معجمية، رسالة ماجستير مقدمة من حازم أحمد جلهوم، تحت إشراف أ.د. محمد محمد عثمان، د. عبد المنعم علي، د. مها الصعيدى، كلية الآداب، جامعة المنوفية ٢٠٠٨.

(٢) مؤثرات رومانتيكية إنجليزية في شعر مي زيادة وترجماتها، رسالة ماجستير مقدمة من ليس السيد فضل، تحت إشراف أ.د. محمد محمد عثمان، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٨.

(٣) رسم الخريطة المعرفية للحدثة وما بعد الحداثة : مدخل مقارنة إلى زيجمونت باومان وعبد الوهاب المسيرى، رسالة دكتوراه مقدمة من حجاج أحمد شعبان، تحت إشراف أ.د. محمد يحيى حسن، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٨.

# المؤتمر الدولي للتقد الأدبي العربي



## إخلاص عطا الله

-"إن التقد الأدبي فرع من فروع المعرفة الإنسانية الراقية لا يليق به أن يصبح هامشياً أو ثانوياً أو شاغل صفة قليلة من المتخصصين أو ممن يدعون الانتماء إليهم، وإنما موقعه في ريادة ألوان المعرفة التي تنمي القدرة على الإحساس بالجمال والنسق والتوازن أو ببقائها في مجال صناعة الكلمات أو الأعمال مستفيداً من التراكم والتقدم في كل مجالات المعرفة الإنسانية المتاحة، وحتى وإن اضطربت الأنساق أو قسدت في كثير من مجالات القول أو الفعل من حوله. وهذا المؤتمر خطوة متواضعة في الطريق إلى هذا الهدف عبر التساؤلات والمناقشات".

هذه الكلمات لقرار المؤتمر الدولي للتقد الأدبي العربي الذي عقد بالمجلس الأعلى للثقافة في الفترة من (١٠ - ١٢ يونيو). وقد ناقش المؤتمر ما يقرب من أربعين بحثاً علمياً بالإضافة إلى مائدة مستديرة بعنوان: "التقد الأدبي العربي.. إلى أين؟".

### قراءة التراث النقدي - ملاحظات منهجية:

يقرر جابر عصفور أن هناك ظاهرة من ظواهر العصر الحديث، مرتبطة بتطور مفهوم القراءة، وتعددها وتباين تياراتها، وذلك في المدى الذي يسقط الذات القارئة على الموضوع المقروء، فتغدو إياها، أو تسمى القراءة إلى نوع من المعرفة الإمبريقية المحايدة، غير مرتبطة استحالتها، أو تنتقل إلى حال من التوسط العربي الذي تتفاعل فيه الذات القارئة وموضوع القراءة، ويعني ذلك أن أي قراءة للتراث لابد أن تبحث عما يؤكد موضوعيتها بتأكيد الاستقلال العربي لكل من القارئ والمقروء، حتى على المستوى الأنطولوجي "والخطوة الأولى للموضوعية تبدأ - في هذا السياق - بإدراك أن كل مقروء في الماضي هو بعض دائرية سياقية،



تصله بغيره، وتؤكد علاقته بكل ما يقع في الدائرة، ولا يمكن فهمه إلا من منظور هذه العلاقة، خصوصاً في أبعادها البنوية المتضافرة مع التاريخ.

- والخطوة الوازية للخطوة السابقة - كما يضيف جابر عصفور - تتصل بالقارى، وتشعه من حيث هو موضوع، مع وضع كونه فاعلاً بين قوسين بالمعنى الوجودي في فلسفة الطواهر، في دائرة حديثة، موازية أو مقابلة للدائرة القديمة، الأمر الذي يجعله نتاج هذه الدائرة، وفاعلاً يعيد إنتاجها على السواء، وذلك بما يجعل فعل القراءة الذي يقوم به فضاء مفتوحاً من مناصات القراءة التي سبقته.

- أما حال وجود قراءة التراث، معرفياً وأنتولوجياً، فهو حال يتوسط ما بين الدائرتين، أو يصل بينهما في منطقة تعاس أو تداخل. ولا معنى لتحرير أو تحليل، أي قراءة تراثية، إلا من خلال تحليل العلاقات التي تنبئ بها منطقة التداخل أو التماس، فتصل بين الذات القاصلة للقراءة وموضوعها، والعكس صحيح بالقدر نفسه، لكن مع الإبقاء على صفة التاريخية في الدائرتين المتداخلتين ويترتب على "التاريخية الموضوعية" التي أحيلها بها أسميه "دائرة الانتقراء"، وهي دائرة افتراضية من احتمالات القراءة التي لا يمكن تجاوز سلفها، مهما تعددت أو تكاثرت آلياتها. ولكن الانتقراء - في هذا السياق - ليس نوعاً من البنية المغلقة، وإنما المفتوحة التي تقبل احتمالات لا حدود لها، لكن بما يبقى دائماً، هذه الحدود في دائرة "النوع".

#### قراءة في النقد الحديث:

وفي بحثها قدمت هدى وصلى قراءة في "النقد الحديث" حيث تأثر النقد العربي منذ ما يقرب من قرن من الزمان بالنقد الغربي وسعى دوماً إلى محاكاة مساره وإن بنسب متفاوتة. لذلك يحسن تتبع مظاهر هذا التأثير والوقوف على المحطات التي ترى أنها تشكل حلقة في تطور هذا النقد. علماً بأن هذه القراءة - كما تذكر هدى وصلى - نتج ما تحمله من تبعات الاختيار، فكل اختيار لا يخلو من مجازفة مهما توخينا الموضوعية، ونجدها تقول: وإذا أمعنا النظر في الربع القرن الأخير فلننا نرصد نشاطاً تقديمياً متصلاً يشهد عليه ثراء ما نشر من دراسات في كتب مستقلة أو في مجلات متخصصة. ولنا في مجلة فحول منذ تأسيسها سنة ١٩٨٠ المثل على مثل هذه النشاطات النقدية إضافة إلى ما تقدمت به سنة ١٩٨٢ وسنة ١٩٨٤ من تبني مؤتمري "حافظ وشوقي" ومؤتمر "الإبداع الأول" وكان لهذه الظاهرة النقدية، العديد من التتبعات التي سميت بشكل أو بآخر أغلب الإبداع النقدي في مصر والوطن العربي. وقد اجتمع أيضاً كم كبير من الدراسات يتسم بالتنوع والتشعب مما أسهم في إخصاب الخطاب النقدي خاصة في مصر.

وستجد أن أبرز معالم النقد في هذه الفترة يتحو نحو التقليدية ومحاولة التجديد وإن كانت الفروقات ضئيلة بين الخطاب المعلن وواقع العمل النقدي النجيز ومواقفه البنوية بالمعنى العام.

يقوم التقليد على أسس "القيولوجيا" التي استبادت من الخرش اللاتسوني وهو النحس الذي يفصل بين المعنى واللفظ والقول بأن العلاقة المنتظمة بينهما هي علاقة تطابق ويعتبر

363

الدراسات النقدية

اللفظ في هذا الإطار مجرد أداة تستخدم لتأدية المعنى ونقله وتبوأ هذه الفكرة مكان الصدارة وأسندت إليها القيمة العليا فكان الدارس يمتنعها في النسيج اللغوي المكون لظاهر النص لكشف التقاب عنها باعتبارها البؤرة الوحيدة المنتظمة له والمجرى الرئيسي الذي تصب فيه مكوناته. ولما كانت الفكرة "الكامنة" في النص في مفهومها العام ترجمة لحياة الكاتب وصورة لها وأن هذه بدورها ولادة الظروف السوسيوثقافية المرتبطة بها، استجوب البحث التنقيب عنها في ركام المصادر والوثائق وعملية البحث تلك كان لها القدرة على الكشف كان التنقيب أوسع وأشمل وقد لازم هذه الطريقة، إرسال الأحكام التقييمية في دائرة قيم الصدق والحق والجمال فكانت الذاتية والانطباعية والمعارية هي السمات الواضحة لهذا النشاط وإن رفع شعار الموضوعية.

وبعد هذا التوجه امتدادا لما كان سائدا في النقد العربي في النصف الأول من هذا القرن وعرف تجلياته ونسجه في كتابات طه حسين النقدية وسكتلي - هنا - برصد حضوره في النقد الجامعي العربي واستمر طوال النصف الثاني من القرن العشرين ومازال وإن بأشكال ونسب متفاوتة. وكان مطلع الخمسينيات من المحطات التي تلقى فيها النقد "الفيلولوجي" انتقادات وجهها إليه نقاد تبثوا الأيديولوجية الاشتراكية وأعلنوا استنادهم إليها في فهم الدرس الأدبي وكانت "الاشتراكية الواقعية" هي المذهب الجديد الذي روجوا له وقد حدد نقاد هذا التيار أسسه في عدة دراسات نظرية وتطبيقية مثل كتاب محمود العالم وعبد العظيم أنيس "في الثقافة المصرية" وتلاميذ محمد مندور (في مرحلته الثانية) ولويس عوض ويصدر هذا التيار عن نظرة انعكاسية آتية للأدب يعتبر هذا بمقتضاها، مجرد محاكاة لحياة الكاتب والمجتمع ومن هذا المنطلق تنظم بين الأدب والواقع، علاقة ديناميكية جدلية ذلك أن الأفكار "لا تهبط من السماء أو من عالم المثل" ولكنها ولادة التعامل الواعي مع الظروف المادية المرتبطة بحياة الفرد وبذلك يكتسب الإبداع حضورا فاعلا وخلاقا ويصبح العمل الأدبي دعوا للإسهام بفعالية في فهم العالم وتغييره في اتجاه الأفضل.

- وقد نادى هذا التيار بالتجاوز عن النظرة الجمالية الانطباعية الذاتية الثالثة السائدة وإدراجها ضمن العوامل المساعمة في إكساب الأدب المسحة الجدلية الديناميكية معتبرا أن هذه الأساليب ليست مجرد انعكاس لعالم جمالي متعال لكنها مرتبطة ارتباطا عضويا بالمضامين حتى لا إمكان التمييزها أو فصلها عنها، ذلك أنها صادرة عن الرؤية نفسها محمولة بها مكسبة العالم المتخيل حركة وديناميكية، وتزداد فاعليتها عندما تنخرط في البحث عن الأسباب العميقة الخافية وراء ظواهر الأشياء والأحداث.

وقد هيمن هذا التيار على الساحة النقدية في النصف الثاني من الخمسينيات وعلى امتداد الستينيات وجزء غير قليل من السبعينيات ثم أخذ يتراجع وأخذت تظهر تيارات منهجية أخرى مثلت متعرجا جادا وربما مما في مسار النقد العربي ومشهده.

وأضافت هدى وصفي: إن حركة الترجمة التي لم تنقطع أدت إلى تعرفنا على مختلف التيارات النقدية الغربية خاصة مع اتساع حجم الترجمة في وجود نخبة مثقفة استلذت من خلال التمكن من اللغات الأجنبية (ومعظمها من القاصين بالتدريس في الجامعات) وهكذا كانت الجامعة هي المبادرة باحتضان هذا النوع المستحدث من النقد والأخذ بأسبابه وكثرت

الدراسات الأكاديمية التي تمت تحت إشراف أساتذة الجامعات وشدة التعامل مع النقد الحديث سمة من سمات هذه الدراسات، كما أشارت أن الإبداع القصصي حاز أكبر قدر من الاهتمام - خاصة في مجال تحليل السرديات - وخطى باعتصام الأسلوبية والبنوية والسيمولوجية والنقد الاجتماعي والنفس.

وقد خلصت هدى وصفي إلى أن: اعتماد النقد العربي على الخلفيات الغربية لم يؤد إلى معارشات منهجية كما رأينا في الغرب وإن كان هناك وجود للنقد النقد كما حدث في نقد بعض التطبيقات البنوية بحجة عدم تمثل أصحاب المقاربات لمبادئ البنوية أو عدم القدرة على كشف القيمة الفنية والدلالة على وجه المطلوب.

### من إرصاصات النقد الأدبي الحديث في مصر ترجمة "فن الشعر" لـ"بولو"

وقد عرض محمد زكريا عناني للترجمة التي قام بها محمد عثمان جلال لمطولة "فن الشعر" التي تعد بمثابة "البيان الشعري" (المانيفست) لحركة الكلاسيكية المحدثة، ولم تنشر في كتاب على الإطلاق، وإنما احتفت بها مجلة "روضة المدارس" أولى المجلات التربوية الأدبية في مصر، والتي كانت تحظى برعاية مباشرة من رعاة رفيع الطهاروي. كذلك ألقى زكريا عناني الضوء على ما قام به المترجم من مزج بين الآراء النقدية العربية وهذا الوافد للتقدي الجديد على الذوق العربي، أيضا الكشف عن مدى قابلية آراء "بولو"، وهي تقوم أساساً على الأعمال المسرحية، لكي تطبق على الشعر الغنائي. وكان آخر ما سعى البحث للكشف عنه: هو محاولة الربط بين "فن الشعر" وما قد يكون هناك من كتابات نقدية أخرى تتعرض لفن الشعر بالتقدير خصوصاً من خلال الموقف الكلاسيكي المحدث، الذي يستدعي التراث شكلاً ومضموناً.

### أدب الرحلات والاستشراق البحث عن منهج

في بحث حول "أدب الرحلات والاستشراق" قرر هلال الحجري أن أدب الرحلات تتجاذبه دراسات نقدية يمكن تقسيمها إلى مدرستين: تاريخية وتحليلية، الأولى منهما تغلب عليها منهجية توثيقية، حيث يكون فيها نصيب الأسد مخصصاً لتلخيص حياة الرحالة وأسماء الأماكن التي مروا بها في رحلاتهم، وزمن الرحلة، ومبارها، أما المدرسة الثانية فمعنية بتحليل نصوص الرحلة وتفكيك خطابها. فبعد صدور كتاب "الاستشراق" لإنوار سعيد عام ١٩٧٨، وظف أدب الرحلات في الحقول المعرفية المختلفة لتحليل الخطاب الغربي وكشف الطرائق التي سلكها الأوروبيون في رؤيتهم وتصويرهم للأجناس "الأخري" في الشرق، وقد اعتبر سعيد وكثير من تابعيه كتابات الرحالة الأوروبيين حول الشرق الأوسط بأنها ليست "مصدراً" تاريخياً بريئاً. ولهذا فقد اتهموا الرحالة الغربيين بأنهم "إمبيفاليون" و"عنصريون". - منذ الثمانينيات وبحلول النظرية الاستعمارية في التصميغيات انتهت هذا الاتجاه إلى الوضع الذي أصبح فيه نقد أدب الرحلات مشغولاً بثلاثيات مطلقاً مثل: "الشرق والغرب".

و"الأوروبي والآخر"، و"المستعمر"، و"نحن وهم"، إلخ ويبدو لي - والكلام لهلال الحجري - أن كتاب إدوارد سعيد أفرز ثلاثة اتجاهات نقدية متصارعة حول خطاب الاستشراق بشكل عام وحول أدب الرحلات بشكل خاص. وأعطى هلال الحجري أمثلة لهذا النوع من الدراسات التي عنيت بتحليل أدب الرحلة الغربي، الواقعي منه والتمثيلي، حول الشرق الأوسط.

الاتجاه الأول مثل له بكتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد وأطروحات بعض أنصاره من أمثال رنا قباني في "أدب الخيال الإمبريالي" أساطير أوروبا حول الشرق" عام ١٩٨٦، ومحمد الطوفي الشرق و"ثلاثة رحالة فيكتوريون" كنيجل، وبيرتون، وبالجريف" عام ١٩٨٩. وهذا الاتجاه سأطلق عليه "السعديين" نسبة إلى إدوارد سعيد.

والاتجاه الثاني يمثلته أولئك الذين قبلوا تحدي نظرية سعيد، وأسماهم "اللاسعديين" . وقد اختار هلال الحجري لهذا الاتجاه عملين: "رؤية أوروبا من الخارج" عام ١٩٩٤ "لميرين تشافيك هاوت" Syrine chafic Hout.

والحج الأدبي الرومانسي إلى الشرق" عام ١٩٩٩ الكاترين آن سامبسن Kathryn Ann Sampson. أما الاتجاه الثالث فسامثل له بأولئك الذين احتضنوا مزيجاً وسطاً بين سعيد وخصوصه (الوسطيين) والأعمال التي اخترتها لهذا الاتجاه: "إيران تحت عيون غريبة" عام ١٩٨٤، لمحمد جفاقي Mohamed Javadi، و"القرب والثنأى" عام ١٩٨٥ "لإدواردس فان دي بيلت" Eduardus Van de Bilt، و"تمشيلات الشرق في أدب الرحلات الإنجليزية والفرنسية من (١٧٩٨ - ١٨٨٢) عام ١٩٩١ "لجون سبنسر ديكشن" John Spencer Dixon.

## نحو رؤية نقدية عربية معاصرة

### ملاحظات واقتراحات

توسيف للمشهد النقدي الراهن حدده الناقد وهب رومية في شقين. أولاً: الأزمة الشاملة حيث المجتمعات العربية المأزومة والمجتمعات المتخلفة في عالم حديث.

ثانياً: أن الأزمة النقدية هي أحد تجليات الأزمة الشاملة المستحكمة، وهي تعبير عنها في آن. وهي قسمان:

(أ) أزمة نقاد.

(ب) أزمة نقد.

بالنسبة لأزمة فئة من النقاد: هناك تحليل لظواهر الأزمة:

١- موقف هؤلاء النقاد من التراث.

٢- موقف هؤلاء من الآخر الأجنبي.

٣- غموض الموقف الثقافي للناقد.

٤- الانقسام بين الموقف النقدي والموقف الاجتماعي.

٥- تحول النقاد الحداثيين إلى نخبة.

أما عن أزمة النقد (فالحديث هنا مقتصر على السليبات وليس وصفاً متقنياً للواقع) :

١- مرجعياته : الاستسلام العلمي للمرجعيات الغربية دون اتخاذ موقف نقدي منها (شطط الاستعارة من الآخر، الاستلاب، التقريب).

٢- طرائقه : غلبة الطريقة التكتيكية عليها، وشيوع الاتباعية الصحفية.

٣- أنماطه اللغوية : لغة حدائثة قياضة بالحيوية، ولكن قدرتها على الإبداع محدودة، أو لغة ركيكة (صحفية).

٤- غلبة التنظير النقدي على النقد التطبيقي.

٥- الهوة العميقة بين الموقف النقدي وتطبيقاته.

٦- القوضى وغياب النزاعة والموضوعية.

٧- عدم الإنصاف في توزيع اهتمام النقاد على خريطة الشعر العربي المعاصر.

- ثالثاً : الاقتراحات

يقول وهب رومية : نحن هنا أمام اختيارات مواقف لا اختيارات أفكار، وإن تكن الأفكار متضمنة في المواقف.

١- تحديد الموقف من المفاهيم : مفهوم الثقافة، ومفهوم النقد، ومفهوم الشعر، ومفهوم "الآخر الأجنبي" الشبيه بنا، والمختلف عنا في آن.

- مفهوم "الظاهرة الأدبية وعلاقتها بالظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية...."

٢- الاهتمام بالدراسات الأدبية المقارنة.

٣- تحديد الموقف من "العلاقة اللغوية" ومن "اللغة".

٤- ربط الأحكام النقدية ببنية النص ربطاً وثيقاً دون افتعال في ضوء تاريخية اللغة، وتاريخية الأعراف والتقاليد الفنية، والخبرة الجمالية للجماعة.

٥- الاهتمام بالتراث النقدي والبلاغي واللغوي والنحوي والعروض العربي، والاعتماد به (مفهوم الشعر، علم البيان) علم المعاني، علم البديع، النظم، السقراط، الترادف، الصيغ، الأوزان، التلقية، الرتب (النحوية...) وتطويره وإغناؤه بما لا يفاخره أو يناقشه من المعارف النقدية الأجنبية (مفهوم الشعر، الأسلوبية، الصورة، الرمز، القناع...) وإعمال ما لم يعد صالحاً. باختصار قراءة هذا التراث قراءة تحليلية علمية تستبقي عناصره الحية القابلة للنماء والتطور وتغني العناصر المثبتة التي شذت من تاريخ العلم.

٦- الاهتمام بالشعر العربي المعاصر - ولا سيما في الدراسات الجامعية - اهتماماً عادلاً لا يجوز على قطر أو أقطار لحساب قطر آخر أو أقطار أخرى.

٧- فتح "النص" على قراءات متعددة، وعدم حصره في قراءة واحدة بشروط

٨- الاهتمام بلغة النقد والارتقاء بها.

وبعد :

يختتم وهب رومية ورقته بقوله :

"إن هم هذه الورقة البحثية - أولاً وأخيراً - إذ كاه روح النقد الأدبي الرصين وشبهه في إعادة النظر فيها بحثاً عن الاستفزاز والشاحنة والتنافس عن الاتهامات والمساجلة، ولذلك عن صاحبها إلى مناقشة "القضايا" دون ذكر الأسماء".

# فصول . نت



## ماجد مصطفى

باستدعاء مواقع الترجمة بمحرك البحث google تظهر النتائج في ٤٢ صفحة ويب (من ١ إلى ٤١٣ حوالي ٢,٠٧٠,٠٠٠ عن مواقع عربية في الترجمة)؛ ويمكن أن نستعرض بعضها فيما يلي:

### • موقع الجمعية المصرية للمترجمين

<http://www.egytrans.org>

ويحتوي على الروابط التالية: الروابط الرئيسية | حول الجمعية | خدمات الجمعية | عضوية الجمعية | الاعتماد | لجان الجمعية | مؤتمرات ولقاءات | المنشورات والطبوعات | اليوم الصور | المنشورات والطبوعات | اليوم الصور | منقديات الجمعية  
وعن رسالة الجمعية يذكر الموقع: تقوم رسالة جمعية المترجمين واللغويين المصريين على العمل لتحقيق نهضة في ميدان الترجمة واللغة في مصر، و تكوين كوادر من المترجمين المؤهلين ، والقادرين لقيمة الترجمة، والمواكبين للتطورات العلمية والمطلعين على التغيرات التي يشهدها العالم حتى تتمكن فعلياً من تحقيق هذه النهضة.

### • موقع المنظمة العربية للترجمة

<http://www.aot.org.lb/Home/index.php?Lang=ar>

ويحتوي على الروابط التالية: الصفحة الرئيسية/ التعريف/ الترجمة/ النشاطات/ الإصدارات/ الاتصال بنا/ أخبار الترجمة/ آخر الإصدارات/ إصدارات قادمة/ شركائنا: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم - دبي، صندوق أوبك للتنمية العالمية، ومؤسسة عبد الحميد شومان. بالإضافة لرابطة البحث، و رابط النشرة الدورية، وآخر الأخبار، و رابط مركز دراسات الوحدة العربية المؤرخ الحصري لكتب المنظمة العربية للترجمة.  
ويعرف الموقع بالمنظمة فيما يلي:

المنظمة العربية للترجمة منظمة دولية متخصصة، غير حكومية، مستقلة ولا تهدف إلى الربح، مقرها بيروت - لبنان. وهي تتمتع بمكافة المواثيق والخصائص اللازمة لأداء مهامها،

أسوة بالمنظمات الدولية والإقليمية العاملة في إطار الأمم المتحدة"، اعتماداً على الرسوم رقم ٢٨٠٣ الصادر عن الحكومة اللبنانية بتاريخ ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

وعن تأسيس المنظمة يذكر الموقع: تم الإعلان الرسمي عن قيام المنظمة العربية للترجمة يوم ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، في اجتماع تأسيسي انعقد في بيروت، تحقيقاً لمشروع طاملاً عبر المثقفون العرب عن ضرورة إنجازه، باعتبار الترجمة سندا نهضوياً، سواء من حيث نقل المعارف ونشر الفكر العلمي أو من حيث تطوير اللغة العربية ذاتها. وقد تم التأسيس بعد إجراء دراسات مسحية لأوضاع الترجمة في الوطن العربي وبعد إعداد دراسة جدوى ولقاءات ومناقشات شارك فيها عدد واسع من المفكرين والباحثين المتخصصين.

### • موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب

<http://arabswata.org/site>

ويحتوي على الروابط التالية: الرئيسية/ الجمعية/ القانون الأساسي/ مكتبة الجمعية/ للتفتي التفاعلي/ المندوبات/ مجلة وانا للترجمة واللغات وفي التعريف بالجمعية يذكر الموقع:

استطاعت الجمعية بعد أربع سنوات من انطلاقها من الوصول إلى عشرات الآلاف من المستهدفين، ويبلغ عدد أعضائها آلاف المسجلين، بينما يتزايد روادها من المشاركين يوماً بعد يوم. واجتذبت القضايا العادلة والساحلة التي أثارها في مندوباتها عشرات الآلاف من الزوار والمؤيدين لتلك القضايا، وهي تدور في مجملها حول ثوابت الأمة والدفاع عن قضاياها وقضايا العجل العربي. كما قامت الجمعية بطرح العديد من مختلف نماذج الترجمات العملية وترجمة مجموعة من القصائد الشعرية لشعراء الجمعية، إلى أكثر من لغة، وتفتخر في هذا المجال بأن فيها أساتذة كباراً يمتلكون إتقاناً تاماً سبع عشرة لغة عالية معوم بها على نطاق حضاري وثقافي، يعملون بها من خلال مندوبات اللغات المختلفة، بينما يشغل علماء اللغة والأدباء والشعراء بإثارة القضايا العلمية والأدبية الهامة، ويشجعونها تحليلاً وتقييماً، من خلال الحجج القوية، والنظريات الثرية والأفكار المستنيرة ضمن حوار هادف وأمين يستهدي بالثروات الصائب والمستحدث المجيد، وبأفكار المجيدين والمقدّرين، ويضرب على أيدي العابثين والمفسدين، ويشجع نهم الباحثين عن الأفضل من العلم، والأثرى من المعرفة. ... وفي سبيل استكمال الشخصية الخاصة بـ"وانا" تقوم الجمعية بإصدار "مجلة وانا للترجمة واللغات" وإعداد كتيبات الأشعار والأدب المترجمة، ودليل المترجمين، ودليل اللغويين، ودليل الأدباء. والنظر إلى الصفحة الرئيسة في بوابة الجمعية، التي يتم تجديدها محتوياتها بشكل منتظم، يجد فيها واحدة غناء تضم أبواباً قيمة في التراث والتنوع وقبلة لاختلاف الزوار من طائفي العلم والمعرفة والثقافة والمثمة. فمن لوحة شيوخ الجمعية التي تشرق بنخبة الوجوه العربية التي استضافتها الجمعية، إلى كلمة الجمعية وهي التنافذة التي نطل من خلالها لنقل فكرنا ورسالتنا ونشاطاتنا البارزة، ومن ثم تأتي مقالات في اللغة والترجمة ليرتوي منها كل طمأن إلى الكلمة الجادة والأسلوب الشائق والتوجه التخصصي، لتليها مقالات أدبية تهم كل ناقد ويبحث في الدور الأدبية والنقد الموسوعي. أما باب بحوث ودراسات فهو مصدر رصين لطلاب العلم والباحثين المرموقين والمعلومة الوثوقة، وأوراق عمل باب آخر يشمل آخر الأوراق التي تقدم بها كبار الباحثين في أبرز الأحداث في الساحة الثقافية. أما ترجمات عمالية فيباب آخر يشع بين أيدي المترجمين القديانيين نماذج مترجمة غاية في الإتقان في مختلف التخصصات صاغتها أيدي كبار المترجمين ودققتها نخبة منهم حتى خرجت بمستوى رفيع.

• موقع الجمعية المصرية للمترجمين

<http://egyta.com>

ويحتوي على الروابط التالية: أخبار الترجمة العالمية/ مترجمين متقربين/ مؤسسات الترجمة المعتمدة/ طلب عضوية إيجي٢٠٠٠/ طلب اعتماد مكتب ترجمة/ طلب استصدار شهادات ويشم الموقع دليلًا لجمعية ومنتظمات الترجمة الدولية، منها:

• موقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب. المقر (بلجيكا)

<http://www.wataonline.net>

• مواقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات. المقر (سويسرا)

<http://www.atida.org>

• المؤتمر الدولي الدائم للمعاهد الجامعية للمترجمين التحريريين والفوريين

CIUTI - International Permanent Conference of University  
Institutes of Translators and Interpreters

• الجمعية الدولية لترجمي المؤتمرات

AITC - International Association of Conference Translators

• المجلس الأوروبي لجمعية مترجمي الأدب

CEATL - European Council of Associations of Literary Translators

• الجمعية الأوروبية لدراسات الترجمة

EST - European Society for Translation Studies

• الاتحاد الدولي للمترجمين

IFT - International Federation of Translators

• الجمعية الدولية للمترجمين والمحرفين في مجال الطب وما يتصل به من علوم (ترميميكا)

TREMÉDICA - International Association of Translators and Editors  
in Medicine and Related Sciences

هذه جولة سريعة مع مواقع جمعيات الترجمة العربية وغير العربية، وإن كان هناك نوع آخر لمواقع تقوم بخدمة الترجمة الآلية المجانية، وهي كثيرة على الشبكة العنكبوتية.



مجدي وهبة



مجدي وهبة رائد المعاجم الأدبية المتخصصة:  
معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب  
نموذجاً

محمد طلحة نصار

مجدي وهبة: يليلو جرافيا

ماهر شفيق فريد



# مجري وهبة

## رائد المعاجم اللغوية المتخصصة

معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب نموذجاً



### محمد طلبة نصار

يقدر محمد عناني في كتابه «المصطلحات الأدبية الحديثة» أن ترجمة المصطلح الأدبي - ومن ثم البلاغي - تنتمي إلى دراسات الأدب المقارن؛ «إذ إنها تتطلب الشأهة بين الظواهر الأدبية في اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها، والتفريق بين الثوابت constants والمتغيرات variables في الأعمال الأدبية، وبين المبادئ العالمية universals التي تنتم بها الظواهر اللغوية في جميع لغات العالم وبين الخصائص اللغوية التي تتفرد بها لغة (أو مجموعة من اللغات)» (٣٢).

ويمثل «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب» الذي صنّفه الدكتور مجدي وهبة والدكتور كامل المهندس جهداً معجمياً رائداً في هذا الاتجاه المقارن. وتتمثل ريادته في سده فراغاً واضحاً في الكتبة المعجمية العربية. ولم يكن تأخر صدور مثل هذا المعجم الرائد بالأمر المستعجل بعد مرور مائتي عام على المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب بقدم الحملة الفرنسية، وما أعقب ذلك من جهود استشرافية في دراسة أدب العرب ولغتهم، مما يعني توفر ذخيرة لغوية يمكن الارتكان عليها في العمل في معجم يتناول مصطلحات الأدب والبلاغة واللغة وقدرها من المصطلحات الإسلامية العامة. فكان صدور «معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب» بمثابة إجابة عن سؤال ظل مفتوحاً بلا إجابة رغم توفر مصادر هذه الإجابة رداً من الزمن.

والغزى الذي يخرج به المستخدم الواعي للمعجم المذكور هو ذلك التماثل في بعض الظواهر البلاغية والأدبية التي رصدتها المعجم في اللغتين العربية والإنجليزية بما يحقق اندراج مثل هذا المعجم في دراسات الأدب المقارن، ويقضي بخطأ مقولة التمايز اللغوي أو الحضاري التام، ويقطع بوجود مشترك لغوي وثقافي يترتب على وجود اللغة نفسها بوصفها ظاهرة

إنسانية، كما سبق في كلام محمد عثاني. ولم يأت هذا الناتج إلا على أساس من الجهد البحثي العلمي الذي قام به مؤلفا المعجم مستفيدين كما ذكرنا في المقدمة من الذخيرة اللغوية التي وفرتها الدراسات الاستشرافية قائلين: «بذلنا جهداً كبيراً في البحث عن المصطلح الإنجليزي المقابل للمصطلح العربي في مؤلفات كبار المستشرقين، ووضعناه بجانب المصطلح العربي. بيد أننا لم نوفق دائماً في العثور على هذا المصطلح، وفي هذه الحالة أعدنا وضع المصطلح العربي بالحروف اللاتينية، حسب نطقه في العربية، على نحو ما فعل كبار المستشرقين من قبل» (٧).

وظاهر الكلام القتبس أن المؤلفين اقتصرا في جهدهما على تتبع ترجمة المصطلحات العربية في كتابات المستشرقين مع الاقتصار على رسم المصطلح الذي لم يعثرا عليه بحروف لاتينية، مما قد يشي بعدم اجتهدانهما في ترجمة تلك المصطلحات التي لم يعثرا لها على ترجمات لدى المستشرقين. ولا يمكن الجزم باطراد هذا الحكم من التاحية الموضوعية إلا ببحث موسع في مصادر المعجم يحقق مدى اعتماده على هذا المصدر أو ذاك وما إذا كان الصنفان اكفيا فعلاً بترجمات المستشرقين لمصطلحات المعجم من عدمه.

وأما كان الأمر فلا يقلل اعتماد الصنفين على تلك المصادر من ذلك الجهد البحثي الذي بذلته في استقراء تلك الكتابات وجمع شواردها وصولاً إلى هذا التوليف المتميز الذي فتح آفاقاً أخرى للنظر والتجويد، شاعداً بما للتراث البحثي من ضرورة في تعزيز الواقع الحضاري.

ورغم أن عنوان المعجم يشي باقتصاره على المصطلحات اللغوية والمصطلحات الأدبية بمعناها المحدود الذي لا يتناول المصطلحات البلاغية، فقد شكلت مصطلحات البلاغة بفروعها الثلاثة البیان والمعاتي والبدیع مكوناً رئيساً من مكونات هذا المعجم، فضلاً عن تطرق للمؤلفين إلى العديد من المصطلحات الإسلامية مما يعطي هذا المعجم ثقلًا يتجاوز عنوانه، فكانه يطمح لأن يكون معجماً للثقافة العربية والإسلامية بشكل عام ولو بشكل يقتصر الاستقصاء.

وعلاوة على ذلك يقدم المعجم المقابلات الإنجليزية للعديد من المصطلحات الأدبية واللغوية التي انتقلت من اللغات الأوروبية واستقرت في اللغة العربية في القرنين الأخيرين كالرمزية والبريالية والأبيقورية. وأحسب أن المؤلفين ارتأوا ترجمة هذه المصطلحات لما شهداء من استقرار هذه المصطلحات بمفاهيمها في الوعي الثقافي العربي وشيوع استخدامها في الحياة الثقافية العربية.

والمعجم في كل هذا لا يقتصر على إيراد المقابلات في اللغتين العربية والإنجليزية بل يسعى لعرض هذه المصطلحات عرضاً وافياً في معظم الأحيان وشرح دقائق معانيها مما يتحقق به استيعاب القارئ لها وإمكانية تعامله معها فهماً واستخداماً تعاملاً فعالاً يسهل عملية التبادل الثقافي بين الثقافة العربية والثقافة الإنجليزية خصوصاً والغربية عموماً. ولا يخفى ما

يتطلبه هذا التيسير للمصطلحات من جهد بحثي وتألفي يجمع الشوارد ويقوم المطلقات ويخصص العموم.

وتتخذ مواد المعجم - الذي يقع في نشرته الثانية والأخيرة الصادرة سنة ١٩٨٤ في ٤٨٤ صفحة من عامودين في كل صفحة - شكل المقالات القصيرة في كثير من الأحيان التي قد تطول بحسب ما تقتضيه طبيعة المصطلح وتعدد تفرعاته، كما وقع في مدخل «الحس المتزامن، تبادل الحواس» (صفحة ١٤٨) الذي يقع فيها يقرب من ثلاثة أعمدة، وبشكل أوضح في مدخل «الرواية» الذي يشغل ثلاثة أعمدة كذلك، إلا أنه بتفريعات المصطلح على أنواع الرواية وصل إلى أحد عشر عاموداً أي حوالي خمس صفحات ونصف.

وحيث إن المعجم يتجه من العربية إلى الإنجليزية، فقد ذيل بمسرد يتجه من الإنجليزية إلى العربية مستخدماً في مقابلاته العربية نفس المصطلحات العربية الواردة في مسان المعجم الأصلي، مما يسهل على المستخدم الوصول إلى المصطلحات العربية أو الإنجليزية على حد سواء فيمكن استخدامه من أي من الجهتين.

...

تبدي هذه الدراسة بعض الملاحظات النقدية على الجهد المعجمي الذي بذله المؤلفان، وتتعلق الملاحظات بالترجمات المختارة للمصطلحات العربية في بعض الأحيان، وبمضمون التعريفات المقالة في أحيان ثانية، وبتنظيم المعجم في أحيان أخرى.

ومتابعة لما سلف من تحديد للمجالات المعرفية الأربعة التي يرتادها المعجم بالأدب والبلاغة واللغة والإسميات، فإننا نقسم الدراسة ثلاثة أقسام تتناول المجالين الأول والثاني والرابع، تاركين ترجمة المصطلحات اللغوية جانباً، إذ لا يخفى أن دراسة كهذه لا تهدف بالضرورة إلى الاستقصاء والحصص أو الشمول بقدر ما تهدف إلى إعمال الجهد البحثي والحاصل المعرفي للدارس في التمثيل لبعض ما يحتاج لمناقشة أو استدراك في هذا المعجم الرائد. ولا يعني هذا بالضرورة كذلك انحصار هذه المسائل التي تحتاج للمناقشة في بعض جزئيات لا تغيد في خدمة المعجم بقدر واقع. فالملاحظات على كثرتها لا تزعم الاستقصاء، وعلى عدم استقصائها تدرس المعجم دراسة كاشفة وخادمة للجهد المعجمي في هذا المجال بشكل فعال.

توفر لهذا المعجم خبرة باحثين واسعي الاطلاع في الثقافتين الإسلامية والغربية وفي اللغتين العربية والإنجليزية. فالدكتور مجدي وهبة كان أستاذاً للأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة وعضواً مؤسساً في رابطة أساتذة الأدب الإنجليزي في الجامعات العربية، كما كان ذا جهد معجمي رائد بتأليفه عدة معاجم عامة ومتخصصة لا سيما في المجال الثقافي والأدبي. كما أشرف على تحرير بعض المجلات الأدبية التي تصدر في القاهرة باللغة الإنجليزية مثل «الدراسات الجوسونوية» و«دراسات أدبية إنجليزية» من القاهرة.

والدكتور كامل المهندس كان أستاذاً للدراسات الشرقية بكلية دار العلوم . وأستاذك للأدب العربي بجامعة كابول سابقاً ورئيساً لقسم القهارس العربية بدار الكتب . فضلاً عن دراسته الأزهرية ومقالاته المتعددة.

ولا يتشعشع بشكل قاطع قدر الإسهام الذي قام به كل من المصنفين في هذا المعجم . ويبدو أنه كان لكامل المهندس بعض إسهام في معجم الدكتور وهبة الإنجليزي- العربي بحيث احتيج للتنبؤ به ذلك في صورة شكر خاص توجه به وهبة للمهندس واصفاً دوره بأنه «معاونة مستمرة مخلص» (معجم مصطلحات الأدب (xli)). ثم تحول هذا الإسهام إلى مشاركة بقدر ما في معجم وهبة والمهندس . وحيث إن معجم وهبة والمهندس يعتمد بشكل كبير على معجم وهبة المنفرد ، فالغالب أن الإسهام الأكبر في المعجم المشترك ظل للدكتور وهبة وأن إسهام المهندس كان هذه المرة بصورة أكبر فاستلزم هذا جعله أحد مصنفي المعجم . دون أن يعني هذا بالضرورة تساوي قدر المشاركة من المصنفين في المعجم.

وقد يكون الحامل على هذا الظن بأن معجماً للمصطلحات العربية ينبغي أن يكون جامعاً من ذوي التخصص الأكاديمي وبالتالي أن يحمل المعجم اسمه . والاحتمال الأخير أن يكون حجم للمصطلحات الأجنبية التي ينبغي أن يكون لوحة فيها اليد العليا في الجمع والتعريف قد قل في معجم المصطلحات العربية فتصبح مساهمة المهندس أكبر نسبياً مما يستلزم أن يحمل المعجم اسمه مع وهبة.

\*\*\*

يتابع هذا البحث ترتيب المواد في المعجم إلا في الحالات التي يستجمع فيها التعليل مصطلحين لعل تجميع بهنهما كما وقع في مادتي الكناية والمجاز المرسل . وفي هذه الحالة يُضم المصطلح الذي يرد ثانياً في المعجم إلى المصطلح الذي يرد سابقاً لتقاطع دلالة المصطلحين في اللغة العربية مع المصطلحين المقابلين في اللغة الإنجليزية . وعادة ما يكون البدء بالمصطلح وترجمته ، ثم تعريف المعجم للمصطلح ثم شيئ من شواهد في بعض الأحيان ، إلا إذا كان التعليق منسرفاً إلى الترجمة الإنجليزية للمصطلح فلا نورد شيئاً مما يأتي بعدها في المادة لعدم الحاجة إليه . ثم نختم بتعليق عام على المعجم ومكانته وريادته .

#### ١- الإرساد (Irsad)

تعريف المعجم: أن يذكر قبل آخر الفقرة أو البيت ما يدل على آخره متى عرف رويه ، وذلك كقول الله تعالى «فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (التوبة ٧٠) ، ثم أورد الصنفان أمثلة أخرى على هذه الظاهرة.

ولم يورد الصنفان ترجمة لهذا المصطلح . فضلاً عن أن التعريف يذكر الفقرة ثم يتكلم عن البيت والروي ، وهي مصطلحات غير نثرية ، ويترك تحديد الظاهرة داخل الجملة النثرية ، مع أن المبدأ الأول سبق من القرآن . فكأن الأولى أن يعرف المصطلح بما يناسب

الاصطلاحات القرآنية ثم ينتقل إلى تعريفه بمصطلحات النظم. فتعريفه بمصطلحات علوم القرآن هو كما أورده الزركشي باستخدام لفظة «الفصلة» - بدلاً من لفظة «الروي» - التي هي آخر الآية ، مقابل أول الآية أو صدرها. (ج ١ ، ٧٨)

ويلاحظ أن الآية المستشهد بها مثل بها الزركشي لظاهرة بلاغية أخرى هي «التصدير» (البرهان ج ١ ، ٩٤).

وحيث يسمى الإرساد كذلك بـ«التوشيح» (مطلوب: ٤٣٨) ، فقد فرق الزركشي بينهما في «البرهان» بأن التصدير دلالتة لفظية تتعلق بتكرار ألفاظ في آخر الجملة الثانية يمكن استنتاجها قبل الوصول لنهاية الجملة ، بينما التوشيح دلالتة معنوية (ج ١ ، ٧٩-٨٠) ، أي لا يستلزم تكرار الألفاظ للوصول إلى الاستنتاج ، فالإرساد بالتالي هو التوشيح الذي قد يستدل فيه على ما يأتي في آخر الجملة بما يأتي في أولها ، سواء كان هذا بطريق اللفظ أو المعنى ، وهذا يستفاد من تفرقة الحموي بين التوشيح والتسهم ، إذ يقول بأن هذه الظاهرة تكون لفظية في حالة التوشيح ولفظية ومعنوية في حالة التسهم (مطلوب: ٥٩) . ولكن حيث يرى معظم البلاغيين أن «التوشيح هو الإرساد والتسهم» (مطلوب ٤٣٨) بلا فرق ، فيعلم من هذا أن دلالة أول الجملة أو البيت على آخره تكون باللفظ أو بالمعنى . بينما في «التصدير» أو ما يعرف بدرد الأعجاز على الصدوره يكون هناك تبديل في مواقع الكلمات بما يمكن أن يدل على ما يأتي آخرًا.

\* وهذا التداخل بين هذه الأشكال وهذا التعقيد لا يمنعان من الوصول إلى ترجمة لها في اللغة الإنجليزية ، حيث ورد في موسوعة برنستون مصطلح *Isocolon and parison* . وحيث إن الكلمة الأولى تعني التظايق شبه التام بين صدر الكلام وعجزه بينما لا تستلزم الكلمة الثانية هذا (Preminger 636) ، وحيث إن المثال الذي تورده الموسوعة لكلمة *parison* مشابه من حيث تركيبه وأثره للأمثلة الواردة في المعجم وفي المراجع البلاغية العربي ، فيمكن اعتماد هذه الكلمة ترجمة لمصطلح الإرساد.

كما يورد دوبرييه (Dupriez 334) مصطلح *period* ويورد في لثنايه مصطلح *isocolon* . والبحث عن *isocolon* هو الذي أوصلنا إلى مصطلح *parison* . ثم بمراجعة تعريف موسوعة برنستون لمصطلح *period* ، تبين كذلك إمكان استخدامه للدلالة على مصطلح الإرساد خاصة بالنظر في التعريف الذي تورده الموسوعة عن أرسطو والذي يشمل الدالتين اللفظية والمعنوية المشار إليهما أعلاه (Preminger 886).

## ٢- الاستفهام البلاغي : rhetorical question

تعريف المعجم : هو الاستفهام الذي لا يقصد به السؤال عن أمر وطلب الجواب عنه ، وإنما يقصد به النفي كقول البحري (٢٨٤ هـ)

وما الدهر إلا غمرة وأنجلأوها وشيكا ولا خبيقة وأنفراجها

تعليق: الملاحظة الواضحة هنا أن البيت المستشهد به لا يشهد للسؤال البلاغي من قريب ولا بعيد بل هو نقي صريح مصحوب بأسلوب القصص.

### ٣- أسلوب التهكم antiphrasis

تعريف المعجم: أن تعبر بعبارة قاصدا ضد معناها للتهكم، مثل قوله تعالى: «إني إنك أنت العزيز الكريم».

تعليق: هذا ثاني العنوين اللذين يعطيهما أهمية للمصطلح في «معجم مصطلحات الأدب»، والمعنى الأول هو «المغايرة»، وهي تعرف هناك بأنها: «استعمال الكلام في معنى عكس معناه الأصلي للخوف أو التهكم، أو التلاؤل، وذلك كإطلاق لفظ مغارة على الصحراء التي يبني فيها المتجول». وهو يستبعد هذه الترجمة في هذا المعجم.

ويعرف كُودن Cuddon المصطلح بأنه «استخدام كلمة بمعنى مشاد لمعناها الصحيح. ويشيع هذا في المفاخرة وفي الإهانات بالتلفي ilotes (٤٨). وبناء على تعريف المادة نفسه وعلى تعريف كودن فإن «التهكم» الذي يقتصر عليه المصنفان هنا ليس أصليا في معنى هذه الكلمة، بل يحدث لأن «المغايرة» تقتضيه أحيانا. والأولى لترجمة التهكم استخدام عبارة شارحة مثل *censure disguised in praise*، لأن الترجمة المثبتة تفيد استنفاد التهكم لمعاني الكلمة الإنجليزية وهو ما ليس بصحيح فضلا عن عدم استلزام المغايرة لكون الكلام تهكما في الأساس.

### ٤- امرؤ القيس Umrul-Qays

تعريف المعجم: هو أشهر لقب لحنجج أو عدي أو مليكة (١٣٠-٨٠ ق. هـ)، ويكنى بأبي وهب، وأبي زيد، وأبي الحارث. ويلقب أيضا بذي القروح والملك الضليل (انظر الملك الضليل ذو القروح). والقيس من أسنام الجاهلية- كانوا يعبثونه ويتنسبون إليه».

تعليق: يسقط التعريف صفة امرؤ القيس وهي أنه شاعر، ولا يذكر شيئا عن أشهر قصائده وهي معلقة مثلاً ولا إمكانته بين شعراء الجاهلية. ويقتصر التعريف على بيان سبب تلقبه بامرؤ القيس مع ذكر ما نسب إليه من أسماء. وقد تكرر هذا مرتين في المعجم، مرة في مادة «نو الرمة» ومرة أخرى في مادة «رهين المحبين». ورغم شهرة هؤلاء الشعراء إلا أن المعجم يخاطب أستاذا من القراء قد يكون من بينهم مبتدئون في دراسة الأدب العربي من غير العرب، وهنا قد يطرأ السؤال عن سبب وجود مثل هذه المواد في المعجم من الأصل. ولا شك أن أول ما يُعرف به الشاعر كونه شاعرا، حتى وإن قصد المعجم إلى بيان سبب لقب تلقب به هذا الشاعر أو ذاك.

### ٥- البيهت القائم بذاته end-stopped line

تعليق: نوهم الترجمة أن هذا النوع من الأبيات يشكل قصيدة بذاته، وليس بالضرورة كذلك، بل هو «بيت مستقل بمعناه» أو «تام المعنى» دون أن يستلزم ذلك كون

القسيده مكونة من بيت واحد. وقد أورد المصنفان التسمية العربية لذلك النوع من القصائد وهي «اليتيم» دون أن ينتبهوا إلى أن تعبير «البيت القائم بذاته»، وهو في الأصل ترجمة للمصطلح الأجنبي وليس بمصطلح، أخص من المصطلح الأجنبي في الدلالة. ولو كان المصطلح العربي هو «البيت المستقل بمعناه» أو «البيت التام المعنى» لكان هذا أدق. إلا أن الإشكال هنا في أن الترجمة المطاة لا تمثل مصطلحا، بل هي مجرد ترجمة للمصطلح الإنجليزي، بينما المعجم يحمل تسمية «معجم المصطلحات العربية».

#### ٦- التبيين epanodos

تعليق: استخدم المصنفان الكلمة الإنجليزية ترجمة لمصطلح «التقسيم»، وترجمة لمصطلح «الف والنشر» كذلك. وقد أشار المصنفان في آخر التعريف إلى أن «التقسيم» يعرف باسم «الف والنشر» ولم يشير إلى أن «التبيين» و«التقسيم» شيء واحد. وقد استشهد المصنفان ببيتين للفرزدق في هذا بوصفهما مثالا للتبيين أوردتهما ابن قدامة في نقد الشعر وأطلق على البلاغة الواقعة فيهما صحة التفسير (١٣٥-١٣٦). واستخدما في «التقسيم» بيتين للشاعر الجاهلي المتلمس، واستخدما في «الف والنشر» قوله تعالى «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله».

وحيث أشار المصنفان إلى أن «التقسيم» يسمى كذلك «الف والنشر»، فكان ضروريا الإشارة إلى أن «التبيين» و«الف والنشر» شيء واحد كذلك، خاصة وقد ترجما المصطلحات العربية الثلاثة بلغة إنجليزية واحد.

#### ٧- التخريج interpretation

تعريف المعجم: شرح الأحاديث وتأويلها استناداً إلى قواعد علمي الحديث ومصطلحه.

تعليق: ترجم المصنفان هذا المصطلح الحديثي بكلمة interpretation وهذا من أظهور أخطاء المعجم، وهذا الخطأ قام على خطأ التعريف السابق. وهذا وهم كبير، لأن التخريج هو عزو الحديث إلى مصادره من كتب الحديث كصححي البخاري ومسلم وكتب السنن الأربعة وكتب المسانيد وغير ذلك. وفي «قاموس المصطلحات الإسلامية»: «تخريج الحديث إخراجه من كتب الحديث» (الجزء ١٤٣). وهذا بخلاف ما تفهده كلمة interpretation التي تعني التفسير.

#### ٨- التشبيه البليغ eloquent comparison

تعريف المعجم: ما حذف فيه كل من الأداة ووجه الشبه.

تعليق: أورد المصنفان مثالا للتشبيه البليغ قول ابن خفاجة الأندلسي:

والريح تبيت بالغمصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء



وهذا خطأ ظاهر آخر، إذ البيت يحوي استعارة لا تشبيها بلعيا، وهي استعارة تمريحية حذفت فيها التشبه وهو الشمس، وأثبت التشبه به وهو الذهب. والمثال المشهور للتشبيه البلاغي في اللغة العربية قولهم «زيد أسد» وهو من أقسام الاستعارة في البلاغة الغربية.

#### ٩- تشبيه التمثيل والتشبيه المركب

تعليق: لم يترجم الصنفان لهذين المصطلحين وليس ثمة سبب واضح لهذا. ومثلاً للتوعين بهيمت بشار بن برد الشهير:

كان مثار التلع فوق رؤوسنا وأسافلنا ليل تهاوى كواكبها

وهذا ازدواج في المعجم بلا سوغ. وقد نشأ عن عدم تحرير للمصطلح، إذ يفرق بعض البلاغيين كالسكاكي بين النوعين، بينما يسوي البعض الآخر كالقزويني (مطلوب ٣٣٢) بينهما. وكان ورود المصطلحين متعاقبين كافيًا لكي يحرر الصنفان الفرق ولا يمثلان لهما بمثال واحد. وما أورده السكاكي أوجه لتأسسه على فرق صحيح هو أن التمثيلي ما كان وجه التشبه فيه عقلياً غير حقيقي وكان مركباً (مطلوب ٣٣٣)، بينما يجعل القزويني التشبيه التمثيلي ما كان الوصف فيه «منزجاً» من متعدد، أمرين أو أمور (مطلوب ٣٣٣).

أما الترجمة المقترحة للمركب فهي compound simile، وأما التمثيل فهو نوع من ال conceit أو ما يسميه الصنفان «المجاز الطريف». وقد أورد له البلاغيون شاعداً هنا هو قول ابن المعتز:

اصبر على مضض الحسو      د فإن سيرك قاتله  
فالنار تأكل بعضها      إن لم تجد ما تأكله

#### ١٠- التصاعد البلاغي: climax; gradation

تعريف المعجم: هو أن ترتب عدداً من الكلمات أو العبارات ترتيباً تصاعدياً من حيث المعنى بقصد زيادة التأثير، مثال ذلك قوله تعالى في سورة الحج «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اعتذرت وريبت وأنبئت من كل زوج بهيج».

ويعرف الدكتور وهبة «التدرج البلاغي» في «معجم مصطلحات الأدب» بأنه «أن تأتي بسلسلة من العبارات أو الجمل بحيث تتضمن الجملة التالية تطوراً جديداً لما انتهت به الجملة السابقة لها، وبحيث تكرر العبارة الأخيرة في الجملة السابقة في صدر الجملة التالية لها» (معجم مصطلحات الأدب ١٩٨).

ويورد دوبرييه هذا المصطلح بصيغته اللاتينية وهي gradatio. ويعرف دوبرييه التصاعد أو التدرج البلاغي بأنه: «تتابع للأفكار أو العواطف بحيث إن ما يأتي تالياً يمثل دائماً زيادة أو نقصاً بالنسبة لما سبق بحسب كون اتجاه النص تصاعدياً أو تنازلياً» (Dupriez 200).

وتسرد «موسوعة برنستون في الشعر وعلومه» المصطلح باسم climax وتعطي gradation مرادفاً له، وتعرفه بأنه «المحسن البلاغي الذي يعبر به عن سلسلة متصاعدة من العبارات أو الجمل التي تترابط مع بعضها البعض باستخدام تماثل البداية والنهاية anadiplosis بما يؤدي إلى نهاية تشاعفية أو تراكمية» (Preminger 220).

ويلاحظ على التعريفات الثلاثة السابقة ما يلي:

- ١- يجعل دوربييه التدرج في اتجاهين، تصاعدي وتنازلي.
- ٢- يتسع تعريف دوربييه ليشمل مصطلحي وهبة أي التصاعد والتدرج ويزيد على تعريفه بإيراد الترتيب المتنازل جزءاً من معنى المصطلح.
- ٣- يضيق تعريف وهبة عن تعريف دوربييه بعدم إيراد الترتيب التنازلي.
- ٤- يضيق تعريف موسوعة برنستون عن تعريف وهبة وبالضرورة عن تعريف دوربييه يجعلها التكرار في نهاية وبداية عبارتين متتاليتين جزءاً من التعريف، بينما يجعل وهبة التكرار ركناً في التدرج دون التصاعد، ولا يورد دوربييه التكرار في التعريف وإنما يورده في التفاصيل.

ملاحظات على أمثلة «معجم مصطلحات الأدب» و«معجم المصطلحات العربية»:

- ١- يعطي وهبة الأبيات الأربعة الأولى من سونطة سيدني الأولى من مجموعة سونئات «أستروفل أند ستلا» مثلاً على التدرج البلاغي:

Loving in truth and fain in verse my love to show,  
That she, dear she might take some pleasure of my pain,  
Pleasure might cause her read, reading might make her know,  
Knowledge might pity win and pity grace obtain.

- ٢- يعطي وهبة للتدرج البلاغي أي المقيد بالتكرار مثلاً هو التالي: «المد العالي يولد الكهرباء، والكهرباء تدير المصانع، والمصانع تنتج المصنوعات».

وهذا المثال لا يناسب المقام لكونه كلاماً عادياً، فضلاً عما فيه من ضعف في عبارته الأخيرة: «المصانع/المصنوعات». والأولى منه قوله تعالى في سورة الحشر: «لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون».

- ٣- يعطي وهبة في «معجم مصطلحات الأدب» مثلاً باللغة الإنجليزية للتصاعد البلاغي مأخوذاً من رسالة القديس بولس إلى الكورنثيين: «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر يقلب بشر ما أعده الرب...» (معجم مصطلحات الأدب ١٩٨).

- ٤- يعطي وهبة والمهندس في «معجم المصطلحات العربية» مثلاً آخر للتصاعد هو قوله تعالى: «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج».

والثال الأول له نظير في الحديث النبوي الشريف من قوله النبي صلى الله عليه وسلم «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (البخاري، رقم ٣٠٠٥). وهو أوضح في إظهار التصاعد من الآية، فضلا عن تطابقه مع المثال الإنجليزي.

ومما يمكن أن يمثل به للتصاعد البلاغي كذلك قوله تعالى «لا الشمس ينهي لها أن تسبق القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» (يس: ٤٠).

#### ١١- تصالب الكلام، المقابلة العكسية: chiasmus

تعريف المعجم: ١- قلب ترتيب كلمات الجملة في جملة ثانية لها بقصد التأثير، وذلك كقوله تعالى «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي».

٢- هو أن تعكس المعنى بين قسيتين بأن تقدم جزءا في الكلام ثم تؤخره وتقدم ما أخرت، مثل قول سعد الدين التفتازاني (٧٢٢-٩٩٣ هـ):

طويت بإحراز القتون ونيلها رداء شباب والجنون فتون  
فحين تعاطيت الفنون وحظها تبين لي أن القتون جنون

تعليقي: لم أجد من استخدم مصطلح «تصالب الكلام» أو «المقابلة العكسية»، فهو ترجمة من المؤلف كما يعلم من «معجم مصطلحات الأدب». وهذه الترجمة تشيع في معاجم المصطلحات اللغوية كذلك، حيث يستخدم المصطلح الأجنبي في علم التشرع! ويورد محمد بن علي الجرجاني تلك الظاهرة البلاغية تحت اسم «العكس» ويعرف بأنه «أن يوصل كلام بآخر ويعكس كلمته»، كقولهم: عادات السادات سادات العادات، وكلام الملك ملك الكلام، ومنه قوله تعالى: «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي». ومنه قول الشاعر:

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وقد أورد جلال الدين القزويني في «الإيضاح» هذه الأمثلة تحت اسم «العكس والتبديل» (٣١٠-٣١١). وكذا ابن أبي الأصمعي المغربي في «بديع القرآن» (١١١) ١. فصار ترجمة المصطلح على كلمة «العكس» أو كلمة «التبديل»، أو الكلمتين معاً كما فعل الجلال القزويني.

وقد أورد المصنفان مصطلح «العكس» في مادة أخرى دونما إشارة إلى هذه المادة، وترجما للمصطلح بلفظ antimetabole. فإذا علمنا أن كدُنْ أحال في مادة antimetabole ببساطة على مصطلح chiasmus (46 Cuddon) وأن دويريه ينقل عن لانهام Lanham القول بترادف المصطلحين الأجنبيين (47 Dupriez)، تبين ما يحتاج إليه المعجم من إحالات تبادلية cross-references.

وحيث وجد المصطلح محتويها على نفس المثال الذي ساقه المصنفان فكان الأولى بإيراد المصطلح المستخدم في كتب البلاغة العربية. ثم إن ارتأى المصنفان زيادة الإيضاح أو عدم كفاية المصطلح المستقر الاستخدام في كتب البلاغة العربية يضيفا ما يشاءان. وقد استخدم المصنفان

## ١٢- التعرف anagnorisis

تعريف: في فن الشعر لأرسطو هو: «الانتقال من الجهل إلى المعرفة الذي يؤدي إلى الانتقال من الكراهية إلى المحبة، أو من المحبة إلى الكراهية عند شخصيات المأساة المقدر لهم السعادة أو الشقاوة».

وخير مثال لذلك: مأساة «أوديب ملكاً» لسفوكليس (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي) عندما يكتشف أوديب أنه قاتل لأبيه لايسوس، ومن هذه اللحظة انقلبت أحداث المأساة رأساً على عقب.

تعليق: أورد كَنَنْ في معجمه هذا المصطلح اليوناني الأصل وأعطاه المقابل الإنجليزي recognition. وبهذا يتميز المصطلح الأدبي الوارد عند أرسطو عن التعرف بمعناه العادي الشامل الذي تقوم به كلمة recognition. بينما اكتفى وهبة والمهندس بالكلمة العربية الساوية للكلمة الإنجليزية. وهذا المصطلح قريب في المعنى من مصطلح «لحظة التنوير» الذي استخدمه الدكتور رشاد رشدي في كتابه «فن القصة القصيرة»، وهو استخدام مستقر ويحمل طابع الاصطلاح. فكان لا بد من إشارة إليه في المعجم، حتى وإن ارتأى المصنفان أن المادة الأجنبية لا تترجم بالمصطلح العربي المقترح.

وقد ذكر المصنفان مصطلح «لحظة التنوير» بالفعل في مادة «القصة القصيرة» على سبيل الموافقة، فقالا: «ولذلك فإن النهاية هي النقطة التي تتجمع فيها وتنتهي إليها خطوط الحدث كلها. لذلك سميت «لحظة التنوير»، ومع هذا لم يثبتا له مادة في المعجم على كثرة تلك المواد التي هي عبارة عن ترجمات لمصطلحات أجنبية ليست مستقرة في علوم الأدب والبلاغة العربيين، فكان الأولى وجود مادة لمصطلح «لحظة التنوير» تقابل مصطلح illumination الذي استخدمه الناقص والناقد الإنجليزي H.E. Bates في كتابه عن القصة القصيرة (عنايتي، المصطلحات الأدبية الحديثة ٣٧).

وقد أشار محمد عناني إلى أن مصطلحات القصة القصيرة التي استخدمها بيتس هي نفس المصطلحات التي استخدمها أرسطو في «فن الشعر» لدراسة المسرحية: «لم يكن رشدي يعني، مثلاً لم يكن بيتس يعني... أكثر مما كان يعنيه أرسطو بالبداية والوسط والنهاية beginning, middle, end في المسرحية ومن ثم في كل قصة». ويضيف بعد أن يشرح بناء القصة القصيرة: «هذا التصور البسيط للتركيب مأخوذ من المسرح». (في كتابه «المصطلحات الأدبية الحديثة ٣٧»).

### ١٣- تبادل البداية والنهاية أو تماثلهما epanastrophe

ساق المصنفان هذه الترجمة مرة أخرى تحت مصطلح «تماثل البداية والنهاية». ولا ضرورة لهذا التكرار مع استخدام كلمة تماثلهما في الاصطلاح الحالي، فكان يمكن جمع كلمتي تبادل وتماثل داخل مادة واحدة. خاصة وقد استخدم المصنفان الشاهد نفسه للتشبيه للمصطلحين.

### ١٤- الجناس المتشابه antanacsis

تعريف: هو الجناس الذي اتفق فيه المتجانسان خطاً وكان أحدهما مركباً. ومثاله قول البستي:

إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة

تعليق: يشير مجموع التعريفات إلى أن المصطلح الأجنبي يقصد به تكرار للفظ مع اختلاف في المعنى، وليس ثمة إشارة إلى تركيب أحد اللفظين. بل إن هبة نفسه في «معجم مصطلحات الأدب» لا يزيد على هذا شيئاً عند تعريفه للفظ الإنجليزي، فيقول: «التكرار المتماثل للكلمة أو العبارة بمعنى مختلف أو عكسي». وما يورده من الأمثلة الإنجليزية والفرنسية ليس فيه أي تركيب. قد يتسع المصطلح الأجنبي للظاهرة، وعندئذ ينبغي الإشارة إلى التفاوت بين تقييد المصطلح العربي وإطلاق الأجنبي.

### ١٥- الجناس المركب: equivocal rhyme

تعريف: في علم البديع العربي: أن يكون أحد اللفظين المتماثلين في الصوت مركباً من كلمتين فأكثر، وهو إما متشابه إن اتفق اللفظان في الخط والصوت، وإما مفروق إن كانا متحدين في الصوت مختلفين في الخط. مثال المتماثل قول أبي الفتح البستي (٤٠٠ هـ):

إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة

ثم يورد مثال المفروق.

تعليق: أوردنا المادتين كما هما إظهاراً للتكرار وعدم التنظيم الواقعي في المعجم، فضلاً عن التحفظ على استخدام لفظ antanacsis في ترجمة المصطلح الأول. ومما يزيد التساؤل إلحاحاً كون المادتين تردان في الصفحة نفسها، بل في العمود نفسه من الصفحة.

### ١٦- حسن التعليل conceit

تعريف المعجم: أن يقتبس الأديب للشيء أو للظاهرة علة أدبية بطريقة تناسب الغرض الذي يرمي إليه بدلاً من علته أو علتها الحقيقية، وذلك كتقول ابن الرومي:

أما ذكاء فلم تصفر إذ جنتحت إلا لفرقة هذا المنظر الحسن

تعليق: استخدم المصنفان نفس المصطلح الإنجليزي لترجمة مادة «المجاز الطريف» مع اختلاف تعريفي المصطلحين، والترجمة الإنجليزية لا تتناسب التعريف لأن الشكل البلاغي المسمى conceit وهو ما يسميه المصنفان «المجاز الطريف» هو في الأساس عبارة عن استعارة تقم تشابهاً بين أشياء لا يبدو منها علاقة ظاهرة. أما «حسن التعليل» فيرد إذا أراد الشاعر أن يعلل للجمع بين المتباعدات. أي حسن التعليل يلتزم مسوغاً لإقامة علاقات خفية بين طريقي المجاز أي التشبه والتشبيه به. ومنه قول الشاعر:

لا تعجبوا من بلى غلاته      قد زر أزواره على القمر

فالبيت يقوم على قياس ضمني مقدمته الأولى غير المذكورة: ضوء القمر يبلى الثياب، ومقدمته الثانية: المدحج ثيابه بالية، فتصبح النتيجة: المدحج قد ارتدى ثيابه على القمر. وهذا إشعار بعلو شأن ذلك المدحج. وهذا القياس غير التام هو ما يسمى enthymeme. وعليه يمكن ترجمة حسن التعليل بهذا المصطلح، كما يمكن ترجمته، أو بهـ argumentative conceit (145 Bethell)، على أساس أنه نوع معين من أنواع «المجاز الطريف» يقوم على التعليل، مع إفراد مصطلح conceit «للمجاز الطريف».

والبيت الذي استشهد به المصنفان من هذا القبيل، فمقدمته الأولى: الشمس تصفر لفرقة المناظر الحسنة. ومقدمته الثانية: وجه فلانة منظر حسن. فتكون النتيجة: الشمس تصفر لفرقتها وجه فلانة أو لفراق ذلك المنظر الحسن.

ولا يخفى أن البيتين السابقين يحتويان على حسن التعليل لا على «المجاز الطريف»، فلا يمكن ترجمة المصطلح العربي بكلمة conceit.

#### ١٧- الحقيقة اللغوية objective language

تعريف: هي مدلول الكلمة المستعملة فيما وضعت له بحيث تدل على معناها بنفسها من غير حاجة إلى علاقة أو قرينة، وذلك كاستعمال القمر للكوكب المعروف لا للوجه المشرق مثلاً.

تعليق: الحقيقة اللغوية هي ما يقابل المجاز metaphorical/figurative meaning فلا وجه لهذه الترجمة التي تعني لغة متصلة بالاختصار على الحقيقة دون المجاز. ويقال في اللفظ هو حقيقة في كذا مجاز في كذا، كالثال السابق، فالقمر حقيقة في الكوكب مجاز في الوجه. والأول ترجمة «الحقيقة» بـ literal meaning، كما يترجم المجاز بـ figurative meaning.

#### ١٨- رافضة الشيعة (Shiite rejectionists) rafitu'sh-shi'a

تعريف المصنف: هم الذين يؤمنون بكتاب الجفر، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم، وفيه كل صنوف العلم وكل ما يكون إلى يوم القيامة...

تعليق: لا علاقة لمصطلح "الرافضة" بكتاب الجفر، فالرفض موقف سياسي لا علاقة له بالعلوم الغيبية في الأساس. قال الشهرستاني في الملل والنحل عند حديثه عن الشيعة الزيدية أتباع زيد بن علي: «ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين: رفضوه حتى أتى قدره عليه، فسميت رافضة» (الجزء الأول ١٥٥). وهذا المعنى واضح من تسمية الرافضة.

ومما ينبغي إلحاحه بهذا التعليق تجنباً للتكرار ما أورده المصنفان في مادة الشيعة الزيدية حيث يصفانها بأنها «أهم فرقة شيعة بعد الكيسانية»، وهو خلاف الواقع، إذ لا يخفى أن أهم فرق الشيعة على الإطلاق هم الإمامية.

#### ١٩- روح الأسلوب، الجو العام tone

هذا المصطلح- إن جاز تسميته بذلك- إنما هو ترجمة لمصطلح tone الذي رسخه الناقد الإنجليزي آي. إيه. ريتشاردز I.A. Richards. وجرى الدكتور محمد عناني في مؤلفاته على ترجمة هذا المصطلح بكلمة «النعمة»، وهي ترجمة أكثر دقة. وبعبارة التعبير العربي شيثان: أولاً: أنه ليس بمصطلح، ثانياً: أنه أوسع دلالة من المصطلح الإنجليزي، وهو ما استدركه محمد عناني على مجدي وهبة بقوله: «ولكن هذا تفسير أعم وأشمل من المقصود» (المصطلحات الأدبية الحديثة ٤٠).

#### ٢٠- الصورة البيانية figure of thought

تعريف المعجم: التعبير عن المعنى بطريق التشبيه أو المجاز أو الكناية أو تجسيد المعاني.

تعليق: يعرف جورج إيه كيندي هذا المصطلح بأنه «تغيير مقاييس في تركيب الجملة، أو ترتيب للأفكار، لا الكلمات، داخل الجملة يجذب الانتباه لنفسه. فالعلاق صورة فكرية (ما يعبر عنه المصنفان بالصورة البيانية) تؤثر في الترتيب: "سمعتم أنه قيل: تحب قريبك و تبتغى عدوك. وأما أنا فاقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيك وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم". (متى ٥: ٤٣-٤٤)؛ السؤال البلاغي [صورة فكرية] تتعلق بتركيب الجملة: " أنتم ملح الأرض و لكن إن فسد الملح فيمادنا يملح " (متى ٥: ١٣) (Kennedy 27).

كما يتضح من كلام كيندي فعلى هذا المصطلح باللغة الإنجليزية يختلف عما أورده المصنفان. وهذا المصطلح غير واسع الاستخدام على أية حال، ويبدو غير مستقر بعض الشيء، وإن كان وجد عند البلاغيين الغربيين القدماء، مثل شيشرو وكوينتيليان مبادئ للفرقة بين المصطلحين (Bowers, 249-50). هذا فضلاً عن أن المصنفين لا يوردان المعنى الشائع لمصطلح figures of speech، بل يحيلان على علم المعاني، بينما الاستخدام الشائع يجعل المصطلح أخص بعلم البيان، كما في تعريف كُدُن Cuddon لمصطلح figurative

language على سبيل المثال. ولكن وهبة بورد المعنى المعهود للمصطلح في معجمه المنفرد كواحد من ثلاثة معان لهذا المصطلح وهو: «الصورة البلاغية» معرّفاً لها بأنها «كل وسيلة بلاغية للتعبير عن المعنى المقصود بطرق التشبيه أو المجاز أو الكناية» (معجم مصطلحات الأدب ١٧١).

وكما سبقت الإشارة في مصطلحات أخرى، فلمست هذه بمصطلحات عربية أصيلة وكان الأفضل الاستغناء عنها بمصطلحات البلاغة العربية، بدلاً من تضمين المعجم مواد واردة في «معجم مصطلحات الأدب» الذي يتجه من المصطلح الإنجليزي إلى التعريب عكس هذا المعجم الذي ينطلق من المصطلح العربي وصولاً إلى الترجمة باللغة الإنجليزية.

## ٢٠- عكس الآية: antiparastasis, antistrophe

تعريف: انعكاس الآية بسبب تقيد حجة المجادل بنفس ما احتج به.

تعليق: مثل له الصنفان يرد أحمد بن حنبل على الجهمية القائلين إن الله شيء لا كالأشياء، حيث يقرر أن شيئاً لا كالأشياء هو لا شيء. ومثلاً له كذلك بقوله تعالى: «ولو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا» (الأنبياء ٢٢).

ولكن دويريه يعرفه بأنه «نوع من التقيد بإظهار أن موضوع الشكوى أو القبح هو جدير بالثناء على عكس ما قيل». وهذا التعريف وأمثله تقود إلى قوله تعالى: «ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن»، قل أذن خير لكم (السيوطي ج ٢، ١٧٤).

كما أن لهذا النوع مصطلحاً ورد في بعض كتب البلاغة مثل «بديع القرآن» لابن أبي الأصم المصري، والإشارات: والتنبيهات» لمحمد بن علي الجرجاني. وأورده السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن»: وهو «القول بالوجوب» (ج ٢، ١٧٤)، وعرفه ابن أبي الأصم المصري بأنه «رد كلام الخصم من فحوى كلامه» (بديع القرآن ٣١٤).

يقول دويريه في معجمه المائدة طبعته الأولى باللغة الفرنسية سنة ١٩٨٤: «يبقى المصطلح غير مدون في علوم البلاغة في اللغة الإنجليزية» (Dupriez 49). وقوله هذا له نصيب من الواقع إذ لم يورده كدُنْ مثلاً ولم تورده موسوعة برنستون.

وحيث لم يورد الصنفان المصطلح العربي بإزاء المصطلح الأجنبي المناسب، وحيث اعتمدا على ترجمة المصطلح الأجنبي غير المدون في مراجع البلاغة الإنجليزية على ما قرره دويريه، فكان الأفضل إهماله.

## ٢٢- علم البيان rhetoric of tropes and metonymies

تعريف المعجم: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة (التلخيص

للقرطبي).



تعليق: تتعلق مصطلحات علم البيان بعنصر الصورة والأشكال البلاغية مثل الاستعارة والكتابة والتشبيه والتلميل، ويبحث هذا العلم أنواع هذه الأشكال البلاغية والفروق بينها. وتأسيساً على التعريف المتقدم وعلى ما يوجهه البلاغيون العرب في باب البيان. فالتشبيه أحد الأبواب الرئيسة في هذا الفرع من البلاغة. إلا أن الترجمة التي ساقها وهبة والمهندس لا تشمل التشبيه، لأن مصطلح trope أي المجاز لا يشمل التشبيه، لاحتواء المجاز ضرورة على عملية انزياح لا توجد في التشبيه الذي يحافظ فيه طرفاه على تمايزهما. كما أن كلمة metonymies تشمل الكتابة وجميع علاقات المجاز المرسل خلا علاقة الجزء والكل، فتتخرج تلك العلاقة في الشكل البلاغي المسمى synecdoche. هذا فضلاً عن أن مصطلح metonymy يعرف على أنه مجاز (Dupriez 280). فلا منوغ لاستعمال كلمة metonymy بعد كلمة trope. وعليه فالأفضل أن تستبدل كلمة simile التي تعني التشبيه بكلمة metonymy، لتصبح الترجمة شاملة لمصطلح علم البيان.

### ٢٣- العلوم الثلاثة trivium

تعريف المعجم: هي العلوم التي كانت تتألف منها الدراسة التمهيدية في جامعات العصور الوسطى بأوروبا، وهي النحو والبلاغة والمنطق.

تعليق: قد يبدو من المصطلح أنه لا علاقة له بالثقافة العربية، بل تعريفه في المعجم يقرر أنه أمر يتعلق بجامعات أوروبا في العصور الوسطى، مما يطرح التساؤل عن سبب إيراد المصنفين له في معجم للمصطلحات العربية.

ولكن وجد في كتب التاريخ للعلم أو التي تقدم وصفا للعلوم العربية التقليدية تفرقة بين العلوم الشرعية والعلوم الآلية أو علوم الآلة. يقول القنوجي في «أبجد العلوم»: «وذلك أن العلوم للتداول على صنفين: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات والحكميات وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والمنطق». ومعنى الآلية أن تلك العلوم آلة لفهم العلوم الشرعية من فقه وعلم كلام وتفسير وغير ذلك، فعلوم الآلة نظر إليها نظرة قريبة من مثلث العلوم التأسيسية الذي كان يمثل الدراسة التمهيدية في أوروبا في العصور الوسطى. وعليه يكون هذا هو المصطلح الذي يمكن ترجمته بمصطلح trivium أو البحث له عن ترجمة أخرى.

### ٢٤- القدامى Ancients

تعريف المعجم: يقصد بالمصطلح الإنجليزي:

١- أئمة الأديين الإفرنجي والروماني

٢- أدباء إنجليز وفرنسيون في القرن السابع عشر، يؤمنون بتفوق القدامى تفوقاً معجزاً.

وضرورة تقليدهم.

المحدثون Moderns

تعريف المعجم: هو ذلك الفريق من الكتاب الفرنسيين الذين اشتركوا فيما يسمى بالنزاع بين القدامى والمحدثين (١٦٨٧-١٧١٤)، والذين كانوا يدافعون عن ضرورة التجديد في الصيغ واللوسوعات الأدبية وعدم الالتزام بمحاكاة القدامى من الإغريق والرومان. تعليق: مصطلحا القدامى والمحدثون مصطلحان راسخان في النقد العربي القديم، والموازنة بين المتقدمين والمتأخرين قضية شغلت أذهان النقاد والشعراء فتعرض لها على سبيل المثال ابن سنان الحلجاني (سر الفصاحة ٣٢٧-٣٣٥) وابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (طهانة: ٢٠٩-٢١٠). وهذه مادة من بعض مواد تحتاج لمراجعة وتنقيح في المعجم كي لا نطمس ما فيه من الريادة والإجادة.

## ٢٥- القدرية belief in free will

ورد في هذه المادة ذكر الحسن البصري على أنه كان على رأس مذهب الاختيار الذي هو مقابل مذهب الجبر، وهي مسألة فيها خلاف بين المؤرخين على أية حال. قال الشهرستاني: «ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان وقد سأله عن القول بالقدر والجبر، فأجابها فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب، ودلائل من العقل، ولعلها لواصل ابن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خير من الله تعالى» (الشهرستاني ٤٧).

وقد ذكر المصنفان أن تاريخ ميلاده هو سنة ٤٠ هـ وتاريخ وفاته سنة ١٣٢ هـ، وهذا خطأ، إذ ميلاد الحسن البصري، ومولده سنة ٢٣ هـ ووفاته في سنة ١١٠ هـ.

## ٢٦- القراءات readings of the Qur'an

تعريف المعجم: هي قراءة القرآن الكريم بلحون (أي لهجات) مختلفة كالفتح والإمالة والإظهار والإدغام والد والقصر وترقيق الحرف وتفخيمه وحسم الهاء والميم في نحو عليهم...

تعليق: تعطي كلمة reading معنى التأويل والفهم دون أن تتعلق بطريقة نطق الكلمات. وهذا يتضح من تعريف مادة «القراءة» التي تلي مادتنا في المعجم. ويعرف المعجم القراءة على أنها (١) تحريك النظر على رموز الكتابة منطوقة بصوت أو من غير صوت مع إدراك العقل للمعاني التي ترمز إليها في الحاليتين. (٢) طريقة خاصة لتأويل ما يقرأه السامع لنفس فهمه غيره فهما مختلفاً. إلا أن المعجم يقحم معنى القراءة التي هي مفرد القراءات القرآنية ليحقق اتساقاً بين تعريف المادتين فيشفي على كلمة reading ما لا تعنيه في اللغة الإنجليزية، وهو طريقة التلظ.

والأفضل في هذه الحالة نقل الكلمة صوتية إلى اللغة الإنجليزية فتصبح qira'at، مع وضع عبارة تترجمها بدقة أكبر، ونقترح في هذا أن تكون الترجمة methods of articulating the Qur'an، أو methods of Qur'anic articulation.

تعريف المعجم: هو حمل كلام الغير على غير ما قصد. كقول ابن حجاج (٣٩١):

قال: ثقلتُ إذ أتيتُ مراراً قلتُ: ثقلتُ كاعلي بالأيدى

فثقلتُ في كلام صاحب حجاج معناه حملتُك المؤنة بكثرة زيارتي، فحمل ابن حجاج كلامه على معنى: ثقلتُ كاعلي بما أفدقت علي من نعم وأيد.

أو هو إن يجاب السائل بغير ما سأل عنه...

وعند ابن أبي الأصبغ (٦٥٤) في كتاب «تحرير التحبير»: القول بالوجوب هو رد الخصم كلام خصمه من لحوى كلامه...

تعليل: أورد المصنفان ثلاثة تعريفات ولم يترجما المصطلح بما يعطي معنى أي واحد من هذه التعريفات، بل لا تعطي الترجمة سوى معنى بيت ابن حجاج، لأن الترجمة الحرفية لتعبير deliberate equivocation الذي ترجما به المصطلح العربي هي: «التشريك اللفظي التعمد»، أي استخدام كلمة وردت في كلام المحاور بمعنى مغاير. وهذا خلاف ما تعطيه التعريفات، ولا يستفاد إلا من البيت المثل به. ويلاحظ أن كلمة «الخصم» الواردة في كلام ابن أبي الأصبغ غير دقيقة كما يتضح من المثال وأن التعريف الذي يعطيه المصنفان أدق نسيباً غير أنه لا يشير إلى أن في كثير من الأمثلة التي يمثل بها للقول بالوجوب يتضمن الكلام الثاني أو التعقيب شيئاً من لفظ للكلام الأول، كما في بيت ابن حجاج وكما في الآية المستشهد بها في المادة السابقة.

فنحن في هذين المثالين بإزاء ما ليس بمصطلح «عكس الآية»- رغم وجود المصطلح العربي- ترجم له بمصطلح. ثم نحن بإزاء مصطلح عربي هو الذي كان يجب استخدامه في المادة الأولى ترجم له بغير المصطلح الأجنبي الذي استخدم رغم ذلك في ترجمة ما ليس بمصطلح.

والمشكلة التي أدت إلى حدوث مثل هذا التشارب هي اعتماد «معجم المصطلحات العربية» في اللغة والأدب على «معجم مصطلحات الأدب»، مما أدى إلى تكرار بعض المواد مع اختلاف الترجمة، وإلى إدخال ما ليس بمصطلح في معجم للمصطلحات.

## ٢٨- الكناية metonymy ; المجاز المرسل hypallage; synecdoche

تظل ترجمة هذين المصطلحين مشكلة لكون مدلولي المصطلحين في اللغة العربية يتقاطعان مع مدلوليهما في اللغات الأوروبية، فكلمة metonymy تدل على كل الكتابة وجميع علاقات المجاز باستثناء علاقة البعض بالكل والعكس. وكلمة synecdoche تشير إلى علاقة البعض بالكل فقط وعليه فإن أية محاولة لترجمة إحدى المصطلحين العربيين بالمصطلحين الإنجليزيين أو العكس ستظل غير دقيقة بل وسفلية في كثير من الأحيان

## ٢٩- المجاز العقلي figure of thought

تعريف المعجم: هو إسناد الفعل إلى غير فاعله، كقولك: «بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد»، والحقيقة أنه لم يبنها وإنما بنيت بأمره.

تعليق: هذا مثال آخر على ما يحتاجه المعجم من تنقيح. فقد ترجم لتعبير المجاز العقلي بمصطلح إنجليزي استخدمه ترجمة من قبل لمصطلح آخر يختلف في معناه عن معنى المجاز العقلي وهو مصطلح الصورة البيانية. وهذا المصطلح الذي يبدو عربياً هو في الحقيقة ترجمة لمصطلح figure of thought المستقر في البلاغة الأوروبية لا العكس. وقد سبق الكلام على هذا المصطلح وترجمته في سادة رقم ٢٠. لذا فالأفضل ترجمة هذا النوع بـ metaphorical predication حيث إنه يتعلق بالإسناد كما مر أو trope of reason

## ٣٠- المذهب الكلامي theological doctrine

تعريف المعجم: هو أن يحتج على المطلوب بطريقة المتكلمين، أي بطريقة الجدل، وأن تستلزم الحجة المطلوب بعد التسليم بالمقدمات، ومثال ذلك قوله تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أعلم عليه، بمعنى أن إعادة الخلق أعون عليه من بدئه، فهي أدخل في الإمكان منه....»

تعليق: المذهب الكلامي كما يقرر التعريف هو سلوك طريقة المتكلمين في الحجاج وليس هو العقيدة الكلامية المتعلقة بالإلهيات كما تدل الترجمة. ولعل ترجمة المصطلح بـ manner of scholastic reasoning هو الأنسب، إذ إن هذا الترجمة التي يعطيها المصنفان تشير إلى اللاهوت الدراسي الذي هو في المسيحية نظير علم الكلام في الإسلام.

## خاتمة

لربما تعكس هذه الملاحظات ما هو خلاف الواقع الذي ينطق بما في هذا المعجم وسنابقه، أي "معجم مصطلحات الأدب" من جهد رائد يُبقى - رغم هذه الهنات - على هذين المعجمين عديدين في بابهما، أي باب ترجمة المصطلحات الأدبية واللغوية من الإنجليزية إلى اللغة العربية والعكس. ويتأكد هذا من بالنظر إلى أن المعجم محل الدراسة حوى ما يقرب من ألف وسبعمائة مصطلح وهو عدد ضخم من المصطلحات في عالم هذه المعاجم المتخصصة. فلم يزد عدد المصطلحات التي تضمنتها موسوعة برنسون في طبعتها الثانية الصادرة سنة ١٩٧٤ على سبيل المثال على ألف مصطلح، أما كان ما يمكن أن يقال عن اختلاف طريقة التناول والمساحة المعطاة لكل مصطلح، وهي تزيد كثيراً في الموسوعة المذكورة. ولا يخفى أن تتبع المصطلحات واستقصاؤها على كثرتها مع الترجمة لها هو جهد قائم بذاته بغض النظر عن كيفية عرض وتعريف كل مصطلح. إننا استجمع المعجم مقومات التميز وسعى لتيسير نقل

الثقافة العربية الكلاسيكية خاصة للغات الأروبية مع خوضه في مناطق وعرة تلتبس فيها المصطلحات وتتشابه التعريفات لا سيما مصطلحات البلاغة.

ومع اشتداد الحاجة إلى صدور مثل هذه المعاجم ونظراً لقلتها النسيبة ومع تطور دلالة بعض المصطلحات، فضلاً عن تواصل عملية نقل المصطلح واستقرار ترجمته له دون أخرى، يظل هذا المعجم وسابقه الذي يحمل اسم مجدي وهبة منفرداً بحجري أساس في المعاجم اللغوية والأدبية والبلاغية المتخصصة.

#### المراجع العربية:

- الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩١.
- الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٩.
- الجرجاني، محمد بن علي بن محمد. الإشارات والتنبهات في علم البلاغة. القاهرة: نهضة مصر، والنشر، ١٩٧٢.
- ابن جعفر، أبو الفرج قدامة. نقد الشعر. تحقيق كمال مصطفى. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩.
- الجمال، يوسف عبد الرحيم، وعبد الحميد إبراهيم شحبة. قاموس المصطلحات الإسلامية. القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٩١.
- الخفاجي، ابن سنان. سر الفصاحة. القاهرة: محمد علي صبيح، ١٩٥٣.
- رشدي، رشاد. فن القصة القصيرة. القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٤.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٢.
- البيوطي، جلال الدين. الإنشاق في علوم القرآن. القاهرة: دار المعرفة، دون تاريخ.
- الشهرستاني. الملل والنحل. القاهرة: الحلبي للنشر والتوزيع، دون تاريخ.
- طهانة، بدوي. دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث. القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٩.
- عتاني، محمد. المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي عربي. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، ٢٠٠٣.
- القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق عبد الحميد هندواي الحنّان. القاهرة: لحنّان للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.
- القبرواتي، ابن رشيق القبرواتي. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٥.
- المصري، ابن أبي الإصبع. بديع القرآن. القاهرة: نهضة مصر للنشر والتوزيع، دون تاريخ.
- مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. بيروت: مكتبة لبنان، ٢٠٠٧.
- وهبة، مجدي. معجم مصطلحات الأدب. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤.
- وهبة، مجدي وكامل المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

- Abrams, M. H. A Glossary of Literary Terms. New York: CBS, 1987.
- Bethell, S. L. "The Nature of Metaphysical Wit". The Metaphysical Poets. (Casebook Series), Ed. Gerald Hammond. Houndmills: Macmillan, 1974. 129-56.
- Bowers, John Waite. "Dating 'A Figure of Thought' ". Metaphor and Symbolic Activity. 5(4), 249-250.
- Cuddon, J. A. A Dictionary of Literary Terms. London: Penguin, 1979.
- Dupriez, Bernard. A Dictionary of Literary Devices, trans. Albert Halsall. Toronto: University of Toronto Press, 1991.
- Fowler, Roger [ed.]. A Dictionary of Modern Critical Terms. London: Routledge, 1973.
- Kennedy, George A. New Testament Interpretation Through Rhetorical Criticism. Chapel Hill: UNC Press, 1984.
- Preminger, Alex et al. The Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics. Princeton: Princeton University Press, 1993.

مجرى و هبة

يوليو جبرافيا



ماهر شفيق فريد

١) أعمال باللغة العربية

كتب ومقالات ودراسات

- مقالات في الأدب والسياسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠.

- الأدب المقارن ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩١.

- له مقالات متفرقة بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، لم يجمع أغلبها بعد بين دفتي

كتاب ، في الصحف والمجلات والدوريات الآتية :

Le Courrier de L'UNESCO; Journal of World History (UNESCO);  
Encounter (London); Journal of Arabic Literature (Leyden); Fusul (Cairo);  
Alam Al-fikr (Kuwait); Al-Qahira (Cairo); Shmu' (Nicosia); Al-Ahram Al-  
Iqtissadi (Cairo); As-siyassa Ad-dawliya (Cairo), Al-Ahram (Cairo); Al-  
Masrah (Cairo); Hiwar (Beirut).

تتناول :

- مسرحيات شكسبير التاريخية والسياسية.

- الحياة البدائية في الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر.

- رواية باسترناك "دكتور جيغاكو".

- التنظيم الاقتصادي والاجتماعي للقاهرة القرن ١٨.

- أزمات الثقافة العربي المعاصر.

- عرض لكتاب أنبرت حوراني (المؤلف بالإنجليزية) "الفكر العربي في عصر الليبرالية

(١٨٧٨-١٩٣٩)".

- عرض لكتاب د. محمد مصطفى بدوى (المؤلف بالإنجليزية) عن بدايات المسرح العربي.
- أية أيديولوجيا؟
- ملحمة "بيولف" الأنجلوسكسونية.
- في قلق المثقفين العرب.

### ترجمات

- أعمال مترجمة من اللغة الإنجليزية / واللغة الفرنسية إلى اللغة العربية
- فرانز كافكا، رسائل إلى ملينا (بالاشتراك مع أحمد أبو زيد).
- فرانز كافكا، رسالة إلى أبي (بالاشتراك مع أحمد أبو زيد) في كتاب: لمحات من كافكا (بالإنجليزية والفرنسية والعربية) القاهرة يونية ١٩٥٤.
- ستفن ستندر، وظيفة الشاعر، جريدة الأهرام (ضاح مني تاريخها).
- قدماء الإنجليز وملحمة بيولف، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٤.
- صمويل جونسون، رسائل أمير الحبشة (بالاشتراك مع كامل المهندس) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩.
- جيفرى تشوسر، حكايات كانتربوري (بالاشتراك مع د. عبد الحميد ميونس) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.
- ت. تاتاركيفتش، تصنيف الفنون، مجلة فصول، القاهرة، يناير فبراير مارس ١٩٨٥.
- جان جيروودو- لن تقوم حرب بلروادة. مجلة المسرح، القاهرة، مارس ١٩٦٤.
- جان أنوي، أردبيل، مجلة المسرح، القاهرة، فبراير ١٩٦٥.
- كتب مقدمة لترجمة الفنان ريمس يونان لديوان آرثر رامبو "فصل في الجحيم"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣.
- راجع ترجمة محمد عناني لقالة جون دريدن "في الشعر السرحي" وكتب لها مقدمة طويلة، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٤.
- راجع على الأصل اللاتيني ترجمة د. ثروت عكاشة للقصيدتين القائمتين: مسخ الكائنات لأوفيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- فن الهوى لأوفيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.

أعمال مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية/ ومن اللغة الفرنسية:

- Ibrahim Abd El-Qader El Mazini, Ibrahim The Writer, Cairo: General Egyptian Book Organisation 1976.



- Tahs Hussein. The Dreams of sheherazade. Cairo: General Egyptian Book Organisation, 1974,

- René Huyghe. Three Lectures on Art. Cairo: National Bank of Egypt, 1965.

- Saheir El Kalamawi, Nanny Karime and the Mammasun; in Mahmoud Manzalaoui (ed.) Arabic short stories 1945-1965, The American University In Cairo Press, Second Printing 1986.

## ٢ أعمال باللغة الإنجليزية (والفرنسية)

Cultural Policy in Egypt. UNESCO, 1972.

Alessandro Manzoni: A Centenary Tribute. Cairo: Instituto Italiano di Cultura per la R.A.E., 1973!

"Madame de Gentis in England", Comparative Literature XIII, Summer 1961.

"Mary Hays, Novelist and Dreamer", the Annual Bulletin of English Studies, 1953.

"Pride and Prejudice in the Eighteenth Century", The Annual Bulletin of English Studies, 1954.

"La Mort Ambigue", in Allusion à kafka. Le Caire, 1954.

"A Note on the Manner of Concluding in Rasselas", Cairo Studies in English, Cairo: Anglo-Egyptian Bookshop, 1959.

"Vissarion Belensky and the Dilemma of Nationality", Cairo Studies in English, Cairo: Anglo-Egyptian Bookshop, Vol. XXXII, 1978.

"George Eliot and Ludwig Feuerbach", in Centenary Essays on George Eliot, Cairo: General Egyptian Book Organization, 1981.

"Textual Relations and Encyclopaedic Order in the Work of Larousse", All. The American University in Cairo, Spring 1982.

"An Anger Observed, Journal of Arabic Literature, 1987.

(نقل هذه المقالة إلى العربية زهير على شاكرو في كتبه يحمل عنوان "نفس مرتقب" مطبعة الدنى القاهرة ١٩٩٦. والمقالة تحليل لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا " لمحمود محمد شاكرو).

رسائل جامعية (غير منشورة):

- The Treatment of Villains in Polemical Novels 1780-1815, University of Oxford 1953 (B.Litt).
- The Literature of Polite Education in England from 1780 to 1800, University of Oxford 1957 (Ph.D.)

قواميس (إنجليزية / عربية / فرنسية):

- Al-Nafees, Egyptian International Publishing Company Longman, Cairo 2000.
- An Arabic Phrase Book for Use in the U.A.R., Hachette-L.D.F., Cairo, 1964.

An English-Arabic Vocabulary of Scientific, Technical and Cultural Terms. L.D.F., Cairo, 1968.

"Contribution a l'Etude du Vocabulaire Arabe de la Critique Litteraire" (With Charles Vial). Arabica XVII, Fasc 1, 1970.

A Dictionary of Cinema, English-French-Arabic (With Ahmad Kamil Mursi), Ministry of Culture: General Egyptian Book Organization, Cairo, 1973.

A Dictionary of Literary Terms, English-French-Arabic. Beirut: Librairie du Liban, 1974: 2nd edition, 1985.

A Dictionary of Arabic Linguistic and Literary Terms (With Kamil El Muhandis). Librairie du Liban, Beirut, 1979; 2nd edition, 1984.

A Dictionary of Modern Political Idiom, English-French-Arabic, with an index of French and Arabic terms (with Wagdi Rizk Ghali) Beirut: Librairie du Liban, 1978; 2nd edition, 1986.

"Al Mukhtar", A Concise English-Arabic Dictionary. Beirut: Librairie du Liban, 1989.

كتب حررها باللغة الإنجليزية / والفرنسية:

Vues sur Kierkegaard. S.O.P., Cairo, 1958.

Johnsonian Studies. S.O.P., Cairo, 1962.

Cairo Studies in English. S.O.P., Cairo, 1954-1966.

Sixteenth and Seventeenth Century Verse. Cairo: Anglo-Egyptian bookshop, 1958; 3rd edition, 1971.

Bicentenary Essays on Rasselas. Cairo, 1959.

Centenary Essays on George Eliot. Cairo: General Egyptian Book Organization, 1981.

### كتابات عن مجدى وهبة:

Cairo Studies in English : Essays in Honour of Magdi Wahba, Special issue 1990, The Department of English language and literature, University of Cairo (contains: foreword by Hoda Gindi, A Biographical Note' by Maher Farid, Homage to a teacher' by Mohammad Enani

- د. فاطمة موسى محمود، دراسات عن جونسون، مجلة العجلة، القاهرة أغسطس ١٩٦٢ (أعيد طبعها في كتابها: بين أدبين - دراسات في الأدب العربي والإنجليزي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥).

- د. لويس عوض، حوار الشاطئين، في كتابه: ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الآداب، بيروت. نوفمبر ١٩٧٤ (نشرت المقالة لأول مرة في جريدة الأهرام ١٩٧٣/١/٢٦).

- ماهر شفيق فريد، هوامش ثقافية، دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٤ (مقالة: التفسير: معجم إنجليزي - عربي للألفية الثالثة).

- ماهر شفيق فريد، دراسات نقدية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ (مقالة "مجدي وهبة مترجما" - نشرت لأول مرة في مجلة: أدب ونقد، القاهرة مارس ١٩٩٧).

- د. ميلا بديع عبد الملك، مجلة إبداع، القاهرة نوفمبر ١٩٩٥.

- فريدة النقاش، مجلة أدب ونقد، القاهرة، أكتوبر ١٩٩٦.



### الأسعار في البلاد العربية :

الكويت دينار - السعودية ٢٠ ريال - سوريا ١٠٠ ليرة - المغرب ٧٥ درهما - سلطنة عمان ٣ ريال - العراق دينار - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - البحرين دينار - الجمهورية اليمنية ٥٠٠ ريال - الأردن دينار - قطر ١٥ ريال - غزة / القدس دولار - تونس ٥.٢٠٠ دينار - السودان ٥٠ جنيه - الجزائر ١٥ دينار - ليبيا دينار - الإمارات ١٥ درهما - دبي / أبو ظبي ١٥ درهما .

### • الاشتراكات من الداخل :

عن سنة ( أربعة أعداد ) ٩٠ جنيه + مصاريف البريد ١٠ جنيهات - ترسل الاشتراكات بحوالة برقية حكومية .

### • الاشتراكات من الخارج :

عن سنة ( أربعة أعداد ) ٢٠ دولاراً للأفراد - ٣٠ دولاراً للهيئات - مضاف إليها مصاريف البريد (البلاد العربية - ما يعادل ١٠ دولارات ) ( أمريكا وأوروبا ١٦ دولاراً )

الصبر : عشرة جنيهات .

ترسل الاشتراكات على العنوان التالي :

مجلة فصول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - كورنيش النيل - دجلة بولاق - القاهرة ج.م.ع.  
تليفون : ٥٧٩٩٦٣٥ - ٥٧٧٥٠٠٠ - ٥٧٧٥١٠٩ - ٥٧٧٥٢٢٨ - فاكس : ٥٧٥٤٢١٣ - ٥٧٩٩٦٣٥

الإعلانات : يتلقى عليها مع إدارة المجلة.

البريد الإلكتروني : [fossoul2002@hotmail.com](mailto:fossoul2002@hotmail.com)  
[fossoul2008@yahoo.com](mailto:fossoul2008@yahoo.com)

رقم الإيداع ٦١٠٠ / ١٩٨٠

ISSN 1110 - 0702





الهيئة المصرية العامة للكتاب

عشرة جنيهات